الطبعة الثالثة

فايز الكندري

البلاء الشديد والميلاد الجديد

أربعة عشر عاما في غوانتانامو



مركز طروس للنشر والتوزيع
متخصصون في دراسات الشرق الأوسط



البلاء الشديد..
والميلاد الجديد

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ❁ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ❁ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ❁ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ❁ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧ ـ ١٤١]

لن أسعى لإقناعك
لكني سأسعى لأضع الحقيقة بين يديك

البلاء الشديد والميلاد الجديد
تأليف :فايز الكندري
الطبعة الثالثة : 1442 هـ - 2021 م
قياس القطع 17*24
ردمك : 978-614-431-762-4
رقم الإيداع: 2019/0256-6

مركز طـــروس للنشر والتوزيــــــع
- هاتف : 0096590090146
- البريد الالكتروني : torousq8@gmail.com
- تويتر : @Torous_ME
- الموقع الالكتروني : www.torous-center.com
- العنوان : الكويت - الري - قطعة ١- قسيمة ١٥٧٣
/ مقابل مجمع الأفنيوز





المحتويات

الإهداء

إليكما يا تنهدات أشواقي ويا أطياف أحلامي ... إليكما يا حزني وفرحي ويا ألمي وأملي .. إليكما يا جرحي الذي لم يندمل ويا دوائي الذي لم يوضع على ذلك الجرح ...

إليكما يا نبضة القلب المتلهف وارتعاشة الشوق المترقب لحظة اللقاء بعد أربعة عشر عامًا ... أمي وأبي

إلى أهلي الذين خلفوني في والديّ بخير

إلى زوجتي الوفية لعهد الأمس وميثاق اليوم

إلى السر الذي لاح في رؤيا الأسر فرأيته في واقع الحرية

إلى فتية آمنوا بربهم، حبست أجسادهم بتهمة تحرير أمتهم، لا زالوا يعيشون هذا الكتاب دون أن يقرؤوه

إلى الأحرار الذين هتفوا بالحرية لكل من حرم منها ظلمًا

إلى السجان الذي لم يعلم أن تعذيبه قد كشف لي مكنون القرآن لأعرف المَلِك من كُوَّة الملكوت

إلى أمة مُكّنت في الأرض وأوتيَت من كل أسباب النصر سببًا فلم تَتْبع سببًا !

ورثت أمجاد السابقين فكانت كما قال المُتَحَسِّر:

زَوامِـل للأمجـاد لا علـم عنـدها بمُثْقِلِهـا إلا كعِلْـم الأبـاعِرِ

لَعَمْـرُك مـا يـدري البعيـرُ إذا غـدا بِأَوْسَـاقِهِ أو راح مـا في الغرائـرِ

حُمِّلوا أمانة الاستخلاف فاستثقلوا تكاليف السيادة

رأوا أَسْمالَهم فظنوا أنفسَهم عبيدًا . .

ولم يروا التيجان على رؤوسهم ليعيشوا ملوكًا أحرارًا

طأطأوا رؤوسهم فتاهوا في البيداء . .

ولو رفعوا رؤوسهم لرأوا نجم الشمال

كالعِيسِ في البيداء يقتلها الظَّما والماء فوق ظهورها محمولُ

إلى تلك الأمة الهائمة التي أهيم بها حبًا

أو لعلي أخاطب جيلًا لم يولد بعد . . يَحُفّون يوشَع هذه الأمة؟؟

إلى كل هؤلاء أهدي هذا الكتاب .

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله على نعمه وأفضاله..

حمداً يليق بجلاله وجماله..

والصلاة والسلام على نبينا الذي دلنا علىٰ الله بحاله وقاله..

وعلى من بذلوا مهجهم لله من صحبه وآله..

ها هي الطبعة الثالثة من الكتاب، بعد نفاد سابقتيها في وقت قصير، وهي إكمالٌ للطبعة الثانية التي أضفنا فيها بعض القصص، كما وثقنا الأحداث بالتواريخ كي يكتمل التسلسل الزمني لدى القارئ، وصححنا الأخطاء المطبعية التي نَدَّت منا سهوًا..

فاللهم تقبلها منا إنك أنت السميع العليم،

وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

فايز الكندري

٢٧/ ١/ ٢٠٢١م

مقدمة

لم يَدْر في خَلَدي يوماً أني سأقع أسيراً في قبضة الولايات المتحدة الأمريكية. لقد دخلت عالم السجون، عالماً لطالما قرأت عنه، لقد خرجت من عالمي الإنساني إلى عالم آخر متوحش لا يمت للإنسانية بصلة.

لم تكن غوانتانامو أسوأ سجن في التاريخ البشري، هناك سجون أشد توحشاً كالتي يديرها زبانية (بشار)، لكن الذي يميز غوانتانامو عن غيرها أن تمثال الحرية هو من بنى هذا المعتقل بيديه ثم أحرق المعتقلين بشعلته. لقد مورس فيها التعذيب باسم الإنسانية، وارتدى الظلم رداء العدالة، وانتهك القانون باسم القانون. إن تشويه القيم الأخلاقية أخطر من تشويه الأجساد، فالجريمة يسهل محاربتها عند استقرار القيم الأخلاقية في النفوس، فإن التبست الفضيلة بالرذيلة، وحلّ العهر مكان الطهر، ارْتَكَسَت البشرية في حَمْأَة الضلال، وصار الكل ضحية الظلم، بمن فيهم الظالم نفسه!

إن مشرِّع القانون الظالم ومنفذه يدمران البنية الأخلاقية في نفوسهما قبل غيرهما، نخطئ حين نظن أن تأثير الظلم يقتصر على المظلوم، بل يلاحق الظالم في أسرته ومجتمعه، ويتحول إلى ذئب مسعور تعود نهش الجثث، لن يعود ذلك الأب الرحيم الذي اعتاد أبناؤه على نظرته المتوددة وابتسامته الحانية حين يستقبلونه، لن يكون ذلك الزوج العطوف الذي يغدق على زوجته بمشاعر الحب والامتنان، ستظل صرخات المعذبين تلاحقه، وسيظل حبيس ذكريات مرعبة كان جزءاً من منظومتها، ليتحول إلى قنبلة موقوتة تنفجر في لحظة غضب. لقد أصبحت غوانتانامو مبرراً لكل الدكتاتوريات المتخلفة أن يمعنوا في التعذيب، لأن البلد المتطور قد مارس الشيء نفسه!!

عند شروعي في الكتابة واجهت عقبةً كؤوداً أخرتني عن الكتابة شهوراً عديدة، وهي أن غوانتانامو زاخرة بالأحداث المكتنزة بالدروس والعبر، آلاف القصص والأحداث التي عشتها أربعة عشر عاماً منذ افتتاح معسكر الاعتقال إلى نهايته، أضحكتني حيناً وأبكتني أحياناً، أسعدتني مرة وأحزنتني مرات ومرات، خلافاً للسجون

الأخرى التي تتصف بالرتابة والروتين الممل والحالة المستقرة باستثناء فترة التحقيق التي قد تستمر لأسابيع أو عدة أشهر، أما غوانتانامو فكموج البحر الذي لا يستقر على حال، فأنّى لي أن أستقصي أحداثها لأجمعها بين دفتي كتاب؟هذا ما تفنى دونه الأعمار، والعمر قصير، والأهداف كثيرة، فمن الغَبْن أن أسجن نفسي في قضية غوانتانامو دون أن أتعداها إلى غيرها، لذلك قررت أن أجعل غوانتانامو نقطة انطلاق إلى الميدان الرَّحْب، إلى أُسِّ الصراع بين الحق والباطل، إلى مفتاح الشقاء والسعادة معاً، إلى النفس البشرية التي تنطوي على الاعتقادات والأفكار والمبادئ التي قد تنشر الظلم والاستبداد والطغيان، وقد تنشر العدل والرحمة والإحسان.

نصحني كثير من الأحبة أن أتجاهل بعض الأحداث والحقائق التي عشتها خلال هذه التجربة حرصاً على كسب تعاطف الناس مع قضيتي، فإن ذكر بعض هذه الحقائق سيوقعني في فخ التصنيف!

لكني أرى أن من يخشى التصنيف سيعيش في هامش الحياة تابعاً منقاداً لمن لا يخشى التصنيف، وأن محاولة استدرار تعاطف الناس مقابل إخفاء الحقيقة غش وتدليس، عاقبته البوار، ومن أرضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، ومن يدير ظهره للحقيقة ستدير الحقيقة له ظهرها يوماً، فالشاهد على الحقيقة ليس طرفاً في الصراع، إن الموقف النبيل لا يهب العصمة لصاحبه، والزلة لا تلغي حسنات المحسن، ولن يكون لهذا الكتاب أي قيمة إن كان مبعثه إرضاء الناس، لأنهم متباينون في آرائهم المستندة على النزوات والتعصبات غالباً، إن القيمة تكمن في إثبات الحق المغاير وليس في الإشادة بالباطل المألوف، سأُنَحّي الناسَ جانباً وأضع الحقيقة نصب عيني، الحقيقة فقط، ستتناوشُني الألسن بسهامها وحرابها، سيرى البعضُ شكرَ من سعى في حريتي مداهنةً لذوي النفوذ، وسيرى آخرون في ذكري لقصص الأسرى تعاطفاً مع من يسميهم (إرهابيين)، سيلومني البعضُ في ذكر الجانب الإنساني لثُلّةٍ من الجنود الأمريكان، بينما يوجه آخرون إلي أصابع الاتهام حين أسرد جرائم الأمريكان في تاريخهم الأسود الطويل، ستكون حصيلة آراء الناس تجاهي هي أني إرهابي وبريء، معتدل ومتطرف، عقلاني ومتهور، شجاع وجبان، مخطئ ومصيب، كل هذه الأوصاف ستجتمع في شخص واحد حاول أن يقدم الحقيقة دون غيرها، ومن غير مكياج زائف قد يزينها أو يقبحها، كل حسب رأيه!

إن التجرد للحقيقة بعيداً عن الأهواء من شِيَم الكرام، لذلك سأرْويها دون إضافة أي نكهات إرضاءً للقراء، سأرويها بلا لون ولا طعم ولا رائحة، هي من تكتسب ذلك بنفسها ولست من يُضْفيها إليها، غير أني سأبوح بشيء من مشاعري فأَقِلُّوا عليّ اللومَ إن فاضت على الورق، فما عشته يفوق كلماتٍ تُقرأ في كتاب.

وقد يَعْتَب عليَّ أحبةٌ حين أذكر زلاتِنا ويرى مكانها طيّ الكتمان، وعذري أني لم أبح بها إلا ليتعظ بها السالكون، فالطريق لا يتضح إلا بعثرات السائرين، وزَلَّةُ قدمِ الرائد تكشف الحفرةَ المستترةَ لكل القافلة فتتَّقي سبل الهلاك، والإنسان ماديٌّ بطبعه، لا يقدس الرايةَ بل حاملَها، ولا الحقيقةَ بل المناديَ بها، لذا وجب علينا تحطيم هذه المادية فنفصل بين الدعوة والداعية بذكر أمجاد الدعوة وأخطاء الداعية، لئلا يُظن أن الوحي نزل لتقديس أشخاص يفنيهم الموت بل لتقديس منهج خالد يمنح الحياة، ولا أرى تلك العثرات إلا جمالاً لذلك النجاح الباهر الذي قطعوا فيه طريقاً لاحِباً وَعْراً يَعُجُّ بالمهالك، وأَضْفى على رحلتهم تلك صبغةً إنسانيةً تُحَفِّز اليائسين.

يجب أن أكون واضحاً من البداية، هناك قصص عجيبة وقعت لا يسمح لي ضميري أن أقولها ولا ديني أن أفشي أسماء أصحابها، وحسبي أن أستخرج موضع العبرة منها بأسماء مستعارة، تُبَلِّغُنا المقصود وتصرف عنا المحذور، أعتقد أنه لا يجب عليَّ أن أقول كل ما أعرف، لكن عليَّ أن أعرف كل ما أقول، إن ما أذكره في هذا الكتاب قد وقع فعلاً، قصص هي أقرب إلى الخيال، عشتها لحظة بلحظة أربعة عشر عاماً، لأضعها بين أيديكم دون بخس أو شطط، فإن بَلَغَتْ قلباً حياً يبحث عن الحقيقة ويُخْلِصُ لها فله كَتَبْتُ، وإن صادَفَتْ عيوناً متربصة وقلوباً حاقدة تُفَتِّشُ عما يُدِين، وتبحث عما يسوء، ترى بطشَ الظالم فلا تُبْصِر، ويصلها أنينُ المظلوم فلا تسمع، وتدعوها الحقيقة فلا تعقل بل تأبى أنَ تعقل، فلتبحث لها عن كتاب آخر تَتَسَلَّى فيه، فإن هذا الكتاب لم يكتب لمن لا يحمل بين جنبيه قلباً إنسانياً.

لسنا ملائكة كما يظن بنا المحبون ولسنا شياطين كما يظن بنا الحاقدون، لسنا على أتقى قلب رجل منا، ولسنا على أفجر قلب رجل منا، متفاوتون في التقوى والخُلُق والصبر، كما نحن متفاوتون في سبب وجودنا في أفغانستان واحتجازنا في غوانتانامو، متفاوتون في طبيعة قنطرة البلاء الذي اجتازها كل واحد منا، متفاوتون في نجاحنا باجتيازها، هكذا خُلِقْنا وهكذا نكون.

كانت تمر علي لحظات في الكتابة تفيض فيها مشاعري وتتجسد الذكريات أمامي حقيقية ألمسها بيدي، فلا أنتبه إلا والورقة مبللة، أنّى لي بنقل بحار من الأنين والتأوهات على صفحات الورق؟

كانت مشاعرَ جياشةً وأحاسيسَ مكبوتةً وأفكاراً مسجونةً أحاول الآن ترجمة شيء منها إلى كلمات، شيء منها لا كلها، فالمشاعر أعظم بكثير من أن تكون لها مرآة، وقد تمر عليك فقراتٌ في هذا الكتاب تظن أنك أدركت مغزاها لكنك حين تمر بتجربة مماثلة تدرك أن لها جانباً آخر لم يظهر لك إلا حين اختلفت الظروف التي عشتها.

لقد منعنا في غوانتانامو من استخدام الأقلام والأوراق إلا لعشر دقائق أسبوعياً عند كتابة الرسائل العائلية أو التواصل القانوني مع المحامي فيما يتعلق بالقضية حصراً دون غيرها، فانشغلت بالتواصل مع المحامين بعد اكتشافي أن الرسائل العائلية لا تصل إليهم غالباً، انتهزت الفرصة بكتابة الكثير من القصص والأحداث، وأدرجتها ضمن الحديث عن الشؤون القانونية المتعلقة بقضيتي، وبعد خمس سنين تم تمديد الوقت المسموح للكتابة إلى ساعة أسبوعياً، ثم أصبح الوقت مفتوحاً بعد اثنتي عشرة سنة للتواصل القانوني فحسب دون الحديث عن الظروف المعيشية داخل المعتقل، لكني كنت أصوغُها بطريقة تجعلها جزءاً لا يتجزأ من القضية، فختمتها إدارة المعتقل بختم: (approved)، مما ساعدني بشكل كبير على استحضار القصص والأحداث، كنت أكتب الساعات الطوال لأسابيع وأشهر حتى اسود ظفري وسقط بسبب صِغَر حجم القلم الذي تصعب الكتابة به، رآني بعض المعتقلين منهمكاً في الكتابة فقال مازحاً: لمن تكتب؟ هذه رواية وليست رسالة!!

قلت: هي كذلك.

: أنت تمزح!! وهل تظن أنك ستخرج من هذا البئر الذي وقعنا فيه؟ ألم يخبرك الأمريكان أنك لن تخرج من هذه الجزيرة إلا جثة هامدة؟؟

: ومن قال لك أن مفتاح فرجي بيدهم؟ والله ما شككت بالفرج طرفة عين، سأخرج بقوة الله، وأملأ صدري من نسيم الحرية، وسأعانق والِدَيَّ، وسأكمل هذا الكتاب، وأسميه بإذن الله (البلاء الشديد والميلاد الجديد).

لقد قررت كتابة هذا الكتاب بل وتحديد اسمه منذ الشهر الأول من قدومي المعتقل، في مايو سنة (٢٠٠٢)، لكني لم أتوقع حينها أن هناك أربعة عشر عاماً قادمة مُتْرَعَة بالآلام تنتظر مكانها في الكتاب!!

كنت موقناً بالفرج كيقيني أن بعد اليوم غداً ولَمَّا يكن في نهاية النفق بصيصُ أمل، لكني شممت أريجَه قبل رؤيته، وهَبَّت عليّ نسائمُه قبل معاينته، فأيقنت بقدومه قبل لقائه.

بعد رجوعي من غوانتانامو كنت أَلْحَظُ من البعض نظراتِ الشفقة والرثاء على عُمْرٍ طويلٍ ضاع خلف القضبان! مساكين.. ظنوا أني خسرت أربعةَ عشرَ عاماً من حياتي، لم يعلموا أن العمر لا قيمة له إلا حين نجد أنفسنا، وأنا لم أجد نفسي إلا في غوانتانامو، أرى أني رَبِحْتُ ما هو أعظم بكثير من مجرد زمنٍ ظَنَّ الواهمون أني خسرته، الكثيرون ظنوا أني لن أعود، لقد ظنوا أنها نهايتي لكني كنت أراها بدايتي الحقيقية.

إن الآلامَ المبرحةَ حين تُصاغُ كقصة فإنها تتحول من الألم إلى الإثارة، فآلامُ المعذَّبِ دراما ممتعةٌ تتسابق الجماهير إلى سماعها، لكن ثلةً قليلةً من بينهم يغوصون في أعماق القصة ويستخرجون دُرَرَها التي تجسَّدت في رجال عانوا سنين طويلة ليرسموا للأجيال تحفةً فنيةً بريشةِ الألم، والذي لولاه ما اكتسبت الألوانُ رَوْنَقَها ولا الرسومُ رَوْعَتَها ولا المعاني بريقَها، لهذه الثلة كتبت تلك الكلمات، ولعل القدر شاء خروجي من ربقة الأسر لأشهد على الحقيقة المُغَيَّبَة خلف القضبان في الجزيرة البعيدة، أنا هنا لأشهد على الأحداث لا لأقيم الأفكار، سأبوح اليوم بأسراري للريح كي تبثها في كل الأقطار، أسرار قد ناء بحملها قلبي سنين طويلة، ما بين عدو تجهمني وصديق خذلني، وآخرين ما نسوا العهد الجميل فما نسيناهم..

وإنَّ أَوْلـى الـبَـرايـا أن تُـواسِـيَـهُ عند السرور الذي واساك في الحزنِ
إنَّ الـكـرام إذا مـا أَسْـهَـلـوا ذكـروا من كان يَعْتادُهم في المنزلِ الخشنِ

وبعد أربعة عشر عاماً في أشهر سجن عرفته البشرية أتساءل متعجباً: هل فعلاً لا زلنا أحياءً؟ كيف احتفظنا بإيماننا وعقولنا بعد كل المحاولات لتحطيم إنسانيتنا؟ حين أفتح كُوَّةً إلى الماضي وأتأمل ما كنت فيه أصاب بالذهول، كيف تَحَمَّلْنا كلَّ هذه الأهوال؟ كيف استطعت كتابة هذه الكلمات بعد كل هذا العذاب المتواصل، ما الذي يجعلنا لا نزال نحتفظ بعاطفتنا؟ لا زلنا نحب! نبكي للمنظر المؤلم ونضحك لابتسامة الطفل!

قطعاً ليس بحولنا ولا قوتنا، هناك سِرٌّ تَدَخَّلَ في الصراع لِيَقْلِبَ المعادلة!!

سأضع كل تجاربي بين أيديكم لأُبَرْهِن لكم أن السعادة الحقيقية لا تأتي من خارج الإنسان بل من داخله، هي ليست أقراصَ دواءٍ تتناولها، ولا وجبةً لذيذةً تلتهمُها، ولا قصراً مشيداً يؤويك، ولا سيارةً فارهةً تزهو بها أمام أقرانك، إنه فيض يتدفق من الداخل لا سيل يقتحمه من الخارج، هذا الفيض لن يتدفق إلا إذا عرفت سره واكتشفت الباب السحري الذي تختبئ وراءه أعظمُ قوةٍ على الإطلاق يمتلكها الإنسان في هذا الوجود، لقد استطاعت القوات الأمريكية أن تدمر البيوت وتدك الجبال وتهزم الجيوش وتسقط الدول، لكنها لم تستطع نزع الإيمان من قلوب أسرى عزل في زنازينهم الانفرادية!!

لقد منحتني غوانتانامو قلماً ظللت أُبْريه أربعة عشر عاماً، لقد وُلِدَت عصارتُه في رَحِمِ الألم، وتَشَكَّلَ حِبْرُه من قَطْرَتَيْ دمع ودم، وسيحين وقتُه ليكتب، لينطلق حراً في فضاءِ السطور، يبحث فيه عن عين حرة تنشد الطريق لأمة تائهة، وتأتي بالمفتاح المفقود من فم الأفعى، لتضعه في يد الجيل القادم قائلة: (ادخلوا عليهم الباب).

فإلى كل من أودع الله في قلبه الجوهرة فامتلأ صدره من نورها وأضاء في روحه بريقها، ها هي عصارة غوانتانامو بين يديك، فإما أن تنير بها مصباح قلبك، أو عَرِّفْها حتى يجدَها صاحبُها فإنما هي ضالة.

إلهي وسيدي ومولاي.. أدخلتني في فم الأفعى بحكمتك، وأخرجتني منه برحمتك، فَلَكَ أحيا وأموت، لقد أريتني في رِبْقَة الأسر من فيوض رحماتك وأسرار تَحَنُّنِك ما أخجلني، فاللهم كما حرّرتني من غوانتانامو فحرّرني مني كي أصل، حرّرني فقد طال شوقي وضعفت همتي وارتعشت قدماي المثقلتان بأصفاد الغفلة، أستغفرك حين أنرت لي الطريق فتقاعست عن المسير، وأستغفرك حين دعوتني إليك فانشغلت بالوهم عنك، وأستغفرك حين وهبتني الزاد لأرحل إليك فاستخدمته للهروب عنك، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

ذكريات:

وأخيراً أقلعت الطائرة، كانت تخترق السحاب لتحلق عالياً، بعيداً عن كل العذاب الذي أحكمت حول رقبتي قبضته الخانقة أربعة عشر عاماً، أحقاً حانت ساعة الخلاص؟ أحقاً انقضت آهات الألم وانصرمت ليالي السهد؟

كانت تتجاذبني المشاعر، الشوق إلى الأهل والأحباب، الحنين إلى الوطن، والأسف على أصحاب خلفتهم ورائي، ما الذي حدث بالضبط؟

عادت بي الذكريات إلى الوراء، لا زالت مستلقية على السرير الطبي تنتظر دخولها غرفة العمليات، كان قلبها يخفق بشدة، ليس خوفاً بل شوقاً لهذا المولود المرتقب، ومع فجر الثالث من يونيو سنة (١٩٧٥) اختلطت دموع الفرح مع تباريك الأهل، تناقلت الأيدي هذا المولود الجديد الذي لم يكن يعلم أن هناك الكثير من الأهوال في انتظاره!!

ترعرع هذا الغلام صغير البنية في أسرة محافظة تحب الدين وتجل الأخلاق وتعظّم الروابط الأسرية إلى حد التقديس، تميل إلى الصرامة نوعاً ما خاصة فيما يتعلق بالصلاة واحترام الآخرين، كان خجولاً يهرب من الاجتماعات العائلية الكبيرة التي يكثر فيها اللغط إلى حديقة المنزل أو غرفة خالية، وأحياناً إلى السطح كما حدث مرة في أحد الأعراس التي أقيمت في منزل أسرته، وحين ارتفعت صيحات الفرح والابتهاج تسلل خفية إلى السطح متوخياً الحذر من أن تلمحه أمه فتأمره بالبقاء كما فعلت في مناسبات سابقة كثيرة، لكن خجله هذا أخذ يتبدد شيئاً فشيئاً بعدما حرص والده على تحفيزه للمشاركة في النشاطات المدرسية المتعددة لتنمية مواهب الطلبة، وحين تم اختيار بعض المتفوقين ليتولوا نشاطات طابور الصباح كان هو من ضمنهم، ليصبح هو من يقرأ القرآن أمام التلاميذ في طابور الصباح، وأحياناً يقرأ حديثاً عن النبي ﷺ، وأحياناً أخرى يلقي على مسامع الطلبة بعض الحكم في اللغة العربية والإنجليزية، ولا يزال يتذكر حين كان يمسك الورقة أمام الميكروفون وهو يرفع صوته مردداً:

(tomorrow tomorrow not today always the lazy say)، ثم يقرأ ترجمتها التي اختلف فيها أساتذة الإنجليزي، ليختاروا في النهاية ترجمة معناها العام «لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد»، ثم يرجع إلى مكانه وهو يظن واهماً أنه أعطى التلاميذ درساً حاسماً سيجعلهم من هذه اللحظة يجتهدون في دروسهم ويغيرون نمط حياتهم!!

يذكر جيداً حين اشترى له والده قصة للأطفال بعنوان «الضفدع الفدائي» وكان يقرأ

متأثراً بصورة الضفدع في آخر القصة مضرجاً بدمائه حين ضحى من أجل قومه الضفادع، أخذه والداه مرة إلى السوق ليشتريا له لعبة كان بالقرب منها كتب للأطفال، وخيّراه بين اللعبة وكتاب كان على غلافه صورة قبة الصخرة التي كان يظن حينها أنها للمسجد الأقصى، فاختار قبة الصخرة، ثم يتفاجأ حين رجع إلى البيت أن الكتاب ليس قصة عن المسجد الأقصى بل أشعار لم يفهم منها شيئاً، وعلى الرغم من ذلك كان لا يخلد إلى النوم إلا وهو يتصفح الكتاب ويتأمل صور قبة الصخرة والمسجد الأقصى ويتجاهل الأشعار، المسجد الأقصى الذي يهيم به حباً ويلوح له في خياله يقظة ومناماً، يكون على هذه الحال حتى تميل يده رويداً فتأتي والدته لتغلق الكتاب والمصباح معاً بعد أن تطبع على وجنته قبلة حانية.

لازال يتذكر والده وهو يقص عليه عن أزمة المناخ المشهورة في الثمانينيات، حدثه عن الحفلات الباذخة التي كان يدعوه إليها بعض أصحاب الأرصدة المتخمة، كان يحدثه وابتسامة حزينة تحيط بها لحيته الخفيفة التي كانت تحتفظ بسوادها حينها، فلما سأله عن سبب رفضه حضورها لم يجبه سوى بقوله: (حضورها يمحق البركة يا ابني، كان فيها ما يسوء)، انطلقت منه ضحكة وهو يخبره بالخسائر الفادحة التي مني بها حين حلت أزمة المناخ: لست نادماً على هذه الأموال، أحمد الله على نعمة الدين، لو كانت هذه الأموال عندنا فإنك لا تدري أين سأكون وأين ستكون!

كانت الحرب سجالاً والتنافس على أشده بينه وبين زميل له يبادله نظرات التحدي والمنافسة فيمن يفوز بالمركز الأول على طلبة الفصل، اجتهد في ألا يخيب والديه الذين أغرقاه في حبهما واهتمامهما لدرجة أنه كان لا يمر أسبوع أو أسبوعان إلا وأبوه حاضر في المدرسة يسأل المعلمين عنه، استمر على عادته تلك طوال فترة المرحلة الابتدائية والمتوسطة والثانوية، أما أمه فكانت تستيقظ قبل الفجر لتهيئ له ما يحتاجه للاختبارات.

لكنه حين بدأ يخط شارب المراهقة تأرجح اجتهاده فحصل على المركز الثالث في الفصل للمرة الأولى في حياته، كان ذلك نذير شؤم حين رجع بالشهادة إلى منزله الذي تخيله محفوفاً بنعيق البوم والغربان، محاطاً بالأشباح، كانت نظرة والده العابسة كافية ليجتهد في إصلاح ذلك الذنب الفادح الذي ارتكبه في مرحلة الثالث الثانوي قبل السنة الأخيرة التي تحدد مستقبله الدراسي لاحقاً.

اعتاد الرجوع من المدرسة بصحبة اثنين من شباب المسجد، يقطعان بالحديث عناء المشي في شدة الحر حاملين حقائبهم الثقيلة، فينفصل أحدهم إلى بيته ثم يكملان المشوار، فيتوقفان ليقرأ كل منهما سورة العصر عملاً بحديث أبي مدينة الدارمي قال:

«كان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ ثم يسلم أحدهما على الآخر» (رواه أبو داود وصححه الألباني).

كان يشعر بمدد سماوي في سورة العصر يفيض على قلبه، يملأ روحه وقوداً إيمانياً يعينه وهو المراهق الذي يواجه أمواجاً عاتية من الشهوات متشبثاً بمركبه المهترئ الصغير.

ومنذ أن حاز شهادة التفوق فقد شعوره بالأمان الذي كان يشعر به حين كانت القرارات الحاسمة في حياته بيد والده العطوف، أما الآن فلابد أن يكون رجلاً يملك قراره ويتحمل نتائجه.

جاءه قبول من التعليم العالي ليكون ضمن بعثة دراسية لدراسة الطب في الولايات المتحدة أو الهندسة في بريطانيا، وقف متردداً أمام مفترق الطريق، بين مطاردة بريق الشهادة الجامعية وسط بحر لجي متلاطم يموج بظلمات الإلحاد والتفسخ الأخلاقي، وبين أن يبقى في عشه الدافئ الذي درج فيه، محاطاً بالجو الإيماني الذي اعتاد عليه وأنس به حتى أصبح هو الهواء الذي يملأ منه صدره حين يضيق.

سأل نفسه: هل كان فاقداً لهويته الحقيقية وأنه كان مجرد قشة حملها تيار جارف في طريقه ـ ولم يكن ذلك التيار سوى البيئة التي كان يعيشها ـ! أم أنه عثر على ضالته المفقودة وسعادته المنشودة في ذلك العش الإيماني الدافئ، وأنه اختار طريقه حراً دون إكراه أو إجبار حين شعر في ذلك العش بقيمة نفسه في الوجود، وأنه بدونه لن يكون سوى مجرد رقم إضافي في إحصائية عدد السكان أو فقاعة تائهة قدر لها أن تتخبط في الفضاء زمناً يسيراً قبل أن تنفجر وتتلاشى؟!

لم يستمر تردده طويلاً، اختار البقاء، أصبح أشد حماسة في الدعوة من ذي قبل، وازدحم برنامجه اليومي بالدروس الشرعية والمواعظ الإيمانية والأنشطة الرياضية والثقافية وتوزيع الأشرطة الوعظية والكتيبات الإرشادية على المارة في الأسواق والمجمعات، وحين يرفض أحدهم قبول هديته يشعر بالإحراج والضيق والاستياء، كان شعوره بالإهانة يجعل مهمته الدعوية مرهقة له نفسياً، إذ لم يتعود تعريض نفسه لهذه المواقف، كيف لا وهو الخجول الحساس الذي كان كثيراً ما يرفض أعطية جدته النقدية وهو فتى صغير، فتضطر إلى دسها بالقوة في جيبه، فينسل من بين يديها بخفة ليلقي المال هارباً، بل بلغ به خجله إلى أنه استحى وهو في بداية دراسته في كلية الهندسة أن يطلب من والده مالاً لتزويد سيارته بالوقود إلى أن توقفت به في إحدى الشوارع الرئيسية لنفاد الوقود!! كيف بصاحب هذه النفسية تعريض مشاعره الحساسة لهذا النوع من الإحراج؟

خلا بنفسه ليلة بعد موقف محرج حين رفض أحدهم شريطاً عن الجنة بعنف وازدراء، أخذ يحاور نفسه: أنت مجرد مندوب مبيعات ومسوق لبضاعة لا شأن لك في الموضوع أصلاً، الداعية يمثل الفكرة ولا يمثل نفسه، هو حين يرفع راية الإسلام فإنه من لحظته قد خرج من (الأنا) وذاب في الراية، يخرج من حظوظه وكبريائه وأنفته ليوصل الفكرة كما هي إلى الناس، ليختاروا هم بكامل حريتهم ما بين القبول والرفض، ثم يتحملوا نتائج هذا الاختيار.

لقد كان طري العود في الدعوة، كعشبة ضعيفة قد ولدت لتوها من رحم الأرض فأبصرت عيناها نور الشمس، عشبة مترنحة تفيئها الريح ذات اليمين وذات الشمال، لكنها على الرغم من ضعفها وخورها قررت مواصلة مسيرها نحو السماء، فإما أن تموت بدائها أو تصل إلى دوائها، كنت مدركاً ضعفي ومدركاً أكثر أن خطوة مني تعني ألف خطوة منه!! **«ومن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ومن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»**.

غزو الجار:

خرجنا مع شباب المسجد يوم الأربعاء (١ ـ ٨ ـ ١٩٩٠) في رحلة تستمر يومين إلى إحدى المنتزهات، انقضى الأربعاء ببرنامج مكثف دعوي وثقافي ورياضي، ثم ختم بركيعات يؤديها كل واحد على انفراد قبل أن يخلد إلى النوم استعداداً لصلاة الفجر، أطل الفجر برأسه وهو يرقب سكان هذه البلدة الذين لا يعلمون أنه قد خلف وراءه جيشاً عرمرماً قرر تحرير القدس عن طريق احتلال الكويت!!

قرأ بنا الإمام بصوته الهادئ آيات بثت في قلوبنا جواً من الراحة والطمأنينة ثم شرعنا في أذكار الصباح، كنا نسمع خلالها أصوات انفجارات ظنناها مناورات للجيش الكويتي، وبعدها ألقى علينا أحدهم درساً لا أذكر موضوعه لكني أذكر جيداً أن أحد الإخوة (وهو الآن دكتور فاضل في كلية الشريعة) قد جاء متأخراً من المدينة وكان قد علم بالغزو العراقي، إلا أنه التزم الصمت حتى فرغ الشيخ من درسه، ثم قال بهدوء غريب: يا إخوة لقد غزا العراق بلدنا! ظنناه يمزح لولا أننا رأينا ملامح الجدية بادية على وجهه، سأله أحدهم مذهولاً: ولماذا لم تخبرنا مباشرة؟ فأجاب بكل ثقة: لم أشأ أن أقطع الدرس!!

لا يزالون يتندرون معه بهذه القصة التي توضح عدم استيعاب الكثير من الشعب الكويتي للصدمة، وفي طريق رجوعنا رأينا الدبابات العراقية تسير في شوارع المناطق، صدمة بمعنى الكلمة!

وصلتنا الأخبار بأن القوات العراقية أسرت مجموعة من الضباط الكويتيين من بينهم خالي ثم اقتادتهم إلى العراق، في غضون ذلك خرج ابن عمتي من بيته إلى قاعدة (الزور) العسكرية بعد أن سمع في الصباح الباكر أحد المسؤولين يقول في الإذاعة: (يا شباب الوطن لبوا نداء الوطن)، فانطلق مسرعاً، ساءه التخبط الذي أثار غضبه وجعله أكثر إصراراً على عدم العودة إلى المنزل، انقطعت عنا أخباره بعد أن وصلتنا الأنباء عن انسحابه مع جميع من كانوا في القاعدة إلى المملكة العربية السعودية، لكنه لم يطق الغربة فتسلل خفية من الحدود في مهمة عسكرية سرية ليعود إلينا.

كانت حالة الفوضى هي السائدة في البلاد، أسقط في أيدي الشعب، البعض رأى أن الحكمة تقتضي الخروج من البلد، وآخرون رأوا أن من الوفاء البقاء فيه، رأيت أحدهم يحاول إقناع والدي وعمي بالخروج بالأهل إلى أشقائنا في المملكة وهما يأبيان عليه، سمعت والدي يقول: كيف تطيب نفسه بالهروب؟

كنت حينها في الخامسة عشرة من عمري، فكرت في طريقة لإيصال رسالتي لأهل المسجد، هل أقف في المسجد أمام المصلين لأخبرهم أن ما أصابنا بسبب ذنوبنا؟ هل أقرأ عليهم قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾؟

لا أستطيع ذلك، فالناس لا تقبل النصيحة من غلام في سني لا يملك العلم والأسلوب والشجاعة الكافية لتوضيح رسالته، فقررت أن أكتب موعظة على لوحة ثم أعلقها في المسجد، صعدت إلى غرفتي وأحضرت القلم واللوحة، ولكن ماذا أكتب؟ أنا لا أحفظ من الأحاديث إلا النزر اليسير الذي تلقيته في المدرسة، أما القرآن فلا أحفظ منه حينها إلا ثلاثة أجزاء، أخذت القرآن وقررت أن أكتب أول آية تقع عيني عليها لتكون عظة للناس، ثم فتحت القرآن من غير تحديد وأنا مغمض العينين، فتحت عيني وإذا بأول آية تقع عليها هي قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾!

سبحان الله.. كانت موعظة من الله لنعود إليه، هكذا البلاء يعيد الإنسان الشارد إلى عشه الدافئ وعرينه المصون، يعيده إلى ربه الرحيم، لتكون كرة بعد فرة وتحليق بعد عثرة، وضربة سوط تنبه الغافل خير من صرة ذهب تستدرج الضال، كتبتها وعلقتها في المسجد.

كنت مستمتعاً جداً بهذه الأجواء التي كانت أقرب ما تكون إلى أفلام الإثارة، كل يوم مر علي خلال هذه الفترة له مذاقه الخاص ومغامرته المثيرة، ازدادت دقات قلبي فرحاً وابتهاجاً حين عاد والدي من المخفر وهو يخبرني أنه أدرجني ضمن قائمة المستعدين للدفاع عن البلد تمهيداً لتوزيع السلاح عليهم، وكم كانت خيبتي كبيرة حين

علمت أن مخازن السلاح مغلقة وأن هناك أوامر بمنع توزيع السلاح على الشعب للدفاع عن نفسه!

بدأت الأعداد تتزايد في المسجد، حتى امتلأ بالصغار والكبار، مما أتاح الفرصة بأن تكون شرارة الانطلاقة لتنظيم شؤون الأهالي من المسجد.

هنا بدأ منخل البلاء في عمله فانكشفت معادن الرجال، ازداد بريق بعض شباب المسجد ممن تربى فيه، وانضم إليهم بعض شباب المنطقة، وظهر زيف آخرين فتهربوا من المسؤولية وآثروا الراحة والسلامة.

كانت أيام الغزو هزة عنيفة أيقظتني من سبات غفلة كانت تحيط بي حتى وأنا أشارك شباب المسجد برامجهم من التحفيظ والمواعظ والمسابقات الثقافية والرياضية، كانت مشاعر التنافس مع الأقران طاغية على الحب المتجرد المتوجه إلى السماء، كنت كصبي بحضرة والده، تعمل يداه في طاعته بينما تشرد عينه مع الصبية في الفلاة يلعبون، غلام يافع يرفرف به خياله في عالم المثاليات بينما يرديه الواقع الصعب أرضاً فيأبى الاستسلام ويكون التحدي ثم الحرب السجال، يوم له ويوم عليه.

كنا نستيقظ قبل الفجر لنستعد للصلاة في المسجد ثم ننطلق مباشرة إلى المخبز لنأخذ دورنا في طابور طويل جداً ليأخذ كل واحد منا كيسين من الخبز، وقد يصله الدور منتصف الضحى بسبب الازدحام وقلة الطحين وندرة العاملين الذين هربوا من الكويت بعد الغزو ليتولى عملية الخبز شباب كويتيون متطوعون لخدمة الأهالي، نركب الشاحنات ونذهب إلى مخازن الطعام التي سمح لنا أصحابها أن نأخذ منها ما يكفي الأهالي بدلاً من أن يسرقها البعثيون، نحمل صناديق المعلبات المتنوعة وأكياس الرز فوق ظهورنا حتى نملأ الشاحنة، يزن الواحد منها خمسين كيلو، وماذا عسى لفتيان مبتدئين في امتهان الكد والعناء إلا أن يدفعوا ضريبتها كآلام الظهر والرقبة بسبب الطريقة الخاطئة التي كنا نحمل بها هذه الأوزان الثقيلة؟ بل أصيب بعضنا بانزلاق غضروفي جعله يعاني منه سنين طويلة، ثم نعود أدراجنا إلى المنطقة لنفرغ الشاحنة من حمولتها في أحد البيوت التي هجرها أهلها بعد الغزو أو داهمهم الغزو وهم خارج الكويت ولم يستطيعوا العودة مجدداً، ثم نعود إلى منازلنا منهكي القوى ترتجف أطرافنا من الإجهاد الذي اعتدنا عليه بعد أشهر قليلة ليصبح جزءاً من حياتنا.

لقد تحول الشباب الذي اعتاد حياة الرغد في طرفة عين إلى لحام وسباك وميكانيكي وحمال بل وزبال يخدمون أهالي المنطقة بلا مقابل، كما امتهن آخرون بعض الحرف ليكسبوا قوت يومهم بعد توقف عجلة الحياة تقريباً.

النفس البشرية مرنة للغاية، تتشكل وفق القالب الذي تضع نفسها فيه، قد يكون هذا القالب أحداثاً وظروفاً وقد يكون أفكاراً، أما قالب الظروف والأحداث فتجتمع فيه جميع الكائنات، في حين أن قالب الأفكار يظهر فيه سمو النفس البشرية عن غيرها، لأن قالبها نابع من داخلها وليس مفروضاً عليها من الخارج.

من المواقف التي مرت بي أثناء الغزو أني رأيت زجاجة خمر ملقاة على قارعة الطريق، وهذا يعد أمراً غير مألوف في الكويت التي تمنع تعاطي الخمر وبيعه، لكنها ازدادت بشكل ملحوظ بعد الغزو حيث كان يجلبها الجيش البعثي من العراق، اقتربت من زجاجة الخمر وكأني أقترب من أفعى سامة تريد أن تلدغني، أخذت عصا أقلب الزجاجة، كنت أظن أن لمس الخمر كشربها!

وفي السابع من أغسطس خرجت مجموعة من الأهالي في مسيرة تندد بالغزو العراقي فقوبلت بالرصاص، اخترقت إحداها جسد أحد أقربائي عبد الرحمن محمد الكندري فأردته قتيلاً، وكان حينها طالباً في كلية الهندسة، كانت رسالة واضحة من الجيش البعثي أننا مصممون على هدفنا ولو بالدم.

وفي صباح يوم كئيب تجمعت سيارات عسكرية كثيرة أمام بيت مقابل لبيتنا. أنزلوا أحد الشباب الكويتيين مغمض العينين ثم دقوا الباب لتخرج الأم وقتلوه أمامها، كنت أشاهدهم من نافذة البيت. كان مشهداً مؤثراً أكد لي أننا نواجه جيشاً متوحشاً يلهي الجماهير السادرة عن جرائمه بتصريحات عنترية وصور القائد الفاتح الملهم الذي سار على خطا من ملأ الفضاء بتهديد إسرائيل قائلا «تجوّع يا سمك حنرميهم في البحر»!

كان يقولها وطائراته العسكرية تحترق في مطارها قبل أن تتحرك متراً في سنة ١٩٦٧، كلاهما نجح في خداع الشعوب والجماعات الإسلامية على حد سواء، لا لذكائهما بل لغباء القطيع المخدوع الذي كان يبحث عن كبش يقوده فأعطى زمامه لذئب يضع على رأسه قرنين!!

جاءني صاحبي الذي يكبرني بثلاث سنين بعد صلاة العشاء، ودعاني لمرافقته إلى مخفر منطقتنا للاستفسار عن (سليمان الفايز) أحد أصحابنا من شباب المسجد بعد اختطافه من قبل الجيش البعثي، كان شعلة من النشاط في الدعوة ومساعدة الأهالي وتوفير ما يحتاجونه من غذاء وأنابيب غاز وإزالة مخلفات يؤذي تجمعها أهل المنطقة ثم حرقها في أماكن معزولة، يحفظ نصف القرآن، تم اختطافه دون أدنى سبب.

وصلنا المخفر وطلبنا لقاء الضابط، وحين سألنا الجنود عن السبب أخبرناهم أننا نسأل عن مصير صديق لنا مخطوف، كم كنا متهورين!

كان معهم جندي متعاطف أرشدنا للذهاب إلى مدرسة (الشهداء) القريبة التي أصبحت ثكنة عسكرية للحرس الجمهوري، كانت الكهرباء مقطوعة، ترجلت وصاحبي من السيارة، اقتربنا من المدرسة والظلام يعم المكان، من حسن حظنا أن الجنود لم يفرغوا مخزن الطلقات في رؤوسنا التي أعماها التهور، صرخ الجنود فينا بالتوقف فوراً، توقفنا، اقتربوا منا مدججين بأسلحتهم الرشاشة، لمحت جندياً أعلى المدرسة بين يديه سلاح رشاش مضاد للطيران، اجتمع علينا الجنود وهم يحملون أسلحتهم الموجهة إلى الأرض ولكنهم كانوا على أهبة الاستعداد لأي طارئ.

تولى صاحبي مهمة الحديث مع الجنود في حين أني التزمت الصمت مكتفياً بالنظر هنا وهناك مستمتعاً بهذه المغامرة المثيرة التي اقتربت فيها من الغزاة الذين أخطؤوا طريقهم إلى فلسطين!

وبينما كان صاحبي يحاول أن يستعلم عن حال سليمان من أحد الجنود إذا بصرخة غاضبة تنبعث من داخل المدرسة (يا علي)! اضطرب الجنود متسمرين في مكانهم، كان الخوف سيد الموقف، خرج إلينا ضابط رشيق القوام كأنما قُدَّ جسده من صم الصخور، توجه نحو الجندي الذي كان يحدثنا، ثم انفجر في وجهه: (علي.. ألم أنهك عن الحديث مع أي شخص غريب حتى تستأذنني؟) ارتجف الجندي ذعراً.

: ادخل.. حسابي معك لاحقاً!

كان هذا الموقف لا يبشر بالخير، إذا كان كلام الضابط مع أحد أفراده بهذا العنف فكيف سيكون كلامه معنا؟ دب فينا القلق والتوجس، اقترب منا بخطا متكبرة وأنف شامخ متغطرس حتى كاد أنفه يلامس أنف صاحبي الذي كان يفوق الضابط طولاً.

: (أيش تريدون)؟

: نبحث عن صاحب لنا مخطوف دون ذنب.

انطلقت منه ضحكة ساخرة ثم قال: (لو كان عندنا لرمينا بجثته أمام منزله منذ اللحظة الأولى من اعتقاله)!

ثم نظر إلي مستهزئاً وضرب على كتفي، لم يتكلم معي لكني فهمت من ابتسامته الساخرة أنه يستغرب من جرأة هذا الفتى اليافع الذي جاء إلى هذه الثكنة العسكرية في هذا الظلام، لم يعلم أنها ليست جرأة بل تهور وسذاجة كسذاجة غلام ذهب إلى لبؤة يطلب منها استرجاع أخيه الذي اختطفته.

رجعت إلى البيت وأنا أرى أني نجوت بأعجوبة، كتمت سر هذه (الغزوة) عن والدي وأهلي حتى لا أعاقب بمنعي من الخروج مرة أخرى، ولم أكشف سر هذه المغامرة إلا بعد التحرير، كنت أحدثهم عنها وكأني أنا من حرر الكويت من براثن البعث!

في غضون الضربة الجوية ازداد الوضع توتراً في منطقتنا (الرميثية)، كان الظلام دامساً لانقطاع الكهرباء، فكنا نجتمع حول ضوء شمعة نستمع إلى الراديو نبحث عن خبر مبشر دون جدوى، كم كنت ساذجاً حين بحثت عن الطمأنينة والشعور بالأمن في راديو ثرثار يزيد القلب قلقاً واضطراباً، وغفلت عن تلك السجادة المركونة في زاوية الغرفة لأصف قدمي عليها وأحلق عالياً كالسندباد على بساطه، أنظر في ملكوت السماوات والأرض وتقلب الأحداث ومداولة النصر لأفهم سر الاختبار ومعنى البلاء.

كنت ألمح في بيتنا خال والدي، ذلك العابد الذي لا نكاد نسمع صوته، يقضي يومه ما بين صلاة وتلاوة وذكر، قد أشغله هول ما بعد الموت عما قبله، علمني حاله لا مقاله أن من أهم أسباب سكينة القلب وطمأنينة الروح والثبات عند الشدائد هو تذكر الموت وما بعد الموت، كان أشدنا شكيمة وأربطنا جأشاً، راق لي في آخر أيام الضربة الجوية الاختلاء على سطح المنزل، أجلس بين حاويات الماء وأقرأ سورة (ق) تحديداً، كنت كالعطشان الذي يشرب ولا يرتوي، شعرت أن للآيات غوراً لا أدركه وعمقاً لا أبلغه وسراً لا أفهمه، لكني كنت أتلذذ بقراءتها، شعرت بها تسكب زلالها البارد على قلبي التائه، يقطع هذا النعيم الروحي زمجرة الطيران الأمريكي الذي يدك معاقل الجيش البعثي، فتلاحقه مضادات الطائرات التي ملأت أرض الكويت لكن دون جدوى، كنت أرى بعيني الطائرات الأمريكية تتراقص في السماء وتقوم بحركات استعراضية لتستفز المضادات الأرضية البائسة، غلبتني عاطفة المظلوم الذي يفرح حين يرى ظالمه يصفعه شرير في ذل وهوان، ثم أعود إلى نفسي حيرانَ متردداً ما بين ابتهاجي بانكسار الظالم على يد الظالم، وما بين شعور قاتل حين أرى هوان أمتنا المذل وعجزها الفاضح عندما صارت كعجوز كسيحة تبحث عن الأمان عند ذئب غدار، فيحملني ضعفي الإنساني على رؤية الظلم الواقع علي مباشرة دون سواه، وتتلاشى صورة الظلم الآخر الذي يتحول من واقعي إلى تجريدي!

كانت آخر أيام الغزو عبارة عن زلزال إيماني أعاد إلي صوابي ووضع في يدي البوصلة، كنت أتسلل إلى السطح، أتأمل من علو تلك البيوت المنطوية على الحزن، تخيلتها تتوشح السواد، توقف نشاطنا اليومي في إحضار الطعام للمنطقة بسبب الإجراءات الأمنية التي بدأت تشد الخناق على الشعب، هنا بدأت أشعر بالملل خاصة

مع رحيل أبناء خالي إلى منطقة أخرى لتخفيف عدد قاطني البيت الذي كان يثير شكوك الاستخبارات البعثية، نظرت في رف المكتبة فوجدت كتاباً صغيراً، مسحت عنه الغبار، كان عنوانه (أيام من حياتي) لزينب الغزالي، انطلقت به إلى حديقة المنزل الخارجية، أخذت أقرأ بنهم، لا أدري لماذا تملكني شعور قوي وأنا أقرأ الكتاب بأني سأؤسر يوماً!

فتح لي الكتاب نافذة إلى عالم آخر غريب، عالم الظالم والمظلوم، عالم السجون والسياط والتعليق من الأيدي والأرجل، حين يعربد الباطل المارد العملاق فيصارعه غلام يافع يحمل الحق بين جنبيه، حياة مؤلمة متعبة لكنني أحببتها، أحببتها بكل آلامها، فبالآلام تكتشف الصادق من الكاذب والمخلص من المتسلق، عرفت أنه لا قيمة للإنسان بعيداً عن الله، وأن قيمته تلك لا تتحقق إلا حين يعيش الصراع بين الحق والباطل، يعيشه بكل جوانحه وجوارحه، أدركت أن المؤمن هو الوحيد الذي يفهم معنى الحياة وسر الوجود، هو الوحيد الذي يجد لذة الصلة بين السماء والأرض والتي منها يستمد طمأنينة قلبه وسكينة روحه ولو كان في أحلك الظروف.

وحين اشتدت ضراوة القصف الجوي اشتدت القبضة الأمنية للبعثيين عنفاً وبطشاً، كان الوضع متوتراً جداً خاصة في منطقتنا (الرميثية)، فحين نسمع إطلاق نار مع إطلالة الفجر نعلم أن هذه الطلقة اخترقت جمجمة ضحية جديدة، وحين ينتشر النور نخرج للبحث عنها، في إحدى المرات كان جارنا هو الضحية، وجدناه ملقى على قارعة الطريق في حارة قريبة منا، مهشم الركب والمرافق، مشقق الجسد من التعذيب، مرت عليه إحدى قريباته باكية وهي تقول: (صبر الله أهله) ولم تعلم أنه قريبها!

تلبدت السماء بالغيوم السوداء التي لم تكن سوى دخان متراكم منبعث من آبار البترول التي أشعلها البعثيون فغطت السماء تماماً، وحجزت عنا أشعة الشمس حتى صرنا نخرج من البيت الساعة الحادية عشرة صباحاً وكأننا في السابعة ليلاً، ثم نعود إلى المنزل ووجوهنا وثيابنا ملطخة بالسواد.

اعتدنا السهر طوال الليل بعد الضربة الجوية متجمعين حول شمعة وراديو نستمع إلى الأخبار، تتخللها ركعات نصليها جماعة قياماً لليل، كان عامود دقيق من الدخان المتصاعد من الشمعة يتمايل منتشياً على رقص شعلتها، بينما كانت دموع الشمعة تسيل سحاء، عجبت من حزن دموعها تتراقص فوقها ضحكات شعلتها، كانت تمثل حال الشعب الكويتي حين فرح بتخليصه من نظام مجرم ظالم ثم تراه يحزن على عدم تمكنه من صد هذا العدوان إلا بقوة ظالمة أخرى لم تأت إلا على رائحة دخان الآبار التي

فتحت شهيته، كانت فتنة مزلزلة للشعب الكويتي حين رأى الطائرات التي ألقت حمولتها على هيروشيما وناجازاكي هي من تقوم بصد العدوان، بينما وقف بعض من يشاركه كلمة التوحيد وقبلة الصلاة بجانب المعتدي، والتزم آخرون الصمت، وقفوا بعيداً يتفرجون عليه وهو يهان ويضطهد، رآني والدي حائراً مضطرباً فأشفق عليَّ قائلاً: إن الله ينصر المظلوم بمن شاء من عباده لحكمة يعلمها، المواقف لا تغير الحقائق، هم لا يدافعون عنا بل عن أنهار النفط التي تجري تحتنا ودخانها الذي يحوم فوقنا.

ازدادت دقات قلوبنا ونحن نرى حلم التحرير بدأ يتحقق، كم كنا متلهفين للحظة الخلاص من قبضة متجبر سامنا سوء العذاب، تشهد عليه دماء الأبرياء المتخثرة في مسالخ التعذيب، قضينا ليلتنا نستمع لأخبار اندحار الغزاة ونستمع في الوقت ذاته لأصوات غريبة في الشوارع القريبة، اكتشفنا لاحقاً أنها السيارات المسروقة التي هرب بها الجنود البعثيون ضمن السيارات العسكرية الفارة، هربوا من الكويت التي اعتبروها الخطوة الأولى لتحرير فلسطين.

استخفنا الفرح في الصباح الباكر للخروج من المنزل، كنت مع أحد عشر شاباً من أقربائي، انحشرنا في سيارتين ثم انطلقنا فرحين نجوب شوارع الكويت، حتى وصلنا شارع (البدع) بجوار البحر، وإذا بنقطة تفتيش للمقاومة، طلبوا منا باحترام الرجوع بسبب إنزال قريب من المنطقة، وعند رجوعنا تفاجأنا بسيارة تقف عند باب منزلنا، خرج منها أحد معارفنا وكان قد قتل ابنه تحت التعذيب من قبل جلاوزة البعث، خرج هو وابنه من السيارة ونار الانتقام تتوقد من أعينهما، وحين اقتربنا منهما فتح صندوق السيارة، وإذا بأحد ضباط الاستخبارات البعثية الذين كانوا يعذبون المواطنين ويتولون تفتيش البيوت بهمجية وإذلال يخرج من صندوق السيارة مذعوراً، لا زلت أذكر شكله، نحيلاً ذا شارب طويل ووجه معروق وعظام وَجْنَةٍ بارزة، كيف تم القبض عليه؟

كان ضمن الفئة التي لم تتمكن من الهرب بسبب الذهول والارتباك الذي عم الجيش البعثي الذي لا يجمعه مبدأ بل سلطة شرسة، إضافة إلى أن بعض الجنود كان سكراناً لا يدرك ما يدور حوله من انكسار للجيش، جاء الأب المفجوع على ابنه منتفضاً، انتزع البعثي من صندوق السيارة وحمله بنفسه وسط ذهول المتجمعين، ثم رماه على الأرض، ظننته قد جمع إلى قوته قوة عشرة رجال أشداء، وما ذاك إلا لتفجر مشاعر الغضب والانتقام ممن أجرم في حق فلذة كبده، ثم وجه إليه أحدهم السلاح، وما هي إلا لحظات حتى أرداه صريعاً أمام منزلنا.

اتجهنا بالسيارة نحو طريق المطلاع قريباً من حدود العراق لنرى مئات الدبابات

المدمرة والشاحنات المحروقة وجثث الجنود المتفحمة ممن حاول الهروب فسحقتهم الطائرات الأمريكية قبل أن يصلوا حدود بلدهم بمسافة قريبة، لقد زعم صدام أن احتلال الكويت هو الخطوة الأولى نحو توحد الأمة وإذا بها الخطوة الألف نحو تمزيقها! لقد قتل الشعب الكويتي لأنه على خلاف مع حكومته! خنقهم بدخان الآبار المشتعلة لأنه يدعي أنهم جزء منه، بينما لا يسمح لتركيا أن تضمه إليها على اعتبار أنه كان جزءاً منها!

لقد تنازل عن كل خلافاته مع إيران التي قتلت من شعبه الآلاف ليتفرغ لغزو جاره الصغير الذي خفض سعر النفط ثم تملق لجاره الكبير الذي فعل الشيء نفسه! لقد كانت مأساة شعب قبل أن تكون خلاف ساسة، ها هي الجيوش العربية يقودها قادتها للذبح كالعادة بقرار أهوج يضمن لهم دخول الحلبة ولا يضمن لهم الخروج منها! هل كتب على أمتنا أن تتقلب ما بين عاجز ضعيف أو مستبد عنيف؟

كلية الهندسة:

دخلتُ بوابة عام ١٩٩٢ إلى عالم آخر يختلف عما اعتدت عليه، عالم يعج بالأفكار المتباينة التي يزيدها صداماً فتوة الشباب التي تبحث عن ذاتها!

لم تُعِر إدارةُ الجامعة أي اهتمام لموضوع الحشمة التي يؤدي فقدانها إلى تشتت تركيز الطلبة والتشويش على الجو العلمي، كانت وسوسة حلي الطالبات في القاعة أشد نفوذاً في أسماع الطلبة من عويل الدكتور شارحاً المعادلات الرياضية، دخلت علينا القاعة في إحدى المرات فتاتان ترتديان فستانين مطرزين بأنواع الزينة، كان اللحم العاري ينادي في أفئدة الشباب المتعب من الحرب الضروس التي تدور رحاها في صدره بين الانجرار وراء الغريزة والسمو في عالم الفضيلة، لم أتمالك نفسي حين رأيت تعمدهما تحويل قاعة العلم إلى قاعة لعرض الأزياء فقلت: (يبدو أنهما أضاعا الطريق لحفلة الزفاف)!

انطلقت ضحكات مكتومة من بعض المستائين منهما، علاهما الخجل، هنا انتبهت لخطئي، تمنيت أني لم أحرجهما بهذه الطريقة الفجة، بعد انتهاء المحاضرة حاولت أن أكون أول الخارجين، ارتبكت فسقطت كتبي أرضاً، أخذت ألملمها على عجل، لكن هيهات، وقع المحذور وسقطت فيما أخشاه، لم يبق في القاعة إلا أنا والفتاتان، قالتا بصوت هامس عاتب: لماذا أحرجتنا؟؟

آلمتني الكلمة، خرجت مسرعاً مطأطئ الرأس لا ألوي على شيء، لا أدري إن كانتا تقرآن هذه الكلمات، أود أن أقول لهما: كان بإمكاني إيصال الفكرة بصورة أفضل لكني لم أفعل.. سامحاني.

كانت رغبة الوالدين أن ألتحق بكلية الطب أو الهندسة بينما أجدني مغرماً بالعلوم الشرعية، والرأي السائد هو أن المتفوقين دراسياً ينبغي أن يلتحقوا بالطب أو الهندسة، بينما يلتحق بالشريعة ومثيلاتها غير المتفوقين!

هذا التصور المدمر يشكل خطراً على الوعي، إن أخطر تخصصين يحتاجان إلى جانب كبير من القدرة الذهنية هما الطب الذي يعنى بعلاج الأجساد، والشريعة التي تعنى بعلاج الأرواح، بل هي أخطر لطبيعتها المهيمنة على كل التخصصات، لكن إلحاح الوالدين الحبيبين كان له تأثير على اختياري، ثم أقنعتها لاحقاً بأني أجد نفسي في الجهة المقابلة من التلة.

ولجت معترك الانتخابات الطلابية، فوجدت فجوة هائلة بين الشعارات المرفوعة وامتثال هذه الشعارات في حياة المنادين بها، بمن فيهم التيارات الإسلامية. إن أبشع جريمة في حق الأفكار هو مطالبتنا بتطبيقها قبل استيعابها بوضوح يرفع عنها اللبس، وقبل الإيمان بها بصدق يصرف عنها النفعية، وقبل الدعوة إليها بحكمة تكبح عنها الرعونة.

منذ أواخر عام ١٩٩٥ تكثفت رحلاتي براً إلى المدينة النبوية لإكمال حفظ القرآن، وإلى القصيم للاستزادة من العلم الشرعي، لا زلت أتذكر الفيافي والقفار التي اجتزتها في طريقي، لا أدري لماذا كنت أرى فيها حقيقة الدنيا؟!

الصمت الموحش المذكر بالفناء، يقطعه زفيف الريح المؤذن بالرحيل، كنت أرى جمالاً مستتراً خلف هذا القفر الماحل، شعور مريح حين أوقن أني لن أخلد في دار الاختبار، فما معنى الاختبار إذن لو كان الخلود؟ إن أجمل ما في النعيم وأفظع ما في الجحيم هو الأبدية، مخطئون أولئك الذين يرتعدون من لحظة النهاية، إن ما يظنونه نهاية ليس سوى بداية لحياة أخرى، الخوف الحقيقي ليس من الموت بل من العمل الذي نلقى به الموت، كم نحن أغبياء حين نخاف الموت الذي هو مجرد بوابة تنقل من دار إلى دار أكثر من العمل الذي يحدد في أي الدارين نحن، تتوجه أنظارنا نحو الحتميات بدلاً من القيام بواجبنا.

كان البرنامج العلمي في القصيم مزدحماً، أنهل من العلوم في نهم، لكني كنت كالظمآن الذي يشرب ولا يرتوي، كنت أشعر بحاجتي إلى شيء ما لا أدري ما هو، كانت هناك هوة في روحي أبحث عما يملؤها فلا أجد، كنت أحفظ القرآن لكني كنت أشعر بجفوة معه، أتعاهده وهو عني معرض، أغوص في كتب التفسير فأجد في عمقها صندوقاً مقفلاً، أتوسل إليه أن ينفتح لي ويأبى علي، كنت موقناً أن ما أبصره الصحابة من عظمة القرآن يفوق معاني المفردات وأسباب النزول، ويتجاوز ما نقرؤه في كتب التفسير، بحثت عن ضالتي عند الكثير من العلماء فلم أجدها عند أحد منهم، بعضهم لم يفهمني وآخر استنكر سؤالي، انقضت أيامي في القصيم ولم أقض نهمتي بعد.

توالت السنون سراعاً بأحداثها، ثم توقف الزمن فجأة عند إصابة أمي بالسرطان، نحن كمسلمين نؤمن بأن الحياة يحكمها الخالق بقانونه، وأُمرنا بأن تتعلق قلوبنا به سبحانه ونستعمل جوارحنا بالتماهي مع القانون الكوني، تم استئصال الورم، وبقي التوسل بالعمل الصالح إلى الخالق مدبر القانون، فأردنا القيام بعمل إغاثي للمحتاجين، خاصة أني أنوي الذهاب إلى أحد علماء الحديث في باكستان للاستزادة من العلم، تم اختيار أفغانستان ذلك البلد الفقير الذي يعاني الويلات بسبب الحصار، أخذت المال ومضيت بعد عقد العزم على حفر بئر وبناء مسجد، ودعت والديّ قبل سفري الذي لن يزيد على الشهرين، خرجتِ من البيت ثم نظرت إليه نظرة أخيرة، لم أحسب أني لن أرجع إليه إلا بعد أربعة عشر عاماً تضج بالأنين!

السفر:

وصلت كراتشي في المنتصف من شهر يونيو سنة ٢٠٠١ لأتوجه بعدها إلى أحد علماء الحديث فيها، أقمت في مدرسته شهرين تقريباً لأكمل دراسة بعض كتب الحديث، ثم توجهت في منتصف أغسطس إلى مدينة كويتا الحدودية بسيارة أجرة يقودها أفغاني بشتوني يتكلم القليل من العربية، من الملفت أني شعرت بفرق هائل بمجرد عبوري الحدود، لقد كانت الحدود كبرزخ بين حكومة تعتبر العربي كيس نقود متنقل وبين حكومة تراه حفيد الصحابة الذين نشروا الإسلام في ربوع العالم، كان لهذه النظرة أثرها الواضح في الشعبين، مقولة (الشعوب على دين ملوكها) لها جانب من الحقيقة، ولكل قاعدة استثناء، هذا الترحيب يجده الباكستانيون أنفسهم ممن يدخل أفغانستان، ترحيب لا يجدونه في بلادهم هم، كنت متوجساً في باكستان من نظرات المارة بينما شعرت بارتياح عجيب بمجرد رؤيتي لابتسامة (الطالب) المسؤول على الحدود لمجرد علمه بأني عربي، وبالرغم من ظهور أثر الحاجة عليه إلا أنه رفض رفضاً قاطعاً المال الذي قدمته له واعتبره إهانة حين ظن أني أعطيه ثمن لطفه وحبه لنا، وصلت قندهار معقل (الطلبة) فوجدت الدكاكين فارغة من أصحابها وقت الصلوات دون حماية، قال لي السائق: لم تنعم أفغانستان من قبل بالأمن والأمان كما تراه الآن، توجهت بعد يومين نحو العاصمة كابل، أخبرني السائق عن وجود منظمة إغاثية مشهورة اسمها (منظمة الوفاء للعمل الإنساني) وهناك طلبت منهم مساعدتي لإيجاد قرية في أمس الحاجة لبئر ماء وبناء مسجد، قصدت القرية التي كانت تبعد عن العاصمة ساعة بالسيارة عبر طريق ترابي مرهق، وهناك تلقاني عمدة القرية والأهالي بترحيب بالغ وكرم جعلني أشعر أنهم هم المتفضلون علي، كان مسجدهم آيلاً للسقوط والبئر الذي يستقون منه مليء بالأمراض بسبب قلة عمقه، قدمت لهم التكلفة وانهمكوا مستبشرين بالعمل، لقد

كانت هذه القرية فقيرة بمالها، كريمة بأخلاقها، كنت أرى أهل القرية يحتفون بدوريات الطلبة التي تعتاد القدوم عليهم بين الفينة والأخرى، مما أثار عندي الكثير من الفضول لأعرف المزيد عن هؤلاء الذين سيطروا على معظم مساحة أفغانستان في فترة وجيزة.

طالبان والمخدرات:

لم تقتصر مأساة الشعب الأفغاني في الحصار الاقتصادي المفروض عليها من قبل الولايات المتحدة، بل أضيف إليه الحصار السياسي بعدم الاعتراف بهم دولياً، والحصار الإعلامي ليتسنى لأعدائهم نسج الخرافات حولهم فيصدقها العالم لعدم وجود إعلام مضاد لهذه الحملة المسعورة ضدهم.

بينما كنت في سيارة الأجرة إذ رأيت على جانب الطريق أرضاً واسعةً محروقةً، سألت عنها السائق، فقال متضجراً: (ديوانا) أي: (مجانين) باللغة البشتونية، حرقوا محاصيل الخشخاش لأنها حرام، لقد حرقوا ملايين الدولارات بطرفة عين.

كان مستاء وهو يقول: نحن بلد يتضور جوعاً بسبب الحصار الغاشم الذي فرضته علينا الولايات المتحدة، لماذا لا أبيع المخدرات على التجار الذين سيغرقون بلادهم بها؟ كما دمروا بلادنا بالفقر والجوع ندمر بلادهم بالمخدرات! لكن (طالبان) مجانين، يقولون لن ننتصر على أعدائنا إلا بتمسكنا بمبادئنا، ولا خير في انتصار يأتي من المخدرات، لأننا حينها سنخسر في معركة الأخلاق التي هي أهم من المعركة العسكرية، قال وهو يلوح بيده: أي أخلاق؟ أنا لا أؤمن بالأخلاق في حرب ليست أخلاقية، لن أكون خلوقاً مع دنيء!

: ما معنى طالبان؟

: طلبة العلم، سموا بذلك لأن منشأ هذه الحركة من المعاهد الشرعية.

كان هذا الموقف في مستهل قدومي أفغانستان، درس مهم في ألا أحكم على جهة استناداً إلى الإعلام المنحاز.

سنصنع الجيل القادم:

كانت المعاهد الشرعية منتشرة في أنحاء أفغانستان، علماء وطلبة علم يتولون التربية قبل التعليم، فإن اشتد الهجوم على خطوط الشمال أغلق العلماء الكتب وقالوا: (هذا أوان تطبيق ما تعلمناه)، ثم ينفر الجميع إلى الشمال، العلماء وطلبة العلم لحماية الثغور.

كان اهتمام الملا محمد عمر بطلبة العلم لا يعدله شيء حتى قال: نجوع ويشبع طلبة العلم، وكان يقول لمقربيه: (مهمتنا الحقيقية هي صنع الجيل القادم الذي سيحمل بعدنا الراية)، وقد كان ما أراد، فإن الفتية الذين تربوا في المحاضن الشرعية للطلبة منذ نشأتهم عام ١٩٩٦ وهم في الثانية عشرة أصبحوا عند الغزو الأمريكي في السابعة عشرة يحملون السلاح ليدافعوا عن حريتهم.

كان يقرب منه من له سابقة صدق في التضحية، أما المتفيهقون فأبعد الناس عنه، ومن تسلل منهم إليه كشفته شدائد الغزو الأمريكي.

قبيل الهجوم الأمريكي على أفغانستان أمر الملا عمر وزير التعليم بالاستفادة من المنهج التعليمي في المملكة العربية السعودية والاهتمام بالفقه المقارن بين المذاهب الأربعة بدلاً من الاقتصار على المذهب الحنفي، في خطوة مهمة لتخفيف حدة التعصب المذهبي المترسخ في المجتمع الأفغاني، وطلب من منظمة الوفاء الإغاثية السعودية المساعدة لتحقيق هذا الهدف، كانت هناك جهود مضنية لترميم البنية التحتية المتهالكة بسبب الحروب الطويلة، لكن النتائج كانت هزيلة بسبب الحصار الخانق الذي فرضته عليهم الولايات المتحدة، كما اجتهد في وضع خطة تدريجية للتخلص من البدع التي كانت منتشرة بين عوام القرى النائية الذين غلب عليهم الجهل، كالتمائم البدعية ووضع الخرق على الأشجار والقبور ونصب الرايات عليها، وبدأ الطلبة فعلياً بإزالة الكثير من البدع، ولقد رأيت بنفسي في بعض المقابر لوحة كبيرة فيها إرشادات دينية لسنن ومستحبات وبدع زيارة القبور.

قال لي أحد قيادات الطلبة في المعتقل: هدمنا في السر بعض الأضرحة في هرات ومدن أخرى، كنا نراعي المفسدة المترتبة عليه إن قمنا بالإعلان عن ذلك أو تغييره فجائياً، لذلك قمنا بحملة توعية في الإذاعة والمساجد وعند المزارات.

طالبان والصليب:

سمح الطلبة لمنظمة الصليب الأحمر أن تمارس ما يفترض أن يكون جهوداً إنسانية وتخفيفاً لوطأة الحصار الظالم عليها بسبب تطبيقها الشريعة، لكن منظمة الصليب مارست نشاطات مشبوهة تجسسية لصالح الولايات المتحدة التي تشارك في تمويل هذه المنظمة، فتم القبض على مجموعة منهم لوجود أدلة تؤكد تورطهم في التجسس، وبعد الهجوم الأمريكي طالب بعض الطلبة قتلهم لكن قيادة الطلبة رفضت ذلك لعدم اكتمال المحاكمة الشرعية، تم سجننا في نفس المكان الذي سجن فيه أعضاء الصليب المتهمون بالتجسس، في قبو سجن الاستخبارات في كابل، حيث حظي هؤلاء

الأعضاء عند الطلبة معاملة أفضل بكثير من معاملة الأمريكان وحلفائهم لنا.

أما الطوائف الدينية والأديان الأخرى فكانوا يعيشون بسلام في ظل حكومة الطلبة، وقد رأيت بنفسي تجاراً سيخاً يبيعون ويشترون دون أن يضايقهم أحد، استناداً لقول النبي ﷺ: (من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة).

المكوس:

وعلى الرغم من الحصار الجائر والفقر المدقع الذي تعانيه أفغانستان إلا أن الطلبة كانوا يرون الجمارك مكوساً نهى عنها النبي ﷺ، ولم تكن هناك سوى رسوم رمزية على استيراد السيارات تحديداً، (مئة دولار فقط على السيارة)، ويعطونها كرواتب للموظفين الذين يسهلون الإجراءات المتعلقة بعملية الاستيراد، فكان هذا المبلغ الزهيد أقل بكثير من الجمارك التي تفرضها الحكومة الباكستانية التي قدمت السيارات منها!

تعليم المرأة:

سألت أحد قيادات الطلبة في المعتقل: هل تمنعون تعليم النساء كما يقال عنكم؟ ـ علماً بأني رأيت بنفسي بنات صغيرات يذهبن لأماكن مخصصة لتعليمهن، ليست مدارس لكنها أماكن مخصصة لذلك كالمحاضر ـ فقال: ميزانية التعليم في حكومة طالبان تساوي ١٥٪ فقط من الميزانية المفترض توفيرها لتؤدي وزارة التعليم مهامها، والميزانية لا تكفي بسبب الحروب الداخلية مع دستم ومسعود والحصار الخانق، ولأن ثقافة الأفغان أن الرجل هو الذي يكدح ويعمل فقد أعطت حكومة طالبان الأولوية لتعليم الرجل ليكسب رزقه ويعيل أسرته. فبسبب ضعف الميزانية لم يكن الطلبة قادرين على تعميم التعليم على الذكور والإناث على حد سواء في أفغانستان، وليس لأنهم يرفضون تعليم الإناث كما يروج ذلك الخصوم، فلا يوجد لدينا أي مانع لتعليمهن بشرط ألا يكون في المنهج ما يخالف الإسلام.

لا فرق:

كان الطلبة يوفرون الطعام لموظفيهم، وكانوا يطعمون الوزراء مما يطعمون به بقية الموظفين، ويستطيع المراجعون للوزارة أن يروا الطباخ يطهو الطعام للكل، فيجلس الوزير والموظف العادي على الأرض على سفرة واحدة ويأكلون جميعاً دون أي فروقات، يأكلون في مكان عملهم، وغالباً ما يكون بطاطس، وأحياناً يكون معه القليل من الدجاج، كما يعطون الوزير طعاماً إضافياً وأقراصاً من الخبز لأفراد أسرته على حسب عددهم، كما يعطونهم راتباً قليلاً جداً للطوارئ إضافة للسكن المؤقت، وهو

عبارة عن منزل صغير بسيط جداً، بل إن نوافذ بعض الوزراء كانت من المشمع، وهذه البيوت ليست ملكاً لهم بل هي ملك لوزارة الإسكان، وبعضها لأشخاص مجهولين هاجروا فكان الأمر أنه إذا جاء صاحب البيت يوماً ما بأوراق ثبوتية تثبت ملكه للبيت فعلى الوزير أن يخلي البيت فوراً لصاحبه، ولا يتميز الوزير إلا بوجود سيارة مع السائق يستخدمها حال وجوده في الوزارة فقط، وتكون ملكاً للوزارة، لقد كان قادة الطلبة قادرين على أن يصبحوا أثرياء لو أرادوا، فكان بإمكانهم بيع المخدرات أو بيع المطلوبين أمنياً بتهم الإرهاب لمن يدفع، أو على الأقل يكونوا كقادة الأحزاب ممن سبقهم، حيث كانوا يتمتعون برغد العيش بينما يعاني بقية الشعب شظفه.

مقعد في الأمم المتحدة:

لم يكن لدى الطلبة مقعد في الأمم المتحدة بسبب تصنيفها ككيان إرهابي، والغريب أن الأمم المتحدة أعطت هذا المقعد المخصص لأفغانستان لرباني وقائده العسكري أحمد شاه مسعود الذي لم يكن يسيطر على أكثر من ٥٪ من الأراضي الأفغانية، رأى قيادات الطلبة بالتشاور مع العلماء الأفغان أنه لابد أن يكون لهم مندوب في منظمة الأمم المتحدة، ليس اقتناعاً بأنها منبر عادل لكنها منبر يستطيعون من خلاله الدفاع عن قضاياهم ودحض الافتراءات التي يحيكها أعداؤهم ليرفعوا الحصار عنهم دون أن يتنازلوا عما لا يجوز لهم التنازل عنه شرعاً، وبعد تهديد الطلبة بإغلاق مكاتب الأمم المتحدة في كابل وغيرها وافقت الأمم المتحدة على مضض أن تعطي كرسي مراقب لطالبان في الأمم المتحدة وكان مندوب طالبان فيها الذي يشغل كرسي المراقب هو (الملا عبد الحكيم مجاهد).

طالبان والعرب:

دعونا نغوص قليلاً في العمق، لنستخرج منه عبرة مطمورة، لا يمنعنا من إظهارها ذباب يراها حلوى يتغذى عليها، فقد يتزود بها عابر سبيل يبلغ بها موطنه.

قصة العرب مع الأفغان طويلة، ولدت مع الغزو السوفييتي لهذا الشعب المسلم في آخر السبعينيات، حين استجابت الحكومات العربية لمطالب الولايات المتحدة بتسهيل نفير الشباب المسلم إلى أفغانستان، كان ذلك العهد يسمى بعهد (التذاكر المخفضة) التي تحولت إلى (أحكام السجن المطولة)، وهكذا أصبحت عاطفة الشباب المتعطش للتضحية مجرد ورقة سياسية تستخدم وقت الحاجة ثم تحرق بعد الانتهاء منها لتحترق معها آمال هؤلاء المساكين الذين هبوا لنجدة الضحايا وإذا بهم يقعون ضحية مؤامرة كبرى يعجز عن فهم مكرها الشيطان نفسه.

لم يتواجد العرب في أفغانستان لهدف محدد، بل تباينت أهدافهم وتنوعت أفكارهم، منهم من قدم أفغانستان لأنه رأى فيها دولة تحكم بالشريعة، وآخرون جاؤوا للحصول على تدريبات عسكرية لنصرة المسلمين في الشيشان أو كشمير، وآخرون يمنون أنفسهم بقرب منازلة الصهاينة، ومنهم من أتى للأعمال الإغاثية وآخرون للدعوة. إنَّ من البلادة التوهم أن كل من جاء أفغانستان فإنما أراد القتال، كما أنه ليس كل من قدم مكة أراد العمرة، ولا كل من قدم تايلاند ابتغى الدعارة، فمن الحمق اختزال كل هذه المساحة الشاسعة لأفغانستان ـ والتي تقدر بـ ٦٥٠ ألف كيلو متر والتي تفوق مساحة فرنسا وألمانيا وبريطانيا ـ في معسكر تدريب أو تنظيم معين، لقد نجح الإعلام الغربي في ربط اسم أفغانستان بالجريمة والإرهاب في الوقت الذي يمارس فيه الغرب أبشع الجرائم في شتى أصقاع العالم. إن وجود إعلام بلا منطق يعني وجود شعب بلا وعي، والأمة مع الأسف تنقاد بسهولة لتوجيه الإعلام الغربي وتقييمه للأحداث بل وتقليده في الأوصاف والمصطلحات والمعايير مع تغييب تام للعقل.

استطعت من خلال أحاديث المعتقلين الذين بقوا سنين في أفغانستان فهم جانب من حياة العرب فيها، كان الوضع هادئاً في معظم أفغانستان التي نعمت بالأمن بعد سيطرة الطلبة على زمام الأمور فيها باستثناء خط (بغرام) القريب من العاصمة كابل حيث كانت قوات الطلبة بمشاركة العرب والباكستانيين في مواجهات مسلحة مع قوات أحمد شاه مسعود المدعوم غربياً، وخط تخار وقندوز وبدخشان حيث تقاتل قوات دستم الشيوعية المدعومة روسياً.

كان العرب يعانون في أفغانستان من المشاكل الصحية بسبب الماء الملوث خلافاً للأفغان الذين تعودوا على هذه الظروف، باستثناء كابل ومناطق الشمال التي تتميز بالهواء النقي والماء العذب، لكن الكثير من العرب آثر المدن البشتونية كقندهار وخوست وجلال أباد بسبب تعاطف أهلها مع العرب الذين يحبونهم ويرونهم إخوة لهم وأنصاراً بخلاف نسبة كبيرة من سكان كابل الذين يدينون بالولاء العرقي لأحمد شاه مسعود.

كان الطعام قليلاً وبسيطاً، قطعة خبز وشاي أخضر في الفطور، فإن كنت مترفاً أضفت إليها المربى، أما الغداء فمرق بطاطس معها رغيف خبز و(شرومبيه) وهو لبن مخلوط بالنعناع، كان يتسلل خلسة من المضافات بعض من يَعُضُّهم الجوع إلى المطاعم التي تفتقر هي الأخرى للعناية بالنظافة.

كانت هذه البقعة المعزولة جزئياً عن العالم تحت مجهر معظم الاستخبارات

العالمية العربية والأجنبية بسبب وجود فكر إسلامي مسلح، فالتعامل مع الأيديولوجية المجردة لا يكون بنفس جدية التعامل مع الأيديولوجية المسلحة، لذلك كان الحس الأمني في أفغانستان يغلب الاجتماعي، فعلى الرغم من العلاقة الأخوية بين المتواجدين في هذا البلد المسلم إلا أن هناك خطوطاً حمراء يجب عدم تجاوزها، كالسؤال عن الاسم الحقيقي أو الجنسية الحقيقية أو خصوصيات الآخرين، فكل من يذهب إلى المعسكرات أو خطوط القتال أو المضافات يتكنى بكنى مستعارة لا يخلو بعضها من فكاهة، كأن ترى أسود اللون من أصول أفريقية يكني نفسه (أبو لؤي البوسني) أو (أبو فراس اللبناني)، وحين يغلب الجانب الأمني فإنه يؤثر سلباً على الجانب الدعوي الذي لابد أن يثق فيه المدعو بالداعية، إذ كيف يثق بمجهول الهوية؟ هناك جانب نفسي معتبر يؤثر في قبول الفكرة من عدمه حين يعرف المدعو هوية الداعية وتاريخه وأخلاقه، وبسبب كل هذه العقبات لم تكن الدعوة هي الماكينة الرئيسية للتجنيد، بل مآسي الشعوب المظلومة هي أكبر مجند بلا منافس. أغلب النافرين لهذه الساحات لم يؤزهم من بيوتهم الآمنة قناعة فكرية ناشئة عن البحث العلمي للوصول إلى الدليل، بل هي العاطفةُ الجياشةُ التي تطأ عقلَها حين تسمع خرير الدماء وشهقات المحتضرين وترى أكف الأطفال تتبدى من تحت الركام.

كان مرتادو المضافات أكثر من المرابطين في خطوط القتال، و(المضافة) هي بيت معد للضيوف، كمحطة سريعة يرتاح فيها المسافرون ليواصلوا رحلتهم إلى الخطوط القتالية أو المعاهد الشرعية أو الدورات التدريبية، وكان طلبة العلم يحذرون من إطالة المكث في المضافات التي يضعف فيها النشاط العلمي والدعوي عدا القليل من الدروس والمواعظ المتفرقة، مما جعلها بؤرة للكسل والبطالة، عكس الخطوط القتالية التي تكثر فيها الدروس والاجتهاد في العبادات.

من المألوف أن تجد من لا يريد ترك خطوط المواجهة أشهراً طويلة، حتى يتوسل أمير الخط إليهم أن يأخذوا قسطاً من الراحة فيأبون، بينما يحدث العكس مع عشاق المضافات الذين يمكثون جل وقتهم في البطالة ثم يرجعون إلى بلادهم يتباهون بجهادهم المزعوم.

لقد آوى الطلبةُ العربَ وحموهم وضحوا من أجلهم، وقابل العرب إحسانهم بإحسان، كانت قوات أحمد شاه مسعود مستميتة على انتزاع العاصمة من يد الطلبة، والذين صرحوا مراراً بأنهم سينهون الحكم بالشريعة ومحاكمة قادة الطلبة وتسليم العرب إلى الأمم المتحدة، لقد انكسر خط (بغرام) على مشارف العاصمة كابل عدة مرات وتراجعت قوات الطلبة أمام الهجوم العنيف، فما صد تقدم قوات أحمد شاه مسعود

بعد الله إلا ثلة قليلة من العرب، استبسلوا ولم يحيدوا عن مواقعهم قيد أنملة حتى كسروا الهجوم الشرس لأحمد شاه مسعود الذي أخذ يرغي ويزبد متوعداً العرب بالويل والثبور.

انكسار خط الطلبة يعود لأسباب منها أنهم خسروا الكثير من الصفوة في معاركهم الكثيرة خاصة في حادثة (دشتي ليلي) المشهورة والتي غدر فيها الجنرال عبد المالك الشيوعي بالتعاون مع قومية الهزارة بعد أن أعطى الطلبةَ العهودَ والمواثيقَ بعدم المساس بهم حال انسحابهم من (مزار شريف)، فقتل منهم أكثر من ستة آلاف من خيرة الطلبة وعلمائهم وقادتهم، ولم يبق منهم إلا القليل الذين تبوؤوا مناصب قيادية أجبرتهم على الابتعاد عن الميدان، ودخل ضمن صفوفهم أعداد كبيرة لم يتمكن الإيمان في قلوبهم، وهذه طبيعة الشعوب، وقد عانى الصحابة من ذلك بعد الفتوحات، أما العرب فهم خُلَّص في قوة الشكيمة والثبات في مواجهة الموت، وبغض النظر عن الانتقادات الموجهة إليهم من قبل خصومهم وما لهم وما عليهم فإن للعرب دوراً مفصلياً وهاماً في مواجهة الغزو السوفيتي لأفغانستان وفي طرد الروس من الشيشان وهزيمة الصرب والكروات في البوسنة، تشهد تلك الشعوب بهذه الحقيقة.

أزال الطلبةُ منذ بداية نشأتهم كلَّ مظاهر التفرق بين الأفغان، لقد عانى الشعب الأفغاني كثيراً من انقسام الأحزاب المسلحة المتناحرة، أما الجماعات غير الأفغانية فقد كانت متفرقة كحالها في كل العالم الإسلامي، إن فكرةَ التوحد حلمٌ جميل للأتباع والمستقلين لكنها كابوس عند بعض القادة، يُغلّف رفضه للفكرة بادعاء استحالتها على الرغم من أن التوحد قد حدث في الأمة، والحدوث دليل الإمكان، كان هناك تعاون جزئي بين هذه الجماعات، كانوا يتزاورون لإزالة الحساسيات التي تولد مع التفرق، لكنها كانت كزيارة الضرائر كما هو حال الجماعات في كل العالم، وحين تلبدت السماء بغيوم الحرب الوشيكة ذابت الرواسب وتراصت الصفوف، خاصة بعد أمر (الملا عمر) جميع العرب بالانضواء تحت إمرة أسامة بن لادن ثم أشار عليه غير واحد بأن يعدل عن رأيه كي لا يؤلب العالم عليهم أكثر مما هم عليه، فغير رأيه وجعل القيادة على جميع المهاجرين الباكستانيين والأوزبك والتركستانيين والعرب (جمعة باي) أحد المجاهدين الطاجيك.

اخشوشنوا:

انتفض العالم حين عزم الملا محمد عمر على هدم أصنام بوذا في عام ١٩٩٨، ثم حركت الأيدي الخفية دمية (منظمة اليونسكو) للتنديد بهذا الانتهاك الصارخ للحريات الدينية والثقافات الإنسانية، وتحت الضغوط الدولية عزم وفد من العلماء برئاسة الدكتور

يوسف القرضاوي زيارة أفغانستان لمحاولة ثني قيادات الطلبة عن قرارها، يخبرني أحد المعتقلين الذين كانوا ضمن المجتمعين معهم في قندهار بأن بعض العلماء الأفغان أبدى استياءه من الوفد قائلاً: انظر إليهم.. يثورون لهدم الأصنام ولا يثورون لمأساة الأيتام، لماذا لم يزورونا لآلام هذا الشعب المسكين الذي يئن تحت وطأة الحصار سنين طويلة؟

كان ضمن الوفد الكاتب المعروف (فهمي هويدي)، حين رأى الأثاث الرث في بيت الضيافة المعد لضيوف الإمارة قال ساخراً وهو يتأمل الفرش والمتكأ: يذكرني بأثاث ألفونسو السادس!

فأجابه القرضاوي: اخشوشنوا!

التفت أحد العلماء الأفغان للآخر متعجباً من كلمة (اخشوشنوا)، لأنهم أضافوهم في أفضل مجالسهم، فقال مازحاً لمن بجانبه: إذا كان هذا (اخشوشنوا) فماذا سيقولون عن بيوتنا؟

لم يعجز قادة الطلبة عن حياة البذخ، لكنهم أبوا أن يعيشوا ترفاً ينسيهم مأساة شعبهم، توقع الوفد أنهم سيلتقون بأناس بسطاء الفهم ضحال العلم، فبدؤوا الكلام بنَفَسٍ مُتَرَفِّع سرعان ما تضاءل حين أدركوا أن أمامهم أوعية علم أخفوه بالصمت وارتضوا أن يكونوا بعيداً عن أضواء الشهرة لا كما يلهث وراءها غيرهم، تنازعوا النقاش ما بين النص الشرعي والظرف الواقعي، لم يقتنع أحد الفريقين بما قاله الآخر، لكن الوفد أدرك أن رأيهم لم يكن بالبساطة التي توقعوها، ثم جاء الأمر بالهدم، وأمر الملا محمد عمر بذبح أعداد كبيرة من البقر من خزانة الإمارة والتصدق بثمنها على الفقراء توبة لله على التأخر في هدمها، أعيتهم الأصنام أن تهدم فاستعانوا بالدبابات التي بدأت تدك وجه الصنم الذي استنفذ منهم الكثير من القذائف، قبلوا عرض بعض الخبراء العسكريين العرب مساعدتهم بما لديهم من خبرة في المتفجرات، فاستطاعوا نسف الوجه بسهولة.

اغرب عن وجهي:

حين بدأت الحرب اهتزت قناعات بعض قيادات الطلبة، قال وزير خارجيتها الملا وكيل أحمد متوكل للملا محمد عمر: لماذا لا نسلم الرجل ونرتاح من تبعات إيوائه، فرماه بجهاز اللاسلكي الذي كان بيده وهو يوبخه: أنت متوكل؟ بل أنت لا متوكل، تريدني أن أسلم رجلاً قضى حياته وماله لنصرة شعبنا في حروبه الطويلة؟ اغرب عن وجهي لا أريد أن أراك بعد اليوم!

دخل الملا عبد الرزاق عليه بعد الهجوم على أفغانستان طالباً منه تسليم الرجل تفادياً لتبعات الحصار، فقال له غاضباً: كيف تكون عبداً للرزاق وأنت تخشى على رزقك من غيره؟

لم تكن الأسماء عنده مجرد دلالة على المرء، بل كانت أعمق من ذلك بكثير، كانت عهداً وثيقاً يدعوه إلى الوفاء لمدلولها، وأن يكون له من معناها نصيب، سعت إحدى القبائل البشتونية الكبيرة في قندهار للشفاعة في أحد كبارها حين ارتكب جريمة في حق أحد الضعفاء، فقال للشافع: ما اسمي؟

استغرب من سؤاله، أجابه: محمد عمر!

قال له: لماذا مُنِعَتْ كلمة (عمر) من الصرف؟

: للعلمية والعدل!

فقال: العدل، أستحي من اسمي أن أدعى به دون التحلي بمعناه!

ثم أمر بقتل المجرم، وشهد بنفسه عملية القصاص.

نصيحة:

في إحدى ليالي غوانتانامو كنت بجوار أحد قيادات الطلبة في عنبر (كيلو)، وكعادتي في استغلال هذه الفرص سألته:

: يحكم أفغانستان اليوم حركة إسلامية تؤمن بأن تطبيق شريعة الله فريضة ربانية يجب على المسلمين القيام بها، والذي أفهمه من روح الشريعة هو عدم اقتصارها على قانون العقوبات كالحدود، بل الهدف الأسمى فيها هو تحقيق العدالة والكرامة الإنسانية، وما الحدود فيها إلا لتحقيق هذا الهدف السامي بانتزاع حق الضعيف من القوي، وحفظ الكليات الخمس التي لا سعادة للمجتمع إلا بالحفاظ عليها، فما لي أرى هذا الكيان متخلفاً عن ركب الدول الأخرى؟ يحزنني أن أرى مجتمعاً يرفع كلمة الله غارقاً في البدائية، ألا يُعَدُّ الحرص على التقدم التكنولوجي تحقيقاً للكرامة الإنسانية؟ ألا تُعَدُّ حسن الإدارة عملاً صالحاً يدخل في المفهوم الشامل للعبادة؟

قال: لم نرفض التكنولوجيا، لكننا تَحَمَّلنا تركة ثقيلة، تَحَمَّلنا تبعات الغزو السوفييتي الذي دمر البنية التحتية لبلادنا وأرجعنا سنيناً طويلة إلى الوراء، تَحَمَّلنا الحصار الخانق للولايات المتحدة بسبب تطبيقنا الشريعة ورفضنا هيمنتها حين انصاعت لها معظم الدول، تحملنا مغبة اقتتال الأحزاب التي أضاعت ثمرة انتصار الشعب الأفغاني على الجيش السوفييتي، تحملنا تبعات السياسات الحمقاء للجماعات الإسلامية

التي قدمت أرضنا بعد الاحتلال السوفييتي بقضها وقضيضها حين سمحت الولايات المتحدة بالجهاد ضد الزحف الأحمر نحو المياه الدافئة، فامتلأت أرضنا بمعسكراتهم ومضافاتهم، كل حزب بما لديهم فرحون.

سألته: تقصد الجماعات الجهادية؟

أجاب: بل كل الجماعات، كل منهم ينفذ أجندته الخاصة ويغدق المال على الأحزاب الأفغانية التي يراها قريبة من فكره الحزبي، لقد كان قادة الأحزاب المتناحرة رباني وحكمتيار وسياف كلهم ينتمون إلى نفس الجماعة الإسلامية، لم يَحُلِ انتماؤهم الحزبي ولا القومي ولا الطائفي من اقتتالهم، لقد تناحرت تلك الأحزاب بينها بمجرد انسحاب الروس جَرّاء تغذيتها بالأموال التي كان ينبغي أن تُرَشَّد لمصالح الإسلام والمسلمين لا لمصالح الأحزاب وتقديم الانتماء الحزبي على الإيماني، لقد كان تدخل الحكومات والجماعات الإسلامية سيئاً للغاية، أنا لا أقصد العمل الإنساني الذي نشكرهم عليه، لكن دعم الأحزاب المسلحة دون التثبّت من فسادها وصلاحها سَيُحَوّل انتصارنا على المحتل إلى هزيمة، لقد كان لهم دور أساسي في اقتتال الأحزاب الأفغانية الفاسدة التي غذتها بأموالها، ثم أخذت تتباكى عليه وكأنها لم تقذف حطبها في ناره.

قلت: قد يفعلها البعض تنفيذاً لأجندة الولايات المتحدة وقد يفعلها آخرون بسبب غياب النضج الفكري وعدم اعتبار المآلات، وأخشى تكرار هذه الأخطاء الفادحة في أحداث أخرى مستقبلية، لكن ألا ترى أن على الطلبة جزءاً من المسؤولية بدلاً من إلقائها برمتها على الآخرين؟

قال: لم يكن لدينا الخبرة الكافية لإدارة شؤون البلاد، لكننا رأينا السفينة تغرق بمن فيها، لم يكن هناك مناص من القفز على المقود الذي ظل شاغراً لإنقاذ وطننا من الانهيار التام في الفوضى، هناك تقصير، لكننا حاولنا، نادينا كل المسلمين لمساعدتنا فعاد صدانا بالخيبة، والصدمة أن من يرفع راية الشريعة قد خذلنا حين سمع مناشدتنا للمساعدة في تحقيق الشعار الذي يرفعه!

قلت: أرجو أن تقبل نصيحتي، فعلى الرغم من تميز قيادة الطلبة بالثبات على المبدأ والزهد في متاع الدنيا والاهتمام البالغ في الأحكام الشرعية، إلا أن هناك نقصاً ملحوظاً في الاهتمام بالتكنولوجيا وحسن الإدارة، إن عدم بذل الجهد بأخذ أسباب الدنيا لتحقيق أهداف الآخرة يعد معصية، ولئن كانت الشجاعة سبباً للانتصار في الحرب فإن حسن الإدارة سبب للانتصار في السلم، ومن لم يدرك هذه السنة الكونية فقد ينتصر على عدوه في المعركة لكنه سيهزم بعدها أمام نفسه.

أحداث سبتمبر:

أثناء انشغالنا بإنجاز الهدف في أسرع وقت جاءني العمدة بوجه غير ما اعتدت عليه، قال: لقد تصدرت أفغانستان الأخبار العالمية من جديد! اعترتني الصدمة وهو يخبرني باصطدام الطائرات بالبنتاغون ومركز التجارة العالمي، ثم اتهام أسامة بن لادن بذلك وألحقوا به طالبان لإيوائهم إياه، تسارعت الأحداث بصورة دراماتيكية تنبئ عن حدث جلل وشيك، لقد غيرت أحداث سبتمبر العالم واستفاق الشعب الأمريكي من حلم (ديزني لاند) على نهاية الشعور بالقوة والحرية، لقد انشطر التاريخ الإنساني إلى ما قبل أحداث سبتمبر وما بعدها.

لم أكن أعلم شيئاً عن أحداث سبتمبر إلا عن طريق الراديو حينما كنت في القرية، لكني علمت الكثير حين تعرفت على بعض المعتقلين في غوانتانامو ممن كانوا قريبين من دائرة صنع القرار، أخبرني أحدهم عن ليلة مظلمة باردة في بيداء واسعة خارج مدينة قندهار، كان هدير مولد الكهرباء يعارك صمت الصحراء، لكن هيبة الليل هي المنتصرة كعادتها، انعزل عن التجمع اثنان معهما أجهزة كومبيوتر محمولة وبعض الأجهزة، كانا منهمكين في عمل لا يدري ما هو، كان (المطلوب الأول عالمياً) جالساً في صدر المجلس مشغولاً بالأذكار، جاءه أحدهم بجهاز التلفاز، وضع فيه شريطاً، كان احتفالاً صاخباً بفوز بوش في انتخابات الرئاسة لعام (٢٠٠١)، قال لي: كنت أرمقه من بعيد، رأيته يبتسم حين رأى صورة بوش، قال بصوت خافت استطعت أن أسمعه: عن طريق هذا الأحمق سنصل إلى هدفنا ونوقظ الأمة، سأجعله يدفع ثمن قتل (محمد الدرة) وآلاف غيره!

كان عمدة القرية يستمع لخطاب الملا محمد عمر من الراديو وأنا أنتظر ترجمته بفارغ الصبر، كان يستفزني بضحكاته فتستخفني العجلة لأسأله: ماذا يقول؟

فيشير إلي بيده لأنتظر قليلاً، وبعد ترقب مرهق التفت إلي وهو يقول: لأول مرة أسمع الملا عمر يتكلم بهذا الغضب، كانت كلماته ملتهبة، لقد تفوه بكلمات عامية يقولها البشتون حين الغضب الشديد.

: غاضب على من؟

: على غطرسة الأمريكان وتهديدهم، وعلى رفضهم تقديم أدلتهم ضد أسامة بن لادن ليحاكموه إن ثبت ما اتهموه به، ذكر أن القضية ليست أسامة بن لادن بل القضية هي أنهم لا يريدون دولة تحكم بشرع الله، لو كان بن لادن هو المقصود فلماذا حوصرنا طوال السنين الفائتة؟ ولماذا دعموا أحمد شاه مسعود؟

لقد خاطب الأمة الأفغانية بخطاب لم تعهده، خطاب يتفجر تحدياً، قال لهم: من أي شيء تخشون؟ إن كان رئيسكم (يقصد نفسه) لا يخشى زوال كرسي الحكم الذي يجلس عليه، ولا زوال روحه بين جنبيه، فماذا تخشون أنتم؟

ثم قال كلمة عظيمة، قال: لقد وعد الله عباده المؤمنين بالنصر فقال: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ وتوعدنا بوش بالهزيمة، فنحن أمام وعدين فلننظر أيهما أصدق!

قلت للعمدة: لكن الكثيرين يريدون النصر في الجولة الأولى مع اللكمة الأولى، ولا يدركون أن الله غالباً ما يجعلها في الجولة الأخيرة مع الرمق الأخير.

وبدأت الحرب:

بعد أحداث ٩/١١ اجتمع العالم تحت راية الولايات المتحدة استعداداً للهجوم على أفغانستان، اعتبروا كل من هو في أفغانستان إرهابياً يستحق القتل والاعتقال، لم يستثنوا أحداً، المدني والعسكري، المقاتل والإغاثي، الداعية والمهاجر، كلهم في خانة واحدة، كل شيء مباح في هذا البلد، كانت الطائرات الأمريكية ترمي المنشورات التي تعرض الجوائز المالية المغرية للقبض على كل عربي في أفغانستان، يتفاوت الثمن حسب قيمة البضاعة، وتتراوح ما بين ألف وعشرة آلاف ومئة ألف دولار، وآخرون تصل قيمتهم مليون وخمسة ملايين وعشرة ملايين إلى أربعين مليون لرأس الهرم!

لقد تخلت الولايات المتحدة عن كل شعاراتها في هذه الحرب التي كلفتها أخلاقياً أكثر مما كلفتها عسكرياً واقتصادياً، رفضت الولايات المتحدة عرض (الطالبان) بتقديم أدلتهم على المتورط بأحداث سبتمبر ليحاكم في المحاكم الأفغانية كما تطالب الولايات المتحدة من أي دولة تحتجز أمريكياً مهما بلغ جرمه بتسليمه إليها وتقديم كل الأدلة عليه ليحاكم في المحاكم الأمريكية، والتي غالباً ما تحكم ببراءته لأن الحق لا يُقَدَّسُ خارج حدودها! هَب الأمريكان أصحابَ حق، يُدان صاحبُ الحق إنْ سعى لاستردادِ حقِّه بنفسِهِ لا عن طريق المحكمة، وبرفضهم تقديم أدلتهم للمحاكم الأفغانية يسقط حقهم، هكذا بكل بساطة.

لقد فعلت (طالبان) الشيء نفسه، لكن المتعجرف لا يرضى أن يكون غيره حكماً، إنه يرى نفسه سيد الأرض وعلى الجميع أن يسمع ويطيع، إنهم يؤمنون أن الحق يكتسب قدسيته بهم وليس العكس، كانت رسالة الأفغان واضحة: لا معنى إذن من البحث عن الفاعل ما دام الأمريكان رافضين التحاكم للنظام القضائي في بلدنا، إن كانوا يفضلون أخذ حقهم بلي الذراع فليتفضلوا، بابنا مفتوح للجميع، لكننا لا نضمن لهم الخروج سالمين!! إنها فلسفة الأفغان الأبدية في استقبال الغزاة وتوديعهم.

بدأ القصف في السابع من أكتوبر (٢٠٠١)، كان يستهدف المراكز العسكرية والاتصالات والمساجد والبيوت بحجة وجود إرهابيين فيه، لقد استهدفوا المدنيين لتشكيل ضغط داخلي على الطلبة للانسحاب من المدن، كنت أرى أسنة اللهب ترتفع في سماء كابل بعد دوي هائل يملأ الآفاق، إنها صرخة المدن حين تستباح، لقد رأيت مشاعر الغضب في وجوه الأفغان في القرية التي أقمت فيها، رأيت عمدة القرية ينظر إلى الطائرة الأمريكية تتبختر في سماء بلده فصرخ عليها قائلاً: (حتماً ستنزلون، وبعدها سنتفاهم)! لم يكن ينتمي إلى الطلبة لكنه ينتمي إلى نفس الروح التي تأبى أن تضام.

الطريق إلى تورابورا:

لم يمنعنا القصف من الاستمرار في عملنا لحاجة أهل القرية الماسة إلى البئرين والمسجد، أكملنا العمل واستعجلت بالرحيل، عانقني عمدة القرية بحرارة مودعاً، انطلقت على عجل، وصلت كابل ثم توجهت نحو جلال أباد بسيارة الأجرة، وبمجرد خروجنا من كابل شاعت أخبار سقوط كابل بيد قوات التحالف الشمالي المدعوم أمريكياً، علمت لاحقاً أن آخر قوات طالبان المنسحبين من كابل هم العرب، أبت ثلة من العرب الانسحاب، ظلوا يقاومون في أحد البيوت حتى تم تدميره بعد ساعات طويلة من الاشتباك، وفي طريقي إلى جلال أباد وضعت يدي على جيبي قلقاً فلم أجد جواز سفري، لقد نسيته في القرية، لا مجال للعودة أبداً، وصلت جلال أباد، التقطنا أنفاسنا ثم لاحقتنا الأنباء عن تقدم قوات التحالف الشمالي نحو المدينة حثثنا السير للخروج منها، وإذا بالطريق قد أغلق من قبل الميْليشيات التابعة للتحالف بحثاً عن العرب للحصول على الجائزة الأمريكية، أخبرني السائق أنه لا يستطيع المجازفة بمرافقتي إلى الحدود لأنه سيكون محل تهمة، سأل معارفَه في المدينة عن الحل، أخبروه بأنه لا يوجد مفر إلا عن طريق الجبال الحدودية الممتدة من سلسلة جبال الهندوكوش، وحين سألته عن اسمها قال لي: اسمها جبال (تورابورا)، طنت هذه الحروف في أذني لكني تجاهلت ذلك الاسم الصعب، لم أدرك حينها أنها ستكون أشهر جبال في تاريخنا المعاصر!

أوصلني إلى دليل أفْغاني يبلغني القرى في أعلى القمم ومنها إلى الحدود الباكستانية لأتوجه بعدها إلى سفارة بلدي في مدينة كراتشي، وقفنا في فدفد تنبئك قساوة صخوره بطبيعة الرحلة، وجدت بعض العرب مع الدليل يعانون نفس مشكلتي، كانوا يتبادلون الحديث عن الأوضاع الراهنة، هل ستكون جبال (تورابورا) للأمريكان

كجبال (جاجي) للسوفييت؟ معركة (جاجي) التي تواجهت فيها القوات الخاصة السوفييتية مع العرب الذين كان الإعلام العربي والغربي آنذاك يطلق عليهم (المجاهدين)، لا حباً لهم بل رغبة في إيقاف تقدم الجيش الأحمر المجنون نحو مياه الخليج الدافئة، انتهت معركة (جاجي) بعد ثلاثة أسابيع من المواجهات المحتدمة بهزيمة منكرة للسوفييت، ها هي (جاجي) على مرمى حجر من (تورابورا)، هل سيعيد التاريخ نفسه أم سيخادع كعادته؟ لكن الثور الروسي الهائج ليس كالنسر الأمريكي الحذر الذي لا تطأ قدماه الأرض إلا بعد أن يطمئن، هل سيعتبر المبارزة على هذه القمم وجهاً لوجه معركة شرف واسترداد للكرامة المهانة على حطام البنتاغون، أم أنهم سيجدون عميلاً يقاتل عنهم بالوكالة مقابل حفنة من الدولارات؟ قوات أحمد شاه مسعود ودوستم على استعداد تام للقيام بهذه المهمة فلماذا يجازف باللعب في حلبة يجهلها مع عدو لا يعرفه؟

رأيت هؤلاء الفتية تواقين لمواجهة القوات الأمريكية على الأرض، لكن ماذا لو واجهوا قوات التحالف الشمالي بدل الأمريكان؟ احتد النقاش حين وصلوا إلى هذه النقطة، فقائل: (المنافقون أولى بالقتال من الأمريكان)، وآخر يرد عليه: (إذن حققت ما يتمناه الأمريكان من تحويل الصراع إلى بيتك ليتحكموا به من بعيد)، وثالث: (لا مناص من مواجهتهم، سندافع عن أنفسنا)، ورابع: (إذن سنخسر قضيتنا الكبرى في إيقاظ الأمة لتتحول من فكرة طرد المحتل إلى فتنة بين المسلمين لا يتعاطف معها أحد).

قال أحدهم: نصح بعض قادة العرب قيادات الطلبة بأن يغيروا خطتهم في مواجهة الترسانة العسكرية الأمريكية من حرب الجيوش النظامية إلى حرب العصابات تفادياً للخسائر لكن الملا محمد عمر رفض هذا بقوله: ماذا سأقول لربي حين أتنازل عن الحكم بشرعه دون أن أصل إلى مرحلة الاضطرار؟

علق أحدهم على كلام الملا محمد عمر: من الخطأ أن تقاتل (تايسون) مستخدماً الملاكمة، اختر لك وسيلة أخرى، قد يتمكن سرب الدبابير من قتل الأسد دون الحاجة إلى الحصول على ناب أقوى من نابه ومخلبٍ أمضى من مخلبه.

لم يكن قرار المواجهة نابعاً من عقل الملا محمد عمر بقدر ما كان نابعاً من عاطفته، لقد قرر المواجهة لأنه لم ير قوة عدوه بل قوة إيمانه، اختلف الحضور بين تصويبه وتخطئته، لكني أبحرت بعيداً عن سطح الخلاف لأغوص في عمق هذه الروح العجيبة التي لم تكن أبداً جاهلة بقانون السياسة الذي تتعامل به بقدر ما كانت تحترم

قانون السماء الذي تؤمن به، من منا لا يرغب أن يأخذ بالرخص عند مواجهة تنين متوحش؟ لقد كان واثقاً من النصر لدرجة أنه كان على استعداد لخسارة الجولة الأولى من النزال كي لا يقال: هرب من المواجهة!

كان الشاي الأخضر يُتَداول بين هؤلاء العرب الذين يشعرون أنهم بدؤوا يفقدون التحكم في مسار قضيتهم، قال أحدهم باستياء: ماذا يعني بقاؤنا في تورابورا وقد تم قصف مستودع الذخيرة ودمرت مضادات الطيران؟ هل سنحارب الطائرات الأمريكية بالكلاشنكوف؟

: الطائرات وحدها لا تحسم المعركة، لابد من نزولهم على الأرض، لم يواجه القوات الخاصة السوفييتية في جاجي إلا شباب عرب أعمارهم دون العشرين بالكلاشنكوف!

أسئلة كثيرة أثيرت في اللقاء لم تجد لها جواباً، ماذا لو سقطت قندهار؟ ماذا لو طال الحصار؟

كانت هناك أنباء عن خروج مجموعة من القيادات العربية العسكرية المحنكة من مدينة (خوست) متجهة إلى تورابورا لمساندة المتواجدين فيها، هنا علمت أن هذا المكان لم يكن اختياره اعتباطياً بل أريد له أن يكون ميداناً لمواجهة حامية متوقعة، لكن الكثيرين ساقتهم الأقدار سوقاً إلى هذه الجبال دون اختيار منهم، تذكرت قوله تعالى ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾.

تساءل أحدهم: كيف لك أن تقاتل وتتحرك وتحصل على التموين الغذائي والذخيرة ما لم يكن أهل الأرض معك؟

أجابه الآخر: وعدتنا بعض القبائل بالوقوف بجانبنا في طرد الغزاة.

لم تستطع القبائل الوفاء بوعدها بسبب القصف الأمريكي على قراهم، كما لم تستطع القيادات العسكرية العربية الوصول إلى تورابورا بسبب قطع الطريق، سقطت قندهار بسبب القصف العشوائي على المدنيين، فالعدو لا يعترف بأخلاق الحروب أصلاً، إنه لا يقصد المنشآت العسكرية أو الاقتصادية أو القيادية ليبرر سقوط الضحايا من تأثير الانفجار، لكنه يقصد تحديداً مدارس الأطفال والمستشفيات والمساجد، إنه يتعمد قتل الأبرياء استقلالاً لا أنهم يسقطون تبعاً، إنه يتحرر من كل الضوابط الأخلاقية بينما يستغل كل خطأ من خصمه وإن كان غير مقصود، قرر الملا محمد عمر الانسحاب من قندهار تجنيباً لأهل المدينة من القتل والتدمير، وحين قرر الانسحاب كان العرب آخر من انسحب من قندهار حماية لظهر (الطلبة)، كانت العشوائية ظاهرة

في صفوف الطلبة لأسباب، منها أن الهجمة العالمية كانت شرسة عليها وفوق إمكانياتها في تحمل صدمة الضربة الأولى، وكذلك فإن أغلب (الطلبة) هم من العوام بسبب خسارتها صفوة علمائها وطلبة العلم في مذبحة (دشتي ليلي) حين ذُبح المئات منهم بالسكاكين، كان من ضمنهم شاب قدموه ليذبح فرآه أحد القادة الشيوعيين فعرفه وتذكر يداً كانت له عليه فأعتقه من الذبح، دارت الأيام فأسر هذا الشاب غدراً مرة أخرى بعد الغزو الأمريكي، تم ترحيله إلى غوانتانامو، لكنه لم يمكث فيها إلا سنة ونصف ليعود إلى وطنه وينضم مرة أخرى إلى الطلبة في الجبال كما أخبرنا أحد الأفغان الذين أسروا لاحقاً.

تركت هؤلاء العرب وانطلقت مع الدليل الأفغاني نواصل مسيرتنا، انضم إلينا بضعة رجال ممن اضطروا لارتقاء تورابورا، قطعنا طريقاً صخرياً وعراً بالسيارة حتى وصلنا إلى نقطة لم نجد فيها بداً من توديع السيارة، ارتجلنا على الأقدام، كنت مستمتعاً برؤية الجبال الشاهقة والأنهار المتدفقة والأشجار الباسقة، ومع مرور الوقت وشدة التعب وطول الطريق المرهق تحولت هذه الطبيعة الخلابة إلى وحش ذي مخالب، صارت الخطوة كألف خطوة والقميص الذي أرتديه أثقل علي من كيس كبير ممتلئ تراباً، سألت الدليل الأفغاني: إلى أين؟

أجاب: (نزديك) وتعني بالعربية قريباً، (خلف هذه القمة)!

رفعت رأسي في إحباط لأرى قمتها الشاهقة، قضينا أكثر من ساعة نمشي في طريق ضيق مرتفع، أودية سحيقة تضحك عليك ساخرة وهي تراك تزل قدمك عن الصخرة الملساء لتتدحرج في الطين، وقمم متكبرة تنظر إليك باحتقار من طرف عينها.

: متى نصل؟

: نزديك!

: كم ساعة بقيت؟

: لا تسأل عن الوقت حتى لا تتعب وتصاب بالإحباط، بل اسأل عن المسافة.

: كم هي المسافة المتبقية؟

: نزديك!

لقد أخبرني سائق الأجرة أن الأفغاني حين يقول لك (نزديك) فلا يعني بالضرورة أنه فعلاً قريب، ظننته يبالغ، لقد أخطأت في ظني، إن اعتياد الأفغان على شظف العيش وقطع المسافات الطويلة التي قد تصل إلى أيام سيراً على الأقدام جعلهم يعتبرون

السير لساعات مجرد نزهة، وحين يرى الدليلُ أحدَنا قَد أوشك على السقوط يدعونا إلى التوقف قليلاً، وبمجرد التقاط أنفاسنا يدعونا إلى الصعود مجدداً، قلت متضجراً: لماذا كلمة (نزديك) تكون طويلة جداً في المشي لكنها في التوقف تصبح قصيرة جداً؟

رأيت عائلات عربية تجمعوا أسفل الجبال الشاهقة، كان حالهم يرثى له، آباء مع أطفال ونساء بعضهن حوامل، اضطروا للوصول إلى هذه الجبال هرباً من المرتزقة، جاءت قوات تابعة للقائد (يونس خالص) الموالي للطلبة وجازفوا بتهريب النساء والأطفال عبر نقاط تفتيش تابعة للتحالف، ونجحوا في إيصالهم إلى مأمنهم في باكستان، وهناك تكفل تجار باكستانيون متعاطفون بكل احتياجات هذه الأسر، وصلت الأنباء عن سقوط مدينة (جلال أباد) بيد التحالف، رأيت سيارة (بيك اب) مليئة بشباب عرب مسلحين بالأسلحة الرشاشة والقذائف المحمولة عادوا أدراجهم إلى (جلال أباد) معرضين حياتهم للخطر حين سمعوا بوجود بعض الأسر العربية علقوا في الداخل ولم يتمكنوا من الهروب، وفي الطريق تواجهوا مع سيارة للميليشيات مكتظة بالمسلحين، صوب كل واحد منهم سلاحه باتجاه الآخر، اقتربوا من بعضهم والعرب ينتظرون أي تصرف متهور ليبدؤوا المعركة، آثر المرتزقة السلامة فوجهوا أسلحتهم نحو الأرض حين رأوا أعيناً يتطاير منها الشرر، وصلوا المدينة وأخرجوا النساء والأطفال العالقين وسلموهم لجماعة الشيخ (يونس خالص)، ثم عادوا أدراجهم إلى (تورابورا).

واصلنا رحلتنا الشاقة، لا نقطع ربوة إلا وتنظر إلينا هضبة في تحدٍ، ولا نعلو شرفاً إلا وخلفه جبل أشم يدعوك إلى الاستسلام، ظللنا نصعد الطريق الوعر من بداية الصباح إلى العصر، وأخيراً وصلنا.

كانت القمم الشامخة تمنحنا شيئاً من شموخها، الأشجار الباسقة الخلابة المنتشرة هنا وهناك تضفي على المكان جواً شاعرياً تزيده النسمات العليلة جمالاً وروعة، الثلوج التي تتساقط علينا في لطف تداعب وجوهنا كالقطن الأبيض المنفوش، كان المكان كأجمل منتجع، بعض المتواجدين في هذه القمم يترقبون تحول هذا المنتجع إلى ساحة معركة حامية الوطيس ستدور رحاها قريباً، الحركة الدؤوب كخلية النحل تشي بأمر وشيك، حفرت الخنادق على كل القمم المحيطة بالمكان، ملئت الخنادق الكبيرة بكميات ضخمة من المواد الغذائية وخنادق أخرى بالذخيرة، وخنادق ارتباطية وبرميلية للحراسة، وحفر وضعت فيها قطع بلاستيكية لتملأ بالماء ثم تغطى بالبلاستيك ويوضع فوقها أغصان للتمويه، بعض طلبة العلم يتنقلون من قمة لأخرى يلقون الدروس والمواعظ، وآخرون ينتظرون الفرصة سانحة للعودة إلى بلادهم، اكتفينا

بالتيمم للصلاة طوال فترة مكثنا في (تورابورا) حتى اسودت وجوهنا من التراب، الحصول على قربة ماء يكلف ساعة من المشي في الجبال للوصول إلى عين الماء ثم ساعة للعودة، ثم استعانوا بعد ذلك بالبغال غير أن شح الماء استمر إلى آخر لحظة من بقائنا في هذه الجبال التي علقت بها ولم أستطع الخروج منها بسبب إغلاق الحدود الباكستانية.

وصفت وسائل الإعلام العالمية نقلاً عن الإعلام الأمريكي (تورابورا) بأنها حصن الكهوف التي تحوي مستشفى ومحطة للطاقة الكهرومائية ومكاتب وفندقاً وطرقاً كبيرة تكفي لدفع الدبابة وأنظمة تهوية في الكهوف!

كنا نستمع إلى هذه الأخبار العالمية عن طريق الراديو ونحن غارقون بالضحك، لقد كانت الولايات المتحدة متخوفة فأرادت تبرير تلكؤها وترددها في اقتحام هذه السلسلة الجبلية بأنها خارقة التصميم فيها الآلاف من المقاتلين، بينما يصل عددهم الحقيقي إلى (٣١٥) شاباً، كان أحد المتواجدين في (تورابورا) يشير إلى بغلة تحمل حاويات الماء وهو يقول: هذه هي محطة الطاقة الكهرومائية، ثم يشير إلى خندق برميل على حافة الجبل وهو يقول: هذا هو الفندق!

الشهب:

كانت ليلة ساحرة بجمالها وصفاء نجومها، تجاوز الوقت الثانية عشرة، نظرت إلى السماء وإذا بي أرى العجب، كنت في حالة انبهار تام وأنا أنظر إلى الشهب تمزق ظلمة الليل، كانت عشرات الشهب تنطلق من كل اتجاه إلى كل اتجاه، ظننتها رصاصاً رساماً لأول وهلة، لكني اكتشفت خطئي حين رأيت بعضها ينطلق من كبد السماء نحو الأفق، منظر رهيب يملأ النفس هيبة وجلالاً، أخذت أعد الشهب فبلغت أكثر من ستين شهاباً خلال دقيقة واحدة فقط، ترددت في إيقاظ أحد النائمين بجواري ليرى ما أرى، عزمت أمري وأيقظته فما كان منه حين رأى المشهد المذهل إلا أن ردد بلا انقطاع: (سبحان الله)، استمرت هذه الظاهرة طوال الليل، تكررت عدة ليال بنفس الكثافة، سألت أحد الأفغان عنها فأخبرني أنها المرة الأولى التي يرى فيها هذه الشهب بهذه الكثافة، ما هذا إذن؟

أهي ظاهرة كونية صادف حدوثها تلك الليالي أم أن في الأمر ما فيه؟ نحن كمسلمين نؤمن أن الشهب من خلق الله يخضع لقانون كوني معقد، لكن القرآن أخبرنا كذلك أن لها وظيفة إضافية لحفظ الكنز المعلوماتي المكنون في السماء من الجن الذي يرسله الإنسان لمعرفة أسرار القدر المتعلق بهم، ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ وكما

في حديث البخاري «الملائكة تتحدث في العنان ـ والعنان: الغمام ـ بالأمر يكون في الأرض فتستمع الشياطين»، هل لهذه النصوص علاقة بما أراه؟ لا أدري!

لكن الذي أدريه أن المخابرات المركزية الأمريكية أفرجت بحكم قضائي ضدها عما يقارب ١٣ مليون صفحة من المعلومات السرية على الإنترنت، من ضمنها وثائق عن هنري كيسنجر والكثير من الدراسات في مجال الأبحاث والتطوير لصالح الوكالة، ومن بينها وثائق خطيرة تبين جانباً غامضاً للوكالة، منها مشروع (Star Gate) بوابة النجوم، والتي قامت بتجارب نفسية أجريت لاكتشاف إدراك الإنسان خارج الحواس التقليدية.

لقد أصبح الباراسيكولوجيا (علم ما وراء النفس) فرعاً من علوم النفس والعقل عند الغرب، وعلى الرغم من أن الكثير من فروعها لا يدرس في الجامعات إلا أن أجهزة المخابرات الحربية تستخدمها عسكرياً، منها ما يعرف بالإدراك فوق الحسي كالحدس والتخاطر الذهني والرؤية عن بعد والتنبؤ واستباق المعرفة وغيرها، فعلى الرغم من تفوق الغرب المادي إلا أنهم لا يفوتون أي مصدر إضافي ليتغلبوا على عدوهم، كما حدثت هناك محاولات لاستخدام السحر في معتقل غوانتانامو كما سيأتي.

في أبريل عام (١٩٥٣) أمر مدير وكالة الاستخبارات المركزية (آلن دالاس) ببدء مشروع (MK ULTRA) السري للغاية والذي كان الكثير من تجاربه مرتبطة بعلم (الباراسيكولوجيا)، أرادت الحصول من خلال المشروع على إمكانية التأثير الإيحائي النفسي على القادة الأجانب والحصول على المعلومات الاستخباراتية عن بعد، ثم أمر ريتشارد هيلمز (Richard Helms) مدير وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) في سبعينيات القرن الماضي بإتلاف جميع ملفات المشروع لإخفاء وسائله ونتائجه، ثم تم استبدال هذا المشروع بمشروع آخر أكبر برعاية الاستخبارات ووزارة الدفاع تحت اسم بوابة النجوم (Star Gate)، وقد تكفل معهد البحوث في جامعة (ستانفورد) بالبحث في استخدام الظواهر فوق الحسية للحصول على معلومات متعلقة بالأهداف الموجودة في الدول الأخرى، وقد توصل أحد مؤسسي برنامج بوابة النجوم ومديره الأول (هارولد بوتهوف) خريج جامعة ستانفورد وأحد أكبر الاختصاصيين في العالم في مجال الالكترونيات الكمية بعد بحوث علمية كثيرة لظاهرة الرؤية عن بعد توصل إلى الاستنتاج التالي:

(على الرغم من الغموض الذي تتميز به البحوث في هذه البرامج إلا أن النتائج الإجمالية تظهر أدلة واضحة على قدرة الإنسان على تلمس الأشياء البعيدة مكاناً وزماناً بأساليب فوق حسية، لكن الأخطاء في هذه العملية المتعلقة بالإدراك فوق الحسي لم

تفهم بعد، وجعلتني خلال سنوات العمل في هذه البرامج على قناعة بأن هذه الحقيقة يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار في أي محاولة لتطوير صورة موضوعية لتركيبة الواقع).

وقالت البروفيسورة (جيسيكا يوتس) التي تعاقدت معها وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية سراً لنقد الظواهر فوق الحسية: (تم بشكل موثوق إثبات وجود الظواهر فوق الحسية وقد تجاوزت النتائج الإحصائية للبحوث التي أجريت ما يمكن تسميته بالصدفة).

وكذلك أطلق الاتحاد السوفييتي السابق في نهاية ثمانينيات القرن الماضي برنامج (فينيكس) السري، حيث يتم تحديد المتميزين بقدرات فوق الحسية وتطوير قدراتهم بواسطة معدات خاصة لاستخدامها في العديد من الأمور، فهل لتواجد الشهب بهذه الكثافة المذهلة في هذا المكان والزمان تحديداً له علاقة بكل ذلك؟

هل كان موجوداً؟

بدأت التحركات العسكرية بقيادة التحالف الشمالي المدعوم أمريكياً باتجاه تورابورا ليلة السابع عشر من رمضان، وفي صباح اليوم التالي كانت أول ضربة من طائرة أمريكية استهدفت خندقاً متقدماً أسفل جبال تورابورا استشهد فيه ثلاثة من العرب، كان صوت الانفجار إعلاناً للبداية كجلجلة الجرس مؤذناً ببدء النزال، كان العرب يتشوقون للمواجهة مع الأمريكان كمواجهة معركة جاجي الشهيرة مع الجيش السوفييتي السابق، لكن الأمريكان آثروا أن يدفعوا في مقدمة المواجهة الآلاف من المرتزقة الأفغان الذين كانوا يقاتلون طالبان قبل أحداث سبتمبر، ليستغلوهم في هذه الحرب بدلاً من الخسائر المحتملة التي قد تلحق في صفوف الجيش الأمريكي حال حدوث التحام بينهم وبين المتواجدين في تورابورا.

كانت قوات التحالف الشمالي بقيادة قادة الميليشيات (حاجي قدير) و(حاجي زمان) و(حضرت علي)، أما قائد كتيبة الدبابات فاسمه (المعلم أول غول)، هذا الرجل ستكون له قصة عجيبة نذكرها لاحقاً.

كنا نستمع للأخبار العالمية عن طريق الراديو وهي تردد اسم تورابورا عشرات المرات في كل نشرة أخبار، أصبحت تورابورا محط أنظار العالم، كانت روسيا تتمنى أن تتورط الولايات المتحدة وتدخل نفس المستنقع الذي غرقت فيه، الصين تتمنى انهيار الاقتصاد الأمريكي في هذه الحرب لتتفرد بالقمة، أوروبا تتعاطف مع حليفها، أمريكا اللاتينية ترقص طرباً لآلام من أذاقها الآلام، دول الشرق الأوسط تقدم تعازيها بيد مرتجفة مذعورة وتبحث في اليد الأخرى عن حليف قوي يخلف هذه القوة الآيلة

للسقوط، الكثيرون ظنوها بداية النهاية لهذا العملاق الذي هيمن على العالم لعقود، شعوب وجماعات وزعت الحلوى والتهاني على ترنح الأب غير الشرعي لإسرائيل، فلما رأوه ينهض من جديد نددوا بالعمل الإرهابي الجبان الذي وزعوا من أجله الحلوى!

كثيرون يتشوفون للنصر المجاني ويتملصون منه حين يطالبهم بدفع الثمن، وكثيرون ينقادون لعاطفتهم في التأييد والرفض فإذا كان خلفها خطرٌ محدقٌ بدلوا آراءهم وألبسوا ذعرهم ثياب الحكمة والحصافة.

كان بعض المتواجدين في الجبال يسخر مما يسمعه في المذياع أن أسامة بن لادن يتواجد في تورابورا، إنهم لا يرونه حولهم، لم يعلموا أن المطلوب رقم واحد عالمياً متواجد بينهم دون أن يشعروا!

كثفت الطائرات الأمريكية غاراتها على تورابورا، انحصر القصف خلال الأسبوعين في دائرة لا يزيد قطرها عن كيلومترين، كانت القذائف الطنية تنزل متتابعة لتحيل هذه الجبال الجميلة إلى حلبة نزال بين فتيةٍ نُزّاعٍ من القبائل وبين أقوى جيش في العالم بالمنظور المادي، إن مجرد حدوث هذه المواجهة غير المتكافئة جديرة بالتأمل بغض النظر عن نتائجها، غلام يافع يتحدى بطل العالم في الملاكمة، والعالم كله يتفرج!!

في الوقت الذي كانت الصواريخ تنهمر علينا كالمطر أقيمت في إحدى الدول العربية حفلة رقص وغناء أسموها (على أنغام تورابورا)! كانوا يتلذذون بآلامنا ويرقصون بمأتمنا الذي لم يَنْفَضَّ بَعْدُ، استمر القصف دون أي فائدة تذكر سوى مقتل سبعة رجال فقط، (إنهم أشباح، يضربون ويختفون) هكذا وصفهم الرئيس بوش في إحدى خطاباته، كانت القذائف تنهال على الجبال فتتفتت الصخور متدحرجة نحو الأودية، أما جلجلة الدوي فبطيئة آخذة في الزيادة حتى توشك طبلة الأذن على الانفجار، يتغلغل الصوت في داخلك فتهز ذبذباته كل ذرة منك، كل هذا وأنت ترى عمود النار يتصاعد من الانفجار ممتداً نحو السماء يأكل بعضه بعضاً، يذكرني بمشاهد الانفجارات النووية التي كنت أراها سابقاً في التلفاز، أما المشهد العام بكل ما يحويه فقصة طويلة لا يفهمها من سمعها بل من عاشها، فمن المستحيل أن يتمكن شخص من عرض الصورة الحقيقية كما هي، إن المشهد الحي بألوانه المفعمة وصخبه المريح ونفسه النابض لا يمكن أن تكشف حقيقته مجرد كلمات.

على الرغم من هول القصف فوق الرؤوس وتفجر الأرض من تحت الأقدام كنت أرى بشراً من نوع آخر، لم يروا القصف قصفاً ولا النيران نيراناً، ولولا أني رأيتهم بعيني ما صدقت بوجودهم إلا في عالم الخيال المغرق في الوهم، لم يعتبروا الموت

كابوساً مرعباً بل صاحباً وفياً، رأيت النيران تتصاعد من الحفر التي أحدثتها طائرات (B 52) وهم يسخنون إبريق الشاي عليه وأحدهم يصيح على الطائرة: نريد القليل من السكر للشاي!

لن أنسى حين صاح أحدهم غاضباً وهو يشير بيده إلى صاحبه: هذا مجنون، حين يرى الطائرة تقترب منا يخرج من الخندق فرحاً وكأنه في عرس!

ثم يلتفت إليه ثائر الأعصاب وقد استفزه الآخر بضحكاته: ستكون سبباً في هدم الخندق على رؤوسنا!

رأيت من يأنف من الانبطاح على الأرض تفادياً لشظايا القصف! أنكر عليه أحدهم: (لا يستخفنك حب الشهادة أن تكون هدفاً سهلاً للعدو)، لكن نصيحته ذهبت أدراج الرياح، لقد رأيت عجباً، في أحلك الظروف وأشد اللحظات حين كانت القنابل تنهمر علينا والحمم تحيط بنا والدخان الملوث باليورانيوم يخنقنا، لم نجد أجلد ولا أشجع من أصحاب الأجساد النحيلة والابتسامة الدائمة، ليست الشجاعة بالفصاحة، ولا الإيمان بحفظ النصوص، ولا الثبات بالدعاوى، إنه الواقع الكاشف لحقيقة المستور في خفايا الصدور، أما غير ذلك فلا تضيع وقتك.

كان دوي القصف يعمل فينا كخشخشة الغربال، يفضح حثالة نفوسنا وثفلها الذي ظنناه صفواً، أما ضمة الموجة الانفجارية التي نرى معها الموت فكمعصرة الزيتون التي تبحث فيها عن زيت يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار.

جللت الغيوم وجه السماء وسالت علينا غُسالَتُها، دوى الرعد مزمجراً فطأطأ الجميع رؤوسهم فزعاً، امتلأ قلبي رهبة، هذا مجرد صوت رعد يتلاشى في ملكوت الجبار، فكيف بالدوي الذي يسبق محكمة الله يوم الدينونة؟

لم نحمل قلباً واحداً بل قلوباً، ولم نحلق على ارتفاع متواز بل متفاوت، ولم نصل معاً خط النهاية بل منا من لم يبرح خط البداية وقد كان يملأ الدنيا عجيجاً بالدعاوى، رأيت بعضهم ممن تمكن من العلوم العسكرية ولمماً من السياسية وإذا به لم يفارق خندقه هلعاً، تربع فيه كأبي الهول شامخاً بأنفه ونسي أنه مكسور، تعطل جهاز اللاسلكي لأحد المسؤولين الذين يتولون حماية المكان فطلب منه مخابرته التي يزين بها صدره دون فائدة فشح بها عليه، وجدته في غوانتانامو من أكثر الناس دعاوى لنفسه بالبطولة وانتقاصاً للمعتقلين ومدحاً للأمريكان، كل الناس شجعان من مسافة بعيدة!

وإذا خلا الجبان بأرض   طلب الطعن وحده والنزالا

لم تمر ثلاث سنين من اعتقالنا في غوانتانامو حتى علمنا أن الرجل قد خان الصحبة وتعاون مع المحققين وافترى على المعتقلين ليخرج، قال لي أحدهم: والله إني لأعلم عنه أموراً لو أخبرت الأمريكان عنها لما شم رائحة الحرية لكني لا أرتضي لنفسي السفال الذي وصل إليه!

ومن العجب أني رأيت من يخجل أن يحني رأسه تحت القصف ويراه من خوارم الشجاعة، وإذا به ينهار في غوانتانامو! نجاحك في اختبار تورابورا لا يعني نجاحك في اختبار غوانتانامو، تنوع الاختبارات في الدنيا يجعلك متوجساً من نفسك فلا تحتفل بالفوز إلا حين تطأ قدماك الجنة.

كان بعضهم طوفاناً جارفاً من حب مفعم يفيض شوقاً للعالم الآخر، وآخرون متلجلجون بالتردد والحيرة والقلق والتوجس من المجهول والرغبة الجامحة للفرار، كانوا متفاوتين ما بين مسجون في براغماتيته وآخر يحلق في خيال مُثُلِه، رأيت المترقب لفرصة النجاة وآخر متلهف للحظة الشهادة، عجيبة تلك النفس البشرية، ترى الأجساد متقاربة وما بين الأرواح أبعد مما بين السماء والأرض.

حاول المتواجدون في الجبال تفادي الصدام مع قوات التحالف الشمالي الذي بدأ يزحف بحشوده نحو تورابورا، أخبروهم عن طريق اللاسلكي بأنهم لا يريدون مواجهات مع الأفغان، هم يريدون الأمريكان تحديداً، تجاهلت قوات التحالف هذا العرض، فما كان من البعض إلا أن كَمَنَ لمجموعة من قوات التحالف في نقطة متقدمة وقتل منهم العشرات ثم رجع دون أي إصابة، كانت رسالة واضحة لكن حجة الدولار أقوى، ومن القصص العجيبة أن أحد هؤلاء القتلى المرتزقة حين حمل إلى بيته في مدينة جلال أباد ليقوم أهله بدفنه رفض والداه أخذه ودفنه، وقالوا لمن أتى به: ادفنوه مع الكلاب، هذا مصير الخونة والعملاء الذين يعاونون المحتل!

دخلت الميدان الطائرة (AC130) فلعبت دوراً محورياً في المواجهات المحتدمة، ساعدها على ذلك تدمير مخزن الذخيرة بما فيها مضادات الطيران، لكن العجب أن كل هذا القصف المتوحش من طائرات (F16 وB52) لم يخلف سوى سبعة شهداء ومثلهم مصابين! لم يكن من مصلحة الولايات المتحدة إطالة الحرب، وكعادتهم خرقوا كل قوانين الحرب والمبادئ الأخلاقية فاستخدموا تكتيكاً دنيئاً وبدؤوا يقصفون القرى المجاورة للضغط على المتواجدين في تورابورا ليستسلموا في أسرع وقت، قتل مدنيون أبرياء، وأطفال ونساء وشيوخ لا ذنب لهم سوى أنهم أصبحوا مجرد ورقة ضغط تستخدمها الولايات المتحدة ضد أعدائها، لم تستطع القبائل الوفاء بعهدها في مساندة المتواجدين في تورابورا نظراً للمستجدات مما سرّع في اتخاذ قرار الانسحاب السريع.

سمعت أحد المسؤولين يقول: لن ننسحب من تورابورا مادام إخواننا في قندهار يقاومون، سنكون آخر من ينسحب!

سمعنا الأخبار في الراديو عن سقوط قندهار، كانت وفود من (حاجي زمان) و(حاجي قدير) و(حضرت علي) تتوافد إلى تورابورا سراً للتفاوض مع جهة مجهولة، علمت لاحقاً أنه أسامة بن لادن نفسه!

كانت الوفود تتحاشى المواجهة وتطلب منه سراً الانسحاب لإثبات أنفسهم أمام الأمريكان بأنهم قادرون على هزيمة أعداء أمريكا وأنهم أهل لنيل ثقتها، كل ساعة إضافية تعني المزيد من القتلى المدنيين في القرى المجاورة، لابد من الانسحاب في أسرع فرصة حفاظاً على أرواح الأبرياء ونظراً للمستجدات الأخيرة بسقوط قندهار وعدم قدرة القبائل المجاورة على توفير الإمدادات للمتواجدين في الجبال، لقد كان الحدث أكبر بكثير من الإمكانيات المتاحة، العالم كله بعدته وعتاده يواجه ثلة قليلة محدودة الإمكانيات، لا أستطيع تحديد سبب الاضطراب في الجانب التنظيمي للمتواجدين في تورابورا.. هل كان قصوراً أم تقصيراً أم الإثنين معاً؟

وادي الشهداء:

أُعِدَّت خطة للانسحاب المفاجئ سراً بالتعاون مع شخصية أفغانية موالية للطلبة والعرب، وبحكم الصحبة الطويلة والثقة الراسخة بينهما فوض أسامة بن لادن القيادة الميدانية لابن الشيخ الليبي مع أنه لم يكن منتمياً لتنظيم القاعدة، قَدِمَ الليبي تورابورا متأخراً بعد سقوط جلال أباد مع بعض القيادات الليبية، وحين رأى أن كل كوادر أسامة بن لادن العسكرية متواجدة في قندهار للدفاع عن المعقل الأساسي للطلبة ولم يبق معه أحد في تورابورا سوى شباب متحمس شجاع لكن تعوزه الخبرة أو من لا يحسن استخدام السلاح واضطرته الظروف لارتقاء هذه الجبال ليشهد هذه المواجهات رغماً عن أنفه، حينها قرر البقاء معه لمساعدته بينما امتنع عن البقاء بقية أصحابه الذين قدم معهم معتذرين بأنهم لا قِبَلَ لهم بأمريكا، ثم رحلوا في سرية تامة نحو الحدود الباكستانية عن طريق دليل أفغاني، رفض ابن الشيخ الانسحاب حتى يتم تأمين طريق للجرحى بواسطة موالين أفغان، تم التنسيق مع الشخصية الأفغانية ذات النفوذ على أن يتم تقسيم الشباب إلى مجموعات تضم كل واحدة منها عشرين رجلاً فقط، في غضون ذلك كانت الطائرات مستمرة في إمطار القمم بأطنان من القنابل، تجمع الكل في آخر موقع في تورابورا باستثناء خمسة مصابين متواجدين في خندق التموين استعداداً لنقلهم إلى مكان آمن عن طريق بعض الأفغان الموالين، تم توزيع الجميع في الخنادق وتحت الآكام، أخبرهم ابن الشيخ بقرار الانسحاب وضرورة تقسيمهم على شكل مجموعات

عشرينية تتسلل تباعاً نحو باكستان، أما الذين لم يفارقوا خنادقهم طوال القصف فكادوا يطيرون فرحاً وآخرون علتهم الكآبة والشعور بذل الهزيمة، صاح أحدهم على ابن الشيخ: لماذا ننسحب ولم نقاتل بعد؟ مادام الأمريكان قرروا عدم النزول فلماذا لا ننزل لهؤلاء الخونة ونحول الميدان عندهم بدلاً من بقائنا هكذا نستقبل القنابل دون حراك؟

أجابه ابن الشيخ في تضجر: إني أرى ما لا ترى، فكر بعقلك لا بقلبك، هناك مدنيون يقتلون دون ذنب، حفاظنا على أرواحهم مطلب شرعي، لا تجادل، افعل بالأمر!

نادى ابن الشيخ الجميع بأعلى صوته: ستكون أول دفعة منسحبة مع الدليل الأفغاني من المصابين وكبار السن، هنا حدث اضطراب وزعزعة، اعترض أحدهم على ذلك، أراد أن يكون ضمنهم للهروب من هذا الجحيم بأقرب فرصة، وحين بدأ اختيار المجموعة المنسحبة زجوا أنفسهم بينهم بالقوة في أنانية معيبة وجبن فاضح، لم أستغرب هذا الموقف من البعض، لكني ذهلت حين رأيت بعض المعروفين بالشجاعة والثبات بينهم، سألت أحدهم لاحقاً حين اجتمعنا في غوانتانامو عن هذا الموقف الصادم فقال لي بكل صراحة: كنت متلهفاً للشهادة لكن قرار الانسحاب زلزلني من الداخل، لقد غير أهدافي من نيل الشهادة إلى انتهاز الفرصة للنجاة، هكذا فجأة!

إذن هذا هو التقلب الذي خافه السابقون، وبعد أن سمعت هذا الشجاع يقول ما قال أيقنت أن من وثق بنفسه فهو جاهل لا يدرك طبيعة النفس البشرية، لقد كان هذا الشاب من أشجع المعتقلين حتى بعد أسره، لكنها كانت لحظة مزلزلة، لحظة خاطفة كان لها أثر رهيب في نفسه، ولعل الله أراد أن يكلنا إلى أنفسنا في مواطن الزلزلة ليبين لنا أن الشجاعة والثبات منه لا منا، فلا يركن المؤمن إلى نفسه، ويتجلى له معنى (لا حول ولا قوة إلا بالله)، لا تحول من الخور إلى العزيمة ولا الذنب إلى الطاعة إلا بالله، ولا قوة على تحقيق النجاح إلا بالله، صدق رسول الله ﷺ حين وصفها بأنها كنز من كنوز الجنة، فالكنز هو المال المدفون تحت الأرض بعيداً عن الأعين، إن معنى (لا حول ولا قوة إلا بالله) مستتر لا يدركه الإنسان لأول وهلة، وإن أدركه فإنه لا يعيشه، فيظل معناه مدفوناً تحت تراب الغفلة والنسيان، حين تخنقك الزنزانة الانفرادية حتى تختلف أضلاعك وتلتف قضبانها حول عنقك فتوقن أنك ستستسلم لا محالة يلوح لك نور (لا حول ولا قوة إلا بالله)، حين تتغنج لك الجندية الحسناء أو تغريك المحققة الفاتنة فيتزلزل إيمانك حتى توشك على السقوط تنتشلك (لا حول ولا قوة إلا بالله)، حين يحيط بك المحققون بمكرهم وأنت مثقل بقيودك التي تعصر عظامك بينما يعصرونك بأسئلتهم المتتابعة فيحيط بك اليأس تملأ (لا حول ولا قوة إلا بالله) قلبك

نوراً وصدرك تفاؤلاً، إنه يريدك أن تصل إلى الحد الذي تدرك فيه ضعفك لترى قوته، وتوقن فيه بعجزك لتبصر قدرته، حتى إذا وصلت علمت أنك ما وصلت إلا به.

طلب ابن الشيخ الليبي من يتطوع للرجوع إلى الخطوط المتقدمة لحماية ظهور المنسحبين، كان الأمر جِدُّ خطير، من المرجح أن التحالف الشمالي قد احتل هذه المواقع، تقدم أربعة شباب تقدح عيونهم عزيمة وإصراراً، انطلقوا معرضين حياتهم لخطر حقيقي بينما يستعد آخرون للانسحاب، كانوا يتقدمون نحو الموت ليمنحوا إخوانهم فرصة للنجاة، من السهل قراءة هذا الموقف ومن الصعب معرفة خلجات نفوسهم وهم يقطعون الأودية والهضاب يترقبون الموت خلف كل شجرة.

مرت المجموعة الأولى بسلام، وفي اليوم التالي جاء دورنا، تم التنسيق مع الشخصية الأفغانية التي أجهلها، فسمح بمضاعفة عدد المجموعة المنسحبة إلى ستين، تحركت القافلة صفاً واحداً نحو الوادي الوعر الذي ينصفه نهر صغير هابط من القمم الثلجية، كان الظلام دامساً تتعثر فيه الأقدام وَتَزِلُّ من الصخور الصماء الزلقة، امتنع كل من يحمل جهاز اللاسلكي من استخدامها احترازاً من الطائرات التي تحوم على ارتفاع شاهق وطائرة (AC130) بشكل خاص حيث لعبت دوراً مفصلياً بالعمليات الحربية.

الصخرة:

وصلنا بطن الوادي، يبدو أن قائد الطائرة لاحظ تحركاً غريباً في الوادي، أطلق صاروخاً مضيئاً فتحول الوادي إلى ما يشبه الملعب الرياضي المضاء بالكشافات الساطعة، صاح أحدهم: (ليتخذ كل واحد منكم ساتراً وليبق ساكناً دون حراك)، لم يكن بقربي أي صخرة أو شجرة أو حفرة، إنما هو حرف الجبل عن يميني والنهر عن يساري، ضممت جسدي ملتصقاً بالجبل، بدأت الصواريخ المشبعة باليورانيوم تنهمر علينا، كانت تشعل الوادي ناراً، والموجات الانفجارية تعصر أجسادنا بعنف حتى توشك أرواحنا أن تخرج، سمعت صوت أنفاسي بوضوح على الرغم من زمجرة الطائرات الحربية، كانت الجثث تتطاير بسبب الموجات الانفجارية، يسقط علي بعضها فأسمع قعقعة الأنفاس وهمهمات التشهد الأخير، استهدف الصاروخ الأول دليل القافلة الأفغاني الذي ترك أهله ليساعد إخوانه في الخروج من هذا المأزق فتمزق أشلاء، كان عدد القافلة بضعة وستين رجلاً، أصيب نصفهم واستشهد النصف الآخر، ولم ينج من الإصابة إلا اثنان فقط، امتدت القافلة مسافة ١٥٠ متراً تقريباً على طول الوادي المتعرج، بدأ الطيار بتصيد القافلة، يقنصهم بصواريخه، استمر القصف من التاسعة ليلاً حتى السادسة صباحاً في هذا الوادي تحديداً، صبوا عليه جام غضبهم، توالت

الانفجارات دون هوادة، أفرغت الطائرة أحقادها لتعود أدراجها فتحل مكانها أخرى حتى طلع الفجر، (إنهم هنا في هذا الوادي، اسحقوهم، لا تبقوا منهم أحداً) هكذا تخيلت الحوار بين قائد الطائرة ومقر القيادة، أخذت أردد (لا إله إلا الله)، كنت أسمعها بكل وضوح تخرج مع أنفاسي المختنقة بالدخان الممتزج بالغبار، لا إله إلا الله، كانت أجمل وألذ كلمة أقولها في تلك اللحظات الحاسمة المصيرية، تلاشت في تلك اللحظة كل العبارات وفنت كل الإشارات وطاشت كل سجلات أعمالي أمام هذه الكلمة العظيمة الثقيلة، لا إله إلا الله، أين كنت عن جمال هذه الكلمة من قبل؟ لماذا انشغلت بالأغصان عن ذلك الجذع المتين الشامخ في السماء؟ كنت أتلذذ بقولها مستمتعاً بحلاوتها، وددت لو أني أرددها إلى آخر الدهر، كانت الجثث تتساقط عن يميني وعن شمالي، شعرت بزمجرة الطائرة تخترق أذني حتى كادت تصمها، كانت الطائرة (AC130) تلتقطنا التقاط الطائر للحب، رأيت شعاع الليزر يحوم حولي، إنه يريدني تحديداً، بدأ بإطلاق الصواريخ علي، كانت تسقط عن اليمين والشمال، اخترقت تسع شظايا جسدي، حافظت على هدوئي التام دون حراك لأني أدرك أن أي حركة مني تعني النهاية، سمعت بقربي أحد الإخوة يصيح: لقد أصبت.

قلت: الزم مكانك، الطائرة ترصد الأجسام المتحركة، اصبر.

: لا أستطيع، الإصابة بليغة، سأغير مكاني.

: لا تفعل.

لم أكمل جملتي حتى سمعت انفجاراً قوياً حمل جسده ورماه فوقي، لقد سمعت غرغرته وهو ينازع الموت، امتلأ أنفي وصدري من الدخان حتى أوشكت على الموت اختناقاً، أخذ الطيار يوجه الصواريخ اتجاهي فكانت تحيد عني يمنة ويسرة، شعرت أني إن لم أقتل من الشظايا فسأقتل من الموجة الانفجارية التي تسبب النزيف الداخلي، أضفت الانفجارات على الجو البارد شيئاً من الدفء، يبدو أن قائد الطائرة أراد أن يدفنني بالصخور فوجه الصواريخ إلى أعلى الجبل لتنهال علي الصخور من أعلى، سمعت طقطقة الحجر منحدراً، خلته ضخماً من جلجلة الصوت، كنت مستنداً إلى الأرض بمرفقي وركبتي حين ارتطمت الصخرة بظهري، أجبرتني شدة الارتطام على افتراش الأرض بصدري وبطني، سال الدم من رأسي وشعرت بكدمات مؤلمة في ظهري، وقفت بقلق وتوجس أمام جلال الموت وهيبته، أنتظر أعظم لحظة في حياتي، إنها لحظة تقرير المصير وإعلان نتيجة الاختبار الأعظم والأخطر، قد جمعت في ميزان القسط كل أقوالي وأعمالي طوال حياتي المزدحمة بالإخفاقات والنجاحات، لتبدأ عملية الفرز، ما لي وما علي، يا لها من لحظة، هنا مر شريط حياتي أمام ناظري سريعاً، كل

هذه السنين مرت كلمح البصر، هل سُرِّعَ الشريط أم أن حياتي كانت خاطفة في الحقيقة؟ لم أكن خائفاً من الموت نفسه، فهو ليس إلا بوابة عبور، لكني كنت خائفاً من نفسي، من عثرة لم أتداركها، وكسر غفلت عن جبره، وخلل لهوت عن إصلاحه، أنى لي في هذه اللحظة أن أتذكر كلمة طائشة اغتبت فيها أحداً لأتداركها بالاستغفار؟ أنى لي أن أستخرج نظرة زائغة أو ظناً أثيماً أو انقياداً لسحر الهوى وسط هذا الركام الهائل من الأقوال والأعمال؟ كيف ألقاك يا ملك الملوك بثوبي المخرق المتسخ؟

اللَّهُمَّ يا من أحطت بأعمالي إحصاءً وعداً، أحطها مغفرةً ورحمةً، وأي قاض رحيم غيرك يطلب منه المذنب عفوه عن جرم لم يحدده؟ اللَّهُمَّ قد أخبرنا حبيبك ﷺ أن قطرة الدم الأخيرة النازفة من أوردة الشهيد تجر معها كل أدرانه، ما ذكرها وما لم يذكرها، فلألقك طاهراً مطهراً يا أيها القدوس.

بدأ الشعور بالقلق والخوف يتلاشى، ليحل محله الشعور بالحزن! شعور غريب تملكني حتى كاد يخنقني، الحزن على كل لحظة مضت لم تكن له، لم يكن الحزن مقتصراً على العثرات والسفاسف وما لا يليق، بل تعداه إلى ما ظننته ذخيرتي يوم ألقاه، إلى الحزن على الانشغال بأهداب العلم عن نسيجه، كنت والقذائف تنهال حولي أعض أصابع الندم على الاستكثار من الخلافيات دون الاستكثار من تدبر القرآن والسنة، حزنت على زمن قضيته في تقمص شخصية القاضي وهو يفصل بين الكوفيين والبصريين في مسائل نحوية فرعية لن أُسْأَل عنها في قبري ولن تبوئني غرف الجنان، أو وهو يقف بين الرازي في (المحصول) والآمدي في (الإحكام) مصلحاً ما بينهما من خلاف أصولي هامشي يخرجني من رياض الطمأنينة الإيمانية إلى وحشة اللغط الجدلي الذي لم يهد إلى الله حائراً ولم يقرب منه آبقاً، ندمت على انشغالي بحفظ الكثير من المتون الشرعية على حساب تأمل الآيات التي حفظتها ولما ألتذ برحيقها بعد، تحسرت على استنفاد ساعات الليل والنهار في حفظ الطريق إلى مكة فانقضى العمر ولم أطف بعد حول الكعبة.

حزنت على حال الجماعات الإسلامية المشغولة في معارك وهمية خاسرة فيما بينها، وَغَفَلَتْ عن الإلحاد المطل برأسه والانحلال المتفشي في الشباب الحائر، وعن بطش التنين المارد الذي يحرق أمم الأرض بناره ليبقيهم عند رجليه عبيداً سخرة.

علمتني الصخرة أن قيمة الأعمال تُعْرَف فيما تمنيته هذه اللحظة، وفيما ألقى الله به لا فيما أتباهى أمام الجماهير به، وفيما يحييني لا فيما يشهرني، مشاعر غريبة غير منسجمة مع الواقع الرهيب الذي كان يحيط بي حينها، لقد رأيت من تحت الصخرة كل ما لم أقو على رؤيته من قبل، أدركت أن كل ما لا أتشرف بحمله معي إلى المَلِكِ

سأرميه عني عند باب قصره، لقد منحتني الصخرة معياراً يعرفني بحقائق الأشياء، وكم حامل جرابه الثقيل مؤملاً نفعه، فلما أفرغه في يوم مسغبته إذا به تراب، كثيراً ما نتوهم أن قدر ما نحمله بوزنه لا بقيمته، لقد علمتني الصخرة ما لم أتعلمه عمري كله، وأزاحت الران عن قلبي الذي ظن نفسه صقيلاً، وكم من تائه في بيداء وهمه لم توقظه صخرته بعد.

توالت بعدها الصواريخ والطلقات بكثافة، كان يطن في أذني أزيز الشظايا الملتهبة وهي تصطك بالصخرة الصلداء التي غطتني كالترس، كل هذه الشظايا كانت ستمزق جسدي لولا أن الله قدر غير ذلك، ما أراده قائد الطائرة لي شراً صيره الله خيراً، وما كان طريقاً للموت أصبح باباً للحياة، كم هي الأمور التي نظنها شراً تحمل في ثناياها الخير العميم، لقد كانت شجة الرأس ورضة الظهر تحت الصخرة حفظاً وعناية.

بدأ هدير الطائرة يتلاشى شيئاً فشيئاً حتى اختفى تماماً، أردت أن أدفع عني الصخرة لأغير مكاني فلم أستطع، ضممت إلي جراميزي واستجمعت كل قوتي ثم دفعت الأرض بيدي ورجلي حتى أزحت الصخرة بصعوبة بالغة، كنت أكح دخاناً ممزوجاً بالغبار، منهكاً، خائر القوى، فاقد التركيز بسبب كمية الدخان التي استنشقتها، نظرت حولي وإذا بي أرى العجب، لقد تغير المشهد تماماً، الأشجار الخضراء تحولت رمادية بسبب المادة المنبعثة من الصواريخ، كانت شبيهة بالبودرة، أهز الشجرة فتنهال علي هذه البودرة الرمادية، أتلفت وإذا بالجثث عن يميني وشمالي، رفعت صوتي: هل هناك أحد لا يزال حياً؟

لم يرد علي أحد، أعدت السؤال فما سمعت إلا صداي يتردد في الوادي: إن كان هناك أحد يسمعني فليغير مكانه حالاً وليبحث عن ساتر له لأن الطائرات ستعود حتماً.

أخذت أتأملهم صرعى مجندلين على التراب، تُرى من هو سعيد الحظ؟ الباقون أم الراحلون؟ من هو الناجي على الحقيقة؟ من غشته الصخرة لتقيه أسباب الموت أم المجندل بدمائه؟ تُرى هل كانت الصخرة تُقاةً من المهلكة أم القتل دَرَكاً للنعيم؟

التفت وإذا بي أراه، كان يبكي ونحن ننحدر إلى بطن الوادي، كان يرى الانسحاب هزيمة، لم يرد العودة، أرادها رحلة بلا عودة فما باله يعود؟ ها هو معفر بالتراب، تسفي عليه الريح لتثير عنه الرماد الذي غشى جسده الممزق كما أراد.

كان بنطالي مبتلاً بالدماء، نفضت عني الغبار والرماد، مشيت مترنحاً قرابة عشرة أمتار، رأيت كومة أحجار، اقتربت منها وإذا بيد تخرج منها، مددت يدي فأمسكتها، جذبته من تحت ركام الأحجار وإذا به أحد الإخوة اليمنيين، قد غطته الصخور المتفتتة بسبب الصواريخ!

أخذ ينفض عنه الرماد، قلت له: ابحث عن مكان يسترك عن القصف لأن الطائرات ستعيد الكرة من جديد.

التفت وإذا بي ألمح من بعيد أجساداً مغبرة تنسل من بين الصخور!

لا زالوا أحياءً! نهضوا من تحت الركام من جديد، خرجوا من براثن الموت وأنيابه رغم كل هذا القصف المتوحش على مسافة محدودة في الوادي لا تزيد على ثلاثمئة متر!

والذي لم يستطع إبادة ستين شاباً مسلماً بكل الترسانة العسكرية المتوحشة لن يستطيع إبادة أمة آمنت بالله الواحد القهار، لقد نهض شطرهم أحياء يتحدون أشرس مارد متجبر في العالم، إنها عظمة الله حين يضع سر قوته في أضعف خلقه!

كانت أنظار العالم كله متوجهة إليهم، إلى هذا الوادي تحديداً، لكن نظر الله قد سبقهم إليهم، أحاط علمه بشهقاتهم المختنقة بالدخان، وبنبضات قلوبهم المستسلمة لحكمه، وبأرواحهم التي رفضت الخضوع إلا له. لقد كانوا له فكان لهم في قانون لا يعلمه إلا المؤمنون.

كنت أمشي وأسقط، ثم أنهض، أجر قدمي جراً لأبحث عن مكان آمن قبل أن تباغتنا الطائرات من جديد بعد أن اكتشفت مكاننا، كانت الرؤية في عيني ضبابية، لم أعد قادراً على التركيز، ابتعدت عن المكان لما يقرب ٥٠ متراً، رأيت شجرة كبيرة معترضة منتصف الجبل الحاد الارتفاع، أردت الابتعاد عن بطن الوادي حيث يكون تأثير الموجات الانفجارية شديداً، غرست أصابعي في عرض الجبل، أحاول أن أرفع جسدي الواهن مستعيناً برجلي، تسلقت، شعرت بإنهاك عام، انهرت، تدحرجت إلى بطن الوادي، أعدت التسلق في محاولة يائسة، تزحلق جسدي على الصخور القاسية وأنا أمد يدي تجاه الشجرة البعيدة كأني أطلب منها أن تمد يدها إلي، كنت أنظر إليها بحسرة الظمآن اليائس من نبع الماء، يراه ولا يقدر عليه، لهج لساني في استسلام تام وضعف شامل: (يا الله)، حين وصلت إلى هذا الاستسلام التام والتبرؤ من مطلق الحول والقوة تدلى إلي حبله، إنه هو من جديد، لن يخذلني كما عهدته، في هذه اللحظة تحديداً، حين توقن أن لا خلاص ولا نجاة، حين تطرق الباب حتى تيأس من فتحه، حين تضعف عن مجرد خطوة وتستسلم أصابعك المرتعشة لينهار جسدك الهزيل المنهك نحو الهاوية، هنا فقط تحملك الملائكة بأجنحتها، إنك لن تصل إليه حتى تدرك أنك لن تصل إلا به، به وحده، حين تتبرأ من نفسك، من قوتك، من تقواك، من إيمانك، من ذكائك، من شجاعتك، تصل إليه عارياً مرتجفاً فيكسوك هو وحده من حلل فضله ورحمته.

تدفقت الدماء في عروقي وانبعثت طاقة غريبة في جسدي، انطلقت متسلقاً، كلما مددت يدي وجدت صخرة تنتظرني، تثبتني، تمسك بيدي، وبمجرد وصولي إلى الشجرة عاد إلي الضعف والخور من جديد، جعلت جذع الشجرة التي تنتصف الجبل الشاهق الحاد بين رجلي، ألقيت بجسدي المنهك الخائر عليها، أغمي علي، لم أنتبه إلا على هدير الطائرة (AC130) وقد عادت مرة أخرى لتصب حمم غضبها على هؤلاء الذين أيقظوا النُمرود من نومه وأخرجوه من قمقمه، كانت توجه ذخيرتها باتجاه كل جسم متحرك فتحيله رماداً، كانت هذه الطائرة الغريبة تطلق عدة أنواع من الذخيرة، تعالى صوت متحشرج يتردد صداه في الوادي: يا إخوة.. أين أنتم؟

صوت يقطع القلب ويذيبه كمداً: يا إخوة أين أنتم؟!

كانت حروفها كالسكاكين، لا تناد إخوانك أيها المضمخ بدمائه في ذلك الوادي السحيق، ها هم حولك ما بين قتيل وجريح، أبوا أن يخذلوك، ليسوا بعيدين لتناديهم، إن كنت منادياً فناد أمة بادية في الأعراب تسأل عن أنبائك، تقتات الخوف وتلتحف الخنوع، تنظر إليك من طرف خفي وهي تقول: ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾، وهي التي كانت تقول في الأمس القريب: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾!

لقد رأيتهم بعيني وهم يئنون من الألم، والدماء تتدفق من شرايينهم دون أن يعلم أسماءهم أحد. إن ألمهم ذلك لم يأخذ منهم سوى ساعة واحدة، لكنهم اشتروا به نعيم الأبد، كانت الملائكة توثق كل لحظة، صوت الأنين المتقطع وحمرة الدماء المتدفقة وحشرجة الصدور وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، كلها في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، نظرت إلى السماء كأنها تنظر إلينا وهي متوشحة بجلبابها الأسود، ترى ماذا يخبئ لنا القدر؟ اللّهُمَّ قد أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، وأي مؤمن بك لا يثق بتدبيرك لشأنه وأنت تسير المجرات وتدير شؤون الأكوان؟

دع الاعتراض فما الأمر لك	ولا الحكم في حركات الفلك
ولا تسأل الله عن فعله	فمن خاض لجة بحر هلك
إليه تصير أمور العباد	دع الاعتراض فما أجهلك

استمر القصف المتوحش من الساعة التاسعة ليلاً حتى السادسة صباحاً دون توقف، أرادوا إبادة كل كائن حي في هذا الوادي، لقد غضب المارد غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، لقد صب جام غضبه على هؤلاء الفتية الذين تجرؤوا

عليه، تجرؤوا على ما لم تتجرأ عليه قوة في العالم كله، إن روح الانتقام لا تعترف بمفاهيم العدالة في ثورة غضبها، إن مجرد وجودك في ذلك المكان يعني أنك منهم، من هؤلاء الذين دمروا بلدهم وقتلوا شعبهم، لا يهم كم قتلوا هم، وكم دمروا هم، إنهم يؤمنون أنهم يحاسِبون ولا يحاسَبون، والكل لهم يخضع وباسمهم يهتف، حباً أو خوفاً لا يهم.

عاد إلي وعيي مع عودة الطائرة المقاتلة لترمي حممها على الوادي، ارتج الدوي المجلجل وارتفعت ألسنة اللهب الهائلة نحو السماء يأكل بعضها بعضاً، امتد الدخان الخانق برائحته الغريبة ليعم المكان، تذكرت أني لم أصل المغرب والعشاء، ضربت بكفي الأرض، تيممت ثم صليت على حالي، جالساً ورجلاي متدليتان على جانبي الشجرة.

تمتمت: (الله أكبر)، أنت أكبر يا الله، أكبر منهم ومن طغيانهم وجبروتهم، المجرة كالذرة في فضاء عظمتك، والذرة كالمجرة في سعة علمك، حكيم في مقادير البلاء، رحيم في تباشير الرخاء.

دوى هزيم الرعد مختلطاً بهدير الطائرات المغيرة، مزق البرق ظلمة الليل بسياطه، لقد طغت زمجرة الرعد على الطائرات وصارت القنابل كفلول جرذان تفر من البرق الذي أعماها بوميضه، غمرتني نشوة علوية بددت كل تعبي ووحشتي، هذا صوت رعده وذاك نور برقه أيها المجرمون الظالمون، هذا الذي آمنت به أيها الأوغاد، هذا ركني الشديد في المدلهمات، ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾، إنه قادر على أن يحسم الصراع بكلمته المقدسة (كن)، لكنه يريد من عبده أن يكون المؤمن المكافح لا الطفل المدلل، أن يصل إليه يشرق بلهاثه لا برحيق لذاته، أن يرفع الراية بيديه المرتجفتين لا أن ترفعه الراية بجسده المترهل.

ساد الهدوء وتبدد الدخان وارتفعت ألسنة اللهب تتراقص فوق حفرة مليئة بالجمر، شعرت بالحيوية وأنا أسمع حفيف الأشجار كأنها تهنئني بالسلامة، أما العصافير فلم أر منها أحداً، لقد رحلت بعيداً عن حمم النار، نظرت إلى ساعتي وإذا بوقت الفجر قد دخل، تيممت وصليت جالساً، قرأت قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۞ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، تخيلت ذلك الليل مولياً دبره يحمل على ظهره عصاه، ها أنت أيها الليل البهيم بدخانك المثقل بالألم والدم قد وليت دبرك راحلاً. تحمل معك أرواحاً قضت بين يديك، فكن بها رفيقاً لأنها أحبتك، كانت تخلو في ديجورك بربها تناجيه، وتشكو إليه غربتها، خذها إليه، إلى من عاشت له وماتت له، ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أخذتني الآية بروعتها حتى كدت أسمع شهيق الصبح يملأ رئتيه، يعيد لقلب الكون نبضه الذي توقف

منصتاً لدوي القصف في ليلة ليست ككل الليالي، في ذلك الوادي الذي ليس ككل الأودية، نظرت إلى قمم الجبال المحيطة وقد كللتها هالة النور المشعشع، احترت ماذا أفعل؟ هل أذهب إلى إخواني في الوادي أتفقد الجريح وأواري الشهيد؟ وماذا يستطيع فعله من لا يوجد في جسده موضع إلا وقد طبعت عليه شظية قبلة؟ عدت أدراجي لأستنجد بإخواني الذين لا زالوا في أعلى الجبل، تحاملت على نفسي أعرج متثاقلاً وقد تسرب الدم من فخذي إلى حذائي، ألفيت كومة أغصان تحت أجمة، التقطت من بينها عصا غليظة أتوكأ عليها لتسند فخذي التي استقرت بها عدة شظايا، مشيت مسافة طويلة قاطعاً مناكب الهضاب، كلما اقتربت طائرة عمدت إلى شجرة تسترني من أجهزتها الدقيقة، وبعد ساعة من السير الذي تقطعه صرخة مكتومة تَفْتَلِتُ مني حين تَزِل الرجل فينبض الجرح كسكين غرس في فخذي، وإذا بي أرى شاباً في بطن الوادي يسير منفرداً، يبدو عربياً، هتفت ملوحاً بيدي، التفت إلي وإذا به هو!

: الله أكبر.. لا زال حياً؟!

حمدت ربي على سلامته، هبطت إليه وصعد إلي يستخفنا الشوق، التقينا في منتصف الجبل تعانقنا طويلاً، قلت مازحاً: لازلت حياً؟ ظننتك الآن تتناول فطورك في الجنة بدلاً من الزبيب والدُّخْن الذي أنهك بطوننا الجائعة!

قال مبتسماً: لا أستحق هذا الشرف، لست وسيماً بما يكفي لتختارني الحور!

أجبته: أحمدُ الله أن هذا ليس هو المعيار، لأنك ستكون أولى مني بالاختيار، ماذا حدث لكم؟

أخذ يقص لي شدة القصف المتوالي طوال الليل ثم قال: استشهد نصفنا وأصيب النصف، حمدت الله أني احتفظت بلفافات طبية في جيبي لمثل هذا اليوم، أخذت أسعف المصابين، أضمد جراحهم، أسقيهم القليل من الماء الذي آتي به من النهر، القليل فقط حتى لا يزداد النزيف.

كان يحدثني مغتماً: لقد كان منظرهم يُبْكي الصخور الصم، هذا مبتور القدم وذاك مقطوع اليد وهذا قد اندلقت أقتاب بطنه وآخر يناديك لتسعفه بقطرة ماء، لقد حاولت ما أستطيع، نحتاج مزيداً من الإخوة.

: هذا ما ظننت، لذلك عدت أدراجي أطلب العون، أخبرني عنك؟

: جرح بسيط هنا (وأشار إلى العضلة التي تنتصف عضلة الرقبة والكتف)، شظية صغيرة دخلت من الأمام وخرجت من الخلف، وأنت؟

: تسع قبلات ساخنة، حب عنيف!

انطلق يحدثني ونحن نقطع الوادي عن مشاركته في الجهاد في كشمير والشيشان، كشمير جنة الله في أرضه، غابات كثيفة ممتدة مليئة بالأسود والنمور، قمم شاهقة، مناظر خلابة، أنهار متدفقة، في هذه اللوحة البديعة هلك الكثيرون بخيانة صديق دفعك بين رصاص المحتل وأنياب الأسود المتربصة، شعب مظلوم أصبح هو ومن يدافع عنه ورقة سياسية تستخدمها الحكومة المجاورة، أما الشيشان فعدو باطش وصديق جسور مقدام، كان يحدثني وأنا أمشي بخطا وئيدة متثاقلة، أتوكأ على عصاي تارة وعلى قصصه المشوقة تارة أخرى، مضى يصف لي شيئاً من ذكرياته: لن أنسى أيام الحصار، حوصرت عاصمة الشيشان (غروزني) بمئات الألوف من الجنود الروس، لقد استماتت روسيا في الحفاظ على ما تبقى من هيبتها المهانة على ذرى الهندوكوش التي غيرت اسمها الطويل بعد غزوها أفغانستان من (اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية) إلى مجرد (روسيا)!

لم يبق إلا جسر ملغوم لابد من عبوره للخلاص من ذلك الحصار الخانق، بلغت القلوب الحناجر واقتربت قصة ذلك الشعب الصامد على النهاية، لكن ثلة قليلة كان لها رأي مختلف، تقدم أحدهم إلى الجسر يتحسس بيديه ورجليه الألغام المتخفية لتنفجر به ويتقطع أشلاءً، يتقدم الآخر ويفعل فعله ليفتح الطريق بجسده لإخوانه، يدوي انفجار عظيم يمزق جسده، يتقدم الثالث ثم الرابع وهكذا حتى تم فتح الطريق للبقية، وضاعت الفرصة على روسيا، ثم انطلق يصف لي حين تاهوا في الثلوج معهم (خطاب) لأسبوعين تقريباً حتى أوشكوا على الهلاك جوعاً وبرداً وقد حاصرتهم القوات الروسية وبدأت تضيق عليهم الخناق شيئاً فشيئاً قبل أن يرى أخ من الطائف رؤيا منامية ترشدهم لثغرة ينجون بها من مصيدة يستحيل عقلاً الإفلات منها.

سألته: ما رأيك بليلة البارحة؟

أجابني مبتسماً وهو يشدد على كل حرف: لو وضعت كل الأشهر التي قضيتها في الشيشان بحصارها وقصفها وجوعها وبردها في كفة وهذه الليلة في كفة لرجحت كفة هذه الليلة، ما رأيته البارحة يفوق الوصف!

ثم أخذ يحدثني بأنه إن خرج سالماً من تورابورا فإنه سيحاول إيجاد طريق يتسلل منه إلى فلسطين، كان يتكلم بلهفة عن أمنيته مذ كان صغيراً أن يستشهد على أرضها، أي روح تلك التي تتجاهل جراحها لتعيش جراح الآخرين؟ لو سمعه الصوفية لأدرجوا في قاموس أحوالهم: (منزلة الفناء عن آلام النفس لتعيش الجمعية مع آلام الأمة)!

ارتقينا عقبة كَأْداء لنصل إلى الإخوة بعد جهد جهيد، رآني القائد (ابن الشيخ الليبي) من بعيد وأنا أعرج متوكئاً على عصاي، وصاحبي بجانبي يسندني، فابتسم وهو يقول جملته المعتادة: (لا بأس ولا بؤس).

قلت مازحاً: كانت حفلة رائعة.

قال: ماذا حدث؟ لقد رأينا هولاً في الوادي، ظننا أن لن ينجو منكم أحد.

قلت وأنا أستحضر تلك اللحظات الرهيبة التي عشناها في ليلة لا توصف: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾.

قال في حزم: عقدنا هدنة مع قوات (حاجي زمان) و(حضرت علي) و(حاجي قدير)، لا نريد مواجهات مع الأفغان، سننسحب الليلة، لقد أخبرت جميع المتواجدين ولم يبق إلا أنتم، الجميع يجب أن يغادر تورا بورا الليلة، يبدو أن الأمريكان آثروا الاحتماء بالمرتزقة ليتجنبوا الخسائر المحتملة واكتفوا بقصف الطائرات، لن أغادر الجبل حتى أتأكد من تأمين جميع الإخوة، الجميع أمانة في عنقي، سواء المقاتلين أو غيرهم ممن اضطر لصعود هذه الجبال.

قلت: لن أستطيع أن أكون معكم، إصابتي تمنعني، بالكاد وصلت إليكم من بطن الوادي.

قال لي: تم الاتفاق مع بعض الجماعات الأفغانية الموالية للطلبة والتي تكن الحب والاحترام للعرب أن يتم إرسال بعض أتباعهم ليعتنوا بالجرحى في مخابئ سرية إلى حين إيجاد طريق لتهريبهم إلى باكستان.

عرضت على صاحبي أن يذهب معهم إلا أنه اختار مرافقتي، هنا كانت نقطة الانفصال عن بقية المتواجدين في تورابورا، رأينا في طريقنا أحد الإخوة وهو يتأمل حفرة ضخمة تتصاعد منها ألسنة اللهب، قال وهو يشير إليها: أتدري لمن هذا الخندق؟

: ومن عساه يكون؟

أخبرني بما أدهشني، قال: كان في هذا الخندق تحديداً أسامة بن لادن وأيمن الظواهري معهما شخص يمني مقرب من بن لادن، فرأى بن لادن رؤيا منامية تحذره من البقاء في الخندق، غيروا مكانهم، وفي هذه الليلة التي تحولوا فيها عن الخندق لم تقصف الطائرات الأمريكية أي قذيفة، كانت ليلة غريبة بهدوئها، ثم جاءت طائرة يتيمة فألقت قنبلة يتيمة، كان ذلك قريباً من الساعة الثانية عشرة ليلاً، نزلت على هذا الخندق تحديداً فأحالته جمراً!

يبدو أن الوفد الأفغاني المفاوض استطاع تحديد مكانه فوضع فيها شريحة.

: إذن لم يقتل أحد؟

: بلى.. قتل أسامة!

: من؟ كيف؟ لم أفهم شيئاً.

: في الليلة التالية جاء شاب يمني فبات في الخندق بعد أن علم أنه فارغ، كانت كنيته أسامة العدني، والغريب أن كنية القتيل كاسم المستهدف، لقد سمعت بنفسي القنوات الأمريكية في الراديو تعلن في اليوم التالي أنه من المرجح أنه قد تمت تصفية أسامة بن لادن.. غريب فعلاً!

: والشاب؟

: لقد تمزق جسده إرباً.

صدمت حين سمعت الكنية، تذكرت دعاءه حين قال: اللَّهُمَّ احشرني من بطون السباع وحواصل الطير، لم نتجاوز المكان بعيداً وإذا بي أرى الغربان يتجمعون على شيء غريب، اقتربت منه وإذا بها أشلاء أسامة العدني، أخذنا نتفقد بقاياه المتناثرة فوجدنا عموده الفقري فيه مزع اللحم، دفناها هناك، على القمة الخضراء، كانت الطائرات تحلق بكثافة ونحن نحفر مختبئين تحت أغصان الأشجار، تركنا المكان للغربان والنسور وهي تحقق أمنية أسامة.

رجعنا على أعقابنا إلى مركز التموين الذي صار موعد الالتقاء مع الأفغان الموالين للعرب، اشتدت آلام الجراح وأصبحت رجلي أثقل مما كانت عليه، نهبط الوادي الوعر، نرتقي الصعود المرهق، نقطع النهر المتدفق، نتسلل تحت الآجام، نجتاز بحذر الممر الضيق على حرف الهوة السحيقة، نتأمل آثار القصف، حفرة عميقة قطرها خمسة أمتار عمقها متران يتأجج اللظى من جمرها، أشجار تحترق، حفر عميقة أخرى من جراء القصف نبعت منها المياه، كانت هناك ينابيع تتدفق من أصل الجبال تجمد بعضها بفعل البرد وبعضها بفعل القصف الذي غير مسارب الصخور تحت الأرض فانقطع الماء، ثم سقط صاروخ آخر على نفس الموقع فانبثق الينبوع متدفقاً من جديد!

كنا في سباق مع الزمن للوصول إلى المركز قبل المغرب، لأننا ندرك تماماً أن الطائرة (AC130) كالبومة التي تعشق العتمة لتلتقط فيها فرائسها، توقفنا عند النهر لنتوضأ ونشرب، ثم جمعنا بين الظهر والعصر، كان الجو بارداً والسماء ملبدة بالغيوم، وصلنا المركز وقد بلغ مني الجهد مبلغاً، توقف النزيف وازداد الألم، سلمنا على الإخوة

المصابين الذين كانوا في حالة يرثى لها، هنا قام صاحبي بدور بطولي، أخذ اللفافات وضمد جراحهم وسقاهم من الماء، بينما استلقيت داخل الخندق في إجهاد شديد ألتقط أنفاسي، كان عمقه متراً ونصفاً تقريباً، متران في مترين طولاً وعرضاً، وضعت على أرضيته الترابية أغصان الأشجار لتخفف من برودة الأرض ورطوبتها، ومع حلول الظلام بقي المصابون في خندقهم بينما بات صاحبي معي، التفت إلي قائلاً: ماذا سنفعل لو كان هناك تقدم للمنافقين؟

قلت: لن يتجرؤوا على التقدم ما دامت الطائرات تقصف تورابورا، يخشون من عدم تمييز الطائرات بيننا.

نظر إلي نظرة حادة تتوقد عزيمة وإصراراً، قال وهو يشير إلى جيبه: لن أفرط فيها أبداً!

: ما هذه؟

: إنها رُمّانة الخلود، قنبلة، لن أؤسر بإذن الله، فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يغيظ العدا.

سمعنا عواء الطائرة (AC130) قادماً من بعيد، صوت أجش يقطر دماً، كنا نرى أشعة الليزر الحمراء المنبعثة من الطائرة، نقطة حمراء تتحرك هنا وهناك عند باب الخندق، ثم تذهب بعيداً تبحث عن فريستها، صلينا المغرب والعشاء جمعاً وقصراً جماعة جلوساً داخل الخندق لعدم قدرتنا على القيام، كان السقف عبارة عن جذوع الشجر مغطى بالتراب من الخارج وعليه الأغصان لتمويه الطائرات، دوت الانفجارات متتالية بكل أنواع الذخيرة، حاولت أن أراجع القرآن فلم أستطع، إن هذه اللحظات الصعبة التي تبلغ فيها القلوب الحناجر لا يمكنك فيها الاسترسال بقراءة القرآن، إلا آيات قليلة تستمد من معين معناها زاداً يثبتك، في هذه اللحظات الحرجة يتجلى لك معنى الذكر، إن تأثير الذكر على القلب لا يكون بمجرد تحريك اللسان بل بملء القلب من معناه. استشعار القلب للمعنى كالوقود، والذكر اللساني كزر التشغيل الذي يقدح الشرر ولا يضيء منفرداً، الكلمة ما لم تخرج من قلب يعيها وجوارح تصدقها تخرج ميتة، إن أعظم ما تختبر فيه إيمانك يكون في اللحظات الفاصلة بين الحياة والموت، إن الإيمان ليس خطبة تلقى على المنبر، ولا متناً شرعياً يحفظ، ولا فذلكة تتفاصح بها على أقرانك، إنه حين تواجه أعظم ترسانة عسكرية على وجه الأرض تأمرك في عنجهية وغرور بالركوع لها فيثبت قلبك شامخاً ليقول: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾.

استمر القصف طوال الليل ولم يتوقف ألبتة، طائرة تتلو طائرة، تفرغ حمم النار من جوفها لتعود أدراجها دون أن تنطلق تجاهها طلقة واحدة، توارت الطائرات عن عيني الفجر بعد أن أطل برأسه على قمم الجبال، عم الهدوء في المكان، أذنا بصوت خفيض ثم صلينا الفجر، وبعد أذكار الصباح قلت له مبتسماً: عيدك مبارك وكل عام وأنت بخير!

حملق بعينيه وكأنه انتبه اللحظة أن اليوم عيد الفطر، قال ضاحكاً: عيد سعيد، تقبل الله طاعتك.

: ما رأيك بهذه الأجواء الكرنفالية والألعاب النارية في هذا العيد؟

نظر إلي نظرة غريبة ثم قال: اليوم سيكون عيدي مختلفاً!

نظرت إليه متعجباً، ثم هب واقفاً كأنه تذكر شيئاً!

: إلى أين؟

: أريد أن أغير ضمادات الجرحى.

كان نشاطه غريباً ذلك اليوم، كان يجهز الطعام ويسعف الجرحى ويحمل المصابين ويصبر المكلومين، هل كان يعلم أن يومه ذلك هو يوم الرحيل فأراد أن يجتهد قدر استطاعته قبل انتهاء السباق؟ لعله أراد أن يجعل البيت الأخير من قصيدة حياته أجملها.

وكان أمر الله قدراً مقدوراً:

كنت أحس الهواء خانقاً، حتى صوت الطيور لم أعد أسمعه، كنت أشعر أن الكون يضرب طبلته بدقات متتالية منسجمة ترقباً لحدث وشيك، كانت هناك موسيقى مقلقة خلف هذا الهدوء، أكاد أسمع نغمتها المتوجسة، شعور غريب، لم يكن شعوراً بقرب الرحيل، فالظبي المطارد يعرف أحياناً سهم الصياد قبل أن يخترق صدره، كنت أشعر أنها ليست سهماً بل شبكة، مستحيل، لن أستأسر بإذن الله ما دام قلبي ينبض، كيف يخشى المؤمن الموت وهو يؤمن أن السعادة بعده؟ كيف وقد علمه القرآن أن الخوف يكون من الحياة لا من الموت؟ لست مجاهداً متمرساً على السلاح لكني مسلم أفضل الموت بعزة على الحياة بذل، والله لأقاومن من يسعى لإذلالي بالأسر ولو بالأحجار، أعوذ بالله من هذه الوساوس والأراجيف الشيطانية، قريباً سيأتي الدليل الأفغاني ليوصلنا إلى الحدود الباكستانية بإذن الله، ثم التوجه إلى سفارة بلدي، تأخر الدليل، تسارعت دبدبة الطبول، وتسارعت معها نبضات قلبي، انتشر النور على رؤوس الجبال الخضراء المحيطة بنا، ارتفعت الشمس، كنت أراها مظلمة، لن أؤسر بإذن الله، لن أستسلم للأراذل يضعوا في يدي قيد الذل والهوان.

جاءت مجموعة من الأفغان الذين رأيت بعضهم من قبل يساعدون المتواجدين في الجبل، اللَّهُمَّ لك الحمد، يبدو أنه الدليل، عانقونا فرحين بسلامتنا، كان بعضهم ينظر إلي بشفقة وهو يرى ملابسي الملطخة بالدماء، قلت: هناك آخرون في الخندق المجاور أحوج مني إلى المساعدة، أخذ بعضهم يقبل يدي بإجلال وهو يقول بعربية ركيكة: في سبيل الله، أسندوا يدي على أكتافهم ليساعدوني في عبور الممر الضيق على حافة الجبل الوعر الشاهق، قالوا لي بغضب: أمريكا (دوشمان) أي أعداء باللغة البشتونية، اطمأن قلبي، بدا لي خيال أبي وأمي، لاشك أنهما قلقان علي بعد كل هذه الأحداث العجيبة، ترى كيف سيكون لقائي بهما؟

وبمجرد تجاوزنا الهاوية الخطرة لم أنتبه إلا ويد تدفعني بعنف أرضاً، لقد تحول هؤلاء إلى ضباع متوحشة أبدت أنيابها حين تمكنت من فريستها، بطرفة عين وجدت نفسي مقيداً بالحبال، لابد أنه كابوس وليس حقيقة، لكن لو كان كابوساً مالي لا أستطيع الاستيقاظ منه؟ أم هو من النوع الذي يخنقك فلا تستطيع الانفكاك منه؟ يا إلهي ماذا حدث؟ حقاً؟ مستحيل، كيف وقد عزمت على عدم الاستسلام للأسر؟ لقد أقسمت ألا أدعهم يضعون في يدي القيود فماذا حدث؟

وقفت مرتجفاً في هذه اللحظة الرهيبة على شاطئ بحر القدر، بحر مظلم متلاطم الأمواج لا قعر له، ابتلع الكثيرين ممن أرادوا كشف سره أو اعتراض حكمه فيما قضاه عبر الدهور، بحر مخيف يحوي عظمة وجلالاً مخبوءاً في أعماقه..

إذا أراد اللَّـه أمـراً بـامـرئ	وكـان ذا عـقـل وسـمـع وبـصـر
أصـم أذنـيـه وأعـمـى قـلـبـه	وسـل مـنـه عـقـلـه سـل الـشـعـر
حـتـى إذا أنـفـذ فـيـه حـكـمـه	رد إلـيـه عـقـلـه لـيـعـتـبـر
فـلا تـقـل فـيـمـا جـرى كـيـف جـرى	فـكـل شـيء بـقـضـاء وقـدر

التفت وأنا معفر في التراب، أريد أن أرى وجوههم، أريد أن أرى أعينهم، كيف تحول هؤلاء من بشر إلى ضباع بطرفة عين؟ كيف انقلبت أعينهم الشفوقة إلى عاتية دون أن تطرف؟ لا تهجم جيوش الظلام على مملكة النهار إلا بعد رسول الشفق، ولا يلف الشتاء وجه الأرض بعباءته البيضاء إلا بعد أن يخلع الخريف كساءها الأخضر، لا شيء في هذا الكون ينتقل من الشيء إلى نقيضه بغتةَ إلا قلبك أيها الإنسان، لقد كانت لحظة فارقة بين الحياة وما هو أشد من الموت، ما الموت إلا دوي المطرقة لمحكمة الآخرة، قاضيها الحكم العدل، أما الأسر فصلصلة قيود أمام ظالم فاجر ينازع الله في ملكه، غرقت في بحر متلاطم من الصدمة، لم أستفق من ذهولي إلا على صرخات مذعورة: لا.. لا!

وإذا بصاحبي يفلت من أيدي الخونة قبل أن يتمكنوا منه، ويخرج من جيبه ما سماها من قبل: رمانة الخلود!

وبسرعة خاطفة انتزع حلقة الأمان ورمى القنبلة بينهم في الوقت الذي أطلق عليه أحدهم النار في صدره، تقافزوا مرعوبين هنا وهناك وتركوني، هذه فرصتي الأخيرة للنجاة من الأسر كما نجا صاحبي، قمت منتصباً ويدي موثقة بالحبال لعلي أحظى بشظية تائهة تحررني، دوى انفجار اعتبرته كلعب الأطفال بعد أن تعودت أسماعنا على القنابل الطنية للطائرات الأمريكية، صفعتني الموجة الانفجارية وتركتني دون خدش بعد أن اختارت بدلي اثنين من القتلة لتلحقهم بصاحبي إلى محكمة الله، لم يتمتعوا بالجائزة الأمريكية التي أعدت لمن يقبض على أسير عربي!

لقد كان الانفجار قريباً مني، قريباً جداً، أقل من عشرة أمتار تفصلني عن الحرية، لكنها أبت أن تفتح لي بابها، ظللت واقفاً لعلها ترحمني وتغير رأيها، لكنها طردتني غير آبهة بحالي، لم يكن بين الحرية والعبودية إلا خطوة، خطوة واحدة فقط، لم يكن بينهما إلا غشاء رقيق، رقيق جداً يكاد يشف ما وراءه، لكنها نقلة هائلة، تنقلك من وهم ظننته حقيقة إلى حقيقة يتبدد دونها كل وهم.

التفت إليه ملقى على ظهره، لم يمنعني الوثاق من أن أتقدم إليه لألقي عليه الوداع الأخير، كان وجهه باهتاً بلا ألوان، لأنه استنفذ كل ألوانه في رسم لوحة آخرته، قبلت جبهته، وبلغته سلامي للحبيب ﷺ وأصحابه الذين سبقوا، كان يلفظ أنفاسه الأخيرة في هدوء، الآن فقط انتهت رحلته الطويلة، من بلده الذي يعشق، إلى غابات كشمير الكثيفة، ثم ثلوج الشيشان، وأخيراً هنا، هنا حط رحاله ليغير مسار رحلته إلى العلاء، وقبل أن يضمحل آخر بريق في عينيه رأيت الارتعاشة الأخيرة لكفه المزرق، لعلها ارتعاشة الروح المنسلة من جوفه كارتعاشة العصفور حين يفلت من قبضة الصياد متجهاً نحو الأفق البعيد، تاركاً وراءه نظرة متحسرة وقفصاً مكسوراً حبس فيه زمناً، كم هو مؤلم حين تحارب الأعداء نيابة عن الأمة فتحاربك الأمة نيابة عن الأعداء.

جذبني أحدهم بعنف من الحبل المتدلي من الوثاق، حدثتني نفسي أن أستفزه في محاولة أخيرة يائسة أنجو بها من ذل الأسر: أنت منافق جبان، خنت دينك وبلدك لتقف مع المحتل المجرم الذي سفك دماء شعبك من أجل حفنة دولارات ستنفد عن قريب.

كان يفهم العربية لكنه لا يتقن الحديث بها، دفعني أرضاً وهو يرطن بالبشتو غاضباً، منعه أحدهم حين توجه لضربي، كان أحدهم يصيح غاضباً متحسراً، ظننته يتأوه على القتيلين، وإذا به يشير إلى صاحبي وهو يوشك على البكاء قائلاً: مسلمان (أي مسلم بالبشتو).

كان نادماً على مشاركته هذا الجمع الخائن مقابل حفنة دولارات، كان يصرخ على القاتل في غضب، وكاد أن يحدث بينهما اشتباك لولا تدخل آخرين، قادوني مجبراً ويداي مقيدتان خلف الظهر، أعرج وسط العشرات من الخونة الذين كانوا أصدقاء قبل قليل، جاءني قائدهم الذي كانوا ينادونه (كومندان خالد) أي القائد خالد، اقترب مني بلطف وقدم لي خبزة فيها لحم، لم نأكل هذا الطعام منذ شهر، طويت بطوننا من الزبيب والدخن، نظر إلى يديّ الموثقتين خلف ظهري، أمرهم بإطلاقهما ثم أعطاني الطعام، كنت جائعاً لكن الحزن على أحباب فقدتهم منعني اللقمة، كان (الكومندان خالد) خصماً شهماً عاملنا بنبل، تفاجأت بجندي أمريكي من القوات الخاصة مندساً بين المئات من قوات التحالف الأفغاني يتستر بالزي الأفغاني والبتو (وشاح يلبسه الأفغان) والبكول (قبعة أفغانية) ولحية خفيفة، هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها جندياً أمريكياً، وجه إلي سلاحه بغرور، رأيت نقطة الليزر الحمراء على قلبي تحديداً، قال لي وكأنه هو الذي أسرني: (أين أسامة بن لادن؟) قالها بعربية ركيكة، أغاظني المعتوه بسؤاله الأحمق، تجاهلته، كرر سؤاله بغضب: أين أسامة بن لادن؟

مر أمامي مشهد إخواني صرعى مجندلين في وادي الشهداء، دماؤهم المتجمدة مختلطة بالتراب، أطرافهم المتفحمة تحت الصخور، صرخت فيه لا شعورياً: (Shut Up).

وبردة فعل غير متوقعة تدخل (الكومندان خالد) وانتهر الجندي الأمريكي ثم أمره بالابتعاد!

ذهلت من موقف الكومندان، عجزت عن تفسيره، أهي نخوة أحيتها من رفاتها عنجهية المحتل؟

رأيت جنوداً أمريكان يتسلقون الجبال من بعيد، أكثرهم قد برزت كروشهم المترهلة وهم يلهثون في حالة مزرية من شدة التعب، أهؤلاء الذين رآهم العالم في أفلام رامبو وكوماندو؟ لقد دفع الجيش الأمريكي بهؤلاء البؤساء في الصفوف الأمامية واحتفظوا بقواتهم الخاصة للعمليات النوعية، كانوا يبحثون عن الأسرى العرب ليتم القبض عليهم من جديد! آلآن وقد قضي الأمر؟

نزع (الكومندان خالد) البكول من رأسه ووضعه على رأسي، ثم كساني وشاحه (البتو) حتى لا يعرف الأمريكان بأني عربي!

ظللت في حيرة مما يحدث، أكان مضطراً للمشاركة في القتال؟ كنت أرى الكثير من الأفغان الذين قاتلوا تحت راية الأمريكان ينظرون إلى الجنود الأمريكان بريبة، من

الخطأ أن نظن أن كل العملاء مجرد دمى لا يعصون العم سام ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، هناك أفكار متباينة ومشاعر متناقضة وآراء مختلفة على الرغم من المصالح المشتركة، هذا ما يفسر عدم ثقة المحتل بكل عملائه والعكس بالعكس، وهذا ما يفسر الموقف الذي حدث أمامي في اليوم التالي حين سمعت أحد الجنود الأمريكان يقول للآخر عن الأفغان العملاء: لا تثق بهؤلاء الخنازير، وهو يظن أني لا أفهم الإنجليزية، ثم التفت إلي فرآني أذكر الله فقال مستهزئاً: انظر إليه يحرك فمه كالسمكة!

لقد فرح الأمريكان بانتصار غير شريف حققه لهم الخونة ثم قدموه لهم على طبق من ذهب، لكنهم غفلوا بأن من خان وطنه سيخون الغزاة يوماً.

الزلزلة:

مررنا على المواقع التي كان يحرسها الإخوة خاوية على عروشها، حفر هنا وهناك تلتهب جمراً، يبلغ قطر بعضها ستة أمتار في عمق ثلاثة أمتار، بلغنا قمة التلة، فوجئت بأعداد كبيرة هائلة من جنود التحالف الشمالي الموالين للولايات المتحدة يرتقون الجبل ومعهم قطعان هائلة من الخراف، توقفنا برهة نلتقط أنفاسنا بسبب الجراح التي تجعل الخطوة كألف خطوة، يا الله، قبل يوم فقط كان المكان يعج بالإخوة الصابرين المحتسبين، وجوههم المغبرة المبتسمة، هنا.. في هذه الحفرة تحديداً، حيث يلتهب الجمر الذي أشعلته طائرة (B52) كانوا يتضاحكون حول التنور الطيني الذي صنعوه بأيديهم وأخفوه تحت شجرة ينتظرون استواء الخبزة والطائرة ترمي حممها حولهم، ما الذي جرى؟ لا يوجد في المكان إلا أنا وست إخوة مصابين، هنا كان ينام فلان، هناك كان يحرس فلان، أما الآن فلا أرى إلا وجوهاً خائنة وقلوباً خاتلة، كانت أعظم زلزال إيماني أواجهه في حياتي، جثث الإخوة مبعثرة في الوادي الذي أسميناه (وادي الشهداء)، الدخان يتصاعد من قمم الجبال، الجمر يلتهب من الحفر التي صنعتها الصواريخ، سقطت الدولة التي كانت تحكم بالإسلام، ها نحن أسرى نساق مقيدين إلى الأعداء يسوموننا سوء العذاب، شعرت بإعصار عنيف يهز شجرة الإيمان في قلبي، يميلها ذات اليمين وذات اليسار، وهي تتشبث بجذورها تقاوم هذا الإعصار الذي باغتها بريحه المدمرة، إنه ذات الإعصار وذات الزلزلة التي واجهها الصحابة يوم الخندق ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ * هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ لقد كنت أحفظ هذه الآية وأعرف تفسيرها، لكني وجدت نفسي في هذه اللحظة أقف أمام هول كان مختبئاً خلف الكلمات، إن العين التي تقرأ الكلمات ليست كالعين التي تعاين الأحداث، والنفس التي تحيا بين السطور ليست كالنفس التي تجعل ما في السطور حياً في دنيا الناس، والذي يكتب في سيرة النبي ﷺ ليس كمن يسير سيره.

لقد رأيت بعيني غدر (عَضَل والقارَة)، تذكرت حين اشتد القصف حتى لم يستطع أحدنا أن يخرج لقضاء حاجته، فسمعت (مُعَتِّب بن قُشَيْر) وهو يتذمر في الخندق قائلاً: (كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط)! وحين أحكمت حلقاتها حول أعناقنا سمعت صوتاً يصيح: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، وحين بلغت أسماعنا أنباء عن انكسار كابل وتقدم الحلفاء نحو جلال أباد توالت الأعذار ما بين مرض وحاجة واتصال للهروب من الجبال فتذكرت قول (أَوْس بن قَيْظي): ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ فيكشف القرآن الحقيقة ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، لقد ألغى القرآن اعتبار العذر الصادق حين يختبئ وراءه العزم على الفرار، وحين أُحْرِزَت العائلات من بطش الخونة إلى جبال تورابورا تذكرت حين أمر النبي ﷺ بالذراري والنساء فرفعوا في الآطام في غزوة الخندق، سمعت قرقرة البطون الجائعة الملجمة برباط يخفف سخفته، رأيت المهاجرين والأنصار يمزقون صدر الأرض بفؤوسهم ليحفروا خنادقهم في الغداة الباردة وهم يعلنون إيمانهم بصوت متعب رغم الخوف والجوع: (والله لولا الله ما اهتدينا.. ولا تصدقنا ولا صلينا.. فأنزلن سكينة علينا.. وثبت الأقدام إن لاقينا)، وإذا بنداء عليل رقراق يخترق جدار الزمن يثبتهم: (اللَّهُمَّ لا عيش إلا عيش الآخرة.. فاغفر للأنصار والمهاجرة)، رأيت الحشود الهائلة من الذين تحالفوا مع العدو الذي احتل بلادهم، رأيت ألسنة اللهب ترتفع هنا وهناك، أشم الدخان الممزوج بالقليل من رائحة الموت والكثير من ذل الأسر وقهر الرجال، في هذه اللحظة تحديداً، هذه اللحظة التي لن أنساها ما حييت، داخلني من الشعور ما لو نزل على الجبال الراسيات لهدها، شعرت كأن الأرض تميد بي، نظرت إلى السماء الملبدة بالغيوم نظرة فيها الكثير الكثير من التساؤلات، من التردد، من الحيرة، من الضياع، شعرت بغصة في حلقي لم أشعر بها في حياتي، كانت تخنقني، تقتلني، تسحقني بقبضتها الفولاذية التي لم أستطع الانفكاك منها، لقد احتوشتني الظنون، نظرت إلى السماء بعيون تائهة وقلب حائر، أهذا ما تريده سيدي ومولاي؟ دولة حكمت بالقرآن سقطت على أيدي المجرمين؟ ها هم عبادك المؤمنون يقادون مكبلين بالسلاسل والأغلال إلى ذل الأسر!

إلهي وسيدي ومولاي لماذا تترك عبد الله بن أبي بن سلول يسخر من جراح النبي ﷺ ويتباهى بصحة رأيه حين دعاهم للسلامة والقعود؟ لماذا تترك عبادك وحدهم يواجهون الأفعى الشريرة لتلتوي على أجسادهم التي أنحلها نصرة دينك، بينما يخذلهم القريب والبعيد ويرمقهم الصديق من بعيد بعيون خاشعة وقلوب واجفة؟ لماذا تتركهم وحدهم يعانون قهر الخذلان الذي هو أقسى من بطش العدوان؟ ثم يتسلق على آلامهم ألف داعية ذي لحية يعرضون أنفسهم كعارضات الأزياء على علية القوم ليؤكدوا لهم

أنهم الأقدر على ترويضهم وعلاج أفكارهم المريضة التي فكرت يوماً بنصرة المظلوم وإعلاء راية كانت معفرة بالتراب؟

في هذه اللحظة فهمت حقاً وعرفت صدقاً معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ * هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾، حينها رأيت من كوة الماضي السحيق أسرى بابل يقادون مصفدين بالسلاسل والأغلال من الأرض المقدسة إلى بابل الملعونة، يقدمهم النبي حزقيال ومعه عشرة آلاف من بني إسرائيل، فيهم الصالحون والأبرار وأبناء الأنبياء والصديقين، يسومهم بختنصر سوء العذاب، تذكرتُ يحيى الحصور تَؤُزُّه الزبانية نحو المذبح ليُقْطَعَ رأسٌ حوى علماً، ويسكت لسانٌ نَطَقَ ذكراً، ويتوقف قلبٌ ضَمَّ حباً، وتخمد أنفاسٌ شهقت وَجْداً، كل هذا من أجل راقصة!

تذكرت كتفه المخلوع وجبهته الدامية وأبا عبيدة يستخرج بأسنانه حلقتي المغفر من وجنته الشريفة، رأيت أصحابه يتساقطون حوله دفاعاً عنه وعما جاء به، تذكرت اليد التي حملت الراية ثم قطعت، تذكرت الفرسان الذين امتزجت دماؤهم بدماء خيولهم دون غايتهم في مؤتة، تذكرت عين صفية حين تقرحت على أخيها المجدع مجندلاً في التراب، سمعت الأنين المرتجف والخنين المرتعد ليلة الهزيمة في بيوت المدينة على أحباب لم يرجعوا من سفح أحد، عندها لاح أمامي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، بإذنه هو، كل ما حدث إنما هو بإذنه، لم تغلبه قوى الشر، إرادته هي الغالبة وحكمه هو النافذ، لكنه أَذِن، أَذِن؟؟ أَذِن أن يقتل الأنبياء ويجرح الرسل ويقاد الأصفياء أسرى بالسلاسل؟ أَذِن أن تسفك دماء الأطهار ويتغلب الباطل على الحق؟ لماذا سيدي ومولاي؟ (لماذا) ليس اعتراضاً بل استفهاماً، (لماذا) أقولها خضوعاً لعظمتك واستسلاماً لحكمك وطلباً لفهم حكمتك كما سألت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، لكني حين أكملت الآية فهمت: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾، إنه يأبى أن يترك المدعي دون إثبات صدق دعواه في المواقف الحاسمة، ليظهر على أرض الواقع علمه المودع جوف اللوح المحفوظ، هنا سكنت نفسي وهدأت روحي واطمأنت للحكمة الربانية، ولطالما قرأت هذه الآية لكني لم أفهم منها ما فهمته تلك اللحظة.

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ هنالك! كأن الآيات قد وقفت على التلة لتشير إليهم من بعيد، هنالك ابتلي المؤمنون، إذن هم مؤمنون على الرغم من زيغ أبصارهم وبلوغ قلوبهم الحناجر وظنهم بالله الظنونا، هم مؤمنون لأن ما صدر عنهم لم يكن شكاً أو اعتراضاً بل تشوفاً لنصرة الدين الذي آمنوا به، والرسالة التي أحبوها

وضحوا من أجلها، أحبوها من كل قلوبهم حتى أضحت أحب إليهم من أنفسهم وأموالهم، ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ لقد زلزلهم الله، الله الذي أحبهم وأحبوه، زلزلهم ليرى مدى ثبات قلوبهم على أرض محبته.

ألا ليت شعري كيف ظن البعض أنها نزلت في المنافقين وقد بدأها بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأنهاها بقوله ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾؟ إن زيغ الأبصار واضطراب القلوب وزلزلة الإيمان جعلت البعض يستبعد حدوث هذا لأفضل جيل عرفته البشرية، لكنها الحقيقة التي لا تفقدنا الثقة بهم، بل تثبت بشريتهم التي تفتح لنا أبواب الأمل لنحذو حذوهم، ولندرك هول ما لاقوه في سبيل المبدأ، إنهم بشر تعثر أقدامهم وليسوا ملائكة يحلقون بأجنحتهم، إنه معنى مخيف محاط بالرهبة لا يفهمه أصحاب الأجساد الناعمة المترهلة على الفرش الوثيرة، ولا الأرواح الهزيلة التي نكصت عن حمل أمانة الحق حين هالها انتفاشة الباطل، لا يفهم هذا من يعيش في مثاليات كتب قصص الصحابة للأطفال، حين يتخيلون أنفسهم مع خالد بن الوليد على تلة الشام الخضراء ينفض عنه غبار اليرموك، إنها زلزلة الصفوة التي لا يدركها أهل الجفوة، إن ارتجافة عمر حتى فاض عرقاً لا يدركها المسلمون بالوراثة ولا المتعلمون للوجاهة، هي اضطراب يعقبه رسوخ، وهزة يتلوها شموخ، ما هي إلا لحظة زلزلة ثم يضربه برجله قائلاً: (اثبت أحد فإن عليك نبي أو صديق أو شهيد).

الغدر:

في الوقت الذي وقعنا فيه بالأسر غدراً كان بقية الإخوة يقطعون الجبال الثلجية سيراً على الأقدام، كان بعضهم مسلحاً، حتى وصلوا إلى قرية على الحدود الباكستانية، في هذه الرحلة ضرب البعض أروع الأمثلة في التضحية والبذل وآخرون في الأنانية والشح، كان البعض يهب رداءه لأخيه ليواجه الثلوج بجسد مرتعش، ويؤثره بلقمته ليقضي هو ليلته يتضور جوعاً، وآخرون لسان حالهم: (نفسي نفسي.. النجاء النجاء)، كان ابن الشيخ حينها يعاني حمى الملاريا، قد تقطع حذاؤه فمشى برجله الحافية على الثلج، كلما رأى أحد الإخوة قابله بابتسامة كأن شيئاً لم يكن، حتى فطن له أحدهم فتوسل إليه أن يأخذ حذاءه فرفض، ومن لطف الله أنهم وصلوا بعد عدة ساعات للقرية فسلمت رجله من الغرغرينا والقطع.

يخبرني أحد من كان بصحبة أميرهم (ابن الشيخ الليبي) أن القوات العسكرية لدولة مجاورة كانت في حالة استنفار قصوى على طول الحدود التي يستحيل تأمينها كلها، كان الوضع مريباً، لقد قصد الدليل الأفغاني أن يسلك طريقاً وعراً طويلاً جداً وقد كان

باستطاعته سلوك الطريق السهل الآمن، لقد كانت مؤامرة حيكت خيوطها بكل دهاء، أرادوا إجهاد هؤلاء الشباب حتى يصلوا منهكي القوى إلى القرية المطلوبة التي انتشرت فيها القوة الأمنية بكثافة واختبؤوا في بعض البيوت، ثم حوصرت من ثلاث جهات، فلما دخلوها أطبقوا عليهم الكماشة، لم يكن الأدلاء الأفغان جميعاً أوفياء، لقد خان بعضهم وصدق آخرون حتى فقدوا أرواحهم دفاعاً عن إخوانهم في الدين، جاء الضباط وقادة القرية إلى ابن الشيخ الليبي وتفاوضوا معه على تسليم السلاح مقابل السماح لهم بعبور الحدود في أمان، وحلفوا له أيماناً مغلظةً بأنهم يكرهون أمريكا على قدر حبهم للمجاهدين، رفض ابن الشيخ الليبي في بداية الأمر قائلاً فيما معناه: (نحن في صراع مع الولايات المتحدة التي تذل أمتنا وتنهب ثرواتها وتدعم أعداءها، فإن كنتم لا تقوون على نصرتنا فلا أقل من أن تتركونا نواجههم)، فأعطوه العهود والمواثيق بأن يتركوهم وشأنهم إن سلموا الأسلحة لضمان أمن بلدهم بمنع دخول هذه الأسلحة الحدود، وبعد تردد قرر تسليم الأسلحة، احتج البعض قائلاً: كيف نثق؟

أجابه: لا أثق، لكنني أخشى من قتل من يقول (لا إله إلا الله) بمجرد الظنون، إن قاومنا فإنه يعني المواجهة المسلحة التي ستؤدي حتماً إلى استئصالنا في نهاية المطاف، وإن وافقنا فهناك احتمال لأن ننجح في الحفاظ إلى حياة هؤلاء الرجال الذين أتحمل مسؤولية المحافظة على حياتهم ما استطعت.

لقد كان ابن الشيخ الليبي من أشجع الناس لكن ورعه حمله على ترك الحذر، أمر الجميع بتسليم سلاحهم، أبدى البعض رفضهم التام، حتى إن بعضهم كان يبكي ويقول: تسليمهم السلاح يعني ذل الأسر، وأنا سأختار الشهادة.

رد عليه الآخر: كلنا ذلك الرجل، ولكن لا يجوز عصيان الأمير.

قرر البعض إخفاء بعض القنابل والمسدسات في حال وجود أي بوادر للغدر، صنع الضباط وقادة القرية وليمة للشباب العرب الذين يقاربون المئتين فيها ما لذ وطاب، لم يعلموا أنهم يسمنون ليذبحوا، تم توزيعهم في بيوت القرية، وعوملوا باحترام بالغ، حتى جاءت ساعة الصفر تم نقلهم واحداً واحداً إلى مكان مجهول بعد تجريدهم من السلاح وتفتيشهم بكل احترام، وبعد التأكد من خلو الأسلحة تم تقييدهم بحجة أنه تقييد مؤقت لعبور الحدود ومن رفض هدد بقوة السلاح، بهذه الخدعة استطاع الضباط الباكستانيون مصادرة كل القنابل المخبأة.

كان ابن الشيخ الليبي في بيت معزول لا يعلم عما يجري، قال للضابط الباكستاني: انظر هناك.

أخذ الضابط ينظر حيث أشار، قال: في كل بيت من هذه البيوت هناك شبان أشجع قلوباً من الأسود، يعشقون الشهادة كعشق غيرهم للحياة، تركوا بلادهم وأهلهم دفاعاً عنكم وعن أمتكم، أتمنى ألا تخذلهم.

أعطاه أغلظ الأيمان أنهم لن يتخلوا عنهم مادام فيهم قلب ينبض!

لم يعلم ابن الشيخ أن هؤلاء الأسود قد تم خداعهم ووضعت القيود في أيديهم.

وصلوا القرية، كانوا متعبين للغاية، كانت هذه القرية معروفة بغدرها منذ أيام الطالبان، تبتسم إليك وجوههم وتلعنك قلوبهم، اختلط حشد العرب النازحين من الجبل يعلوهم الرهق بأهل هذه القرية، كان فيهم بعض الرجال من قرية أخرى محبة للعرب، رحب قادة القرية بهؤلاء الضيوف، كان أهل القرية يهتفون: (مجاهدين زندباد) يعني عاش المجاهدون، علم رجال القرية الأخرى بالغدر والمكيدة لكنهم لم يستطيعوا الإفصاح عن ذلك خوفاً من القبض عليهم لاحقاً وتسليمهم للقوات الأمريكية بتهمة الخيانة لإفشائهم أسرار الخيانة!

كان بعضهم ينظر إليهم بحزن شديد ويهز رأسه بأسف لعلهم يفهمون الرسالة الضمنية، لم يطق أحدهم صبراً فتسلل ثم جذب في خفاء من بين الجموع أحد العرب من أهل المدينة النبوية، فهم المدني ما يحاك في الخفاء، ثم ألبسه قبعته (البكول)، وكساه رداءه (البتو)، حتى يبدو كأنه أفغاني من أهل القرية الأخرى، نظر المدني إلى بقية إخوانه وهم يساقون إلى الأسر دون أن يشعروا، نظر إليهم ودموعه تملأ مقلتيه، فلا هو قادر على تحذيرهم ولا هو يتحمل رؤية هذا المكر والغدر والخذلان، لقد رموا عليهم شباك الغدر وجاؤوا بهم مقيدين تسيل منهم الدماء، ليحاكموهم على جريمة دفاعهم عن قطيع الخراف المستضعفة المهددة بأنياب الضباع والذئاب.

تم تجميعهم في مسجد، كانت نظراتهم المتبادلة تحمل الكثير من الحزن والقهر والتوجس من المجهول، هل سيغدرون بهم؟ وإذا غدروا هل سيسلموننا للأمريكان أم لبلداننا؟ كان البعض يخشى من تسليمه لبلده، حيث البطش والجلاد الذي لا يعرف معنى الرحمة، لم يستطع البعض إخفاء مشاعر اللوم والعتاب على الأمير ابن الشيخ الليبي كيف استغفله الضباط وجعل هؤلاء الشباب عرضة للأسر، لم يكن الأفق واضحاً بعد، الشكوك هي المسيطرة على المشاعر، لم يكن ابن الشيخ الليبي مغفلاً وهو الذي جمع مع القرآن الذي يحفظه صغيراً خبرة عميقة اكتسبها في تاريخه الحافل بالتجارب منذ رحيله إلى أفغانستان سنة ١٩٩٠ لصد المد الشيوعي، لكنه لا يتجرأ على قتل مسلم لمجرد أنه يشك في خيانته، ولو أنه رفض لحدث اشتباك مسلح مع الجيش فيتحول المسار من طرد المحتل ورد عدوانه إلى اقتتال مع فئة تشهد بالتوحيد، لم تصل الأمة

حينها إلى وعي كامل تطالب فيه بحقك دون أن يساء فهمك، سيقف الرأي السائد مع الجيش ويعتبر هؤلاء الفتية بغاة وخوارج تجرؤوا على الدفاع عن أنفسهم، لذلك وجب الصبر حتى تعي الأمة الحقيقة.

الباص:

كدسوهم في باصات كبيرة، وشدوا الوثاق عليهم بعنف فاتضحت أول بوادر الغدر، استغل الجيش الخلاف العقدي فاختاروا الحراس من طوائف أخرى ليتجلى استخدام الخلافات المذهبية لأغراض سياسية، وحين أمن الحراس من تحييد قدرة الأسرى على المقاومة بدؤوا بضرب الأسرى بأخمص الرشاش والإهانات وشد الشعور، انطلق أحد هذه الباصات مسرعاً في الطريق محملاً ببضاعة باهظة الثمن، فالمشتري هذه المرة هي القوة المتسلطة على عرش العالم، كان الجنود يضربون المقيدين في حقد غير مبرر وهم الذين كانوا بالأمس يهتفون بالموت لأمريكا وإسرائيل، كانوا منتشين بلذة الانتصار في خطة غادرة ما كان لها أن تنتصر إلا لخشية خصومهم من إراقة دم حرام، إن هذا الغدر هو أكبر أسباب العنف في العالم، حين يرى خصمك أنك لا تلتزم بشرف القتال فإنه سيعاملك بالمثل، ليس بالضرورة أن يكونوا هم أنفسهم بل أولئك الذين يشاهدون الحدث ولما يدخلوا الحلبة بعد.

كان من بين الأسرى المغدور بهم شخص مفتول العضلات، تمكن من حل قيوده فأبقاها كما هي ظاهرياً، واستخرج بالخفاء سكيناً صغيرة من جيبه السري لم يستطع الجنود اكتشافه عند التفتيش، استغل حالة الجلبة والضوضاء بسبب صوت الباص المختلط بصرخات الجنود يضربون الأسرى المقيدين وجهل الجنود باللغة العربية، فقال للقريبين منه: سأكبر وأهاجم الجنود، وبمجرد سماعكم للتكبير هبوا جميعاً على الجنود لإشغالهم، استطاع أحد الأسرى من حل قيوده هو الآخر،

: الله أكبر..

انقض بسرعة خاطفة على جندي أوسع المعتقلين ضرباً فخنقه بيد وحز عنقه بالأخرى، يصف لي أحد المتواجدين: رأيت دمه يندفع كنافورة صغيرة!

وثب الجميع في هذا الباص تحديداً دون بقية الباصات، والتحم الأسير الذي حل قيوده مع أحد الجنود لمحاولة الاستحواذ على السلاح، بينما ألقى آخرون أجسادهم المقيدة على الجنود الآخرين لإشغالهم، انتزع أحدهم السكين ليقطع الحبال من أيدي المعتقلين، أطلق الجنود النار عشوائياً وهم في حالة من الذعر الشديد، سقط البعض مضرجاً بدمائه، وسط هذه الفوضى التي استغرقت ثواني معدودة تفطن سائق الباص

لهذه الحرب خلفه فرأى أحد الأسرى يسعى للوصول إليه، أصابته حالة هستيرية من الهلع، فتح الباب وألقى بنفسه خارج الباص، تأرجحت الشاحنة في الطريق الخالي، ألقى أحد الأسرى بنفسه على المقود وحاول السيطرة على الباص المترنح دون جدوى، تساقط الجميع على بعضهم، هوى الباص ليتدحرج على جانب الطريق ويستقر أخيراً في المنحدر، عم الهدوء في المكان بعد أن خَلَّف وراءه قتلى من الجنود والأسرى على حد سواء، أما الناجون فهربوا باتجاه القرية القريبة ليواجهوا صدمة أخرى بتبليغ أهل القرية قواتَ الشرطة عنهم، بينما تَسَتَّر المتعاطفون من أهلها على البقية، ثم استطاعوا تهريبهم إلى مكان آمن.

أودع الأسرى في سجن (كوهات) القريب من الحدود الباكستانية الأفغانية، وبعد أيام حدث أمر غريب، استطاعت جهة غير معلومة الوصول عن طريق الرشوة إلى هؤلاء المعتقلين، دخل ضابط باكستاني كبير الزنزانة الواسعة، سألهم سؤالاً واحداً: هل فيكم رجل يدعى (ابن الشيخ الليبي)؟

هل كانوا يريدون التعرف على القائد الميداني في تورابورا لتسليمه إلى الولايات المتحدة؟ أحجم الجميع عن الجواب تستراً عليه، كرر الضابط سؤاله مع تطمينات بأنه إنما يسأل عنه لإخراجه من السجن قبل أن تتمكن الولايات المتحدة من التعرف عليه، لكن من يثق بهؤلاء الخونة بعد كل ما جرى؟

خرج الضابط ثم رجع مرة أخرى وهو يقول: أرجوكم.. هذه الفرصة الوحيدة والأخيرة لإنقاذ ابن الشيخ الليبي، لم يرد أحد، كان ابن الشيخ الليبي بينهم، لكنه اتخذ كنية أخرى للتمويه، خاصة أن أجهزة الاستخبارات العالمية لا تملك صورة جديدة له على الرغم من تداول اسمه كمسؤول عن (خلدن) معسكر التدريب المشهور الذي أنشأه عبد الله عزام، حينها ذكر الضابط اسماً يبدو أنه معروف جداً لدى (ابن الشيخ الليبي)، ثم أتبعه بكلمة سر فتيقن أن الأمر حقيقي، بدأت الغيوم تتلاشى عن هذا الغموض، تم تقديم مبلغ كبير جداً من جهة متعاطفة مقابل إطلاق سراح (ابن الشيخ الليبي) تحديداً، سأل: ماذا عن البقية؟

: لا نستطيع إطلاق سراح الجميع، لقد علم الأمريكان بوقوع عدد كبير من الأسرى العرب في الأسر، تهريبهم جميعاً يعني تواطؤ الجيش الذي سيدفعني أنا الثمن، أنا الآن أعرض نفسي لخطر حقيقي لمحاولة التستر عليك لإخراجك من هنا لعدم علم الأمريكان باعتقالك تحديداً.

هنا فاجأ الضابط بقوله: لن أقبل خروجي وحدي!

صعق وهو يسمع رفضه للخروج من فم الموت، من وحل الذل، من قبضة المارد الغاضب!

أشفق عليه شاب في مقتبل العمر من المصير المحتوم فقال له: اخرج أرجوك، وضعك ليس كوضعنا، خبرتك القيادية وتاريخك الذي عركته السنون يجعل منك صيداً ليس كأي صيد، إن وقعت في يد الأمريكان فلن تفلت إلا أن يشاء الله، أما نحن فغالبنا مجرد شباب متحمس هب لنصرة إخوانه، ثم خروجك لمساعدة الشعب الأفغاني في مقاومة الاحتلال خير من بقائك خلف القضبان بلا فائدة!

ابتسم كعادته في صمت ينطوي على روح مستسلمة لقدر الله، جاءه مرة أخيرة ليسمع قراره الأخير، أجابه: ليس بأب من يترك أبناءه في العراء فريسة للذئاب كي يستلقي على أريكته أمام المدفئة، أرفض الخروج وحدي دون إخواني!

همس له أحدهم بانفعال: على العكس، سيكون خروجك نصرة لنا.

قال كلمته المعهودة: لا بأس ولا بؤ.

خرج الضابط والحزن يعصف قلبه على خسارة مبلغ كبير كان سيربحه لو قبل ابن الشيخ بالخروج.

بدأ ترحيل الأسرى إلى معتقل قندهار، كان من ضمنهم (ابن الشيخ) الذي لم يعرفه الأمريكان بعد، وبعد أيام جاء الجنود ليلاً إلى الخيمة التي يقبع فيها، ثم اقتادوه إلى خيمة التحقيق مغمى العينين بعيداً عن خيام المعتقلين، لا يعلم أحد ماذا جرى له، سمع أحد المعتقلين وهو في خيمة التحقيق أنيناً في الخيمة المجاورة له، أرخى سمعه، فسمع المترجم يصرخ وهو يحاكي المحقق: أنت هو، اعترف!

استطاع تمييز صوت ابن الشيخ وهو يقول له: نعم أنا هو.

وبعد أيام أعادوه إلى خيمته مع البقية، سأله أحد الأسرى خفية: ماذا حدث؟

أجابه وهو يبتسم ابتسامته الهادئة المعروفة: عرفوني، لا بأس ولا بؤس، أخبر الجميع بأن أي أمر يتورط فيه أحدهم مع المحققين فليحملني إياه، أنا الغريق فما خوفي من البلل؟!

لم تمض على كلماته دقائق حتى جاءه الجنود مرة أخرى ثم اقتادوه بعنف إلى حيث لا يعرف أحد، ثم رأى أحد الأسرى نفس الجنود الذين اقتادوه للتحقيق يحملون تابوتاً إلى خارج بوابة المعتقل، ثم سمعوا صوت إقلاع طائرة هليكوبتر، لكن المعتقلين الذين كانوا في ذلك الوقت في معتقل بغرام قريباً من كابل أخبرونا أنهم رأوه خارجاً

من غرفة التحقيق تحيط يده جبيرة، كان مرهقاً جداً، كان هذا آخر عهد المعتقلين به، ثم سمعنا بأن الأمريكان نقلوه إلى إحدى الدول العربية وعذب فيها طويلاً، ثم تم تسليمه بصورة مريبة إلى (القذافي) ليتم تصفيته هناك!

لماذا؟ كيف يفرط الأمريكان في رجل بهذا المستوى دون الاستفادة منه في المحاكمات؟ زال استغرابي حين علمت أن الولايات المتحدة ادعت على لسان (ابن الشيخ) أنه اعترف بوجود علاقة بين القاعدة وصدام ليبرروا غزوهم العراق، لكنهم أرادوا التخلص من الشاهد الوحيد الذي سيدحض هذا الافتراء ليزداد حجم الفضيحة بعد اكتشاف خلو العراق من أسلحة الدمار الشامل المزعومة.

وأخيراً لفظ أنفاسه بسرية تامة في غرفة مظلمة ستضاء يوم تبلى السرائر لترى الجموع المحشورة الحقيقة كاملة.

قال لي سنعود:

وبعد رحلة شاقة مشياً على الأقدام بلغنا أسفل الجبال ووضعوني وحيداً بداية الأمر في غرفة صغيرة، كان معي (الكومندان خالد)، كان صامتاً طوال الوقت، ينظر إلي في شفقة بين الفينة والأخرى، كان يود لو أنه يتكلم العربية، من الواضح أن في صدره كثيراً من الكلام، ما أصعب الصمت حين يعج القلب بالمشاعر، وفي صباح اليوم التالي تم تقييدي بقيود بلاستيكية فعرفت أنهم سيأخذونني إلى الأمريكان، أخرجني اثنان من الأفغان بهدوء، رأيت في الخارج جنوداً أمريكان يحملون رشاشات (M16)، وجهوا أسلحتهم إلي، لمحت شعاع الليزر جهة القلب: يدك فوك!!

: ماذا؟

كان يقصد يدك فوق أي ارفع يدك لكني لم أفهمه، اندفع أحد الجنود الأمريكان وأمسكني بعنف من قيودي وشبك بين أصابعي ثم ضغط عليها بأقوى ما يستطيع، شعرت أن عظام أصابعي ستنكسر، تحملت الألم الممزوج بالإعياء، بدأ يفتشني بعنف ثم عصر على جراحي التي استقرت في داخلها الشظايا، افتلتت مني زفرة متوجعة حاولت كتمها، أخرج من جيبي القرآن ثم رماه بعيداً، صرخت لا شعورياً: قرآن!

شدد قبضته علي، سمعت صرخة من أحد الأفغان أرعبت الجنود الأمريكان الذين حاولوا تهدئة التوتر، التفت وإذا بالأفغاني يحمل القرآن المعفر في التراب وهو يقبله ويضعه على رأسه في أسف ظاهر وغضب مكتوم، أدخلوني غرفة واسعة على محقق أمريكي من أصول لبنانية عرفني باسمه الحركي: (عباس)، لم يسبني أو يعنفني، كان

مرتبكاً، متلهفاً لرؤية هؤلاء الذين لازالوا أحياء بعد كل هذا القصف المتوحش الذي كان يراه من بعيد.

: اسمك؟

: فايز محمد الكندري

: الجنسية؟

: كويتي

: كويتي؟ ما الذي جاء بك إلى هذا البلد الفقير؟

: فقره هو الذي أتى بي إليه.

: لكنه بلد همجي.

: كانوا يعيشون في أمن وأمان حتى غزتهم الهمجية المتدثرة بزي الحضارة ونشرت الموت والدم في كل بيت.

ابتسم ابتسامة المغضب: ما رأيك في أمريكا؟

فتح لي الخيال بابه لتمر أمامي عشرات الصور المبتسمة لشباب قضوا في الجبال، كأنه فيلم يعرض في شاشة كبيرة، منظرهم وهم يخبزون ويعجنون، أسمع أحاديثهم المرحة وتلاوتهم في الثلث الأخير من الليل، وإذا بي أرى جثثهم المتفحمة في الوادي، تلاحقت الصور والمشاهد على عجل لأرى القرى المدمرة، أشلاء مقطعة لأطفال ونساء لا ذنب لهم.

: مجرمة!

نظر إلي صامتاً كأنه يريد المزيد، لا يهمه إن كان ما تقوله حقاً أم لا، المهم أن يعرف لون العين التي أرى أمريكا بها.

انطلقت كالسيل المتدفق الغاضب، كنت أعمى لا أرى إلا مشاهد الجثث ولون الدماء، لم يكن هناك أي فرصة للحكمة أن تتدخل، أن أحمي نفسي من غضبة المارد الجبار، كنت أمده بالحبال وما عليه إلا أن يلفها حول عنقي، كان يسجل كل ما أقول، ثم دفعت ثمن كل كلمة في معتقل بغرام وقندهار، انتبهت على وجود شخص أفغاني معنا في الغرفة، أبيض شعر الرأس والعارضين، عرفت بعدها أنه (حاجي زمان) أحد قادة التحالف الشمالي.

وبعد التحقيق وضعوني في غرفة لوحدي، دخل علي أحد الحراس الأفغان متسللاً

بطريقة مريبة، كان يتلفت بقلق قبل أن يغلق الباب، اقترب مني، أمسك بيدي يقبلها وهو يبكي بكاء مراً، ثم همس لي بالعربية وعيونه تفيض: أنا من الطالبان، أقسم بالله سنعود من جديد، ثم انسل خارجاً!

كان كحال الكثيرين من الموالين للطلبة الذين اندسوا وسط العملاء ليكونوا عيناً للطلبة من الداخل.

ثم جاؤوا ببعض العرب ووضعوهم معي لنُنْقَل بعد ذلك إلى مكان آخر مليء بالجرحى، رأيت شاباً في عمر الزهور من المملكة العربية السعودية قد تفحمت يداه ورجلاه وهو يتقيأ الدم بسبب القصف الأمريكي، نظر إلي نظرة متعبة لكنها مستبشرة بالخلاص القريب، نظرةَ مَنْ عَلِم أنها النهاية فهو ينتظر قدوم وفد السماء عليه قبل قدوم السجان.

دخل علينا مصور وعلى الميكروفون شعار قناة (CNN) ومعه رجل أمريكي كبير في السن أبيض الرأس واللحية وهو يرتدي الثياب الأفغانية، كان مهاباً من قبل الحراس الأفغان، لعله ضابط في (CIA)، رآني وأنا أقرأ من المصحف فقال للمصور: (Film this holy man) صور هذا الرجل المقدس!

قرب المصور الميكروفون مني وسألني عدة أسئلة، لكني تجاهلته وواصلت قراءتي لهذا الكتاب المعجزة الذي يتغلب على كل مصائب الدنيا بمجرد كلمات!

وصادف أني حين قرب مني الميكروفون بلغت قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾!

مكثنا يومين كنا مقيدين فيهما طوال الوقت، ثم نقلوا الجميع إلى سجن جلال أباد المركزي.

سجن جلال أباد:

هناك تفاجأت بوجود العشرات من الأسرى العرب الذين تمت خيانتهم بطرق مختلفة، على الرغم من حزني على وقوعهم في فخ الأسر إلا أني حاولت أن أخفي فرحتي بلقائهم لكن ابتسامتي فضحتني، وبعد عدة أيام دخل علينا مراسل قناة إيرانية يتكلم العربية باللهجة اللبنانية، أغاظني أسلوبه التهكمي، سألني: لماذا جئت إلى أفغانستان؟ فأجبته: لإغاثة هذا الشعب المنكوب.

ثارت الدماء في عروقي من ابتسامته الساخرة، قلت له: عجباً لكم، ملأتم الدنيا عجيجاً بصيحاتكم (الموت لأمريكا) لأكثر من عشرين سنة وإذا بكم حلفاؤهم اليوم في

احتلال بلاد المسلمين، والله لو أرادت الولايات المتحدة إسقاطكم لما كلفهم ذلك الكثير لكن وجود اللص يبرر بقاء الكلب.

تورم أنفه غضباً وانفعالاً وهو يقول: الجمهورية الإسلامية بقيادة آية الله خامنئي ليست كأفغانستان.

قلت له ما زاده حنقاً: شنشنة نعرفها من أخزم، لن يتحول شيبوب إلى عنترة لمجرد أنه صاح بقصيدته!

أخرجوني إلى الساحة الخارجية فقدم لي أحدهم الهاتف، وإذا به أحد المراسلين الأجانب يتكلم العربية، سألني عن بطاقتي الشخصية ثم قال: ما رأيك بأحداث سبتمبر؟

كان رأيي ولا يزال أن من الظلم أن أحكم على طرف المشكلة دون أن أحكم على الآخر، وحين أمنع من الحكم على أحدهما فالعدل أن أمتنع عن الحكم تماماً، قلت له: لا تسألني عن حدث ما رأيته واسألني عما رأيت، سلني عن القرى الآمنة التي أبيدت والأرواح البريئة التي أزهقت، أم أن هؤلاء لا قيمة لهم عندك؟

: أنا أسألك عن ضحايا سبتمبر!

: وأنا أسألك عن ضحايا أكتوبر ونوفمبر وديسمبر وبقية الشهور! تسألني عن حدث وقع في يوم وأسألك عن ألف حدث وقع في ألف يوم! أرفض قتل الأبرياء من كل جنس ودين، لكني أؤمن أن العدالة لا تتجزأ فإن جزئت صارت ظلماً.

: لم يعجبه جوابي وأنهى المقابلة الهاتفية لأنه يرى أن الضحايا الحقيقيين هم ضحاياه هو، أما الآخرون فهؤلاء تبعات الحرب الضرورية لحفظ الأمن القومي، إنه يبرر قتل الأبرياء بينما يرفض تبرير خصومه، إنه يلزم خصمه بالتزام قانون اللعبة بينما يدخل الحلبة محرراً من كل القيود والضوابط والأخلاق والقيم.

عبد الواحد، نائب مدير السجن في مدينة جلال أباد، طويل القامة، ممتلئ الجسم، ذو لحية طويلة ووجه مبتسم، كان يعاملني بأدب واحترام، فكان يناديني (شيخ فايز)، حين قرروا نقلنا إلى سجن كابل حاولوا كتمان الخبر لأنهم يعلمون جيداً أن الأعراق التي تتولى السيطرة على كابل تكره العرب عكس البشتون، وأن وقتاً عصيباً ينتظرنا هناك. فأخفوا الخبر حتى لا تتكرر حادثة الباص مرة أخرى، ابتسم عبدالواحد وهو يقول بلغة عربية فصحى مراعياً أحكام التجويد التي لا تراعى إلا لقراءة القرآن: يا شيخ فايز أنتم ذاهبون إلى سفاراتكم، لا تنسنا من دعائك الصالح يا شيخ فايز! عليكم بقراءة سورة (يس) في طريقكم إلى السفارة!

قريباً من هذا الموقف قال مسؤول أفغاني لأسير مغربي بنفس اللغة العربية المتقعرة بالتجويد: أنا اسمي الشيخ عبد اللطيف، أنا سلفي قح إن صح التعبير! لماذا يا معشر العرب تساعدون طالبان؟ هؤلاء مشركون، عندهم بدع وشركيات؟

صعقت من كلامه هذا بينما هو يعمل مع التحالف الشمالي المدعوم أمريكياً!!

أخبرني أحد المعتقلين الذين تم القبض عليهم في باكستان أن الذي كان يتولى تعذيبهم حارس باكستاني لحيته تصل قريباً من سرته!

لم يكن الإسلام يوماً طقوساً شكلية يكذبها القلب، إنه المَخْبَر قبل أن يكون المَظْهَر.

دخل علينا مدير السجن ثم أشار إلي بالمجيء، لماذا أنا تحديداً؟ هل اختارني عشوائياً أم لأنه رآني أؤم القوم فظنني متبوعاً؟ أخذني إلى غرفة خالية وأنا في حالة من الذهول والتوجس، دخل علي شابان أفغانيان في محياهما سيما الخير يتكلم أحدهما العربية، عانقاني بحرارة عناق من يريد الحديث ولا يستطيع، تحدثا معي بتحفظ: نريد عددكم وأسماءكم وكناكم.

: لكن من أنتم؟

: لا نستطيع إخبارك، لقد دفعنا أموالاً طائلة للوصول إليكم لإيجاد طريقة لتخليصكم من الأسر قبل تسليمكم إلى الأمريكان، هناك تجار قدموا شيكاً مفتوحاً وصل إلى عشرة ملايين دولار لتخليصكم، لا أستطيع قول المزيد.

: لكني لا أتكلم بلسان البقية.

ثم قابلوا أسيراً آخر فعانقهم بحرارة، من الواضح أنه تعرف عليهم وأنه كان على صلة بهم سابقاً، تم إعطاؤهما كل المعلومات، ثم جاءتنا الأخبار بأنهم كانوا على وشك تنفيذ عملية تهريب للأسرى لولا أن الخبر تسرب للأمريكان الذين بادروا بنقل الأسرى إلى سجن كابل المركزي.

في هذا الوقت كان بعض الأسرى الذين يعانون إصابات بالغة يعالجون في مستشفى جلال أباد، من ضمنهم دكتور عظام يمني من حضرموت اسمه (أيمن)، كان أبوه شيخ قبيلة، أرسله لدراسة الطب في باكستان وبعد الحرب أراد مساعدة ضحايا القصف بما يستطيع، لكن القدر ساقه رغماً عنه كما ساق غيره إلى جبال تورابورا، التقيته لاحقاً في غوانتانامو فأخبرني خبراً عجيباً!

بينما هم في المستشفى استطاع رجال غرباء من التسلل إليهم عن طريق رشوة

الحراس، عرضوا على الدكتور (أيمن الحضرمي) صورة ثم سألوه: هل تعرفه؟

: كانت صورتك يا فايز!

ذهلت وأنا أستمع إليه!

: خشيت عليك منهم، سألته ماذا تريد منه؟ فأخبرني أنه صديقك وأنه سمع عن اعتقالي فهو يسعى لتخليصك من الأسر، اطمأننت إلى قسمات وجهه وانفعالاته الصادقة، أخبرته أنه تم نقلكم بالأمس إلى سجن كابل، فاكفهر وجهه حزناً عليك.

سألته عن صفته، فأخبرني أنه أفغاني وأعطاني من صفته ما انقشع به الغموض ولاحت لي الحقيقة، سألته: هل كانت الصورة في جواز سفر؟ فقال: نعم!

إنه هو، عمدة القرية الشهم النبيل، خاطر بنفسه لينقذني.

طلب منه الدكتور أيمن أن يساعد الموجودين من الجرحى في المستشفى، فوافق على أن يحددوا فيه موعداً مناسباً فيرشوا أحد الحراس ليخلع القضبان من نافذة الحمام ثم يعيدها كأنها سليمة فيخرجوا منها، ليجدوا سيارة تنتظرهم خارج المستشفى المحاط بالحراس الذين يقضون ليلهم في تعاطي الحشيش الذي منعته حكومة طالبان حين تولت زمام الحكم ثم انتشر مرة أخرى بعد سقوطها.

وفي اللحظة الموعودة وضع أحد الجرحى قدمه على أنبوب الماء لينكسر وتُدَوّي هَدَّةُ سقوطِه، لتفشل العملية وتهرب السيارة بعد اكتشافها.

سجن كابل تحت الأرض:

جمعونا في باص كبير ثم ربطوا قيودنا بالمقاعد تقييداً محكماً، يبدو أنهم كانوا يخشون تكرار عملية الباص، وفي طريقنا إلى سجن كابل الرهيب تحت الأرض كان أهالي جلال أباد ينظرون إلينا من جانب الطريق بعيون حزينة دامعة، كانت نظراتهم تتحدث، تعتذر، تواسي، تتوعد بالثأر، خرجنا من المدينة لتحيطنا الفيافي الواسعة، رفع أحد اليمنيين صوته العذب منشداً: أخي أنت حر وراء السدود أخي أنت حر بتلك القيود.

وبينما هو ينشد والجميع يردد وراءه بصوت حزين أخذت أتأمل الطريق الخالي أمامنا وإذا به يعج بالسالكين، لسنا وحدنا على طريق الابتلاء، إنها مسيرة طويلة تعج بالآلام والعذابات.

نقلنا إلى سجن كابل تحت الأرض، كان سجناً رهيباً، يعمل فيه حراس أفغان من

العرق الفارسي، موالون للتحالف الشمالي تحت إشراف وكالة الاستخبارات المركزية (CIA)، كدسونا في ثلاثة زنازين ضيقة، حشرونا فيها حشراً حتى جعلوا ثلاثة عشر معتقلاً في زنزانة لا تسع أكثر من أربعة، مساحتها متران في أقل من ثلاثة أمتار، كان الدود والصديد يخرج من جراح بعض المصابين، كنا نتمدد بالتناوب، يمد أحدنا رجله فوق رجل الثاني ويقبض الثالث رجلاً ويمد أخرى والرابع بالعكس وهكذا، ونكون حذرين من أن يمس أحدنا جراح الآخرين، قطعة خبز صغيرة في كل وجبة وصحن صغير من الرز في الغداء لكل سبعة أشخاص بينما يكفي بالكاد لشخص واحد.

تم تقييدنا في اليدين والقدمين وجعلوا بينهما سلسلة قصيرة تجبرنا على البقاء في وضعية الركوع لعدم قدرتنا على الانتصاب، بقيت على هذه الحال لأكثر من عشرة أيام دون أن يفكوا القيود ليلاً ونهاراً، لا عند استخدام الخلاء ولا في غيره، كانوا يخرجوننا للخلاء مرة كل ثلاثة أيام، كنت أمشي منحني الظهر من الزنزانة لأصعد السلم حتى أصل إلى دكة مرتفعة عند باب الخلاء الذي طفح ماؤه النجس وغمر الأرض فأضطر للجلوس عليه ثم أرفع رجلي بعد ذلك وقد تبللت ثيابي بالنجاسة.

اقتادوني إلى غرفة علوية للتحقيق فوجدت فيها محققاً من (CIA)، التقط لي صورة ثم بدأ التحقيق، قلت له: في نفس هذا المكان الذي نحن فيه كان الطلبة يعتقلون مجموعة من الصليب الأحمر بعد وجود أدلة على تورطهم في التجسس لصالح الولايات المتحدة، ومع هذا عاملوهم معاملة إنسانية تختلف عن معاملتكم الوحشية، أثار كلامي حفيظته وأوعز للحراس أن يتم معاملتي بالحسنى، لكن يبدو أنه كان يقصد بالحسنى أمراً آخر!

جاءني أخبث الحراس في إحدى الليالي، صغير في السن اسمه (سخي) يمارس بقية الحراس معه الفاحشة ويتعاطون الحشيش، كنت أستغرب من النقلة النوعية الأخلاقية التي حدثت بعد سقوط الطلبة، كنت أقرأ القرآن فصرخ: (بخي) أي قم بلهجته، وبمجرد خروجي من باب الزنزانة وجدت ثلاثة من الحراس ينتظرونني بالسلاسل الحديدية وخراطيم الماء المقطعة طولياً والمجدولة ببعضها، وضعوني على الأرض ثم انهالوا علي ضرباً بكل ما أوتوا من قوة، رأيت مدير السجن قادماً من بعيد ثم ركلني في صدري وهو يضغط على أسنانه حقداً وغضباً!

استمروا في جلدي لأكثر من عشر دقائق، كنت على وشك الإغماء من شدة الضرب، ثم أرجعوني ترتجف أطرافي إلى الزنزانة القذرة، كانت تلتصق الزهمة في يدي حين ألتحف بالبطانية النتنة لأنال قسطاً من الدفء في هذا البرد القارس، اقتحموا الزنازين فجأة في منتصف الليل وأمرونا بخلع ملابسنا عدا الملابس الداخلية، وأبدلونا

بثياب خفيفة لا تغني من البرد قليلاً ولا كثيراً، غطوا رؤوسنا بأغطية سود، اقتادونا إلى سيارات نقلتنا إلى مكان ليس بعيداً عما كنا فيه، سمعنا هزيز الهليكوبتر مهيمناً على المكان، صاح أحد المعتقلين: يا إخوة سيحملوننا في الهليكوبتر ليرموننا من فوق!

أجابه أحدهم: ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي.

ولماذا هذا العناء؟ ألا تكفيهم طلقة في الرأس وينتهي كل شيء؟ علمت أن صفقة التسليم قد تمت.

سجن باكستان:

في ذلك الوقت كان العرب الذين غُدِرَ بهم مع ابن الشيخ الليبي قد أودعوا سجناً خاصاً على الحدود (سجن كوهات)، أراد الجيش نقلهم إلى سجن آخر، فاستنفروا قواتهم لتجهيز الشاحنات ورفع جاهزية القوات العسكرية والأمنية إلى الدرجة القصوى، فالمسؤولون في هذا البلد يدركون جيداً أن أي خطأ يؤدي إلى هروب الأسرى ستكون عواقبه وخيمة مع الولايات المتحدة التي لا تثق بهم لولا أن الظروف أجبرتهم على التعامل معهم وطلب معونتهم.

كان الصباح بهيجاً يعبق برائحة أشجار الصنوبر المنتشرة حول السجن، كل شيء يبدو جميلاً عدا تلك الزنازين المكتظة بالأسرى المخطوفين غدراً، لازال الأسرى تحت تأثير صدمة الأسر ومفاجئة الغدر. كان البعض يلهج بالذكر والقرآن وآخرون في الأحاديث الهامسة.

انتشر الجنود حول السجن في وضعية الاستعداد والجهوزية الكاملة، تقدم ضابط معه جنوده وقاموا باستدعاء الأسرى فرداً فرداً، ثم يقوم الجنود بتفتيش الأسير تفتيشاً دقيقاً، وسرقة كل ما معهم من أموال وساعات، ثم تغطى عيونهم ويتم ربط كل واحد بأسيرٍ آخر بحبل دقيق قوي، أخذ الجندي يشد الحبل بعنف حتى حز الجلد وازداد الألم، بدأ الجنود بدفع الأسرى دفعاً داخل الشاحنة ثم استدعاء أسير آخر ليتم ربطه مع أخيه وهكذا بنفس المعاملة والإجراءات، استغرقت عملية التفتيش والتقييد وقتاً طويلاً، أما القابعون في السجن فكانوا في قلق وتوتر حيث يرون إخوانهم يقتادون خارج السجن دون أن يعلموا ماذا يحل بهم، أما المقيدون في الشاحنات فقد أصبحت الثواني تمر عليهم كأنها ساعات، بدأ الحبل يحز الجلد ويحقن الدم حتى انتفخت أيديهم بشكل فظيع مما جعل الحبل يضغط على أيديهم بشكل أكبر والألم يتضاعف، وأي حركة من الأسير ستؤدي إلى مضاعفة الألم على أخيه المربوط به، إنها فعلاً لحظات صعبة حين

تطالب بالسكون وعدم الحركة في الوقت الذي تشعر فيه أن يدك ستقطع من شدة الألم، قدر الله أن يكون (طارق) من أوائل الذين تم اقتيادهم إلى الشاحنة.

كان طارق شاباً نحيفاً متوسط الطول يميل إلى القصر، حنطي اللون بشعر ناعم منسدل على كتفيه، كان يتميز بالجلد والصبر وقوة التحمل، وفي الوقت ذاته كان يمزج هذه الصفات بحسٍ فكاهي يحول أصعب المواقف إلى مادة دسمة للتعليق الذي يثير ضحك المستمعين، فهو يجيد تحويل التراجيديا إلى كوميديا إضافة إلى إتقانه حفظ القرآن الذي كساه حلة من الجمال والبهاء، دفع طارق دفعاً إلى الشاحنة وقد أوثقوا يديه بأسير آخر بذلك الحبل الدقيق القوي، لم يشعر في البداية إلا بألم بسيط كان قادراً بسهولة على تحمله، وبعد خمس دقائق فقط بدأت يده تنتفخ بسبب احتقان الدم، حاول تجاهل الألم لكنه شعر أن الحبل ينظر إليه باحتقار وهو يقول له مستهزئاً: (هذه مجرد بداية الحفلة يا صغيري)!

شعر أن يده تنبض بقوة ومع كل نبضة يزداد الألم، أخذ يضغط على أسنانه في محاولة فاشلة في كبت الصراخ الذي أوشك على الانفجار.

يقول: كنت أشعر أن الحبل يضحك ساخراً مني!

استمروا في إقحام الأسرى معهم في الشاحنات وربط كل اثنين في حبل واحد، وبعد أن امتلأت الشاحنة جاؤوا بحبل إضافي ليربطوا به كل الأسرى المتزاحمين في هذه الحاوية الحديدية الصدئة، حاول طارق جاهداً ألا يكون هو أول من يصرخ من شدة الألم، شعر بارتياح وهو يسمع الأنين يعلو هنا وهناك، إذن لا حرج الآن في أن يشاركهم هذه السيمفونية.

أرخى طارق لنفسه العنان وأخذ يئن بصوت مكبوت لعل هذا الأنين يخفف شيئاً من هذا الألم الفظيع الذي أخذ ينتشر في كل جسده كالتيار الكهربائي، في هذه اللحظة دخل الشاحنة (إسماعيل المصري) وهو مقيد اليدين، كان إسماعيل من الأسرى المعروفين بالفكاهة والدعابة وطيبة القلب التي جعلت كل الأسرى يحبونه، تفاجأ إسماعيل بصوت الأنين يتعالى من الأسرى، حاول أن ينظر من تحت غطاء العين ليرى ما يحدث فلم يستطع، لم يعلم سبب هذا الأنين الذي يتصاعد منهم، فأراد أن يقوي عزائمهم ويشد من أزرهم فرفع صوته باللهجة المصرية قائلاً: الله يا شباب؟ ميصحش كِدَه، فين الصبر يا إخوة؟ إنتوا بتصرخوا ليه؟

لم يرد عليه أحد لانشغالهم بهذا الألم الفتاك الذي وصل إلى العظم، عرفه طارق من صوته فانبرى للرد عليه وهو يحاكي لهجته: يا (سمعة) اجلس أنت لِسَّه مشوفتش حاجة، لِسّه الحبل مشتدش على إيدك.

فرد إسماعيل: وإيه يعني لما الحبل يشتد على إيدك؟ اجمد يا بطل، ليس الحبل بأقوى من الصبر!

أضيف إسماعيل إلى قائمة المقيدين، وبعد قليل انتفخت يده وشعر بشعور غير لطيف يسري من يده إلى باقي جسده، حاول التجاهل فلم يستطع، قاوم الألم فهزم أمامه، فليصمت على الأقل، لكن الصمت خانه فأخذ ينادي من حوله في تضجر: يا إخوة الحبل بيشتد على إيدي!

لم يرد عليه أحد، فالكل مشغول بحاله إلا شخصاً كان ينصت له من هناك وهو ينتظر بفارغ الصبر هذه اللحظة ليتخذ منها مادة دسمة للكوميديا السوداء التي يتقنها، إنه طارق!

رفع إسماعيل صوته: يا إخوة الحبل بيشتد على إيدي بعنف!

لا أحد يرد.

: يا إخوة ليه الحبل بيشتد على إيدي؟

ظن إسماعيل أن تحرك الأسير الذي ربط به من الخلف هو سبب شد الحبل عليه، كان المكان يعج بالأنين إلا من ضحكات مكتومة ممزوجة بالأنين من شخص يترصد كلمات إسماعيل بصمت، أخذ إسماعيل يصرخ بغضب: مين اللي جالس يشد الحبل؟ إنت مين؟

لم يعلم المسكين أنه لا أحد يشد الحبل، لكن مع انتفاخ اليد يضيق الخناق على الساعد، والمضحك المبكي أن الوضع انقلب فاشتد صراخ إسماعيل في الوقت الذي بدأ البقية يهدؤون بسبب تخدر أياديهم المنتفخة، رفع إسماعيل عقيرته قائلاً: يا إخوة.. المجرمين عايزين يقطعوا إيدينا ثم يقولوا إنها قطعت بسبب الثلج!

كان يتكلم لوحده بينما لاذ الجميع بالصمت والإنصات لهذا المعذب الجديد، أخذ يسلي نفسه ويصبرها بقراءة ما يحفظه من القرآن، ثم شرع في الدعاء، وبعد برهة من الزمن عاد مرة أخرى يوجه الكلام لمن حوله: يا جماعة ده أنا قرأت اللي حافظه كله ومفيش فايدة!

كان الجنود يضربون أي أسير يحاول التحرك، صاح أحد الأسرى حين وصل إلى مرحلة لم يعد يتحمل فيها المزيد: يا إخوة دعونا جميعاً نقوم قومة رجل واحد فينقطع الحبل ونهرب!

حتى هذه اللحظة لا يعلم أحد إن كان هذا الأسير يعي ما يقول أم أنها من آثار

الهلوسة التي تصيب المعذب إذا بلغ السيل الزبى، أُسْقِطَ في يد إسماعيل فلم يَدْرِ أيحمل هم الأسر أم القيد أم الإهانة أم يده المنتفخة والآلام المبرحة؟ أم هذا الذي لا يدرك أن أي حركة من أحد معناها أن القيد سيضيق أكثر على الجميع وأن الآلام ستتضاعف وأنه ليس الحبل هو الذي سينقطع بل أياديهم هي التي ستنقطع؟

صاح إسماعيل والدم يفور في عروقه: محدش بِأَيِّمْ حد، محدش بِأَيِّمْ حد! (لا أحد يقيم أحداً)

كان إسماعيل مصيباً إذ كيف تستطيع القيام فضلاً عن قطع الحبل؟ وكل الرجال المكدسون في الشاحنة مقيدون بحبل واحد، وهذا الحبل مربوط بالشاحنة، وحبل آخر قد قيد به كل أسيرين ببعضهما، وهنا سلسلة حديدية قد أوثقت كل اثنين ببعضهما، وهناك حبل إضافي قد قيدت به الأرجل، وعيون الأسرى مغطاة، وفوق كل هذا هناك جنود في الشاحنة يضربون كل من تحرك ولو كان مجبراً على الحركة بسبب الآلام الفظيعة.

كان الجنود يضربون هؤلاء المساكين بكل وحشية، مرة باللكمات وأخرى بالركلات، أخذ طارق يضحك وهو يروي لي هذه الأحداث المأسوية وأنا متعجب من هذه الروح التي تحول الحزن إلى نكتة والألم إلى ضحكة، إنها روح ترفض أن تستسلم للبلاء مهما كان شديداً، ثم تتجاوزه وهي تسخر منه حين ظن أنه سيعيقها من ممارسة أجمل الحالات الإنسانية وهو التفاؤل والأمل، قال: كان الضرب عنيفاً لكننا لم نشعر به بسبب الألم الرهيب الذي نشعر به في أيادينا من الحبل التعيس الذي أذاقنا الويلات، وبصراحة كنت أرتاح عندما أضرب لأنه كان يخفف عني شيئاً من ألم اليد، بل تمنيت لو ازداد الضرب حتى يغمى علي فأتخلص من هذا العذاب الذي كان يتضاعف كلما تحرك الأخ المربوطُ معي بأي حركة، استمر هذا الوضع المأسوي ما يقارب العشرين ساعة متواصلة وكأنها عشرون سنة، تمنيت فيها بصدق أن تقطع يدي كي أضع حداً لهذا الألم الفظيع ولو أدى إلى موتي.

كان طارق يتكلم هنا بجدية سرعان ما قطعتها ضحكة وهو يذكر لي قصة ذلك الأخ الذي كان يصرخ من شدة الألم على أخيه المربوط به: اقتلني، اقتلني حتى أرتاح من هذا الألم!

فيرد عليه أخوه الذي لا يقل ألماً عنه: يا سلام! أقتلك وأدخل أنا النار؟

فيرد محاولاً إقناعه: اقتلني وأنا مسامحك دنيا وآخرة!

وما عليك إلا أن تتخيل هذا النقاش البيزنطي من شخصين لا يستطيعان أن يتحركا

قيد أنملة! وبينما هم على هذه الحال البئيسة إذ رفع أحد الأسرى صوته: يا شباب لا تنسوا أذكار المساء، فيرد عليه آخر: أذكار المساء؟ أنا لا أستطيع أن أقول (الله) من شدة الألم وأنت تقول أذكار المساء؟!

وعلى قدر ما في هذه القصة من فكاهة إلا أنها حقيقة عاشها أغلب الأسرى، حين يصل بك الألم لمنتهاه فيعجز لسانك عن إتمام الأذكار، ويبقى القلب ينبض بحب الله ويتأمل مشهداً من مشاهد حكمته التي يعجز عن إدراك غورها حين يُدِيل المجرمين على المسلمين، غير أننا نتلو بقلوبنا شيئاً من حكمته حين يقول: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

استمر طارق يروي لي الأحداث المؤلمة التي يخفف ما فيها من بشاعة تلك الضحكات الجميلة التي ينتزعها انتزاعاً من هذه الآهات المتقطعة التي تتصاعد من هؤلاء الأسرى المساكين الذين تم الغدر بهم وتسليمهم إلى العم سام مقابل مبالغ مالية توضع في حساب كبار الجنرالات، بينما يتمتع الجنود البسطاء بوجبة عشاء لذيذة مقابل نجاحهم في عملية القبض على هؤلاء الرجال، والتي نقول بكل صراحة أنها تمت بنجاح في غاية المكر والدهاء.

حاول طارق كبت الضحكات التي افتلتت كالعادة وهو يقص علي ما حدث حين شعر أن مثانته كادت تنفجر من حبس البول لفترة طويلة، فلم يعرف كيفية الخروج من هذا المأزق، أخبر الأخ المربوط به بحاله فأخبره بأنه هو كذلك قد تحمل ما فيه الكفاية من حصر البول، وبعد حوار لم يدم طويلاً اتفقا على البول سوياً في آنٍ واحد من باب المشاركة في الجريمة النكراء، حتى لا يبوء أحدهما باللوم والعتاب لوحده فيتجزأ اللوم على اثنين بدلاً من رمي اللوم كله على شخص واحد، ومع ارتكاب كل جناية لا بد من تبرير يخفف من عقدة الذنب وتأنيب الضمير فأقنع كل واحد منهما الآخر بأنه من المؤكد وجود ثقب في الشاحنة سيتسلل منه البول إلى الخارج دون أن يتأذى به أحد، فأرخيا لأنفسهما العنان وابتلت الملابس بشيء ساخن، لينطلق بعدها من بين أرجل المقيدين في حركة متعرجة، ثم تفاجآ بأن أرضية الشاحنة مائلة إلى الأمام وأنه لا يوجد هناك ثقب إلا في الخيال الإبداعي لطارق وصاحبه، وفي ذات الوقت الذي ارتكبت فيه هذه الجريمة كان هناك أحد الأسرى يضع رأسه على أرضية الشاحنة وهو مقيد لينال قسطاً من الراحة تخفف عنه شيئاً يسيراً من الآلام التي يعانيها، وبينما هو كذلك إذ شعر بسائل دافئ ذي رائحة ليست غريبة عليه تبلل وجهه ورأسه، وبعد محاولة سريعة للتعرف على هذه المادة الغريبة تم اكتشافها بسهولة فأخذ يصيح في غضب: (بول)! وبما أن مرتكبي هذه الجريمة من المحترفين فقد سجلت القضية ضد مجهول.

فكر أحد الأسرى في حل لتخفيف هذه الآلام المبرحة فارتأى أن يستثير عاطفة أحد الجنود، فطلب منه برفق أن يرخي له الوثاق قليلاً حتى يخفف من حدة المعاناة، أحنى الجندي ظهره ليعالج القيود ثم مضى، وظل هذا الأخ صامتاً، لكن هذا الحوار الهامس لم يخفَ على شخص يتابع كل ما يجري حوله في صمت، إنه طارق!

سأل طارق هذا الأخ إن كانت محاولته قد نجحت، فأجابه الأخ على مضض: الحقير زاد من شدة الوثاق بدلاً من إرخائه عقوبة له على السؤال، لكن الأسير فضل الصمت حتى لا يكون مادة دسمة لسخرية البعض!

وسط هذه المعمعة كان هناك قلة لم يسمع لهم أنين ولم يصدر منهم صرخة ألم، تعجب طارق من ذلك الصبر العظيم الذي يمتلكونه ومن هذا الصمود والثبات الذي إن دل على شيء فإنما يدل على تحمل لا يكاد يوصف.

يقول طارق: وفي نهاية هذه الرحلة الرهيبة التي لن أنساها في حياتي حلوا القيود من أيدينا، فرأيت يدي وأيدي الذين كانوا يئنون من شدة الألم كأنها مقطوعة بالسكين وهي منتفخة ثلاثة أضعاف حجمها الطبيعي والصديد يخرج من الأظفار وقد فقدنا الإحساس نهائياً، صاح أحد الأسرى: لقد وصلنا.

كان هذا الشخص ينظر من تحت غطاء العين من خلال فتحة صغيرة في الشاحنة، فسأله طارق الذي كان حريصاً على ألا تفوته شاردة ولا واردة: كيف عرفت أننا وصلنا؟

قال: أستطيع النظر.

: ماذا ترى؟

: شجر.

: ماذا بعد؟

: شجر!

كان طارق يسأله بين الفينة والأخرى: (ماذا ترى الآن)؟

فكانت الإجابة نفسها في كل مرة (شجر).

استمر طارق في أسئلته المملة لكن الآخر لم يُجِرْه جواباً، كان طارق يتشوق لمعرفة المزيد من المعلومات التي قد توضح له لحظة انتهاء هذا العذاب، لكن يبدو أن الأخ قد اكتشف أنه كان مخطئاً في ظنه أن الشاحنة قد وصلت، فاكتفى بالصمت

المنطوي على غضب وانزعاج، أما طارق فقد دفعه تجاهل أسئلته إلى الصياح: يا أخيْ من أنت؟ ما اسمك؟ يا أخي ما اسمك؟ ماذا ترى؟ أخبرني ما اسمك؟

فما كان من هذا الأخ الجزائري الذي ضاق بهذا الإلحاح المستفز إلا أن قال بلهجته الجزائرية في غضب: (معاك أخوك زْبِل)!

لم يعرف طارق وقتها أن كلمة (زْبِل) باللهجة الجزائرية تعني (زبالة)، أخذ طارق ينادي بإلحاح أشد من السابق: ماذا ترى يا أخ زبل؟ أخبرني يا أخ زبل عن كل ما تراه!

لم يجد الأخ الجزائري بداً من الصمت بينما كان دماغه يغلي من الغضب، ومنذ وصول الأسرى إلى غوانتانامو وهو يبحث عن ذلك الشخص الذي كان يسبه وهم معصوبو الأعين فلم يصل إليه، وبعد سنين كان طارق يروي هذه الحكاية إلى أحد الإخوة في الزنزانة المجاورة فغرق الأخ في ضحكه وهو يقول: ألا تعلم معنى (زبل) في اللهجة الجزائرية؟ معناها (زبالة) يا حبيبي!! وهذا الأخ يبحث عنك منذ سنين!

قدر الله أن يجتمعا في عنبر واحد بعد سنين، فعرفه طارق من نبرة صوته، ولم يشأ أن يفصح له أنه هو المطلوب رقم واحد بالنسبة إليه، كان طارق يسلم عليه يومياً كأن شيئاً لم يكن، لكن أحد الأسرى وشى به لدى الأخ الجزائري مازحاً، فاجتمعا في قفص المشي، وحين رآه الأخ الجزائري دوت قهقهته وهو يقول: أنت هو إذن؟!

توقفت الشاحنة وتم إنزال الأسرى منها، ثم تفتيشهم مرة أخرى، غيروا قيودهم الحديدية إلى قيود بلاستيكية محكمة الصنع، مما يعني أن هناك جهة أخرى سيتم تسليم الأسرى لها، جاء جندي باكستاني وهو يبكي ويقول لأحد الأسرى: (سيتم تسليمك إلى أمريكا)، ثم قال بلكنة أُردية: (مجبور)، ثم دس يده في جيب الأخ المقيد اليدين والمغطى العينين ليبحث عن غنيمة أخيرة ينتزعها منه، فلم يجد إلا نظارة، فأخذها ودسها في جيبه وهو يتباكى قائلاً: عليك بالدعاء!

لم يَدُر في خَلَدي أن إنساناً قد يصل به النفاق إلى هذا الحضيض.

سجن بغرام:

إنها بداية شهر يناير، كان الطقس بارداً جداً، ترتج أسماعنا بهزيز الهليكوبتر، تعصف بنا الهواجس ونحن معصوبو الأعين، يبدو أننا في مطار كابل، التفت ذراع قوية مفتولة العضلات حول عنقي، انتزعني من السيارة وظلت رجلي متدلية في الهواء، كانوا عمالقة، سلط أحدهم كشافاً ساطعاً إلى عيني بينما راح آخر يتحسس جسدي بيده، كنت

أسمع صافرة تنطلق كلما مرر يده على فخذي، ضغط على جرحي بعنف فكتمت آلامي، سمعت آخر يقول له: لا عليك، إنها شظية!

أثبتونا بالقيود على أرضية الطائرة التي سرعان ما وصلت للمكان المقصود، رموني من الطائرة على الأرض كما ترمى البضائع، كنا نسقط على بعضنا ونحن مقيدون من الخلف، سالت الدماء من أنفي بعد اصطدامها بظهر أحد المعتقلين أو رأسه.. لا أدري، كانت ثيابنا تصطفق من الهواء المندفع من محرك الطائرة العمودية مما زادنا ارتعاشاً، سلكونا في حبل واحد من ذراعنا وأحكموا خناق الحبل عليه ثم شدوا الحبل، أجبرتنا الآلام على النهوض لنسير مسافة طويلة والأغطية على وجوهنا، انخلع الحذاء من قدمي فمشيت مسافة طويلة حافي القدمين على الأرض الباردة، كان الطقس بارداً لدرجة لا تحتمل، يجبرنا على الارتعاش المتواصل بدون توقف، وبعد ما يقرب من مئة متر أو يزيد توقفنا، تمنيت لو أن رجلي قطعت كي أتخلص من الألم الرهيب الذي يعصف بقدمي الحافيتين، أجبرونا على الجلوس فوق الأرض الباردة بثيابنا الخفيفة، تلسعنا الريح الباردة بسياطها، سمعت أحد الأسرى يصيح من شدة البرد وآلام الجراح وآخر يصبره قائلاً: ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، فأتته ضربة من جندي لم تمكنه من إكمال الآية.

كنت أسمع صراخاً وأنيناً وضوضاء في جهة قريبة، لم يحن دوري إلا بعد أكثر من ثلاث ساعات تقريباً، كان الجنود يصرخون مهددين بتهشيم وجه كل من يتحرك، حاولت التماسك قدر المستطاع رغم الارتعاش الشديد الذي انتابني، استمرت الآلام الشديدة التي أصبحت كتيار كهربائي يتنقل من قدمي إلى رأسي والعكس، فقدت الإحساس في أطرافي، حتى فقد الإحساس كان مؤلماً، أوشكت على الإغماء من الإعياء والبرد، لكني تماسكت حتى لا ينهال عليَّ الجنود ضرباً كما حدث مع بعض المعتقلين الذين انهاروا فانهال عليهم الجنود ضرباً وركلاً وسحلاً، وبعد زمن طويل مر علي كسنين جاء الخلاص، جذبني الجنود بعنف، شعرت أن جذبتهم العنيفة كلمسة حانية لأنها تعني انتهاء المعاناة وإن كان ذلك يعني بداية معاناة جديدة، فالتغيير يخفف من جهة وإن زاد من جهة أخرى.

اقتادوني إلى مكان شعرت بأنه مغلق، كانت الضربات تنهال علي من كل جهة، لكنها منحتني دفئاً كنت أتمناه على الرغم من امتزاجه بآلام الضرب، سمعت أحدهم يصرخ: (اخلع ملابسك)، اعتراني من الذل والهوان ما اعتراني، لم أستجب له فقاموا بتمزيق ملابسي بمقص، نزعوا غطاء الوجه بعنف فتفاجأت بأن المكان ممتلئ بالجنود والجنديات وهم ينظرون إلي عارياً تماماً، كان هناك عسكري يحمل مسدساً وآخر

رشاشاً وآخرون يمسكون الهراوات، ثم فتشوني، حتى العورة لم تسلم من تفتيشهم، الشعور بالذل والهوان هو أكثر ما يسحق الأسير، أخذوني إلى مكان آخر وإذا بمحقق يجلس خلف طاولة أمامها دائرة، أوقفوني داخل الدائرة وهددوني إن تخطيتها، أخذ يحقق معي وأنا عارٍ، وبعدها أخذوني إلى مكان آخر وحلوا قيد يد واحدة لأرتدي بدلة زرقاء، ثم أوثقوني من جديد، وفي نهاية الرحلة الرهيبة أخذني جندي وجندية إلى القفص، وبينما نحن في الطريق رأتني الجندية ارتجف بشدة فخشوا من إصابتي بالغرغرينا بسبب البرد فسألتني إن كنت أريد الدفء، لكني لم أستطع الجواب من شدة البرد والارتعاش، فطلبت من الجندي التوقف عند خرطوم كان مخصصاً للجنود يدفع بالهواء الساخن للتدفئة، أجلستني بالقرب من الخرطوم ثم أشارت بيدها لأستدفئ، وفي اللحظة التي لامس جسدي المرتعش الهواء الساخن شعرت كأني قالب ثلج بدأ يذوب، شعور لا يوصف، لم يفرقوا في المعاملة السيئة بين المعتقلين مهما كانت الأدلة على براءتك من كل التهم الموجهة إليك، كان الأخ سامي الحاج مراسل قناة الجزيرة في هذا المعتقل قبلي، وكان يعاني من انتفاخ رجليه بسبب البرد الشديد والقيود المؤلمة، عاملوه هو الآخر معاملة غير إنسانية، كان معنا قرويون أفغان اختطفوا من بيوتهم لإرهاب أهالي القرى كي لا تتعاطف مع طالبان.

قال لي الحارس العملاق مهدداً: (نم هنا، ولو تحركت أدنى حركة سأطلق عليك النار)، كان هذا المكان عبارة عن حظيرة للطائرات بناها الاتحاد السوفييتي بعد غزوه أفغانستان، ثم حولت إلى معسكر اعتقال، كان هناك عدة أقفاص، وفي كل قفص يقبع مجموعة من المعتقلين المسلمين المجبرين على البقاء بدون حركة طوال الوقت، ما بين نوم وجلوس فقط، وأي قيام فإنه يعني موتاً محققاً، بقينا عدة أيام على هذه الحالة حتى أصبحت حياة بعض المعتقلين معرضة لخطر حقيقي، فالبرد والجوع الشديدان إضافة إلى عدم الحركة يزيدوا من احتمالية تعرضنا للإصابة بالجلطات، فأمرونا بالوقوف كل صباح ثم القفز في أماكنا لعدة دقائق ثم قضاء باقي اليوم جلوساً، أعطوا كل واحد منا بطانيتين خفيفتين لا تغنيان عنا من البرد إلا كما تغني اللقمة للجائع، بطانية واحدة تحتنا والأخرى فوقنا، نلتحف فيها ونحاول أن نستفيد من دفء أنفاسنا لعلنا نخفف من آلام البرد القارس، ثم نقلونا إلى حظيرة كبيرة تحوي أربعة أقفاص، لكل منها بابان، ويوجد فيها سطل تجلس عليه لقضاء الحاجة يتم تبديله يومياً، لم يسمح لنا في (بغرام) بالذهاب إلى الخلاء إلا مرة واحدة صباحاً وأخرى مساء، وباستطاعة الجنود رؤيتك وأنت تقضي حاجتك.

طلب منهم الأخ فؤاد الكويتي السماح لنا بالتغطية، فسمحوا لنا باستخدام البطانية

لتغطية نصف الجسد فقط، كانوا يعطوننا وجبة واحدة في اليوم، عبارة عن وجبة جاهزة مخصصة للجنود، كوجبة استثنائية لهم في الحالات الخطرة حين لا يتمكنون من تناول الطعام المطبوخ، كانت هذه الوجبة توضع في المايكرويف لتسخينها للجنود، أما نحن فكانت تقدم لنا باردة، لذلك لم يستطع أكثر المعتقلين تناولها، وقلة كانوا يتناولون لقمة أو لقمتين لإقامة الأود، ومع كل وجبة نعطى قارورة ماء، فكنا نشرب شيئاً قليلاً منها ولا نكملها بسبب البرد الشديد ولم نكن نقوى على البقاء لفترة طويلة دون استخدام الخلاء، كانت القنينة تتجمد ليلاً، وبعد عشرة أيام أعطونا نصف رغيف من الخبز وبسكوتة كانت ألذ ما في الوجبة، لم يسمح لنا بالحديث على الإطلاق، بعض الإخوة أصيب بآلام المفاصل من شدة البرد وعدم وجود عازل بينه وبين الأرض الباردة إلا بطانية خفيفة، لم نستطع النوم إطلاقاً في الليل من شدة البرد، كنا نستغل النهار لنسترق غفوات تريح أجسادنا وأعصابنا شيئاً ما، لم يسمح لنا بالوضوء طوال فترة بقائنا في بغرام وقندهار فكنا نتيمم.

أيما معتقل ينبس ببنت شفة يعاقب بأخذه إلى زنزانة وحده ويمد يديه المقيدتين لساعات، فإن ارتخت اليدان تضاعفت العقوبة بعد دخول الجنود عليه وضربه وتعليق يديه بأعلى باب الزنزانة، ليظل واقفاً طوال النهار، وأحياناً طوال الليل ينتفض من شدة البرد، يسخر الجنود والجنديات من بعض المعتقلين الذين يتبولون على أنفسهم من شدة الإرهاق والبرد والمنع من الخلاء، دس الجنود في إحدى المرات مسهلاً في الطعام فتناوبنا على الخلاء وهم يتضاحكون.

جعلوا بين كل أسير وآخر مسافة، مقيدين طوال الوقت فترة بقائنا في بغرام، منعنا من القيام في الصلاة فصلينا قعوداً فراداً، إلى أن تكلم معهم الأخ فؤاد جزاه الله خيراً في ذلك فسمحوا لنا بعد جهد جهيد بالصلاة قياماً جماعة، ثم عادوا بعد يومين إلى منعنا من جديد، كان للأذان تأثيره العجيب في تثبيتنا وتعبئة الوقود في أرواحنا، كان البرد القارس يفعل بنا الأفاعيل، فماذا تفعل قطعة واحدة خفيفة من الملابس مع البلغة من الطعام الذي لا يسمن ولا يغني من جوع في هذا الجو الزمهرير الذي يعض عظامنا الضعيفة؟ لم نكن نقوى على الأنين من شدة الارتعاش تحت زخات المطر المنهمرة على أجسادنا الهزيلة.

عوقبت مرة فأخذوني إلى زنزانة أخرى، ومددت يدي لساعات واقفاً وأنا أرتجف من شدة البرد والجوع والضعف، فالشظايا الحديدية التي مزقت جسدي واستقرت فيها تزيد من البرودة التي تنهش عظامي، كنت أرتجف من البرد وأنا باسط يديّ المقيدتين إلى الأمام، كنت أدرك تماماً أن إسدال يدي أو جلوسي يعني مضاعفة العقوبة والضرب

وتعليق يدي بالباب الحديدي لساعات طويلة، لم ينل مني ذلك الألم الجسدي بقدر ما نال مني هذا الشعور القاتل الذي يسحقني، إن الشعور بالذل والهوان هو أشد ما لاقيته في أسري، كيف لشاب لم يعتد في حياته إلا الاحترام أن يهان ويعرى ويذل ويعاقبه جندي يقضي ليله في السكر والعربدة؟ لقد رأينا عدة مرات جنوداً يفتخرون بأنهم شواذ جنسياً ويفعل به آخرون ما يشين، ثم يأتي ذلك الجندي ليصرخ على الأسرى ويهينهم ويجرهم من قيودهم إلى غرفة التحقيق؟ بينما أنا ماد يديّ المرتجفتين إذ انحدرت من عيني دمعة مثقلة بالذل الذي لم يطق قلبي تحمله، ما هذا يا فايز؟ أتبكي؟ أنت الذي لم تسل دمعة من عينيك رغم كل التعذيب والضرب الذي أصابك، أتبكي من أجل عقوبة سخيفة كهذه؟

خجلت من نفسي أمام هذه الدمعة التي أظهرتني وكأني ضعيف بائس أمام عدو شامت يبحث عن هذا الضعف ليتشفى ويروي بها غليل حقده وضغنه، لا لست ضعيفاً لكني أعشق العزة والكرامة، الكرامة التي أحلم أن تستردها أمتي، لكني حين تأملت حال الأنبياء والمصلحين وجدت طريقهم يعج بالشانئين المبغضين لا المصفقين المهللين، وأنه لم يطأطئ النبي ﷺ رأسه في فتح مكة منتصراً إلا بعد أن طأطأه حين وضعوا عليه سلا الجزور ساجداً، وأنه لم تمتد الأيادي لأبي بكر مبايعة وهو ينادي: (لست بخيركم) إلا بعد أن امتدت إليه ضاربة وهو ينادي: (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله)، لقد كنت بحاجة إلى تلك الدمعة لأفهم نفسي وأنا أواجه المستقبل المجهول الذي لم أكن أعلم أنه سيكون أربعة عشر عاماً مليئة بالألم والذل، وقفت طويلاً أمام تلك الدمعة، لقد فهمت منها الدرس جيداً، كانت تقول: شد عليك حزامك واضغط على أسنانك، فإن أمامك عظائم لابد من اجتيازها بقلب صبور.

أتوا بقروي أفغاني مسكين إلى معتقل بغرام، انتزعوه من بين زوجته وأولاده الصغار وهم يبكون دون أن يعلم تهمته سوى أنهم اشتبهوا فيه، كان طوال فترة وجوده في المعتقل يبكي زوجته وأولاده، أخبر المحققين بأنهم لا معيل لهم بعده إلا الله، فقال المحقق متهكماً: إذن دعه هو يعيلهم، عزم المسكين في ليلة من الليالي على الهرب من المعتقل ذي الحراسة المشددة في بغرام، كان هناك برميل معد لقضاء الحاجة في مؤخرة الزنزانة التي تتسع لعشرة معتقلين تقريباً، كلهم مقيدو الأيدي والأرجل، وكان الضباط قد سمحوا وقتها باستخدام البطانية كستار عند قضاء الحاجة، بشرط كشف الرأس، انتهز هذا المسكين المفجوع على أسرته الفقيرة غفلة الجنود وانتزع البرميل بعد أن حرر يديه ورجليه من القيود بطريقة ما وفر هارباً، أعلنت حالة الاستنفار العام في المعتقل القريب من العاصمة كابل، وبعد فترة وجيزة جاؤوا به وقد أشبعوه ضرباً، لكن الوحوش

لم يكتفوا بذلك بل جاؤوا به أمام الأسرى المتواجدين ثم انهالوا عليه ضرباً حتى تقيأ الدم، ولفظ المسكين أنفاسه الأخيرة، شاكياً إلى الله ظلم الظالمين الذين لم يرحموا قلبه المتوجع على صبية صغار يتضاغون جوعاً، وزوجته المكلومة التي يعتصر فؤادها ألماً وعيونها دماً وهي ترى الغزاة الذين سلبوا زوجها كما سلبوا وطنها.

غرق الأسرى في حزن غاضب، اختلفت الظنون، هل تمت جريمة القتل هذه بعلم إدارة المعتقل أم أنها ارتكبت بصورة فردية؟

مضت هذه الليلة البائسة والأسرى يتقلبون على جمر القهر، أصبح الصباح وتغير طاقم الجنود فأراد بعض الأسرى إخبار الجنود الجدد بما حدث ليلة البارحة، لعل الخبر يصل إلى الجنرال المسؤول عن المعتقل، لكن الجنرال قطع الشك باليقين فجاء صباحاً ومعه الجندي المجرم الذي ارتكب جريمة القتل، وقفوا أمام الأسرى ثم صافحه وعلق على صدره وساماً تقديراً لجهوده في حماية المعتقل من هؤلاء الأشرار الذين يريدون الهروب والرجوع إلى أطفالهم!

لقد علمنا التاريخ أن الظلمة يرتكبون دائماً نفس الخطأ حين يظنون أن الأمر ينتهي بقتل النفس وهدم البيت، لقد غفلوا أن دموع الأطفال ستتحول غداً إلى رصاص يلاحق قاتل أبيهم، وتؤجج في نفوسهم نار الثأر، تزداد سعيراً مع الأيام ومرور الأعوام، وأن جيلاً قادماً يضع نصب عينيه آباءً قتلوا وإخواناً عذبوا وأعراضاً انتهكت وأوطاناً احتلت لا يمكن أن يستسلم لمحتل غاشم قطع جذع الشجرة وغفل عن الجذور المختبئة تحت التراب.

جاءني في إحدى المرات جنود عمالقة بأيديهم هراوات يضربون بها الأرض، صرخوا علي بالقيام، وضعوا الغطاء على وجهي، ثم عزلوني عن المعتقلين الآخرين إلى مكان آخر، نزعوا الغطاء وإذا بالملا عبدالسلام ضعيف بجواري، كان صابراً محتسباً على ما قضاه الله من ابتلاء، كان معنا أفغاني كان يعمل سابقاً في وزارة الخارجية لحكومة الطلبة، كان الأمريكان يعاملونه معاملة مميزة، لا ندري لماذا؟ رأيته يدخن السجائر التي كان الطلبة قد منعوا تعاطيها حين كانوا في السلطة، كان أمره مريباً فعلاً، كثفوا معي جلسات التحقيق، أراني المحقق دفتراً أزرقاً وجدوه في حوزتي، نظر إلي شزراً وهو يقول: ما هذا؟

: دفتري، فيه كل أرقام تلفونات أهلي وأصحابي، وفيه معلومات عن عملي في القرية التي بنيت فيها المسجد وحفرت البئرين.

أخذ يقلب صفحاته في اهتمام بالغ، ثم قال: ابحث لك عن قصة أخرى.

: كل المعلومات التي تثبت صدقي موجودة في الدفتر، فإن كنت في شك فبإمكانك أخذي بطائرة الهليكوبتر إلى القرية لترى بنفسك.

نظر إلي بوجه متمعر، ثم قال للجنود: أرجعوه إلى مكانه.

مر الوقت بطيئاً جداً، ما بين تحقيق وإذلال، وفي إحدى الليالي كان الجنود يقطعون الممر وهم يضربون الأرض بالهراوات طوال الليل ويصدرون أصواتاً مزعجة لمنعنا من الراحة، عرفنا السبب لاحقاً، كانوا يستعدون لنقلنا إلى معسكر قندهار، أرادونا منهكين تماماً، إجراءات طويلة ومملة ومرهقة ومؤلمة في ذات الوقت، لننتقل إلى مرحلة جديدة من مراحل البلاء الطويلة.

حفلة الاستقبال:

رصونا جلوساً على أرضية طائرة الهليكوبتر، ثم شدوا علينا الأحزمة بعنف طوال الرحلة لنقلنا إلى جهة مجهولة، غطوا أعيننا استعداداً لعملية النقل التي استغرقت ساعات كأنها سنين، اقترب مني أحد الجنود وكتب شيئاً على ظهري وهو يضحك ويقول: أوصينا من يستقبلونك هناك بحسن ضيافتك! كان الأمريكان يكتبون على ظهر كل واحد منا رموزاً تعني المعاملة التي يوصونهم أن يعاملوه بها حسب وضعه في التحقيق، فمنا من عاملوه بيسر ومنا من ضرب ضرباً مبرحاً.

ارتفعت الطائرة وصوتها يدوي في المكان لدرجة أنك لا تستطيع سماع أي شيء حولك، كان صوتها يصم الآذان، ازدادت نبضات القلب، كان القلق والتوتر والترقب سيد الموقف، إلى أين نتجه؟ كان قائد الطائرة يتراقص بالطائرة في الجو، يميل بها ذات اليمين وذات الشمال كأنها أرجوحة، والجنود يطلقون أصوات رعاة البقر فرحاً على انتصارهم الذي شروه بمالهم ولم يصنعوه بذراعهم.

لم يستمر التحليق طويلاً فعرفنا أننا قريبون من الحدود الباكستانية، هبطت الطائرة واستمر صوتها يعصف بالأسماع، أنزلونا واحداً بعد آخر، ثم جعلونا في صف واحد وربطونا ببعضنا في حبل واحد من أولنا إلى آخرنا، كان الحبل مشدوداً بعنف أعلى الذراع، وجندي يمسك بطرف الحبل من الأمام ويسحب الجميع بقوة ليتقدم بنا إلى الأمام، وجندي في آخر الصف يمسك بالطرف الآخر.

لقد كانت القيود ضاغطة على يدي ورجلي لدرجة أن الشعور بتخدر أصابع اليدين والرجلين استمر لأكثر من ثمانية أشهر بسبب هذا التقييد العنيف، كانوا يسبونني بالإنجليزية وأوهمهم أني لا أفهم لأحرمهم نشوة الشعور بإذلالي.

وصلنا إلى المكان المحدد، أوقفوا الصف وحلوا الحبل الذي كان يربطنا ببعضنا وبقيت اليد مقيدة من الخلف، أحكموا تغطية العين وتقييد الأرجل، وفجأة يأتي جندي من خلفنا فيسحب قيود الرجل بعنف ليتفاجأ الأسير المسكين الذي لا يبصر شيئاً ولا يستطيع درء مفاجأة السقوط بيديه المقيدتين من الخلف فلا يشعر إلا وهو يطير في الهواء ثم يرتطم وجهه بالأرض، من الأسرى من كسر أنفه وابتلت ملابسه بالدماء، ومنهم من كسر شيء من أسنانه، ومنهم من شجت جبهته. ظللنا منطرحين على وجوهنا ساعات طويلة، كنت أرتجف من شدة البرد والضعف الشديد الذي اجتاحني بسبب الإصابة وقلة الطعام والحرمان من النوم، لا أدري تحديداً كم هي الساعات التي مرت ونحن معفرون على وجوهنا المغطاة بهذا الغطاء الذي تفوح منه رائحة نتنة، بلغ التوتر النفسي منتهاه ونحن لا ندري أين نحن وماذا سيفعل بنا، بدأت أسمع صرخات الأسرى تعلو، ما الذي يحدث بالضبط؟ انهالت علي الضربات والركلات العنيفة من الجنود الأمريكان، ركلة على الرأس، لكمة على الوجه، ركلات متواصلة على البطن والصدر، أحسست بالدوار وانقطاع النفس نتيجة الضربات العنيفة التي وجهت إلي، الآن عرفت سبب صرخات الأسرى قبلي.

وبعد فترة توقف الضرب وأجلسونا بعنف وسط صراخ الجنود وسبهم، بقيت جالساً لفترة طويلة تمنيت وقتها لو ظللت ملقى على وجهي حتى أرتاح من آلام الظهر، وعندما عاد إلي وعيي وهدأت أنفاسي دس الجندي في جيبي ورقة وهو يقول: هذا رقمك الذي يجب أن تحفظه طوال حياتك في السجن، حاول أن تنسى اسمك، لأنه لن يكون له أي قيمة بعد اليوم، أنت مجرد رقم حقير!

كان رقمي هو (٥٥٢)، جاء جندي ثم داس على يدي المقيدة التي كانت تلامس الأرض بحذائه العسكري الغليظ، انتزعت أصابعي من تحت قدمه لأني كنت أظنه داسها دون قصد. رجع الجندي مرة أخرى ليدوس أصابعي بعنف ويفركها بالأرض، فعلمت بأنه فعل ذلك قصداً، كنت وقتها متردداً هل أرفع صوتي شاكياً هذا الجندي؟ فلعله فعل ذلك تشفياً من تلقاء نفسه، وقد يسمع استغاثتي ضابط فيوقف هذا الجندي عند حده! ولكن ماذا لو كان ذلك بعلم الضابط؟ قطعاً سيكون جزائي لا يسر، ثم هل يسمح لهم بضربنا وركلنا ولا يسمح لهم بدعس أصابعنا؟ أعترف أني كنت ساذجاً حين جاءتني هذه الفكرة التي مرت علي مرور الخيال، إن مجرد التفكير ولو للحظة بهذا الاحتمال يدل على سذاجة بحقيقة الوضع الذي كنا نجهله تماماً، أخذ الصراخ يرتفع مرة أخرى، دَوّى خبط اللكمات والركلات، ماذا يجري؟ لم أشعر إلا ومجموعة من الجنود يجذبونني بعنف فجرح القيد قدمي، أما يداي المربوطتان من الخلف فقد أدخل الجنديان أيديهما

بينهما وبين جسمي ثم وضعا كفيهما على كتفي وضغطا بقوة لتنزل مقدمة الجسد إلى الأسفل، بينما ترتفع يدي من الخلف مما سبب خلعاً في كتفي، استخدموا أسلوب المفاجأة والضرب الشديد في كل أنحاء الجسد بطريقة عشوائية، ما بين ركل ولكم ولي مفاصل الأيدي والأكتاف والركب، مما تسبب في مآسٍ منها أن أحد الإخوة الباكستانيين فقد عينه حين ركله الجندي في عينه، وأخ باكستاني آخر فقد عقله بسبب ركلة عنيفة على رأسه.

اقتادوني إلى مكان مجهول وأنا مغطى العينين، مقيد الرجلين واليدين من الخلف، أحسست أني انتقلت من مكان مفتوح إلى مغلق دافئ يضج بأصوات الجنود الأمريكان، كانت اللكمات تنهال على رأسي ووجهي وصدري وبطني بقسوة والجنود يجرون بي في هذا المكان الكبير المجهول وقد أحنيا رأسي إلى الأسفل مما صعب علي المشي وسهل عليهم اللكمات والركلات، تقدموا بي خطوات ثم ألقوني على بطانية ناعمة، شعرت بالدفء والراحة، أحسست بأداة معدنية باردة دخلت بين جسدي وملابسي المغبرة المضمخة بالدماء، وبسرعة البرق تم تقطيع ملابسي وأصبحت عارياً، أصبحت عارياً تماماً إلا عيني الوحيدة التي كانت ترتدي ما يغطيها، شعور لا يوصف بالذل والهوان أمام هذا الحشد من الجنود والجنديات وأنت تقف أمامهم عارياً تماماً، أحسست بقطعة معدنية دائرية باردة وضعت على صدري العاري، ثم قلبي ثم بطني ثم ظهري من الواضح أنه دكتور يقوم بفحصي، لم أسمع ما يقول بسبب ضجيج مولدات الكهرباء المختلطة بصراخ الجنود، كنت أرتجف من شدة البرد والضعف، وضع يده على الجروح المنتشرة في جسدي، تسع إصابات في رأسي وظهري وذراعي وفخذي، ضغط عليها بعنف وعصرها، مخطئ من زعم أن الطبيب هو دائماً ملاك يمشي على الأرض، ضغطت على أسناني حتى لا يخرج من فمي تأوه يكون مادة دسمة لسخريتهم، أخذ الطبيب يفحصني فحصاً دقيقاً، لم يترك شبراً من جسدي إلا وفحصه، ليس لعلاجي بل للبحث عن أدلة تدينني، ولمعرفة ما إذا كانت هناك أي علاقة أو وشم يتفق على وضعه من يسمونهم إرهابيون، كنت أدرك تماماً أن هذه الجراح ستسبب لي أوقاتاً صعبة مع الأمريكان، فهم يعتبرونها دليلاً على أني مقاتل بغض النظر عن سبب هذه الإصابة وملابساتها.

كانت الأحداث متلاحقة لا تعطيك أي فرصة للتفكير، هذا يلكمك على وجهك وآخر يدفعك وثالث يركلك على بطنك ورابع يصرخ في وجهك، كل هذا والكلاب تنبح قريباً من أذنيك، كنت مستغرباً كيف استطعت تحمل كل هذا بدون أن يغمى علي؟ يدٌ فولاذية أحكمت قبضتها حول عضدي وأخرى أحاطت برقبتي ثم ضغطت عليها ودفعتني

أرضاً وأنا مغمى العينين مثقل بالقيود، تفاجأت برجل يكلمني منتهراً باللهجة المصرية: اسمك إيه؟

: فايز

فصرخ قبل أن أكمل اسمي: اسمك إيه يا حمار؟

: فايز محمد أحمد جمال الكندري.

: عمرك؟

: ٢٧ سنة

: جنسيتك؟

: كويتي

: مهنتك؟

: أدرس في كلية الشريعة.

: هل جئت أفغانستان لتعمل مع طالبان أو القاعدة أو كليهما؟

كان يستخدم معي مغالطة القسمة الثنائية كما فعل رئيسهم مع العالم بقوله: (إما أن تكون معنا أو مع الإرهاب)!

: جئت لعمل مشاريع خيرية.

تفاجأت بلكمة على الرأس، تبعتها ركلة في البطن لم أستطع بسببها التنفس.

: لا نحب الكذب، قل الحقيقة وإلا سنحطم وجهك.

لم أستطع الجواب لعدم قدرتي على التنفس، توالت عليّ الضربات من كل جهة، تحاملت على آلامي وقلت: جئت للأعمال الخيرية وعندي الأدلة.

قال متهكماً: أين هي الأدلة؟ في جيبك؟ لا أرى إلا جسداً عارياً.

: لا، في الدفتر الأزرق عند السي آي إيه في معتقل بغرام.

: سنجعل وجهك أزرق بدل الدفتر.

دفعني الجنود بقوة ثم أوسعوني ضرباً، أجلسوني عارياً على كرسي حديدي بارد جداً، وفجأة تم خلع غطاء الرأس عني، صدمة! عشرات الجنود والجنديات حولي وأنا مقيد اليدين من الخلف والقدمين بالحديد، لا أستطيع وصف شعور الإحراج الذي

أصابني، نظرت إلى الأرض تحت قدمي وإذا بكومة كبيرة من الشعر، باغتني أحد الجنود بماكينة حلاقة، مررها على رأسي باستهتار حتى امتلأ رأسي بالجروح، ثم أنزل الماكينة قليلاً وحلق بعدها لحيتي وشاربي، كنت ساكناً تماماً وأنا ألمح من طرف خفي هؤلاء القوم حولي وهم ينظرون إلي شزراً، كان شعور الذل والهوان يكاد يسحقني.

كنت عارياً تماماً، أجلس على الكرسي الحديدي وقد حلقوا رأسي ولحيتي، فزعت حين رأيت نور الصبح قد انتشر في السماء، وأن وقت طلوع الشمس أصبح قاب قوسين أو أدنى، فصليت في حالتي تلك دون وضوء أو تيمم أو ستر عورة أو استقبال قبلة أو وقوف أو ركوع أو سجود، بل إيماء لم يشعروا به، وقراءة لم يسمعوها، كل هذه الشروط والأركان تسقط في حال العجز، إن من عظمة الإسلام ورحمته أنه جعل كل أحكامه تحت هيمنة قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وقوله ﷺ: «**إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم**»، هذا من الأحكام الكثيرة التي كنا نقرأها ولم نمارسها إلا في غوانتانامو.

متى تنتهي رحلة العذاب هذه؟ جاءني جندي من الخلف ثم أدخل الكيس في رأسي مرة أخرى، ثم جاؤوا بقطعة واحدة من اللباس تغطي الجسد كله، أدخلوا أطرافي فيها ثم أغلقوا بعض الأزرار، جذبوني بعنف ثم استمر الفيلم الذي كنت أظنه قد انتهى، انهال الجنود علي بالضرب المبرح الأعنف منذ وصولي المعتقل، ضربات عنيفة على الرأس والوجه والصدر والبطن والرجل، كنت مقيداً من الخلف وعلى رأسي هذا الغطاء النتن، قد أدمت قدمي القيود من شدة العدو الذي جعل القيد يحز الجلد ويسيل منها الدم.

كان الجنود يشتدون في العدو بي وأنا على هيئة الراكع ويدي مرفوعة من الخلف، ضربات عنيفة متواصلة، يضربون رأسي بأي عمود في طريقهم، لم أستطع التنفس إلا شهقات متقطعة أتنفسها بصعوبة بالغة، كنت أشعر أني أخرج من خيمة وأدخل أخرى، ثم أخرج منها وأدخل في ثالثة وهكذا، كانوا يديرونني على نفسي، وفي كل هذه الرحلة كان الضرب العنيف يتوالى على جسدي، ثم أسقطت أرضاً، أمسكوا رأسي المغطى وبدؤوا يضربونه بالأرض ويمسحون بها وجهي وهم يسبوني بأفظع الألفاظ التي لم تسلم أمي ولا أبي منها.

أيقنت أن هذا الضرب جاء تنفيذاً للرمز الذي كتبوه على ظهري، أحسست أني سأقتل ضرباً، كانوا كمن يريد الإجهاز علي ضرباً وركلاً، رفعوني بغلظة وأنا لا أقوى على الوقوف فما زادهم ذلك إلا وحشية، تحاملت على آلامي وقمت لأرى إلى أين ستنتهي هذه الرحلة الرهيبة، أحسست بالهواء الدافئ وبحرارة الشمس تتغلغل في الغطاء

الذي يلف رأسي، منحتني حرارة الشمس شيئاً من الطمأنينة والأمان، توقعت أن الضرب سيتوقف، لكني كنت مخطئاً، استمر الركل على البطن واللكم على الرأس وهم يجرونني جراً، كنت ملتزماً الصمت طوال هذه الرحلة، أردت أن أحرمهم نشوة الاستمتاع بأنيني وآهاتي، لكني وصلت إلى مرحلة شعرت فيها أني إن لم أسمعهم صوت أنيني فسأقتل ضرباً، استسلمت وبدأت أئن وأتأوه لعلهم يتوقفون عن الضرب، لكنهم استمروا في وحشيتهم.

توقف الجنود، ثم رفع الجندي صوته: (go back, hurry up shit people) ارجعوا إلى الخلف، بسرعة أيها القذرون.

: (on your knees and clasp your hands above your head) اجلسوا على ركبكم، وشبكوا أيديكم على رؤوسكم.

سمعت صوت باب حديدي يفتح، تقدموا بي خطوات ثم بطحوني أرضاً، وضعوا أرجلهم على رأسي وظهري، فما شعرت إلا وضربة رهيبة على ظهري، سمعت طقطقة انكسار ضلعي، خرجت مني صرخة مكتومة توقف معها نفسي حتى ظننتها النهاية.

جلس أحدهم على ظهري ثم ثنى ركبتي من الخلف ثم جلس عليهما، أخذوا يفكون القيود من يدي ورجلي، ثم ضغطوا على ركبتي بعد أن نزعوا غطاء الرأس وتراجعوا إلى الخلف بسرعة، ثم أغلقوا الباب وصرخوا: (get up) انهضوا.

لا زلت منبطحاً على وجهي، أحاول جاهداً استرجاع أنفاسي، كرروا صراخهم: (hey get up).

رفعت رأسي وأنا أشعر بدوار شديد وصعوبة في التنفس، والدماء تلوح من جبهتي ويدي ورجلي وأنفي، زال الغبش وإذا برجل جاث على ركبتيه قد شبك يديه على رأسه وهو مطرق حزين، صرخ الجندي مرة ثالثة بعنف يدعونا للنهوض، قمت بصعوبة بالغة والألم يعصف بجسدي الهزيل، نظرت إلى الرجل بتمعن، وجهه مألوف لدي، دهشت حين عرفته، إنه فؤاد الربيعة ذلك المثقف الخلوق بدون لحية وشارب، كان الحزن بادياً على وجهه، جئته وسلمت عليه محاولاً مواساته، أجابني بصوت منكسر دون أن يلتفت إلي: (أتظنني حزيناً على نفسي؟ أنا بحمد الله لم أضرب، لكنني حزين عليك، لقد ضربوك ضرباً مبرحاً)، أعظمت تلك الروح التي تتجاهل آلامها لتشارك الآخرين مآسيهم.

وضعوا في كل خيمة عشرين سجيناً، التفت حولي وإذا ببعض الأسرى قد حلقوا رؤوسهم وشواربهم ولحاهم بطريقة استهزائية، حلقوا أجزاء وأهملوا أجزاء أخرى، كان

منظرهم مثيراً للشفقة، شعرت بغصة وأنا أنظر إلى بعض إخواني الأسرى وقد حلقوا حواجبهم ورموشهم مع رؤوسهم ولحاهم، كان معنا أخ مغربي عنده جنسية فرنسية حلقوا شعر صدره على شكل صليب، وآخر حلقوا شعر رأسه على شكل صليب، لقد كان ذلك إحدى الصور الصارخة حين توظف العلمانية الدين لمصالحها في حرب غير أخلاقية، كان أحد الأسرى اليمنيين ينظر إلي بتعاطف وشفقة، تقدم إلي مسلماً وهو يقول: الحمد لله الذي أحياك بعدما أماتك، نظرت إليه مستفهماً، قال: لقد رأيتهم يضربونك ضرباً مبرحاً، ظننت أنهم قاتلوك لا محالة، سألته: ماذا فعلوا بي وأنا منبطح على وجهي؟ لقد ضربت ضربة عنيفة كسرت ضلعي، قال: رأيت الجندي يقفز ثم ينزل بركبته على ظهرك!

قال لي فؤاد مرة وأنا أمشي حول الخيمة: ماذا تخبئ داخل ملابسك؟ أخرجها حتى لا يظنك الجندي تخفي شيئاً فيعاقبك!

قلت: لا أخفي شيئاً!

قال: ما هذا البروز الذي أراه؟

: ليس سوى ضلعي المكسور!

لم ينم تسعة أيام:

كان معنا أخ من السعودية اسمه عبد الله المطرفي، كان مديراً لمنظمة الوفاء الإغاثية السعودية، تم حرمانه من النوم في بغرام تسعة أيام فبدأ يهلوس، وجدوه أوشك على الجنون فتوقفوا عن ذلك وسمحوا له بالنوم، لكن لسوء الحظ تعود جسده على السهر فلم يستطع النوم ليومين إضافيين حتى ظن أنه سيفقد عقله، وفي اليوم الحادي عشر تم نقله إلى سجن قندهار، وكغيره من الضيوف الجدد تم الاحتفاء به في حفلة الاستقبال، ومع شدة الضرب أغمي عليه وثيابه ملطخة بالدماء، رماه الجنود في خيمة فيها عدد من الأسرى الذين سبقوه، فحملوه ببطانية وغطوه ببعضها، وحين دخل وقت صلاة الفجر بعد ليلة حافلة أيقظوه فبدأ يهلوس فتركوه، ثم دخل وقت صلاة الظهر والعصر وهو نائم حتى أوشكت الشمس على الغروب، استيقظ ثم أخذ ينظر إلى الشمس وإلى الأسرى حوله فقال منزعجاً: سامحكم الله يا إخوة! لماذا لم توقظوني لصلاة الفجر حتى أشرقت الشمس؟

ضحك الأسرى وهم يقولون: (هذا ليس منظر الشمس في شروقها بل غروبها)، لقد كان الضرب سبباً في نجاته من الجنون.

داسوا على رأس الإمام:

لم تقدم لي أي أدوية طوال فترة بقائي في معتقل بغرام وقندهار، حاولت إخفاء كل إصاباتي عن الجنود حتى لا يتعمدوا ضربها أثناء نقلي إلى خيمة التحقيق، كنت أكتم آلامي والجنود يقودونني إلى التحقيق بعنف، وحين يرمونني على الأرض أحاول تفادي اصطدام الضلع المكسور بالأرض.

كان البرد قارساً والطعام قليلاً جداً حتى لاحت عظام الضلوع والتراقي، كانوا يعاقبوننا على رفض أكثر من ثلاث وجبات، لم نكن حينها نعرف الكثير عن الإضراب عن الطعام، أحضروا لنا في قندهار وبغرام لحم خنزير ولحوم غير مذبوحة بالطريقة الإسلامية، لم يكن لنا حرية الاختيار بين الوجبات النباتية والحيوانية، فكنا نتجمع كل ثلاثة مع بعضهم ونتقاسم الوجبات النباتية ونترك الحيوانية، طلبنا منهم استبدالها بأي شيء آخر نستطيع أكله، فرفضوا طلبنا، وقالوا: (كلوه أو دعوه)! فتركناه وآثرنا الجوع على أن ندنس بطوننا بالحرام، فما هي إلا لقيمات قليلة، والنفس إن سليتها تسلت وإن فطمتها انفطمت وإن أعطيتها تمادت، وهنا يظهر ثانية استخدام الدين في هذه الحرب، كما أن الجانب الأمني كان له دور في سياسة التجويع التي استخدمها الأمريكان ضدنا، فالجسد الضعيف المنهك لا يقوى على الهروب في هذه الصحراء إن وسوس له الشيطان بالإفلات من قبضتهم!

كانوا يتحينون أوقات توزيع الطعام ليأخذوا المعتقل إلى التحقيق، ثم لا يعوض بوجبة أخرى بعد رجوعه، ليعاني الجوع أضعافاً، أما في المستودع الذي جعلوه انفرادياً في معسكر قندهار فكانوا يرمون كيس الطعام والخبز وقارورة الماء على التراب إذلالاً، أما الخلاء فقد وضعوا سطلاً في كل خيمة، تجلس عليها لقضاء حاجتك، مؤلمة عند الجلوس عليها، تستر جسمك بالبطانية وتبذل جهداً كبيراً ألا تصيبك النجاسات، وكثيراً ما تفشل!

اقتحموا خيمة إحدى المرات حال الصلاة والمعتقلون سجود، ثم وطئوا رأس الإمام، لم يكن هذا الإمام سوى سفير طالبان الملا عبد السلام ضعيف، كان الجنود يطلبون من كل خيمة معتقلاً يأخذ سطل قضاء الحاجة، ثم يقيد الجنود قدميه ليفرغه في الحاوية البعيدة، لكنهم كانوا يجبرون الملا عبد السلام ضعيف على أداء هذه المهمة لإهانته، بيد أنه كان يستقبل هذا العمل بأريحية واعتزاز قائلاً: أتشرف بفعل هذا لإخواني في الله!

عرض المحقق على الملا عبد السلام العمل معهم كما فعل بعض المنضمين للطالبان فرفض، عرض عليه ملايين الدولارات فقال للمحقق: لا أريد أن أخرج من الأسر بغير إيمان.

قال المحقق: لن تخرج بغير إذننا، ستموت وراء القضبان.

فأجابه: الذي يملك ذلك هو ربي وربك.

قال له: هلا فكرت في أولادك؟

فقال: يرزقهم الذي خلقني وخلقهم!

جاءه المحقق بأحد قيادات الطالبان الذين تحولوا إلى معسكر الرئيس الأفغاني الموالي للولايات المتحدة (حامد كرزاي) يزوره في المعتقل وينصحه بالمشاركة مع الحكومة الجديدة فرفض.

في معتقل قندهار كان يأتينا الطبيب في بعض الأحيان سكراناً، فكان يتعاطف معنا حال سكره ويبدي شيئاً من الاحترام، لكنه حين يصحو يتحول إلى شيطان حقود يتفطر قلبه حنقاً علينا، فحين نراه سكراناً نقول: اليوم جاءنا الطبيب بعقله، وحين يأتينا في صحوه نقول: جاءكم اليوم سكراناً، غياب العقل الشيطاني خير من حضوره، فليس العقل محمدة إلا حين يقود إلى الخير.

في هذه الأثناء رأيت الجنود الأمريكان يأتون بمجموعة جديدة من الأسرى وعزلوهم في خيمة منفردة، استطاع أحد الأفغان أن يتحدث معهم خلسة فأخبروه أنهم من الحرس الثوري الإيراني، كانوا في مهمة سرية لدعم أحد الأحزاب الأفغانية الموالية لهم، فاستطاعت القوات الأمريكية القبض عليهم، طلبوا منه أن يوصل خبرهم للسلطات الإيرانية كي تسعى لتخليصهم، لم يستمر اعتقالهم سوى بضعة أيام ليتم بعدها إطلاق سراحهم في عملية تبادل أسرى بمعتقلين عرب قبضت عليهم إيران، سلمت إيران المعتقلين العرب لأمريكا التي أرسلتهم لاحقاً إلى غوانتانامو!

الصلبان على أرض قندهار:

كان فؤاد يتكلم الإنجليزية بطلاقة، فقد درس الهندسة في اسكتلندا وأمريكا، كان يستخدم طلاقته في الإنجليزية بدعوة الجنود إلى الإسلام، دعاني مرة وهو يتناقش مع جندي من الواضح أنه مؤدب وذو ثقافة، فقدمني للجندي بشيء من إطراء لا أستحقه، وبصورة غير متوقعة رحب الجندي بي باحترام، كانت عنده الكثير من التساؤلات حول اختلاف الأديان، فذكرت له أن الأصل ألا تقبل أي فكرة إلا بدليل، لأننا حين نفتح الباب أمام العقائد والأفكار لمجرد أنها ذكرت في كتاب أو ادعاها رجل مهما كان صالحاً أو زعم الناس صلاحه فهذا سيعطي الحق لكل عقيدة وفكرة مهما كانت خاطئة أن تقوم بالشيء نفسه، إذاً لابد من تمحيص الأفكار والعقائد بالمعيار العقلي لنعلم

صحة الفكرة من عدمها، تكلمنا عن قضية وجود الله والرسول والرسالة، كان نصرانياً يؤمن أن المسيح ﷺ ابن الله، كنت أتحدث وفؤاد يترجم الكلام بالإنجليزية، كان الجندي ينصت باهتمام بالغ ثم يقاطعني باحترام مبرراً أنه يجب عليه أن يواصل تجوله في المكان، وبعد أن أخذ جولة حول المعسكر يعود أدراجه مرة أخرى ليلوح بيده إلى فؤاد وإلي طالباً منا الاقتراب إليه لمتابعة الحديث، كان يكلمنا بكل احترام عكس بقية الجنود الذين كانوا يمارسون الهمجية والغطرسة على الأسرى، من الصعوبة أن تجد جندياً مثقفاً محترماً يتعامل معك بإنسانية، وغالباً ما يكون مستوى ذكاء الجنود في مستوى ذكاء الباذنجان على حسب تعبير بعض الأسرى، ولن أنسى ذلك الجندي الذي أخذ حذاء أحد الأسرى بعد حملة تفتيش مفاجئة نكلوا فيها بالأسرى، فإذا به يصيح بأحد المعتقلين: (أيها الإرهابي الحقير)، ثم قال والغضب يفور من عينيه حين اكتشف دليلاً دامغاً يؤكد هذا الاتهام، صرخ الجندي في وجه المعتقل: (ألا تقرأ ما هو مكتوب على علامة الماركة الملصقة بالحذاء؟ هذا أكبر دليل بأنك إرهابي تسعى لخطف طائراتنا وتحطيم عماراتنا، مكتوب: (terrorist) إرهابي!

تدخل فؤاد كعادته لتهدئة الأمور مطالباً الجندي ليريه تلك الكلمة، فلما قرأها قال وهو يكتم ضحكاته: أنها ليست (terrorist) لكنها (tourist) أي سائح!

ثم وضح له بأن هذا الحذاء لم نقم نحن بشرائه من محل الأحذية بل أنتم من أحضرتموه، ثم ما هذا الإرهابي العبقري الذي يكتب على حذائه: إرهابي؟! جذب الجندي الحذاء بعنف وأخذ يتفحص الكتابة بدقة، ثم انسل بهدوء وكأن شيئاً لم يحدث.

كان الجندي المؤدب يعتادنا الفينة بعد الأخرى واليوم بعد اليوم، حتى تغير جذرياً من جندي سيء يتعامل معنا بغلظة إلى إنسان يتعامل معنا بما تمليه عليه إنسانيته، وفي يوم من الأيام لاحظه الرقيب وكان سيئاً للغاية، يلبس غالباً النظارة الشمسية ثم يمشي متبختراً بطريقة متكلفة جعلتنا نطلق عليه لقب (رامبو) ساخرين من تمثيله الفاشل، ناداه الرقيب من بعيد فأتاه الجندي ثم أخذه بعيداً عنا قريباً من خيمة في أقصى المعسكر، أخبرنا الإخوة هناك عن طريق توصيل رسائلهم الشفوية من خيمة إلى أخرى حتى وصلت إلينا أنه وبخه على الاستماع إلى هؤلاء الأسرى المجرمين وهدده من أنه إذا استمر في الاستماع لكلام هؤلاء المخادعين فسيعاقب.

مع الأسف انقلب الجندي البائس رأساً على عقب، فتحول من إنسان عاملنا معاملة إنسانية ولطف واحترام إلى وحش، صارت معاملته أسوأ من السابق، رضي أن يكون آلة في هذه المنظومة الظالمة التي لا تراعي أبسط الحقوق الإنسانية، فألغى عقله

في معرفة الحق والباطل والظلم والعدل، وألغى قلبه الذي يطالبه بأن يكون إنساناً يعامل الآخرين بإنسانية.

بلغ إدارة المعتقل بأني أدعو الجنود إلى الإسلام، داهم الجنود خيمتنا ووقفوا عند الباب، وأمروا جميع الأسرى في الخيمة أن يجثوا على ركبهم آخر الخيمة ويضعوا أيديهم على رؤوسهم، ويرفعوا مقعدتهم عن أعقابهم، استجبنا لهذا الأمر والكل في حالة قلق، من هو البائس المطلوب الذي سيسوقونه إلى خيمة التحقيق والتعذيب، صاح الجندي في غضب (٥٥٢)!

يا الله، إنه أنا مرة أخرى، سمعت الدعوات تنهال علي من الإخوة، (أعانك الله، ثبتك الله، نصرك الله)، توجهت قريباً من باب الخيمة، ثم استلقيت بصدري على الأرض، واضعاً يدي فوق رأسي كما هي الأوامر، هجموا علي وضغطوا على ركبتي لتثبيتهما، كبلوا أطرافي بسرعة ثم وضعوا الغطاء النتن وغطوا به رأسي ووجهي، بينما هناك جنود داخل الخيمة وخارجها يوجهون أسلحتهم على الأسرى وهم جثاة على الركب في طرف الخيمة وقد وضعوا أيديهم على رؤوسهم، جذبوني إلى الأعلى ثم انطلقوا بي مسرعين والقيود تصطك بعظام الساق وتحز الجلد حزاً بطرفه الحاد، كان الجنود يتعمدون تطويل الرحلة إلى خيمة التحقيق في الجهة الأخرى من المعسكر، ويتخلل هذه الرحلة الضرب والركل والسب وتعمد ضرب الرأس بالأعمدة التي تواجهنا في طريقنا الذي استخدموا فيه التمويه حتى لا أحدد مكان خيمة التحقيق، أدخلوني عدة خيام ثم أخرجوني منها، حتى وصلنا إلى خيمة التحقيق وأنا ألهث من شدة التعب، طرحوني أرضاً، لم أتمكن من تفادي ضلعي المكسور في الجانب الأيمن من القفص الصدري بسبب شدة دفع الجنود لي، كان علي أن أكتم الألم قدر استطاعتي حتى لا يستغلها الأمريكان، نزعوا غطاء الرأس بعنف، كان الجو بارداً، دخل علي الجنود وهم ينظرون إلي بغضب، أجلسوني جاثياً دون أن يحكموا إقفال القيد عمداً، وبمجرد اتكائي على الرجل ضاقت أسنان القيد ليسري في جسدي تيار من الألم، حاولت أن أغير جلستي فهجم علي الجنود وباغتوني بضربات موجعة على الرأس والكتف وهم يصرخون (don't resist) لا تقاوم، بقيت أتلوى في مكاني من شدة الألم، كنت أسمع صراخ المعذبين في خيام التحقيق المجاورة.

وبعد وقت طويل دخلت علي محققة وهي تلبس فانيلة داخلية ضيقة وبنطلوناً عسكرياً، ثم أمرت الجنود بإجلاسي على كرسي حديدي، اقتربت مني ثم وضعت كرسيها أمامي، كنت أكتم آلام الضلع والقيود الضاغطة على قدمي، أخذت تسألني بهدوء عن بطاقتي الشخصية، وهو سؤال معتاد تكرر معي في التحقيقات مئات المرات، كأنه مفتاح لما بعده.

أدنت كرسيها مني، اقتربت أكثر حتى صار بينها وبيني مسافة قريبة: لماذا جئت أفغانستان؟

: لإغاثة هذا الشعب المنكوب.

: ماذا فعلت تحديداً؟

: أعدت بناء مسجد وحفرت بئرين في قرية قريبة من العاصمة كابل.

: أعطني الإثبات على صدقك.

: كان بحوزتي دفتر أزرق خاص، فيه اسم القرية واسم عمدة القرية وكل تفاصيل المشروع الإغاثي الذي قمت به، إضافة إلى أرقام أصدقائي بالكويت، لكن الـ (CIA) صادروه مني في بغرام وأخفوه لأنه يحتوي على كل الأدلة التي تثبت صدق كلامي.

: أين جوازك؟

: بحوزة القوات الأمريكية في بغرام.

: أنت تكذب، هم ينكرون وجوده عندهم.

: هم الكاذبون.

قالت بغضب: اخرس.

أخذت تنظر إلي، طأطأت رأسي حتى لا أطيل النظر إليها، ظنت أني طأطأت رأسي خوفاً وارتباكاً، صرخت: ارفع رأسك، انظر إلى عيني.

: أنا لم أصرف بصري عنك خوفاً أو قلقاً فليس عندي ما أخشى أن تعرفيه لكنه موضوع ديني.

قالت بانفعال: قلت لك ارفع رأسك وانظر إلي.

رفعت رأسي ونظرت إليها لأني علمت أن عدم الاستجابة لها ستكون نتائجه وخيمة.

: هل أنت مسلم حقيقي؟

: ماذا تقصدين؟

: هل أنت متمسك بدينك؟ هل أنت أصولي؟

: الأصولية تعنى الرجوع للأصول وهو معنى صحيح لولا أنكم فسرتموه تفسيراً

آخر لا توافقه اللغة ولا الإسلام، إن فسرتيه على أنه الغلو والتطرف فلست أصولياً، فأصولي التي أتمسك بها ليست متطرفة.

: لم تجبني.

: أنا مسلم، أفتخر بذلك وأحاول أن ألتزم بتعاليمه رغم تقصيري.

: ماذا درست من الإسلام؟ وكم تحفظ من القرآن؟ وهل قرأت عن الأديان الأخرى؟ وهل أنت داعية إلى الإسلام؟

حينها علمت أنها تحقق معي بسبب الجندي الذي كنا نحاوره في موضوع الإسلام.

: كل الحروب في عالمنا إما منشؤها ديني أو تستغل الدين، تأثير الدين قوي في حياتنا شئتم أم أبيتم، لذلك فإن صرف الوقت في الحوار الديني مهم جداً، نحتاج أن نفهم بعضنا قبل أن نحكم على بعضنا، لذلك أدعو إلى تحكيم العقل في آرائنا ومعتقداتنا، أنا لست دوغماتياً أجعل آرائي كحقائق يجب على الآخرين الإيمان بها، لكني أعتقد جازماً أن الدلائل العقلية هي التي يجب تحكيمها في بحثنا عن الحقيقة وليس تقليد الآباء والأجداد والرأي المجتمعي السائد، فمن المهين أن أتعامل مع عقيدتي كما أتعامل مع الإرث الذي ينتقل من الآباء إلى الأبناء أو كفصيلة الدم التي ولدت بها ولا دخل لك في اختيارها، يجب أن يكون معتقدك قراراً نابعاً من الدليل العقلي وليس عصبية تتوارثها الأجيال.

لم أكن وقتها أتحدث الإنجليزية لكني أفهم الكثير من الحديث بين المترجم والمحققة، إلا أني كنت أتصنع عدم الفهم لأن مجرد إجادة اللغة الإنجليزية كانت تهمة تفتح عليك باباً واسعاً من المشاكل، منها الضلوع بأحداث الحادي عشر من سبتمبر، لأن إتقان الإنجليزية يعني عندهم أنك كنت تستطيع السفر إلى أمريكا للقيام بعمليات ضدهم، إضافة إلى المشاكل التي تلاحق المتحدثين بالإنجليزية، كان الأمريكان يطلبون من كل خيمة أسيراً يتحدث الإنجليزية ليكون همزة الوصل بينهم وبين الأسرى لتوصيل الأوامر لهم، وهؤلاء الأسرى المساكين الذين تقدموا طواعية لخدمة إخوانهم الأسرى تم تصنيفهم على أنهم قادة يأمرون الأسرى ويطاعون، ولم يكونوا سوى مبلغين للأوامر، فالأمريكان هم من يصنعون التهم في كثير من الأحيان.

كان المترجم يتلكأ أحياناً في ترجمته فنظرت المحققة إليه بحدة وهي تقول: (translate every thing) ترجم كل شيء، فترجم لها ما أقول بشكل إجمالي غير دقيق وهذا ما كنا نعاني منه في غوانتانامو، أي خطأ قد يوردك المهالك.

: انظر في عيني، ما رأيك فيها؟ هل تحب العيون الخضراء؟

لم أحرها جواباً.

: ما رأيك بالمرأة؟ وأخذت تتغنج وتتثنى بجسدها وهي تدخل أصابعها في أصول شعرها الأشقر لينسدل على كتفيها.

: المرأة هي الأم الحنون والأخت الكريمة والزوجة الحبيبة والبنت المصون، هي مصنع الرجال ومربية الأجيال، إنها ليست مجرد فراش ناعم ولحاف دافئ، ليست شهوة عابرة ونزوة طائشة.

: لماذا تكفرون مخالفيكم؟ لماذا لا تتسامحون مع غيركم كالمسيحية؟

: التكفير وصف لحالة الكافر وبيان تصنيفه العقدي ليعرف أين هو فيصحح مساره وليس سبة، فقد نهانا الله ورسوله عن سب آلهة الكفار وفحش القول.

: لكنه يكره وصفكم له بالكفر.

: الكاذب يكره وصفه بالكذب، والخائن كذلك، الشأن ليس في كرهه بل في صحة الوصف، ثم أنتم تصفون من يتعاون مع عدوكم بالخائن دون احترام لمبرراته وآرائه، لماذا لا تتسامحون مع الآخرين؟ ثم من قال لك أن المسيحية متسامحة؟ البروتستانت يكفرون الكاثوليك والكاثوليك يكفرون الأرثوذكس والكل يكفر الكل، ثم هم يكفرون المسلمين واليهود لعدم إيمانهم بأن المسيح هو ابن الله، ثم أنتم حكمتم على مخالفيكم بالإرهابيين والمتطرفين ووصفكم هذا قسيم الوصف الديني بالتكفير.

: هل قرأت الـ (Bible) الكتاب المقدس؟

: نعم، العهد القديم والجديد عدة مرات قبل الأسر، وكذلك قرأته هنا عندما وزعه الجنود علينا.

: ماذا تشعر بعد قراءتك له؟

: أكثر إيماناً ويقيناً أن القرآن من عند الله وأن التحريف الجلي قد طرأ على الأديان (اليهودية والنصرانية).

: لماذا تحتكرون الحقيقة وتجبرون الناس على اعتقادكم؟

: نحن لا نحتكر الحقيقة بل الحقيقة هي التي تحتكر دليل العقل، ثم هل نحن من يجبر الناس على اعتقادنا أم الذين نصبوا صلبانهم المنتشرة في الساحة المحيطة بالمعتقل؟

بدا على وجهها التوتر ثم بادرت بتغيير الموضوع وقالت بانفعال: غرسنا الصلبان لجنودنا!

: على أرض المسلمين؟

: أنتم تدعون أنكم على الحق وأنكم مؤمنون وأن الله معكم وأنه سينصركم على الكفار، فقل لي مع من وقف الله في هذه الحرب؟ لماذا لم ينصركم علينا؟ لماذا تخلى عنكم وهو يراكم بأصفادكم في قبضة من تدعون أنهم أعداؤه؟ ها هي الدولة التي كانت تحكم بالإسلام قد أسقطناها، هذا دليل على أنكم على الباطل!

ازدادت غيظاً حين رأت ابتسامتي فقالت بحنق: أجب أم أنك لا تقوى إلا على دعوة جنودنا إلى إسلامك الإرهابي؟

: هل أنت مسيحية؟

: نعم.

: وتؤمنين أن المسيح قد صلب؟

: طبعاً، من أجل خلاصنا.

: لماذا تركه الله يصلب ويعذب؟ لماذا تركه يتألم ويهان حتى تسلط أعداؤه عليه، يضربونه ويبصقون عليه وهم يقولون له مستهزئين: خلص غيره ولا يقدر على تخليص نفسه، فكان حسب روايتكم ينظر إلى السماء وهو يقول: (يا إيليا لما شبقتني) أي يا الله لماذا تركتني؟ فهل عدم نصرة الله له دليل على أنه على الباطل؟

غضبت وهي تصرخ في انفعال: (shut up) اخرس.

أمرت الجنود بتشديد القيود على رجلي ويدي وأجلسوني على الأرض جاثياً، عصرت القيود عظم ساقي حتى أصبحت لا أقوى على رفع رأسي من شدة الألم، مرت ساعات لا أستطيع وصفها فسبحان من هونها علي، أخذوني بعدها إلى أبعد خيمة عن أخي فؤاد ليفرقوا بيننا فلا نستطيع دعوة الجنود، ثم وضعوا بعدها لائحة تعليمات مشددة من ضمنها عدم الحديث مع الجنود ألبتة، والعقوبة المشددة لمن يخرق أي بند من هذه البنود، وأقل هذه العقوبات هي أن يأمرك الجندي أن تجثو على ركبتيك وترفع مقعدتك عن قدميك وتضع يديك على رأسك مشبكاً لهما، قد تبقى على هذه الحال من عشرين إلى ثلاثين دقيقة، وأحياناً تصل إلى ساعة، كانت هذه العقوبة تستخدم لأتفه الأسباب، وغالباً لا تمر ساعة إلا وترى أحد الأسرى هنا أو هناك يعاقب بها، مما سبب مشاكل صحية كبيرة للركب، خاصة حين يجثو على حصاة فلا يستطيع تغيير وضعيته لكيلا تتضاعف فترة العقوبة.

هل أنا جميلة؟

وبعد أيام أخذوني إلى التحقيق مرة أخرى، دخلت علي ليس ككل مرة، خلعت هذه المرة القميص العسكري وارتدت فانيلة خفيفة ضيقة قد جسدت مفاتنها، وكأنها منحوتة من الطين الذي يظهر جمال التقاسيم لكنه أجوف لا روح فيه، اقتربت مني، نظرت إلى الأرض، قالت وهي تقترب مني: انظر إلي، هل أنا جميلة؟ هل تحب لون عيني؟

لف الصمت المكان.

: قلت لك ارفع رأسك.

رفعت رأسي، اقتربت أكثر، ثم وضعت كفيها على خدي وفرجت بين رجليها ثم تقدمت وتهيأت لتجلس على حضني، ثم قربت وجهها مني حتى لم يكن بيننا إلا أقل من شبر، ثم قالت بصوت ناعم متغنج: فايز، نريدك أن تتعاون معنا للوصول إلى أسامة بن لادن، نريدك أن تخبرنا بكل شيء ولك كل شيء.

جللت وجهها ابتسامة عريضة: لك ما تريد يا فايز، كل ما تريد!

أصابتني رذاذة من فمها وهي تتكلم قريبة مني وأنفاسها تلامس وجهي، احترت كيف أتعامل معها، أملت وجهي جهة كتفي ومسحت به الرذاذ الذي أصاب وجهي منها ثم قلت: أنا لا أعرف أين هو هذا الرجل ولا أملك أي معلومات تساعدكم.

امتقع وجهها خجلاً من مسح الرذاذ فابتعدت قليلاً، لقد نجحت محاولتي في إبعادها دون إثارة غضبها.

أحمد الله تعالى أني كنت في حالة عصيبة جداً، مزيج من التعب والإرهاق والجوع والقلق والألم الذي يعصف بضلعي المكسور، والقيود التي تفتك بعظامي، كل هذا كان رحمة في هذا الموقف، كان تفكيري وقتها في تخفيف الألم عن قدمي جراء القيود الحديدية وضلعي المكسور وقلبي المتوجس من المستقبل المجهول، لقد أصبح صوتها الناعم المتغنج وجسدها الفاتن كنعيق غراب أبقع ليس فيه أي معنى من معاني الأنوثة والإغراء، ما أحمقهم حين استخدموا الإغراء مع معذب منهك، بل ما أرحم الله حين رحم الضعف البشري المنجذب نحو الآخر بعنف، لا معصوم إلا من عصمه الله بفضله، ومن عرف طبيعة النفس البشرية وتقلباتها بين عالمي الإيمان والمعصية لن يثق بنفسه طرفة عين.

أخذوني مغمى العينين مقيد القدمين واليدين من الخلف إلى حظيرة الطائرات التي

تحولت إلى زنازين انفرادية، رماني الجنود على بطني ليتعفر بالتراب، فتحوا القيود وأزالوا غطاء الرأس ثم أوثقوا الباب بالسلاسل، صليت ما فاتني من الصلوات بعد أن تيممت، كلما رآني الجنود وضعت جنبي على الأرض انتهروني، ثم أمروني بالوقوف وعدم الجلوس حتى أوشكت على الإغماء، حرمت من النوم ما يقارب الخمسة أيام، شرعت في قراءة السورة المحببة إلى نفسي عند الشدائد (آل عمران)، نهلت من معينها العذب ما أذهب عني كل وحشة وأزال كل قلق، قرأت قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فشعرت بأني محفوف بالرسل الكرام والحواريين الأطهار الذين يواسونني في مصابي فهان علي ما أجد، إن التعذيب والوحشية وإن كان يتراءى للناظرين مجرداً من كل معاني الرحمة إلا أنه بحق مليء بفيوض من اللطف الرباني الذي لا يدرك إلا من الداخل، حتى السجان الذي يخنق بيديه معاني الإنسانية لا يدرك أنه حين يضيق القيود فإن الله ﷻ يوسع على الأسير نفسه الضيقة، وحين يغلق عليه باب الزنزانة فإن الله ﷻ يفتح له من أبواب رحمته ما لا يوصف.

الدروس مرة أخرى:

كان في الخيمة مجموعة من الأسرى الأفغان أكثرهم من عوام الأفغان البسطاء، تمت الوشاية بأحدهم بسبب خلافات مالية بينه وبين آخر له علاقة بالتحالف الشمالي المدعوم من قبل الولايات المتحدة، فزعم أنه من كبار الطلبة، ونظرة سريعة لحاله تجزم أنه ادعاء مضحك، قدموني للإمامة، منذ أن وطئت قدمي المعسكر وأنا أتهرب من الإمامة لأنها كانت تعني عند الأمريكان القيادة الدينية التي غالباً ما تجلب معها مشاكل وبلاء أنا في غنى عنها، كنت أصلي مرة إماماً وأتهرب أحياناً ليؤمنا آخر، وكان معنا بعض الأسرى العرب الذين كانوا في أحداث قلعة (جنغي) المشهورة، حدثوني عن قصص هي أقرب إلى الخيال، كان كلامهم متطابقاً مع آخرين رأيتهم في الخيام الأخرى، كنا ممنوعين من الحديث مع بعضنا إلا إذا كنا ثلاثة أشخاص فأقل، فلجأنا إلى التحايل على هذا القانون فكنا نسترق الأحاديث مع بعضنا بينما كنا نعطي ظهورنا لبعض حتى لا نثير انتباه الحراس الذين يتجولون بأسلحتهم في أرجاء المعسكر.

في مثل هذه الأوضاع الرهيبة تتجلى حاجة الإنسان إلى الإيمان، إلى توثيق الصلة بالله ﷻ، ليتشبث بذلك الحبل المتدلي من السماء، طلب مني بعض الأسرى أن أعطي درساً في تفسير القرآن، ترددت لأني أعلم جيداً تبعات هذا الأمر، فمجرد دعوة جندي جلب إلي كل هذه المعاناة، فكيف بدروس للأسرى؟ لكنني كنت وجلاً من حديث

النبي ﷺ: «من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار» فأصبحت بين نارين فاخترت النار الأهون، بدأت بدروس متقطعة بين الفينة والأخرى مع شخصين، بينما يتحايل الآخرون للسماع، فمنهم من يتظاهر بالنوم قريباً منا، ومنهم من يعطينا ظهره، ومنهم من يتظاهر بالحديث مع آخر، لأن القانون يمنع الأسرى من الحديث مع أكثر من ثلاثة أشخاص، والحق يقال أني على الرغم من دراستي التفسير من قبل إلا أني وجدت له في الأسر طعماً أحلى وعبيراً أخاذاً وروحاً تتغلغل في روحي، وجدت القرآن أجمل بكثير مما كنت أتصور، إنه ليس مجرد مفردات أفهم معانيها أو أسباب نزول أتدارسها، إنها علاقة صحبة وصداقة ومحبة تتوطد بيني وبينه كلما عشت معانيه واجتزت صُعُدَه وتبعت حاديه، علاقة حب عميقة تفتح أمامي باب الفهم ليأتيني من نسيمه العَطِر ما يجعلني أفهم لمحات عينيه وإشارات يديه وتعابير وجهه، بل يتجاوز الأمر ذلك حتى لا يصبح لغموضه وحشة الغموض ونفرته وإن لم أدرك مغزاه، آنسُ به أُنسي برسالة من حبيب كتبها لي أنا، كم كان تأثير الآية علي عظيماً وأنا أفسرها لإخواني: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾، إذ قاموا، فهم لم يقولوها وهم متكئون على فرشهم الوثيرة يفصلون في مسائل الإيمان الكلية والفرعية، إنهم لم يقولوا حتى قاموا، فادعاء النبل والتغني بالمعاني الجميلة والكلمات البليغة يحسنه الكثيرون، لكنهم عملوا وبذلوا وَضَّحوا وَطَبَّقوا قبل أن يدعوا الناس لذلك، إن غربلة الشدة وزلزلة المحنة هي المعيار الحقيقي للإيمان وليس تلك الكلمات الرنانة التي يتردد صداها أمام الكاميرات وفوق المنابر بينما يتلعثم بها القلب المخلوع حين يكشر الباطن عن أنيابه.

الموت خنقاً:

اقترب مني أحد الأسرى الباكستانيين على حياء، وطلب مني بلغة عربية ركيكة أن أعلمه أحكام تجويد القرآن، فرحبت بذلك، وبينما هو يقرأ في إحدى المرات رأيت على صفحة عنقه أثر عضة، فلما سألته عنها أجابني: لا زال هذا الأثر باقياً في عنقي منذ ثلاثة أشهر، كنت ضمن الباكستانيين الذين كانوا يقاتلون التحالف الشمالي المدعوم أمريكياً في مدينة تخار شمال شرق أفغانستان، فوقعنا أسرى في قبضة أتباع الجنرال الأفغاني الشيوعي عبد الرشيد دوستم بسبب خيانة محبوكة التفاصيل، بعد تقييدنا كدّسونا فوق بعضنا في شاحنات مغلقة تماماً، أبقونا فيها لساعات طويلة حتى خارت قوانا وشعرنا بالاختناق، بدأنا بالصراخ والضرب على جوانب الشاحنة، كنا نادي جنود دوستم ليسمحوا لنا بالتنفس على الأقل فتجيبنا ضحكاتهم المستهزئة، اشتد الضيق وتفاقم الكرب واختلطت الأنفاس الضعيفة المتحشرجة الباحثة عن نفحة هواء تعيد إليها الحياة، وبسبب الاختناق القاتل رأيت بعضهم ينتفون شعورهم ويضربون رؤوسهم

بجوانب الشاحنة، تشنّج أحدهم وهو يحاول أن يملأ صدره من الهواء دون جدوى، فهجم عليّ وعضّني في صفحة عنقي، فأبعدته عني بشق الأنفس ليسقط مغمياً عليه، وحين أوشك الجميع على الموت أمر القائدُ أحدَ الجنود أن يصنع بطريقته الخاصة فتحات في الشاحنة تسمح لهؤلاء الأسرى بالتنفس!

فهم الجنديُ الرسالةَ فوجّه سلاحه وأمطر الشاحنة بوابل من الرصاص، حبوتُ فوق الجثث الملطخة بالدماء لأضع فمي على الفتحات فأملأ صدري من الهواء!

السقوط من الداخل:

كان من ضمن الأسرى الأفغان رجلان لم يتمكن حلق اللحية من سلب الوقار والهيبة منهما، قد انكبا على الصلاة والأذكار والدعاء، توطدت علاقتي معهما جداً، لا أدرى لماذا، وكأننا نعرف بعضنا من سنين، فعلاً كما قال النبي ﷺ: **«الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»**، توطدت علاقتي بهما، أحدهما قد فقد إحدى عينيه في إحدى المعارك ضد الشيوعيين الموالين للاتحاد السوفييتي السابق، من الواضح أنه كان من كوادر طالبان، يظهر ذلك من شخصيته وسلوكه وحسن حديثه، كانت الكشافات الساطعة تملأ المكان فتحيله ملعباً رياضياً، جلست معه في أحد الأيام على انفراد، أحسست منه انطلاقاً في الحديث وأنساً في تجاذب أطرافه، تجرأت على سؤاله في مثل هذه الأوضاع التي يتقوقع الإنسان فيها على نفسه تفادياً لوجود وشاة أو سماعات، كان سؤالي جريئاً فعلاً، قلت له: هل أنتم غاضبون على هؤلاء الذين دمروا برجي التجارة العالمي والبنتاغون وكانوا سبباً في سقوط دولتكم التي كانت تحكم بالإسلام؟

أطرق رأسه برهة ثم رفعه وهو يحدق النظر في عيني، لا زلت أتذكر الدموع وهي تسيل من عينه السليمة والمفقوءة، كانت تسيل بغزارة وسط دهشة غمرتني حتى لم أعد أعرف ما أقول، كنت أرى في دموعه الكثير من الكلمات المدفونة، قال وهو يمسح خده بكمه: لقد قتل منا الكثير وهدمت البيوت وسقطت دولتنا، لكننا نعتقد أن الولايات المتحدة كانت عازمة على غزونا حتى لو مر الحادي عشر من سبتمبر بسلام، أمريكا لن تسمح بإقامة كيان يحكم بالإسلام لأنه يذكرها بمجد عريق امتد من الصين شرقاً إلى الأطلس غرباً ومن جنوب فرنسا شمالاً إلى أدغال أفريقيا جنوباً لأكثر من ألف سنة، لقد كان في صفوفنا الكثير من الانتهازيين والضعفاء ففرزتنا الأحداث، لقد كنا نحتاج لمثل هذه الغربلة قبل أن يصل الماكرون إلى سدة القيادة ليحيدونا عن الطريق، أنا أحمد الله أن دولتنا قد سقطت!

صعقت عند سماع هذا الكلام.

: كيف؟

: لأن دولتنا قد سقطت حين امتثلنا ما أمرنا به نبينا ﷺ حين قال: **«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»** كانوا يريدون منا تسليم إخواننا المسلمين الذين حلوا ضيوفاً عندنا دون أي محاكمة عادلة، ونحن نعتقد أن دولتنا ستعود مرة أخرى أقوى مما كانت عليه لأن سقوطها كان لتمسكها بمبدئها، ولو سلمنا إخواننا لسقطنا من الداخل، ولو سقطنا من الداخل فلن تقوم لنا قائمة!

أنت كاذب:

كان في الخيمة الجديدة التي نقلوني إليها اثنان من الأسرى العرب لم يكن عليهما سمة التدين بخلاف البقية، لا صلاة ولا قراءة للقرآن، بل تبرؤوا من الإسلام جملة وادعيا التنصر، كان أحدهما يتاجر بالمخدرات بين باكستان وأفغانستان، والآخر يتاجر بالسلاح، قبضت عليهما قوات التحالف الشمالي وسلمتهما إلى الولايات المتحدة على أنهما من أفراد القاعدة وطالبان ليقبضوا ثمنهما، عوقب أحدهما لأنه تلفظ بكلام جنسي مع جندية ظاناً أن ذلك سيشفع له عند الأمريكان فكان العكس، سلم علي أحد المعتقلين من الخيمة المجاورة وسألني بعض الأسئلة الفقهية، أخذوا المتنصر إلى التحقيق، وبعدها بقليل جاء الجنود والغضب يتطاير من أعينهم وهم يصيحون في الأسرى (go back) تراجعوا إلى الخلف، رجعنا إلى مؤخرة الخيمة جثاة على الركب، شبكنا أيدينا فوق رؤوسنا كالعادة، وبعد فترة من الانتظار والقلق والترقب صاحوا: (٥٥٢).

قمت إلى مقدمة الخيمة ثم انبطحت على بطني في حذر وحرص ألا يصاب ضلعي المكسور، قفز الجنود على ظهري، أحسست أن الكسر في ضلعي قد تضاعف، اقتادني الجنود بكل عنف، ضرب ولكم وركل وسب، سمعت نباح الكلاب يقترب مني وأنا مغطى العينين، كان الجنود يجرون بي دون أن يأبهوا للقيود التي تصطك بعظام الساق، كانت قدمي تلامس الأرض خطوة وتمشي في الهواء خطوات، أوقفوني في الطريق فجأة، اقترب مني نباح الكلب حتى شعرت بحرارة أنفاسه ممزوجة برطوبة نتنة، هل سيتركونه يعضني؟

أدخلوني مكاناً مكتوماً رطباً فعرفت أننا دخلنا خيمة التحقيق، بطحوني على بطني وربطوا يدي المقيدة برجلي من الخلف حتى صرت كالشبح الطائر، نزعوا الغطاء عن رأسي بعنف وأنا ألهث من شدة التعب والإعياء، أمسك جندي برأسي من الخلف ثم جذبه إلى أعلى بعنف، كانت أمامي المحققة والشرر ينطلق من عيونها غضباً، كانت تلبس هذه المرة ملابس ضيقة تكشف عن ذراعيها وجزء من صدرها، وضعت صورة أمام عيني وهي تصرخ: هل تعرف هذا؟

كانت صورة الأخ الذي سألني أسئلة فقهية من الخيمة المجاورة.

: نعم

: أنت كاذب، لقد عرضت عليك صور المعتقلين فأنكرت معرفة أحد منهم؟

بدأ الجنود بالضرب والصفع، أمسك جندي مفتول العضلات بتلابيبي، لأول مرة أراه، كان الوشم يغطي ساعده، ثم صرخ في وجهي: سأحطم وجهك إن لم تقل الحقيقة.

: قلت لكم الحقيقة، نعم أعرفه!

كانت غاضبة جداً وهي تصيح: لماذا لم تخبرنا من قبل بأنك تعرفه؟

: لأني لا أعرفه من قبل، أول مرة أراه في الخيمة المجاورة لنا قبل أيام، هذا كل ما أعرفه عنه.

: وصلتنا أخبار بأنك تتحدث إليه، يبدو أنه صديقك!

: أبداً، سألني عدة أسئلة في بعض الأحكام الإسلامية، هذا كل ما في الأمر.

انقض علي الجندي العملاق وهو ينفث دخان السجائر في وجهي: يا أيها الوغد سأهشم عظامك إن لم تخبرنا بالحقيقة كاملة، كل شيء هل تفهم؟ علاقتك بالقاعدة وطالبان، وأين هو أسامة بن لادن الآن؟

: أنت تتحدث مع الشخص الخطأ، لا يوجد عندي أدنى علم بهم.

نزع السيجارة من فمه، ظننته سيطفئها في جسدي، وفي حركة خاطفة أطفأها في ساعده هو، ثم قال: أرأيت؟ سأطفئها المرة القادمة في لسانك الكاذب!

(كان المحققون حريصين على تجنب كل تعذيب تظهر آثاره حتى لا تستغل لإبطال اعترافات المعتقلين في المحاكم ما لو قررت الحكومة الأمريكية محاكمتهم، وعلى الرغم من ذلك كانت هناك حالات تعرض فيها بعض الأسرى للشلل بسبب الضرب كالمعتقل المصري الذي ذهب إلى عيادة المعسكر في غوانتانامو معافى فضربه الطبيب مع الجنود فأصيب بالشلل، ومعتقل سوري ضرب فأصيب بالشلل، ومحمد صغير الباكستاني الذي ضرب على رأسه حتى فقد عقله، وأخ باكستاني آخر ضربه الجنود بأحذيتهم فأصابت عينه فعميت).

صرخت المحققة تنادي الجنود، دخلوا علي بوجوه عابسة، ينطلق الشرر من أعينهم الحاقدة، اكتظت الخيمة بهم، قالت لي بغضب: أنت اخترت ذلك، اخلع ثيابك!

خفق قلبي بشدة، ماذا تقصد؟

صرخت: اخلع.

: لماذا؟

أشارت إلى الجنود، انقضوا علي ينزعون ملابسي وأنا في حالة ذهول، شعرت بأن جسدي كله يخفق وليس قلبي فقط، قرأت قديماً في قصص السجون عن انتهاك الأعراض كوسيلة ضغط، رفعت نظري إلى السماء في حالة استسلام تام وهم ينزعون ملابسي.

: يا رب.

انطلق قلبي في حديث طويل ليس من كلمات، شعرت كأني طفل وقع بين ضباع، فنظر إلى أبيه الرحيم الذي يراه في حاله تلك، ورب نظرة عن ألف كلمة، سمعت صرخة من خارج الخيمة، وجمت المحققة وهرع الجنود لإجابة النداء، رأيت رجلاً يكلمهم باستعلاء خارج الخيمة وهم يهزون رؤوسهم منصاعين لأوامره، تركوني وحيداً في الخيمة وقد طغى القلق على آلام القيود، لا أدري ماذا حصل، أخذت أقرأ سورة آل عمران حتى ختمتها وأنا على تلك الحال، قد بلغ مني التعب مبلغاً عظيماً، بدأت بالصلاة على النبي ﷺ الصلاة الإبراهيمية وأنا أعدها بيدي المقيدة من الخلف، وبمجرد إتمامي المائة جاءني الجنود ليرجعوني إلى الخيمة التي شعرت أنها قصر مشيد في أجمل بقاع الأرض.

تفتيش قندهار:

كانت شمس قندهار الحارقة تنظر إلينا من كبد السماء باستعلاء، صاح جندي على أحد الأسرى: تعال هنا، اجث على ركبك!

كانوا يعاقبون الأسرى أحياناً دون سبب، يبقى جاثياً على ركبتيه لمدة عشرين دقيقة، وقد يتركه الجندي عمداً لأكثر من العقوبة المفترضة، أغمي على أحد المعتقلين من شدة الحر وهو على هذه الحال جاث على ركبتيه، ومنع الأسرى من إسعافه إلا حين أذن لهم الجنود.

كان التفتيش يومياً، يفاجئ العشرات من الجنود أحد الخيام بالتفتيش المباغت، في وضح النهار أحياناً وفي هجيع الليل أخرى، كانت من اللحظات التي تزيد المعتقلين قلقاً، نرى العشرات من الجنود يقتحمون البوابة الرئيسة لمعتقل قندهار، هذا يعني أنهم سيختارون خيمة للتفتيش، عندما يتجاوزون خيمتنا نشعر بارتياح ونحمد الله مع أنهم ذاهبون إلى تفتيش إخواننا!

كنت ألوم نفسي على هذه المشاعر الأنانية. لكننا نظل بشراً نضعف أمام بعض المواقف الصعبة التي يصعب معها التحكم بمشاعرنا.

يحتشد قرابة الخمسين جندياً مدججين بالأسلحة معهم الكلاب حول الخيمة المراد تفتيشها وهم يصرخون في الأسرى بفاحش القول، يأمرونهم بالتجمع في آخر الخيمة جثاة على الركب، ووضع اليدين وتشبيكهما على الرأس، والجنود يوجهون إليهم

الأسلحة ويحذرونهم أن أي حركة تعني طلقة في الرأس، يبقون جثاة على هذه الحال لفترة تصل إلى نصف ساعة، مما سبب الجروح والآلام في ركبنا، استمرت هذه الآلام لسنين، بعدها يقتحم الجنود الخيمة وهم يركضون تجاهنا، وعلى كل واحد منا اثنان من الجنود، يقيدون أيدينا من الخلف ثم يفردون كل معتقل في جهة داخل الخيمة، يبطحونه أرضاً على بطنه ويمرغون وجهه بالتراب ويدوسون على ظهره، بل يجلسون على ظهره أحياناً كالدابة، ويتم تفتيشه بعنف وإذلال، يمسكون العورة ويعبثون بها، هكذا إلى أن يتم الانتهاء من الكل، يبقى الجنديان جالسين على المعتقل، فإذا سمعا نداء التجمع في خارج الخيمة يبدأ الجنود بالخروج ابتداء من مؤخرة الخيمة البعيدة عن الباب، يخرجون تدريجياً وسط القهقهات الساخرة، كنت أستغرب منهم حين يطلقون صيحات الابتهاج كأنهم قد خرجوا للتو من المعركة منتصرين، ثم أدركنا لاحقاً أن قادة الجيش الأمريكي كانوا يأمرونهم بذلك ليزيلوا الخوف من قلوب جنودهم بأي طريقة، لقد كانوا يتعاملون معنا بحذر شديد وتوتر بالغ، جاءني في إحدى المرات جنود عمالقة ليأخذوني إلى التحقيق، وضعوا يدي فوق رأسي ثم وضع أحدهم يده على يدي لتثبيتها، فتفاجأت بأن يده ترتجف بشكل غريب جداً، بالتأكيد لم يكن من البرد فقد كان الجو حاراً، ثم تبادل المكان مع الجندي الآخر فوضع يده على يدي فوجدته يرتجف هو الآخر، كنا نراهم يستهزئون بنا حين يكونون خارج الخيمة، فإذا كان هناك تلامس مع المعتقلين ارتعشوا هلعاً!

أكرهكم أيها المسلمون:

كنت جالساً في الخيمة أراجع مع أحد الإخوة القرآن، فتفاجأ جميع الأسرى في كل الخيام بالجنود يحملون أحد الأسرى الأفغان بمِحفّة وهم يتضاحكون ساخرين، سمعنا أحد الأسرى يرفع صوته: غضوا أبصاركم عن أخيكم!

أثارت كلماته تلك فضولنا أكثر، ما الذي يجري؟ وإذا بالأخ عار تماماً، مقيد الأطراف، منكسر النظرات، صرفنا أبصارنا متألمين من هذا المشهد.

مشيت حول الخيمة التي كان طولها ستة أمتار وعرضها ثلاثة أمتار تقريباً، قال لي أحد الإخوة هامساً: انظر إلى برج المراقبة.

: ما به؟

: انظر إلى ذلك الشيء الذي علقه الجندي.

: صليب؟

: نعم، حاول أن تمعن النظر في تلك الأخشاب الطويلة البادية رؤوسها خلف السور.

: صلبان!

التفت ذات اليمين وذات الشمال وإذا بالصلبان قد نصبت حول معسكر الاعتقال، قال لي: انظر هناك.

: أين؟

: فوق سور المسجد البعيد.

صعقت وأنا أرى الصلبان معلقة على طول سور مسجد مطار قندهار!

نظرنا إلى الظل وإذا بوقت صلاة الظهر قد حان، استأذنت من المؤذن لأقوم أنا بالأذان، وقفت خارج ظل الخيمة وحين شرعت بالأذان بصق الجندي الأمريكي عليّ من فوق برج المراقبة وهو يقول: أكرهكم أيها المسلمون.

الأفغاني الهرم:

لازلت أذكر ذلك الشيخ الأفغاني الهرم الذي جاوز المئة عام وهو يرسف في قيوده، كان الأمريكان يجرونه بالحبل وهو يمشي مترنحاً بظهره المحدودب، أخذوه مرة إلى التحقيق فسأله المحقق: هل أنت مجاهد؟

حدق الشيخ الأفغاني بعينيه المرهقتين يعلوهما حاجب أبيض كثيف، ارتسمت على وجهه ابتسامة مرتجفة تشي بذكريات قديمة لاحت في خيال ذلك المسن الهزيل الذي انحنى من أثقالها ظهره المعوج، قال المحقق: لقد عثرنا في منزلك على بندقية قديمة، ماذا تصنع بها أيها العجوز؟

رفع رأسه قليلاً لكنه بدا للمحقق كثيراً، قال: أتدري منذ متى وأنا أحتفظ بهذه البندقية؟

صمت المحقق منتظراً جوابه،

: أحتفظ بها منذ العشرينيات من القرن الماضي، قاتلت بها البريطانيين عندما غزوا بلدي، وقاتلت بها الروس المعتدين في الثمانينيات، وسأقاتلكم بها أيضاً، هل تعلم أني لا أنام إلا وهي عند رأسي منذ ذلك الحين؟

فغر المحقق فاه وهو يحملق في هذه القمة السامقة، قال المحقق متعجباً: لكنك الآن أسير عندنا.

فقال وهو يبتسم متهكماً: إن تأثير بقائي عندكم أسيراً سيكون أشد عليكم من مقاتلتي إياكم!

إنها روح عظيمة تلك التي تقف شامخة رغم الظهر المنحني والقيود القاسية.

سامحني فقد اعترفت:

كانت الظروف صعبة للغاية في معسكر قندهار، لا تملك إلا بطانية واحدة في البرد القارس، تفترش نصفها وتلتحف بالآخر، الجوع، الحرمان من النوم، عنصر المفاجأة في التفتيش الليلي والتحقيق.

جاء أحد المعتقلين من التحقيق وقد كانت به جروح خطيرة بالبطن أصيب بها جراء القصف قبل أسره، أدخلوه خيمتنا فاقترب من أحد المعتقلين بجواري، ثم جلس إلى جانبه وهو يرتعش من الخوف حتى أشفقت عليه ورحمته، قال له: سامحني يا أخي.

سأله في استغراب: ما بك؟

: لقد سألني المحقق عنك فأخبرتهم بكل شيء، كلاهما أطرق رأسه أرضاً، الأول خجلاً والثاني قلقاً.

: لم أتحمل، سامحني، ضربوني على مكان الجرح كي أعترف، خارت قواي.

أخذ ينكت الأرض بالحصى مهموماً، ثم قال: غفر الله لك، ادع الله لي بالعون والصبر.

لم تمر ساعة حتى جاء الجنود يتلمظون غضباً وهم ينادون برقمه، أخذوه للتحقيق ولم يرجع بعدها للخيمة، أخذوه إلى حظيرة للطائرات (Hangar)، حَوَّلها الأمريكان إلى انفرادي لتعذيب المعتقلين.

(تويكس):

جاء أحد الأسرى من خيمة التحقيق في قندهار، فلما أدخلوه خيمة الأسرى، قال وهو منشرح الصدر: لقد قابلت محققاً دمث الخلق، تعامل معي بلطف بالغ لدرجة أنه أخرج من جيبه قطعة شوكولاتة فيها إصبعان من (تويكس)، فتحها ثم استخرج إصبعاً فأكله وأعطاني الإصبع الآخر فأكلته، ثم سألني فاستحييت أن أخفي عنه شيئاً، لقد كان (التويكس) شهياً جداً بعد جوع طويل!

كان يقف بجواره أحد الإخوة ممن جمع بين الشجاعة والمزاح، جحظت عينه من هول ما يسمع، سأله: أخبرتهم بكل شيء؟

: نعم، لقد استحييت منه.

قال له متهكماً وقد ثارت الدماء في عروقه: بعتنا بإصبع (تويكس)؟ لو بعتنا بإصبعين لما غضبت، لكن إصبع واحد؟ يا لرخصنا عندك!

الجاسوس:

أدخلوني خيمة في معتقل قندهار فرأيت المعتقلين ينفرون من شخص ويتحاشون الجلوس معه، فلما سألتهم أخبروني بأنه جاسوس أرسلته إحدى الدول العربية لكنه وقع في الأسر مع البقية، فلما بحثت عن أصل الاتهام وجدته مزيجاً من الهراء والوساوس والظنون المعتمدة على الشبهات والرؤى المنامية التي كان للشيطان منها حظه، أخبرته بأن المنامات ثلاثة أقسام كما أخبرنا بذلك النبي ﷺ: رؤيا من الله وحلم من الشيطان وحديث نفس، ولا يجوز اتهام أي إنسان بدون بينة ظاهرة، أطفأ الله نار الفتنة قبل أن تستفحل وتستعصي على الإطفاء، ثم مرت السنين والتقينا في المعسكر الرابع الجماعي في غوانتانامو، ومع شدة البلاء وإغراءات المحققين ضعف إيمانه وأصابه الفتور في العبادة وحلق لحيته وكان يتعاطى النسوار الذي يمنحه إياه المحققون، كان بعض المعتقلين يعنفه على هذا التغير الذي طرأ عليه، نصحتهم بتجنب التعنيف والزجر والاكتفاء بالموعظة الحسنة والرفق الذي أمرنا الله به ورسوله، فكلنا معرض للعثرات في مسيرة حياته، والمتعثر ينشد اليد الممتدة التي تنتشله لا اللسان السليط الذي يوبخه، انفجر أحدهم في وجهي غاضباً وهو يتهمني بالتساهل في الدين والوقوف بجانب الفسقة (على حد تعبيره)، نصحته في أن يتعامل مع ذنوب العباد معاملة العبد المشفق لا الرب القاضي، فالمُعَنِّفُ في نصحه مغرور، ولو أدرك تقلب القلوب وتحولاتها لوقف وجلاً أمام العاصي ليرى نفسه فيه فيرجوه كي يعود ولا يزجره ليزداد من الله فراراً، أبى النصيحة فما مرت سنة على المُعَنِّف إلا وهو يلاحق الجنديات بابتساماته!

الهروب:

كان سميناً محمر الوجه، يتباهى برشاشه الذي كان يسنده على كرشه البارز، أضافت أسنانه العلوية البارزة على سلوكه العدواني بشاعة، أما صوته الطفولي الحاد فكان مثار سخرية الأسرى، رأى يوماً معتقلاً باكستانياً صغير السن يأكل طعاماً خبأه ليتناوله لاحقاً بعد تسليم بقايا الوجبة، صرخ عليه وكأنه ضبطه في محاولة هروب، أمره بالاقتراب من الباب الذي يحيطه السياج، أدخل يده ثم صفع الأخ الباكستاني، شعرنا جميعاً بالإهانة والغضب، وبعدها بيوم أراد أن يفعل الشيء نفسه مع معتقل تونسي، أدخل يده من بين الأسلاك الشائكة ليصفع التونسي فتفاجأ بالأخ وهو يمسك يده بعنف قبل أن تصل إلى وجهه، كان الأخ متماسك الجسم مفتول العضلات، حاول الجندي أن يسحب يده فلم يمكنه الأخ من ذلك، فاضطر إلى جر يده بعنف وهو مذعور فأصابت الأسلاك فجرحت وسال منها الدم، فاشتكى الجندي عند الضباط زاعماً أن الأخ أراد الاعتداء عليه، أخذوا الأخ إلى انفرادي المعسكر ليعاقب هناك لأنه لم يسمح للجندي من صفعه!

كانوا يأتون بملابس نسائية وبملابس الأطفال للأسرى، أتوا بقبعات هزلية كي يلبسها الأسرى، رفضناها فلم نغير ملابسنا لفترات طويلة، ولم يقدموا لنا من الماء ما يكفي للاغتسال سوى ثلاث قوارير من الماء فقط مع كل وجبة، أجبروا بعض الأسرى على ارتداء حمالة صدر نسائية لإهانته.

بعد مرور شهرين تقريباً من وصولنا قندهار اقتحم المعسكر عشرات الجنود وهم يطلقون صيحات رعاة البقر، ثم اجتمعوا عند بوابة خيمتنا وأمرونا بالتجمع في الجهة الخلفية جثاة على الركب بالطريقة المعتادة، ثم انقضوا علينا وقيدونا واحداً واحداً، ثم ربطونا جميعاً بحبل واحد وشدوه بعنف حتى سمعت أنين بعض المعتقلين، انطلقوا بنا في مشهد يذكرني بالعبيد السود الذين اختطفتهم سفن كولومبوس ليباعوا في أمريكا، كانت خطواتنا قصيرة مرتعشة ونحن نتمايل يمنة ويسرة من شدة الألم الذي ينهش أيدينا وأقدامنا بسبب القيود الضاغطة على عظامنا، ثم سحبونا سحباً عنيفاً بالحبل إلى الجهة الأخرى للمعتقل، توقفنا أمام سطول مليئة بالماء، وبجانب كل سطل قطعة من الصابون، وقف الجنود أمامنا بأسلحتهم الموجهة علينا، ثم أمرونا بالاغتسال عراة بعد أن انتشرت الأمراض الجلدية بين المعتقلين فخشوا انتقالها إليهم، مرت علي أكثر من مئتي يوم لم أغتسل فيها إلا ثلاث مرات، حلوا رباط أربعة منا وأمروهم بالتجرد من ملابسهم دون ساتر يغطي عوراتهم، رفض بعضهم فوجهوا أسلحتهم إليه، غضضنا أبصارنا وقلوبنا تعتصر ألماً، إن أشد ما كنا نعانيه مع الأمريكان هو الذل والهوان، رجعنا من الاغتسال ونحن في هم وغم لا يعلمه إلا الله، إهانة لم نعتد عليها كمسلمين.

هنا بدأت فكرة خطيرة تنتشر بين المعتقلين: حتى متى نظل في هذا الذل والهوان؟ بلغ السيل الزبى وجاوز الحزامُ الطُّبْيَيْن، وبدأ البعض يفكر جدياً في وضع حد لهذا البطش والتعذيب والإذلال، كثرت النقاشات الخافتة بين بعض الأسرى، وفي صباح يوم حار يكتم الأنفاس اقترب مني أحد الأسرى وقال لي خلسة: لقد قررنا أن نضع حداً لهؤلاء الجبناء الحقراء الذين اشترونا في صفقة غدر وخيانة، كانت عيناه تتوقدان عزيمة وإصراراً.

: ماذا تقصد؟

صمت هنيهة وهو يجول ببصره في أنحاء المعسكر، ثم صوب بصره باتجاه نقطة معينة في السور المحدق بالمعسكر: الهروب، لابد من الهروب.

رأيت على وجهه أمارات الجدية الممزوجة بالغضب، الغضب من الإذلال واستكبار الجبناء، لم أُحِرْه جواباً، اكتفيت بالنظر في عينيه، كان يحاول إقناع أكبر عدد ممكن من الأسرى الذين يثق بهم.

: إما أن ننجح في الهروب أو نستشهد، كلاهما جميل، والثانية أجمل.

: الهروب إلى أين؟ هل تعرفون المكان؟ هل درستم الثغرات الأمنية في المعسكر؟ هل تعرفون تضاريس الأرض؟ هل هناك مساعدة من الخارج؟ أسئلة كثيرة لابد أن تجيبوا عليها.

: معنا إخوة أفغان من سكان هذه المنطقة ويعرفونها شبراً شبراً، لقد درسنا الموضوع ولدينا كل المعلومات التي نحتاجها في عملية الهروب.

: ماذا عن الجنود المدججين بالأسلحة وهؤلاء الحراس في الأبراج المطلة علينا والبوابة الحديدية التي لا يمكن كسرها ولا تسلقها والسور المحيط بالمعسكر والأسلاك الشائكة الملتفة على الخيام؟

: كل هذا سهل.

ثم أخذ يشرح لي الخطة كاملة، كانت خطة ذكية لكن نسبة المجازفة فيها عالية، يكون الحراس الليليون ليلة السبت والأحد سكارى أو أشباه سكارى، وأحياناً لا يكون في المعسكر كله إلا جندي أو اثنان يجوبان أطراف المعسكر الكبير، ولقد تم رصد حراس الأبراج فوجدناهم في هاتين الليلتين في غمرتهم ساهون.

وبعد أن أكمل شرح خطته قال: إلى هذه النقطة نصل إلى المرحلة الضبابية، لابد من قفزة في الظلام، إما أن ننجح أو كما قلت لك، الموت بشرف خير ألف مرة من حياة الذل، قلت: أستخير الله أولاً، هل لديك العدد الكافي لهذه المهمة الصعبة؟

: نعم، أثق بهم، لا يبالون أوقع الموت عليهم أم وقعوا عليه، وآخرون لا أعرفهم إلا في المعتقل.

: أمهلني أسبوعاً نقلب الأمر ونكثر الاستخارة ونستشير ذوي الرأي ولعل الأمور تتغير.

: ما الذي سيتغير في أسبوع سوى المزيد من الإهانة والإذلال؟

لم أحبذ الفكرة لسبب بسيط، كنت واثقاً من أن هذا البلاء إنما هو مرحلة لا نمر بها وحدنا بل الأمة كلها، مرحلة مهمة جداً في تاريخنا، الانتصار فيها والنجاح في اجتيازها يكون في الثبات على المبدأ وليس في وضع نهاية له، ستكون مؤلمة لكنها مهمة، لتظهر الحقيقة وتتمحص النفوس، كان يجب أن يموت غلام الساحر ليدرك قومه الحقيقة، وحين رأوه ثابتاً حتى النهاية صاحوا: آمنا برب الغلام.

قال لي بعينين متقدتين: أسبوع واحد فقط، لن أنتظر المزيد.

في كل يوم أراه ينظر ملياً إلى المعسكر، يتفقد الثغرات ويبحث عن نقاط الضعف وأوقات تبديل الحراس والوضع في أبراج المراقبة.

استيقظت من النوم منتصف الليل والسماء تهلنا برذاذها اللطيف، نظرت حولي وإذا بمشهد عجيب لم أر في حياتي مثله، رأيت مئات الطيور الصغيرة الجميلة الملونة، منها الأصفر والأخضر والأحمر تملأ سماء المعسكر، التفت وإذا بالعشرات منها يدخل خيامنا، كان معظم المعتقلين نائمين، كانت تتقافز بينهم دون خوف أو وجل، تقترب مني حتى أكاد أمسكها، رأيت أفغانياً من سكان قندهار ينظر إلى المشهد وهو يسبح الله مستغرباً، سألته إن كان رأى هذا الأمر من قبل في قندهار، فأكد لي أنها المرة الأولى التي يشاهد في حياته طيوراً كهذه، الأصل في هذه الطيور الجميلة أن تخاف البشر ولا تحلق في السماء ليلاً بل تختبئ في الأشجار وما أشبه، فكيف إذا كان الجو ممطراً؟ كان ذلك في الليلة التي سبقت ترحيلنا إلى معتقل غوانتانامو.

وقبل يوم واحد من انتهاء أجل الانتظار الذي حدد للقرار النهائي للهروب اقتحمت المعسكر مجموعة كبيرة من الجنود، وبدؤوا يختارون عدة أشخاص من كل خيمة ثم يقيدونهم وينقلونهم خارج البوابة، ماذا يحدث؟ كثرت التساؤلات والتحليلات وازداد التوتر، جاؤوا إلى خيمتنا وكالعادة أمرونا بالجثو على الركب آخر الخيمة، صاح الجنود: (٥٥٢)، ازدادت نبضات قلبي، لا أدري ماذا ينتظرني، وفي ظل هذا الوضع المتوتر والمزدحم بالقلق والتوجس لم أر خيراً من التسليم للخالق، كلما اشتدت بي الأمور وعصفت بي المحن واكفهرت في وجهي الأيام لهج لساني: الله . .الله ربي لا أشرك به شيئاً، لا أشرك به ظالماً مستبداً ولا عاتياً متمرداً، هو الملك، لا ملك سواه، سلمت لك جسدي وروحي يا رب الأرباب، هو في سبيلك فليفعلوا ما شاؤوا، لن يفعلوا إلا ما أردت، رضيت بك رباً.

لقد بدأت عملية نقلنا إلى جزيرة غوانتانامو فجأة دون مقدمات، ثم إني اجتمعت في غوانتانامو مع صاحب فكرة الهروب، فكان ينظر إلي مع ابتسامة عتاب، كأنه يقول لي: لقد ضيعنا فرصة لن تتكرر، لكن الخير فيما قضى الله.

بقينا مقيدين على هذه الحال من العصر إلى الليل، سمعت الجنود قبل نقلنا إلى الطائرات بقليل يخبر جندياً آخر بأن الساعة توشك على الثامنة ليلاً، سمعت صوت قعقعة أقدام تقترب مني، كانت هناك فتحة صغيرة أسفل غطاء العين، استطعت رؤية الأقدام، إنها امرأة، رفعت السماعة ثم جعلت فمها قريباً من أذني وهي تهمس: هل عرفتني؟

أجبتها: نعم، أنت المحققة.

قالت: أمامك فرصة أخيرة لتعترف، أنت الآن ستذهب إلى جزيرة غوانتانامو.

قلت: بل أنا ذاهب إلى رحمة الله وفضله.

قالت في غضب: بل إلى غوانتانامو لتعذب هناك.

: بل هو درس جديد، واختبار آخر، يحوي بحوراً من رحمات الله.

جذبت السماعة في انفعال لتتركها تصطك في أذني!

وصدق ظني، إنها رحمة الله المختبئة فيما ظنه الناس شقاءً.

رحلة العذاب:

بدأت عملية ترحيل المعتقلين إلى غوانتانامو، صاحوا برقمي (٥٥٢)، لازلت غير متأكد أن غوانتانامو ستكون هي وجهتنا، قيّدوا يديّ ورجليّ وغطّوا رأسي ووجهي، ثم نقلت بعنف إلى خيمة خارج المعسكر، تفاجأت بتقطيع ملابسي تماماً وبقيت عارياً، نزعوا الغطاء عن رأسي واستبدلوه بنظارة محكمة الإغلاق لا ترى من خلالها شيئاً، خلال فترة تبديل الغطاء بالنظارة لمحت عيني مجموعة من الأسرى وهم عراة غضضت بصري وقلبي يعتصر ألماً من هذا الذل والهوان، ألبسونا ملابس برتقالية لأول مرة، أوثقونا جميعاً بحبل واحد بعد أن جعلونا صفاً واحداً جثاةً على ركبنا، وقد أجبرونا على النظر إلى الأرض، قيدوا أيدينا من الأمام وليس من الخلف كالعادة، ووضعوا بين القيد الأيمن والأيسر صندوقاً أزرقاً صغيراً يمنع تلامس الكفين وتبقى في وضعية واحدة دون أن تستطيع التحرك قليلاً لتخفيف الضغط عليها بالتزامها وضعية محددة طوال فترة الرحلة الطويلة، والتي أسميناها لاحقاً (رحلة العذاب)، ثم ألبسوا أكفنا قفازات ضخمة دون أصابع شبيهة بقفازات الطبخ حتى لا نستطيع القبض على أي شيء، ثم أدخلوا سلسلة طويلة فى الحلقة الوسطى بين القيد الأيمن والأيسر ثم شدوها حول الخصر بعنف حتى التصقت أيدينا ببطوننا فسببت آلاماً مبرحة في اليدين وتورمت عظام الخصر الناتئة من شدة الضغط، ثم جمعونا جميعاً في خيمة كبيرة، لا أتذكر كم بقينا في هذه الخيمة تحديداً لكننا بقينا على هذه الحال فترة طويلة، ثم أحضروا لكل واحد منا رغيف خبز لتقوى أجسادنا على تحمل القادم، بدأ الجنود بالصراخ علينا: قفوا يا أولاد الـ (. . .)، أخذ كل الجنود يصرخون ويسبون ويجروننا جراً عنيفاً ونحن جميعاً مقيدون بحبل واحد من أولنا إلى آخرنا، وحين يجر الأول فإنه يتألم من حز الحبل على ذراعه فيضطر للتقدم وحين يتقدم فإنه أوتوماتيكياً يشد الحبل على من خلفه

وهكذا، كنت حينها أسمع الكثير من الإخوة يئنون من الألم الفظيع، كنا نظن أنها ستقطع، تورمت الأذرع وتخدرت ثم تحول التخدر إلى نبضات كهربائية تسري في كل الجسد، كان الهواء الشديد المنبعث من محركات الطائرة يضرب أجسادنا بقوة، حين اقتربنا من الطائرات لم أعد أسمع أنين الأسرى لأن زمجرة الطائرات قد طغت على المكان، صوت مجلجل، هواء عاصف، أنين مكبوت في الأعماق، وثاق يكاد يقطع الذراع، قيود محكمة في الأيدي والأرجل تزيد الألم ألماً، أغطية كثيفة على وجوهنا تمنعك من رؤية ما ينتظرك لتبقى سجين القلق، غرقنا في الظلمة، متي ينتهي هذا العذاب؟

بدؤوا بشد الحبل الذي كان مشدوداً أصلاً، أخذوا في ضربنا من جديد، أمرونا بالتوقف، كنت أشعر أننا توقفنا طويلاً لكنني لا أدري هل كان قصيراً فأطاله الألم، أجبرونا على صعود سلم مسطح بجرنا بالحبل من الأمام، ثم أدخلونا الطائرات التي عرفنا لاحقاً أنها طائرات ضخمة لشحن البضائع، لقد كنا مجرد بضاعة تباع وتشترى، بضاعة كاسدة زهيدة عند البائع غالية رائجة عند المشتري، أدخلونا الطائرة واحداً واحداً بعد أن حلوا الحبل الذي كان يربطنا جميعاً، أحسست بتيار الهواء يضرب بصدري أشد من السابق، فعلمت أن الأخ الذي كان أمامي قد أدخل في الطائرة وصرت أول الطابور، أخيراً اقتربت من نهاية العذاب، هكذا ظننت، كنت مخطئاً، اقتادني الجنود بعنف وأدخلوني الطائرة، مكان بارد أجبر جسدي الهزيل الضعيف على الارتعاش، جوع، عطش، برد، ألم، ذل، هوان، هذا كل ما في الأمر، أجلسوني على الكرسي ثم بدؤوا بشد الأحزمة على أطرافي المقيدة أصلاً لتثبيتي بالكرسي، أحكموا وضع غطاء العينين وسماعات الأذن وكمامات الفم ليتأكدوا أني لن أسمع ولن أرى ولن أتكلم ولن أتحرك طوال الرحلة، بقينا فترة طويلة قبل أن تقلع الطائرة، سمعت صوت بعض الإخوة يصرخ من شدة الوضع الذي لا يحتمل، وضربات متتالية، بعدها توقف صوته، لا أدري ماذا حدث له، علمت من هو هذا الأخ لاحقاً في غوانتانامو، أخبرني أنه لم يتحمل كل هذا الضغط النفسي والبدني فحاول النهوض والتمرد وليحدث ما يحدث، ومع حركته المفاجئة تحرك غطاء العين قليلاً فرأى الإخوة مقيدين على الكراسي، وأمام كل أخ هناك جندي معه دفتر وقلم وهو يراقب حركات الأخ ويكتب كل ما يلاحظه عليه من تصرفات خلال رحلة العذاب تلك، هجم عليه الجنود ضرباً حتى فقد الوعي على كرسيه، يقول: كانت رحمة من الله، لم أشعر بشيء معظم الرحلة لأني كنت فاقداً للوعي والهوية والكرامة الإنسانية.

شعرت بأحد الجنود يضربني على كتفي، ثم أزاح كمام الفم قليلاً، شممت رائحة

التفاح، ألصقها في فمي لآكل، كنت أتضور جوعاً، حاولت الأكل لكني لم أستطع، لقد كانت أجساد الأسرى مرهقة جداً لكن الأمريكان تعاملوا بمكر ودهاء حيث إنهم لا يتركون الأجساد تنهار ضعفاً وخوراً، لأن نقلهم حينها سيكون أصعب، فكانوا يقدمون للأسرى الحد الأدنى من الطعام الذي يجعلهم يتحملون رحلة العذاب التي ستقلهم إلى الجزيرة النائية التي لم يسمع عنها أحد قبل هذه اللحظة، لتصبح أشهر جزيرة عرفتها البشرية في عصرنا الحاضر.

قدموا لنا خبز التوست عليها زبدة الفول السوداني وعسل، كانت ألذ وجبة أكلتها منذ سبعة أشهر، وبمجرد أكلها شعرت برغبة شديدة لاستخدام الخلاء، الغريب أن الجندي بعدها مباشرة رفع سماعة الأذن وقال: (bathroom) حمام؟ هل وضعوا فيها مسهلاً؟

قلت: نعم، اقتادوني إلى مكان قريب في الطائرة، ثم أوقفوني وطلبوا مني الاستدارة، وبمجرد أن استدرت لم أشعر إلا وقد أنزلوا البنطلون لأقف أمامهم عارياً، دفعوني إلى الخلف لأقع جالساً على فتحة المرحاض، شعور لا يوصف من الذل والهوان، قال لي: لك دقيقتان فقط لاستخدام المرحاض، وبعد انتهاء الوقت طلبت منهم ماء أو منديلاً لكنهم بدل من ذلك أخذوا بعضدي وأجبروني على القيام، ثم ألبسوني البنطلون وأرجعوني إلى الكرسي وأعادوا إحكام شد الأحزمة على أطرافي وبطني بالكرسي، وبعدها مباشرة أزاحوا عني كمام الفم قليلاً، ثم قالوا: افتح فمك، فتحت فمي ليدخلوا فيه حبوباً لا أدري ما هي، عرفت لاحقاً أنها للهلوسة حتى لا يصدر منك أي تمرد خلال عملية النقل، قربوا من فمي حافة الكوب لأشرب فشربت، شعرت بعدها بقليل أني فقدت قدرتي على التركيز، بالتأكيد لم تكن حبوباً منومة لأني لم أستطع النوم طوال الرحلة، كانت حبوب هلوسة تجعلك متذبذباً بين النائم واليقظان، إحساس فظيع، غير قادر على التركيز وغير قادر على النوم، متأرجحاً بين حقيقة الأسر وكابوس القهر، مرة أنجذب هنا ومرة أدفع هناك، وحين سألت الإخوة بعد وصولنا غوانتانامو وجدت أننا جميعا اتفقنا في المشاعر والأحاسيس والمعاناة، شعور كريه، انقباض في الصدر، كآبة مسيطرة غير طبيعية، رغبة هيستيرية في الصراخ، صعوبة بالغة في التنفس، زادها صعوبة وجود الكمام على الأنف والفم، إحساس قاتل يمزقك من الداخل، كنت أقاوم وسوسة الاستسلام وسوداوية المأساة والانبطاح أمام عدو شامت.

شرعت في قراءة آل عمران المحببة إلى نفسي، لم أكمل صفحتين إلا وقد فقدت التركيز تماماً، قاومت ففشلت كررت المحاولة وتكرر الفشل، بدأت في تكرار سورة

الإخلاص فلم أكملها من ضعف التركيز، كنت أغفو وأصحو، قررت تكرار أذكار المساء التى قلتها قبل الصعود إلى الطائرة مرات عديدة، لم أستطع إكمالها كذلك، تكرر الغفو والصحو مئات المرات دون مبالغة، انتبهت فزعاً، لقد جمعت بين صلاتي المغرب والعشاء قبل صعود الطائرة وأنا مقيد، لابد أن صلاة الفجر قد دخل وقتها، كبرت للصلاة دون وضوء أو تيمم، أخذاً بحكم فاقد الطهورين، بينما أنا في الركعة الأولى إذ غفوت ولم أدر كم صليت، أعدت الصلاة ثانية انتبهت على نفسي وأنا أقرأ التشهد بدل الفاتحة، قرأت الفاتحة فلم أكملها بسبب انعدام التركيز، كررت الصلاة أكثر من عشرين مرة دون أن أتمكن من إنهائها، دعوت الله ﷻ مراراً أن تسقط الطائرة بمن فيها، لنجتمع جميعاً أمام ملك الملوك ليحكم بيننا بالحق وهو خير الفاتحين، وبعد وصول غوانتانامو أخبرني كل من لقيته أنه دعا بنفس الدعوة من شدة الكرب، شعرت بأن الطائرة بدأت بالهبوط، حقاً؟ أتراها نهاية هذا العذاب الرهيب الذي أحاط بنا في هذه الرحلة الرهيبة التي عانينا فيها ما لا يوصف؟ توقفت الطائرة، انتظرت لحظة إنزالي منها، لكنني صدمت حين أقلعت مرة أخرى بعد توقف دام أكثر من ساعة تقريباً.

انطفأت شعلة الأمل الضئيلة التي تفاءلت بها، رجعت إلى حصني الحصين إذا ادلهمت المدلهمات، التسليم المطلق للخالق والتفكر بفناء الدنيا، حتماً سينتهي كل ما نعانيه بالموت، ولابد لنا جميعاً من الموت، هنا يتحول الموت من شبح مرعب إلى حبيب تنتظره بفارغ الصبر، صرت أنظر إلى شحوب الموت القبيح على أنه حيوية زاهية تتدفق جمالاً.

من مكر الجيش الأمريكي أنهم وضعوا في سماعة الأذن من الجهة التي تلامس الرأس دبوساً، يخرج منه طرف صغير يلامس فروة الرأس، ومع طول الرحلة يزداد الألم بشكل مبرح، كنت أظن في حالة الهلوسة أنهم سلطوا على رأسي أشعة، فكنت أحاول إمالة رأسي يمنة ويسرة لتفادي هذه الأشعة التي توهمها عقلي الذي أخذ إجازة طويلة بدون راتب، وصل الألم إلى الجمجمة، أتخيل رحلة العذاب هذه وأنا أكتب هذه الكلمات بعد حريتي فأغرق في عجبي ودهشتي، مقيد اليدين والقدمين بعنف، مثبت بأحزمة في بطني وقدمي وكتفي بالكرسي، مكمم الفم والأنف، مغمى العينين، والسدادات تُحكم إغلاق الأذن وتركز رمحها (الدبوس) في رأسي وأنا أعاني من آثار حبوب الهلوسة والهذيان. بهذه الحال قطعنا رحلة العذاب من مشرق الأرض إلى مغربها، اجتزنا الفيافي والقفار، الجبال والبحار، المحيطات والأنهار، حلقنا فوق مهد الحضارات لنعلن أنها وئدت في طائرتنا، مررنا بالقرب من تمثال الحرية لنبصق

على وجهه قبل أن تنزل بنا الطائرة إلى سوق النخاسة لنباع بيع العبيد، أخذت أتساءل: إذا كان الطريق إلى غوانتانامو بهذه البشاعة فكيف يكون الحال في غوانتانامو نفسها؟

وبعد أشهر من وصولي غوانتانامو علمت أن الرحلة استغرقت أكثر من ست وعشرين ساعة، أخبرني أحد الإخوة بعد ذلك أن أحد الجنود كان يرفع رأسه في الطائرة بيده ثم يضربه وهو يصرخ: لا ترفع رأسك، ثم يعود الجندي ويكرر فعله ثم يضربه وهو يصرخ: لا ترفع رأسك! فقال له الأخ: أنت ترفع رأسي بنفسك، فيضربه وهو يقول: لا تتكلم!

أخيراً توقفت الطائرة، أنزلونا واحداً واحداً ونحن في حالة إرهاق لا يعلم مداها إلا الله، كان بعض الإخوة مغمى عليهم بسبب الضغوط الهائلة التي لم تستطع أجسادهم المتعبة تحملها طوال الرحلة، أنزلونا من الطائرة ثم أجلسونا على الأرض على ركبنا، ولازالت أجسادنا مثقلة بالقيود لا نُرى ولا نسمع، حينها تقدم مترجم يترجم ما يقوله الضابط، رفع السماعة عن أذني وقال: أنت في قبضة الجيش الأمريكي، أنت في أسفل السافلين!

يا لحماقتهم، ذموا أنفسهم دون أن يشعروا!

ما شعرت إلا وضربة عنيفة على رأسي وكتفي: انظر إلى الأرض يا (. . . .)، بقينا فترة طويلة قبل أن ينقض علي اثنان من الجنود بعنف ويجراني لأتحرك معهما، سمعت صوت سيارة، أصعداني عدة درجات فعلمت أنه باص، أجلساني على الأرضية، سمعت أصوات ضرب وآهات متصاعدة من أسرى آخرين، لابد أن دوري سيحين قريباً، هيأت نفسي، انهال علي الضرب من كل صوب، وبعد صولة وجولة سمعت صوت سحاب يفتح، أحسست بسائل دافئ ذي رائحة كريهة ينهمر عليّ، لقد بال علي! إن كان عدوك دنيئاً جباناً فلا تسأل عن الإهانة حين يتمكن منك، كان هناك جندي يصرخ بالأوامر ومترجم يرددها بالعربية: لا تتحرك، لا تتكلم، انظر إلى الأسفل، أي حركة وإن كانت بسيطة فإنها تقابل بالضرب الشديد على الكتف والرأس والقفا، وبعد فترة قصيرة من السير صعد الباص مكاناً مرتفعاً قليلاً، ثم توقف وبدأ يتأرجح كأنه قارب تحركه الأمواج، عرفت لاحقاً أن الباص أدخل في عَبّارة بحرية تقطع الخليج الفاصل بين المطار والمعتقل المحاط بالحواجز الأمنية الطبيعية والمصنوعة، وبعد وصولنا المرفأ نزل الباص ثم أنزلونا منه وأجلسونا على ركبنا، فوق أرض عليها حصى كأنه حصى البحر، كان الجو دافئاً، علمت أننا في وقت النهار، شعرت بأشعة الشمس تتغلغل في عظامي المنهكة، جاء جندي فمدد رجلي

أمامي وخفف من تشديد القيود على يدي بعد أن وجدها متورمة، أخيراً.. وبعد يوم عصيب سمحوا لنا بتمديد ركبنا التي منعت من ذلك طوال فترة الرحلة، وبينما نحن على حالنا إذ سمعت صوتاً شجياً ندياً أعاد لروحي الروح، صوتاً ملائكياً لن أنساه، إنه صوت الأذان، اكتشفت حينها أننا قريبون من الإخوة الذين سبقونا إلى غوانتانامو، يا الله.. ما أجمل ما يذكرنا بك.

ترى هل هذا أذان الظهر أم العصر؟ لقد استغرقت الرحلة وقتاً طويلاً، هجمت علي التخيلات، بعد قليل سيأخذونني حتماً إلى إخواني، لا شك أنهم في سجن جماعي، سنصلي جماعة ونتسامر ونتجاذب أطراف الحديث ليحكي كل واحد منا قصته وما حدث له، شعرت بالحيوية وتدفق الدماء في عروقي، كانت رائحة البحر تغسل صدري من آثار رحلة العذاب، رفع جندي الكمام عن فمي ووضع كوب ماء فشربت، التقطت أنفاسي قليلاً، لكن ذلك لم يدم، بدأت أشعر بآلام شديدة في الظهر بسبب تمديد القدمين إلى الأمام جالساً وأنا مقيد الأطراف، حاولت تصحيح حركة ظهري فانهالت علي ضربة عنيفة على رأسي كدت أفقد منها الوعي وجندي يصرخ (don't move): لا تتحرك، كانت أقصى أمنيتي ذلك الوقت هو أن أتمدد على الأرض بعد كل هذا العناء الرهيب الذي أحكم قبضته الفولاذية على كل مفصل في جسمي، انقض علي الجنود وجروني إلى مكان آخر، أوقفوني ونزعوا عني الكمام وسماعة الأذن وغطاء العين وبقيت قيود اليدين والرجلين، شعور لا يوصف، كأني ميت قام للتو من تابوته، وحين نزع سماعة الأذن شعرت بنبضات مؤلمة في أذني ودوار شديد كدت أسقط منه، كانت أذني قد تورمت من ضغط السماعات الذي استمر لفترة طويلة وآلام حادة ودم متجمد في أعلى جمجمتي بسبب الدبوس، بقيت أورام الأذن لأكثر من أسبوعين. أما آثار الدبوس فقد بقيت لستة أشهر، وهان علي ما أصابني حين رأيت أحد الإخوة اليمنيين قد تقرح مكان الدبوس وأخرج الصديد ثم تشكلت حلقة من الصلع قطرها ثلاث سنتيمترات تقريباً، استمرت حلقة الصلع هذه في رأسه حتى وقت خروجه من غوانتانامو بعد أربعة عشر عاماً، ثم أطلق الأمريكان سراحه قبلي بأشهر قليلة.

لم أشعر إلا والجنود يمزقون ملابسي بالمقص لأبقى عارياً أمام الجنود والجنديات، غلبني الدوار والإجهاد من شدة التعب، لم أشعر إلا والماء ينهمر علي من أعلى، وإذا بي في مكان صغير قد أعد للاغتسال، دقيقة واحدة فقط، ثم نقلوني إلى مكان مجاور أرسف بقيودي والماء يقطر من جسمي العاري، أوقفوني أمام المحقق

ليستغلوا حال الضعف الذي يعيشها الأسير بعد رحلة العذاب التي مررنا بها: اسمك؟ جنسيتك؟ عمرك؟

لكنه حين سألني: (ما دينك؟) شعرت بنشوة أفاضت علي سيلاً من القوة والثبات، لقد أبرز هذا السؤال أمراً مهماً لكل مبتلى وهو وجود هدف وقصد وغاية وراء كل هذا الألم، أنا مسلم، لقد أجبته بكلمة واحدة لكنها تضمنت مجلدات من المعاني العظيمة التي كنت في أمس الحاجة لها في هذه اللحظة.

ثم تتابعت سيول الأسئلة، القاعدة، طالبان، أسامة بن لادن، الحادي عشر من سبتمبر، الدعم المالي، التدريب العسكري، الخلفية الفكرية، الحركية، التنظيمية، التواجد الأمريكي في الدول الإسلامية ورأيي فيه، بعدها طلب مني كتابة رسالة لأهلي، كنت واثقاً أنها لن تصل إليهم، هل أراد استثارة عاطفتي لأنهار أم أنه ظن أني أخفي معلومات مهمة سأكتبها لأهلي في هذه الرسالة التي سيتولى هو شخصياً مشكوراً إيصالها إليهم؟! ماذا أراد بالضبط؟

كتبت فيها: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ صدق الله العظيم.

بدت واضحة صلصلة السلاسل التي تقيد جسدي العاري المرتعش، كان الهواء البارد يلفحه من وحدات التبريد المنتشرة في الغرفة، أدخلوني غرفة أخرى لأرى فيها طبيباً واجماً عابساً بملابسه البيضاء النظيفة: من هذا؟

ردّ الجندي: (٥٥٢) سيدي.

أخذ يفحص جسدي الهزيل ويعد الإصابات المنتشرة فيه، ثم قال: أنت مقاتل أليس كذلك؟

: لا.

: ما هذه الإصابات إذن؟

: القصف العشوائي الذي لم يفرق بين مدني ومقاتل.

: بل أنت مقاتل، وهذه أدلة عليك، هذه وهذه وهذه، أخذ يشير إلى الشظايا المغروسة في اللحم والكدمات التي امتلأ بها جسدي من آثار الضرب، ثم وضع يده على أثر قديم في كتفي إثر سقطة في طفولتي، فسجلها في دفتره الأحمق على أنها دليل

إضافي على أن لي علاقة بالقاعدة وأسامة بن لادن، ألقى نظرة على ظهري فرأيت على وجهه آثار الاستغراب،

: هل ضربك أحد بالسلاسل؟

تفاجأت من سؤاله، أيعقل أن تستمر آثار الضرب بالسلاسل في كابل إلى هذه اللحظة؟! لقد مر عليها ما يزيد على أربعة أشهر.

: نعم، في سجن الاستخبارات تحت الأرض في كابل.

: من ضربك؟ الأفغان؟

: الأفغان بأمر من عميل الـ (CIA)

أخذ يكتب وهو يقول: ضربات بالسلاسل من السجانين الأفغان في سجن كابل!

بدأت أعي جيداً كيف تسند الولايات المتحدة الكثير من الأعمال القذرة لوكلائها في العالم.

لا زال جسدي العاري ينتفض، أخذوني إلى غرفة مجاورة وفكوا قيد يد واحدة ورجل واحدة، ثم قدموا لي ملابس برتقالية لألبسها، كانت من النوع الخشن الذي يغلب عليه البوليستر، وبعد مسافة من المشي تصطك القيود الحديدية برجلي فينبض الألم مع كل خطوة، كانت اللهفة ترفرف بي شوقاً لرؤية إخواني الأسرى بعد كل هذه الأهوال التي مررنا بها، أوقفوني أمام البوابة الرئيسية، وإذا بلافتة كبيرة مكتوب عليها:

(CAMP DELTA 1) معسكر دلتا 1

(MAXIMUM SECURITY) التأمين الأقصى

(HONOR BOUND TO DEFEND FREEDOM) الشرف مُلْزِمٌ للدفاع عن الحرية!

كان هناك معتقلون قد سبقونا إلى غوانتانامو، وضعوهم في معسكر (X RAY) أي أشعة إكس، كان معسكراً مؤقتاً قبل أن يكملوا إنشاء معسكر (دلتا)، وعلى الرغم من الظروف الصعبة التي كانت في معسكر أشعة إكس إلا أن المعتقلين فرحوا حين تم نقلهم من قندهار إلى هذا المعسكر في غوانتانامو بسبب سوء الأوضاع في قندهار.

دخلنا العنبر وإذا به دهليز بجانبيه زنازين متراصة، في كل جانب أربع وعشرون زنزانة، مجموع الزنازين ثمانية وأربعون، أدخلني الجنود إحدى هذه الزنازين،

ثم صاح بي الجندي: (on your knees) اجث على ركبك.

وحين تلكأت دفعني لأقع وأجثو على ركبتي، داس أحد الجنود على السلسلة الموصولة بقيود القدم اليمنى واليسرى، كدت أصرخ من الألم لولا أني تجلدت، كانوا يمسكونني بعنف من عضدي، كل جندي في جهة والثالث في الخلف، كانوا متوجسين مضطربين وهم ينفذون الإجراءات الأمنية، فكوا قيد اليد اليمنى ثم وضعوها على رأسي بتوتر وقلق، ثم وضع أحدهم يده المغطاة بالقفاز فوقها، ثم فكوا اليد الأخرى ثم أدخلوا أصابع يدي اليمنى باليسرى ثم ضغطوا عليهما بقوة بعد وضعهما على رأسي، كان الوضع مؤلماً جداً، ثم فكوا قيود الرجلين، وحينها همس أحد الجنود للآخرين: هل أنتم مستعدون؟

أضمرت في نفسي أنهم سيضربونني، قالوا: مستعدون.

بدؤوا بالضغط أكثر على يدي ورجلي، ثم صاح أحدهم: (one, two, three) واحد، اثنان، ثلاثة!

اندفعوا خارج الزنزانة، ثم أغلقوا الباب بعنف وأحكموه بالقفل بسرعة فائقة، نهضت وأنا غير مصدق بأني بلا قيود تمنعني من الحركة ولا كمامات ولا سماعات ولا نظارات، أصبحت أسمع وأرى وأتحرك وأتنفس بكل حرية، أنا حر، شعرت كأنهم أطلقوا سراحي، إحساس مريح لا يوصف، كانت زنزانة صغيرة لكني شعرت كأنها قصر مشيد بعد رحلة العذاب التي ذقنا فيها الأهوال، طولها (١٧٥) سنتيمتر في (٢٠٠) سنتيمتر تقريباً، فيها سرير من صفيحة معدنية ومغسلة ارتفاعها ٥٠ سنتيمتر ومرحاض.

رأيت أحد الأسرى في زنزانة بعيدة، كانت بيني وبينه زنازين فارغة، كان ممن شارك في الجهاد الأفغاني ضد الروس، عمره قد تجاوز الخمسين سنة، تجلل وجهه لحية شهباء، التقى مرات بعبد الله عزام، سلمت عليه فلم يرد السلام بل اكتفى بإشارة بيده!

: كيف حالك يا عم (فلان)؟ أبشر بالخير والأجر.

قال منزعجاً: كيف تتحدثون في الخلاء؟ ألا تستطيعون الانتظار حتى ينقلونا إلى بقية الإخوة في السجن الجماعي لنتحدث كما يحلو لنا؟!

سمعه أحد الأسرى فانفجر ضاحكاً: يا عم (فلان) هذا ليس الحمام، هذا بيتك الجديد الذي ستبقى فيه حتى يأذن الله لنا بالفرج!

كان صاحب مزاح وخفة دم، أخذ يتلفت بطريقة جعلتني أغرق في الضحك، نسيت ما أنا فيه من التعب والإرهاق والألـم، وفعلاً بقينا في هذه الزنازين ما يعادل مجموعه عشر سنوات، كانت هذه الزنزانة هي المصلى والحمام وغرفة النوم والطعام والنادي الرياضي الذي نمارس فيه التمارين!

معسكر أشعة إكس:

كان المعسكرَ عبارة عن أقفاص متراصة، كل قفص فيه حصير وسطل ماء وآخر للبول والغائط ومطارة لشرب الماء، كان الجنود يأخذون المعتقلين إلى التحقيق ركضاً حتى تجرح القيود أقدامهم بسبب الاحتكاك، منعوا من الصلاة والكلام فكانوا يصلون جلوساً، كثيراً ما دخلت الأفاعي والعقارب والعناكب السامة زنازينهم، وعلى الرغم من ذلك كان الجنود يمنعونهم من الحركة لتفادي الهوام، لم يكن سقف القفص مغطى، فكانت أشعة الشمس مسلطة على رؤوسهم طوال النهار.

حاول وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد وضع تعريف جديد للتعذيب، فأخرج منه الحرمان من النوم والتجويع والوضعية الجنينية لأيام والإغراق بالماء، فما دام المعتقل لم يفقد حياته أو عضواً من أعضائه أو حاسة من حواسه فهذا لا يعد تعذيباً بزعمه، ومع الضغوط الإعلامية واستخدام هذه الورقة من قبل أعداء الولايات المتحدة الأمريكية لتصفية الحسابات عدلت الإدارة الأمريكية عن هذا التوجه واستخدمت أسلوباً ماكراً من خلال التعذيب بصورة غير مباشرة، فالمحقق لا يستخدم الضرب لكنه يأمر الجنود بتقييد المعتقل في أوضاع مؤلمة لا يسمح لك فيها بالتبول لأوقات طويلة قد تصل إلى أكثر من يوم كامل، مع استخدام البرد والحر الشديدين والحرمان من النوم لفترات طويلة وإهانة الشعائر الدينية كالقرآن والصلاة، ومنها تعذيب المعتقل في زنزانته وليس في غرف التحقيق، بإبقاء المعتقل في ظروف صعبة للغاية يمارس عليه الجنود شتى أنواع الضغط النفسي والبدني، ثم يبتزه المحقق بالتعاون معه حتى ينقله إلى مكان أفضل.

كان الجنود يوقظون المعتقلين من النوم عشرات المرات لأتفه الأسباب، يوقظونه ليضع سطل قضاء الحاجة في مكان آخر غير المكان الذي هو فيه، كما يوقظونه لإخراج رأسه ويديه من تحت الملاءة (الشرشف)، أو يأمره بأن يريه قطعة الصابون ليتأكد من وجودها عنده، لم تكن هذه الأوامر إلا للإزعاج وترويض المعتقل على طاعة أوامر أصغر جندي ليكون مجرد أداة تنفذ لا إنساناً يفكر.

وضعت مكبرات للصوت في أرجاء المعتقل، فكانت تصدح ثلاث معزوفات موسيقية في ثلاثة أوقات، الأولى في الثامنة صباحاً، والثانية قبيل غروب الشمس، النشيد الوطني، أما الثالثة فكانت تنبعث من المكبرات ليلاً، وهي معزوفة حزينة أظنها ترثي قتلى سبتمبر.

كان من ضمن المعتقلين أخ سعودي يحمل الجنسية الأمريكية قد تم أسره في قلعة (جانغي)، وحين عرفت الإدارة الأمريكية بذلك زاره وفد من الحكومة الأمريكية في غوانتانامو وأخبروه أنه أمريكي يتمتع بحقوق لا يستحقها بقية المعتقلين في غوانتانامو، وتم الترتيب على نقله إلى الولايات المتحدة، وهناك ساوموه للتخلي عن جنسيته مقابل تسليمه للسعودية فوافق دون تردد، فتم تسليمه إلى وطنه الأم، وفي آخر لحظاته في غوانتانامو وقبل نقله إلى أمريكا سأله جندي أمريكي وهو يشير إلى العلم الأمريكي: هل تحب هذا العلم؟ فأجابه: لا.

مرت الأيام ثقيلة وبلغ السيل الزبى وتجاوز الحزام الطُّبْيَيْن وأخذت تتنامى روح التمرد في نفوس المعتقلين الذين ضاقوا ذرعاً بالقوانين العنجهية والمعاملة المهينة التي تعاملهم بها إدارة المعتقل، لم يمنع المعتقلين من الثورة ضد القوانين الجائرة خوفهم من القتل، لكنه تفادي التعذيب الذي لا يسمح لك ببلوغ الموت لترتاح ولا الحصول على أدنى درجات الكرامة الإنسانية، لكنهم وصلوا إلى نقطة لا يمكنهم فيها تحمل المزيد، نهض أحد المعتقلين فتمرد على قانون المنع من الكلام ثم رفع صوته بالأذان لصلاة الظهر، اجتمع الجنود حول زنزانته يصرخون عليه لإيقافه، وذلك دون جدوى، انتشرت الشرارة في المعسكر لتتحول إلى عصيان شامل، لماذا نُمنع من أدنى حقوقنا؟ لماذا التعذيب؟ لماذا الاعتقال التعسفي دون محاكمة؟

اجتمعت قوات الشغب ثم اقتحموا بعض الزنازين وضربوا المعتقلين فلم يزدهم إلا مقاومة وتمرداً، ضجت الأقفاص بالتكبير الذي أخذ يتزايد بشكل عجيب، مهما أصف تأثير التكبير على الجنود الأمريكان فلن يدرك الصورة كاملة إلا من رآها رأي العين، أصابت الجنود حالة غريبة من الذعر والهلع بسبب التكبير لدرجة أن بعضهم كان يسقط أرضاً من شدة الخوف، كانت هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها الجنود التكبير، ضجت العنابر بصوت التكبير الموحد واستنفر الأمريكان في داخل المعسكر وخارجه، قامت إدارة المعتقل بتشغيل الميكروفونات الضخمة بالأغاني الوطنية لتحميس جنودهم والتغطية على صوت التكبير الذي يفزع جنودهم.

تم استدعاء قوات إضافية، أحاطت القوات الخاصة والمدرعات بالمعسكر وهي

توجه الأسلحة الرشاشة نحو المعتقلين، تَشَجَّعَ الجنود مع مجيء القوات الخاصة والإضافية، أحست الإدارة أن هذه الشرارة هي بداية التمرد والعصيان فشعروا بالخوف والخطر، خاصة أن معسكر (أشعة إكس) ليس مؤمناً بما فيه الكفاية، فكانت كل مقاومة تقابل بالضرب المبرح، اشتدت المواجهات بين الجنود المدججين بالأسلحة والمعتقلين العزل، فكانوا يقتحمون الزنازين حين يبدأ المعتقلون بالصلاة، فيضربونهم وهم يصلون ويبطحونهم على وجوههم، كان جلياً أنهم يستخدمون الشعائر الدينية كورقة ضغط، ضربوا بعض المعتقلين حتى أغمي عليهم، كسروا فك معتقل سعودي وتركوه ينزف لساعات، كانوا يقيدون يدي المعتقل برجله من الخلف، ويتركونه منبطحاً على وجهه في الزنزانة لساعات بعد أن يصادروا جميع أغراضه ويتركونه على الأرضية الإسمنتية في شدة البرد، هنا لم يجد المعتقلون بداً من استخدام الورقة الأخيرة، أعلنوا إضرابهم عن الطعام احتجاجاً على المعاملة المهينة وإهانة القرآن وعدم السماح لهم بالصلاة، أضرب الغالبية عن الطعام وزاد البعض بإضرابه عن الماء كذلك، حتى وصل البعض إلى سبعة عشر يوماً بدون طعام أو ماء حتى أوشكوا على الموت.

كان هذا أول إضراب في غوانتانامو، وكان شديداً على المعتقلين والإدارة الأمريكية في آن واحد، أما المعتقلون فلم يكن عندهم الخبرة بإدارة الإضراب والتدرج فيه لتقليل الأضرار الصحية قدر المستطاع، وكذلك لتسهيل عملية الاستمرار فيه أطول فترة ممكنة، بينما تفاجأ الأمريكان به لعدم وجود خطة مسبقة للتعامل مع هذا النوع من التمرد والعصيان حين يتجرأ المعتقل ويتوقف عن الطعام ليرتكب جريمة المطالبة بالمعاملة الإنسانية والمحاكمة العادلة، إنه إضراب حقيقي لا مجال للتلاعب فيه، الطعام يأخذه الجندي من قفص المعتقل كما وضعه، المعتقلون يتساقطون، يتم فحصهم ويتأكد الطبيب من تدهور حياة المعتقل، كيف تتصرف الإدارة؟ هل تتركهم يموتون؟ هل يتركون ورقة المعتقلين تفلت من أيديهم؟ كانوا يريدون استغلال هذه الورقة لأغراض كثيرة ومهمة:

١ ـ جمع المعلومات.

٢ ـ محاولة تجنيد بعضهم في مهمات داخل المعتقل وخارجه.

٣ ـ ابتزاز دولهم سياسياً.

٤ ـ دعاية إعلامية لإرهاب (الإرهابيين) في الخارج.

لكنها قضية خطيرة من الممكن أن تتحول من ورقة في أيديهم إلى جمرة تحرقها،

فقد تخرج عن سيطرتهم لتصبح أكبر آلة تجنيد ضد الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا ما حدث باعتراف الجنرالات الأمريكان الذين صرحوا في مناسبات عديدة أن غوانتانامو باتت تشكل ٣٠٪ من آلة التجنيد ضدهم.

لم تجد الإدارة خياراً سوى التهدئة مع المعتقلين الثائرين حتى تجد حلاً لهذه المشكلة وتضع خطة محكمة تتعامل فيها مع أقوى سلاح يمتلكه أي أسير في العالم بعد إيمانه وصبره وهو الإضراب عن الطعام.

وزعت إدارة المعتقل على المعتقلين فتوى لأحد الدعاة المسلمين في إحدى المراكز الإسلامية في الولايات المتحدة يصرح بحرمة إضراب معتقلي غوانتانامو وأنه إلقاء بالنفس إلى التهلكة، والمثير أن الفتوى صادرة خصيصاً لمعتقلي غوانتانامو، سخر المعتقلون من إقحام هؤلاء الذين ليس لهم أي قيمة شرعية عندهم، كيف لا وهم لا يسمعون لهم همساً عن التعذيب الواقع عليهم، وبمجرد أن طلبت منهم الحكومة الأمريكية المساعدة هبوا لنجدتها بتصدير الفتاوى المعلبة حسب الطلب، إنها الفتاوى العوراء التي تندد باضطراب الذبيحة وهي تفحص برجليها تحت قدم الجزار وتصمت عن السكين في يده، وهكذا تستغل الولايات المتحدة بعض رجال الدين كما يفعل الكثيرون لتمرير أجندتهم ولضرب الدين بالدين، لكن اختيارهم هذه الشخصيات كان مثار سخرية من المعتقلين مما جعل الأمريكان يصححون خطأهم كما هي عادتهم دائماً واستبدلوا هذه الشخصيات التي لا تلقى قبولاً عند المعتقلين بآخرين كما سيأتي لاحقاً.

وبعدها جاء الجنرال وجثا على ركبتيه أمام أحد المعتقلين المتحدثين باللغة الإنجليزية، ووعدهم بعدم تكرار إهانة المصحف والصلاة، توقف معظم المعتقلين عن الإضراب، بينما استمر قلة مطالبين بمحاكمة عادلة أو إطلاق سراحهم، تناقص عدد المضربين جعل الإدارة تلتقط أنفاسها وتفكر بجدية في طريقة ناجعة للتعامل مستقبلاً مع مثل هذه الظروف، لم يجث الجنرال على ركبتيه إلا لكسب الوقت وللتخلص من مهمة إدارة معتقل غوانتانامو سيئ الصيت، والذي لا يناسب شخصيته، فاستعد لتسليم العهدة لجنرال آخر ارتبط اسمه بغوانتانامو وأبو غريب، إنه السفاح ميلر.

ومع موجة التمرد اتفق غالبية المعتقلين على التوقف عن الكلام مع المحققين مهما كان التعذيب كوسيلة احتجاجية على ظروف الاعتقال التعسفي وعدم توفير محاكمات عادلة للنظر في قضايا غوانتانامو، اكتشف المعتقلون لاحقاً أن هناك ضوابط للتحقيق في غوانتانامو تختلف عن معسكرات الاعتقال السابقة في قندهار وبغرام، أوقفت الإدارة الأمريكية التعذيب بالضرب خلال التحقيقات لتمهيد الأرضية المناسبة لانتقاء بعض المعتقلين الذين يمكن محاكمتهم عسكرياً ومدنياً، فلابد من جعل التحقيق في غوانتانامو

يخضع لآلية حذرة تنتزع المعلومات دون أن تظهر أي أدلة على وجود التعذيب الذي قد يفقد الاعترافات قيمتها.

ساعدوني:

أثناء المواجهات اقتحمت قوات الشغب زنزانة أحد المعتقلين ثم عوقب بمصادرة الحصير والملاءة (الشرشف) وكل ما في القفص، ولم يكن عليه سوى السروال القصير (الشورت) في البرد الشديد، فبدأ يئن ويطلب من المعتقلين مساعدته، يندر في غوانتانامو أن تسمع معتقلاً يطلب من غيره مساعدته، والذي رأيته من الغالبية الساحقة هو الصبر إن وقع عليه البلاء، والنصرة إن وقع على غيره، كان يناديهم في منتصف الليل: يا إخوة ساعدوني، كان يكبر وهو يئن من شدة البرد، هب المعتقلون من نومهم على صوت تكبيره وهو يستنجدهم، انتفض الجميع لنصرته، واشتد العصيان، وارتفعت وتيرة التوتر، وعوقب الكثير ممن هب لنجدته، ضج المعسكر بالتكبير والضرب على الأبواب، استخدم الأمريكان تكتيكاً خبيثاً، أرجعوا إلى المعتقل الذي استنجد بالمعتقلين الحصير والبطانية ثم عاقبوا بعض من نصره، الغريب أن المعتقل لم يكترث بإخوانه الذين نصروه وراح يغط في نوم عميق بينما قضوا ليلتهم يرتجفون من البرد، عذروه ولم يلوموه على صنيعه، لكن الأيام أثبتت لجميع معتقلي غوانتانامو أن هذا المعتقل الذي كان يطلب نجدتهم قد خانهم عند المحققين، حيث إنه اتهم أكثر من مئتي معتقل بتهم أكثرها باطلة مقابل وجبة طعام، لقد أحسنوا إليه وضحوا من أجله لكنه غدر بهم، كانوا يتلطفون معه لقرب عهده بالالتزام، لكن ماضيه الغارق في المخدرات كان أقوى من حاضره الذي عاشه بين هؤلاء المؤمنين بجسده لا بقلبه، ومن يهن الله فما له من مكرم، وستأتينا قصته لاحقاً بإذن الله.

المجنون:

كان هناك معتقل أفغاني مجنون، باعته قوات التحالف الشمالي الأفغاني للجيش الأمريكي بمبلغ مالي على أنه من قيادات الطلبة يتظاهر بالجنون، تعامل معه المحققون الأمريكان على هذا الأساس حتى أخضعوه بعد ذلك لجهاز الفحص فاكتشفوا الصدمة وعلموا أن حلفاءهم قد استغفلوهم فباعوهم مجرد مجنون، ثم أرجعوه بعد عدة أشهر إلى أفغانستان مرة أخرى في سرية تامة كي لا يفضحوا أمام الإعلام، وفي خضم المواجهات قام هذا المجنون يصيح بأعلى صوته بالكلمة الإنجليزية الوحيدة التي حفظها: (Number One)، وهي كلمة يرمز بها الأمريكان للبول، وبينما هو يصيح بها إذ توجه نحو السطل الممتلئ بالفضلات البشرية ليحمله فيرمي به الجنود فتلطخت وجوههم

وثيابهم، أخذوا يصيحون تقززاً، تقيأ بعضهم وهرب أكثرهم من المكان، وحين رأى المعتقلون هذا التأثير الهائل على الجنود استحسن بعضهم الفكرة التي استفادها من ذاك المجنون، فأخذ بعض المعتقلين السطل ورشوا به الجنود الذين أُسْقِطَ في أيديهم ولم يعلموا ماذا يصنعون.

نحن في عمان:

فتح حارس أفغاني نافذة الزنزانة حين كنا في سجن الاستخبارات في مدينة كابل، ثم قال شامتاً: الأمريكان يبنون سجناً خاصاً لكم في كوبا، سيقطعون بكم القارات والمحيطات ليودعوكم فيه، ستبقون فيه إلى الأبد!

ثم أغلق النافذة بعنف، سخرت من كلامه الذي وجدته يخالف العقل، قلت للإخوة حولي: إنه يهذي، وحين انتقلنا إلى سجن قندهار أخبر الصليب الأحمر بعض المعتقلين أن الأمريكان سينقلوننا إلى جزيرة في كوبا، قلت: أنا لا أصدقهم، إن أهم ما يحرص عليه الأمريكان هو احتجازنا في مكان آمن بعيد عن إمكانية الهروب منه أو اقتحامه، فكيف يكون السجن في كوبا الشيوعية التي يحكمها فيدل كاسترو العدو اللدود للولايات المتحدة؟

لم أعلم وقتها أن الولايات المتحدة احتلت جزيرة كوبية اسمها (غوانتانامو) عام (١٩٠٦)، وعن طريق حكومة عميلة استطاعت صنع غطاء شرعي لهذا الاحتلال وهو عقد إيجار قيمته (٢٠٠٠) دولار فقط تدفعه الولايات المتحدة سنوياً، ثم اتخذها الجيش الأمريكي قاعدة بحرية له بسبب موقعها الاستراتيجي المميز، كان سبب اختيار الحكومة الأمريكية لهذه الجزيرة هو حرمان معتقلي غوانتانامو من حقوقهم الإنسانية والقانونية التي تمنح للمعتقلين على الأراضي الأمريكية، ومن عجائب الزمان أن الحقوق الإنسانية لا يستحقها الإنسان لكونه إنساناً بل للأرض التي يطؤها والجنسية التي يحملها.

همس أحد الجنود لبعض المعتقلين في سجن قندهار أن الجيش الأمريكي سينقلهم إلى سجن في عمان، طار قلبي فرحاً، سنسجن في بلد مسلم قريب من الوطن الحبيب، انشرح صدري لهذه الإشاعة، فحب الشيء يعمي ويصم، وبعد وصولنا غوانتانامو اختلف المعتقلون: أين نحن؟ هل نحن في غوانتانامو فعلاً أم أننا في مكان آخر؟

انحصرت الآراء في عمان وكوبا بعد أن استبعدنا اختيار أحد المعتقلين الذي ظن أننا في إسبانيا! علق عليه أحد المعتقلين ساخراً: يبدو أنك لازلت تعيش مأساة الأندلس!

قلت لمن حولي: نستطيع تحديد مكاننا بمعرفة نقطة التقاء خط الطول بخط العرض، أما خط العرض فنحن قريبون جداً من مدار السرطان قطعاً.

سألني أحدهم: كيف تقطع بهذا؟

قلت: ترقبت بالأمس ظل الشمس حين بدأ يتقلص حتى اختفى ثم بدأ بالزيادة، وكما تعلم أننا في الثلث الأخير من شهر يونيو، هذا يعني أننا قريبون من مدار السرطان الذي تكون فيه الشمس عمودية عند الزوال.

: هل هذا يعني أننا في عمان؟

: لسوء الحظ فإن عمان وغوانتانامو كلاهما يقع على مدار السرطان، يجب أن نجتهد لمعرفة خط الطول.

: وكيف نعرفه ونحن في هذه الأقفاص التي لا نملك فيها إلا الحصير وملاءة السرير؟

: لو علمنا وقت إقلاع الطائرة ووقت وصولها ومدة الرحلة فقد يساعدنا ذلك في تحديد مكاننا، وكما تعرفون أنه قد تم إخراجنا من الخيام في قندهار وتقييدنا آخر العصر، بقينا مقيدين وقد غطوا أعيننا وآذاننا لساعات طويلة، صلينا المغرب والعشاء على حالنا تلك، سمعت أحد الجنود يخبر آخر قبيل نقلنا بالطائرة بأن الساعة قريبة من الثامنة، حلقت بنا الطائرة لساعات طويلة لا يستطيع أحد منا تحديد الفترة الزمنية التي قضيناها في التحليق، لكني أتذكر أنه حين أخرجنا الجنود من الناقلة ووضعونا على الأرض سمعت صوت الإخوة في العنابر يؤذنون لصلاة العصر، وبعدها بأيام أذن المؤذن كعادته حين صار ظل عمود الإنارة مثله فرأيت الساعة في يد أحد الجنود وهي تشير إلى الثالثة والنصف تقريباً، أما فارق التوقيت بين أفغانستان وعمان فقريباً من نصف ساعة، وبين أفغانستان وكوبا فثمان ساعات، أي أننا لو كنا في عمان لاستغرقت الرحلة تسع عشرة ساعة على أقل تقدير، وهذا لا يعقل لقصر المسافة بينهما، وإن كنا في كوبا فهذا يعني أن الرحلة استغرقت سبعاً وعشرين ساعة على أقل تقدير، ولا أظن أن رحلتنا استغرقت كل هذه الفترة الطويلة.

ووافقني على ذلك جميع الإخوة حولي سواء من رأى أننا في عمان أو كوبا، سألني أحد المعتقلين: لماذا تخالف السهم المشير لاتجاه القبلة؟

أجبته: وهل وضعه الإمام مالك لتسلم له؟ الأصل عندي أن الأمريكان كَذَبَة ما لم يثبت لي عكس ذلك، اعتقلونا بالكذب والخيانة، استخدموا وفوداً أمنية مزيفة ومحامون مزيفون للتحقيق معنا فلماذا أصدقهم في القبلة؟ كيف يحترمون قبلتنا ثم يهينون صلاتنا

ويمزقون قرآننا في آن واحد؟ ليس معكم دليل على وجودنا في كوبا سوى ادعاء الأمريكان، أما أنا فسأبذل جهدي لمعرفة الحقيقة، ولأن أخطئ في النتيجة وأصيب في الوسيلة أحب إلي من أن أصيب في النتيجة وأخطئ في الوسيلة، على الأقل أعملت عقلي ولم أهمله وأسلمه للأمريكان، وسواء أصبنا أو أخطأنا فصلاة الجميع صحيحة، إذ لا يملك أحدنا دليلاً قوياً لا تجوز مخالفته، ولقد قرر الكثير من الفقهاء أن المصلين إذا اختلفوا في القبلة وكل منهم له رأيه دون دليل قاطع فليصل كل منهم إلى القبلة التي يراها ولا يقلد أحدهم الآخر.

همس لي معتقل بجواري: سأخبرك بأمر لا يعرفه أحد، لقد اعترفت على نفسي بأشياء دون أن أضر أحداً فكافأني المحققون بالسماح لي بالاتصال على أهلي في اليمن، فهل تطلب مني شيئاً؟

أجبته متلهفاً: أرجوك اسألهم سؤالاً واحداً، كم هي الساعة عندهم.

وبعد عودته قبيل الظهر همس إلي: كان الوقت عندهم ما بين المغرب والعشاء.

هنا تيقنت بأننا لسنا في عمان، وبعد استئذانه رفعت صوتي بهذا الخبر كي نتوجه جميعاً في صلاتنا إلى المشرق، سألني أحد المعتقلين: ماذا عن صلاتنا في الاتجاه المعاكس؟

أجبته: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ أي صلاتكم السابقة تجاه بيت المقدس، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فلن يكلفنا ما لا طاقة لنا به بعد أن بذلنا السبب واجتهدنا لتحديد القبلة.

كان خطئي في تحديد القبلة علي يسير، أما الثقيل الذي لا زلت نادماً عليه فهو أن العنابر انقسمت قسمين، قسم يصلي إلى المشرق على اعتبار وجودنا في كوبا، وقسم إلى المغرب على اعتبار وجودنا في عمان، صليت مرة وأخي الذي بجواري يصلي مواجهاً لي، اشمأزت نفسي من هذا المنظر، كنت أذكر لإخواني المعتقلين الرأيَ الفقهيَّ السائدَ في عدم التقليد عند الاختلاف في القبلة ولو سبَّب الاختلاف بين المصلّين، لكنني كرهته حين رأيته متجسداً على أرض الواقع، كان الجنود الأمريكان يمرون علينا ونحن مختلفون في القبلة فيبهجهم منظر الاختلاف بيننا، كانوا يعلمون أن قبلة المسلمين واحدة لكنهم يرونهم على خلاف ما تعلموه في الدورات التي يعطونها عند مجيئهم غوانتانامو، كم كان ابن مسعود حكيماً حين تبع اجتهاد عثمان بإتمام الصلاة في (مِنى) وهو يرى خطأه قائلاً: «الخلاف شر»، لقد علمه الإسلام أن وحدة المسلمين يجب أن تكون هي القاعدة الكلية المهيمنة على الاجتهادات الجزئية في العبادات الجماعية، لكنني كنت تحت تأثير التقليد لمن سبق، لقد تبعت رأياً فقهياً غرق

في الحكم الفرعي المتمثل في اختلاف القبلة، فضاعت القاعدة الكلية المتمثلة في الوحدة، أنا نادم ليس لخطئي في القبلة بل لتفريطي في الوحدة.

كان معنا في العنبر أحد الإخوة اليمنيين، يتحفنا بين الفينة والأخرى بصوته الشجي منشداً:

رب بالسبع المثاني ... وبقرآن معظم
أصلح اللّهُمَّ شاني ... واكشف الهم مع الغم
أنت يا ربي أماني ... إن دجى الكرب وأظلم
وإذا الخطب دهاني ... أنت بي يا رب أرحم
قد سباني قد سباني ... وأسال الدمع بالدم
لو يعاني ما أعاني ... منه طود لتهدم

كانت كلماته تنساب إلى مسامعنا كالندى الرقراق، تخرجنا من بؤس السجن وغطرسة السجان لترفرف بنا معانيها نحو العلاء.

ترويض الخيول الجامحة:

اختارتها الإدارة الأمريكية بعناية لتكون معتقلاً لمن أطلقت عليهم (أعداء مقاتلون)، تقع جنوب شرق كوبا، وتبعد تسعين ميلاً فقط عن فلوريدا التي يتمتع فيها البشر بحقوقهم الإنسانية، لم يتوقع أحد أن هذه الجزيرة النائية المطلة على المحيط الأطلسي ستكون أشهر جزيرة في التاريخ المعاصر، لقد صرح وزير الدفاع الأمريكي (دونالد رامسفيلد) في سنة (٢٠٠٤) أن عدد الزوار من السياسيين والإعلاميين والعسكريين الذين زاروا معتقل غوانتانامو كانوا أكثر من عدد زوار كل السجون في التاريخ البشري!

كل شيء في هذه التجربة كان غريباً فعلاً، أنى لهذه الجزيرة الخلابة الساحرة أن تضم في أحشائها بشاعة التعذيب الوحشي؟ كم هو فظيع أن يسجن الإنسان في زنزانة انفرادية وهو يعلم أن حوله طبيعة فاتنة حرم من النظر إليها، إنه الإنسان الأحمق الذي يصرف البلايين في أبحاثه عن إمكانية وجود حياة على سطح المريخ بينما يقتل الحياة وينتهك الإنسانية في جزيرة تبعد عنه مئات الكيلومترات!

لقد أصبحت (غوانتانامو) أيقونة لها بعد إنساني وسياسي وفكري، حتى أصبحت مألوفة في خطابات رؤساء العالم والمفكرين والقياديين، وتناقل الناس النكت والطرائف التي استخدمتها كمثال للكوميديا السوداء.

وصفت منظمة العفو الدولية (غوانتانامو) بأنها تمثل همجية هذا العصر، وطالبت المستشارة الألمانية (أنجيلا ميركل) والأمين العام للأمم المتحدة آنذاك (كوفي عنان) بإغلاق المعتقل، كذا فعل الرئيس الأمريكي السابق (جيمي كارتر) و(بيل كلينتون) وعشرات منظمات حقوق الإنسان، بل حتى الرؤساء الدكتاتوريون استغلوا غوانتانامو لإحراج الولايات المتحدة التي تطالبهم في وقاحة بالتزام اتفاقية (جنيف) ومعاهدات حقوق الإنسان، لكن كل هذا الشجب والاستنكار لم يكن سوى استعراض إعلامي أو تصفية حسابات سياسية.

استبدلت الحكومة الأمريكية مصطلح (التعذيب) بمصطلح آخر ألطف أطلقت عليه: (أسلوب الاستجواب المعزز) (Enhanced Interrogation Techniques)، وهو اسم برنامج التعذيب الممنهج للمعتقلين لدى وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) ووكالة استخبارات الجيش (DIA) الذي استخدمته في المواقع السوداء وغوانتانامو وبغرام وأبو غريب، ثم قامت وكالة الاستخبارات المركزية في عام (٢٠٠٥) بإتلاف أشرطة الفيديو التي توثق استجواب المعتقلين تحت التعذيب، وبررت أن المشاهد فظيعة جداً ومدمرة لسمعة وكالة الاستخبارات.

لم يكن التعذيب وانتهاك حقوق المعتقلين سلوكاً فردياً بل منظومة متكاملة يطلق عليها (SERE)، وهو اختصار لعبارة: (Survival/ Evasion/ Resistance /Escape)

أي: (البقاء والتجنب والمقاومة والهرب)، يستخدم فيه المحققون والجنود على المعتقلين أسلوب: (محاكاة الإغراق في الماء) والحرمان من النوم والعزلة الطويلة والتعرض لدرجات حرارة عالية جداً ومنخفضة جداً والاحتجاز في زنازين ضيقة والإزعاج الشديد باستخدام الأصوات العالية والإذلال الديني والجنسي والتعرية أمام الجنود والضرب المبرح على الكتف والمعدة كي لا تظهر الآثار وتغطية الرأس وجر المعتقل بعنف والتعليق بالجدار وإجبار المعتقل على وضعية اسمها (Gods Worship): حيث تقيد يداه من الأمام وتلصق بسلسلة في بطنه جاثياً على ركبتيه مطأطئ الرأس، واستخدام قفص صغير جداً يسمى: (صندوق الكلب)، وقد رأيت في إحدى المرات حين قادني الجنود إلى معسكر (إيكو) للقاء المحامي، فمررت على زنزانة مفتوحة وقد تدلى من فتحة السقف قفص صغير معلق بسلسلة طويلة، لم أتعرض لهذا النوع من التعذيب شخصياً، لكن يبدو أنه كان مجهزاً لمعتقل ما.

أرادت الحكومة الأمريكية حرماننا من حقوقنا الإنسانية في بند الأسرى من اتفاقية جنيف، فاستحدثت لنا تصنيفاً جديداً لا يُعْرَف مِنْ قبل وهو (عدو مقاتل) (Enemy Combatant)،

استطاعت بذلك أن تطبق خطتها بسهولة في تعذيب المعتقلين دون أي تبعات قانونية، لا يستطيع القانون وحده توفير العدالة ما لم يكن الإنسان نفسه يؤمن بها، بإمكان الماكر أن يستغل القانون لترسيخ الظلم، ليصبح القانون مجرد أداة في يد الظالم، وهكذا فعلوا في غوانتانامو حيث وضعوا خطتهم الإجرامية لتحطيم المعتقلين في قانون خاص أسموه: (SOP) وهو اختصار لجملة:

(Standard Operating Procedures) وتعني: إجراءات التشغيل الموحدة.

بقيت غوانتانامو في طي الكتمان، بعيدة عن الكاميرات، يكتنفها الغموض الذي كان يزيدها رهبة، إلى أن رفعت مؤسسة (Associated press) قضية على الحكومة الأمريكية للإفصاح عن المعلومات تحت بند (Free Information Act)، وكسبت القضية فتم نشر المعلومات الخطيرة عن مدى الانتهاكات التي ارتكبت في هذا المعتقل الرهيب.

لم تكن غوانتانامو سجناً عادياً يقضي فيه السجين فترة حكمه، بل كانت معتقلاً استثنائياً تمارس فيه تقنية فائقة الدقة والتعقيد لتحطيم المعتقلين من الداخل، وضعها علماء نفس متخصصون وجنرالات عسكريون وخبراء أمنيون ومستشارون دينيون لتحقيق أهدافهم.

وزعوا علينا في الأسبوع الأول من وصولنا غوانتانامو ورقة فيها بعض قوانين المعسكر التي يجب الالتزام بها ومن خالفها تعرض للعقوبة، أثار انتباهي العنوان المكتوب في بداية الورقة، كان العنوان: (Rodio range) أي (ميدان ترويض الخيول الجامحة)!

فعرفت من البداية ماذا يريدون منا تحديداً، لقد أدرك الأمريكان أن الإيمان هو الصخرة التي تقف في وجوههم وتمنعهم من تحقيق أهدافهم تلك، وأنه لابد من تحطيم هذه الصخرة بشتى الطرق، فاعتمدوا على عدة عوامل منها استغلال العنصر النسائي بشكل مكثف عن طريق الجنديات والمحققات، والتقييد في غرف التحقيق في الوضعية الجنينية لأكثر من أربع وعشرين ساعة وقد تصل أحياناً إلى ست وثلاثين ساعة، يمنع فيها المعتقل من قضاء الحاجة في غرفة باردة جداً، تسلط عليه كشافات قوية، وتبث الشبهات العقدية مثل: (لو كان الله رحيماً بك كيف يتركك تعاني وتعذب بيد أعدائه؟)، والتركيز على مسألة القضاء والقدر للتسلل إلى إيمان المعتقلين، ومنها استخدام نظام عقوبات قاسٍ لتعويد المعتقل على الخضوع التام لأوامر الأمريكان، هناك معتقلون عوقبوا بسبب إطعام الطيور أو الاحتفاظ بالفاكهة ولو كان عود التفاحة أو قشر الموز

لشهر في عنبر العقوبات، وآخرون بسبب الدروس وبسبب مناقشة الجنود عن الإسلام والنصرانية والإلحاد، كان المعتقل يعاقب لأتفه الأسباب بأقسى العقوبات.

كشف التقرير الصادر عن لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ أن برنامج التعذيب الذي استخدمته وكالة الاستخبارات المركزية والجيش الأمريكي المطبق في المواقع السوداء وغوانتانامو قد صممه وأشرف على تطبيقه الطبيبان النفسيان (جيمس ميتشيل) و(بروس جيسين) مقابل حصولهما على جائزة تبلغ ملايين الدولارات، فاستغلا معرفتهما بكيفية عمل العقل البشري والتحكم بالتفكير ليكسرا نفسية المعتقلين ويدمّرا عقولهم لاستخراج المعلومات وأغراض التجنيد، وذكرت صحيفة نيويورك تايمز أن التقرير أظهر تواطؤ أعمدة الطب النفسي في أمريكا مع الـ (CIA) لانتهاك أصول المهنة والمشاركة في الإشراف على عمليات التعذيب في غوانتانامو، وأن رئيس رابطة الأطباء النفسيين الأمريكيين وبعض زملائه استخدموا قوانين ولوائح الجمعية لخدمة الـ (CIA)، وكان لديهم تواصل منتظم مع الـ (CIA) والتعاون على التعذيب، بل زعم هذا الرئيس أن الحرمان من النوم لا يعد تعذيباً، وأنه في المقابل حصل على حصة في شركة استشارية أسسها اثنان من المشرفين على برامج التعذيب في الوكالة، ثم تم استنساخ البرنامج في سجن أبو غريب في العراق.

جاءني المحامي بعد عدة سنوات من اعتقالنا بأخبار متعلقة بقضيتنا، فيها تصريح العالم النفسي الذي وضع برنامج غوانتانامو، قال كلمة هزتني من الأعماق:

(لقد تحطمت كل الدراسات النفسية التي تعلمناها على صخرة غوانتانامو، لقد فشلنا في تحقيق أهدافنا من هذا المعتقل)!

أعلم يقيناً أن الأمر لا يتعلق بقوتنا وقدرتنا على التحمل، بل هو فضل من الله وحده، والذي لولاه ما استطعنا أن نصبر ليلة واحدة في هذا المعتقل الرهيب، لم تعلن الولايات المتحدة الحرب على أشخاص المعتقلين بل على إيمانهم، لذلك تدخل الرب سبحانه في هذا الصراع غير المتكافئ الذي لم نكن فيه إلا كطفل صغير يصارع غلاماً يافعاً فيأخذ أبوه بيده ويضرب بها الغلام، فيغرق الطفل في ضحكه الساذج متوهماً أنه غلبه بقوته لا بأبيه.

وبعد مضي أسبوعين على وصولنا غوانتانامو سألني أحد الإخوة في الزنزانة المجاورة: ماذا سيصنع الأمريكان بنا؟

قلت: أمامهم طريقان لا ثالث لهما، إما أن يعطونا كل حقوقنا الإنسانية

والقانونية، وحينها سنخسر القضية وستظل حقيقتهم مختبئة خلف الشعارات الكاذبة، وإما أن تكون أمامنا أيامٌ صعبة نتألم فيها كثيراً، حينها سنكسب القضية وسيظهرون أمام العالم على حقيقتهم، وأظنها الثانية. لابد أن نصبر، والمنتصر هو من يصبر حتى النهاية.

كان تركيز الإدارة الأمريكية في سجون الظلام وبغرام وقندهار على التعذيب البدني، أما في غوانتانامو فالتركيز على كسر الإرادة والكرامة والثقة بالنفس، ولا يتم استخدام الإخضاع البدني إلا عند رفض الانصياع التام للأوامر والقوانين التي كانت تستهدف نفسية المعتقل لتحطيم إنسانه في داخله.

: إذا أردت أن تكلمني فقل لي سيدي!

هكذا طلب منا الجنود في بداية قدومنا غوانتانامو، وسرعان ما تنازلوا عن هذا الطلب حين رفض المعتقلون ذلك وبدأت المشاكل تزداد فخشوا من موجة إضرابات جديدة في غوانتانامو التي لا يمر فيها أسبوع إلا وتشتعل المواجهات مع الجنود الأمريكان.

استطاع الأمريكان عن طريق العقوبات الجماعية توظيف بعض المعتقلين ضد الآخرين الذين لا يلتزمون بالقوانين الجائرة، جعلوا للمعسكر الرابع وضعاً مميزاً عن بقية المعسكرات وقاموا بنقل المعتقلين الأقل تمرداً إليه وإعطائهم امتيازات خاصة كالسماح لهم بالحياة الجماعية، مما كان له الأثر ولو قليلاً في كسر التضامن بين المعتقلين، لكن هذا الكسر سرعان ما ينجبر حين يدخل المعتقلون في بلاء عام يصهرهم في بوتقة واحدة ليصاغوا من جديد قالباً متماسكاً، فلا يوجد ما يُوَحِّد كالمحنة حين تَعُمّ.

اضطرار المعتقلين للاعتماد على الجنود في كل شيء جعل الجنود في موقع قوة وتحكم بالمعتقلين، مما جعل الجنود يشعرون بنشوة التسلط عليهم فبالغوا باستفزاز المعتقلين ليجبروهم على الرضوخ لهيمنتهم والاستسلام لتسلطهم تفادياً لهذا الاستفزاز.

المعتاد في معظم السجون أن عدوانية الحراس تؤدي إلى رضوخ السجناء لهم بشكل كامل لاعتمادهم على الجنود في طعامهم وشرابهم وملابسهم ودوائهم وكل ما يتعلق بهم، فلم يكن أمامهم إلا الانصياع التام لأوامرهم ومحاولة كسب رضاهم لدفع الضرر أو جلب النفع ولو عن طريق الوشاية بالمعتقلين الآخرين، لكن الذي حدث في

غوانتانامو مختلف، كان هناك مقاومة لهذه المعاملة وتمرد عليها إلا القليل ممن جثا على ركبتيه سراً أو جهراً.

الطعام:

عادة ما يكون قليل الكمية، سيئ النوعية، غير مطبوخ جيداً أو منتهي الصلاحية أحياناً، يتعمد الجنود وضع قطعة الخبز على المرق، أو الرز على السلطة، أو البرتقالة في الصلصة، وقد يتخطاك الجندي زاعماً أنه أعطاك وجبتك لتبقى دون طعام، اللحمُ نَتِنٌ مليء بالعصب، لدرجة أننا كنا نسميها وجبة العصب وليس اللحم، أما السمك فكنا نغلق أنوفنا لنأكله، الدجاج أرحم حالاً، كنا نزيل الدم المتجمد في قطعة الدجاج ونأكل البقية، كثيراً ما رأى المعتقلون أحد الجنود وهو يبصق في طعام المعتقلين، وفي إحدى الأيام شممنا من الطعام رائحة الغائط.

فرشاة الأسنان:

لم يوفروا لنا فرشاة أسنان إلا بعد سنة تقريباً من الاعتقال، وكانت الفرشاة مجرد قطعة بلاستيكية صغيرة طولها نصف أصبع، تدخل سبابتك في تجويف الفرشاة البلاستيكية ثم تستخدمها بصعوبة بالغة، وبعد انتشار التسوس أعطونا فرشاة أسنان عادية كامتياز للدرجات الأولى، وتنزع من المعتقل عند أي مشكلة.

الماء:

ظللنا أربع سنوات نشرب من ماء الصنبور الملوث أصفر اللون، كنا نضع الفانيلة على فتحة الصنبور لنصفي به الماء قدر استطاعتنا فيتحول لون الفانيلة إلى اللون البني الداكن من شدة التلوث، كان كريه الطعم والرائحة، رائحته أشبه ما يكون بمياه المجاري، حدث عدة مرات أن ازدادت الرائحة النتنة للماء بشكل فظيع حتى أنتن العنبر برائحة المجاري وتكدر اللون حتى صار كلون الكركم، استمر ساعات على هذه الحال ثم عاد إلى طبيعته فَأَخْبَرَنا بعضُ الجنود أن هذا الماء يعاد معالجته والآن يجرون عليه عمليات صيانة، تفاجأت مرة حين ذهبت إلى التحقيق فرأيت ورقة تحذيرية للجنود معلقة فوق صنبور الماء في عنبر التحقيقات مكتوب فيها «ماء غير صالح للشرب» طلبت من الجندي أن أشرب قليلاً من الماء فأوقفني مقيداً أمام نفس الصنبور، فقلت: هذا غير صالح للشرب، فأجاب: هو نفس الماء الذي تشرب منه في الزنزانة، لكن بعد الإضراب الكبير سنة ٢٠٠٦ سمحوا لنا بقارورة ماء واحدة فقط من الماء النقي مع كل وجبة.

ومع مشاكل الجنود وإهانات القرآن أزال بعض المعتقلين اللاصق الذي كان فيه علم أمريكا من على قوارير الماء ثم رماه في المرحاض أمام الجنود انتقاماً لإهانتهم القرآن، أمر الجنرال جنوده أن يزيلوا اللاصق من كل القوارير قبل توزيعها على المعتقلين، مما يستهلك منهم جهداً ووقتاً كبيرين يومياً، استمرت إهانات القرآن بعدها فبصق أحد المعتقلين على صدر الجندي الذي داس على القرآن، فسأله: لماذا بصقت على صدري؟

أجابه: أنا لم أبصق عليك، بل بصقت على العلم الذي تعلقه على صدرك!

أخذوه إلى عنبر أوسكار الانفرادي المخصص للعقوبات ليقضي فيه شهراً كاملاً ينام فيه على الحديد في زنزانة شديدة البرودة.

العناية الصحية:

غالباً ما يتم صرف مسكنات للمعتقل المريض بدلاً من الدواء، تعطى له في أوقات تكون معدته فارغة فتسبب له أمراضاً جديدة في الجهاز الهضمي كقرحة في المعدة، لأن أوقات الطعام محددة ولا يسمح للمعتقل بالاحتفاظ بالطعام، وقد يتعمد الممرض تجاوز المريض مدعياً أنه أعطاه الدواء، أو أن اسمه غير مسجل ضمن قائمة من يصرف لهم الدواء، والتأثير النفسي لهذا الاستفزاز أشد من تأثير المرض نفسه، إن الشعور بالقهر النفسي أشد من الشعور بالألم البدني، لا يدرك ذلك إلا من جرب.

لا يستجيب الطاقم الطبي لمعاناة المرضى وخاصة آلام الأسنان إلا بعد فترة طويلة قد تستغرق أشهراً، تكررت حوادث خلع السن السليم بدل السقيم حتى أيقنا بتعمد الأطباء لذلك، تم خلع أربعة أسنان سليمة لمعتقل يشكو آلاماً شديدة في أحد أسنانه، والعجيب أنه رغم ذلك مستمر في طلب عيادة الأسنان وهو يقول: متأكد أنهم يفعلون ذلك بي عمداً لكني سأستمر في الذهاب إليهم حتى لو خلعوا كل أسناني بسبب الألم الفظيع الذي أعانيه، لأنهم حينها سيأتون على السن المريض أخيراً!

كان هناك معتقلون يعانون ضعف النظر بسبب البقاء سنين في العنابر التي ترهق العين بالنظر من بين القضبان طوال الوقت، فأعطوهم نظارة لا تستطيع أن ترى أكثر من مترين.

كلما طلب معتقل دواء لمرضه قالوا له الجملة المعتادة التي أصبحت محل سخرية المعتقلين: (drink water).

الملابس:

أُلْزِمَ جميع المعتقلين بارتداء الملابس البرتقالية في السنين الأولى، ثم أصبحت خاصة للمعاقبين، أما الملابس البيضاء فهي للمعتقلين في المعسكر الرابع الجماعي، أما البنية والرصاصية فللبقية.

تقوم الإدارة بغسل ملابس المعتقلين بمواد معقمة شديدة التأثير على الجلد مما يسبب الحساسية، فكنا نغسلها فنرى رغوة كثيرة علت الماء، وحين منعونا من غسلها كنا نغسلها خفية.

إن حصل المعتقل على المقاس المناسب فهو محظوظ، يتغاضى المعتقلون عادة عن مقاس الفانيلة، لكن المهم هو مقاس السروال، كثيراً ما اضطررت لإمساك السروال الواسع حتى لا يسقط من حقوي، وتستمر معاناتي إلى الأسبوع الذي بعده لعلي أحظى بمقاس أفضل، وقد أحصل على سروال ضيق جداً يسبب لي حالة من الضيق النفسي المستمر لمدة أسبوع، وهي الفترة التي يتم فيها استبدال الملابس.

المشي والاستحمام:

يتم تقييد المعتقل استعداداً لأخذه إلى قفص المشي، مساحة القفص أربعة في خمسة أمتار تقريباً، يتعرض فيه للشمس، لكن تمت تغطيته بغطاء أخضر سنة ٢٠٠٥ ليحرموا المعتقلين من أشعة الشمس، مما أدى إلى إصابتهم بأمراض كثيرة بسبب نقص فيتامين (د).

كانت مدة المشي في بداية الاعتقال عشرين دقيقة ثلاث مرات في الأسبوع، والاغتسال دقيقتان فقط، وبعد أشهر أصبح المشي عشرين دقيقة يومياً والاغتسال خمس دقائق، وبعد سنين أصبح المشي ساعة يومياً ثم في سنة ٢٠١٠ تقريباً أصبح ساعتين، هناك استفزازات كثيرة في المشي والاغتسال، نوع الصابون والشامبو الذي يستخدمه المعتقلون من نوع (الحماية القصوى)، ويسبب الحساسية والجفاف، كثيراً ما يدعي الجندي انتهاء الوقت قبل أوانه، وأحياناً يحرم المعتقل من الاغتسال زاعماً أنه رفض، وأحياناً يغلق الماء بعد دقيقة واحدة والصابون على جسد المعتقل والشامبو على رأسه، زاعماً أن الوقت انتهى، فيرجع المعتقل إلى زنزانته والصابون على رأسه وجسده يعصف به شعور الذل والهوان.

الزنزانة:

كل معسكر له طبيعته الخاصة، فعنابر العقوبات زنازينها انفرادية مصمتة لا ترى

فيها أحداً، أما عنابر المعسكر الأول والثاني والثالث فانفرادية لكنك تستطيع رؤية الزنازين المجاورة من بين القضبان، وتتحدث بسهولة مع جيرانك، ونافذة في الجهة المقابلة للباب، تستطيع من خلالها رؤية جزء صغير من السماء، لأن الشراع الأخضر يعيق عن الرؤية الكاملة، أما الرابع فهو الأفضل، الحياة فيه جماعية، أما الخامس فالزنازين انفرادية مصمتة لا ترى فيها أحداً، أما السادس فانفرادية مصمتة لكن تستطيع رؤية الآخرين من فتحة النافذة، ثم تحول السادس إلى جماعي سنة ٢٠١٢ تقريباً، أما المعسكر السابع ففيه المعتقلون المتهمون بأحداث سبتمبر مثل خالد الشيخ محمد، زنازين انفرادية معزولة عن بقية المعسكرات، حراس هذا المعسكر لا يأتون للمعسكرات الأخرى حتى لا تنتقل الأخبار بين المعسكر السابع وبقية المعسكرات، تحتوي الزنزانة على سرير من صفيحة معدنية أو خرسانية على حسب المعسكر، مرتفعة عن الأرض بنصف متر تقريباً، ومرحاض ومغسلة وصنبور ماء.

كانت عملية انتقال المعتقل من زنزانة إلى أخرى لعدة أسباب، منها وجود عطل في زنزانته، كالصنبور أو المرحاض أو كاميرا المراقبة أو أجهزة التنصت وأحياناً لأسباب التحقيق، بأن يبعدوه عن شخص أو يقربوه من آخر ليتحدثا معاً فترصد أجهزة التنصت معلومات مهمة مثلاً، أو أحياناً بسبب العقوبات.

الحلاقة:

بعد عدة أشهر من وصولنا غوانتانامو وفروا لنا أمواس حلاقة، يعطونها المعتقل كل أسبوعين خلال وجوده في المغتسل، وأحياناً كل شهر، وتكون فترة الحلاقة ضمن الخمس دقائق المخصصة للاغتسال، ثم منع المعتقلون من الحلاقة لأكثر من سنة لم يتمكنوا من حلاقة الأماكن الحساسة، أما حلاقة الشعر فكانوا يضعون المعتقل مقيداً على كرسي في قفص المشي، ثم يأتي الجنود بماكينة حلاقة ويحلقونه، لكنهم كانوا يتعمدون تشويهه وجرحه مما جعل المعتقلين يرفضون الحلاقة بهذه الطريقة المهينة، وبعد أن طالت شعور المعتقلين بشكل ملحوظ خشيت الإدارة من استغلالها إعلامياً، فوفرت سنة ٢٠٠٩ ماكينة حلاقة واحدة لكل عنبر، أصيب معتقل من المملكة بمرض الكبد الوبائي فطلب من إدارة المعتقل توفير ماكينة حلاقة خاصة به حتى لا يعدي إخوانه فرفضت الإدارة وأخبروه بأنه بإمكانه استخدام الماكينة المتوفرة للعنبر، فآثر إخوانه على نفسه وامتنع عن استخدام الماكينة لفترة طويلة وصلت إلى قرابة السنة ليحمي إخوانه من عدوى المرض.

قضينا تسعَ سنوات تقريباً ونحنُ نُمَشِّط بأصابعنا، ولم يأتونا بالمشط إلا سنة ٢٠١٠ تقريباً، عدا المعسكر الرابع الذي كان يتمتع بامتيازات لا يمتلكها غيره.

كانوا يوفرون قصاصة الأظافر كل عدة أشهر ثم حرمونا منها لسنين كعقوبة جماعية، فاضطررنا لقص أظافرنا بأسناننا بعد أن طالت بشكل ملفت، ثم أعادوها مرة أخرى.

التقييد:

كان التقييد في معتقل (بغرام) في أفغانستان عنيفاً، يتم التضييق على القدمين واليدين من الخلف حتى يصطك الحديد بالعظم مما يسبب آلاماً شديدةً، خاصة في القدمين عند المشي إلى غرفة التحقيق، أما في معتقل (قندهار) فكان الجنود يجتمعون بأسلحتهم الرشاشة عند باب الخيمة وفي مؤخرتها، ثم يأمرون جميع المعتقلين المتواجدين في الخيمة بالاجتماع في مؤخرة الخيمة، جثاة على الركب دون أن تمس مؤخرتهم أعقاب أقدامهم، يشبكون أيديهم فوق رؤوسهم، ويصرخ الجنود بأعلى صوت: اذهبوا إلى الخلف، على ركبكم أيها الأوغاد.

وبعد فترة قد تصل إلى نصف ساعة بهذه الوضعية المتعبة يتم النداء برقم المعتقل، فيقوم ليستلقي على بطنه على التراب قريباً من بوابة الخيمة، مشبكاً يديه على رأسه، ثم يدخل الجنود لتقييده واصطحابه إلى خيمة التحقيق.

وفي بداية وصولنا غوانتانامو كان القانون يجبر المعتقل إذا أرادوا نقله إلى التحقيق أن يجثو على ركبتيه في زنزانته مولياً دبره للباب وهو يشبك يديه على رأسه، ثم يدخل الجنود ويمسكون بيديه ويضغطونها بعنف ويضعون وجهه على الأرض قريباً من المرحاض، لكن هذا القانون تم إلغاؤه بعد توفيق الله ﷻ ثم جهود بعض الإخوة في رفض هذا القانون، أعلن ثلة تمردهم على هذا القانون وقال أحدهم: أنا من اليوم فصاعداً لن أركع على ركبتي لهؤلاء الأوغاد، بدأت المقاومة بينهم وبين الجنود وحدثت اشتباكات عنيفة، نجح مجموعة من المعتقلين الذين يجيدون لعبات قتالية من ضرب الجنود وإخراجهم خارج الزنزانة، أصيب بعض المعتقلين بالكسور بسبب المواجهات العنيفة، لقد عانوا في سبيل الله ما عانوا من مواجهات مع قوات الشغب، لقد ضربوا وأهينوا وتألموا كثيراً، بدأت شرارة التمرد بالانتشار بين البقية فاضطرت إدارة المعتقل لإزالة القانون، وأحدثوا نافذتين صغيرتين في باب كل زنزانة، إحداها علوية لتقييد اليدين والأخرى سفلية للقدمين، وهكذا انتهت الطريقة المهينة التي كانوا يقيدوننا بها، وجزى الله خيراً كل من ضحى وبذل ليرفع عن إخوانه الذل، وكم تعجبت من هؤلاء المصفدين بالأغلال يكفون عنهم يد الظالم، بينما تقف أمة المليار وَجِلَةً عاجزةً عن رفع حذاء الظالم عن رقبتها!

قوات الشغب:

عملية استدعاء قوات الشغب مرهقة جداً للجنود، حيث يُلزمون بارتداء ملابس خاصة ثقيلة تزيد من حرارة أجسامهم كالخوذ والدروع وواقٍ للرقبة والمرافق والركب وقفازات، إضافة إلى حرارة الجو الشديدة، ثم تعريض أنفسهم لاحتمالية الأذى حين يواجه بعض المعتقلين المعروفين بالمواجهات، وحين تدخل قوات الشغب العنبر يبدؤون بخبط الأرض بأحذيتهم العسكرية الثخينة، لتدوي في العنبر أصداء قعقعة أقدامهم العنيفة في إيقاع موحد، وهل هناك معتقل في غوانتانامو لا يعرف معنى هذا الصوت؟

كان الضباط والجنود على حد سواء يثقون بكل وعد يقطعه المعتقل على نفسه، بعد أن رأوا من خلال تجربتهم مع المعتقلين سنين طويلة أن قدسية الوعد عند المعتقلين تنبع من قدسية الأمر الإلهي بالوفاء به مهما كانت الظروف، حدثت مشكلة مع الجنود في إحدى المرات فقرر أحد المعتقلين الاعتصام بالممشى ليُجْبِرَ الجنود على استدعاء الضابط أو الإتيان بقوات الشغب، فلما جاءه الضابط ليفاوضه ويسأله إن كان سيمتنع عن الرجوع إلى زنزانته وعده المعتقل بأنه سيعود دون أن يعتصم، فقال الضابط: (I know that you will not back off on your promise) أعلم أنك لن تخلف وعدك.

العقوبات:

أما ممتلكات المعتقل المعاقب فهي الملابس البرتقالية وحصيرة للصلاة والنوم عليها، وقد تصادر الحصيرة منه ويبقى بالشورت والقميص، وفي بعض السنين استحدثوا قانوناً بإعطاء المعتقل المعاقب البطانية من الساعة الثانية عشرة ليلاً حتى الخامسة صباحاً، وأحياناً يجعلونها ساعتين ليلاً، وقد تصادر النعال كذلك فيظل يمشي على أرضية الزنزانة الحديدية الباردة حافياً، حتى خرجت في أقدام بعضهم الدمامل وأصيب أكثرهم بآلام المفاصل. فالعقوبات مختلفة باختلاف الأسباب.

كانت العقوبات صارمة ومذلة على كل صغيرة وكبيرة، الشعور بالإهانة حين تعاقب على أتفه الأمور أشد علينا من العقوبة نفسها، إنه شعور صعب حين يتحكم فيك شخص حقير جبان، يتعالى عليك في غرور ثم تراه يفتخر بأنه مخنث يُفْعَلُ به!

كلما شكا معتقل من جور العقوبات وقسوتها قال له الضباط والجنود على حد سواء: ((This is (SOP)، وهي اختصار (Standard Operating Procedures)، أي إجراءات التشغيل الموحدة، وهم لا يلتزمون به إلا فيما يحلو لهم، وكثيراً ما يتحايلون عليه، فقد

كان القانون يمنع بقاء المعتقل معاقباً في الانفرادي لأكثر من شهر، فكانوا يخرجون المعتقل من الانفرادي لدقائق ثم يرجعونه مرة أخرى إليه، حتى بقي بعض المعتقلين معاقباً في عنابر العقوبات الانفرادية لأكثر من سنتين.

كنا نؤمر بإخراج أيدينا من النافذة الصغيرة فى باب الزنزانة التى يقدم فيها الطعام لكي نحقن بمصل يزعمون أنه ضد (التيتانوس)، وحين جاء دور مراسل قناة الجزيرة (سامي الحاج) أخبرهم بأنه قبل أن يغادر الدوحة أخذ تطعيماً ضد التيتانوس والحمة الصفراء والكوليرا وغيرها من الأمراض، وأن الطبيب في قطر أخبره أن هذا التطعيم يسري مفعوله لمدة خمس سنوات، لذلك فهو لا يحتاج إلى التطعيم مرة أخرى، فصاح الضابط في وجهه: لا تناقش.. اخرج يدك للتطعيم وإلا ستعاقب، فرفض إخراجها، تركوه حتى انتهوا من تطعيم العنبر كله ثم أعادوا الكرة وطلبوا منه ثانية فأصر على الرفض تجنباً لأضرار أخذها مرة أخرى على صحته، فعاقبوه بسحب كل الأغراض الموجودة داخل الزنزانة من البطانية حتى فرشاة الأسنان الصغيرة، وتركوه ينام على الحديد ثلاثة أيام بلياليهن.

رجعت من التحقيق في إحدى المرات متعباً بعد ليلة مرهقة، فنمت بمجرد وضع رأسي على السرير الذي يعلوه الحصير، غطيت رأسي بالشرشف وأنا نائم دون أن أشعر، فاستيقظت مفزوعاً على صراخ الجندي: أخرج يدك ورأسك من تحت الشرشف، كان ممنوعاً علينا تغطية اليدين والرأس خلال النوم، بدأ النعاس يداعب أجفاني مرة أخرى لكنه سرعان ما انقلب كابوساً حين ركل الجندي باب الزنزانة بعنف وهو يصرخ: لماذا تضع المعجون مكان فرشاة الأسنان؟ لقد خالفت القوانين واللوائح العسكرية الملزمة بوضع كل شيء مكانه.

وطلب مني إخراج كل أغراضي، ثم عوقبت أسبوعاً كاملاً.

بعد أن انتهيت من تناول وجبة الغداء (التي كانت عبارة عن وجبة معلبة باردة) جاء الجندي ليجمع بقايا الطعام والأكياس البلاستيكية، أخذ يعد الأكياس ويلصق الجزء المقطوع بالجزء الآخر، ثم صاح منفعلاً: أين بقية الجزء المقطوع من الكيس؟ لم أجده عندي وربما افترى علي أو أخطأ في العد قبل أن يلقيها في كيس القمامة الكبير، قلت: هي مجرد قطعة من كيس بلاستيكي وليست كلاشنكوف.

اتصل بالإدارة ليبلغهم بالخرق الأمني الخطير: المعتقل (٥٥٢) أخفى جزءاً صغيراً مقطوعاً من كيس الوجبة، فجاء الرد سريعاً بالعقوبة، صادروا الأغراض فنمت على السرير الحديدي لمدة ثلاثة أيام!

من الابتزازات المستخدمة بكثرة في غوانتانامو هي الاتهام بمحاولة الانتحار كي يعاقب المعتقل بعقوبات شديدة، منها ارتداء الملابس المخصصة لمن يحاول الانتحار، وهي أشبه ما تكون بالجبة السابغة لا أزرار لها، لا يخرج منها سوى كفيه وقدميه ورأسه، وهي غليظة جداً كخباء الخيمة، رائحتها نتنة، أصابت الكثير ممن ارتداها بالحساسية الجلدية.

التفتيش:

قبل رمضان ٢٠٠٧ بدأت الإدارة باستفزازات جديدة، وضعت قانوناً جديداً يُفتِّشون بموجبه ثلاثة معتقلين في العنبر عشوائياً زيادة على التفتيش اليومي الذي نعاني فيه الكثير من المضايقات والتحرشات والإهانات، شكونا إلى الإدارة هذا القانون الجديد الذي تم يوضع قبل يومين من رمضان إلا لاستفزازنا في هذا الشهر المبارك.

كانوا يوقظوننا من النوم في منتصف الليل بحجة تفتيش الزنزانة، عوقب أحد المعتقلين لمدة أسبوع كامل لأنهم وجدوا القليل من النمل قد اجتمع على حبة رز سقطت من الوجبة في زنزانته دون أن يشعر بها.

كثيراً ما تهب من نومك فزعاً على ركل الجنود لباب الزنزانة بعنف يطلبون منك الاقتراب من النافذة لتقييدك من أجل التفتيش العشوائي، فتظل دائماً في قلق، هل سيفتشونك هذه الليلة أم لا؟

الرسائل:

كنا نستبدل في رسائلنا وكتاباتنا لفظ الجلالة بقوسين مفتوحين ( ) فظنها الأمريكان شفرة، كنا نفعل ذلك حتى لا يهان لفظ الجلالة مع الأمريكان الذين كانوا يدوسون على الرسائل خلال التفتيش.

حظي القليل من المعتقلين بفرصة أكبر من غيره للتواصل مع أهله، حيث كانت تصله شهرياً رسائل من أهله، لم أكن من هؤلاء على الرغم من أن أهلي لا يمر عليهم أسبوع إلا ويكتبون لي رسائل، لكنها لم تكن لتصل إلا رسالة واحدة كل سنتين تقريباً.

لم يكن الأمر متعلقاً بالتعذيب داخل غوانتانامو فحسب، هناك حنين مستعر داخل خلجات النفس إلى عائلة تشاركنا مأساتنا كل يوم، لقد استغلت إدارة السجن هذه المشاعر الإنسانية في تعذيبنا، كانت رسائلهم تصل إلينا مشطبة دون سبب سوى إثارة الهواجس في نفوس المعتقلين، جاءتني رسالة من والدي في إحدى المرات، تبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم ثم شطبت كل الرسالة إلا الجملة الأخيرة: والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. والدك!

لقد استخدموا دموع الوالدين ومشاعر الشوق كوسيلة للضغط النفسي.

صدامات:

وضعوني عند قدومي غوانتانامو في عنبر (G) في المعسكر الأول، كانت الإجراءات مهينة، يجبر المعتقل على الجُثُوِّ على الركب عند التقييد، كما يجبر على النظر إلى الأرض، فإذا رفع رأسه يدفع الجندي رأسه إلى الأسفل، ضرب الجنود أحد المعتقلين في قفص المشي، فثار المعتقلون في العنبر ضد الجنود وضربوا الأبواب والأسِرَّة التي كانت عبارة عن صفيحة معدنية معلقة ملحومة في جانب الزنزانة على ارتفاع متر وثلاثين سم تقريباً من الأرض، كانت هذه الحادثة عبارة عن القشة التي قصمت ظهر البعير والمتنفس الذي تسرب منه كم هائل من الشعور بالإذلال والإهانة على مدى أشهر، بدأ بعض المعتقلين بملأ الأكواب الورقية بالماء ثم رشها على الجنود الذين استمروا في الاستهزاء والسب والضحك، فعلاً ماذا يفعل الماء أمام هذا الطغيان؟

اغترف أحد المعتقلين بالكوب من ماء المرحاض ثم رش به الجندي الذي ظنه ماء، غرق في ضحكه واستهزائه، لكنه سرعان ما انقلب ضحكه إلى تقزز ورغبة في التقيؤ حين شم من الماء رائحة نتنة، قال له المعتقل مستهزئاً: فلأسمع ضحكك الآن!

استمر الجنود لأسابيع في الإزعاج الليلي، يضربون الباب كل عشر دقائق طوال الليل، لابد من ردة فعل وإلا سيفقد المعتقلون عقولهم مع مرور الأيام، كان لباب الزنزانة فتحتان، علوية لتقييد اليدين وأخرى سفلية لتقييد الرجلين، يتم تقييد اليدين والحقو أولاً بالسلسلة الطويلة ثم يفتح الجندي الباب السفلي ويدخل يديه لتقييد الرجلين، بدأ بعض المعتقلين بردود أفعال، فمنهم من يدوس يد الجندي ومنهم من يركلها بالباب، وحدث أن كسرت يد أحد الجنود بهذه الطريقة، ومنهم من يخرج معهم مقيداً ثم ينطحهم برأسه، نجح أحد المعتقلين بكسر سِنَّيْن لجندي كان يعتدي على المعتقلين، دائماً ما تتبع ردود الأفعال نوبات غضب وهيجان من الجنود فيضربون الأخ المقيد ضرباً مبرحاً، لكن بعض المعتقلين لم يستسلموا حتى تتم الاستجابة لمطالبهم والكف عن إيذائهم.

كان معنا أخ مشهور بالشجاعة من (جدة)، أصوله يمنية، صغير البنية، يجل المعتقلين الأكبر منه سناً إجلالاً بالغاً، يخشاه الجنود والضباط لما عرف عنه من مقاومة شرسة لقوات الشغب، ولم يفت عضده انقطاع أربطة ركبته وكسور وجروح امتلأ بها جسده بسبب مواجهات سابقة، كان الكثير من المعتقلين يصفه بالتهور وعدم المبالاة

بالخصم، نصحته مرة في التقليل من المشاكل مع الجنود والانشغال بحفظ القرآن فقال لي كلمة هزتني من الأعماق، قال: أنا لا أملك القدرة على الحفظ لكني سأبذل روحي لنصرتكم ورد كيد الجنود عن إخواني ليحفظوا ويزدادوا علماً، شعرت بضآلة نفسي أمام عظمة تضحياته.

دخلت قوات الشغب على أحد المعتقلين فضربوه ضرباً مبرحاً مما أثار حمية ثمانية معتقلين آخرين، فاتفقوا على تغطية النوافذ الزجاجية بالشراشف (ملاءة السرير)، استدعِيَت قوات الشغب لعدم قدرة الجنود على المراقبة، دقائق معدودة وإذا بالعنبر قد امتلأ بقوات الشغب وهم يضربون الأرض بأرجلهم ضربات موحدة في محاولة بائسة لإرعاب المعتقلين، بدؤوا باقتحام الزنازين الثمانية واحدة تلو الأخرى، اندلعت مواجهة عنيفة غير متكافئة أبدى فيها هؤلاء الثمانية شجاعة قل مثيلها، كان من بينهم الأخ الجداوي، اقتحموا زنزانته بدروعهم وخوذهم فأمسك الأول وتله إليه، ثم ضرب الخوذة بقبضته فسقطت، ثم وضع وجه الجندي في المرحاض الذي كان قد قضى فيه قبل قليل حاجته، وتعمد عدم ضغط زر شفط الماء، وأخذ يمعك به وجه الجندي الذي أخذ يصيح والجنود الآخرون يضربونه في ظهره حتى استطاعوا بجهد أن يبعدوه عنه، أخذوا يضربونه انتقاماً وهو مستمر في تهديدهم وسبهم بإنجليزية ركيكة مضحكة، استمرت المواجهات العنيفة مع السبعة الآخرين إلى وقت متأخر من الليل، استنفذ الطرفان جهدهما، انتهت المعركة وكل واحد من الثمانية ملقى على ظهره الممتلئ بالكدمات والرضوض والسحجات وهو يضحك على البقية، قال أحدهم ساخراً للأخ الجداوي: أتمنى أن أتعلم منك اللغة الإنجليزية، أبهرتني بإنجليزيتك الأكسفوردية، خاصة عندما قلت للجندي: (you no good)!

ضرب المحقق معتقلاً تونسياً في المعسكر الخامس بالكرسي ثم انهال عليه باللكمات مما أشعل شرارة التمرد في المعتقل، قرر المعتقلون الامتناع عن التحقيق فاستخدم الأمريكان قوات الشغب، يقتحمون الزنازين على المعتقلين، يقيدون أيديهم وأرجلهم من الخلف بعد ضربهم ثم يحملونهم إلى خارج المعسكر، يرمون المعتقل على وجهه بالأرض ويضع الجندي قدمه على رقبته إلى حين الانتهاء من الإجراءات الأمنية المتبعة عند انتقال المعتقل من معسكر إلى آخر، ثم يرمونه كالغنم داخل سيارة النقل، فإذا وصل غرفة التحقيقات وضعوه على بطنه مقيداً، فيأتي المحقق ويبدأ في أسئلته معه وهو على هذه الحال، اتفق المعتقلون في عنبر (روميو) أن يقاوموا قوات الشغب، أعفوا المرضى وكبار السن من ذلك، كان معهم معتقل كويتي قد أجروا له عملية فتق جراحية للتو بعد سنين من رفضهم علاجه، وبسبب تعمد الأطباء لم تكن

العملية ناجحة ليبقى المعتقل يعاني، طلبوا منه الاستسلام فرفض، اقتحمت قوات الشغب زنزانته، هنا حدثت مواجهة غير متوقعة، أخذ يضرب الجندي الأول بانتقام، يحمله ثم يرميه أرضاً، ثم يحمله مرة أخرى ليرميه أرضاً وسط استغراب الجنود والمعتقلين على حد سواء، يبدو أن مشاعر الانتقام قد فاقت آلام العملية مما جعله لا يشعر بها، خلال هذه الأثناء مر جندي آذى المعتقلين كثيراً أمام زنزانة أحد المعتقلين من جنوب المملكة، فأشار إليه بيده كأنه يحمل كلاشينكوف وبدأ يقلد صوت إطلاق النار فسقط الجندي وهو يرتعش من الخوف وكأنها طلقات حقيقية، صاح المعتقل في الجندي الذي ولى هارباً في خجل: أنتم نمر من ورق!

كانت أجهزة التنصت ترصد كل أحاديث المعتقلين لجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات، أبدى أحد المعتقلين شوقه الكبير للحصول على تفسير ابن كثير، ففوجئ في اليوم التالي أن المحقق يعرض عليه تفسير ابن كثير مقابل تعاونه في التحقيق، وآخر كان يشرح بعض أحاديث كتاب **الأربعين النووية** للإمام أبي زكريا يحيى النووي، فسأله المحققون بعدها بيوم عن علاقته بالأسلحة النووية، أنكر المعتقل هذه التهم فتفاجأ بالمحقق وهو يبتسم مستهزئاً: أتظن أننا لا نعلم عن الأربعين قنبلة نووية التي يمتلكها تنظيم القاعدة؟

كنت أعطي درساً لبعض المعتقلين في أحكام الفرائض، فشرحت لهم (المسألة المُشَرَّكَة) حين يكون الورثة (زوج وأم وأَخَوان لأم فأكثر وأخ شقيق فأكثر)، سألني المحقق بعدها بأيام عن خبرتي في تشريك المتفجرات!

عندما كنا في المعسكر الأول والثاني والثالث كان الأمريكان يستخدمون أسلوب (الإزعاج الذاتي)، فالسرير عبارة عن صفيحة معدنية متعرجة فيها بروز من جهة وانثناء من جهة أخرى، إذا استلقيت عليها تصيبك آلاماً شديدة في الظهر، إضافة إلى وجود تجويف يصدر صوتاً مزعجاً بمجرد وضع جسدك عليه، ومن الصعب أن يتفادى النائم طوال فترة نومه تغيير وضعيته، فيصدر صوتاً أشبه بضربة قوية على السرير يجعلك تهب مذعوراً من نومك، أنت والذي بجوارك، كما صنعوا تجاويف في عدة مواضع في الدهليز الذي يمشي فيه الحراس للمراقبة، تصدر دوياً مزعجاً بمجرد وضع الجندي قدمه عليها، تجعل المعتقل متوتراً من هذه الأصوات التي لا تجعله يهنأ بالنوم ولا ينعم بالهدوء طوال الوقت.

حين تأتي المجموعة الجديدة لحراسة العنبر تقوم بالتأكد من عدد المعتقلين لإخلاء مسؤولية العهدة، فيبدأ أحدهم في العد: (one, two, three, four, five) وهكذا، عندها يبدأ بعض المعتقلين بالتشويش عليه (six, twelve, twenty, one, five) وهكذا بصوت مرتفع،

يضطر أحياناً لإعادة العد أكثر من خمس مرات في عنبر يحتوي على ٤٨ زنزانة، وأحياناً يكون الجندي أحمقاً فينادي أحدُ المعتقلين: (يا إخوة أرجوكم لا تشوشوا على هذا لأنه مشوش بالفطرة)، فيعد الجندي الزنازين وهو يتلفظ بالأرقام مستعيناً بأصابعه، فما يكمل منتصف العنبر حتى يرجع مرة أخرى للعد!

يتعمد بعض الجنود الخبثاء خبط أرجلهم على أرضية دهليز العنبر لإزعاج المعتقلين، فيفاجؤون باستفزاز مضاد، يقوم بعض المعتقلين بمناداة الجنود بأسماء قبيحة مع استهزاء وسخرية، ويطلق آخرون ضحكات ساخرة من الجنود تكون كفيلة لوحدها بتحطيم معنوياتهم، في إحدى المرات كان تركيز المعتقلين على جندي خبيث جداً طالما آذاهم، فأراد الجندي أن يخفف عن نفسه الضغط النفسي الذي يعيشه بسبب استهزاء المعتقلين به فأخذ يساير جندياً آخر في الدهليز لأنه مضطر أن يمشي في العنبر للمراقبة، فكان مجبراً على سماع سخرية المعتقلين به، وحين رآه الجندي الآخر يمشي بجانبه انتهره وهو يشير بيده قائلاً: (go away) ابتعد، خشية أن يناله نصيب من الاستهزاء والضحكات المستفزة.

سخر الجنود من أحد المعتقلين فقالوا له: (أنت الآن في قفص كالحيوان)، فأراد المعتقل أن يغيظهم فأخذ يحاكي بيديه الطائرات وهي تضرب مركز التجارة والبنتاغون، ثم أخذ يقلد بوش وهو يبكي، فحقدوا عليه حتى رأينا أحد الجنود يبكي من شدة الغضب، فاجتمع الجنود ودخلوا عليه الزنزانة وتبادلوا اللكمات، فاستطاعوا لكثرتهم تقييده بعد ضربه، فثار المعتقلون في العنبر وحدثت مواجهات مع قوات الشغب، وبسبب ارتباك الجنود نجح بعض المعتقلين من خطف جهاز اللاسلكي والقبعة العسكرية من أحد الجنود عند فتحه النافذة للتقييد، ثم أخذ المعتقل يتكلم في اللاسلكي مقلداً الجنود: (Sally open the gate) سالي افتح البوابة، و(Sally) هو رمز للجنود المسؤولين عن البوابة، وتفادياً لصدام عنيف مع قوات الشغب استجاب لنصيحة إخوانه وكسر جهاز اللاسلكي، ثم أرجعه فتاتاً للجنود المرتبكين، واختطف آخر البخاخ من الجندي، ومن شدة فرحه بنجاح هذه العملية أخذ يكبر، فقال له معتقل خفيف الظل: فرحك يشعرني أنك حررت القدس، فأجابه وهو لا يستطيع إخفاء ابتسامته: على الأقل سأكون سبباً في عقوبة هذا الجندي الحقير الذي آذانا، استشار من حوله: ماذا أفعل بالبخاخ؟ رد عليه الأخ الظريف: رش نفسك لتثبت للأمريكان أنك لا تبالي بهذا البخاخ التعيس، أخذ يرش على الجنود الذين أنهكهم السعال الخانق، أعمته الفرحة الغامرة عن الانتباه لإخوانه المعتقلين في الجهة المقابلة، فوصلهم البخاخ فانتابتهم نوبة سعال شديدة، وسقط بعضهم مختنقاً، كان الأخ المرح من بينهم فدفع ثمن سخريته!

نسي أحد الجنود المفتاح في قفل الزنزانة، واستطاع المعتقل أن يسحبه إليه بصعوبة، تشاور المعتقلون فيما بينهم، فمنهم من اقترح محاولة هروب المعتقل، أما الغالبية فأشارت عليه بإرجاعه لهم لأن فكرة هروبه مستحيلة في غوانتانامو، فهناك جنود عند بوابة العنبر المغلقة وبعدها بوابة أخرى حولها جنود حراسة، وهناك بوابتان أخريان بعدها ثم السياج المحيط بالمعسكر كله، تعلوه أبراج الحراسة المشددة، ثم هناك المجهول بعد ذلك، استنفر الجنود بعد أن أدركوا ضياع المفتاح، فتخلص الأخ منه في المرحاض، عوقب في الانفرادي بعد تجريده من أغراضه لينام على الحديد.

دخل نائب الجنرال أحد العنابر وهو يعرف جيداً مدى بغض المعتقلين للجنرال (ميلر)، فشعر بأن هناك نية للاعتداء عليه ظناً من بعض المعتقلين أنه الجنرال نفسه، فأخذ يصيح: (أنا لست الجنرال)، فبصق عليه أحد المعتقلين قائلاً: (بصقة واحدة لأنك نائب الجنرال، ولو كنت الجنرال لبصقت عليك مرتين)، ثم دخلت عليه قوات الشغب فضربوه ونقلوه إلى انفرادي العقوبات ليقضي فترة الراحة والاستجمام هناك!

كان لاجئاً في أوروبا فقاده القَدَر إلى غوانتانامو، أحاطت به قوات الشغب من كل جانب يصرخون عليه: (Shut up. Don't resist) اخرس، لا تقاوم.

رفعت صوتي: (ليس شجاعاً ذلك الكلب الذي ينبح على جثة الأسد)، أخرجوه من زنزانته مقيداً محمولاً، رأيت أنفه ينزف، ناديته: (لا بطل بلا جروح)، ابتسم دون أن يلتفت إلي، كلما رأيت مشاهد القهر تجددت أحزاني على أمة ضاع أبناؤها حين هدم الوطن، يبحثون عن هويتهم في شوارع الغرب أو عن حريتهم في سجونها.

ضرب أحد الجنود معتقلاً يمنياً في أحد العنابر، وبعد أيام كانت نوبة هذا الجندي للحراسة في عنبر آخر، رآه معتقل سعودي فعلم أنه هو الذي ضرب الأخ اليمني، وحين فتح نافذته للطعام أمسكه بحركة خاطفة من ملابسه بقوة ثم أخرج يده الثانية من النافذة وبدأ يلكم الجندي، كلما لكمه نزل الجندي قليلاً حتى كاد يسقط أرضاً ثم تركه، رجع الجندي إلى مقدمة العنبر وهو يرتب هندامه ويتصنع عدم حدوث شيء له، رآه أحد المعتقلين قافلاً فسأله: ماذا حدث؟ فقال وهو يظن أن المعتقل لم ير ما حدث: (مجرد سوء تفاهم بيني وبين أحد المعتقلين)! لم يخبره بالحقيقة لأنه خشي أن يثور آخرون لأنه ضرب أحد إخوانهم.

في أيام غوانتانامو الأولى كان الجنود يجرون التدريبات على قوات الشغب في قفص المشي، فكنا نرى أحد الجنود يمثل دور المعتقل وهو يرتدي الملابس البرتقالية فيهجم عليه الجنود، سمعنا صراخ الجندي في إحدى المرات فظنناها مجرد تمثيل، لكن المحامي أخبرني لاحقاً أن هذا الجندي أصيب بشلل بسبب العنف المستخدم ضده فأعفي من الخدمة وقد كان قد التحق بالجيش لتوه.

أحضر الجنود لمعتقل سعودي من جدة طعاماً فيه دود فاشتكى وطلب من الجنود إحضار المسئول، رفض الجنود طلبه فرفض هو بدوره تسليمهم صحن الطعام البلاستيكي، أحضروا قوات الشغب، وبينما هم يعدون أنفسهم للدخول عليه كان يصب الماء مخلوطاً بالصابون على أرضية زنزانته، وحين دخلوا عليه تزحلقوا فاستغل الفرصة وهجم على أحد الجنود يضربه ضرباً مبرحاً لأنه يعلم أنهم سينتقمون منه أشد الانتقام، فأراد أن يعطيهم نصيبهم ابتداء، كان الجندي يصرخ والدماء تنزف من أنفه، ثم اجتمع الجنود عليه وأخذ نصيبه من الضرب كاملاً غير منقوص!

كان الكلام ممنوعاً في الانفرادي، وعند خروج أحد المعتقلين إلى قفص المشي ألقى السلام على أحد إخوانه، فدفعه أحد الجنود الخبثاء وهو مقيد اليدين والرجلين، ثم بطحه أرضاً قريباً من قفص المشي وداس على رقبته، رأى هذا المشهد أحد المعتقلين في القفص الآخر للمشي، فجمع الحصى بيديه ورجم بها الجندي لتصيبه في وجهه، ظل على هذه الحال حتى جاء جنود الإمداد.

مع ازدياد المواجهات بين الجنود والمعتقلين شدد الأمريكان في العقوبات، فكانت تمتد فترة العقوبة لبعض المعتقلين في الانفرادي إلى ثلاث سنوات، واستخدموا إبر الهلوسة التي يستمر أثرها لأشهر ثم تزول تدريجياً، حقنوها بالقوة لأخ مغربي كان يعترض على القوانين الجائرة كإجبار المعتقل أن يجثو على ركبه أثناء التقييد وغيرها من القوانين المهينة للكرامة الإنسانية، كان هذا الأخ من أكثر المعتقلين شجاعة وتمرداً على هذه القوانين التعسفية، فضاقوا به ذرعاً وحقنوه بها بعد أن عزلوه في زنزانة انفرادية في معسكر (إيكو) المخصص للمحامين، كان أحد المعتقلين بانتظار المحامي، ففتح الجنود بالخطأ باب زنزانة الأخ المغربي فرآه في حالة يرثى لها، رآه ينتف شعر لحيته ورأسه وأمامه كومة من الشعر.

اشتهر معتقل كويتي بحسن خلقه مع الجنود والمعتقلين، كما أوتي بسطة في الجسم، تغير جذرياً بعد عدة أشهر من أسره حين رأى الظلم الرهيب الواقع على المعتقلين، أصبح من أشد المعتقلين على الجنود وازداد شفقة على إخوانه المعتقلين، لم يستطع الجنود كبح جماح تمرده، فجاء العقيد في إحدى المرات يتوسل للمعتقلين أن يكفوه عن جنوده المساكين الذين لا يطبقون الأوامر الجائرة كما ينبغي بسبب تمرده عليها!

حقنوه بهذه الإبرة فأصبحت تعتريه نوبة من الهذيان، وبعدها بفترة وجيزة تم إطلاق سراحه ليقوم بعملية تفجير في العراق كانت سبباً في توقف عمليات إطلاق سراح المعتقلين الكويتيين لسنين، سأله المحقق قبيل إطلاق سراحه: ماذا ستفعل حين نطلق سراحك؟ فأجابهم: سأمزق أجسادكم بجسدي الممزق!

لم يكن سوى ضحية من ضحايا الولايات المتحدة التي هي من يصنع الإرهاب والتطرف.

ومما يزيد من مشاعر القهر في نفوس المعتقلين أن الأمر لم يكن متعلقاً بقضاء عقوبة ينفذها جندي مجبر على تطبيق القانون، بل كانت مشاعر الكراهية طاغية في وجوه الجنود الشامتين بمعتقلين لا يتمتعون بالمعاملة الإنسانية ولا بحق المحاكمة العادلة.

هناك جنود جمعوا بين الخبث والجبن، من أغرب القصص التي مرت علينا في هذا الباب قصة جندي كان مع اثنين آخرين يقودان معتقلاً يمنياً إلى زنزانته، فأراد مجرد السلام على أخيه فدفعه الجندي بعنف، وكان هناك معتقل قريباً منهم يغسل أرضية زنزانته بالممسحة الخشبية التي سمح بها الأمريكان ثم منعوها لاحقاً، حين رأى الجندي يدفع أخاه ضرب النافذة بشدة فانفتحت لأنها لم تغلق جيداً، أخرج الممسحة وضرب بها الجندي، تراجع الجندي إلى الوراء مذعوراً، فصرخ عليه معتقل آخر من زنزانته في الجهة المقابلة، فالتفت صارخاً ثم بكى من شدة الخوف، استمر المعتقل في الصراخ عليه وهو يقول له من وراء القضبان: ارفع يديك عالياً، فرفع الجندي يديه وهو يبكي، انتبه إلى نفسه وأدرك أنه أصبح أضحوكة، مسح دموعه ثم مضى في صمت.

كانت خشية الأمريكان من العمل الجماعي كبيرة جداً ولو كان العمل بسيطاً كضرب الأبواب، إنهم يخشون الوحدة أكثر من خشيتهم العمل نفسه، فرض الأمريكان عقوبات جديدة لمنع أي تمرد جماعي على القوانين الجائرة ومن ضمنها حلق اللحية، فاستمر المعتقلون في رفض القوانين بعد حلقها، فأسقط في يد الأمريكان الذين لم يعد أمامهم لحية لتحلق! فبدؤوا بحلق الرأس بطريقة مهينة، كانوا يحلقونه على هيئة صليب أو طريقة ساخرة، فخشوا من مغبة ذلك خاصة حين تأتي وفود من الكونجرس والإعلاميين لرؤية المعسكر، فتوقفوا عن ذلك وشددوا في قوانين العقوبات.

مر أحد الجنود بجندية في آخر دهليز العنبر فكسعها ومضى كأن شيئاً لم يكن، التفتت مذعورة إليه، ثم نظرت إلى الأرض في خجل ممزوج بالحزن، رأى أحد المعتقلين ما حدث، فسأل جندياً متعاطفاً: لماذا لا تشتكي عليه؟

أخبره بأن هذه الحوادث والتحرشات كثيرة جداً في الجيش، ولا تستطيع الجنديات غالباً الشكوى لعدم وجود الدليل، ثم إن الجنود الذكور يتمالؤون عليها بالتحرش والمؤامرات إن اشتكت، فتفضل تجرع الغصص على أن تشتكي عليهم فيزداد شقاؤها، ثار غضب المعتقل الذي لا يطيق رؤية الظلم دون أن يصنع شيئاً، مر الجندي المتحرش أمامه فبصق عليه وهو يقول: حقير ذلك الرجل الذي يستقوي على النساء.

جاءت الجندية نفسها فكتبت عليه العقوبة دون أن تعلم أنه بصق عليه لأنه تحرش بها، همس له الجندي المتعاطف: سأخبرها بأنك فعلت ذلك من أجلها، نهاه المعتقل وهو يقول: أرجوك لا تخبرها، لا أريد الاحتكاك بالنساء، ثم أخذوه بعد قليل إلى الانفرادي!

كنت قريباً من الحدث، قلت للأخ المجاور وأنا أبتسم: موقف عجيب، هل تصدق أن هذا الأخ يوصف بأنه عنيف مع النساء بينما يوصف الجندي بأنه متسامح مع النساء ومتحرر فكرياً!

وضع أحد الجنود قدمه على القرآن حتى طبع حذاؤه عليه، فثار المعتقلون وقرروا أن يعيدوا المصحف إلى الإدارة كي لا يهان مرة أخرى فرفضت الإدارة، حينها اختلف المعتقلون، قال بعضهم: (إذا كان الجندي يستفز ابني ويهينه فكيف أقول له: خذ ابني عندك حتى لا تستفزه أمامي؟ والقرآن أعظم في أنفسنا من أبنائنا)، وآخر يرد: (مثالك خاطئ، القرآن أغلى من أرواحنا وأولادنا لكننا إذا سلمناه حرمنا الإدارة من استغلال القرآن كورقة ضغط نفسي علينا فلا نضطر في كل مرة إلى ردة فعل تستنفذ جهودنا وتنهك قوانا في مواجهات طويلة غير متكافئة)، قرر المعتقلون الامتناع عن الخروج من الزنزانة للمشي والاستحمام على الرغم من حاجتهم الماسة لها، جاء المسئولون يتوعدون ويهددون المعتقلين بأنهم سيتحملون نتائج هذا الرفض، لا يبالي الأمريكان بصحة المعتقل حين يرفض التشمس والاغتسال، لكنه لا يريد السماح لروح التمرد أن تولد فيه، لذلك أراد الحفاظ على معنى الخضوع للقانون بصورة مختلفة، فأجبر المعتقلين على التفتيش في حال رفضهم التشمس والاغتسال، ومن أبى استخدمت القوة المفرطة بواسطة قوات الشغب، لم تمض إلا دقائق معدودة حتى جاءت قوات الشغب لتقتحم الزنازين الواحدة تلو الأخرى بعد رشهم بالبخاخ الحارق، ثم تقوم بضرب المعتقلين وربطهم بالقيود البلاستيكية الشديدة، وبعد دخول خمسة جنود الزنزانة وضرب المعتقل وتقييده يتم نقله مقيداً محمولاً إلى قفص المشي، ثم يطرحونه هناك أرضاً، وكثيراً ما يتعمدون ضرب رأس المعتقل بالأرض الخرسانية فيشجونها ويجرحون جفنه فيسيل الدم على وجهه وهو موثق بالقيود، وفي هذه الوضعية يقومون بحلق رأسه ولحيته وشاربه، ثم يودعونه الانفرادي، وبعد ساعة يأتي الجندي ليسأله: هل تريد الممرض؟ يرفض بعضهم بسبب مشاعر القهر والهوان ويكتفون بالدعاء أن ينتقم الله من الظالمين، بينما يطلب بعض المصابين استدعاء الممرض، ومن خلال فتحة الطعام التي لا تتعدى ثلاث بوصات في عشر يخرج رأسه ليخيطه الممرض ويغطيه بلاصق!

استخدم قلة من المعتقلين ذات التكتيك النفسي الذي تمارسه علينا إدارة المعتقل

مع فارق الإمكانيات والظروف، اختاروا مجموعة من الجنود السيئين ليكونوا العينة التي يمارسون عليها تجاربهم النفسية، بمجرد دخول الجندي السيئ العنبر يستقبله بعض المعتقلين بالسخرية عليه والاستهزاء به سواء بالإشارة أو بالضحك أو بالقول، يتحينون اللحظة التي يقترب فيها من زنازينهم ليركلوا باب الزنزانة فيفزع الجندي.

كانت التجربة مثيرة للغاية، وصل الأمر بأحد الجنود إلى أن انفجر بالبكاء حين ازداد عليه الضغط النفسي من بداية الصباح إلى آخر النهار وهو مضطر للمشي في العنبر للمراقبة، تغيرت معاملة بعض الجنود إلى الأفضل تفادياً لهذا الضغط الذي لم يحتملوه، يحد المعتقل نظره في الجندي ثم يغمز للمعتقل الآخر فيطلقون ضحكة مكتومة تجعل الجندي يمتقع لونه خجلاً، آخران يتحدثان بالعربية ثم يشيران بسخرية إلي الجندي وهما يتضاحكان فيستشيط غضباً، قلت لأحدهم: (ضحكتك الساخرة أصابتني أنا بالاكتئاب فكيف بالجندي؟).

قال أحد المعتقلين للضابط: لماذا تعاقبون الكل بسبب فعل البعض؟

أجاب: أنتم تحبون بعضكم ويحترم أحدكم الآخر، هذا يعني أنكم تمتلكون قوة مؤثرة على بعضكم، يجب عليكم أن تستخدمونها في إيقاف كل اعتداء على قوانيننا وجنودنا، فإن لم تفعلوا فأنتم مشاركون في العصيان!

لا تقتصر هذه السياسة الأمريكية على غوانتانامو بل هي عامة في سلمها وحربها، وهكذا الظلمة في كل زمان ومكان، حين يعجزون عن الثائر فيفتكون بقريته ليروا محاولاته في تحريرهم لم تجلب لهم سوى المزيد من العبودية، إنها سياسة فرعون في تشديد قبضته على بني إسرائيل حتى قالوا لموسى ﷺ: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ﴾.

كان هناك أخ يعاني مرض الكبد وبعد معاناة وإلحاح ومواجهات مع الجنود صرفوا له دواء، لكن حالته بدأت تسوء يوماً بعد يوم، فطلب منهم الدواء الذي كان يستخدمه قبل الأسر فقالوا: هذا الدواء غالي الثمن وأنت مجرد معتقل لا تستحقه.

كنا نرى بقايا حبوب لم تذب تماماً في أكواب الحليب الذي كان لونه مائلاً إلى الخضرة، وكانوا يحقنوننا بالإبر بالإكراه في السنتين الأوليين من وصولنا غوانتانامو، كان بجواري الملا عبد الحق الأفغاني وهو من قيادات الطلبة الذين أُطلِق سراحهم في عملية تبادل أسرى، فكان الجنود يتأكدون من رقم المعتقل ليختاروا له الحقنة المخصصة له، وحين يصلون إلى زنزانتي كانوا يختارون الحقنة الموجودة في الصندوق السفلي خلاف حقن بقية المعتقلين المجاورين، وصلوا إلى زنزانة الملا عبدالحق فحقنوه

من الصندوق السفلي كذلك، فكنت أشعر بعد الحقنة بخمول غير طبيعي وثقل في اللسان والحركة بشكل عام، فكنت أقاوم هذا الإحساس وأمارس الرياضة وكأني مشدود بألف حبل يجبرني على التوقف، كان الملا عبدالحق يشعر بنفس الأعراض التي تستمر بعد الحقنة ستة أشهر تقريباً، ولا تتلاشى حتى يأتي الموعد الجديد لحقن المعتقلين، توقف الأمريكان عن سياسة الحقن بعد ثلاث سنين من وصولنا غوانتانامو.

(العم صالح) معتقل يمني يزيد عمره على الستين سنة، كان يعاني من آلام واضطراب في القلب، استغربنا من سرعة استجابتهم لحالته، أجروا له عملية توسيع شرايين القلب، فاستيقظ من المخدر والدماء تغطي جسده وكأنه في مجزرة، واكتشف أن من قام بالعملية متدربون وليسوا أكفاء، فعلم سبب سرعة استجابتهم لحالته، استمرت الأعراض عليه دون أي تحسن، فأخبروه بأن العملية لم تكن ناجحة، وعرضوا عليه إجراء عملية أخرى، يبدو أن عندهم متدربين جداً!

كان هناك معتقل سوري يعاني هو كذلك آلاماً شديدة في القلب، وكان كثيراً ما يغمى عليه، عرضوا عليه عملية قلب لكنه اتعظ بالعم صالح.

المعتقل المصري (عبد العزيز) دخل المستشفى سليماً ليخرج منه مشلولاً بعد أن ضربه الجنود بمشاركة الدكتور نفسه، كسروا فقرتين من عموده الفقري، رفض إجراء أي عملية جراحية خاصة حين رأى حال المعتقل السعودي مشعل الحربي الذي أصبح مشلولاً بعد العملية التي أجريت له، أما عمران الطائفي فكان عبرة لكل المعتقلين المرضى الذين يفكرون بإجراء عملية. لقد أجروا له أكثر من ١٦ عملية جراحية كلها فاشلة، لقد كانت غوانتانامو فرصة ثمينة للمتدربين!

الأفغاني (ولي محمد) اكتشف بعد ثلاث سنوات من المعاناة أنه مصاب بمرض السرطان في مراحله الأخيرة، كان الطبيب صريحاً حين أخبره أن الحكومة الأمريكية ترفض علاجه، وعليه أن يعود إلى بلده حتى يقضي أيامه الأخيرة هناك مع زوجته وأولاده ويدفن في بلده دون أن يكلف الولايات المتحدة تكاليف علاجه وهي التي صرفت الملايين لقصف بلده!

الأفغاني (محمد علم) الذي أصيب في غوانتانامو بسرطان في الحلق فأرجعوه حالاً إلى أفغانستان ليقضي هناك، أما الملا عبد الرزاق الأفغاني فقد توفي في المعتقل بعد معاناة طويلة مع السرطان دون علاج.

سأل بعض المعتقلين جندياً متعاطفاً معنا عن أسماء المغنيات والعاهرات المشهورات ثم أخذوا يلقبون بها الجنود الخبثاء، أطلقوا على أحدهم اسم (مادونا)

وآخر (مونيكا) وثالث (لوسي)، أما (مونيكا) فقد حدثت له مشاكل ليس فقط مع المعتقلين بل مع الجنود كذلك، جمع مع وسامته خبثاً ولؤماً، جاء العقيد مرة إلى المعتقلين وهو يتوسل إليهم أن يتوقفوا عن إطلاق هذه الأسماء على جنوده:

(do not bother my guards) لا تزعجوا حراسي، ثم أخذ يشكو ما حدث الليلة الفائتة من صدامات عنيفة في سَكَن الجنود بين الجندي (مونيكا) وزملائه حين لمزه جنود آخرون بما أطلقه المعتقلون عليه: (مونيكا)!

فكان كل لقب يطلقه المعتقلون على جندي فإنه ينتشر بينهم سواء كان اسماً جيداً للمحترمين أو سيئاً للخبثاء، جاء (مونيكا) مرة إلى مراسل قناة الجزيرة المعتقل (سامي الحاج) وقد بلغ به الضيق كل مبلغ، فسأله: لماذا تدعوني مونيكا؟ أجابه: (ولماذا تدعوني (٣٤٥) وأنا اسمي سامي؟)، فأصبح لا يناديه إلا باسمه طمعاً في أن يتوقف المعتقلون عن ندائه بمونيكا، قال له أحد المعتقلين: نداؤك بأسمائنا لن يوقفنا يا (مونيكا) بل تحسين معاملتك معنا هي من ستجعلنا نحترمك، تغيرت معاملته قليلاً، لكنه بدا كالغراب يحاول أن يحاكي مشية الحمامة، فلازلنا نرى في عينه شراً يحاول كظمه، وهذا جندي آخر يغلب عليه الصمت لكنه شرير الأفعال، لا يدخل عنبراً إلا جعله على صفيح ملتهب من التوتر والاستفزاز، يركل الزنازين ويجر السلاسل على الأرض، يضيق على المعتقلين القيود حتى يدمي سواعدهم وسيقانهم، ويدفعهم دفعاً إلى المغتسل أو التحقيق، سماه المعتقلون (plunger) أي مضخة تنظيف المراحيض.

سمعنا أحد الجنود يناديه من بعيد: (Hey plunger)!

هذه القصص التي يرد فيها المعتقلون الاعتداء عن أنفسهم باعتداء مثله يعد استثناء من الوضع العام المتسم بالاضطهاد والعسف والعجز عن الرد، ولو افترضنا أن المعتقل كان أسداً في قفصه لاستطاع طفل إيذاءه، فليست البطولة في تسلط السجان إنما البطولة في تجلد السجين، لقد حرصت على تقصي هذه المواقف المنتفضة على الطغيان أكثر من تقصي الطغيان نفسه، فالتاريخ لا يوثق بمداده آلاف السياط المنهالة على ظهر المظلوم بيد الجلاد بقدر ما يوثق بإجلال كلمة المظلوم وهو يقول للاستبداد بملء فيه: (لا).

كنا متعبين للغاية بعد مواجهات محتدمة بيننا وبين قوات الشغب وعدد كبير من الجنود الذين جاءونا من العنابر الأخرى كتعزيزات أمنية لفرض الهدوء، استلقى كل واحد منا على السرير الحديدي دون أن يكون لدينا أي شيء في الزنزانة، لقد انتزعوا منا الفراش والحصير والشرشف والنعال والكوب وقطعة الصابون الصغيرة والمناشف، بقينا محرومين من كل شيء إلا الملابس التي على أجسادنا، ومن شدة التعب لم نبال بآلام الظهر التي يسببها الحديد البارد تحتنا، كان الأخ الذي عن يميني من اليمن والذي

عن يساري من باكستان والذي أمامي من السعودية، كان في العنبر إخوة من المغرب وليبيا ومصر وسوريا وأفغانستان، أخذت أنظر إلى سقف الزنزانة متأملاً حالنا، ألا نمثل واقع الدول الإسلامية؟ كل منا يمثل وطناً اقتطع من الأمة الكبرى، وأحاطوه بسياج حديدي قاس كقساوة قلب المحتل الذي يسلب كل معاني الإنسانية من أجل مصالحة التوسعية وأطماعه الاقتصادية؟

في بداية قدومنا غوانتانامو كنا نلاحظ الجنود حين يوزعون علينا المناديل الورقية مع كل وجبة أنهم يلفونها على أكفهم خمس لفات ثم يقطعونها ويعطوننا إياها، ويرفضون إعطاءنا المزيد عند الحاجة، ظن بعض المعتقلين أنها بخلاً منهم، قلت: لا أظن ذلك، بل الأمر مدروس بعناية، لأني أرى كل الجنود يلتزمون بنفس عدد لفات المناديل، أظن أن كل شيء في هذا المعتقل يخضع للدراسات النفسية، اعتبرني الأخ مبالغاً في ظني، وفي عام (٢٠٠٥) سمحوا للمحامين بلقائنا فجاءني بأوراق من الجرائد الأمريكية عن غوانتانامو، فيها أن الجيش الأمريكي قد تعاقد مع أطباء نفسيين لوضع خطة تهدف إلى كسر معتقلي غوانتانامو، وأن كل ما يحدث في هذا المعتقل خاضع لهذه الخطة، سواء في التحقيق أو الظروف المعيشية، ثم ذكروا مثالاً لدقة السياسة النفسية أنه حتى عدد لفات المناديل التي يأخذها المعتقل مع كل وجبة خاضعة لهذه الخطة، اعترتني الدهشة وأنا أقرأ في المقالة هذا المثال الذي كان محل النقاش!

أدرك الأمريكان أنهم أخطأوا حين لم يعطوا المعتقل إلا الحد الأدنى من الأغراض، لقد أشعروه أنه لا يوجد لديه ما يخسره، فلابد من إعطائه المزيد من الامتيازات وإن كانت بسيطة ليساوموا المعتقل عليها، فمنحوه بعض الأغراض التي يعتبرها الإنسان العادي لا قيمة لها إلا أنها تمثل الكثير للمعتقلين كفرشاة الأسنان مثلاً أو البطانية أو الكتاب، فكان المحققون يساومون المعتقلين للتعاون معهم على أتفه الأمور، فإن كان من العيار الثقيل كانت المكافأة أكبر.

في بداية الأسر كنت أظن أن أذية الجنود لنا إنما هو اجتهاد منهم بعيداً عن أعين الضباط، وإذا بي أكتشف الحقيقة سريعاً، قلت للمحقق يوماً: لماذا لا تلزمون الجنود باتباع القانون وعدم استفزازنا وإيذائنا؟

ابتسم ابتسامة خبيثة وقال: أنتم كالقطة التي وقعت في يد طفل مشاكس، فهو يخنقها تارة ويسحب ذيلها تارة، لا يستطيع الأب السيطرة عليه.

قلت له: إذا كان الجيش الأمريكي لا يسيطر على ضباعه فلماذا يولول حين يفعل أعداؤه بأسراه الشيء نفسه؟

في ستة معسكرات كلها انفرادية إلا المعسكر الرابع الجماعي، يتنقل المعتقلون بينها بآلية مدروسة، تحديد المعتقل والزنزانة التي سينتقل إليها لا يتم عشوائياً غالباً، كل حالة تدرس على حدة، يتميز الأمريكان بالتخطيط المسبق والالتزام بالتنفيذ حسب الخطة، لكن هذا الذكاء الإداري يتحول إلى مكر خبيث، والبراعة في التخطيط تتحول إلى جريمة منظمة حين يكون الهدف شريراً، كانت منظومة غوانتانامو تهدف إلى كسر المعتقل من الداخل، ليسهل عليهم غسل المخ ثم إعادة برمجته من جديد، لقد كان هذا الترويض قراراً، ثم تحول بعد سنين إلى سؤال: من سيروض من؟

إن هذا البغض المتجذر في نفوس شعوب الأرض للولايات المتحدة ليس حسداً على تطورها التكنولوجي ولا قوتها العسكرية بل لاستخدامها هذا التطور والقوة في استعباد الآخرين الذين يترقبون دورة الزمن الذي سمح لرعاة البقر أن يرعوا أمم الأرض في غفلة صراعها مع بعضها، ماذا لو استخدم الأمريكان قدراتهم الفذة في تحقيق العدالة ونشر الخير؟ سيكون العالم أجمل بكثير، تلوح أمامي أمنيات في هداية هذه الأمة الأمريكية التي جاء دورها للجلوس على عرش العالم الذي سبقها في الجلوس عليه جم غفير من أمم بائدة وحضارات مندثرة، هذا العرش الذي ستزاح عنه لغيرها في قادم الأيام كما عودتنا سنن الكون.

ألتفت اليوم ورائي وإذا بكل هذه الآلام أصبحت مجرد ذكرى عابرة لم يبق منها سوى قصص تروى، التي تعظنا بأن الدنيا وهم كبير غرنا بوعده ووعيده!

لقد كان الأمريكان قادرين على قتل جميع المعتقلين أو تقطيعهم إرباً منذ اللحظة الأولى لاعتقالهم، كانوا قادرين على بتر الأطراف وشوي الأجساد وقلع العيون كما يفعل السفاحون، لكنهم أرادوا غوانتانامو ميداناً لترويض الخيول الجامحة وليس ميداناً لقتلها، وأي نجاح في ترويض خيول بترت قوائمها أو قطعت أوصالها؟ لا يوجد لدى سفاح الشام ما يخسره، إنه يمثل التوحش البدائي في أغبى صوره، أما الولايات المتحدة فهي تعلم أنها لكي تظل متربعة على عرش العالم فإنه يجب عليها أن تتربع على عرش القيم الإنسانية ورفع شعار الحرية ولو بالادعاء الكاذب، لذلك دائماً يفشل السفاح الغبي بينما ينجح غالباً السفاح الماكر الذي لا يرتكب الانتهاكات والخروقات إلا بقدر ما يحتاج إليه، إنهم يريدون القلب لا الجسد، يريدون أن يستخدموا هؤلاء في صراعهم لا أن يخرجوهم من الحلبة، كانت طريقة التعامل مع المعتقلين استثنائية، لم تكن مجرد قذف المعتقل في زنزانة انفرادية وتركه وشأنه، بل مراقبة حركاته وسكناته وهمساته مراقبة شديدة لحظة بلحظة مدة بقائه في الأسر، لم يقتصر تواصل المعتقل مع المحقق والمحامي، بل حتى مع الجنود والضباط والجنرالات الذين كانوا يحاورونهم

في الأفكار ويتفاوضون معهم في المشاكل، مرت علينا فترة أرادت فيها إدارة المعتقل بناء جسور ثقة بين الضباط والمعتقلين ليفهموا طبيعة المعتقلين بشكل أفضل، حتى صار بعض الجنود يطلب من المعتقلين أن يتوسطوا لهم عند العقيد كي يحل مشاكل الجنود، قال لي أحد الجنود: تستطيعون الوصول إلى العقيد والجنرال أكثر منا!

كانت حقبة خاطفة لم تدم طويلاً، كانت تكتيكاً ذكياً من الضباط الذين أرادوا فهم هذه العقليات حين تتفاوض وحين تحاور لاعتقادهم أنهم عينة لآخرين منتشرين في العالم، يريدون أن يفهموا هذا اللغز المحير، عندما نجحوا في اعتقال هؤلاء الرجال عن طريق المكر والخداع والبيع والشراء لم يتوقعوا أبداً أنهم يشكلون أكثر من خمسين جنسية، كانوا يتعجبون من قوة ترابطهم وتآخيهم على الرغم من اختلاف الجنسيات والأعراق، ماذا لو انتقل هذا الترابط الوثيق إلى الأمة ككل؟ لقد كانوا يحملون هم أمتهم، ماذا لو انصهرت الأهداف القطرية والقومية في هدف واحد يتمثل في إعادة مجد أمتهم؟ لم يكن الأمريكان يتعاملون باستخفاف مع هذا النوع من التفكير أبداً، سألني أحد المحققين يوماً: كيف ستعاملوننا لو عادت أمتكم لقيادة العالم؟

أجبته: ستعود حتماً، لقد صدقت نصوصنا الشرعية حين أخبرتنا بسيادتنا على العالم دهراً طويلاً، وصدقت حين أخبرتنا بعثرتنا التي نعيشها اليوم، وستصدق حين أخبرتنا أنها عثرة لن تطول.

: كم ستستغرق من الوقت؟

: لقد علمتنا سنن الله أن الأمر لا يتعلق بمرور الوقت بل باستفاقة القلب.

كان جلياً من خلال طبيعة أسئلة المحققين أنهم متوجسون جداً من كَرَّة المسلمين بعد فَرَّتهم، وأن مهمتهم هو تأخيرها قدر استطاعتهم، ومن الواضح أيضاً أنهم لا يولون أهمية حقيقية للجيل الحالي الذي اعتاد الخنوع والخضوع، لكنهم يخشون جيلاً لا يزال في رحم الغيب، جيلاً يقدس الكرامة كتقديس جيل اليوم للسلامة.

جنود المارينز:

بعد أن كانت (MP) وهي اختصار للشرطة العسكرية (Military Police) هي من يدير منشأة الاعتقال قرر البنتاغون أن تكون إدارة المنشأة في يد الجيش الأمريكي، ثم قرر بعد ذلك إرسال قوات المارينز وقوات البحرية كمجموعات يشاركون في إدارة هذا المعتقل ليكتسبوا الخبرة في التعامل مع المعتقلين، كانت المواجهات على أشدها، قوات الشغب هنا، تراشق بالسباب بين الجنود والمعتقلين هناك، معتقلون يعانون آلام

الضرب والعقوبات الشديدة، سلاسل تسحب من هنا، ضرب للزنازين هناك، كانت قوات المارينز في بداية أمرها يغلب عليهم الكبر والغرور، ليس على المعتقلين فحسب بل حتى على الجنود سواء من الجيش أو البحرية، يرون أنفسهم أذكى وأقوى، كانوا مبغضين من قبل الجنود الأمريكان والمعتقلين على حد سواء، لذلك كانت الاحتكاكات كثيرة بينهم وبين المعتقلين الذين يرفضون هذا النوع من التعامل، جذب أحد المعتقلين ذراع جندي مارينز كان مغتراً بقوته من فتحة النافذة بعنف فخلع كتفه، كان المارينز ينظرون إلى المعتقلين في خيلاء وهم يمشون في الدهليز بين الزنازين وكأنهم الجنود المنتصرون على قوات المحور في شاطئ النورماندي!

كان أحد الجنود المارينز يؤذي المعتقلين ويهينهم، فقابله بعض المعتقلين بالضرب والرش من ماء المرحاض، فجاء إلى أحد المعتقلين وقال له في مسكنة: قل لإخوانك إني أسلمت فاطلب منهم التوقف عن أذيتي!

قال له المعتقل: نحن لا نؤذي من لا يؤذينا ولو كان غير مسلم، فتوقف عن أذيتنا بدل ادعاء الإسلام الذي تخالفه بظلم الآخرين!

توقف الجندي عن أذيتنا لفترة وجيزة ثم عاد لها بعد أن سنحت له الفرصة وأعطتهم الإدارة المزيد من الصلاحيات.

قيد جنود المارينز أحد المعتقلين السعوديين ليخرجوه إلى قفص المشي، أمر الجنود المعتقل أن يمشي ووجهه إلى الأمام دون أن يلتفت باتجاه زنازين المعتقلين الآخرين، لكن المعتقل اعتبرها استعباداً فاستمر بالنظر، فما كان من الجندي إلا أن سحب لحية المعتقل بكل ازدراء ليجبره على النظر إلى الأمام، بصق المعتقل عليه فأرادوا دفعه على الأرض فلم يستطيعوا، وبصعوبة بالغة أدخلوه قفص المشي ليحلوا القيود وينزعوا السلاسل عنه، كان في القفص المجاور أحد المعتقلين وقد فارت دماؤه غضباً وحميةً حين رأى الجندي يسحب لحية المعتقل، كان جنود المارينز قريبين من المعتقل الآخر وهم يفكون القيود عنه، فاستغل الوضع وأخذ نعليه ثم ضرب بهما وجه جندي المارينز انتقاماً للأخ الذي استمر هو بدوره في البصق عليهم، ثم ضربه ضربة ثانية بنعليه على وجهه وثالثة وخامسة، ووجهه يرجع إلى الخلف مع كل ضربة ويرتد لتستقبله ضربة جديدة وهو مذهول، اضطرب الجنود ولم يدروا ما يصنعون، فلا هم يستطيعون فك القيود عن المعتقل ولا إغلاق باب القفص عليه، وفوق كل هذا يضربون بالنعال على وجوههم! فجاء جنود الإسناد وأنقذوا المارينز من هذا المأزق، ومع توالي ردود الأفعال من بعض المعتقلين زال الكثير من كبر المارينز وغرورهم وتغيرت معاملتهم مع المعتقلين إلا أنهم استمروا في كبرهم وغرورهم على الجنود الآخرين الذين لا يملكون نعال المعتقلين!

المطرقة:

الحاجة أم الاختراع، اخترع بعض المعتقلين في انفرادي العقوبات ما أسموه (المطرقة) كوسيلة للتعبير عن رفضهم التعذيب الممنهج وسياسة الإهانة والإذلال في المعتقل، يخلع المعتقل السروال الطويل ويبقى في السروال القصير (الشورت)، ثم يعقده بطريقة معينة ويضرب بها المغسلة ضربات متتالية لفترة قد تصل إلى ساعات، استطاعوا بهذه الطريقة كسر المغسلة الحديدية الملحومة بطريقة محكمة، توالي الضربات تفك اللحام!

كان الجنود في البداية يستهزئون بهذه المطارق، بل كان بعضهم يتظاهر بالاستمتاع والرقص على صوت الضربات، لكن كل هذا تبخر بعد دقائق معدودة، استطاع معتقل كويتي أن يخلع المغسلة من مكانها بكثرة الضرب بالمطرقة ثم أرجعها مكانها كما هي، صاح عليه الجنود لأخذه إلى التحقيق وهم لا يعلمون شيئاً عن المغسلة، استغل الفرصة وبدأ يصرخ عليهم متظاهراً بالغضب وهو يقول بلغة إنجليزية ركيكة: (تكلموا معنا باحترام)، ثم توجه غاضباً إلى المغسلة وأخذ يركلها برجله ثم خلعها وهو يصرخ، فظن الجنود أنه خلعها لتوه بسبب الغضب، ولم يعلموا أنه أتقن الدور في التمثيل، فهربوا مذعورين وطلبوا مجموعة إمداد لتقييد هذا الرجل الحديدي الذي استطاع أن يخلع المغسلة بيديه!

أصيب معتقل من مكة بمرض شديد بسبب سوء الطعام جعله يستفرغ طوال الليل، طلب المعتقلون علاجه فرفضت الإدارة، استمر تقيؤه حتى بدأ يتقيأ دماً، حينها قرر المعتقلون في العنبر أن يفعلوا شيئاً لأخيهم، بدؤوا بصنع المطرقة وقاموا بضرب المغسلة احتجاجاً على عدم تقديم العلاج لأخيهم الذي أوشك على الهلاك.

استطاع البعض كسر المغسلة والنافذة فأعلنت إدارة المعتقل حالة الاستنفار، وهي حالة مرهقة جداً للجنود مما دفعهم إلى طلب العيادة لتعطي المعتقل المريض علاجاً كي يهدأ بقية المعتقلين، تم نقل المعتقل إلى العيادة فسكن المعتقلون وهدأت ثائرتهم، جاء الجنود بكل لطف يطلبون من المعتقلين تسليمهم الأشياء المكسورة حتى لا تهدد أمن المعسكر، لم يكن منشأ هذه المعاملة اللطيفة إنسانياً بل تفادياً لاستخدام قوات الشغب التي تزيد من عبء المسؤولية الملقاة عليهم، وكعادة الأمريكان بعد أن أخذوا ما يريدون باللين تغيرت المعاملة إلى الشدة مرة أخرى فعاقبوا الجميع بأخذ سراويلهم وإبقائهم بالشورت، كثرة هذه العقوبات أصابت الكثير من المعتقلين بالأمراض كالبواسير وآلام المفاصل بسبب نومهم على الحديد البارد لفترات طويلة تصل إلى أسابيع وأشهر.

يمتلك الأمريكان صفات جيدة حري بأمتنا الاتصاف بها، كانوا يتعلمون من

أخطائهم فبعد أن كسر المعتقلون النوافذ جاؤوا بنوافذ غير قابلة للكسر، وحين استطاع بعض المعتقلين انتزاع القفل جعلوا القفل بعيداً عن متناول اليد وهلم جرا، لم يتركوا ثغرة استطاع المعتقلون استغلالها لصالحهم إلا تفادوها.

كانت الإدارة تشغل الجنود بالأعمال على مدار الساعة ولو كانت تافهة، لدرجة أنهم كانوا يأمرونهم في أوقات فراغهم بلف المناديل أربع لفات ثم قطعها وتجهيزها للمعتقلين إذا طلبوها، وأحياناً يأمرونهم بردها كما كانت مرة أخرى حتى يبقى الجندي في عمل مستمر، لأنهم يعلمون أن فراغ الجنود يسبب مشاكل بينهم، وكانوا يهتمون بالخطط والالتزام بتنفيذها والتقيد بالنظام واحترام الوقت، وهي كلها من تعاليم ديننا، ومن المحزن أن يتحمل الإسلام تبعات تخلف المسلمين عن الالتزام بقيمه.

الذبابة:

كنت أصلي فأزعجتني ذبابة، أردت أن أهشها فلم أستطع، فكلما أبعدتها عن وجهي رجعت مرة أخرى، فخشيت أن تفسد علي صلاتي بكثرة الحركة فتجاهلتها، كان ذلك درساً لي في التعامل مع الجنود، كنت ضد إشغال المعتقلين أنفسهم في رد عدوان الأمريكان في كل صغيرة وكبيرة، لأن الظلم جزء لا يتجزأ في المعتقل، وإشغال النفس بدفعه كله سيحرمنا مما هو أعظم، إن صقل مرآة القلب وتهذيب النفس وتشذيب ما يند منها أهم عندي من الانشغال بمطاردة البعوض، كنت أروض نفسي على ذلك فأنجح مرة وأفشل مرات، يتسع صدري أحياناً ليرى مضايقات الجنود مجرد تفاهات لا تستحق الالتفات إليها، ويضيق أحياناً ليحترق بنار القهر، ولم تطوع نفسي إلا في السنة الأخيرة في غوانتانامو، كنت أعيش حالة ملكية وأنا أرسف بقيودي، أرى أذى الجنود قضاء مكتوباً يمحصني لا خصماً يدعوني للمبارزة، كنت كالمجتاز طريقاً يعترضني فيه المجانين، همي تخطيهم لا مغالبتهم، وأن التحدي الأعظم هو أن أخرج من هذا الأسر بإيماني، كنت أعلم أن العمر أغلى بكثير من أن أصرفه بالتفكير في السقط الممتهن، وأن الفوز بالسباق أعظم بكثير من الانشغال بالكلاب النابحة، لكنني لم أستطع أن أعيش ما أعلمه إلا بعد أربع عشرة سنة من الترويض والتدريب، فالعلم شيء وامتثال ما تُعُلِّم شيء آخر تماماً، أدركت أننا نحتاج لسنين طويلة في ترويض أنفسنا بالعلم الذي قضينا أعمارنا في جمعه.

أنا فخور:

في الشهر الأول لقدومنا غوانتانامو دخل عنبرنا رجل مسن أمريكي قد أزال رتبته، لكن من الواضح أنه ذو رتبة عالية، علمنا ذلك من احترام الجنود له وتعاملهم معه،

أخذ يمشي في العنبر وهو يجول ببصره ذات اليمين وذات الشمال يقلبها في المعتقلين القابعين في زنازينهم الانفرادية، منهم من كان يصلي ومنهم من كان يقرأ القرآن ومنهم من يتحدث إلى أخيه في الزنزانة المجاورة، توقف أمامي ثم أدخل أصابعه داخل فتحات زنزانتي مصافحاً فصافحته بأصابعي، سألني وهو يبتسم ابتسامة مصطنعة: كيف حالك؟ قلت: الحمد لله (Praise be to Allah)

فسألني: (What you feel?)

قلت: (proud) فخور.

اكفهر وجهه مستغرباً: لماذا؟

: لأني لم أفعل جريمة تستحق هذا التعذيب، إغاثة المستضعفين عمل نبيل وأتشرف أن أضحي من أجله، كل لحظة في هذا المعتقل النازي سيزيدنا إيماناً ويكشف حقيقتكم للعالم.

التفت الضابط إلى الزنزانة المجاورة التي كان فيها شاب في مقتبل العمر، حيي خلوق من الجزائر، أدخل أصابعه يريد مصافحته كما فعل معي، لكنه تفاجأ برفض الأخ مصافحته، التفت الأخ إلي وهو يقول غاضباً: قل له أنا لا أمد يدي لقاتل أخي، صعق الضابط بهذا الرد من شاب في مقتبل العمر في قبضة الولايات المتحدة ويخاطبهم بهذا الاستعلاء!

كن دودة:

في عالمنا يعد الظلم جريمة ما لم ترتكبه جهة رسمية لتتحول الجريمة إلى قانون يجب أن ينفذ، كانت إدارة المعتقل تعتبر أي تلكؤ في تنفيذ القوانين عصياناً وتمرداً، فالقوانين حتم يجب تنفيذه دون نقاش كأوامر الإله، فسموا عقوبة رفض القوانين: (Discipline)، أي التأديب والانضباط، وكأن المطالب بحقه مجرد فوضوي متمرد على النظام يجب أن يؤدب لتقويم سلوكه!

إن أعظم انتصار للظالم حين ينجح في التلاعب بالكلمات لقلب المفاهيم وإقناع القطيع بأن المطالبة بالحق يعتبر فتنة وهرجاً يجب تفاديه، إن القضاء على الفكرة أهم من القضاء على الفعل الناشئ عنها، إنهم يوهمون المظلوم أن دفاعه عن حقه يعد جريمة يعاقب عليها القانون، القانون الذي اقتنعت الجماهير المغفلة أنه المتحدث باسم الأخلاق والمثل والمبادئ، لقد أقنعوهم أن التخلي عن القوة شهامة، والاستسلام سلام، وبذلك نجحوا في كسر كل قوة تقف أمامهم حتى لا يبقى من يملكها إلا هم، ليتسنى لهم استعباد البشر ويحولوهم إلى قطيع من الأغنام لا تملك ناباً ولا مخلباً،

تنقاد بكل وداعة إلى المذبح، يقولون: كن متسامحاً كن مهذباً كن مسالماً، لكنك حين تتأملها ملياً فستجد معناها الحقيقي: كن جباناً كن خَوَّاراً كن خاضعاً، تماماً كالبساط يطؤه الذاهب والآتي، حتى القطة لا تكنها لأنها تكشر عن نابها عندما ينتابها الخطر، حتى الدجاجة لا تكنها لأنها تبارز بمنقارها من يعتدي على فراخها، بل كن كالدودة يدوسها الناس بأرجلهم فتموت بصمت لتثبت لهم أنها مسالمة.

الدرس:

يقوم المعتقل على سياسة الإشغال المستمر للمعتقلين والجنود على حد سواء، بين الفينة والأخرى يُفَعَّلُ قانون جديد مهين، القوانين تتغير باستمرار، إهانة القرآن تارة وتفتيش العورات تارة وخفض درجة حرارة الزنازين أو رفعها، الامتناع عن المشي والمغتسل لأشهر، الإضراب عن الطعام، رفض تسليم الصحون الورقية لتستدعي قوات الشغب فينتزعونها بالقوة، والكثير من المشاكل التي يضطر المعتقلون إلى مدافعتها بما يستطيعون، وما تنتهي مشكلة حتى تبدأ أخرى، ويغرق المعتقلون في ردات الفعل التي تمتص ما تبقى من طاقاتهم ثم تقذفهم في زنازينهم ذابلين، كل مشكلة منها تنهك البدن وترهق الروح وتزيد البلاء بلاء، ينجح المعتقلون أحياناً في تغيير القانون ويفشلون أحياناً، انتقد بعضُ إخواني عدمَ مشاركتي في الكثير من المواجهات مع الجنود إلا ما كان متعلقاً بالقرآن أو ما يكون بالغ الأهمية، فأفصحت له أني أستخدم في هذا المعتقل تكتيك السلحفاة التي تدخل رأسها وأطرافها داخل الصدفة عندما تشعر بخطر وشيك لا قِبَلَ لها بدفعه، ولا تخرج يدها إلا لتدفع عن نفسها بضربة أو ضربتين ثم تختبئ داخل صدفتها التي تستقبل مخالب عدوها وأنيابه، قلت له: أنا لا أدري كم سأبقى من سنين في هذا المعتقل، وأريد الاحتفاظ بقوتي لذلك الحين، وحين أستهلكها بالمشاكل مع الجنود على الصغيرة والكبيرة فلن أقوى على الوقوف أمام هذا الطوفان طويلاً، أنت الآن تشعر بالحيوية والطاقة لكني أفكر في حالك بعد سنين حين تخبو شعلتك فلا يبقى من أثرها إلا دخان ضئيل متبعثر!

لقد كان أشدّ المعتقلين شكيمة، وأحدهم بأساً، فإذا بعنفوانه يذبل مع السنين شيئاً فشيئاً، رأيته بعد عشر سنين خائر القوى، كليل النشاط، يجنح إلى الهدوء ويتجاهل استفزازات الجنود والقوانين الجائرة، أربعة عشر عاماً من الصراع الطويل المتواصل ليل نهار مع عدو يتحكم بكل شؤون حياتك، لقد استنفذ طاقته فوهن صموده، لم يقتنع فأقنعته الأيام، يتغير الجنود باستمرار ويبقى هو يناطح بقرنيه الواهيين صخرةً صلداء كلما تكسرت جيء بصخرة جديدة، قلت له: لو خرجتُ من أسري بإيماني وعقلي فقد انتصرت، أما الإذلال والضرب فأثره زائل لا يزيدني إلا إيماناً بالله ومعرفة بهذا التنين المتوحش الذي يحرق العالم بنار فمه ويوهمهم بأنه يضيء لهم.

جاء القرار بإطلاق سراح أحد الإخوة المعروفين بالتمرد على قوانين المعتقل الجائرة، كنت أحبه ولازلت لشجاعته وصبره وتضحيته لإخوانه مع حدة كانت فيه، كان كثيراً ما يلوم إخوانه على عدم الانغماس في المواجهات مع الجنود في الصغيرة والكبيرة، كنت أنصح بتوفير الجهود للمشاكل الكبيرة والاهتمام بتقوية الإيمان لكن القلة رأتها تخلياً عن المسؤولية، قلت له قبل إطلاق سراحه بيوم: كم هي فرحتي أن أرى اليوم الذي ستجتمع فيه قريباً بأهلك وأحبابك، لكني أتمنى أن لا تنسى الدرس وأنت تشرب القهوة الساخنة بين أحبابك أن هناك الكثير من إخوانك الذين كنت تلومهم لا يزالون يعذبون هنا، فإن عذرت نفسك عن نصرتهم لعجزك وأنت حر فإنهم أحق بالعذر وهم أسرى، وحين تخرج ستدرك أنك كنت واقعاً تحت تأثير دائرة ردود الأفعال، ثم ودعته فرحاً لانتهاء معاناته الطويلة.

محرقة الحسنات:

أكثر المعتقلين يتحاشون التعامل مع النساء عموماً إلا في حالات الضرورة كأن يكون الجنود خبثاء فيضطر للتعامل معهن، وقد يكون الأمر مقصوداً من الإدارة لدفع المعتقلين إلى الإكثار من التعامل معهن لبناء علاقة مع الأيام قد تساعدهم في اختراق الجدار الإيماني الذي يحول بينهم وبين تحقيق أهدافهم.

أَدْرَكَتْ إدارةُ المعتقل أن المرأة أقدر دائماً على الوصول إلى ما لا يستطيع الرجل الوصول إليه، فاستخدمت العنصر النسائي في برنامجها لترويض المعتقلين، وتتعمد أحيانا الإتيان بجنديات حسناوات يقمن بحراسة المعتقلين ومحاولة إغوائهم، وعند التقييد كن يتعمدن الاحتكاك بأجساد المعتقلين ويلامسنهم بمواضع حساسة من أجسادهن، في جو متوتر مقلق مشحون بالشهوة، قد غرز الشيطان فيها رايته ونادى الجميع: هل من مبارز؟

لم تستخدم النساء اعتباطاً بل بطريقة مدروسة تدريجياً، كانوا يأتون للمعتقل بمجلة جنسية فإذا رفض المعتقل جاؤوا بمجلة أخرى أقل قليلا، فإذا رفض جاؤوه بمجلة فيها رسوم جنسية وليست صوراً، وإذا رفض جاؤوا بمجلة فيها صور تماثيل منحوتة جنسية، كانوا يوزعون علينا روايات الحب والغرام ليروا من هو المهيأ للانتقال به إلى الخطوة التالية، لقد كانوا موقنين أننا سنستسلم في النهاية لأن قطرة المطر لا تفتت الصخرة بالعنف بل بالتكرار!

كان للمحققين استقلالية نوعاً ما في قراراتهم عن إدارة المعتقل، فإدارة المعتقل تابعة للجيش أو للبحرية غالباً، أما المحققون فتابعون لـ (CIA) والـ (FBI) والـ (NSA)

واستخبارات الجيش، كل فرقة منهم تحاول أن تثبت نجاحها باستخراج المعلومات أو النجاح بالتجنيد، وصل التنافس بينهم أحياناً إلى حد العداء والحسد، كنت أرى عميل الـ (CIA) وهو يصف استخبارات الجيش بأنهم أغبياء، بينما يصفهم استخبارات الجيش بأنهم مدللون يقطفون ثمار ما تعبوا هم في زراعته.

كثَّف الأمريكان استخدام العنصر النسائي في التحقيقات، تَغَنَّجَتْ محققة مع أحد المعتقلين فلم يُجْدِ نفعاً، فوضعت مُرَطِّباً في يدها، ثم أدخلت يدها تحت قميص المعتقل المقيد وأخذت تدلكه بطريقة جنسية لتستثيره، بصق المعتقل عليها فضربه الجنود وكسروا سِنَّه.

معتقل آخر حاولت المحققة إغواءه فلم تنجح، فأدخلت يدها داخل سروالها الداخلي ثم أخرجت دم الحيض ومسحت به وجهه ورأسه.

كنا في المعسكر الرابع حيث يُكَثَّف استغلالُ العنصر النسائي في الإغواء، جاءني معتقل في مقتبل العمر، نظر إلي نظرة متعبة مرهَقَة تشي بصراع مرير بين غريزته الطبيعية ومبادئه الإيمانية، ثم قال لي كأنه يجر الكلام جراً: تعبت!

: ما لك؟

: طلبت الجندية مني إعطاءها المكنسة بعد أن انتهيت من التنظيف، ناولتُها الأغراض فَمَسَحَتْ على يدي مسحة حانية ثم نظرت إلي بابتسامة تحمل ألف معنى.

أطلق تنهيدة طويلة متعبة، لقد ضاق بالإغراء المستمر يوماً بعد يوم، أصبحت الجنديات يقطعن العنبر ذهاباً وإياباً كحركة البندول الدؤوبة دون توقف، همسات ناعمة، نظرات ناعسة، تغنج مثير يوقظ العين الطامحة ويستدعي الشهوة المختبئة في أعماق النفس، هاربة من الجاذبية التي تدعوها إلى التمرد على الفضيلة وهدم أسوار البيوت ليتحول فراش الزوجية الطاهر إلى مرعى مباح لكل سائمة، إنْ صَبَرَ اليوم فلن يستطيع غداً، وإن غض طرفه غداً فسيعجز بعد غد، كم صورة خليعة في اليوم الواحد تتراقص أمام العين العطشى وفي ميدان القلب تستعر حرب ضروس.

كانوا يطبقون تكتيكاً شيطانياً يستخدم الحرير بدل الحديد، ومن ذا الذي يزعم أن مفاتن المرأة نوع من التعذيب؟! إنه السقوط دون أن يخلف وراءه أي أثر للتعذيب، كانت قطرات الشهوة تنزل على صخرة الإيمان فلا تزال به قطرة قطرة، نظرة نظرة، حتى تفتت صخرته، من يستطيع أن يغض قلبه كما يغض طرفه عن هذا الجنس المسعور الذي يسيل لعابه على أفئدة تتوقد ثورة؟

تستهويه وتغويه حتى إذا تمكن حبها في قلبه تَمَنَّعَتْ ليتملكه حب مجنون يقلبه بين يدي الغرام والهيام، ولقد رأيت من كان يُعَنِّفُ على النظرة وإذا به في لجة اليم قد انكسر مجدافه وانخرق قاربه حتى تجاوز غض البصر إلى إطلاق البصر ومن إطلاقه إلى مده، ومن النظر إلى اللمس، ومنه إلى. . . ، وتحول سمته طيشاً ومروءته اسْتِمْراءً للخوارم، حتى أصبح في حال غيابها يظل ينظر إلى صورتها في خياله المتمرد، كان يحفظ القرآن، كم هو محزن أن أصدر الجملة السابقة بكلمة (كان)!

لقد وعظني حاله أيما موعظة، جعلتني أتعامل مع إيماني تعامل الغلام مع عصفور في يده يخشى إن أرخى كفه في لحظة غفلة رفرف بعيداً بلا رجعة!

فكم غارق في مستنقع الرذيلة حتى قيل هلك فتسلل إلى مسامعه في اللحظة الأخيرة نور الله فانتفضت في قلبه بذرة تحمل في داخلها سعادته، وكم ممن حفظ القرآن وتعلم العلم وظهرت عليه بشاشته حتى قيل فاز وإذا بخبيئة كامنة في دهاليز قلبه أردته صريعاً مضرجاً بدمائه.

قال لي: لقد تعبت.

نظرت في عينيه فرأيت فيهما معركة محتدمة حامية الوطيس، ارتفع فيها الغبار فلم أعرف من المنتصر.

قال وهو ينظر إلي نظرة حائرة: أنا مؤمن بما أعده الله للمؤمنين هناك لكني لا أقوى على رؤية ما وراء الصورة الماثلة أمامي!

نظرت إليه مشفقاً حين ألغى آخر كلامه أوله، وهل الإيمان إلا رؤية ما وراء الصورة الماثلة أمامنا؟ ما الإيمان إلا أن أترك الحلوى التي أراها للمائدة التي وعدنيها أبي غداً، ما الإيمان إلا أن يقف الطفل على حافة جرف فيرى أباه أسفله ماداً إليه يديه مبتسماً فيقذف بنفسه بين يديه ثقة بوالده الرحيم الذي لن يتركه يهوي في وادي الهلاك.

كان جلياً أنه قد بلغ الغاية في العطش وأنه مهما بلغت كلمات الوعظ من البلاغة والفصاحة فلن تحول بينه وبين كأس العيون يروي بها ظمأه، ولكي تحيا الكلمة لابد أن تزرع بذرتها بعيداً عن العواصف التي تجعل فرص بقائها تتضاءل، إن الفصاحة والبلاغة في هذه المواقف تقف عاجزة عن تقييد ذلك المارد الذي يريد كسر قمقمه لينطلق إلى فضاء الشهوة ينغمس فيها انغماساً، الكلمات البليغة والقصص العاطفية تدغدغ الأسماع لكنها لا تقوى على بعث الروح الميتة من لحدها ولا المشلولة من فراشها ما لم يفتح القلب لها بابه، كانت الجندية تمسك المعتقل من ذراعه اليمين وأخرى من اليسار ثم

تميل قريباً من أذنه ليهيئ دفء أنفاسها مخدعاً تتعانق فيه همس كلماتها ويقبل بعضها بعضاً، وعين الشهوة عمياء لا ترى حقيقة الصورة بل ما رسمه الخيال مدعياً أنها هي، ترى عين ماء في البيداء فإذا اقترب منه تبدى لها سراب وهم ظنت الري فيه، هنا تتجلى عظمة القرآن حين لا يكتفي ببيان مراد الله دون أن يملأ قلب المؤمن بحب الله، إنه لا يأمر القلب بفتح بابه دون أن يكسر أغلاله، إنه لا يأمره قائلاً: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ دون أن يناديه مبشراً: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وجدت أن الاستغراق في معاني القرآن وجمع النفس على مراد الله هي اليد القوية التي تطرق باب القلب ولها يفتح، إن كلمات القرآن ليست ككل الكلمات، إنك حين تضعه بين يديك وتصرف عنك شواغل الأرض وتخلو به.. به وحده.. دون أي شريك ينافسه فيك، تتحول كلماته إلى نور يتغلغل في أعماق النفس، وإلى أجنحة ترفرف بك عالياً، ويبدأ إيقاع الموسيقى الصاخبة التي تعزفها الشهوة يتلاشى ويضمحل ويستعيد الإيمان قوته من جديد.

لقد حاول الأمريكان أن يصنعوا من إغراء المرأة سهماً شيطانياً يقتل كل المعاني الملائكية في قلوب الأسرى، ولئن هرب يوسف الصديق من فتنة القصر إلى ظلمة السجن فما يصنع من وضعت فتنة قصره في ضيق أسره؟ وأي فتنة أشق من أن تصرف بصرك عن ألف امرأة تفتح لك صدرها؟

ولله قلوب كنت أراها صامدة شامخة أمام عيون فاتنة ترشقهم بسهام لحظها دون شفقة، ولولا أني رأيتهم بعيني لظننتهم من أساطير القصاص.

قد يحتاط الإنسان من عدو أمامه يتحين منه غرة، لكن ماذا يصنع من أحاط به الأعداء من كل صوب؟ عنف الجنود ولطف الجنديات، مكر المحققين وغدر الخائنين، الحنين إلى الوطن والأحباب، معاناة الأمراض، إذلال السفلة، غرف التحقيق وما أدراك ما غرف التحقيق!

لم تكن مسلخاً للأجساد كما يفعله حمقى الطغاة، بل مختبراً لدراسة نفسيات المعتقلين وتحليل شخصياتهم، قطرة من أنبوب الإثارة الجنسية تخلط مع قطرات الهوان في أنبوب الألم، محقق يرغي ويزبد غاضباً والقيود تعصر عظامك، ثم يخرج لتدخل محققة فاتنة تخفف عنك القيود وتخلصك من آلامك مبتسمة متغنجة في غرفة لا يراك فيها إلا الله!

تذكرت كلاماً لأحد العلماء السابقين يذكر أن الروم عندما كانوا يأسرون المسلمين يجعلون الجواري الحسان يغدين ويرحن عليهم بالطعام والشراب، حتى إذا تمكن حبهن

في قلوبهم لم يُمَكِّنَه من أنفسهن حتى يترك دينه، وهنا يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

لقد علمتني الأيام أن أفكر بعقلي عند الشهوة، وبقلبي عند التضحية، وبهما في غيرهما، ومهما كرعت من كأس الشهوة سأظل ظمآن أبداً، ولو كان في التنزه في بساتين الحرام خير لرأيت المنغمسين في الحمأة أطيب الناس عيشاً وأهنأهم بالاً، ولتعرفنهم في العيون الزائغة والقلوب التائهة والأرواح المشردة، لقد أيقنت أن الري الأعظم هناك، وأني مهما نلت من متاع الدنيا فإلى الفناء أصير، ومهما تقلبت على فراش الألم فبالموت ينتهي، اللذة والعذاب.. كلاهما سراب، عمري قصير جداً كي أضيعه بالوهم، أخذت أتأمل من بين القضبان ذلك الصقر المحلق في العلاء، لا يرضى النزول إلا مقدار ما يسد جوعته ويبل ريقه ثم يعود ثانية إلى التحليق، إنه لا يقضي يومه في جمع لقيمات الغد من خشاش الأرض لأنه يريد أن يعيش سعادة اليوم في قُدْس السماء، إنما هي لقيمات ثم السمو من جديد، خبت وخسرت إن لم يكن القرآن لي أعظم من جناح الصقر له، لقد سمعته يعظني:

صدقني.. الري الأعظم هناك، إن كان عشاق الأرض تذبل أجسادهم حنيناً إلى صورة اللحم الفاني المختلط بالدم والصديد، فماذا يصنع من هام بالجمال الفاتن لساكنات الخيام في الفردوس؟ إن أجمل حُلَلِكَ تلك التي تتفتق عنها ثمار طوبى وألذ طعامك ذلك الذي تأكله على مائدة الخلد يوم المزيد، وأحلى شرابك ذلك الذي تتذوقه من نهر الكوثر، وأشهى عناقك ذلك الذي يلامس فيه صدرُك صدرَ الحور، وأطيب مجالسك ذلك الذي تجتمع فيه بالأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ضيوفاً على مائدة الرحمن، وأعظم لحظاتك تلك التي تنظر فيها إلى وجه ربك الكريم بلا حجاب، ولا حياة تطيب دون ذلك.

لقد علمت كل هذا وأيقنت به فصوبت نظري نحو الحقيقة وشمرت لها، لكني حين وضعت قدمي على الطريق رآني القرآن تلجلجت، فوبخني: لن يذوق حلاوتي الكاذبون!

حينها أيقنت أن العلم بالحقيقة شيء والعمل بها شيء آخر.

دخلت علي المحققة (ميجن) غرفة التحقيق وهي تمد يدها للمصافحة، اعتذرت بلطف قائلاً: آسف.. ديني ينهاني عن ملامسة النساء الأجانب، لقد أخبرتك بذلك مراراً.

: لماذا أنت متزمت؟ لماذا تتعامل مع المرأة هكذا؟ لماذا لا تصافحني وتكون إنساناً طبيعياً مرناً؟

: اختلاف تصورات، أنا أرى الإنسان الطبيعي هو الذي يحترم الحياة الزوجية ويترفع عن الفوضى الجنسية التي تعيشها البهائم!

: ولماذا خلقت المرأة جميلة إن كانت مأمورة بتغطية هذا الجمال؟

: هل نستطيع أن نعمّم هذا الكلام على كل جسد المرأة؟ كله؟ حين تحمر المرأة شفتيها وتعطر جسدها حاسرة عن مفاتنها للرجال فإنها تقول بكلمات غير مسموعة: انظر إلي كم أنا جميلة، إنها بذلك تتصنع الإغراء وتتكلف التغنج لتستفز في الرجل مخالب الشهوة وأنيابها لإثبات أنوثتها، لكنه حينها سيتحول إلى سارق يسرق بضاعة ليست له، كان له أن يشتري مثلها فأبى إلا السرقة، والرجل السوي لا يرى في جمال جسد المرأة سوى السرير لكنه يرى في جمال روحها الكون كله، لذلك وجب تغطية السرير ليتجلى جمال الكون.

: لماذا تريدونها تسير في خيمة سوداء؟ ما هذا التخلف؟

: ليس بأكثر تخلفاً من إلزام الجنود والجنديات بلباس عسكري موحد ثخين تفوح منه روائحهم النتنة في هذا الحر الشديد! إن هدف الالتزام بالحجاب أنبل من هدف الالتزام بالملابس العسكرية.

قالت وهي تكظم غيظها: إنه القانون.

: وكذلك نحن نلتزم بقانون الله الذي ما شرعه إلا للحفاظ على طهرية الحياة الأسرية من بركان الجنس الذي إذا ثار دمر.

: ما الدليل أنه قانون الله؟ هل رأيته يكتبه لكم؟

: وما الدليل أن قانونكم العظيم لملابسكم المعطرة صحيح؟ هل رأيت المشرعين يوقعون عليه بنفسك؟

: لا ولكن. .

: هناك آلية تعرفين من خلالها ثبوت القانون من عدمه، الاستهزاء بالحكم قبل البحث المتجرد عن ثبوته يعد حماقة، كمن يستهزئ بقانون المرور منكراً له، لكنه سيدفع ثمن استهزائه عند تسديد الفواتير، الذي يخضع لقانون وضعه إنسان عار عليه أن ينكر على من يخضع لقانون الله.

: لكنك لست الله!

: كما أن الجنرال ليس القانون! رجاء لا تستخدمي معي هذه المغالطات التي لا تنطلي إلا على المغفلين، تريدون قطع الصلة بين السماء والأرض بقولكم: أنت لست الله! بالتأكيد أنا لست الله، ولا أتحدث باسمه، لكن ثبت عندي بالدليل العقلي

وجود الخالق وصدق النبوة وثبوت الرسالة التي تضمنت ما يريده الخالق منا، ومنها الحجاب، فإن أردت النقاش فيها فعلت.

: لا حاجة لي بذلك فقد تكلمنا فيها مراراً، ما المشكلة في الحرية الجنسية؟ اترك عنك خرافاتك المتخلفة وانظر إلى الحياة كم هي جميلة، لِمَ تحرم نفسك من المتعة لتراث مغبر ألغى العقل؟

ثم أخذت تتثنى وهي تخلل شعرها بأصابعها قائلة: أنا أجمل أم الحور العين؟؟ أحسست أن ما خلته في صدري ثابتاً بدأ يذوب في وهن، ثم أطلقت ضحكات ناعمة خلتها تتحطم ببعضها كتكسر البلور، شعرت بشيء في قلبي بدأ يستيقظ، فإذا بضحكاتها تنقلب في مسمعي كفحيح الحية، وأصبحت لا أرى أمامي إلا وعاء جلدياً يغطي ما لو ظهر لساء كل عين، تبذل كل جهد لتجميله ويأبى إلا أن يفرز ما يشين!

تذكرت ذلك المحقق الذي سألني وهو يبتسم بخبث: من تفضل من النساء؟ الشقراء الغيداء أم الحنطاوية الحسناء؟ القشطة أم النوتيلا؟ كلها متوفرة! أم أنك من عشاق الحور؟

ارتجت الغرفة الباردة بضحكته التي لا تقل برودة عنها، لقد كانوا يستهزئون بشوقنا إلى الحور العين، لأن ذلك الشوق يجعلنا أوفياء للحب الطاهر أمام ذلك اللحم العاري الرخيص الذي نراه كل لحظة، عندما تريد الرذيلة إقناع الآخرين بها فإنها تسب الحب العفيف وتستهزئ بالخلق الطاهر، ثم تملكتني الدهشة حين قال لي هو نفسه بعد أيام: ما بالكم تكثرون الحديث عن الحور العين؟ ما هذا التفكير الجنسي المسيطر عليكم؟!

كم هو مثير للسخرية حين نرى من يقضي لياليه الحمراء تسكب العاهرات على رأسه كؤوس الخمر ثم يصبح واصفاً الشوق إلى الحور بالانحطاط الجنسي!

قال لي أحد المحققين في السنين الأولى من الأسر: سنصنع نادياً ليلياً في كل بيت ثم نودعها في كل جيب!

لم أفهم ما قاله حينها، لكني قلت له: زرع الله لا تحصده المناجل، حين فشلتم في الإقناع لجأتم إلى الإغواء، أنتم فاشلون وستظلون كذلك لأنكم تريدون تغطية نور الشمس بمنخل.

كان ينظر إلي بحنق بالغ، ثم ازداد حنقاً حين قلت: قد تنجح في إقامة النادي الليلي في كل جيب لكنه سرعان ما يتحول إلى مسجد تقام فيه الصلاة حين يصحو القلب من سكرته، عندما حكم جمال عبد الناصر نشر العري والتفسخ في كل العالم العربي، وتوالت ضربات الانحلال وترنحت القلوب وتساقط المتساقطون سكارى بنشوة

الحرام يقرعون كؤوس الغواية مع الشيطان، يحاول بعضهم النهوض فتخونهم قواهم الخائرة ليسقطوا في ثقل من جديد، حتى ظن البسطاء أن العفة تحتضر، وما هي إلا جولة حتى رجع الناس إلى دين الله أفواجاً.

لقد كانت حسناء متغنجة متدللة إن وجدت معتقلاً يجلس وحده أقبلت عليه بوجه مبتسم فإن آنست تجاوباً وإلا تخالسه النظرة بعد النظرة، كانت تتفقد المعتقلين تفقد اللبؤة لفريستها، كانت في حقيقتها لبؤة لكنها لم تكن في أعيننا كذلك، بل كانت ظبية شاردة فضولية تريد التعرف على هؤلاء الغرباء الذين ثرثر حولهم العالم كله، كانت صورتها تتبدل، فإن قوي إيمان الأسير رآها لبؤة وإن ضعف برزت أمامه ظبية عيناء تسر الناظرين.

كانت ترسل شواظ نظراتها أحياناً فتعمل كلهب يذيب في القلوب معدن الإيمان، ومرة تلقي نظرة المحب للحبيب، وأخرى تمارس مع المعتقل أسلوب الشد والإرخاء، فتغضي طرفها عنه تارة وتربكه بنظرتها المترددة تارة، وتارة تتوالى نظراتها كقطرات الندى التي تتابع على الصخرة حتى تفلقها، وحين تجد عيناً قد ضعفت يد الإيمان عن إلجامها بادلته نظرة ناعمة متسائلة عن سبب التحديق بها، لكن ابتسامتها الهادئة حولت السؤال إلى إقرار ودعوة للاستمرار، كانت تمسك قارورة الماء فتتصنع الشرب بهيئة تحول القارورة إلى عاشق تداعبه بلسانها وشفتيها وتحول الماء إلى شهوة تسري فى جسدها وجسد من وقعت عينه في فخ عينيها، ثم تضم القارورة إليها ضمة تحمل ألف معنى مودع في كتاب يضيع القارئ بين سطوره، ويتجسد الشيطان بالقارورة داعياً هذا المتعب ليأخذ مكانه قبل أن يذوب بين يديها، ثم يتولى ساخراً من هذا الذي توهم الحب في قلب حقود واللذة في كية نار والشفاء في سم ناقع.

كانت تتبختر في العنبر للمراقبة بينما كان لسان حالها يقول: راقبوني! ثم تنصرف وقد تركت بعدها قلباً يتوجع وصدراً يتنهد وروحاً تضطرب ونفساً ترتعش وأحشاء تستعر بنار لا ترى، فإن استفاق أسرع فى صب ماء التوبة والاستغفار على تلك النار الملتهبة التي تحيل خضرة الإيمان هشيماً متحطماً يعلوه الرهق.

أسميتها (محرقة الحسنات) فتداول المعتقلون الاسم بينهم حين رأوه يذكرهم بحقيقتها، ما أجهلنا حين ننتزع حظنا من ترانيم السحر أو تراتيل الوحي أو ظمأ الهواجر ثم نقذفها حطباً في نار عينيها!

يا له من خسران حين تبذل مدخرات العمر مقابل رؤية بوظة مثلجة عن قريب ستسيح في الأرض!

لقد كانت تجلس أمامهم في نفس المكان، لم يكن مهرب من الوقوع في فخها ولو عن غير قصد، التفاتة هنا، التفاتة هناك، نظرة طائشة تفلت من لجامها حين تسمع صوتها، وما يزيد الأمر صعوبة أنك تحتاج لمحادثتها في طلب حاجاتك كالطعام أو قارورة الماء أو صابونة أو كوب بلاستيك، ثمانية أشخاص في العنبر، مع كل طلب تسمع صوتها يرن ولو أوتيت قوة في الصمود فإن مجموع النظرات الطائشة الفجائية البريئة قد تكون أحياناً عشرات، كل منها سهم جارح وإن لم يكن آثماً، إن اجتهد في غض بصره أرهف سمعه، وإن ألهى عنها نفسه تسللت همساتها المتكسرة لِتُحَوِّلَ بابَ أُذُنِه المُشْرَعَ إلى عين مبصرة تَرى ما لا يُرى، وإن حول مكانه كي لا يراها وقفت أمامه مبتسمة، فإن ولى ظهره باب الزنزانة قفزت صورتها عارية في خياله المرهق!

رحماك ربي بهذا القلب المتوجع الذي تتبدد منه أنوار القرآن وهو يقرؤه من أوله إلى آخره مائة مرة بينما ترسخ في مرآة قلبه صورة فاتنة لم يرها إلا مرة واحدة.

مرحباً أيتها الأسود العظيمة:

كان الأخ فؤاد الربيعة أبوعبد الله أمامي في عنبر جولف، جاء جندي حتى وقف قريباً مني، تلفت يمنة ويسرة ليتأكد أن أحداً لا يراه من الجنود والضباط، التفت إلينا وحيانا بالتحية العسكرية مشيراً بيده إزاء رأسه قائلاً: (welcome great lions!).

استغربت من تصرفه، قلت لأبي عبد الله: هل سمعته؟

: نعم

: اسأله لم قال ذلك؟

فلما سأله قال: لأني أراكم أسوداً عظيمة!

ثم انسل من بيننا ومضى.

تكررت هذه المواقف مع بعض الجنود في بداية الأسر، كنت أتساءل: ما الذي يجعل هؤلاء الجنود الذين دخلوا في حرب مع بلد مسلم ليتعاملوا مع من يرونهم أعداء بهذه الطريقة؟

اتضحت الصورة بعد أن قال لي أحد الجنود المتعاطفين: أي نوع من البشر أنتم؟

: ماذا تقصد؟

: دول عظمى ترتجف أوصالها من الولايات المتحدة فكيف تجرأتم عليها؟ أعظم

ترسانة عسكرية في العالم تحوم في بحار الأرض وأجوائها والكل مطأطئ رأسه في خنوع فكيف تجرأتم؟

حدق بي برهة دون أن أجيب، مشى خطوات في الممر ثم التفت إلي قبل أن يكمل سيره فقال: أحترم الشجعان وإن كانوا أعداء وأحتقر الجبناء وإن كانوا أصدقاء، أكرهكم لكني أحترمكم!

ليس سلوكاً فردياً:

من الغباء أن ننظر إلى التعذيب على أساس أنه سلوك فردي، بل هو منظومة متكاملة لها آلية تحركها وعقل يديرها وأيدٍ تطبق الأوامر، لقد انغرس في أذهانهم وترسخ في قلوبهم أن المسلمين أشرار، وأن الإسلام دين إرهابي ينازعهم الرغبة في السيطرة على العالم، لم يكن هذا وليد ٩/١١، بل ولد هذا التصور بولادة الإسلام نفسه، النسبة المتزايدة لجرائم الكراهية ضد المسلمين في الغرب يؤكد حقيقة حاول السياسيون الغربيون والخونة في أمتنا إخفاءها، وهي أن التعصب ضد الإسلام ليس بسبب سياسات الحكومات الغربية بل هو متجذر في المجتمعات الغربية لأسباب عقدية وثقافية، المعيار الحقيقي لمعرفة تسامح أمة من الأمم مع أي فكر أو معتقد أو عدائها هو الشعب وليس الحكومة، فالحكومة لا تمثل الواقع لأنها تعتمد في علاقاتها مع الآخرين على المصالح مما يمنعها من الانجرار والانسياق وراء قناعاتها، أما المجتمع فلا يوجد عنده ما يخافه.

نظر إلي المحقق ملياً وهو يضع يديه على الطاولة أمامه ثم قال: لماذا تكرهوننا؟

أجبته: تتعاقب طائراتكم المغيرة لتفرغ حمولة الموت على مدننا الآمنة، يلتفت الطيار إلى الطفل الوحيد الناجي من المجزرة ينظر إلى الطائرة بعينين دامعتين فيقول الطيار بكل فجور: لماذا يكرهوننا؟

بل نحن أحق بسؤالكم: لماذا تكرهوننا بهذه الوحشية؟ لماذا تكرهوننا على الرغم من كل القرابين التي تهدى لكم على مذبح الذل أمام تمثالكم المنصوب في نيويورك؟ لماذا تكرهوننا وإن حاول بعضنا التملق لكم فكراً وسلوكاً وسفالةً وعمالةً؟ لماذا تكرهوننا على الرغم من كل التنازلات التي يقدمها لكم السياسيون وبعض رجال الدين؟ ومهما طأطأوا لكم رؤوسهم وتزينوا فأنتم لا ترونهم إلا كخنزيرة تضع حمرة الشفاه على حد تعبيركم أنتم، لماذا تكرهوننا إلى هذا الحد؟ أهو التوجس من أطفالنا حين يتسلون عن مآسي اليوم بأمجاد الأمس ليكونوا غداً يوسف أحلامنا؟

ويل أمة تتهم غيرها بالإرهاب وقد انتخبت مرتين السفاحَ الذي قتل مئات الألوف من الأبرياء مع سبق الإصرار والترصد!

المحقق الفقيه:

بعدها بأيام استدعوني للتحقيق، وعندما دخلت الغرفة لم يكن بها أحد من المحققين، كانت باردة جداً، ثبتني الجنود بالأرض وأجلسوني على الكرسي الحديدي، شعرت أني أجلس على قالب من الثلج، بدأ جسدي ينتفض، حلوا قيودي ثم انصرفوا.

لاحظت وجود كاميرا في الزاوية العلوية اليسرى من الغرفة، لم أنتبه لهذه الكاميرا في التحقيق السابق، كان الزجاج العاكس يحتل مساحة كبيرة من الحائط الجانبي، لا أستطيع رؤية من في الغرفة المجاورة بينما يستطيعون رؤيتي بوضوح، لم أر وجهي منذ تسعة شهور، تجرأت ووقفت لأرى وجهي من الزجاج العاكس، من المؤكد أني تغيرت كثيراً، نظرت فذهلت من التغير الرهيب الذي طرأ عليه، ما هذا؟ هذا أنا؟ حليق الرأس واللحية والشارب، نحيل جداً لدرجة أن عظام الوجه الناتئة قد لاحت بوضوح، ضمور في تجويف العينين وهالة سوداء تحيط بهما، باختصار كنت مومياء تتحرك، ضحكت من هول الصدمة فازداد المنظر سوءاً، غرقت في ضحكي، الحل الوحيد للخروج من هذه المأساة هو الهروب من هذا الزجاج العاكس، فجلست على الكرسي، أدركت أن هناك من ينظر إلي من الجهة المقابلة، خجلت من منظري وأنا أضحك، لابد أنهم كانوا يسخرون مني.

وبعد دقائق دخل علي ثلاثة محققين معهم مترجم عربي تحيط عنقه سلسلة ذهبية، كان المترجم أشدهم حقداً، نظر إلي بازدراء وهو يقول: أستمتع برؤيتك في القيود.

أجبته: فخر الرجال سلاسل وقيود وكذا النساء بخانق وعقود

انتبه على ما يحيط عنقه فامْتُقِعَ لونه خجلاً، نظر إليه المحقق بغضب وهو يوبخه: لا تتكلم معه إلا بإذن، أنت هنا لتترجم كلامنا فقط، فهمت؟

: نعم سيدي!

شعرت أنه بدأ يتضاءل من الذل الذي أصابه بعد غرور.

قال المحقق: يجب أن تخبرنا عن المشايخ المؤثرين في بلدك، وعلاقتك بالجمعيات الإغاثية والعاملين فيها.

بالتأكيد لم يكن هذا هدفه، فباستطاعته معرفة كل هذه المعلومات السهلة عن طريق أجهزة استخباراته، لم يكن هدفه سوى معرفتي أنا، أراد أن يضم كل اسم أذكره في دائرة الشك والاتهام ولو لم يكن له أي علاقة بأفغانستان.

قلت: ليس لي علاقة بأحد من هؤلاء، لأن غالب تعليمي عن طريق الكتب، وكل أعمالي الخيرية تكون فردية.

: ما هي الكتب؟

: القرآن والكتب الستة وشروحها.

: من المعاصرين؟

: لا يوجد.

: ما هي رتبتك في تنظيم القاعدة؟

: لا أنتمي إليهم.

: أنت تكذب، ونبيكم قال: **«من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»**، وها أنت تكذب علي فلتتبوأ مقعدك من النار!

كادت ضحكتي تنفلت لولا أني كتمتها بصعوبة، قلت: جاهل من علمك استخدام هذا الحديث في هذا السياق، فالحديث يحذر من الكذب على الرسول بادعاء أنه قال شيئاً لم يقله، وليس فيما نحن فيه.

: لكنكم في الإسلام تجيزون الكذب في ثلاث حالات!

فاجأني بكلامه الذي يدل على أنه تعلم شيئاً من أحكام ديننا: وما هي؟

مال بظهره إلى الوراء مسترخياً، ثم أخذ يحك خده متبسماً بثقة: يجوز الكذب في حالة الحرب ضد الإسلام والمسلمين، ويجوز الكذب عند الإصلاح بين المتخاصمين ويجوز للرجل أن يقول لزوجته القبيحة أنت ملكة جمال الكون كيلا يجرح مشاعرها.

ارتجت الغرفة بقهقهته المزعجة، قلت: صحيح، لكن يبدو أنك تخطئ في الفهم، المشكلة أن معلوماتك مشوهة مجتزأة من سياقها، دعني أوضح لك الأمر.

: أنا هنا لأسمع شروحك ومراوغاتك وكذبك، تفضل وأسمعني!

: أما بالنسبة لكذب الرجل مع زوجته فبالطبع أنت تعلم أنك لست زوجتي حتى أكذب عليك، تمعر وجهه وهو يقول: صحيح.

: أما بالنسبة للكذب من أجل الإصلاح فأظن أن قضيتنا ليست في الإصلاح.

: ماذا عن الكذب في الجهاد؟ تكلم.

: هذا يعتمد على هدفكم من الحرب، هل أنتم في حرب ضد الإسلام والمسلمين؟

وقع في حيرة من أمره، فإن قال (لا) أبطل سؤاله، وإن قال (نعم) خالف سياسة حكومته في التأكيد أن حربهم ليست ضد الإسلام ولا المسلمين، انتبه إلى نفسه وقد أدرك أن خللاً حدث في جلسة الاستجواب، قال لي غاضباً: أنا هنا المحقق ولست أنت، أنا أسأل وأنت تجيب، فهمت؟ أم تريدني أن أستخدم معك أسلوباً آخر لإفهامك؟

: أفهم تماماً لكني سألتك لأستوضح الأمر منك.

قال المحقق: لن نسمح بأي دولة تطبق الشريعة الإسلامية.

: لماذا؟

: لن نسمح لشريعة تسعى لفرض هيمنتها على العالم.

: إن كنت تقصد إجبار الناس على اعتناقها فأنت لا تفهم في الإسلام شيئاً، النص القرآني يؤكد أنه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾.

: لكنها تفرض قانونها على الجميع.

: دولة لا تفرض قانونها على مواطنيها ليست دولة، لا تخاطبني عن فرض القانون بل عن عدالته.

: الإسلام هو السلام والتسامح وليس الشريعة المتخلفة التي تفرض قوانينها بالقوة.

: ماذا عن فرضكم الديمقراطية بالدبابات والأساطيل؟

: الديمقراطية تعني حكم الشعب بنفسه، وهي تمثل العدالة والحرية، وحين نفرض الديمقراطية فإننا نفرض العدالة والحرية.

: هي ليست حكم الشعب بنفسه، ولا حكم الأكثرية للشعب، بل هي وصول الأقلية ذات النفوذ للحكم عن طريق الأكثرية لتشريع قوانين لم تشارك الأكثرية في صنعها، ثم أرى النقاش معك مضيعة للوقت.

: لماذا؟

: لأنك لا تفرق بين آلية الحكم وقانون الحكم، الديمقراطية آلية وليست قانوناً.

بغضب: أنا هنا لأسأل وأنت هنا لتجيب.

: هل أنا في هذه الجزيرة لأحاضر عن الديمقراطية؟ عموماً غوانتانامو وضحت بجلاء ما معنى الديمقراطية.

توجه نحو المكيف وجعله في درجة البرودة القصوى، ثم ضغط على الزر الأزرق خلفه والمخصص لاستدعاء الجنود، وما هي إلا لحظات حتى جاء اثنان منهم.

: هل تحتاج مساعدة سيدي؟

: القيود.

أمسكني أحدهما من كتفي وركبتي، وجثا الآخر فضيق مزلاج القيود على يدي وقدمي، شعرت بتيار من الألم في جسدي كله، تركوني في الغرفة قرابة خمس ساعات، كنت أرتجف فيها من البرد وقد أوشكت على البول في ملابسي، لم تكن البقع الداكنة في أرضية الغرفة سوى آثار بول قديم لسجين آخر عانى ما عانيت.

اختلاف المعسكرات:

لم تكن المعسكرات كلها في حالة واحدة بل قد تشتد الظروف في معسكر وتهدأ في آخر، وقد تمارس أبشع وسائل التعذيب في عنبر بينما يتعامل الجنود باحترام مع المعتقلين في عنبر آخر بعيد لا يعلمون عن مأساة إخوانهم شيئاً، وقد يعلمون دون أن يستطيعوا نصرتهم، هذا التفاوت أعطى مساحة كافية للإدارة الأمريكية أن تراوغ الإعلام بخصوص المعاملة في غوانتانامو، كما تعطي التحقيق مساحة للمساومات مع المعتقلين وإجراء الصفقات، ففي الوقت الذي كان الجنود يتعاملون بإنسانية مع المعتقلين في المعسكر السادس الذي تحول سنة ٢٠١١ إلى جماعي كان الجنود يعذبون المعتقلين المضربين في المعسكر الخامس، وفي خضم التعذيب كان أحد المعتقلين من الرياض يئن من شدة الألم، والجندي يرقص على أنغام أنينه وسط ضحك الجنود، بينما انعزل جندي متعاطف وهو يري المشهد من طرف خفي وقد اغرورقت عيناه بالدموع، هذه غوانتانامو، مزيج من التناقضات الصارخة، ستظل غوانتانامو غامضة، عصية على الفهم، ترقص على جراح الإنسانية وتبكيها في ذات الوقت، تغرس خنجرها في صدور المعذبين ثم تشارك بحزن في مراسم الدفن، إنها غوانتانامو.. ذلك المأتم الكبير الذي شاركت فيه البشرية كلها، والذي ضم بين جنبيه عرساً ما حضره إلا المؤمنون.

الكتب:

اعتبرت الإدارة الأمريكية أن تمكين هؤلاء المعتقلين من التعليم والحصول على الشهادات العلمية والتثقيف الذاتي عن طريق الكتب بمثابة سلاح فتاك قد يستخدمه هؤلاء الإرهابيون الأشرار في التأثير على الآخرين، فقررت منعهم من الكتب المفيدة إلا القليل النادر من الكتب الشرعية بمقدار ما يمكنهم استخدامه إعلامياً لإيهام

العالم بمنح المعتقلين حقوقهم الإنسانية، مع الكثير من كتب الروايات والقصص الماجنة والمجلات الخليعة، فلما رأوا عزوف المعتقلين عن المجلات الخليعة استعاضوا عنها بوسائل تدرجية إضافة إلى عقاقير الإنعاظ التي توضع في طعام بعض المعتقلين.

بإمكان السجناء في معظم العالم مواصلة تعليمهم الأكاديمي والتعليم الذاتي، حتى في الدول المشهورة بانتهاك الحقوق الإنسانية، هناك من نال الماجستير والدكتوراه في السجون المصرية والإسرائيلية، أما غوانتانامو فالأمر فيها مختلف، أرادت الحكومة الأمريكية منعنا من استغلال الأسر في الاستزادة من العلم، كانت مكتبة المعتقل مكتظة بالكتب المفيدة لكنهم لا يقدمون للمعتقل إلا الكتب التافهة، أما الكتب الشرعية أو كتب العلوم الإنسانية فمن نال شيئاً منها طار بها فرحاً وكان أشد شحاً بها من لحافه وطعامه، كنا نتعامل مع **(فتح الباري)** و**(تفسير القرطبي)** كأعظم كنز نحصل عليه.

يدخل العنبر الجندي المسؤول عن المكتبة وهو يدفع عربة صغيرة فيها عشرات الكتب لتوزيعها على المعتقلين، تتكرر العملية مرة كل أسبوعين، يتحايل بعض المعتقلين على القانون للاحتفاظ بأي كتاب جيد حظوا به، لكنهم غالباً ما يفشلون في محاولاتهم ليضطروا إلى تسليمه قبل إكماله ليعطيهم الجندي مكانه كتاب (تان تان) أو (حمار الشرق) أو قصص أغاثا كريستي وهاري بوتر، كانوا يوزعون علينا أحياناً كتب الصوفية مثل (فصوص الحكم) و(الفتوحات المكية) وكتب المذاهب الأخرى مثل (الكافي)، قدموا لي في إحدى المرات كتاب يوسف السباعي (السقا مات)، علمت لاحقاً من أسئلة المحققين عن الكتاب الجديد الذي حصلت عليه أنهم كانوا وراء إعطائي إياه، لا أدري هل قصدوا أن قصة وجودي في أفغانستان لحفر الآبار كاذبة؟ يظهر ذلك من اسم الكتاب (السقا مات)! أم أنهم قصدوا التأثير علي لما في القصة من تسخط على أقدار الله؟

مرت علي أشهر طويلة دون أن أحظى بكتاب ذي بال، وأخيراً جاء مسؤول المكتبة بعد انقطاع طويل يجر خلفه عربة صغيرة فيها بعض الكتب لتوزيعها على المعتقلين في العنبر، اغتبط المعتقلون برؤية الكتب بعد حرمان طويل استمر لأكثر من سنة، اقترب الجميع من النافذة، تكاد أعينهم تثب من أحداقهم لتتفحص الكتب قبل وصولها، سمعت الجندي يقول لمسؤول المكتبة: انظر إليهم كيف يلصقون وجوههم بالنافذة؟ عندما نأتيهم بالطعام لا يفعلون ذلك، لا نرى هذا المشهد إلا عند مجيئك!

وصلت الكتب عندي بعد مرورها على أكثر الإخوة في العنبر، يئست من الحصول على ما يروي ظمئي بعد أن أخذ كل منهم حاجته، انتشيت وأنا أمد يدي إلى كتاب في التاريخ الإسلامي، لا أدري كيف غفل إخواني عنه، لم أحصل على كتاب يستحق القراءة منذ سنين، استلقيت على الحصير تستخفني الفرحة وأنا أسرح بناظري في كلماته، كان الكتاب يحكي بعض المواجهات بين المسلمين والروم، كانت الصورة مختزلة في لمحات خاطفة من الأحداث لا توضح تفاصيل ما جرى، وأي كتاب يستطيع الإحاطة بكل الأحداث والمشاعر لتدرك حقيقة ما جرى؟

لقد قرأت هذا الكتاب من قبل الأسر لكني بعد هذه التجربة المليئة بالأحداث شعرت كأني أقرأه لأول مرة، المعلومة لم تتغير لكن عين القارئ هي التي تغيرت والقلب هو الذي اختلف، منذ الصغر ونحن نستمع إلى الوعاظ يحكون لنا قصص أبطال أمتنا ويتغنون بانتصاراتهم، بنينا عليها قصور أحلامنا، لكنهم لم يضعوا في أيدينا فأساً ومعولاً لنبنيها في واقعنا، كانوا يقصون علينا اندحار العدو يجر أذيال خيبته، كنا نطرب ونحن نستشعر بطل القصة وهو يقف على التلة الخضراء منتشياً بلذة النصر، نستمع ونحن نعيش وقائع المعركة لحظة بلحظة كأننا معهم، نسمع سلة السيف ونختنق بغبار المعركة، يستثيرنا صوت سنابك الخيل وأنفاسها اللاهثة وهي تطارد فلول العدو الهارب، لكنهم لم يخبرونا أن هذا كان جزءاً من القصة وليس كل القصة، لم يخبرونا أن هناك آلاماً عظاماً وتضحيات جساماً قبل المشهد الأخير للبطل وهو يقف مبتسماً على تلته الخضراء، لم يخبرونا أن الكثير من رفقاء البطل لن يروا المشهد الأخير لأنهم حينها سيكونون تحت الثرى، وآخرين يقضون باقي أيامهم قابعين في ظلمات الأسر لن يكونوا مع موكب النصر وهو يشق صفوف المهللين الذين يرمونه بالزهور والرياحين، لم يخبرونا أن نهاية القصة لا تعني النهاية فعلاً، وأن قصة البطل تختلف عن قصة رفقائه، وأن البطل الحقيقي قد لا يكون هو بطل القصة، لقد تعلمت أن قطرة العرق فى المعامع أطيب من قطرة المسك على جبين المنتصر، وأن تجمع أعدائه حوله بحرابهم أشرف من تجمع رفاقه حوله يهنئونه بالنصر، وأن احتفاء الملائكة بقدوم روحه مؤمناً ثابتاً أعظم من احتفاء أحبابه بقدومه سالماً منتصراً.

الميدالية:

في يوم حار من أيام شهر أغسطس المتوهج ٢٠٠٢ اقتادني أربعة من الجنود بعد تقييدي من زنزانتي إلى عنابر التحقيق، قيدا يدي وخصري وقدمي بالسلاسل، ضيقوا عليها بشدة، شعرت بألم يعصف بي، مشيت معهم من عنبر (M) إلى عنابر التحقيقات البعيدة سيراً على الأقدام، نزفت قدماي دماً بسبب الاحتكاك المتواصل للقيود الحادة

بالجلد، ومع طول المشي أصبحت أطراف القيود الحادة كأنها شفرات تحز الجلد، كانوا يتعمدون تقييد بعض المعتقلين المغضوب عليهم بقيود حادة بينما يستخدمون القيود العادية لبقية المعتقلين، كانت الشمس تلفحني بوهجها الحارق وأنا بالملابس البرتقالية المصنوعة من البوليستر الذي يزيد من درجة حرارة الجسم ويسبب الحكة، كان الجنديان يتعمدان دفعي بقوة لأسرع في المشي فيشتد حز القيود للقدمين، وأخيراً وصلت عنبر (Blue) المخصص للوفود، أجلسوني على الكرسي الحديدي وأوثقوا قدمي بالحلقة المثبتة بالأرض، كانت الغرفة دافئة، لم يطل انتظاري، دخل علي رجل أمريكي مسن أظنه في الستين من عمره، أبيض الشعر والشارب، طويل القامة، ذو سمت رزين، معه مترجم يبدو من لهجته أنه فلسطيني الأصل، جلس الرجل دون أن يقول شيئاً، نظر إلى يدي وقدمي المقيدتين فقال كأنه يمن علي: هل تريد أن أطلب من الجنود إطلاق يديك؟

: لا.. شكراً.

أخذ ينظر إلى بقع الدماء على معصمي وقدمي: من فعل بك هذا؟

: أنت.

نظر إلي متظاهراً بالاستغراب.

: كل ما يحدث للمعتقل إنما هو بأمر من المحققين.

شعر بالإحراج: هل تريدني أن أخفف عنك القيود؟

: شكراً.. لا أحتاج إلى مساعدتك.

: عموماً أعرفك بنفسي، أنا دكتور في التاريخ، لكني متعاقد مع وكالة الاستخبارات المركزية للمساعدة في حربها ضد الإرهاب، وجودي في غوانتانامو لن يستمر أكثر من أسبوع، أردت أن أقابل بعض المعتقلين من نوعية معينة، فأعطتني وزارة الدفاع ووكالة الاستخبارات قائمة أسماء لا تتعدى أصابع اليدين من بين أكثر من سبعمئة معتقل، وكنت أنت من بينهم، فهل تتفضل يا...، ثم نظر إلي بحدة وهو يقول: يا فايز بالإجابة على أسئلتي؟

كانت عادة المحققين والجنود أن ينادوا المعتقلين بأرقامهم لا بأسمائهم، استغربت حين ناداني باسمي.

: لا مانع عندي من الإجابة على أي سؤال تريده، ولكن ليس قبل أن تتوقف إدارة المعتقل عن إهانة المصحف.

بدا جلياً أنه كان يعلم المشاكل بين المعتقلين والجنود حول القرآن: الآن فكر بنفسك، حاول أن تساعد نفسك للخروج من هذا المكان السيئ.

: ليس قبل التوقف عن إهانة قرآننا.

: أنت الآن غريق وأنا أمد إليك يدي لأساعدك على الخروج.

: يبدو أنك بحاجة إلى تغيير نظارتك الطبية، لا يغرق من اعتصم بالله، وفر خدماتك الجليلة لجنودكم الغرقى في أفغانستان.

: نريد أن نعرف ما هي أفكار فايز.

: لا تعليق.

: لم آت من واشنطن لتقول لي لا تعليق.

: أتريدني أن أقدر مجيئك بينما لا تكترث بتعذيبنا واعتقالنا دون محاكمات عادلة؟ لقد حققوا معي قريباً من مئة مرة وأنا أجيبهم عن أسئلتهم، مطلبنا بسيط، احترام القرآن وعدم إهانته، وبعدها سل ما شئت.

: ما رأيك بحل الدولتين للمشكلة الفلسطينية؟

: لست ياسر عرفات لتسألني عن رأيي في حل الدولتين؟ وهل أنا في غوانتانامو لتسألني عن ذلك؟

: نحن ندرك أن أصل المشكلة بيننا وبينكم هي القضية الفلسطينية، نرى ذلك في أبجدياتكم، هل بإمكاننا أن نعيش معاً في سلام؟

: لا تعليق.

وبعد محاولات عديدة فاشلة بدا عليه التضجر فقال: إن أصحاب الفكر المتطرف والإرهابي الذي تحمله كما يحمله عبد الله عزام وأسامة بن لادن سنجتثه من الأرض.

: أنا إغاثي ولست متطرفاً ولا إرهابياً.

أخرج بطاقة مكتوب فيها رقم تلفون ثم ألقاه أمامي وهو يقول: أتعرف هذا الرقم؟

: احترموا قرآننا وسأجيبك على كل أسئلتك.

: ثق بأن توصياتي التي أكتبها للحكومة الأمريكية عنك ستؤخذ بعين الاعتبار، تعاونك معي سينجيك.

: غبي من يضع يده في يد الشيطان.

: لقد رأيت الجنود حين قدموا بك يضعون أكفهم على رأسك ليدفعوه إلى الأسفل، هل تريد أن تبقى هنا ذليلاً؟

ابتسمت قائلاً: هذا دليل على عزتنا، ولو كنت ذليلاً لطأطأت رأسي دون أن يحتاج الجنود لإجباري على ذلك.

قال متظاهراً بالحزن وهو مشبك أصابعه يقلب عينيه فيها: من المحزن أن تقضي زهرة شبابك وبقية عمرك في هذا المكان البئيس، لكني أؤكد لك أننا سننتصر عليكم في أفغانستان وسنطأ على رقبة كل من تسول له نفسه التمرد علينا.

: لست أفغانياً، لكننا كمسلمين نعتبر أنفسنا أمة واحدة، فاسمح لي أن أخبرك بهذه القصة الحقيقية التي وقعت لي شخصياً حينما كنت في معتقل قندهار الذي كان سابقاً مطار قندهار قبل تحوله إلى معتقل، كانت الأسلاك الشائكة تحيط بنا والجنود منتشرون بأسلحتهم في كل مكان، كنت أمشي حول الخيمة أتفكر في حال هذه الأمة الأفغانية المظلومة، قد غلبني الحزن وأنا أرى الصلبان مرتفعة خلف الجدار الصغير المحيط بالمعتقل، إذ رأيت قطعة معدنية تلمع تحت ضوء الشمس، التقطتها وأزلت عنها الغبار، فإذا عليها نقش شعار الشيوعية (المنجل والشاكوش)، رجعت بي الذاكرة إلى ما قبل عشرين عاماً، حين احتشد في ذات المكان الذي نحن فيه أكثر من عشرين ألف جندي سوفييتي، من الواضح أنها كانت ميدالية علقها أحد الجنود السوفييت الذين تواجدوا في هذه المكان، لقد اندحر الجيش السوفييتي وهرب يجر أذيال خيبته، وبقي مصير هذا الجندي مجهولاً ولم يبق منه سوى ميدالية نتعظ بها على تقلب الزمان واندحار الغزاة ولو بعد حين، عشرون ألف جندي سوفييتي أين هم الآن؟ تملكني العجب لأن الجيش الأمريكي قد أزال كل القطع المعدنية من المعسكر كي لا تستخدم في زعزعة أمن المعتقل، لقد افتلتت هذه القطعة المعدنية من كل الإجراءات الأمنية لتوصل لنا رسالتها البليغة التي فهمتها جيداً، أخذت أتأملها معتبراً وأنا أقرأ قول الله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، هنا انتبه أحد الجنود الأمريكان فجاءني ووجه سلاحه الرشاش نحوي قائلاً: ماذا تحمل في يدك؟

ظن في يدي سلاحاً، لم يعلم أن في يدي عبرة وعظة أعظم من السلاح.

مددت إليه يدي: انظر.

رآها مستغرباً وهو يقول: ما هذا؟

فأجبته وأنا أنظر في عينيه لأرى هل فهم العبرة أم لا: هذه الميدالية كانت شارة لجندي سوفييتي كان يحتل هذا المكان قبلك بعشرين سنة، كل ما نعلمه أن هذه الشارة هي كل ما تبقى منه قبل أن يرحل عن هذه الأرض أو يدفن فيها!

ابتسم الغبي وهو يدسها في جيبه فرحاً: ذكرى جميلة!!

التفت إلى المحقق الذي كان ينظر إلي باهتمام بالغ، ابتسمت قائلاً: لقد طبع الله على قلوبكم جميعاً من رئيسكم بوش إلى أصغر جندي ليستدرجكم إلى نهايتكم المظلمة كما استدرج الظالمين قبلكم، حين رأى فرعون البحر ينفلق لموسى صاح بقومه مبتهجاً: انظروا كيف انفلق البحر لي كي أسحق هؤلاء الأشرار!

قام من كرسيه وهو يجمع أوراقه، ثم حدق بي غاضباً وهو يقول ببطء شديد مؤكداً على كل كلمة:

(You will be here for a long long long time) ستبقى هنا لزمن طويل طويل طويل!

قالها وهو يمد صوته في كلمة (long)، فابتسمت مجيباً:

(But I don't believe that the USA will maintain its power within this long long long time). لكني لا أعتقد أن الولايات المتحدة ستحافظ على قوتها خلال هذا الزمن الطويل الطويل الطويل! مددت صوتي محاكياً طريقته في نطق (long).

فتح الباب غاضباً، وقبل أن يخرج التفت إلي التفاتة أخيرة قائلاً: عموماً إذا غيرت رأيك فاطلب مقابلتي من الجنود لأني سأرحل بعد ثلاثة أيام ولن أعود.

: سأطلبك في تاريخ ٣٠ فبراير القادم!

: ولماذا هذا التاريخ تحديداً؟

مبتسماً: لأنه لن يأتي!

المسؤول الديني The chaplain:

كان هناك مسؤولون دينيون يسمون (chaplain) يهتمون بالجانب الديني للمعتقل، منهم (إبراهيم) أبيض أمريكي الأصل، (حمزة) أسود اللون، (يوسف) من أصول صينية، كلهم مسلمون، لكنهم عسكريون في الجيش الأمريكي مما جعلهم في إشكالية كبيرة وصراع نفسي هائل حين يشاهدون الإهانات الدينية في الوقت الذي يرون أنفسهم مضطرين للتقيد بالنظام وقوانين الجيش، ثم قرر الجنرال في عام ٢٠٠٦ استبدالهم بمسئول ثقافي من أصول فلسطينية اسمه (زكي)، كان يطلق على نفسه (زاك)، أراد أن يثبت ولاءه للجنرال على حساب حقوق المعتقلين فاقترح على الإدارة تغيير الكتب الدينية التي يتم توزيعها على المعتقلين لأنها بزعمه تقوي الأصولية والتطرف لدى المعتقل واستبدالها بقصص عاطفية وروايات بوليسية، كانت أسوأ حقبة نمر عليها حين

استلم هذا الإنسان منصب المسؤول الثقافي للمعتقل، معظم الانتهاكات الدينية كان هو من يبررها ويسوغها دينياً لإدارة المعتقل، ويكفي كي تدرك أهمية هذا الإنسان لدى إدارة المعتقل أنهم احتفظوا به لأداء هذه المهمة لأكثر من عشر سنوات في غوانتانامو دون كلل أو ملل، مما جعل الكثير من المعتقلين يعتدي عليه بالبصاق تارة أو بالرش من ماء المرحاض تارة أخرى، لقد استبدل (زاك) كتب تفسير القرآن وشروح السنة بقصة (تانتان) وقصة (الحمار حصحص) والقليل من الكتب الشرعية السطحية التي لا تصل إليك إلا بعد وقت طويل من التدوير على المعتقلين، وهو صاحب اقتراح العقوبة بإبقاء المعتقل بالشورت.

كان بعض المسؤولين الدينيين يأتيني في زنزانتي ويسألني عن سبب رفض المعتقلين لتفتيش القرآن، وأن الجنرال طلب منه أن يبحث عن التفسير الديني لذلك،

قال: لقد بحثت فوجدت أن الفقهاء قد اختلفوا في حكم لمس الكافر للقرآن، إذن فالمسألة ليست محل إجماع!

قلت: المسألة ليست محصورة في لمس الكافر للقرآن بل في إهانته، كم مرة أسقطوه أرضاً وداسوا عليه عند تفتيشه ورموه في المرحاض؟ يجب أن تفهم الحكم الشرعي على ضوء الواقع الذي نعيشه، القضية ليست خلافاً فقهياً حول مس غير المسلم للقرآن، بل القضية في درء إهانتهم المتعمدة للقرآن قدر الاستطاعة، إنهم يستهدفون القرآن تحت ذريعة التفتيش، وإلا فقل لي كيف يتركون أماكن كثيرة في الزنزانة والعنبر دون تفتيش بينما يبعثرون أوراق القرآن باستهانة بحجة التفتيش عن حصاة مخبأة كما حدث عدة مرات.

في إحدى حملات التفتيش همس لي: أعلم أن إخوانك يكرهونني لأنهم يرونني شريكاً في كل هذه الإهانات، لكني مضطر لذلك، لا أستطيع مخالفة الأوامر.

لن أنسى حين جاءني أحدهم ودس في يدي كتاب (مختصر صحيح مسلم)، اعتبرتها أغلى هدية أحصل عليها في غوانتانامو، لقد جازف بهذا الفعل وعرض نفسه للعقوبة، وربما للمحاكمة العسكرية، سألني أكثر من مرة: هل ترى الخير في إنهاء عملي في غوانتانامو أم أبقى لأخدمكم قدر استطاعتي وأخفف عنكم العذاب الذي أراكم فيه؟

أجبته: بقاؤك سيمنح الصفة الإنسانية والاحترام الديني للمعتقل، أنصحك بالخروج وإظهار حقيقة غوانتانامو للعالم إن استطعت، أما نحن فندعو الله أن يصبرنا.

أما (يوسف) فكان من آلاف الجنود الذين أسلموا حين شاركوا بحرب الخليج الأولى (عاصفة الصحراء)، كانت الدعوة في صفوف الجيش الأمريكي قوية، التقى بعضهم بالشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ وأعلن إسلامه، ظن أن من الأفضل بقاءه في الجيش الأمريكي بحجة الدعوة، لكنه حين رأى ما لم يستطع عليه صبراً قرر الرحيل، كان يرى بصيص حرية للدعوة، أما الآن فلم ير سوى بندقية في نحور الأبرياء، وأي خير في دعوة تنبثق من إعانة الظالم على ظلمه؟

لكن الجنرال آنس منه تبرماً من الإساءات الدينية المتكررة فورطه بقضايا أخلاقية ملفقة، قيدوا يديه وغطوا رأسه بغطاء أسود وأودعوه في زنزانة انفرادية، ذكرته هذه الإجراءات بشيء مما حدث للمعتقلين.

لاحظ المعتقلون وجه (حمزة) يتمعر كلما رأى الظلم الواقع على الأسرى والاضطهاد الديني الذي تمارسه عليهم إدارة المعتقل، حتى جاءت لحظة الانفجار، قال لأحد الإخوة وعيونه تفيض دمعاً: لا أستطيع أن أتحمل المزيد من مشاهدة هذا الظلم والعنصرية الدينية، سأقدم استقالتي!

بعد أيام جاء إلى العنبر بملابس مدنية وأخبر الأخ بأنه دخل على الجنرال وقال له: لا أستطيع الاستمرار في هذه الحرب الدينية ضد المسلمين،

رد عليه الجنرال: إنها ليست حرباً ضد الإسلام والمسلمين لكنها ضد الإرهاب!

: إذن فلماذا لا أرى هنا غير المسلمين؟ لماذا أرى إهانة القرآن؟ لماذا لا نعطيهم حقهم في المعاملة الإنسانية والمحاكمة العادلة إن كانوا إرهابيين كما تقول؟

امتعض الجنرال من ردوده التي لم يعتد على سماعها: حسناً.. تذكر أنك عسكري ويجب عليك اتباع الأوامر.

: لست عسكرياً بعد اليوم.. هذه ورقة استقالتي!! وضعها على الطاولة وهمّ بالانصراف.

: استقالة مقبولة.. لا نريد هذه النوعيات معنا في غوانتانامو.. عموماً ستخسر الكثير من الامتيازات.

كان حمزة يتحدث مع الأخ ودموعه تسيل على وجنتيه السوداوين، أدخل أصابعه بين القضبان وهو يقول بصوت مرتفع: سامحوني يا إخواني.. قد لا أراكم بعد اليوم، لكني سأراكم في مخيلتي كل يوم.

سأله الأخ: ماذا ستفعل؟

: سأرحل إلى المدينة النبوية لأقضي هناك بقية عمري، هناك حيث ظهر الإسلام الذي ما عرفت السعادة إلا به، ألقى تحية حزينة على المعتقلين ثم رحل.

عمرو دياب وأحلام.. في سجن الظلام:

يطلق الأمريكان عليها (Black Site)، وهي سجون سرية تابعة لوكالة الاستخبارات المركزية منتشرة في عدة دول آسيوية وأوربية، يتم نقل المعتقلين الذين من المحتمل امتلاكهم لمعلومات مهمة بعيداً عن وسائل الإعلام أو الزيارات الرسمية من أعضاء الكونجرس وغيرهم كما يحدث في غوانتانامو، الجنود ملثمون دائماً، ظلام دامس، يتم تقييد يد واحدة بحلقة مثبتة بالحائط لمدة قد تصل إلى شهر، ينام خلالها المعتقل واقفاً، يتحسس بيديه الطعام الذي يضعونه عند الباب قريباً منه، وغالباً ما يكون مخلوطاً بالتراب وأحياناً بقطع صغيرة من الزجاج، وحدث في إحدى المرات أن وضعوا فيه الغائط، علقوا أحد المعتقلين من يديه كالمصلوب عارياً لأسابيع، ثم قيدوا إحدى قدميه، بقي على هذه الحال لأكثر من أسبوع فلم يتحمل فضرب رأسه بالحائط وأغمي عليه بعد أن سالت منه كمية كبيرة من الدماء قبل أن يفطن له الحراس الذين حملوه مضرجاً بدمائه ليعالجوه، فلما استفاق بعد أسبوع أرجعوه إلى زنزانته، فأخذ ينادي جاره الذي لا يراه لكنه يسمع صوته: ما هو اليوم؟

أجابه: إما الأحد أو الإثنين لا أدري، وأنت مضى عليك أسبوع تقريباً مغمى عليك.

: إذن فاتتني صلوات أسبوع!

: تيمم وصلها بالترتيب.

وبمجرد انتهائه من قضاء الصلوات عاد وضرب رأسه بالحديد مرة أخرى فأغمي عليه وسال منه دم غزير، ثم عالجوه وأخذوه إلى المحقق، قال له المحقق: أنت عدونا ولن نتركك تموت لترتاح، ولو كنت صديقنا لتركناك تموت لتضع نهاية لهذا العذاب.

كانت تمر الأسابيع عليهم وهم معلقون من أيديهم بالحلقة المثبتة أعلى الحائط يرتجفون من شدة البرد والجوع والسهر، ويتردد في الزنزانة المظلمة من مكبرات الصوت المعلقة فيها صدى أغنية (حبيبي يا نور العين) للمطرب عمرو دياب وأغاني المطربة أحلام!

استخدم المحققون الأمريكان هذا الأسلوب لأنهم رأوا أن القرآن يزيد من إيمان المعتقل وصبره على البلاء، والتصور العقدي للمعتقل قائم على أن الموسيقى تبعده

عن الله وتضعف إيمانه وصبره، فظنوا أنهم بهذه الطريقة يضعفون إيمان المعتقل الذي يمده بهذه القوة العجيبة في تحمل كل هذا العذاب.

أراد أحد المعتقلين في سجن الظلام أن يراوغ المحققين حين سألوه: ما رأيك بأغنية أم كلثوم؟ ليروا أثر هذا الأسلوب على المعتقلين، فأجابهم: جميلة جداً، تجعلني أنسى الألم!

أراد بهذا أن يوقف الأمريكان الموسيقى ليتمكن من مراجعة القرآن بسهولة، لكن الأمريكان فعلوا عكس ما تمناه، فاستبدلوا أغاني أم كلثوم بموسيقى عبدة الشيطان!

فكان المعتقلون يتندرون بها يقولون: لو تركتنا مع أم كلثوم لكان أهون!

لكن العجب حين يرتد سهم الباطل عليه، ويتحول ما أرادوه ضعفاً للإيمان قوة له، تماماً كالجهاز المناعي حين يتقوى بالميكروبات الدخيلة.

يخبرني أحدهم أنه حين يسمع أغنية (حبيبي يا نور العين) يتحول معنى العشق المراد من الأغنية إلى حب الله والشوق إلى لقائه، فكان يردد لا شعورياً ودموعه تسيل: حبيبي يا الله.. كل شيء يهون في سبيلك!

كما أخبرني آخر وضعوا له أغنية نصرانية من كلماتها: (يا يسوع المجد.. سأجوب الفيافي والقفار وأقطع الأودية والجبال شوقاً إليك ولن يصدني عنك صاد)!

فكانت تنقلب في سمعه المعاني لتتحول لمجد الله وحبه، فكانت تمده بطاقة لا متناهية تحول ألمه متعة وعذابه راحة لأنها في سبيل المحبوب الأعظم!

لقد تحول ما ظنوه تشكيكاً إلى بيّنة تزيد اليقين، فسبحانك ما أجلى براهينك حتى استبانت في ثياب الكفران.

محمد حنيف:

تم نقلي إلى معسكر غالبيته من الإخوة الباكستانيين، وإذا بشاب جميل الخلق حلو الابتسامة يخاطبك في حياء جم ينم عن أبوين أحسنا التربية،

: ما اسمك؟

: محمد حنيف.

رأيت في خده أثراً لجرح صغير ملتئم أثار انتباهي، وفي إحدى الأيام تجاذبنا الحديث عن القصص العجيبة التي واجهناها في هذه التجربة، فقال جاري الباكستاني ضاحكاً: اسأله عن الأثر الذي في وجهه!

اكتفى حنيف بالصمت وقد علت وجهه ابتسامة خجولة.

: قل له يا حنيف!

تملكني الفضول لمعرفة القصة، قلت: أخبرني عن قصتها يا حنيف لعلها تكون عبرة.

قال بعد تردد: كانت قوات دستم وأحمد شاه مسعود المتحالفتان مع الولايات المتحدة تنقم على العرب والباكستانيين بسبب مساندتهم لطالبان، خاصة أن قوات أحمد شاه نجحت عدة مرات في كسر الخطوط القتالية للطلبة لولا الله ثم العرب والباكستانيون الذين استبسلوا لإرجاعها من جديد، ومن ذلك حين تقدمت دباباتهم المدعومة من القوات الجوية الأمريكية، فانسحبت قوات الطلبة وبقي الباكستانيون ليحموا ظهورهم، ثم انسحبوا تدريجياً وظل آخرهم يقاوم ببسالة قل نظيرها، يرميهم بسلاح الدشكة وأبى الانسحاب مع إخوانه، قال: كنت أرى الدبابة تتقدم إليه دون أن يبرح مكانه، اقتربت منه وهو يرميها حتى دهسته.

لذلك كانوا حنقين عليهم جداً، وقعنا أسرى في قبضتهم غدراً، فأذاقونا الويلات، دخل علينا مرة أحد قادة دستم غاضباً وهو يصرخ ويتوعدنا بالويل والثبور، ثم اجتر مسدسه ووجهه إلى محمد حنيف ثم أطلق النار عليه، دخلت الرصاصة في وجهه وسقط غارقاً في دمائه، لكن القادة الآخرين لاموه لأنه جعلهم يخسرون المبلغ المرصود من الإدارة الأمريكية لكل أسير عربي أو باكستاني أو قائد من الطلبة، وبمجرد خروجهم اجتمع الأسرى حول محمد حنيف يحاولون تطبيبه وإيقاف النزيف، كان يغرغر فبدؤوا يقرؤون عليه سورة يس، وبعد عدة ساعات بدأ يسترد وعيه وسط دهشة الجميع لكنه كان يشعر بصداع شديد استمر عدة أيام، وإخوانه يحاولون تقطير الماء في فمه وتليين الخبز بالماء لإطعامه، وبعد عدة أيام شعر بحكة شديدة في الأذن، أدخل إصبعه فشعر برأس الرصاصة وبعد محاولات نجح في انتزاعها من إذنه، من رحمة الله به أن الرصاصة وصلت تجويف الأذن فكسرته وخرجت منه.

الغربل:

كان استمتاعنا برؤية الطيور أكبر من استمتاعنا بأكل الخبز الذي افتقد رائحته الشهية من طول العهد، كنا نرمي للطيور في عنبر (بابا) كل ما عندنا من الخبز فتأتي الطيور على آخرها خلال دقائق، تقترب من نوافذ الزنازين بأعداد هائلة، حسبتها مرة فإذا بها أكثر من مائة زرزور وخمسين حمامة، ثم نهدي ثواب هذا الفتات لآبائنا وأمهاتنا عند من لا يحتقر الفتات ﷻ، كان المعتقلون يعانون من الجوع لكنهم ارتضوا أن يتقاسموا اللقمة مع الطيور ليستمتعوا بمنظرها وهي تلتقط الفتات.

كانت أمواج السحاب تمخر عباب الفضاء محملة بماء الحياة لتعيد للعود اليابس نضارته وللزهرة الذابلة رونقها، هبت نسمة عليلة تحمل معها رائحة العشب من الجبال المحيطة التي حرمنا من الاستمتاع بجمالها فأبت الريح إلا أن تهربها إلينا من بين الأسلاك الشائكة، كان زجل الإخوة بالقرآن يبعث الطمأنينة في العنبر، ها هو طائر (الغربل) يرسل دورياته للبحث عن لقمة حلال ولحراسة الوطن المهدد من الصقور الإمبريالية، كان يتميز بلونه الأسود اللامع الجميل، يتجاوز الشباك الشائكة ليقف قريباً من زنازين المعتقلين ليطربهم بتغريده العذب كأنه يواسيهم على خذلان أمتهم لهم، قال أحد المعتقلين: هذا غراب، فرد عليه آخر معارضاً: ألا تسمع غناءه الرخيم؟ أين هو من ذلك النعيق المقرف للغراب؟ إن أردت الغربان فانظر إلى الحراس.

(الغربل) اسم تواضع عليه المعتقلون للطائر الأسود الكوبي، فهو يشبه الغراب في لونه والبلبل في جمال تغريده فاتخذوا له منهما اسماً له يجمع بينهما، كان يتميز بصفات راقية من بين الطيور، تجمعت على الفتات الذي رماه المعتقلون أعداد كبيرة من الزرازير تتجاوز المئة، والعشرات من الحمام وطائر (حسون الكوبي) المسمى: (grass quit)، اقتربت منها (الإغوانا) فرشها بعض المعتقلين بالماء من بين قضبان النافذة لتأكل الطيور في أمان، ذكرته بالحديث: «في كل كبد رطبة أجر»، فابتسم قائلاً: لا أطيقها.. منظرها بشع! تأملت كلامه، فإذا به يكشف جانباً مظلماً في نفوسنا البشرية، وجدتنا في كثير من الأحيان نرحم الضعيف ونحسن إلى الآخرين حتى نشعر بالراحة النفسية التي يجازي الله بها المحسنين، نحن أنانيون حتى في مشاعر الإحسان، لا نعطي لحاجة الآخر للعطاء بل لحاجتنا للراحة والسعادة!

اقتربت (الإغوانا) متبخترة بكل عنجهية لتبتلع القطع الكبيرة من الخبز دون أدنى اهتمام للمعتقلين الذين ينظرون إليها من بين القضبان، ويحق لها ذلك لأن القانون المعمول به في هذه الجزيرة المحتلة أمريكياً تجبر سائق المركبة بالتوقف لتقطع السيدة (الإغوانا) الطريق دون خطر يهددها، ومخالفة هذا القانون يكلف ١٠٠٠٠ دولار أمريكي، انقض صقر على أحد الزرازير ليخطفه بمخالبه متجهاً إلى قمة عمود الكهرباء، وبحركة صادمة اندفع الغربل بشراسة نحو الصقر ليخلص العصفور من براثنه وسط دهشتنا من هذه الفدائية والاستبسال والتضحية من أجل الآخرين، كان يناوش الصقر يمنة ويسرة بجناحيه، يحلق عالياً ثم ينقض على الصقر ليزحزحه من مكانه أعلى العمود، يمارس معه سياسة الإزعاج المستمر وما يشبه حرب العصابات، أعمال صغيرة لكنها كثيرة ومزعجة ومستنزفة!

رأى أحد الجنود الغربل وهو يهاجم الصقر فقال لصاحبه: انظر إلى الطائر الأسود.. إنه يعتدي على الصقر!

ذكرني بالإعلام الغربي حين يجتزئ المشهد ويعرض الضحية الذي يدافع عن الأبرياء في صورة المعتدي الذي يهدد أمنهم.

استمر الغربل في هجومه حتى قرر الصقر إفلات العصفور لينسحب بعيداً عن هذا الغربل المتطرف الذي لا يؤمن بالتعايش السلمي بين الطيور!

والعجب أنه بعد كل هذه التضحيات ذهب بعيداً دون أن يطلب من العصافير كلمة شكر، وبدلاً من اعترافهم بشهامته ونبله راحوا يزاحمونه في لقمته وينهبون أعواداً من عشه ليبنوا بها أعشاشهم، لكن مروءته أبت عليه أن يرد عليهم الصاع صاعين فهو لا يأبه بالضعفاء إن سفهوا بل بالأقوياء إن بغوا.

كل هذا كان يحدث أمامنا، رفعت صوتي قائلاً: ويحك أيها الغربل النبيل.. سيحبسونك في هذه الزنزانة الفارغة بالجوار، لأن غوانتانامو لم تنشأ إلا لمن يدافع عن الأبرياء والمستضعفين، وسيكون أول من يخذلك ويسلمك للصقر هم العصافير التي ضحيت من أجلها.

أحمد بن حنبل:

كان يحقق معي يومياً، من الساعة التاسعة ليلاً حتى الخامسة فجراً تقريباً، تحقيق متواصل في غرفة باردة جداً، مقيد اليدين والرجلين بعنف، كشافان باهران مسلطان على عيني،

قال بغضب: كيف تفسر لي اتفاق رجال كثيرين تم القبض عليهم من دول متفرقة في أوقات مختلفة على معلومات عنك بأن لك صلات وثيقة بأسامة بن لادن؟

: لو كنت صادقاً لكان دليلاً قوياً ضدي، لكنك لا تقول الحقيقة، كيف لي أن أثق بنزاهتكم في التحقيق وأنتم تعترفون بأنه لا حقوق لنا في هذا المكان؟ قد تعرضون عليهم صوري وتذكرون لهم اسمي وما تودون سماعه عني ثم تجبرونهم على تكرار ما أردتم إثباته ضدي.

: لقد اعترفوا بمحض إرادتهم.

: حسناً.. أطالب بمحاكمتي محاكمة عادلة وتحضرهم شهوداً علي، إذا لم تفعل دل على كذب ادعائكم، هل كلامي منصف؟

قال بنبرة تهديدية: يبدو أنك من النوع الصعب، عندنا دواء مناسب لأمثالك.

: ماذا تستفيد حين أقر باتهامات كاذبة تحت التعذيب وفي المحكمة تسقط عني؟

نهض من كرسيه متجولاً في الغرفة الصغيرة: من هو شيخك المفضل؟

: الحق هو المفضل عندي وليس قائله، أذهب إلى السوق لأشتري السمك ولا يهمني من اصطادها.

: أليست لك مرجعية؟

: مرجعيتي هي النص وليس الشخص، العالم مجرد بواب يفتح لك الباب لتدخل على الملك وليس حاجباً يحجبك عنه، مهمته إيصالك إليه وليس منعك عنه، المرجعية هي المنهج والنظام والقانون وليس أشخاصاً تعتريهم الغفلة البشرية التي لا انفكاك منها.

: أذكر لي اسم واحد من علمائك الذين تجلهم.

: لماذا؟

: حتى نعرف من هو الذي يزرع في عقول الجهال هذه الأفكار الشيطانية.

أخشى أن تتهموه ظلماً بالإرهاب كما اتهمتم غيره.

: إن كان بريئاً كما تقول فلن يمس بأذى، وإن ثبتت عليه جريمة حاكمناه محاكمة عادلة.

كظمت مشاعر السخرية من حديثه الأجوف عن العدالة، أحببت أن أسايره لأرى أين يصل بنا الطريق، لا أدري لماذا اخترت اسمه من بين المئات من العلماء الأجلاء الذين عبق تاريخنا بأسمائهم، قلت: الشيخ أحمد بن حنبل.

بدت على قسمات وجهه تهاليل الفرح لهذا الاكتشاف الخطير الذي سيكون المفتاح لكنز الأسرار التي يخفيها المعتقل ٥٥٢!

: من أي بلد؟

: العراق.

حاول أن يخفي ابتسامته المنتشية، لكن آثارها كانت تند من أطراف فمه المزموم، يا لها من معلومات ثمينة، علاقة القاعدة بالعراق، خيل إلي أنه كان يحلم هذه اللحظة بتعليق الوسام على صدره بعد اكتشافه اللغز الذي حير الولايات المتحدة لسنين.

: من أي المدن تحديداً؟

: بغداد!

: هل تعلم أين كان يسافر؟

: سافر إلى الشام ومكة والمدينة واليمن.

: ما كنيته؟

: أبوعبد الله

: أبناؤه بالترتيب.

: صالح وعبد الله والحسن والحسين ومحمد وسعيد، لكنه يكنى بابنه الثاني.

: سأتأكد من أمر ثم آتيك.

خرج ثم عاد بوجه عبوس، ضرب على الطاولة مهتاجاً: هل تعلم أين شيخك الآن؟

قلت متصنعاً الخوف: أين؟

: لقد نجحت استخباراتنا من القبض عليه وهو في أحد سجوننا السرية.

: إنا لله وإنا إليه راجعون، ألم تعدني أنكم لن تمسوه بسوء؟

: لقد اعترف لنا أنه من القيادات الشرعية لتنظيم القاعدة، واعترف عليك بأنك معه.

قلت بانفعال: أنت تكذب.. من المستحيل أن يكون الشيخ أحمد إرهابياً.

باستهزاء: ولماذا يستحيل ذلك؟

: لأنه توفي منذ ألف ومئتي سنة تقريباً!!

ساد صمت مخجل وجللت وجهه غمامة سوداء تنذر بالحقد والغضب، ما هي إلا لحظات حتى أزني الجنود أزاً إلى الانفرادي، ارتج خلفي باب الزنزانة، سمعت الإخوة يرحبون بالقادم الجديد من شق الباب: الحمد لله على سلامتك، ما هي أخباركم؟

اقتربت من شق الباب رافعاً صوتي: هل سمعتم آخر الأخبار؟

: ماهي؟

: لقد قبض الأمريكان على الإمام أحمد بن حنبل!!

الخط الأسود:

استحدث الأمريكان قانوناً جديداً وهو الخط الأسود black line بسبب كثرة الاشتباكات بين الجنود والمعتقلين الرافضين للقوانين الجائرة، صبغوا خطاً أسوداً في كل الزنازين، يبعد عن الباب متراً، يجبر المعتقل على الوقوف خلفه عند فتح النافذة لأي سبب كان، طعام.. ملابس.. دواء.. موعد مع المحققين.. الخروج إلى قفص المشي، يقف المعتقل خلف الخط ويتأكد الجندي من عدم وجود أي شيء في يد المعتقل من الممكن أن يضرب به الجندي، كل هذه الإجراءات الأمنية على الرغم من عدم وجود أي مادة صلبة أو حادة قد تستخدم ضد الجنود، وبعدها يفتح النافذة لتقييده أو وضع الطعام أو ما أشبه، اعتبرها المعتقلون مهينة لأن الجندي يريد أن يشفي غله من المعتقلين فيصرخ بطريقة مهينة (black line)، يبقى ثلاث ثوان ثم يقول: رافض، حرم الكثير من المعتقلين من طعامهم بسبب هذا التعامل المهين، مما دفع بعض المعتقلين إلى الإضراب، قال أحد المعتقلين المضربين: الجوع الكريم أحب إلي من الطعام المهين.

قام بعض المعتقلين بتكسير المغسلة ودواسة الخلاء احتجاجاً على الخط الأسود، ولا تخلو التحديات من طرافة، استطاع أخ يمني كسر دواسة الخلاء ثم خبأها عنده، فلما جاء الجنود أمروه بالوقوف خلف الخط الأسود فوقف، وعندما فتحوا النافذة تقدم وأخذ الدواسة من تحت الباب ثم رماهم بها، اقترب من النافذة ليرى إن أصابت الجندي أم لا، لم يعلم أن الجندي كان ينتظره بالبخاخ الذي ملأ به وجهه وعينه وفمه، سقط الأخ على الأرض وكاد يموت من شدة الاختناق، ناداه أخ آخر للاطمئنان عليه بعد أن سمع سعاله المتواصل وصوته المخنوق: أمورك طيبة؟ فأجابه منزعجاً: اقتربت من الموت وأنت تسألني أمورك طيبة؟

دخلوا على آخر وضربوه وأسالوا دمه على الأرض، اشتدت المواجهات أكثر، ازداد التكسير حتى جعلوا عنبر (أوسكار) قاعاً صفصفاً، مما حدا بالأمريكان إلى أن يخرجوا المعتقلين من العنبر إلى عنبر آخر لإعادة إصلاحه من جديد، وفرضوا عليهم عقوبات قاسية استمرت أكثر من سنة.

استطاعوا تكسير زجاج الحماية للمصباح داخل الزنازين مع أنه ضد الكسر، ثم استخرجوا المصابيح البغيضة التى أبقاها الأمريكان مفتوحة على مدار الساعة، ثم جعلوها جذاذاً من شدة حقدهم عليها بعد أن سلطت وهجها على أعينهم سنين طويلة دون رحمة، ثم استخرجوا الأسلاك فاضطر الأمريكان لقطع الكهرباء، تحول العنبر إلى ما يشبه محلاً لتصليح الأدوات الكهربائية، ذهل الجنود من التدمير الذي لحق بالعنبر

على الرغم من الإجراءات الأمنية المشددة والقوانين الصارمة، توقف الشغب عن اقتحام الزنازين خوفاً من الأسلاك الكهربائية والزجاج الذي قد يستخدمه المعتقلون ضدهم، حاول الجنود تهدئة الأوضاع بالمعاملة اللطيفة، ومع شدة التعب أخلد معظم المعتقلين إلى النوم في منتصف الليل مما شجع العقيد أن يتسلل إلى العنبر ومعه المقدم ليشاهدا بأنفسهما ما حل بالعنبر من أعمال شغب وتمرد بسبب قوانين جائرة كان بإمكان إدارة المعتقل تجاوزها لتفادي ردود الأفعال لكنها العنجهية، صدموا بالزنازين ودهليز العنبر الذي امتلأ بدواسات الخلاء المكسورة مرمية خارج الزنازين والمغاسل المحطمة المصنوعة من الألمنيوم والزجاج المهشم والأسلاك المبعثرة، وبعد نقلهم إلى عنبر آخر شرع المعتقلون في إضراب جديد بسبب التعذيب ورفض علاج المرضى وقوانين تحط من كرامة الإنسان كقانون كشف العورات وإهانة القرآن.

لقد كان بعض المعتقلين درعاً منيعاً لبقية إخوانهم، بذلوا تضحيات باهظة لتغيير الكثير من القوانين المهينة، كانت أجسادهم ترتجف من البرد والحمى تجلدهم بسوطها دون رحمة فتزداد ارتعاشاً، يبيتون الليلة الباردة على الحديد دفاعاً عن بقية إخوانهم، لم يكونوا أوسعهم علماً ولا أكثرهم حفظاً للقرآن، لكنهم كانوا أكثرهم بذلاً وصبراً، مخطئ من يظن سعة العلم وقوة الحفظ هو المعيار الأهم في التفاضل، هناك معايير أخرى قد تتفوق في مواطن، يتقدم فيها أصحاب التضحيات ليبقى غيرهم قابعاً في المؤخرة.

أسماك القرش:

بعد أسبوعين من وصولنا غوانتانامو دخلت عنبر التحقيقات (Yellow)، طوله عشرون متراً تقريباً، وإذا بصف طويل من الجنود العمالقة متراصين من بداية العنبر إلى الغرفة المخصصة للتحقيق معي، فوجئت بهذا المشهد المربك، أخذت لمحة خاطفة تجاههم، يتميزون بقامة فارعة وجسد مفتول عكس الجنود الآخرين الذين نراهم يحرسوننا في العنابر، كانت أعينهم تقذف الشرر، أشحت بوجهي عنهم وصوبت بصري نحو الأمام دون أن ألتفت، كنت منهك القوى شديد النحول أحاول الحفاظ على رباطة جأشي، لأني أدرك جيداً أن كل ما أراه هو محاولة تفتيت عزيمتي وتشتيت ذهني للقادم المجهول.

دخلت غرفة التحقيق وإذا بطاولة يجلس عليها أربعة أشخاص، رجل مسن وشاب وامرأة وكهل ذو شارب أبيض كثيف يجلس خلفي باتجاه اليمين، لا زلت أشعر بتأثير حبوب الهلوسة المخدرة التي أجبرونا على تعاطيها في الطائرة، شعور بالاسترخاء وعدم القدرة على التركيز، بدأ الشاب سؤالي عن معلوماتي الشخصية، الاسم، العمر،

الجنسية، الديانة، الدراسة، أسماء الأهل، وبعد أن أكمل سؤاله بدأت المرأة بالترجمة، كانت أمريكية الأصل لكنها تتكلم العربية بلكنة أعجمية، أما الغريب فعلاً فهو أمر ذلك الكهل الجالس خلفي، لم ينبس ببنت شفة، كنت ألمحه خلسة يتأملني بإمعان ثم أسمع صوت صرير القلم على الدفتر، يغلب على ظني أنه أخصائي نفسي يريد تحليل شخصيتي، لا يتمنى أحد في العالم أن يكون غبياً ساذجاً إلا في غوانتانامو، فهي نعمة تعجل من إطلاق سراحك، لاحظت أن كل شخص منهم له مهمة خاصة، فالمترجمة كانت تحاول التغنج عند ترجمتها والمحقق الشاب كان يتعمد إظهار الوشم الذي ملأ ساعديه، أما المسن فكان يحاول إظهار العفوية والتلقائية بينما اكتفى المسن الجالس عن يميني جهة الخلف بالصمت وتأمل حركاتي ونبرة صوتي وكلماتي ثم الانهماك بالتسجيل.

كانت جلسة هادئة استغرقت أربع ساعات ونصف تقريباً، وفي نهايتها نظر إلي المحقق المسن ملياً فقال وهو يبتسم ابتسامة استهزائية: هل تفكرون بالهرب؟

: الهرب؟ من غوانتانامو؟

: دعني أضيف إلى معلوماتك.. هل تعلم كم حاجز يحيط بالمعسكر؟

: لا.. لكني أرى حواجز كثيرة.

: هناك الكثير من الإجراءات الأمنية تتضمن الحواجز والأسلاك الشائكة وحقول الألغام والدوريات التي تجوب المنطقة باستمرار، ولو افترضنا جدلاً أنك سوبرمان وتخطيت كل الحواجز ووصلت إلى المحيط الأطلسي فأحيطك علماً أن المنطقة البحرية التي تجاورنا مليئة بأسماك القرش، ضجت القاعة بالضحكات، ظللت صامتاً، ضغط المحقق الجرس المثبت على الحائط، كان هناك جرسان أزرق وأحمر، أما الأزرق فهو لاستدعاء الجنود إما لإعادة معتقل إلى زنزانته أو لمساعدة المحقق في التعذيب، أما الزر الأحمر فهو لاستدعاء الطاقم الطبي إن لم يتحمل المعتقل ما يمارس تجاهه من ضغوط نفسية وبدنية، جاء الجنود أمروني بالقيام ثم قيدوا يدي ولفوا خصري بالسلسلة الحديدية المثبتة بالقيود، ثم فتحوا القفل الذي يثبت قيود رجلي بالأرض وانطلقوا بي بعد ذلك إلى الزنزانة وهم آخذون بعضدي بعنف بينما وضع أحدهم يده على رأسي يدفعها إلى الأسفل بإذلال.

التركستانيون:

كان في غوانتانامو مجموعة من الأسرى الذين ينحدرون من تركستان الشرقية،

والتي احتلتها الصين وغيرت اسمها إلى (شنج يانج) وتعني المستعمرة الجديدة، أما تركستان الغربية فتشمل كازخستان وأوزبكستان وتركمانستان وطاجكستان وقرغيزستان وكلها جمهوريات إسلامية استقلت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي إثر حربه الخاسرة في أفغانستان، و(ستان) تعني أرض، تلك البلاد التي دخلها الإسلام في أواخر القرن الأول الهجري، لقد اقتنعوا بالإسلام قناعة راسخة جعلتهم يرفضون تغيير دينهم حتى أثناء الاحتلال الكافر لبلادهم.

ارتكبت القوات الصينية الشيوعية العديد من المجازر بحق المسلمين التركستانيين إحداها كان في سنة ١٩٤٩ راح ضحيتها مليون مسلم، كما حاولت طمس كل المظاهر الإسلامية، فتوالت الانتفاضات ضد الحكم الصيني الديكتاتوري، سر تمسك الصين بها هو تمتعها بثروات طبيعية هائلة كالنفط والغاز والفحم والطاقة النظيفة بسبب تمتعها بنسبة سطوع شمسي عالٍ وكثرة الرياح المستمرة لفترات طويلة كما تتمتع بالطاقة الكهرومائية لوفرة الأنهار المتدفقة من المنابع الجبلية، كل هذا يدفع بالاقتصاد الصيني في المقدمة، ثم ترمي الفتات للسكان الأصليين لتركستان الشرقية.

عزم بعض أبناء تركستان على الرحيل إلى أفغانستان وإقامة معسكرات تدريب للشباب التركستاني الراغب في مقاومة العنجهية الصينية والظلم الذي تمارسه الحكومة الصينية الشيوعية، وحين علمت الصين بهذه الثلة طالبت حكومة (الطلبة) بتسليم أميرها (أبو محمد التركستاني) فرفضت طلبها رفضاً قاطعاً، حاولت الصين استغلال الحصار المضروب على أفغانستان فرفعت سقف العروض لإغراء (الطلبة) بتسليم هذا الرجل ومن معه، فعرضت عليهم تبادلاً تجارياً ضخماً وإنشاء شبكة طرق تربط كل المدن الأفغانية ببعضها، فوجئوا برفض (الملا عمر) على الرغم من حاجتهم الماسة لهذا العرض، عقلية عجيبة يندر وجودها في هذا الزمان، تغليب جانب المبادئ والقيم على الماديات والمصالح لا نراها في معظم الجماعات الإسلامية فضلاً عن الحكومات.

وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر والحرب العالمية على أفغانستان انخرط الشباب التركستاني ضمن الصفوف المدافعة عن هذا البلد الذي آواهم وحكومة طالبان التي حمتهم واستضافتهم، وقع بعض هؤلاء التركستانيين أسرى في يد الأمريكان ولم يكن من بينهم قائدهم الذي قتل لاحقاً، فأراد الأمريكان استغلالهم كورقة ضغط ضد الحكومة الصينية المنافسة للولايات المتحدة، فاستغلت العداء المتجذر بين هؤلاء الأسرى وحكومتهم المستبدة التي بلغ بطشها أن سجنت بعض زوجات هؤلاء الأسرى وحلقت شعورهن بالشفرة في وضع مأسوي يقطع القلوب، حسّنت الولايات المتحدة معاملة هؤلاء الأسرى في محاولة لاستمالة قلوبهم تجاه العدو المشترك للطرفين. . (الصين).

في إحدى المرات كان بقربي أحد الإخوة التركستانيين، فجاء مسئول المكتبة يدفع عربة صغيرة فيها بعض الكتب والمجلات ليوزعها على المعتقلين، كل حسب لغته، ويحرم المعاقبون من المكتبة، تشعر بالغبطة حين تحصل على كتاب ذي قيمة بدلاً من كتاب (تان تان) أو (هاري بوتر) أو (الحمار حصحص)، التفت إلى الأخ التركستاني فصعقت حين رأيت في يده كتاباً بالتركستانية عليه صورة عبد الله عزام، أدخلت أصابعي في الشبك الفاصل بيني وبينه وأنا أحملق بعيني دهشاً.

: ما هذا الكتاب؟

أجابني بابتسامة لا تخلو هي كذلك من الدهشة وقال بعربية ممزوجة بلكنة أعجمية: هذا كتاب **(الدفاع عن أعراض المسلمين أهم فروض الأعيان)** للشيخ عبد الله عزام، ورأيت عند أخ تركستاني آخر كتاب **(معالم في الطريق)** لسيد قطب، مع العلم أن الولايات المتحدة تعتبر سيد قطب وعبد الله عزام من أقطاب ورموز الجهاد الذي تعتبره إرهاباً وتطرفاً، بل صرح لي أحد المحققين بكل وضوح أن أخطر شخصية على الغرب خلال القرن الماضي هو سيد قطب، فكيف سمحوا إذن لهذا الكتاب أن يوزع؟

من دهاء السياسة الأمريكية أنها تستغل الأفكار المعادية لها في خدمة مصالحها، بتوجيهها نحو عدو مشترك يستنزف كل منهما الآخر لتواجه هي المنتصر منهما وهو في رمقه الأخير، كما تدرك الولايات المتحدة أن هؤلاء المجاهدين قوة لا يستهان بها فمن الذكاء أن تستخدمهم كبعبع تخوف بهم خصومها، كما استخدمت الكثير من الدول والأحزاب والجماعات الإسلامية لذات الهدف.

أبلغت الولايات المتحدة خصمها الصيني أن في حوزتها بضاعة غالية الثمن، جاء الوفد الصيني إلى غوانتانامو سنة ٢٠٠٢، كان أول وفد أمني يقدم المعتقل، ليس للاطمئنان على صحة مواطنيه بل للتثبت من هوياتهم حتى يتأكدوا من أن الإدارة الأمريكية لن تبيعهم بضاعة مستعملة أو تقليد، أطمعت الولايات المتحدة الحكومة الصينية بتسليم كل الأسرى التركستانيين لها ليفعلوا بهم ما شاءوا، اطمئن الوفد الأمني للوعود فدفعتهم الثقة المطلقة بهذه الوعود إلى أن يتوعدوا بعض الأسرى التركستانيين بالويل والثبور حال تسليمهم للسلطات الصينية، وأفصحوا أنهم بصدد الانتهاء من اتفاقية تسليم مع الولايات المتحدة في صفقة لم يحددوا نوعها، أجريت المفاوضات بين الجانبين لكن العرض الأمريكي كان مكلفاً جداً للصينين اقتصادياً وسياسياً.

لقد وقع التنين الصيني في فخ النسر الأمريكي وفعل ما يريده بالضبط وهو إرسال رسالة للأسرى التركستانيين أنهم في خطر حقيقي ما لم يتعاونوا مع الولايات المتحدة ضد هذا العدو المجرم المشترك الذي يغطي جرائمه الإنسانية بتفوقه الاقتصادي، أتذكر

المعتقلين وهم يتواصون على الاجتهاد في الدعاء من أجل إخوانهم التركستانيين.

بعد هذه الزيارة اجتهد المحققون في كسب المعتقلين التركستانيين في صفهم، كان بعضهم يخبرنا بما يحدث معهم في التحقيقات، عرض عليهم الجانب الأمريكي إطلاق سراحهم ودعم حركتهم الانفصالية والعمليات العسكرية ضد المصالح الصينية واستشاروا بعض إخوانهم المعتقلين، فرأى البعض أنها فرصة ثمينة لإيقاف جرائم الصينيين ضد المستضعفين المسلمين، وكما أن أمريكا تستغلهم ضد خصومهم فلماذا لا نستغلها نحن ضد خصومنا ما دام العدو مشتركاً؟ وإن كنا غير قادرين على دفع أذى الأسد والنمر معاً فما المانع من دفع أحدهما بمساعدة الآخر ويبقى عدو بدل عدوين؟

أما الرأي الآخر فكان معارضاً ومحذراً من العواقب، حيث إن هناك فرقاً بين وجود مصالح مشتركة وبين وجودي كشريك، في الأولى أنت من تملك قرارك وتتعاون مع أعدائك ضد أعدائك فيما يحقق مصالحك دون التنازل عن مبادئك، أم الثانية فأنت لن تملك قرارك وستكون مجرد أداة في لعبة سياسية قذرة ضحاياها المستضعفون الذين استخدمت قضيتهم لتحقيق مصالح معينة ثم حرقت تلك الورقة لتحترق معها أجساد الآلاف الذين أغرتهم وعود النجدة والمساعدة ليتفاجؤوا أنهم هم وحدهم في الميدان، وبعد الاستشارة والاستخارة رفض الإخوة التركستانيون العروض الأمريكية.

وحين اكتشفت الصين عدم وفاء الولايات المتحدة بوعودها أخذت تمارس سياسة الضغط على أي بلد سيؤوي هؤلاء المعتقلين حال إطلاق سراحهم، ومن ضمن الأوراق التي أحضرها لي المحامي فيما يتعلق بقضية غوانتانامو خبراً في الصحف الأمريكية أن أمريكا عرضت على ألمانيا استقبال بعض المعتقلين التركستانيين مقابل صفقة مع ألمانيا لم يكشف عنها، وحين علمت الصين بذلك أرسلت تهديداً إلى ألمانيا بأن العلاقات التجارية بين البلدين والتي تقدر بالمليارات ستتضرر حال استقبالها لأعداء الحكومة الصينية، وبعد وقت ليس بالطويل رفضت ألمانيا العرض الأمريكي لاستقبال هؤلاء الذين أصبحوا ورقة لتصفية حسابات قوى عالمية تريد فرض هيمنتها على الآخرين، ثم عرضت أمريكا على ألبانيا استقبالهم مقابل معونات اقتصادية، فوافقت ألبانيا على استقبال خمسة معتقلين تركستانيين.

حكمت المحكمة في الصين على زوجة الأخ عبد الصبور التركستاني بالسجن المؤبد لأن زوجها كان في أفغانستان، ثم خفف الحكم إلى عشرين سنة، مع العلم أن القانون المطبق على السجينات المسلمات في تركستان هو حلق شعورهن تماماً وإجبارهن على أعمال مهنية شاقة معظم اليوم كالخياطة وغيرها لتستفيد منها السلطات الصينية، ولا يسمح لهن بالنوم أكثر من ثلاث ساعات يومياً.

تم نقل بعض المعتقلين التركستانيين إلى جزيرة (برمودا) الواقعة شمال مثلث برمودا الغامض، تبلغ مساحتها ٥٣ كيلو، وآخرين إلى جزيرة (بالاو) الواقعة شرق الفلبين، من الواضح أن خطة الولايات المتحدة هي تفريقهم في الأصقاع النائية التي لم يسمع أحد من هؤلاء المعتقلين عنها إلا حين واجهوه بعزم الولايات المتحدة نقلهم إليها، ولم يبق حينها من المعتقلين التركستانيين إلا أقل من أصابع اليد الواحدة، فأرادوا نقلهم إلى جزيرة كيريباتي.

عبر المعتقلون التركستانيون رفضهم القاطع لمحاميهم نقلهم إلى هذه الجزر، لأنهم لم يكونوا في مأمن من تهديد الصين التي توعدتهم بالتعذيب والاضطهاد من قبل، فإذا عرفنا أن الصين نجحت في ضغوطها الاقتصادية على ألمانيا فرفضت استقبال المعتقلين التركستانيين وكذلك حين هددت ألبانيا عقب استقبالها الإخوة التركستانيين الخمسة في شهر مايو عام ٢٠٠٦ فرفضت استقبال المزيد، فكيف بـ(كيريباتي)؟ وهي ليست عضواً في أي اتفاقية تمنع تسليم هؤلاء المعتقلين إلى الصين أو أي دولة تابعة للصين.

قال لي المحامي مندهشاً: تريد حكومتي نقل المعتقلين التركستانيين إلى جمهورية (كيريباتي)! هل تعلم أنه ليس لها جيش؟ بل حتى قوات الشرطة فيها ليست مسلحة! والأدهى من ذلك أنها تستعير قارب دورية حراسة من وقت إلى آخر من استراليا لأنها لا تملك دورية لحراسة حدودها! ولأنها دولة تتكون من ثلاثة وثلاثين جزيرة صغيرة جداً على مساحة آلاف الأميال في المحيط فتأمين حدودها يبدو مستحيلاً، هل تتخيل أن حكومتي سترسلهم إلى هذه الدولة؟ وفي الفترة ما بين عامي ١٩٥٧ و١٩٦١ قامت الولايات المتحدة وبريطانيا بإجراء اختبارات نووية واسعة في هذه الجزيرة حيث فجرت بريطانيا حوالي خمسة ميجا طن أي خمسة ملايين طن من الحشوات النووية بالقرب منها وحوالي ١,٨ ميجا طن فوق الجزيرة مباشرة ونافستها أمريكا فقامت بتفجير ٢٤ ميجا طن بجوار الجزيرة وخلال هذه التجارب لم يتم إخلاء الجزيرة، ومازالت التأثيرات البيئية والصحية الناتجة من هذه التفجيرات إلى هذه اللحظة سارية وسرية.

ثم انطلق يخبرني عنها كما لو كنا نعيش قبل مئة سنة، جمهورية كيريباتي عبارة عن جزيرة مرجانية فقيرة وصغيرة جداً، تقع في المحيط الهادي على بعد آلاف الأميال من أي مكان آخر، وهي عبارة عن ثلاثة وثلاثين جزيرة ولا يوجد في هذه الدولة خدمات جوية منتظمة، وعُلِّقَ الخط الجوي الوحيد الذي كان يخدم الجزيرة في سبتمبر سنة ٢٠٠٨ بسبب الحالة السيئة والخطيرة للطيران، وهناك طائرة مروحية تسع ١٧ راكباً تطير للجزيرة مرة واحدة أسبوعياً، ولا يوجد أي نوع من العبارات، ولا تصل إليها القوارب

إلا على فترات متباعدة، وليس في هذه الجزيرة تلفزيون أو اتصالات لاسلكية، والبريد يستغرق أسابيع ليصل إلى الجزيرة وغالباً لا يصل على الإطلاق، ولا يوجد فيها أي قوات للأمن والسلام، ومعظم هذه الجزر تعيش في مستوى أقل من ثلاثة أمتار فوق سطح الأرض ولذلك فمن المتوقع أن تكون أول دولة ستختفي بسبب تغيرات الطقس الكونية والاحتباس الحراري!

انفجر ضاحكاً وهو يخبرني أن في يونيو سنة ٢٠٠٨ أعلن رئيس (جمهورية كيريباتي) للعالم أن الدولة وصلت إلى نقطة اللاعودة وقدم طلباً إلى استراليا ونيوزيلاندا لقبول مواطني بلده بمن فيهم هو شخصياً كلاجئين دائمين مما يجعله أول رئيس في التاريخ البشري يطلب لنفسه ولشعبه بالكامل حق اللجوء في دولة أخرى.

المعسكر الرابع:

بسبب الصورة السيئة لغوانتانامو كان لابد من افتتاح معسكر يحظى بامتيازات وحقوق أكثر من المعسكرات الأخرى، يكون مكاناً مناسباً لزيارة الصحافة كي تنقل صورة حسنة عن غوانتانامو لتغطية الجرائم المرتكبة في الزنازين البعيدة عن أعين الصحافة، ولاستخدام هذا المعسكر الجماعي في ابتزاز المعتقلين لتجنيدهم وللتفاوض معهم في التحقيق لنقلهم إلى المعسكر الرابع مقابل معلومات يقدمها للمحققين، تم تدشين المعسكر الرابع في يوم (٢٨ فبراير ٢٠٠٣).

كانت الأوضاع مزرية جداً في غوانتانامو، ولم تزدد مع مرور السنين إلا سوءاً باستثناء المعسكر الرابع، الواجهة الإعلامية لغوانتانامو، حيث الحياة الجماعية والسماح بالصلاة جماعة صفوفاً متراصين والطعام المضاعف وساعات المشي الإضافية.

تم نقلي بصورة مفاجئة من عنابر التحقيق إلى عنابر الدرجة الأولى التي يعطى فيها المعتقل امتيازات مثل الحصول على مشط صغير وطاقية وبطانية إضافية، يرتدي فيها المعتقلون الملابس البنية، بقيت فيها أسبوعاً ثم جاء المسؤول مع مترجمة كانت معروفة بالتغنج مع المعتقلين وقال: ستنتقل إلى المعسكر الرابع، أنت محظوظ!

محظوظ!! لا مجال للحظ هنا، كل شيء يتم بعد دراسة، ترى لماذا أنا تحديداً؟ هناك الكثير من المعتقلين الذين لا يوجد عندهم أي مشكلة مع التحقيق، بل اعترف بعضهم على نفسه وتكلم على غيره صدقاً وكذباً، طمعاً في انتقاله إلى المعسكر الرابع ولم يتم له ما أراد، فلماذا أنا؟

: رافض!!

صعق المسؤول، انطلقت نداءات الإخوة من كل العنابر المجاورة تنصحني بالذهاب واعتبارها فترة راحة واستجمام لما قد يأتي من متاعب في المستقبل المجهول، أخبرتهم بأني أرى وراء الأكمة ما وراءها، نصحوني بالعودة مجدداً إن وجدت في الأمر مكيدة، قلت: هي قطعاً مكيدة، لكني سأقبل مشورتكم.

قيدوني ثم وضعوني بين جنديين في مؤخرة سيارة صغيرة مكشوفة مخصصة للتنقلات بين المعسكرات، كل جندي يجب عليه أن يلصق رجله برجل المعتقل ويمسك بعضده طوال الرحلة، وكان الله في عون المعتقل حين تكون جندية بدل الجندي لتقوم بنفس الإجراءات!

وصلت إلى المعسكر الرابع، انشرح صدري وأنا أرى الساحة الواسعة وقمة الجبل الخضراء المطلة عليه، كان اسم العنبر الذي أسكنوني فيه قبيحاً (ويسكي)!!

أطلقوني من القيود، شعرت برغبة ملحة في القفز والجري، لأول مرة بعد أكثر من سنتين أمشي مسافة أكثر من مترين دون قيود، لكني صدمت حين أردت أن أمشي فلم أستطع!! كانت مشيتي غير سوية، تصطك رجلاي ببعضهما أكاد أتعثر، كان منظري مثيراً للشفقة، خجلت من نفسي فآثرت الجلوس على الأرض ريثما أتمالك أعصابي، استلقيت على الحصى ونظرت إلى السماء، لأول مرة منذ سنين تتنعم عيناي بجمال السماء دون حواجز من الشباك والأسلاك الشائكة، شعرت بالدوار، كان معنا معتقل دكتور يمني أخبرني أن العين إذا حصر نظرها في مسافة قصيرة لفترة طويلة فإن الإنسان يصاب بالدوار حين يرى أفقاً بعيداً، ويتلاشى الدوار تدريجياً مع التعود.

من أجمل الأمور في الجماعي أنك تستطيع أن تصلي جماعة، كتفك يلاصق كتف أخيك، نعمة عظيمة لا يعرفها إلا من حرمها، كثفت دروسي للإخوة في عنبرنا، يجتمع قرابة ١٦ معتقل من غرفتين متلاصقتين، دروس يومية عدا الجمعة، يوم أفسر لهم حزباً كاملاً، واليوم الآخر شرحاً لعشرين حديثاً من بلوغ المرام، كنا محرومين من الكتب لكن ذاكرتي من المحفوظات والقراءات أيام طلب العلم لا زالت غضة طرية في بداية الأسر لم تذريها رياح السنين في الانفراديات، كان المنظر غريباً على الجنود، كيف يجتمع هذا العدد على شخص، ومن الصعب إقناعهم أن ذلك ليس بسبب تأثير المتكلم على المستمعين بقدر ما هو حرص المسلمين على حلق الذكر، نصحني بعض الإخوة أن أتوقف لأني بالغت في الدروس التي ستكون سبباً لنقمة الأمريكان علي على الرغم من خلوها تماماً من أي دعوة للعنف على المستوى الخارجي أو داخل المعتقل، قال لي أحد الإخوة: خوفهم من الكلمة أشد من خوفهم من الرصاصة.

جاء جندي موشوم الساعد لمعتقل سعودي في عنبر آخر وأخبره بأني إرهابي أدعو

إلى قتل الأمريكان، فلما سأله كيف عرف أخبره بأنه رآني في أحد دروسي أشير بيدي كأنها طائرة، ففهم أني أدعو إلى عمليات كأحداث سبتمبر!

أعلمني أخي السعودي بالحوار وهو ينصحني بأخذ الحيطة والحذر من كل إشارة قد تفهم خطأ، جاءني أحد الجنود بعدها ليسألني: هل أنت تدعوهم إلى الإرهاب؟

أجبته: أنا لا أدعو إلى العنف ولا الإرهاب الذي تقومون به في أفغانستان، كل ما أدعو إليه هو الوصول إلى الخالق عن طريق الخلق، من الكون إلى المكوّن، والتحرر من التعصب لأي فكرة قبل إثبات العقل لها، ولماذا الاتهام وكل كلمة أتفوه بها مسجلة صوتاً وصورة في هذه الكاميرات الأربع المنتشرة داخل العنبر؟ تفاجأت بعد خروجي من غوانتانامو أن الجندي ذا الوشم قد أسلم فحمدت الله على هدايته.

تعجبت حين رأيت بعض أحد الجنود بيده سبحة كالتي عند المسلمين، لكن يتدلى من أعلاها صليب صغير، وجدته يحرك شفتيه، لا أدري هل هي ذكر الله أم شيء آخر.

كان المعسكر الرابع فرصة ثمينة للحوار المفتوح مع بعض الجنود النصارى والملحدين، مما أثار حفيظة الإدارة أكثر مما هي عليه، خاصة حين بدأ بعض الجنود بالبحث عن الحقيقة وهذا ما أردت، لم أدعهم إلى ديني بل إلى ما يثبته العقل الذي يجب أن يكون هو الحكم على كل الأفكار والمعتقدات، بلغنا في التفسير سورة الأنعام وأكثر من مئتي حديث حين صدر القرار بمعاقبتي بسبب الدروس فتم نقلي إلى الانفرادي.

التردد:

عشت صراعاً نفسياً رهيباً في بداية الأسر، كانت حاجة المعتقلين ماسة للمواعظ القرآنية والدروس الشرعية خاصة في هذه الأوضاع الصعبة، لكن من يتصدر لذلك سيدفع الثمن غالياً، سيكون تحت المجهر وسيتعامل الأمريكان معه على أنه من القيادات الشرعية والمحرضين على الجهاد، وقد يكون سبباً لبقائه في المعتقل لسنين طويلة، ترددت.. هل أتقدم أم أتقوقع على نفسي؟

لقد تحول العلم الشرعي من مبعث للفخر ومجلبة لوجوه الناس إليه إلى مسؤولية مرهقة وحمل ثقيل يجب على صاحبه أن يدفع ثمنه، لقد كانت قناعتي قديماً أن هذه المواقف هي التي تكشف حقائق الرجال وليس مقدار ما يحفظون أو بلاغة ما يخطبون،

وأن من حفظ القرآن وطلب العلم لا يكون بذلك قد فاز بالسباق، بل هو تأهل للدخول فيه، وأن الاحتفال الحقيقي ليس لمن حفظ القرآن بل لمن عمل به، ولا لمن طلب العلم بل لمن أعطي ثمنه.

لم يدم هذا التردد طويلاً، عزمت أمري وبدأت في إلقاء الدروس والمواعظ مع ثلة قليلة من إخواني طلبة العلم، وبسبب هذه الدروس أعادني المحققون من المعسكر الرابع الجماعي إلى الانفرادي، وهناك ساومني المحققون على إرجاعي إلى المعسكر الرابع مقابل توقفي عن الدروس، كان اختباراً صعباً لا يدركه إلا معتقلو غوانتانامو الذين يعلمون الفرق بين الجماعي والانفرادي، هل سأكون خائناً للقرآن إن قبلت عرضهم؟ هل سأخرج من زمرة الحق الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾؟

لم أشعر بثقل هذه الآية وشدة وطأتها إلا في غوانتانامو، حين تحول القرآن من مجرد ترداد آياته عن ظهر قلب إلى الصدع بآياته عن خشية قلب، يدفع ثمناً غالياً لإثبات صدقه في أنه من حراس الدين لا المنتفعين به، والمدافعين عن الحقيقة لا المتكسبين منها، والحاملين أمانتها على ظهورهم لا المتسلقين على ظهرها.

التعذيب من أجل الأصنام:

رجع أحد قادة الطلبة من غرفة التحقيق منهكاً، وبمجرد أن أدخلوه زنزانته وحلوا يديه ورجليه من القيود ألقى إلي تحية سريعة ثم ارتمى على السرير وغط في نوم يقطعه جلبة الجنود بصراخهم، لم يمض وقت طويل حتى استيقظ من نومه، قلت: ماذا حدث لك في التحقيق؟

صمت قليلاً وهو يدلك بيديه رقبته ثم يمررهما على جسده المرهق، وهو يقول: أصنام بوذا!

قلت: لم أفهم.

: غاضبون من هدم الأصنام، أبقوني في غرفة باردة جداً مقيد اليدين والقدمين لأكثر من ست عشرة ساعة.

: عذبوك من أجل الأصنام؟

: يعتبرون تحطيمها وحشية، ويريدون معرفة من تولى عملية الهدم.

قلت له: قد سألني المحقق قبل أشهر عن رأيي في هدم أصنام بوذا في (باميان) فأجبته:

أعجب منكم حين تدافعون عن مجرد أصنام بينما حرمتم سكان أمريكا الأصليين من حقهم في البقاء، وتقتلون الملايين من الأبرياء في هيروشيما ونجازاكي وفيتنام مروراً بالعراق وأفغانستان واليمن ثم تنددون بهدم أصنام ليست حجارتها بأقسى من قلوبكم، يا له من عالم متخلف ينتفض لصنم حجري ولا تتحرك نخوته لموت أربعمائة طفل أفغاني يومياً بسبب الحصار والجوع والمرض، ولم يكترث لأكثر من عشرين مليون لغم تركها السوفييت في أفغانستان لتحصد كل يوم من أرواح بريئة أغلبهم من الأطفال ورعاة الأغنام، ولم يتأثر العالم الظالم لمسجد (بابري) التاريخي ولا لمسجد (شرار) في كشمير ولا المساجد المدمرة في البوسنة ولا ما يحدث اليوم من تدنيس للمسجد الأقصى، نحن اليوم نعيش في عالم ظالم، الحق فيه ما يراه القوي كذلك.

قلت للأفغاني: أخبرني عن أغرب ما حدث لك مع المحققين!

فحكى لي عن كبير المحققين حين حاوره في جدوى تطبيق الشريعة وإيواء المهاجرين الذين يعدونهم ضيوفاً على الإمارة الإسلامية، قال له المحقق: نحن نرفض تطبيقكم للشريعة الإسلامية.

: هذا أمر ديني وشأن داخلي لا علاقة لكم به.

: لقد آويتم من ابتدأنا بالعدوان.

أجابه: كل ما في القصة هو أن عملاقاً مارداً متوحشاً يقتل ضحاياه برفق وهدوء، رآه غلام ينتزع الإتاوة من الضعفاء المغلوبين، رماه بحجر أدمى به رأسه، طلبه المارد فوجده ضيفاً عند صاحب كوخ، طلب من صاحب الكوخ تسليمه، أبى صاحب الكوخ أن يخفر ذمته، هدم المارد الكوخ، واشتعل الصراع الذي استمر حتى هذه اللحظة، أنت تحاول إيهام العالم أن بداية الفيلم هو مشهد الغلام وهو يرميه بالحجر فأدماه، لكن الحقيقة أن هذا المشهد لم يكن أول الفيلم بل منتصفه، هناك فاتورة طويلة كان على المارد أن يدفعها.

سأله المحقق: هل تؤيدونه على ما فعله بنا؟

: قبل أن تسألني عن حجر الغلام على رأس المارد اسألني عن الآلاف الذين قتلهم المارد وأذلهم من شعوب العالم.

غلت الدماء في عروقه وهو يصرخ غاضباً: لن نسمح لكم ولا لأي كيان بتطبيق شريعة إرهابية متخلفة هيمنت على العالم لقرون، لقد كنا نعد لكم العدة لإيقاف هذا الهراء لكن أحداث سبتمبر استعجلتنا، يجب أن تعوا ذلك جيداً، لن نسمح لكم بذلك حتى آخر دولار في خزينتنا وآخر جندي في صفوفنا.

: يجب عليكم كذلك أن تعوا جيداً أننا لن نتخلى عن شريعة ربنا حتى آخر نفس في صدورنا.

كنت أستمع إليه وقد استحوذ علي العجب من هذا الشعب، ما هو سر صمودهم في وجه الترسانة الأمريكية الهائلة التي ترتجف منها روسيا والصين وأوروبا فضلاً عن الشرق الأوسط؟

كيف استمروا وقوفاً أمام هذه الهجمة الشرسة على الرغم من ضعفهم وبساطتهم؟ أم أن قوتهم تكمن فيما ظنناه ضعفاً؟

لم يكن الملا عمر هو الأعلم من بين المؤسسين للطلبة ولا الأكثر شهرة، ولم يتقدم نحو القيادة لكنه دفع إليها دفعاً ممن يفوقونه علماً وسبقاً، لقد كانت قوته فيمن حوله، أرى ذلك سر نجاحهم وصمودهم رغم الهجمة العالمية التي واجهوها، ولعل ذلك من أسرار الكون التي كشفها لنا رسولنا بقوله: **«لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها»**.

السحر:

أبقاني المحقق ساعات طويلة في غرفة التحقيق الباردة، ثم جاء بماكينة حلاقة ليأخذ عينات من شعري، وضعها في كيس ثم ربطها وخرج، أذكر أني قرأت سورة البقرة هذا اليوم أكثر من ثلاث مرات وكررت الأذكار عدة مرات لتكون درعي إن كانوا ينوون السحر، وإن لم يقصدوه فلن أعدم الأجر.

حدث لعدة معتقلين شبيهاً لذلك، منهم جزائري وضعوه في غرفة مظلمة إلا من نور أزرق كئيب وقد علقوا على الحائط صوراً جنسية وأخرى بشعة لأطفال مقطعي الرؤوس والأشلاء وسط طقوس من البخور ثم قاموا بدهنه بعد أن وضعوه داخل نجمة سداسية مرسومة على الأرض، وآخر سعودي من المدينة فعلوا به قريباً من ذلك، كنت في شك ما إذا كان الأمريكان يحاولون استخدام السحر في غوانتانامو كقوة روحية يصارعون بها الروح القوية المعاندة لهم، أم أنهم يستغلون إيمان الأسرى بالسحر فيوهمونهم باستخدامها.

عبرة:

اقتادني الجنود إلى المعسكر الثالث بعدما تم إغلاقه وإخلاء المعتقلين منه حين انخفضت أعداد المعتقلين بعد إطلاق سراح الكثير منهم فلم يبق إلا القليل، أوقفوني عند عنبر (G) المخصص للتحقيقات ريثما ينتهون من الإجراءات الأمنية وفتح الباب،

اعترتني الدهشة وأنا أشاهد العنابر خاوية على عروشها، البوابة مكسورة وقد علاها الصدأ، الحشائش ملأت المكان، الغبار يعلو الزنازين الفارغة، وأعشاش الطيور منتشرة في الفتحات العلوية للسقوف، اتسخت الأرضية بذرق العصافير، أحقاً ما أراه؟ أتصبح أبوابها مشرعة بعد أن كانت محكمة الإغلاق؟ أتبني الطيور فيها أعشاشها وتتخذها وطناً بعد أن حبست المعتقلين وراء قضبانها ومنعتهم من أوطانهم؟ أبعد أن كانت تضج بتلاوة القرآن تعوي فيها الريح وهي تصفق أبوابها؟

كانت عبرة، كل ما في هذه الدنيا فإلى الفناء يصير، سيبلى الجسد الرشيق، ويتحلل الوجه الجميل، ستصدأ القضبان الحديدية، وتتهشم الأبواب الموصدة، سيموت السجين والسجان، وستضمحل القهقهات الساخرة وتتلاشى الآهات المعذبة، كل أهازيج الفرح وأنين الألم ستندثر ولن يبقى منها شيء، فيا لعمري الضائع الذي صرفته في غيرك إلهي ومولاي.

معادلة محيرة:

قال لي: هناك معادلة محيرة، إيران لم تستطع هزيمة العراق مع أننا دعمناهما معاً، والجيش العراقي لم يصمد أمامنا أسبوعاً واحداً، لكننا لم نستطع الانتصار في أفغانستان والعراق، نريد أن نفهم السر.

: لست جنرالاً في الجيش الأمريكي لتسألني هذا السؤال!

: يجب أن تفهم أننا هنا لا نعاملكم كسجناء عاديين يقضون فترة حكمهم وحسب، لا يوجد فترة حكم لتقضونها، أنتم هنا فيما يعرف بالاحتجاز غير المحدد (Indefinite Detention)، سنستمر في التحقيق معكم، سنضعكم تحت المجهر، سنفحص حمضكم النووي لنفهمكم، أنتم كهف مظلم يحوي الكثير من الكنوز والأسرار، ما هو سركم؟ هل يكمن في الشبكة التنظيمية المعقدة أم قوة الإيمان بالمبدأ أم الشجاعة الجِبِلِّية أم الحنكة القتالية؟ كيف استطعتم الصمود حتى الآن أمام جيشنا الذي لا يقهر؟

: لا أملك جواباً، أنت تسأل الشخص الخطأ!

رجعت إلى زنزانتي وأنا أتأمل ما قاله، فعلاً.. الأمة تضع يدها على أعظم كنز في الوجود، إنه قلب المؤمن الذي لا يهاب الموت، لقد استطاع القرآن أن يغير مفهوم الموت والحياة عند هذا الإنسان الوجل الواقف أمام بوابة الموت، بهذا القلب الذي تَشَرَّب هذا التصور والاعتقاد تطامنت له قمم الجبال، وفتحت له الممالك والقلوب

أبوابها، الأمة اليوم خائفة، مترددة، منهزمة نفسياً قبل أن تهزم عسكرياً واقتصادياً، إنها تدرك أن من اتكل على طعام غيره مات جوعاً، ومن اعتمد على دفاع حليفه سُفِكَ دَمُه، لكنها ترى نفسها مسلوبة الإرادة، إنها لا تعي أنها تملك كل مصادر القوة ومقومات النصر، إنها حين تحلل وتخطط تعتمد على تصورها الخاطئ بأنها مفلسة علمياً واقتصادياً وعسكرياً، هذه الأمة ليست جاهلة فقيرة ضعيفة، لكنها استسلمت للجهل والفقر والضعف، نصب صياد فخاً لأشبال الأسد فوقعوا في قبضته، وضعهم مع الخراف زمناً، يلعبون سوياً، يأكلون البرسيم معها حتى ظنوا أنفسهم خرافاً، رأتهم السلحفاة الحكيمة التي عركتها تجارب السنين، قالت لهم بشفقة: ما بالكم أيها الأسود تعيشون كما لو كنتم خرافاً؟ نظروا إلى بعضهم مندهشين: نحن أسود؟! لابد أنك قد خرفت! نحن مجرد خراف بائسة، انظري إلى المربض وحزمة البرسيم وذاك الراعي الذي يقودنا بعصاه، نظرت إليهم برثاء وقالت: ما لم تروا أنيابكم القاطعة ومخالبكم الحادة لن تعودوا ملوك الغابة كما كنتم.

التحقيق:

وافق وزير الدفاع دونالد رامسفيلد في ديسمبر سنة ٢٠٠٢ على استعمال طرق قاسية في التحقيق، مما أعطى صلاحيات أكبر للمحققين في جلسات الاستجواب، فاستخدموا في معتقل قندهار وبغرام الضرب المبرح والتركيز على أماكن الجراح والعمليات الجراحية، واستخدموا طرقاً غير مباشرة في غوانتانامو لإيصال الألم للمعتقل، كما استخدموا الموسيقى الصاخبة والأضواء الشديدة والبرد القارس لفترات طويلة على بعض المعتقلين في غرف التحقيق، تم لف أحد المعتقلين بالعلم الإسرائيلي وهو مقيد بوضع مذل في التحقيق، والمنع من الصلاة ثم السماح له بالصلاة ليقف المحقق أمامه وهو ساجد كأنه يسجد له، ورش البول حال الصلاة ووطأ المحقق على القرآن أمام المعتقل الموثق بالسلاسل، وتقييد الأطراف من الخلف والإلقاء أرضاً على هذه الحال لساعات طويلة دون أكل أو شرب أو السماح لهم بقضاء حاجاتهم.

كان الأمريكان يستعينون بمترجمين أمريكان من أصول عربية للتحقيق ولإدارة شؤون المعتقل، معظم المترجمين في العنابر كانوا من الجنسية المصرية والعراقية، أما في التحقيق فقد أتاني المصري والعراقي والفلسطيني وآخرون يتقنون اللهجة الكويتية والسعودية بشكل كبير، ولا أدري إن كانوا مواطنين كويتيين وسعوديين قبل حصولهم على الجنسية الأمريكية أم أنهم قضوا فيهما عمراً فأتقنوا اللهجة؟

كان المحققون يستخدمون عدة أساليب في التحقيق، منها البرد الشديد الذي جعل الكثير من معتقلي غوانتانامو يصابون بآلام في المفاصل، والحر الشديد حتى إن بعض المعتقلين كان ينتف شعر رأسه بسبب شعوره بالاختناق لفترة طويلة، حدث أن عاقبني أحد المحققين في انفرادي العقوبات، كانت فتحة التكييف في سقف الزنزانة تنفث هواء دافئاً ضعيفاً، فما لبث الجنود أن أطفأوا التكييف تماماً، شعرت بالاختناق الشديد، أحاول الاستنشاق بعمق بلا فائدة، وضعت فمي على شق الباب لأملأ صدري من الهواء بعد أن أوشكت على السقوط من الإغماء، قد يستمر هذا الأسلوب ليوم كامل، تستيقظ من النوم منتصف الليل لتضع فمك على شق الباب تملأ صدرك من الهواء لتعود مرة أخرى تصارع النوم من جديد وسط الإزعاج المستمر.

كذلك أسلوب الإهانة والسب والاحتقار تهدف إلى كسر إرادتنا وأحياناً يحاول المحققون المبالغة في الإطراء والمدح لإغرائه بالحديث عن بطولاته!

لم يكتف المحققون بالبحث عن المعلومات المتعلقة بأحداث سبتمبر، بل بالعمل الخيري تمويلاً وإدارة وبفهم طبيعة الشعوب والنسيج الاجتماعي لكل منها، بل تعدوا ذلك إلى أمور غريبة، اقتادني الجنود في إحدى المرات إلى عنبر (blue) الخاص بالوفود الأمنية والزوار من خارج غوانتانامو، كان المحققون من (CIA)، انتابتني حالة من الدهشة وأنا أستمع للأسئلة المرتكزة على تصور المسلمين للرؤى والمهدي والملاحم، كان الأمريكان حريصين غاية الحرص على فهم أيديولوجيا المعتقلين وتصوراتهم.

كانوا أحياناً يستفزون المعتقل قبل أن يلتقي بالوفد الأمني المبعوث من بلده، تقتحم قوات الشغب زنزانته ويرشونه بالبخاخ الحارق مع الضرب والإهانة حتى يلتقي بالوفد وهو متشنج الأعصاب متوتر غاضب، فيقول المحققون للمعتقلين: إن هذه الوفود جاءت لخدمتنا وتقديم المعلومات التي تورطكم في ارتكاب عمليات إرهابية، وكانوا يسمحون للوفود الأمنية التجول من خارج العنبر خلف الغطاء الأخضر، ويخبر الجنود المعتقلين أن هذا الوفد الأمني جاء من البلد الفلاني، فيستقبله المعتقلون بالسباب والشتائم، كنت أتأمل الحدث، لماذا تتصرف الولايات المتحدة بهذه الطريقة؟ بغض النظر عن السبب الحقيقي لمجيء الوفود الأمنية لغوانتانامو، أتساءل لماذا تستثير الولايات المتحدة المعتقلين ضد حكوماتهم ثم تؤلب حكوماتهم ضدهم؟ لماذا الإبقاء على هذا التوتر والعداء بينهما، هل تخشى الولايات المتحدة التقارب بينهما لتتحول فكرة التمرد على الاحتلال من حصرها في تنظيم أو جماعة أو فئة لتصبح فكرة أممية تسعى للنهوض من جديد؟

افتحوا الباب:

في إحدى حوادث إهانة القرآن قرر المعتقلون الإضراب عن الطعام، كان معهم في العنبر مسن أفغاني تجاوز عمره المائة، يعتريه الخرف أحياناً، كان يفرش الشرشف كل يوم ويضع فيه أغراضه البسيطة التي في الزنزانة كالكوب الورقي والصابون والمنشفة، ثم يلفها ليحملها على ظهره ويضرب باب الزنزانة، وعندما يأتيه الجندي مستفهماً، يصيح في وجه الجندي: هيا افتحوا الباب فقد قررت العودة إلى منزلي!

رأى صحون الطعام الورقية موضوعة على النافذة، فسأل أحد الأفغان في العنبر بالبشتونية: ماذا يجري؟ لماذا رفض إخواننا العرب طعامهم؟

فأخبره بأنهم قرروا الإضراب عن الطعام بسبب إهانة الجنود للقرآن.

: إذن أنا مضرب معهم!

حاول المعتقلون العرب ثنيه عن قراره بسبب مرضه وكبر سنه إلا أنه رفض، ومن رحمة الله أن هذا الإضراب لم يطل سوى ثلاثة أيام حتى حل المسئولون المشكلة.

تضحية:

عوقب أحد المعتقلين المرضى لأنه رفع صوته على الممرض غاضباً من تعمده عدم إعطائه مسكناً للآلام لأكثر من أسبوعين، فأضرب الأخ الذي بجواره عن الطعام نصرة لأخيه المريض المعاقب الذي تمت مصادرة كل أغراضه في الزنزانة، جاء المسئول إلى الأخ المضرب يهدده بالعقوبة إن لم يتوقف عن الإضراب حالاً، لكنه رفض حتى يرفعوا العقوبة عن جاره المريض ويعطوه مسكناً لآلامه المبرحة، فعاقبوه بعقوبة أشد من عقوبة الأخ المريض بأن زادوا على مصادرة أغراضه منعه من الخروج للاستحمام والمشي، خجل المريض من تضحية جاره قائلاً: أرجوك توقف عن الإضراب.

: لا عليك.. إنما أردت أن أقوم بحمية لا أكثر!!

كنت أراه أمامي يتظاهر لجاره بالقوة والنشاط، كنت أعلم أنه لم يضرب إلا نصرة لأخيه، جميل أن تضحي من أجل إخوانك، والأجمل منه أن تضحي ثم تشيح بوجهك عنهم كيلا ترى حمرة الخجل والامتنان على محياهم، مرت أربعة أيام من إضرابه فجاءه الممرض وأعطى المريض مسكناً للألم فتوقف عن الإضراب.

المزاري:

كان هناك معتقل أفغاني دكتور يناديه المعتقلون: الدكتور المزاري، أراد أن يشارك إخوانه في الإضراب، فأضرب ما يقارب العشرين يوماً مكتفياً بالماء دون أن يدخل جوفه ذرة طعام، خرج إلى قفص المشي وكان بقربه معتقلان تركستانيان، والتركستانيون من خيرة المعتقلين خلقاً وأدباً وشهامة، وحين جاء موعد الغداء أحضروا الطعام لهما ورفضه الدكتور المزاري، تسللت رائحة الطعام إلى أنفه فحركت في نفسه حنيناً كامناً إلى العهد القريب من الإلف الحبيب (الصحن)، تلك المعشوقة الناشز التي طال هجرها!

يبدو أنه قرر إنهاء إضرابه، التفت إلى التركستانيين بعيون تريد أن تلتهم كل ما تراه، قال لهما مع ابتسامة جائعة: لن يكون لكما اليوم من هذا الطعام نصيب!

غرقا في الضحك: لك ذلك.

كان الطعام لا يكاد يسد الرمق لكنهما آثراه به بعد عشرين يوماً من تضوره جوعاً، التهم الطعام التهاماً في لحظات، كل الطعام، لم يبق منه شاردة ولا واردة، رفع يده عن الصحنين وهما قاعاً صفصفاً ليس فيهما أثر الطعام بل ولا رائحته، تمدد على ظهره وهو يشعر بآلام شديدة في معدته التي انكمشت بعد حرمان طويل لتفاجأ بهجوم مباغت لم تحسب له حساباً، وبينما هو على حاله تلك مستلق على ظهره تعصف في بطنه الآلام وتلفحه أشعة الشمس بوهجها، إذ سمع أصوات السلاسل قادمة من بداية العنبر، تقدم ثلاثة من الجنود إلى بوابة قفص المشي، ثم ألقوا بالسلاسل على الأرض وهم يمسكون طرفها، نادوا برقمه.

: ماذا تريدون؟

قالوا وهم يشيرون إلى أنوفهم: لقد قررت الإدارة إخضاعك للتغذية القسرية!

: لماذا؟

: لأنك مضرب عن الطعام منذ ثلاثة أسابيع.

: كنت مضرباً، أما الآن فلا.

: هذا الكلام تقوله للضابط بعد عملية التغذية عن طريق الأنف! هيا.. الكرسي بانتظارك!!

: لكني أكلت طعام اثنين، ومعدتي لا تتحمل.

: إن رفضت فسنأتي الآن بقوات الشغب لأخذك بالقوة، لا خيار لك.

قيدوه على كرسي التغذية، اجتهد المغذي في البحث عن فراغات يتسلل إليها في معدته المتخمة التي انتفخت حتى أوشك على تقيؤ كل ما أكله، رآه أحد المضربين من شق الباب وهو على الكرسي، ظنه التحق بركب المضربين في التغذية القسرية، سلم عليه وهو يناديه مصبراً: حياك الله يا بطل!

اكتفى المزاري بالصمت لأنه يعلم أن أي كلمة قد يتبعها الطعام المودع في جوفه، يكرر السلام دون رد، أخذت معدته في الانتفاخ، اقترب فيها من الاختناق، أرجعوه إلى زنزانته مترنحاً كأنه سفينة مخرقة غارقة في بحر من المغذي.

ولهذا الدكتور موقف مضحك مع أحد المعتقلين حين انتابته حالة من الفواق (شهقات قصيرة متكررة بسبب تقلص الحجاب الحاجز)، فقال له غاضباً: لماذا تغتاب إخوانك الأفغان؟

صدم الأخ من هذا الاتهام: لم يحدث هذا!

ابتسم الدكتور وقال: لا عليك أردت أن تصاب بصدمة نفسية ليزول عنك الفواق وقد زال!

اقتبس الأخ من الدكتور هذه الخطة، وبعد أشهر رأى أحد المعتقلين من مكة وهو من المعروفين بشدة البأس والشجاعة وقد أصيب بالفواق، فقال لأخ قريب منه: لقد تعلمت من الدكتور المزاري فائدة تزيل الفواق، حاول أن تصيب الأخ المكي بصدمة نفسية وحتماً سيتوقف عنه الفواق كما توقف عني.

فأجابه: ومن يستطيع أن يصدم هذا الإنسان؟ اتركه يفوق حتى يتوقف هو بنفسه.

البوسنيون:

استخدمت الولايات المتحدة سياسة التخويف وإرعاب المسلمين وأن جميعهم في قبضتها، وأنها قادرة على القبض على أي مسلم في أي مكان في العالم ولو من غير دليل ثم إرساله إلى غوانتانامو، أمرت الولايات المتحدة الحكومة البوسنية بالقبض على شخص جزائري يعيش فيها منذ سنين لا علاقة له بالإرهاب، لم يجدوا عليه سوى مشكلة في الجواز، اتصلت زوجته البوسنية بأحد أصدقائه الذي كان يعمل في إحدى المنظمات الإغاثية الرسمية، فحاول مساعدة صديقه بتوكيل محامي يدافع عنه، لكن قوات الأمن داهموا بيته ليجدوا أصدقاءه يشربون عنده الشاي، تم القبض عليهم

جميعاً، كانوا من أصول جزائرية يعمل معظمهم في المنظمات الإغاثية، تم اتهامهم بمحاولة تفجير السفارة الأمريكية في سراييفو!

لم يكن هناك أي دليل بل ولا مجرد شبهة لاتهامهم بهذا الأمر، لقد كانت دعوى كيدية لإرهاب المسلمين في العالم، لكن القضاء البوسني قطع ببراءتهم من جميع التهم، وعلى الرغم من كل هذا تغلبت غطرسة الأمريكان على عدالة المحكمة، فهددت الولايات المتحدة الحكومة البوسنية بتسليمهم إليها وإلا!

انتشر الخبر بين الأهالي بأن هؤلاء الستة العرب قد تم نقلهم إلى مبنى الأمم المتحدة تمهيداً لتسليمهم إلى الأمريكان الذين سيرسلونهم إلى غوانتانامو، فانهمرت حشود البوسنيين لتحاصر المبنى رفضاً لتسليم العرب الذين ضحوا بالغالي والنفيس لتخليصهم من أنياب الصرب والكروات حين تخلى عنهم القريب والبعيد، ومع توتر الوضع أمرت القوة العسكرية بالإسراع بنقلهم إلى السفارة الأمريكية قبل أن تتكاثر الحشود، كان الجو شديد البرودة والأرض مغطاة بثلوج كانون الثاني، استلقى شبان وشابات على الشارع منعاً للسيارة من المرور، اضطرت السيارة للدخول مرة أخرى والتسلل من الباب الخلفي!

كان بينهم مسلمات حاسرات وضعن أجسادهن تحت عجلات السيارات، بينما كان هناك شيوخ ذوو لحى هللوا لتسليمهم، إنه كالفرق بين تقصير الطبيب في التزام الرداء الرسمي لكنه مخلص في عمله، وطبيب ملتزم به لكنه يتاجر في الأعضاء البشرية!

نشر (سند) أحد كبار الصحفيين البوسنيين في جريدة (الحرية) البوسنية أن الرئيس البوسني (زلادكو) عندما سئل عن سبب تسليم الستة البوسنيين أجاب بأنه لم يكن بمقدوره معارضة الولايات المتحدة، ثم قال بكل وضوح: (اتصلت بي السفارة الأمريكية وطلبت مني الحضور إليها، فلما جئتهم وجدت السفير الأمريكي غاضباً، ثم هددني قائلاً: أمامك خياران لا ثالث لهما، إما أن تسلم الستة أو سنترك الصرب ليأكلوكم أكلاً!

فقلت للسفير: لقد حكمت المحكمة البوسنية ببراءتهم ومن الصعب علي أن أسلمهم إليكم بعد حكمها الملزم.

فوضع السفير إصبعه على فمه يأمره بالسكوت، ثم قال: نحن لم ندعك هنا لنتناقش، وإنما دعوناك لتنفذ ما نقوله لك فقط.

فما كان مني إلا أن أسلمهم!)

وفي غوانتانامو اتهموا أحدهم بأنه كان يخطط لتفجير السفارة الأمريكية في تاريخ

معين، وقد كان في هذا التاريخ مسجوناً بسبب جوازه، كان من بين الستة مساعد مدرب المنتخب البوسني للكاراتيه، اتهموه بأنه عضو في القاعدة، ودليلهم على ذلك هو حصوله على ثلاثة (دان) في الكاراتيه!

ثم استدلوا على أنهم شبكة إرهابية منظمة هو أن كل واحد منهم يلبس خاتماً فيه فص من الأحجار الكريمة، وفسروها بأنه شفرة بينهم!

اتهموا أحدهم بأنه جاء إلى السفارة الأفغانية في سراييفو للحصول على تأشيرة لدخول أفغانستان، مع أنه لا يوجد سفارة أفغانية في البوسنة!

تولى قضية أحد المعتقلين البوسنيين محام أمريكي ذو نفوذ، والذي يستشيره بعض أصدقائه ممن يحتلون منصباً كبيراً في المحكَمة العليا ومسئولون كبار في الحكومة الأمريكية، قال في سنة (٢٠٠٩): أضع أحداث ٩/١١ وكل ما ترتب عليها من غزو العراق وأفغانستان وخسائرنا الباهظة فيها في كفة ومعتقل غوانتانامو في الكفة الأخرى، لأن خسارتنا في غوانتانامو ليست مادية بقدر ما هي معنوية تجعلنا نشعر بالخزي والعار إذا فتحنا أفواهنا مرة أخرى ونادينا بالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان.

وبعد سنين طويلة تم إطلاق سراحهم جميعاً بدون أي محاكمة.

المعسكر الخامس:

بينما أنا في عنبر (ليما) بجوار أخ شنقيطي ذي فكاهة لا أتحفظ معه في حديثي إذ رأينا عمالاً يبنون على قدم وساق منشأة جديدة سرعان ما ارتفعت من وراء الأسلاك الشائكة والغطاء الأخضر، وكانت الأخبار تتوالى عن طريق المحققين والصليب الأحمر أن معسكراً جديداً يطلق عليه (المعسكر الخامس) سينتهي الأمريكان من بنائه قريباً، وسيتم اختيار خمسين معتقلاً من بين أكثر من سبعمئة لينقلوا إليه، سيكون مخصصاً لشر الأشرار ولما أسموه (لب الإرهاب) أو (The Core Of Terrorism)، كانت الدعاية الأمريكية على هؤلاء الذين سينتقلون إلى الخامس مخيفة، لدرجة أن المعتقلين كانوا يتعوذون بالله من الانتقال إليه، استغل المحققون هذه الدعاية لمساومة المعتقلين.

كنا ننظر إلى البناء المرتفع في إحدى الليالي، كان منظره جميلاً من بعيد، أبيض اللون تزيده الكشافات القوية جمالاً، لكننا لم نكن نعرف أن في داخله أبشع صور التعذيب النفسي، قلت لأخي الشنقيطي مازحاً: انظر إلى هذا القصر الأبيض الجميل، أشعر أنهم سينتقمون فيه منا أشد انتقام، كان غارقاً في ضحكه وهو يراجعني القول:

سيجهزون لك التماسيح والأفاعي، سيبدأ التمساح بقضم أصبع رجلك شيئاً فشيئاً، قلت: أشعر أنهم سينقلونني إليه، كان يضحك، لكني حين قلت: (وأحسبك ستكون معي) تحولت ضحكته إلى ما يشبه الفحيح!

لم تمض عدة أيام حتى جاء الأمر بنقلي إلى مكان مجهول، اقتادني ثلاثة جنود إلى انفرادي العقوبات دون سبب، جاءني في اليوم الثاني ضابط كبير ووقف أمام زنزانتي، فتح الجندي له النافذة، حنى ظهره ليكلمني منها: كيف حالك (٥٥٢)؟

: الحمد لله، أنا دائماً بخير.

مستغرباً: بخير في هذه الزنزانة الضيقة؟

: الضيق والسعة في قلب الإنسان وليس في سعة المكان.

: هل تعلم لماذا أنت هنا؟

: لا

: سيأخذونك للتحقيق قريباً وسيخبرونك بالسبب، تعاونك معهم لصالحك.

بقيت في الانفرادي ثلاثة أيام، وفي منتصف الليلة الثالثة أخذوني إلى غرفة التحقيق في معسكر آخر، بقيت في الغرفة الباردة لساعات، دخلت علي المحققة (ميغن) معها المحقق الأسود (ديفيد)، كانت تتغنج كعادتها بينما حاول ديفيد أن يأخذ دور الشرير، لم يكن هذا الدور مناسباً له، كانت في ملامحه بقايا إنسانية يحاول أن يخفيها، كان يضرب على الطاولة متوعداً: أنت إرهابي

: ما تهمتي؟

: أنت من القاعدة وطالبان.

: تكررون نفس القصة الحزينة، ما دليلك؟

: مراوغتك تدل على أنك تدربت جيداً في معسكرات القاعدة على التهرب من الاستجوابات!

: إما أن أعترف فأكون إرهابياً أو لا أعترف فأكون إرهابياً متدرباً.. عظيم!

: ما دليلك على أنك لست إرهابياً؟

: عبء الإثبات يقع عليك أنت.

: أها.. هذا أكبر دليل على أنك متدرب في معسكرات القاعدة!

: المتهم بريء حتى تثبت إدانته، قاعدة مُسَلَّمَة لا تحتاج لمعرفتها إلى حصولي على الدكتوراه.

كان المترجم يترجم لهم كلامي، فسمعته يقول ضمن السياق: إنه يقول بأن تنظيم القاعدة مسلمون!!

نظرت إليه غاضباً: ماذا قلت لهم؟

: أترجم لهم ما قلت.

: أنا لم أذكر تنظيم القاعدة قط.

: أنت قلت القاعدة مسلمون!

: بل قلت هي قاعدة مُسَلَّمَة، ترجمتك مدمرة، أنا أقصد بالقاعدة الأصل والمبدأ العام، التفت إلى المحقق: إنه يترجم لكم خطأ.

لا أدري إن كان يقصد توريطي أو لا لكننا كنا نعاني كثيراً من سوء الترجمة التي دفع المعتقلون ثمناً باهظاً بسبب أخطائها، تركوني برهة من الوقت ثم عادوا مرة أخرى وقد كان (ديفيد) منفعلاً و(ميغن) بجواره: أنت تكذب علينا طوال الوقت.

: هذه مهمتك كمحقق، إن لم تقل للمتهم أنت كاذب فلا داعي لوجودك، أقدر هذا لكن يجب أن تتفهم وضعي كذلك، لا يستطيع أي إنسان في العالم أن يثبت براءته بما لا يدع مجالاً للشك، عندنا أصل مهم وليس قاعدة مهمة (التفت إلى المترجم منبهاً) البينة على المدعي واليمين على من أنكر، لست منتمياً لهذه التنظيمات ولا علاقة لي بالإرهاب جملة وتفصيلاً.

قال ديفيد وهو يضرب بقبضته على الطاولة: أنت وهابي!! في البداية لم ينطقها جيداً لكني فهمتها مع الترجمة، لأول مرة اتهم بهذا الأمر، تهمة سخيفة بحق.

: أنا مسلم، ولا أنتمي لشخص ولا فكر إلا للإسلام ونبي الإسلام فقط.

: بل أنت وهابي ودرست في جامعة وهابية! ألم تدرس في جامعة الإمام محمد بن سعود؟ أخذت منه عملية تهجئتها وقتاً طويلاً، صعقت وأنا أسمع هذا الهذيان.

: وهل كل من يدرس فيها يعتبر وهابياً؟ ثم ما معنى الوهابية عندك؟ صدقاً.. أنا لا أرتضي هذه النسبة، ثم هبني كما تقول فهل هي تهمة؟

: نعم بكل تأكيد، هذا فكر متطرف أصولي إرهابي.

: حسناً.. مالي لا أرى في الزنزانة المجاورة مدير الجامعة وطاقم التدريس والممول؟ والقائمة تطول بما لا تسعه زنازين غوانتانامو؟

نظر إلي نظرة حائرة ثم قال: هذه أمور سياسية، لكن سيأتي الوقت الذي يجب فيه محاسبة الجميع.

: إلى حين محاسبتهم أطلقوا سراحي.

كانت معظم أسئلتهم عن دروسي في العنابر، ولتخويفي منها اتهموني بأني كنت ألقي الدروس على المقاتلين في أفغانستان، وأني كنت محرضاً للقاعدة.

قالت ميغن: فايز.. لقد جاء قرار بخصوصك، قرار سيء، بإمكانك الآن أن توقف هذا القرار بتعاونك معنا، هذه فرصتك الأخيرة.

: لا تريدون قبول كلامي، لا تريدون محاكمتي، لا تريدون معاملتي معاملة إنسانية، لا تريدون إطلاق سراحي، إذن افعلوا ما تشاؤون فقد توكلت على ربي وربكم.

دخل الجنود وأوثقوني بالقيود، انطلقوا بي إلى خارج العنبر و(ميغن) و(ديفيد) يسيران بجانبي.

: اعترف.. هذه فرصتك الأخيرة!

خرجوا بي من المعسكر وأنا أمشي رويداً والقيود تحتك بعظم الساق فينبض الألم، وإذا بسيارة إسعاف تنتظرني!!

: فايز.. ستنتقل إلى مكان سيء جداً، مكان سيجعلك تعترف لنا بكل شيء، زنزانة رهيبة تنتظرك إن لم تتعاون معنا.

: بل هي مرحلة أتعلم فيها المزيد، وتصقل فيها نفسي، وحتماً ستنتهي، الظروف الصعبة لا تكسر الإيمان بل تقويه، نتكيف مع شكل الوعاء ولا نذوب في الماء، هكذا علمنا الإسلام.

أدخلوني السيارة مقيد اليدين والقدمين، ثم وضعوا الغطاء على عيني وأذني، سمعتها تقول: فرصتك الأخيرة، قلت: حياتك أيضاً تعتبر فرصتك الأخيرة للفوز بالجنة والنجاة مما ينتظر الظالمين المعاندين.

أغلقوا الباب بعنف في يأس، كنت قلقاً لا أدري ماذا ينتظرني، أخذت أردد: الله ..الله ربي لا أشرك به شيئاً، كنت أقولها بتأن، أتأمل رونقها وأتذوق لذتها،

كنت كمن يستطعم الحلوى مستمتعاً، الله . .الله ربي لا أشرك به شيئاً، إنه التسليم المطلق لمن بيده الأمر كله، وأي عاقل يخشى خادماً في حضرة الملك؟ ما هي هذه القيود الهشة والحواجز الحقيرة والجنود البؤساء أمام عظمة الكوكب، بل المجرة، بل الكون، بل الله سيد الأكوان وخالقها؟

عجباً لهذه الكلمات النورانية حين تقال في الأزمات، تنبعث حقيقتها من رفاتها بلهب الألم كما يظهر طيب الطعام عند تسخينه على النار، تتحول من مجرد كلمات إلى أنيس يسامرك ويؤانسك.

توقفت السيارة، أخرجوني منها وأوقفوني أمام بناء محكم، وبعد إجراءات أمنية مطولة فتح لي الباب والجنود يمسكون عضدي بعنف، (بسم الله ولجنا وبسم الله خرجنا وعلى اسم الله ربنا توكلنا)، إلهي وسيدي ومولاي. . أنا لك وبك ومنك وإليك، أصبح لكل دعاء أقوله طعمٌ جديدٌ لم أشعر به من قبل، شعرت أني أستقبل الإسلام غضاً جديداً، لم أتوقع أن (باسم الله) لها كل هذه العظمة والجلال الذي شعرت به لحظتها، لقد اختلفت عندي كل تعاليم الإسلام، أصبح لونها أزهى وشذاها أزكى وطعمها أحلى، بل كانت كذلك لكني أنا الذي اختلفت، أين كنت عن كل هذا الجمال وهذه الروعة؟

كان غطاء العين مرتخياً قليلاً، خفضت رأسي لأرى من أعلى الغطاء ما يدور حولي، استقبلني مركز التحكم المليء بأجهزة الكمبيوتر والشاشات التي تعرض نقلاً حياً للزنازين والممرات وأقفاص المشي، انتظرت طويلاً في هذا المعسكر الذي لا يخرج منه أحد ولا يدخل إلا بعد إجراءات طويلة وإذن من مبنى القيادة، أخذ الجنود يسيرون بي يمنة ويسرة، ثم أدخلوني عنبراً عليه حرف (B)، أوقفوني أمام زنزانة، أخرج المسؤول جهاز اللاسلكي وردد:

(delta delta delta 2.Control open cell 104)

كان صوت الباب وهو يفتح بالتحكم عن بعد يثير القلق والتوجس، ماذا سيفعلون بي؟ صفعني الهواء البارد وكأني أمام ثلاجة موتى، كشفوا الغطاء عن عيني وإذا بي أمام زنزانة، دفعني الجندي للداخل ثم قال:

(control close cell 104)، أزالوا عني القيود من النافذة ثم أغلقت من جديد، وبمجرد أن أغلقوا علي بابهم فتح الله لي بابه، انتابتني راحة نفسية غامرة عجيبة، أدركت لاحقاً أنها كانت بمثابة قطعة الحلوى التي تعطى للمتسابق ليستعين بها على نزال وشيك.

كانت زنزانةً انفراديةً طولها أربعة أمتار وعرضها متران ونصف تقريباً، المرحاض المعدني ملتصقٌ بالمغسلة، تعلوها مرآة تعكس صورة المعتقل بشكل مشوه، لا يوجد شيء اعتباطي في الزنزانة، كل ما فيها جاء بعد دراسة نفسية عميقة لتحطيم المعتقل من الداخل. الأضواء الساطعة منبعثة من ثلاثة أنابيب من مصباح النيون القوي مشتعلة طوال الوقت ليلاً ونهاراً دون توقف، الطلاء الأبيض اللماع يغطي الجدران فينعكس الضوء الساطع من كل اتجاه طوال الوقت، كنا نغطي أعيننا بالشرشف لنخفف من تأثير الإضاءة الساطعة التي تبهر العين وتسبب الصداع، استمرت سياسة التجويع والعقاقير والاستفزاز الجنسي والإضاءة المتواصلة لمدة سنة كاملة!

لقد كانت السنة التي قضيتها في المعسكر الخامس أشد سنة مرت علي في غوانتانامو، لكني أحمد الله أني كنت ممن اختير للذهاب إليه، لأني وجدت أجمل أيامي أعسرها وأمرها أيسرها، ولأن الكثير من نقائصي لم يذب إلا في تنور بلائه، والكثير من عيوبي لم أكتشفها إلا في مرآة محنته، والنفس البشرية كسبيكة الذهب لن تتخلص من شوائبها بالمسح عليها بمنديل من حرير، أو بمحاضرة تدعوها إلى الصفاء، بل بدخول فرن البلاء الشديد وكير الامتحان القاسي، تتأوه وتتألم والنار تلفحها من كل جانب، كان إخواننا في العنابر الأخرى يقنتون في صلواتهم من أجلنا.

استمتعت بالهدوء في الأيام الأولى من وجودي في المعسكر الخامس، انتهى الإزعاج المستمر على مدار الساعة، عدم رؤية الجنود البغضاء كان نعمة عظيمة تستحق الحمد، لكن هذه الراحة تحولت تدريجياً مع مرور الوقت إلى وحشة، إن التحول المفاجئ من الإزعاج المتواصل إلى الصمت المطبق له تأثير نفسي هائل، حتى الجنود منعوهم من الحديث مع بعضهم البعض ومع المعتقلين للحفاظ على هذا الجو الصامت الموحش، أما الجنود فالبعد عنهم راحة، كنا نتمنى لو أن بيننا وبينهم سد يأجوج ومأجوج، لكن العزلة عن إخواننا له تأثير نفسي عميق، كنا نخضع لتجارب نفسية خبيثة تهدف لتحطيمنا من الداخل، وتعبيد أرواحنا لهيمنتهم، لنعلن استسلامنا التام لهم حتى يتم استغلالنا لتحقيق أهدافهم.

انقطع المحققون عني لشهر أملاً في أن أضعف وأطلب مقابلتهم كي يخلصوني من هذا العذاب، خابت آمالهم فبدؤوا بعدها بالتحقيق معي أسبوعياً لمحاولة التعرف بطريقة غير مباشرة على آثار برنامجهم علينا، كانت الأسئلة مكررة مع إضافة الأسئلة عن مشاكلنا، كنت أدرك أنهم لا يسألوننا عن المشاكل لحلها بل لمعرفة ما يؤثر فينا، فكنت أجيبهم بالعموميات.

حاولت بداية أن ألتزم بالبرنامج الذي وضعته لنفسي: قيام الليل، أذكار، مراجعة

القرآن، دعاء، تمارين رياضية، يوم بعد يوم، ثم توالت الأسابيع والأشهر، كان التواصل مع بعضنا مرهقاً مما جعلنا ننطوي على أنفسنا أكثر الوقت، استعانت إدارة المعتقل بوضع العقاقير في الطعام، عرفنا من خلال الأعراض أنها ليست نوعاً واحداً، كل معتقل يعطى ما يناسب هدف المحققين تجاهه، بعض العقاقير منوم وآخر يسهر وآخر يشعرك برغبة جامحة للطعام وآخر للإنعاظ!

كنا نرى من ثقب فتحة الزنزانة الجنود وهم يوزعون الصحون الورقية للطعام وقد كتب على كل واحد منها رقم المعتقل الذي خصص له هذا الصحن على الرغم من أن الطعام متماثل لكل المعتقلين في ذلك الوقت، نراهم يلتقطون الصحن السفلي لفلان والعلوي لآخر وهكذا، شعرنا بآثار غريبة متفاوتة بين كل شخص وآخر، شخص يغلب عليه النوم طوال الوقت بشكل غريب، كنت من ضمن هؤلاء، كنت أغالب النوم فلا أستطيع، أقاوم ماشياً في الزنزانة فأكاد أسقط من الإعياء، أحاول مراجعة القرآن فيثقل لساني كأني قد تعاطيت مخدراً، أخلد البعض للنوم هرباً من الضغوط الهائلة، لن أستسلم بإذن الله، حذرت الإخوة من الاستسلام للنوم لأنه يزيد الكآبة ويقتل الروح المتفائلة والعقل المتفكر، كان هناك آخرون لا يستطيعون النوم لأيام، سمعنا أحد الإخوة يخبط رأسه بالحائط، هتفنا عليه نسأله عن حاله، أخبرنا أن هذا اليوم هو الثامن الذي يمر عليه دون أن تنعم عيناه بالنوم! ثمانية أيام متواصلة! وآخر أخبرني على استحياء أنه يشعر بهيجان جنسي غريب على الرغم من قلة الطعام، هيجان مستمر لأيام لا يهدأ أبداً حتى شعر بآلام فظيعة في جهازه التناسلي، وحين سألته إن كانت هناك إغراءات جنسية في التحقيق أفصح لي عن وجود محققة حاولت معه مراراً الإغراء الجنسي دون جدوى، هنا بدأت الأمور تتكشف، أنا كذلك كان المحققون يطلبون مني التوقف عن الدروس، وحين لم أفعل كانوا يسألونني في التحقيق بشكل غريب عن طبيعة نومي هل تغيرت أم لا! رأينا في إحدى المرات حبيبات رصاصية اللون في الشراب لم يكتمل ذوبانها، توقفت عن تناول الشراب والسوائل كالمرق القليل الذي يضعونه على الطعام، فانقلب حالي واعتدل نومي، نصحت الإخوة بالتوقف عن الشراب فتغير حالهم كذلك بالنسبة للنوم، لكن الجوع زاد، رفض أحد الإخوة الامتناع عن أي شيء في وجبة الطعام قائلاً: أتحمل كل شيء إلا الجوع! كانت كمية الطعام قليلة حين كنا في المعسكر الأول والثاني والثالث، لكنها أصبحت على النصف حين قدمنا المعسكر الخامس الذي أرادوه معسكراً لترويض من أسموهم (شر الأشرار)! كنت أصوم فأفرغ الكوب الفليني من الشراب ثم أضع فيه طعام الإفطار وحين يأتون بالغداء أضعه في ذات الكوب والعشاء كذلك فيمتلئ الكوب المتوسط الحجم بثلاث وجبات لأفطر عليه! كوب واحد ارتفاعه أقل من الكف لا يكاد يمتلئ من ثلاث وجبات! لم تكتف الإدارة

بذلك بل كانت تضع عقاقير تزيد من الشهية، كنا نئن من شدة الجوع، كنت أحتفظ بالتفاحة لأيام، أشمها كل ساعة لعلها تخفف عني شيئاً من سخفة الجوع، أكلنا قشر الموز والبرتقال عشرات المرات، أحد الإخوة أكل الصحن الفليني! وحين سأله الجنود عن الصحن قال وهو يتجشأ: أكلته! اقتحمت عليه قوات الشغب لاستخراج الصحن الذي ظنوه مخبأ هنا أو هناك، عاقبوه على عدم إرجاع الصحن للجنود! سألناه عن طعم الصحن فقال: لا بأس به لولا القليل من المرارة، لكنه أشعرني بالشبع!

يجب على المعتقل إرجاع مخلفات الطعام كقشر الموز والبرتقال وما أشبه وإلا عوقب، سألني الجندي في إحدى المرات وهو يفتش في مخلفات الطعام المتبقية في الصحن: أين عود التفاحة وبذورها؟ أخبرته بأنها في مكان آمن فلا داعي للقلق عليها، كرر سؤاله، قلت: في بطني، لقد أكلتها، هددني بقوات الشغب إن لم أرجعها، قلت: لا تهدد.. افعل ما بدا لك، فاستدعى قوات الشغب لكن مسؤول الحرس تجاهل الأمر لأنهم كانوا متعبين جداً بسبب دخول قوات الشغب على ثلاثة إخوة قبلي، علق أحد الإخوة بجانبي على ما حدث: مصائب قوم عند قوم فوائد.

كانت الزنازين قارسة البرودة ترتجف فيها أوصالنا، سألني أحد الإخوة من الفتحة الجانبية للباب سؤالاً شرعياً كان يقطع حديثه قعقعة أسنانه فضحكت منه، وحين أجبته كان حالي أشد منه فجاء دوره للانتقام، كان القانون يمنع تغطية فتحة المكيف، وأي معتقل يغلقها يتعرض لعقوبة مصادرة جميع أغراضه لينام على الإسمنت في هذا الزمهرير بدون غطاء أو حصير، فلابد من حيلة لوضع حد لهذا المكيف البغيض الموجود أعلى المغسلة، طلبنا ورقة لكتابة رسائل للمحامين، رسمنا عليها فتحات سوداء كفتحات المكيف تماماً، ثم قمنا بمسح الصابون المبلل عليه من الخلف ثم ألصقنا الورقة بالفتحة، كان يتوجب علينا الانتظار برهة من الوقت حتى يجف الصابون بسبب الدفع القوي لهواء المكيف، نجحت الخطة ولم يكتشفها الجنود في التفتيش لأنها كانت شبيهة بالفتحة الأصلية، إلا أنها اكتشفت حين سقطت الورقة أمام الجندي في إحدى المرات.

عند قدومنا المعسكر الخامس لم يخرجونا إلى قفص المشي إلا بعد أسبوعين من البقاء في الزنزانة، ثم سمحوا لنا بالتشمس مرة كل أسبوع لمدة ثلث ساعة والاستحمام لمدة دقيقتين فقط، وبعد عدة أشهر بدؤوا بإخراجنا إلى التشمس في منتصف الليل! مضت علينا عدة أشهر دون أن تلامس أجسادنا أشعة الشمس، كانت هناك نافذة مغبشة في مؤخرة الزنزانة لا نستطيع الرؤية من خلالها لكننا نستطيع أن نميز الليل من النهار، رأيت فيها ثقباً صغيراً ينفذ منه شعاع الشمس، خلعت قميصي وأمررت هذا الشعاع على وجهي وجسدي لعلي أنعم بهذا الشعاع الضئيل ليمنحني قليلاً من الدفء، لكنني عانيت

في اليوم التالي من التهاب وحرقة واحمرار في الوجه والجسم، لم يتحمل جلدي مجرد شعاع بسيط بسبب طول العهد من الشمس!

كنا نتحدث مع بعضنا للمسامرة أو الدروس عن طريق الفتحة الجانبية أو السفلية لباب الزنزانة، فإذا أراد أحد المعتقلين أن يراجع القرآن مع أخيه أو يحفظ آيات جديدة فإنه يستلقي على الأرض ويقرب فمه من الفتحة السفلية للباب ليكون الحفظ والمراجعة بشكل واضح، بعدها أحضرت الإدارة مراوح كبيرة ووضعوها في مقدمة العنبر وأحياناً في المؤخرة لتصدر ضوضاء تمنع المعتقلين من التواصل إلا بصعوبة بالغة، ظلت هذه المراوح تدور دون توقف لسنة تقريباً! مما جعلنا نشعر بصداع مستمر وإجهاد ذهني وعدم القدرة على التركيز بسبب هدير المراوح المستمر طوال الوقت ليلاً ونهاراً.

لقد كنت في المعسكر الخامس جسد يتألم وقلب يتأمل، لقد أدركت فيه أننا لن نصل إلى الله ما دمنا قد أضعنا أرواحنا وسط فوضى هائلة من الأهداف المتعارضة، وأننا لن نتحرر ما دمنا سجنا أنفسنا في مراد الناس والحرص على رضاهم، لقد أدركت أننا لن نفهم سر الخلق ما دمنا نجهل حقيقة أنفسنا، وأننا لن نتقدم إلى الأمام إلا حين ننسحب إلى الوراء، حين ننتزع أنفسنا من هذا الضجيج والصخب، وحين نغسل أرواحنا من رَهَقِ الغفلة لنعيش أجمل لحظة في الوجود، لحظة الأنس بالله.

الإنسان يعيش في داخله ثورة وإن كان على سريره، المشاعر تفور، والأفكار تموج، والضمير يلوم، والخير والشر يتصارعان، نذهل حين نغوص في أعماق النفس البشرية نسبر غورها ونضيء دهاليزها المظلمة فنكتشف أن ما ظنناه قصراً مشيداً إذا به بلقع خرب، وأننا انشغلنا بدعوة الناس إلى الفضيلة وغفلنا أن نشعل في قلوبنا المظلمة شمعة تضيء طريقها إلى الله.

اشتدت علينا وطأة الأسر، واستنزف برنامجهم النفسي كل قوانا، شعور موحش بالوحدة، استلقيت على الحصير فوق السرير الإسمنتي، سمعت صوت أنفاسي بكل وضوح، شهيق يتلوه زفير، أسمع صوت ولادة النفس وموته، لماذا أقضي وقتي متفرجاً على خطوات عمري متجهة نحو الموت دون أن أحمل معي باقيات صالحات لما بعد الموت؟ نهضت من السرير لأقطع الزنزانة ذهاباً وإياباً أراجع القرآن، يكون تركيزي في القرآن أكبر حين أقوم خلال المراجعة بنشاط بدني خفيف كالمشي، تأملت قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ لم يكن الأمر كما ظننت مجرد زنزانة انفرادية في جزيرة معزولة، لم يكن مجرد إنسان حي محبوس في تابوته المدفون في فلاة نائية، هناك ملكوت حولي مفعم بالعاطفة والحركة

الذؤوب، ملكان عن يميني وشمالي يسجلان الهمسات والحركات، الملائكة الكروبيون حول العرش يلهجون بالدعاء لنا، وملائكة سيارون يبحثون عن حلق الذكر، هناك أسراب من الملائكة تخفق أجنحتها صعوداً ونزولاً من أجلنا، من أجل هذا الاختبار الرهيب الذي يرصد فيه صراع الخير والشر، وآخرون يُعَزّون المكروب ويعودون المريض ويُشيِّعون الميت ويواسون المبتلى، إنهم أحبابنا الذين يروننا ولا نراهم، هم حولي حقيقة أكاد ألمس أجنحتهم النورانية، أكاد أرى ابتسامتهم الراضية حين يروني أتقدم خطوة إلى الأمام، وأخجل عندما أرى عبوس تأنيبهم حين أتعثر، أوشك أن أسمع صرير أقلامهم يختلط بصوت أنفاسي، أنصت لهمهمة الجموع الملائكية ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي وحشة ستبقى بعد أن رأيت ما رأيت وسمعت ما سمعت؟ أي حزن سيعتريني وأنا أرى هذه الحفاوة القدسية تحيطني بالحب والأنس؟

نظرت إلى المصحف على السرير، هذا الذي أحياني بعد موات وهداني بعد ضلال، احتضنته ودموعي تنهمر بغزارة، لقد كانت لحظة فارقة في حياتي، هنا فتح لي الباب، هنا عرفت السر، هنا تعلمت أن الشأن ليس في أن تحفظ وتقرأ بل في أن تؤمن وتوقن، إنه ليس في أن تعرف الحقيقة بل في أن تعيشها، كان القرآن يحدثني من قبل فلم أفهمه لكني أفهمه الآن، كان يتمثل لي وجهه حزيناً حين أقرأ قوله: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، ثم أرى حزنه ذلك يتحول إلى ابتسامة مشرقة تعلوها أنوار البشر وهو يحدثني عن عقبى أحبابه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ❋ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، كانت ابتسامته تلك أنساً للمستوحشين وبلسماً لجراحهم، لقد كان يتحدث عن جموع ما رأيتها معنا في المعتقل، جموع طواها الزمن وغشاها الرمس فأحياهم لي من جديد، وأعاد لي الحدث لأقف عليه بقلب وجل وعقل متدبر، أخذني إليهم هناك لأرى بعيني انتصار الحق على الباطل ولو بعد حين، لأرى بعيني سحرةَ فرعون وهم ينفثون في العُقَدِ بالطلاسم السحرية لمجد فرعون، وإذا بهم مصلوبون تلعق جذوعُ النخل دماءهم وهم يتمتمون لمجد الله في ثبات: ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾.

كنت أرتجف من البرد والكشاف الساطع ينعكس على عيني المرهقة، لكني شعرت أن الظلمات كانت تلفني بجلبابها الكئيب، بئس حامل القرآن أنا حين أستسلم لمخالب الزنزانة تُغْرَز فى روحي وقد أودع الله فيها درعاً تكسر السهام وشمساً تبدد الظلام، إنه القرآن الذي عرفني بقَيمتي في الحياة، إن كل قوى الباطل لن تقوى على إطفاء ما أناره الله، هنا وجدت السعادة الحقيقة، سعادة ممزوجة بالألم، ولولا الألم ما كانت هذه السعادة، الآن عرفت السر الذي بحثت عنه سنين طويلة، هنا السعادة وليست في

علم أنال به الحظوة وأكسب به الشهرة، السعادة هنا حين أرتعش من الجوع والبرد دفاعاً عن قرآني وليست في ارتعاشة الاغتباط وهم يقلدوني وشاح الفوز في مسابقة حفظه.

لقد كان لكلماته نور ما رأيته عند غيره، لقد كنت أجثو سابقاً بين يديه، أسمعه يحدثني بحديثه العذب، كنت أظنني أفهمه، لكني اكتشفت أني لم أفهمه على الحقيقة، لا أحد يفهم الكلمات العميقة إلا عندما يعيش معانيها، حقاً ما أجمل الكلمات التي ولدت بين الدموع والدماء، لم تكن قصصه كقصص الوعاظ الذين يدغدغون العواطف ويفتخرون بقدرتهم على استدرار دموع الجماهير، بل كان يأخذني بيدي إليهم هناك، في زمانهم الغابر ليريني كيف بنوا في قلوب الخلق كعبة الله.

أصبحت أرى الحقائق أشد وضوحاً من ذي قبل، كنت أسمع الوعاظ يحكون لنا شيئاً من جمال الجنة ونعيمها، أما الآن فإني أسمع الجنة وهي تصف نفسها بنفسها، كانت المعاني محبوسة في كلمات الوعاظ أما اليوم فما الكلمات إلا باباً ألج منه إلى ملكوت الحقائق، أصبحت أرى الجنة تتنزل كل يوم عروساً تعرض نفسها والناس عنها عمي، كالحمار الذي تعرض له قصر الملك وحلواه فيأبى إلا الحظيرة والعلف.

كانت موعظة:

وقف الجنود أمام زنزانته، أرادوا نقله إلى غرفة التحقيق الملاصقة لزنازين المعتقلين، وبعد أن فتحوا النافذة نادوا برقمه، أتموا الإجراءات الأمنية في تقييد يديه ورجليه، رفع الضابط المناوب (SOG) اللاسلكي مخاطباً غرفة التحكم: (Delta, Delta, Delta 2, control open cell 204).

تردد في العنبر صوت مزلاج الباب وهو ينفتح ذاتياً عن طريق غرفة التحكم، تطاولت رقاب الجنود ليروا فريسة الموت خارجة من أعماق ذلك القبر، صفعتهم لفحة هواء باردة، انزعجوا من هذا الوهج الساطع المنبعث من تلك الزنزانة المزودة بثلاثة أنابيب من مصابيح النيون تضيء الغرفة بأنوارها الساطعة أربعة وعشرين ساعة، فتح باب الزنزانة وكأنه وحش فاغر فاه، فلاحت في أعماقه أشلاء ضحاياه، هنا تقدم شاب رشيق هو أقرب إلى النحول، يبدو من تقاسيم عضلاته الصغيرة البارزة أنه كان رياضياً قبل أن يأتي المعسكر الخامس الذي كنا نسميه (ثلاجة الموتى)، تقدم الشاب بخطا ثابتة وجنان راسخ منتصب القامة مرفوع الرأس وكأنه هو القاضي وهم الجناة، كنت أرمقه من الشق الصغير للنافذة المغلقة، قلت: أستطيع أن أراك، التفت باتجاهي وقد استنار وجهه الحنطي بابتسامة معدية، قلت مصبراً: لا عليك، اليوم يحققون معنا، وسيأتي يوم البعث الذي سيحقق الله معهم في كل جرائمهم.

كانت زنزانتي قريبة من غرفة التحقيق، كان صوتهم يعلو وينخفض، يشتد غاضباً

تارة ويهدأ ساكناً تارة، سمعت المحققة تقول له: تعاون معنا ولك ما تريد، وهو يقول لها: أريد الجنة، إن كنت تملكينها فسأتعاون معكم على كل ما تريدون!

لم يكن يعلم أني أسمع ما يقول، ترى ما الذي يمنعه من تخليص نفسه بالتعاون معهم وهو يعلم أنه لا يراه أحد إلا الله؟ إلا الله؟! إنه الإيمان بالله لا غير، إنها أعظم قوة في الوجود قادرة على ضبط سلوك الإنسان وفق المعايير الأخلاقية والقيم الفاضلة دون وجود رقابة بشرية عليه، لكن الإيمان يضعف واليقين بالحقيقة يتضعضع ما لم يكن هناك ما يقويه ويذكر به، كانت الكاميرا في الزاوية العليا للزنزانة مسلطة علي طوال الوقت، وبجانب الباب فتحة لسماعة التسجيل، شعرت في البداية بضغط نفسي وإحساس مرهق حين أشعر أن كل حركة وسكنة تحت المراقبة، كل همسة مسجلة، لكني مع مرور الوقت أدركت أنها كانت لي موعظة، كم كنت جهولاً حين غفلت عن الأقلام التي لا تفتأ تكتب كوامن الصدور وكسب الجوارح وفلتات اللسان، تضطرب بها أيدي الملائكة كتابة ومحواً، صعوداً إلى السماء ونزولاً إلى الأرض، إن الشعور بالمراقبة المستمرة يُقَوِّم السلوك ويوقظ في النفس حس الحذر من الوقوع في العقوبات، تأملت عالم الغيب الذي لا تقتصر فيه المراقبة على ظاهر الأقوال والأفعال بل تمتد إلى عمق النفس البشرية لترصد خلجاتها وتقيس تموجات الظنون والأحقاد وعزائم الصالحات التي لم تتجسد بعد على الجوارح، إن الإيمان بالمراقبة الإلهية يعزي المظلوم الذي لا يجد نصيراً، كالولد الذي يجتمع عليه أشقياء الحي ضرباً، وهو يعلم أن أباه ينظر إليه من بعيد، وسينصره ولو بعد حين، هناك من يرقب أنينك ويحيط علماً بحرقة القهر في صدرك، حين أقرأ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أدرك أن وراءها حقيقة هائلة، أي معنى للمراقبة إن لم يعقبها محاكمة عادلة يقتص فيها للمظلوم من الظالم؟

غرقت في الذكريات، توالت علي مشاهد الأسر سريعة خاطفة، وقفت مذهولاً أمام كل مشهد لأكتشف أنها كانت مجرد صورة مصغرة لما سيكون في يوم الدينونة، لقد تحطمت كل قوالب الأحداث لتخرج من رحمها الحقائق الأخروية، الآن.. والآن فقط فهمت، لقد أدركت روعة الوعد ورهبة الوعيد، صفدوا أيدينا وأرجلنا بالقيود فتذكرت قول الله: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾، سحبنا الجنود بالسلاسل فتذكرت قوله: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾، دفعونا بعنف فتذكرت ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾، أرغمونا أن نجثو على الركب فتذكرت ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾، انتزعوا من بيننا بعنف بعض المعتقلين الذين عليهم تهم كبيرة وعزلوهم عنا فتذكرت ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾،

وحين غطوا أعيننا كي لا نرى تذكرت ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾، وحين وضعوا على آذاننا السدادات كي لا نسمع فكنا نزفر من شدة الضيق تذكرت ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾، ألبسونا ثياباً تسبب الحساسية فتذكرت ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾، كانت وجوهنا مغبرة في سجن قندهار فتذكرت ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾، جرونا بالسلاسل ثم أوقفوا أول الصف ليلحق بهم الأخير ثم ساقونا جميعاً فتذكرت ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، تأملت قوله تعالى عن نار الدنيا: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾، تذكرنا بجزاء الظالمين كلما رأيناها أو لفحنا لهبها أو خنقنا دخانها. إذا كانت هذه عقوبة ظالمة من مخلوق عاجز ضعيف فكيف بعقوبة عادلة من رب قوي قادر؟ وإذا اجتمع كل هذا الألم والهوان على مظلوم يؤمن بالثواب الجزيل للصابرين، فكيف بالألم والهوان على مجرم يعلم أنها عقوبة لن تزيده إلا خزياً وصغاراً؟

كنت أقرأ عذاب أهل النار لكني اليوم أكثر إدراكاً له، للهوان حين توطأ وجوههم، للألم حين تكوى جلودهم، للذل حين يساقون أمام الحشود إلى دار الشقاء، وعلى الرغم من أن كل ما أصابني لا يعدو قطرة من بحر عذابهم، إلا أنها نفحة دخان جعلتني أدرك أن ناراً مهولة ينتظرها الظالمون وتنتظرهم.

عود التفاحة:

اشتد علينا الخناق، وعصف بنا الجوع، وجلدتنا سياط البرد دون رحمة، سمعت طقطقة النوافذ، يا له من صوت لذيذ، إنه وقت العشاء، سال لعابي وفتحت شهيتي أبوابَها للقادم الجميل، جلست في وقار مصطنع متظاهراً بعدم الاكتراث، فتحوا النافذة ووضعوا عليها الصحن الورقي ثم أُغلِقَت لأستقبل بالأحضان ذلك الضيف الذي لا يزور إلا غِبّاً، لم أبدأ بأول لقمة حتى انتهيت من آخرها، كيف حدث هذا؟ كانت لقيمات لا تسد جوعاً، كم هي سريعة الانقضاء تلك الملذات المولودة من رَحِم الدنيا، وكم أنا أحمق حين أكون عبداً لفقاعة يغريني بريقها وأغفل عن انفجارها الوشيك!

ومن كان عبداً لِلُقْمة كيف لا يكون عبداً لمتجبر يتربع عرش القِمّة؟

أبحر بي الخيال في لُجَّة الأمنيات، فرأيتُ أمتي تخلع ربقة العبودية لغير الله، وتخوض الغَمَرات لتؤدي أمانة الاستخلاف بتحقيق العدل في دنيا الناس، فتنعم برؤية ربها يوم المزيد لتعلن له وهي ساجدة أنها لم تسجد قبله لمستبد مستكبر، نظرت في الصحن الفارغ فلم أرَ فيه سوى العود المتبقي من التفاحة، أخذتها وكتبت بها على كوب الفلين كلماتٍ أنشدها لإخواني الأسرى من تحت الباب:

أمتي أمتي.. أنتِ يا مفاخر الزمان ... أنــت يــا عــروســة الــجِـنــان

قـــم إلـــى حـــمـــل الـــمـــنـــار	كـــن عـــلـــى درب الـــفـــخَـــار
أبحري أبحري. . وامخري مسالك البحور	سـعـيـك الـحـمـيـد لـن يـبـور
واصبري واصبري. . ليلك البهيم لن يطول	هـــكـــذا بـــشـــارة الـــرســـول
وارتقي وارتقي. . للعُلا منازلَ الجِنان	واسـعـدي بِـحـورِهـا الـحـسـان
واشربي واشربي. . من يديه شربة الهناء	تُـذْهِـبُ الـهـمـومَ والـعـنـاء
وافرحي وافرحي. . واطربي بعيدك السعيد	واســألـي نـعـيـمـه الـمـزيـد
واسجدي واسجدي. . يومها سيُكشَف الغطاء	فـانـعـمـي بـالـفـضـل والـعـطـاء

طرب لها أحد الأخوة فقال مازحاً: حتى هذه النشيدة المتفائلة محبوسة معنا؟!

فقلت: سيأتي اليوم الذي تُكسَر فيه قيودُها لتحلق عالياً.

الضحكة البلهاء:

جاءني محقق بلغ من السن عتياً، أبيض الشعر أسود القلب، قد سقطت معظم أسنانه، بالغ في رفع بنطاله الذي انتصف كرشه البارز، كان متكبراً متعجرفاً، سألني: هل أنت إرهابي؟

: لا

: لماذا لا تتأدب معي وتناديني (sir) سيدي؟

: السيادة لها شروط، أهمها العدل ولا أراها فيك.

: لعلك لا تعلم أن هذه الأيام تجري فيها انتخابات رئاسية في الولايات المتحدة بين جون كيري وجورج بوش، فمن تظنه سيفوز؟

: إن كان في شعبكم بقية إنسانية وعقل حتماً لن يرشحوا بوش من جديد لما ارتكبته يداه من جرائم ضد الإنسانية، وإن كان شعبكم قد فقد كل ما تبقى منها فسيعيد انتخابه.

: ماذا لو فاز كيري؟ هل تظن أن وضعكم سيتغير؟

: ممكن. .

فغر فاه ضاحكاً فبان ككهف مظلم زادته غطرسته قبحاً، ثم قال ساخراً: نعم نعم. . سيحزم المحققون أمتعتهم للعودة إلى بيوتهم ويغادر الجنود الجزيرة، لكنك لن تجد أحداً يفتح لك أقفال القيود، ثم أطلق ضحكة بلهاء ارتج لها المكان، أخذت أنظر إليه متعجباً كيف يشيب شعر البعض بينما لا يزالون يحملون في رؤوسهم عقلاً طفولياً،

قلت له: قد يفقد الضبع أسنانه لكنه لا يفقد طبعه، تحولت ضحكته إلى تجهم غاضب، جمع أوراقه وانصرف بعد أن طلب من الجنود التضييق على قيودي.

إلا أخيراً:

لم أواجه كلَّ بلاءٍ بقلب جَذِل وروح مبتهجة، فلستُ مَلَكاً تَخَلَّصَ من قانون الأرض، كنت أتألم وأتوجع، تضيق نفسي حيناً حتى كأنها تتنفس من سَمّ الخياط، وترفرف بي روحي حيناً حتى أكاد أرقص من شدة الفرح، فرح يجتاحني في لحظات السمو الوجداني حين أتخلص من ثقلة الجسد وهمومه الأرضية، حين أتفكر في نهاية البلاء وقرب الثواب ولقاء الله، ثم يعيدها الجسد إلى قانونها البشري مرة أخرى لأحزن وأتألم، كانت تمر علينا الأسابيع فلا نسمع إلا رنين القيود وفتح النوافذ للطعام، والجندي بين الفينة والأخرى يرفع الغطاء من فتحة النافذة ليلقي نظرة متفحصة حاقدة في الزنزانة، تذكرت قصيدة هاشم الرفاعي المعروفة التي كانت تطل علينا برأسها في مواقف كثيرة نعيشها في المعتقل.

والصمت يقطعه رنين سلاسل	عبثت بهن أصابع السجان
ما بين آونة تمر وأختها	يرنو إلي بمقلتي شيطان
من كوة بالباب يرقب صيده	ويعود في أمن إلى الدوران
وعلى الجدار الصلب نافذة بها	معنى الحياة غليظة القضبان
الليل من حولي هدوء قاتل	والذكريات تمور في وجداني
ويهدني ألمي فأنشد راحتي	في بضع آيات من القرآن
والنفس بين جوانحي شفافة	دب الخشوع بها فهز كياني
قد عشت أؤمن بالإله ولم أذق	إلا أخيراً لذة الإيمان

إلا أخيراً؟ صدق والله، لم أذقها إلا في المعسكر الخامس، درست العقيدة قبل الأسر، وحفظت المزيد من النصوص لكن إيماني لم يزد، قرأت كتب التفسير فعرفت معاني المفردات وأسباب النزول لكني لم أفهم القرآن إلا في المعسكر الخامس!

كنت أحفظ شيئاً من هذه القصيدة قبل الأسر أتغنى بها أحياناً لكني أحسست أن لهذه الكلمات طعماً ألذ وعبقاً أذكى ورونقاً أزهى هنا في المعتقل، ما بال الكلمات تكتسب مع الألم عمقاً غائراً وأفقاً رحباً وسمواً لا يدرك إلا بالألم؟

كانت حقائق القرآن قبل الأسر في قلبي باهتة ذابلة، صيرتها آلام السجن وقسوة السجان زاهية ناضرة، كان نور اليقين في صدري شمعة فتحولت في الانفرادي شمساً،

كنت قبلاً أرى بعيني وأسمع بأذني وألمس بيدي، لكني الآن أرى بقلبي وأسمع بقلبي، وعرفت أن الذي لا يرى إلا بعينه ولا يسمع إلا بأذنه فهو في الحقيقة أعمى وأصم، لم أكن أعلم أني حين أنظر إلى الأشياء لا يعني أني أبصرها، ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، كنت أنظر إلى زرقة السماء الصافية وأشعة الشمس الذهبية وأنوار القمر المتلألئة ثم أشيح بوجهي عنها في بلادة شعور، كنت أنظر إليها لكني اليوم أبصرها، أتلذذ بجمالها، أشعر بروعتها، أهيم بسحرها، أسبح بجلال خالقها، كانت الآيات تتوالى على مسامعي فتزل عن قلبي كما تزل قطرة المطر عن الصخرة الصلداء، لكنها اليوم تهزني من الأعماق.

أتأمل حديث نبينا ﷺ: **«من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشر مرات بنى الله له قصراً في الجنة»** فأستشعر القصر المشيد، والذهب المجدول بالفضة، والحدائق الممتدة إلى الأفق البعيد، أصبحت أحس بها، أسكنها، أستنشق هواءها المنعش، وأشرب ماءها السلسبيل، أجد نفسي اليوم شفيفة بعد أن كانت كثيفة، أصبحت اليوم أرى القصور اللؤلؤية على رؤوس الغمام، وقد كنت بالأمس أعشى، تحول بيني وبينها ألف صورة.

لقد أصبح القرآن أنيسي، يحدثني حديثاً لا يمل، أصغيت إليه بكل جوارحي، قال لي: لن أدخل قلباً مقفلاً، فحطمت له أقفال قلبي وفتحت بابه لكل كلمة كان يقولها، قال لي: لكل كلمة حقيقة فخذها بقوة، تلكأت.. فلما فعلت وجدت السعادة فيما فعلت، هنا تجلت لي الحقيقة، هنا أبصرت ما لم أبصره عمري كله، هنا في هذه الزنزانة الانفرادية الضيقة، رأيت فيها عظمة الله وسمعته يدعوني إليه، سمعته بقلبي يقول: عبدي.. إن أردتني اترك نفسك وتعال، وإن وقفت على بابي فاخلع نعليك وادخل، اخلع شهوتك وهواك لتحظى بالقرب، هنا رأيت الحقيقة، ومن العجب ألا أرى ولا أسمع إلا في هذه الزنزانة المصمتة حيث لا أرى ولا أسمع، رأيت حكمته الباهرة حين أدخلني فم الأفعى لأراها من الداخل، أرى قلبها الأسود النتن يقطر دوداً وصديداً، أراها تبتسم في وجه فريستها قبل الانقضاض عليها، تنفث سمها القاتل في جسدها المرتعش، تلتف عليها لتكسر عظامها ثم تلتهمها بشراسة، أدخلني في فمها وهو يقول: انظر.. افهم.. تعلم، أحمق ذلك الذي يغتر بملمس الأفعى الناعم ويغفل عن الموت المتربص بين فكيها، أحمق ذلك الذي يبتهج لابتسامتها ولا يدري أنها ابتسامة التردد في التهامه من الرأس أم من القدم.

لقد أدخلت عشرات المرات في فم الموت، وفي فم الموت عرفت معنى الحياة، لقد فهمت وتعلمت وعرفت، أشعر أن الحقائق قد نضجت في قلبي تماماً وهذا أوانها، نضجت بنار البلاء، تلك النار المباركة التي لا يصطلي بها قلب صابر إلا باركته ولا

تلامس روحاً راضية إلا زكتها، وعلى الرغم من عثراتي وهفواتي في ميدان الصبر والرضا إلا أني أرجو ممن عودني الفضل والكرم أن يشملني مع هؤلاء الفتية الذين شهدت قضبان الزنازين صبرهم المذهل وتضحياتهم الباهرة وأخوتهم الراسخة أن يقول لي: (وعنك قد رضيت، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم).

سيهدم:

انقضت أكثر من عشرة أشهر من الخضوع لبرنامج التحطيم النفسي في المعسكر الخامس، دخلت علي المحققة (ميغن) ثائرة الأعصاب على غير عادتها، كان معها (ديفيد) وهو ملتزم الصمت، كان صوتها يقدح شرراً وهي تقول: سيكون هذا اللقاء هو الأخير معك.

: ....

: هل لا زلت مصراً على إنكار الحقيقة؟

: وما هي الحقيقة؟

: علاقتك بقادة الإرهاب على مستوى العالم.

: لماذا تضيعين وقتك في التحقيق إذن؟ ما دامت حقيقة فلتقدموني إلى المحاكمة.

صاحت باهتياج: لقد بني المعسكر الخامس لأمثالك من الإرهابيين الذين يتخفون وراء الخطاب العقلاني، ستكون آخر من يخرج من هذا المعسكر الذي بني بإتقان وإحكام.

ضربت الجدار بقبضتها في يأس وهي تصرخ: هذا الجدار قوي، هذا الجدار لن يهدم، لقد صنع من أجلك وأمثالك من الأشرار، هذا الجدار لن يهدم.

قلت مبتسماً: ستهدمه قوة الإيمان بإذن الله، ومن حجارتها المتهدمة سيصنع بنيان عظيم.

ساقها ديفيد خارج الغرفة وهي تصرخ ثائرة بكلام غير مفهوم، كان هذا آخر عهدي بهما.

الخروج من التابوت:

بعد سنة تقريباً من بقائي في المعسكر الخامس جاء أحد الجنود صباحاً وطرق الباب علي بهدوء ولطف غير معتاد، ثم قال هامساً من شق الباب: (٥٥٢) اجمع الفراش والشرشف واستعد للانتقال!

قلت مستغرباً وقد ازدادت دقات قلبي: إلى أين؟

: إلى الرابع!!

حقاً؟ لا شك أنه يمزح، سمع أحد الإخوة المجاورين لي بعض الكلمات المبعثرة من الحوار، وحاولوا تجميعها وحلها كما يحلون تمارين الكلمات المتقاطعة: إلى أين يا فايز؟

قلت والعجب يتملكني: يقول الجندي إلى الرابع! بدأ التكبير والتهليل والتحميد والتبريك ينهال علي كالمطر من هنا وهناك.

: يا إخوة لا تستعجلوا، أظنه مخطئاً، لقد أخبرني المحققون أني لن أخرج من هذا التابوت، فلماذا يأخذوني إلى الجماعي؟ كان هناك غموض مريب يعتري عملية نقلي إلى الجماعي، لم أدرك أن هناك خيوط مؤامرة يتم فتلها وجدلها بإحكام للإيقاع بي، لم ينفرد بها المحققون، بل كانت يداً غادرة طعنتني في الظهر، يداً خلتها عوناً في الشدائد وإذا بها تمكر في الخفاء.

قُيِّدت قدمي وشُدَّت يدي بخصري بسلسلة حديدية طويلة ثم اقتادني أربعة من الجنود إلى السيارة المصفحة، أخذت الإجراءات أكثر من ساعة لنقلي إلى المعسكر الرابع الذي يبعد عن الخامس الذي أنا فيه قرابة المائة متر فقط، كانت الإجراءات الأمنية مشددة جداً، فتح الجنود الباب الخلفي للسيارة وأنزلوني مقيداً، هبت نفحة هواء ساخنة انتعش منها جسدي، شعرت بأني قالب ثلج بدأ يذوب، لقد كان الجو الدافئ أمنيتي بعد تلك السنة التي عشتها في الثلاجة الانفرادية، أحسست أن أوعيتي الدموية أخذت في الاتساع وتدفق الدم فيها منتشياً هو الآخر بهذا الدفء الحنون الذي أخذه في أحضانه، رفعت رأسي وإذا بمنظر ساحر أخذ بمجامع قلبي، امتد بصري منطلقاً لمدى أوسع وأرحب، كانت عيوني تقفز هنا وهناك غير مصدقة أنهم أطلقوا اللجام عنها بعد سنين في الحبس الانفرادي والأقفاص الضيقة والحواجز التي تمنعك من رؤية جمال الطبيعة وراءها، رفعت رأسي وإذا بمنظر السماء التي حرمت منها سنين عديدة، أحقاً هذا جمال الطبيعة؟ أين كنت قبل الأسر عن هذه الروعة الآسرة والإبداع الأخاذ؟ لماذا حرمت نفسي من الاستمتاع بخيوط الشمس الذهبية الدافئة وزرقة السماء الصافية وتلألؤ النجوم في غلس الليل؟ لماذا حرمت نفسي من أخذ نفس عميق وأنا أتلذذ بنسمات البكور والأصيل؟ كيف أشحت بوجهي عن وجه القمر تحيطه هالة نورانية جليلة؟ انتبهت إلى الجندي خلفي يدفعني برفق إلى النزول من العربة، لقد دربوا الجنود ليكونوا أكثر ألفة في المعسكر الرابع، كل شيء هنا يختلف، الحياة الجماعية والصلاة جماعة، الهدوء النسبي، لا استفزازات وإهانات، لا قوات شغب، شعرت كأن ماكينة مزعجة كانت في رأسي سنين عديدة أعاني ضوضاءها فأغلقت بمجرد وصولي للمعسكر الرابع، استرخاء جسدي وعصبي ونفسي تام بعد إجهاد طويل مضن في المعسكر الخامس.

وما أن وطئت أقدامي أرض المعسكر الرابع حتى توالت علي التباريك وأهازيج الترحيب من كل العنابر في المعسكر الرابع فرحاً بقدومي إليهم، شعورهم الأخوي أحرجني، يا لعظمة الإسلام الذي استطاع بتعاليمه أن يوحد القلوب المتباينة، وجمع القلوب يكون بقوة البرهان لا بقوة السلطان، ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، كنت أرى نظرات الإعجاب والاستغراب معاً في أعين الجنود الذين يشاهدون هذه المواقف الأخوية التي لم يعتادوا عليها، مرت عيني مروراً سريعاً على العنابر الموجودة في المعسكر الرابع، عنبر (يانكي)، و(زولو)، و(ويسكي)، و(فيكتور)، و(يونيفورم)، ترى في أيها سيودعونني؟ كنت في شبه غيبوبة واسترخاء تام وأنا أسير مع الجنود أثناء نقلي إلى العنبر المقرر بقائي فيه، أوقفوني عند البوابة الرئيسة إلى حين إنهاء الإجراءات الأمنية لعملية النقل والاتصال على مركز القيادة لعمل المطلوب، كان أقرب عنبر إلى البوابة الرئيسة من اليسار هو عنبر (يونيفورم)، اقترب أحد المعتقلين اليمنيين من الأسلاك الشائكة مرحباً بي فرحاً بقدومي، سألني عن العنبر المقرر نقلي إليه، ودون أن ينتظر إجابتي أخبرني بفرحة بالغة أن عنبر (يونيفورم) الذي يوجد هو فيه قد خصص للمسافرين، وأن هناك عدة مجموعات سابقة قد جمعوها في هذا العنبر تمهيداً لسفرهم وترحيلهم، وأنه مستبشر جداً بوجوده فيه، فرحت لهم وباركت لهم، فتحت البوابة الرئيسة وسط ترقب مني ومن الإخوة في العنابر إلى أي عنبر سيتم نقلي، كانت مفاجأة مدوية للجميع حين عرج بي الجنود إلى اليسار، إلى عنبر (يونيفورم) الذي خصص سابقاً لترحيل المعتقلين إلى بلادهم، أوقفوني أمام بوابة العنبر وأنا غارق في الضحك والأخ المسكين ينظر إلي مصدوماً، معظم المعتقلين يعرفون التهم الخطيرة المكذوبة الموجهة إلي، فنقلي لهذا العنبر يجعل من أحلام الفرج تتبخر، المضحك في الأمر أنه لا أحد منهم ظن أني مسافر معهم بل الجميع تأكد أن العنبر لم يعد عنبراً تمهيدياً لعزل المعتقلين قبل ترحيلهم، فتغير التصور عن العنبر أهون عندهم ألف مرة من تغير تصورهم عني بأني قد أسافر معهم!

أطلقوني من القيود فسلمت على الأخ وعانقته وهو فاغر فاه وأنا غارق في الضحك، قال في براءة: هل أنت مسافر معنا؟ قلت: لا لكنك ستبقى معي!

قال: لا أدرى هل أفرح بمجيئك المعسكر الرابع أم أحزن لمجيئك إلينا في عنبرنا؟

أجبته مازحاً: ألهذه الدرجة تخيفك اتهامات الأمريكان لي؟

: لو كنت ولدي لهربت منك!

ضحكت وأنا أقول: لا ألومك لأني أنا أيضاً أخاف من نفسي أحياناً، ولو استطعت لهربت منها.

قال بأسى: نصحتك مراراً أن تتوقف عن الدروس، لن يسكت عنك الأمريكان، لن يدعوك وشأنك، سيلفقون لك ألف تهمة وتهمة.

: والاتهام الكاذب أقوى من الإنكار الصادق، و(نعم) واحدة كاذبة أقوى من ألف (لا) صادقة، أعلم كل ذلك لكن ماذا لو توقف طلبة العلم هنا عن الدروس كيف سيكون الحال؟

جاء دور عنبرنا للخروج إلى الساحة الكبيرة، فتح لنا الباب ومن شدة شوقي إلى الانطلاق أخذت أجري في الميدان، لفحتني الشمس بحرارتها، وكلما مررت على الإخوة في عنبر سلمت عليهم وصوت النفس يقطع كلماتي، شعور جميل لا يوصف، إنه الانطلاق بعد سنين من الحبس في زنزانة ضيقة، مرت ساعة كاملة وأنا أركض دون توقف والإخوة في العنابر الأخرى يحذرونني من هذا التهور الذي سأدفع ثمنه بالشد العضلي والإجهاد الشديد، أخذوا يشيرون إلي: ما هذه البقع من الدم خلف ظهرك كأنها طلقة رصاص؟ خلعت قميصي وإذا به ملطخ بالدماء من الجرح الذي لم يلتئم جيداً، احتك به القميص فنزف، شعرت بآلام في قدمي، نظرت وإذا بها قد دميت كذلك، جريت في ذلك اليوم ساعتين ونصف تقريباً دون انقطاع، ثم دفعت ثمن ذلك التهور بأن بقيت عدة أيام بلا حراك بسبب الشد العضلي، وتسلخ جلدي بسبب حرارة الشمس التي لم نتعود عليها قرابة العام، اسود وجهي ثم تقشر، استمرت آثاره على جلدي لسنين.

محقق متنكر:

كان يتعامل معنا بإنسانية، كلما كانت نوبته للحراسة في العنبر يوصل الطعام من هذا المعتقل إلى أخيه المريض أو الجائع، يتحدث كثيراً مع المعتقلين ويتمازح معهم،

احتفظ بعلاقة مميزة مع أحد المعتقلين الجزائريين، يتجاذب معه أطراف الحديث، أثارت ساعته التي تزين معصمه إعجاب الجزائري، وبعد سنة نقلوا المعتقل الجزائري إلى المعسكر الخامس، أخذه الجنود إلى غرفة التحقيق ثم أرجعوه بعد ساعة، قال لي والصدمة ظاهرة على حديثه: تخيل يا فايز.. من هو المحقق الذي قابلته للتو؟

: من؟

: محقق جديد، كان وجهه مألوفاً لدي، قال: ألم تعرفني؟

قلت: لا

فكشف لي عن ساعته فصعقت، لقد كان الشخص الذي تظاهر لي في المعسكر الرابع أنه مجرد جندي، لم أعرفه بسبب اللحية التي أحاطت بوجهه، أراد هذا المحقق أن يرى حياتنا عن قرب فتقمص شخصية الجندي.

الإضراب:

اشتدت عام (٢٠٠٥) وتيرة التعذيب والإهانات الدينية في الصلاة والقرآن، ازداد عدد المصابين بمرض الكلى الذين كانوا يئنون من شدة الألم ليل نهار بسبب الماء القذر الذي كنا نشربه من الصنبور، كان ذا رائحة عفنة وطعم لا يستساغ، بدأت شرارة الإضراب تنتشر بين المعتقلين انتشار النار في الهشيم، حتى أصبح عدد المضربين ما يقارب الأربعمئة في كل المعسكرات، جن جنون إدارة المعتقل، لم تتوقع إضراب هذا العدد الضخم، كانت إدارة المعتقل تتعامل مع حالات الإضراب بحذر وقلق شديدين، فقد تتوسع دائرة الإضراب فتشمل أعداداً أكبر من المعتقلين، مما يرهق الجنود في الحراسة المشددة والإجراءات المرهقة لعملية التغذية القسرية، وقد يموت أحدهم في إضرابه فيسبب لهم حرجاً في الإعلام مع خسارة ورقة كان بالإمكان الاستفادة منها، ولقد أخبرني المحامي بكل صراحة أن الإدارة الأمريكية تحتفظ بنا كرهائن قد تستفيد منها مستقبلاً في صفقات تبادل أسرى محتملة في حربهم أو عقد صفقات سياسية مع بلدانهم أو جمع المعلومات أو النجاح في تجنيد أحدهم.

مرت أسابيع وعدد المضربين في تزايد، استنفر الجنود والطاقم الطبي على حد سواء، بدأت الإدارة بتغيير سياستها من العنف إلى اللين لامتصاص موجة الاحتجاجات الجارفة التي عمت كل المعسكرات، وحين رأى المضربون أن هناك تغييراً حقيقياً بدأ يظهر على أرض الواقع أخذ عددهم في التراجع، استمرت ثلة في إضرابها ولم تقنع بتحقيق هدف بسيط كتحسين المعاملة، بل أرادت تحقيق هدف صعب على الرغم من عدالته، وهو إما المحاكمة العادلة أو إطلاق السراح، عُزِل هؤلاء المضربون عن بقية المعتقلين، كان هناك معتقلون يلتحقون بركبهم بين الفينة والأخرى لأسباب مختلفة.

استفز الجنود أحد المعتقلين في وجبة الطعام حين تقدم لأخذها من فتحة النافذة، فأمره بطريقة مهينة بالرجوع خلف الخط الأسود، شعر بالإهانة فرفض الوجبة، وأخذ يضرب الباب بيده حتى سال منها الدم، ثم لطخ الزجاج بدمه حتى لا يتمكن الجنود من مراقبته، فاستدعوا قوات الشغب واقتحموا زنزانته، واجههم وحده وكان معروفاً بالشجاعة والجلد، قد جمع بين دماثة الخلق وحفظ القرآن، عوقب بنزع كل ملابسه وتجريده من كل أغراضه في الزنزانة، ألبسوه البدلة الخضراء المخصصة لمن يتهم بمحاولة الانتحار، نتنة الرائحة سميكة جداً لا يمكن تمزيقها، وهي قطعة واحدة تغطي الجسد كله، مصنوعة من بوليستر يلامس الجسد مباشرة فتزداد حرارة الجسم ويصاب

بحساسية الجلد، قال للضابط: أعلن إضرابي عن الطعام، لن أهين كرامتي من أجل لقيمات.

بسبب هذا الموقف استمر في إضرابه سنين طويلة تحمل فيها ألوان العذاب، كان الجنود يخرجونه بالقوة إلى التغذية باستخدام قوات الشغب طوال السنة الأولى، ثم كان يخرج بعدها طواعية ليتم إجباره على التغذية القسرية. كنت أعجب من جَلَدِه المذهل، لقد رأيت بعيني في غوانتانامو نماذج ما رأيت مثلها في حياتي قط.

أي صبر هذا الذي يحملك على الإضراب سنين طويلة لمجرد أن الجندي أمرك أن ترجع خلف الخط الأسود؟ أي عزة جعلتك تأبى التنازل عن كرامتك من أجل لقمة في حين أننا نرى من يتنازل عن مبادئ وحقوق من أجل مصلحة هي دون مصلحة الحفاظ على النفس والتضور جوعاً سنين طويلة؟ حين أتأمل قصصهم أشعر أني أمام جبل شاهق أنظر بإعجاب من قاعه إلى جبهته الشماء.

كان الإعلام العالمي في ذلك الوقت يسلط الأضواء على قضية الإضراب في غوانتانامو، فقررت الإدارة تشديد القوانين لإيقاف الإضراب ورفع أوزان المضربين ولو بالقوة، كان هناك معتقل غير مضرب أنحله المرض، فظنته الإدارة مضرباً سراً، أنكر ذلك وطلب منهم علاجه وتحسين تغذيته ليثبت لهم ذلك، لكن الإدارة رفضت طلبه وعزلوه في الانفرادي وأجبروه على تناول كل الطعام، وأخبروه بأنه لن يخرج من الانفرادي حتى يرفع وزنه، لكنه لم يستطع ذلك بسبب المرض الذي يعانيه دون تلقي العلاج، فتعاملوا معه معاملة المضرب تماماً، فكانوا يأخذون المسكين إلى كرسي التغذية القسرية ويمارسون عليه أنواع التعذيب ليوقف إضرابه المزعوم.

كان هناك بعض المضربين متشددين جداً في إضرابهم، وآخرون قد يتجاوزون عن البلغة من الطعام الذي يؤخذ خفية، كقطعة حلوى أو ملعقة من العسل ثم يستمر في إضرابه الشهر والشهرين ليعود فيأخذ مثلها، كان أثرها النفسي أعظم من أثرها البدني حيث تنشط همته وتقوى عزيمته.

تغافلت الإدارة عن ذلك أحياناً كما أظن ولا أجزم، لأنها تعلم أن هذه الكمية وإن كانت قليلة جداً إلا أنها تمد الأعضاء بالحيوية حتى لا يصل الأمر بالمضرب إلى الموت، كان هناك أخ مضرب خفيف الظل ذو فكاهة قد أنحله الإضراب حتى تخاله من ضحايا مجاعة أفريقيا، لكنه كان كل شهر تقريباً يختطف بدهاء قطعة حلوى أو كسرة خبز يجدد فيها الحيوية لحاستي الذوق والشم بعد ذبولهما لفترة طويلة، وقد يفصل أحياناً ما بين عمليتي الاختطاف شهر كامل لا يدخل فمه لقمة، وفي إحدى المرات استطاع التحايل على المراقبة بخطف قطعة خبز كاملة دون أن يشعر الجندي ويسجلها

عليه، فأخبر أحد المضربين المتشددين في إضرابهم عن نجاحه ذلك، فصاح المتشدد: خبزة كاملة؟ لو أني أكلتها لأعطتني دفعة معنوية إلى الأمام لسنة كاملة في الإضراب.

ثم مضى عليه شهران دون أن يتذوق شيئاً من الطعام ولم يستطع التحايل حيث كانت المراقبة شديدة، أي مضرب يتناول شيئاً من الطعام يسجلها عليه الجندي ثم تسلم للطبيب ليكون عنده تصور واضح عن أوضاع كل مضرب، وكلما كانت حالة المضرب أسوأ كان له دور أكبر في الضغط على إدارة المعتقل لتحقيق مطالب المضربين، أخذ قطعة صغيرة من الخبز وهو يقول للجندي المراقب: سأرميها للنمل! ثم يرميها في زوايا الزنزانة، وعندما يذهب الجندي يأخذها ويأكلها، قال له أحد المضربين ساخراً: يبدو أن الجندي علم من هي النملة الضخمة التي التهمت الخبز لكنه تغافل، أطلق ضحكة مكتومة وهو يمضغ قطعة الخبز بتلذذ، ثم قال: بيني وبينهم الميزان، لقد أصبح وزني دون الأربعين كيلو، هذه اللقمة تكفيني لشهر كامل، أشعر أني أصبحت فعلاً كالنملة التي تأكل القليل لتخزن الطعام لفترات طويلة!

ومن طرائفه أنه أتى عليه شهر ونصف دون أن يدخل جوفه شيء من الطعام عدا السائل المغذي الذي يرغم على تناوله عن طريق الأنف دون أن يشعر بطعمه، أخذ الخبزة من الصحن الورقي ثم فتح فيها فتحة صغيرة في نهايتها دون أن يشعر الجندي، ثم قام باستخراج اللب من الداخل، وجاره المضرب يقول ساخراً: هل انتهيت من عملية الحفر والتنقيب؟

فيجيبه: ليس بعد!

حتى استخرج اللب كاملاً ثم أغلق الفتحة بقطعة صغيرة من الخبز وأعادها في الصحن سليمة الظاهر فارغة الجوف، كان إخوانه المضربون يظنونه من أوائل من سيوقف إضرابه تحت التعذيب بسبب تساهله، لكن الأيام أثبتت خطأ ظنهم.

أوقف بعض المضربين إضرابهم بسبب الآلام الشديدة الناتجة عن الامتناع عن الطعام لأشهر طويلة كالبواسير والاستفراغ والمغص والغثيان المستمر والقرحة، قد بلغ بهم الأمر إلى عدم القدرة على الجلوس على كرسي التغذية من شدة البواسير، وبمجرد نزول المغذي عن طريق الأنف إلى معدته يتقيؤه مباشرة، فيكررون عملية التغذية القسرية وتعود المعدة إلى التقيؤ مرة أخرى، فلا هم بتاركيهم يموتون بهدوء، ولا هم بمعطيهم حقوقهم الإنسانية، وصل بعض المضربين إلى حافة الموت مما حدا بإدارة المعتقل إلى وضع جهاز قياس نبضات القلب أمام زنازينهم، لقد كان للإضراب آثار سيئة على صحة المعتقلين فأصيب الكثير من المضربين بأمراض عديدة بعد توقفهم عن الإضراب، منها القرحة واحتباس السوائل في الجسم وعسر الهضم وغيرها الكثير.

كان المضرب يعاني الجوع الرهيب والإرهاق النفسي والعصبي والتعب البدني المتواصل إضافة إلى آلام الأمراض التي سببها الإضراب عن الطعام لهذه الفترة الطويلة، كل هذا من أجل احترام القرآن وإنهاء المعاملة المهينة للمعتقلين جميعاً، وإعطائهم حقهم في محاكمة عادلة أو إطلاق سراحهم، كان الجنود يضعون أمام المضربين أشهى أنواع الطعام غير المتوفرة لبقية المعتقلين ليغروهم بإيقاف الإضراب، لقد عرضت الإدارة الأمريكية على أحدهم أن يحسنوا معاملته هو وحده فرفض حتى يشمل ذلك جميع إخوانه المعتقلين، ثم عرضوا على جميع المضربين أن تكون لهم معاملة خاصة متميزة عن بقية المعتقلين بشرط التوقف عن الإضراب فرفضوا كل العروض ما لم تشمل الجميع، مع كل هذا الألم والبلاء والجوع والإرهاق كان حفظة القرآن من المضربين يراجعون يومياً عشرين جزءاً وبعضهم خمسة عشر جزءاً وآخرون عشرة أجزاء في كل يوم.

دأب الأمريكان في محاولة بث الفرقة والخلاف بين المعتقلين، فاستخدموا تكتيكاً جديداً، خاصة بعد أن علموا العلاقة الوثيقة بين المعتقلين، فشددوا قبضتهم على غير المضربين وطبقوا عليهم قوانين صارمة، وزعموا أن كل ذلك بسبب إخوانهم المضربين الذين اتخذتهم الإدارة الأمريكية مبرراً لتعميم القوانين الصارمة والعقوبات المجحفة، وأوصلوا لهم رسالة غير مباشرة بأن السبيل لوقف هذه الإهانات والظلم هو الضغط على المضربين ليوقفوا عبثهم على حد تعبير الأمريكان.

لقد أدرك الأمريكان أن تأثير الضغط الداخلي من الصديق أكبر بكثير من تأثير التعذيب من العدو، فجعلوا طعام المعتقلين أسوأ من السابق، وقالوا: هذا بسبب إخوانكم المضربين، شددوا القيود وصعدوا وتيرة الاستفزاز لنفس السبب.

لكن خطة الأمريكان فشلت أمام وعي بقية المعتقلين الذين يجلون عظم التضحيات التي يقدمها المضربون من أجلهم، لقد عانوا آلاماً عظيمة وضحوا بصحتهم من أجل الدفاع عن القرآن والصلاة والدفاع عن الحقوق الإنسانية للمعتقلين جميعاً، المضربين وغير المضربين، لقد آثروا أن يكونوا الصف الأول ويدرؤوا عمن وراءهم سهام ظالم متجبر بصدورهم العارية، فمن الدناءة توجيه اللوم على المضربين الذين قذفوا أنفسهم في اللجة ليسلم ركاب السفينة، قلت لمعتقل كان بجواري: ألا ترى ما يحدث؟ لقد فشلت خطة الأمريكان مع المعتقلين في غوانتانامو بينما نجحوا فيها مع الأمة خارج غوانتانامو!

لقد كان للطاقم الطبي الدور الأساسي في تعذيب المضربين عن الطعام، الطب مهنة إنسانية لكنها تشوهت بمشاركة الأطباء في التعذيب. كان الممرض يضرب أحد

المضربين بيده على رأسه وآخر يتفنن في إيجاد طرق للتعذيب لإجبار المضربين على التوقف، فحين جاء الطاقم الطبي الجديد عام (٢٠٠٨) تفاجأ أحد المضربين بأن من بينهم ممرضاً كان ممن شارك في تعذيبهم في عام (٢٠٠٥)، لم يتمكن الممرض من معرفة المضرب بعد هذه السنين، خاصة أن وجه الأخ قد تغير من الإضرابات الكثيرة وشدة البلاء، وحين اقترب منه بصق المعتقل في وجهه، نظر إليه غاضباً وهو يستفهمه: لماذا بصقت علي؟

أجابه: أتظن أني نسيت تعذيبك لنا قبل ثلاث سنوات؟ إن كان الظالم ينسى فإن المظلوم لن ينسى.

انقمع لون الجندي وهو لا يستطيع فعل ما كان يفعله سابقاً لأن إدارة المعتقل قد غيرت سياستها في ذلك الوقت، ثم عوقب المعتقل بمصادرة كل أغراضه.

سأله أحد الجنود المتعاطفين باستغراب: كيف تذكرته بعد هذه السنين؟

أجابه: لو ذقت ما يذوقه المظلوم لأصبح سؤالك: (كيف تنساه) لا (كيف تذكره).

كان الطاقم الطبي حريصاً على الحصول على أوزان المضربين بصورة دورية للسيطرة على وضعهم الصحي الحرج، لكن بعض المضربين كان يمتنع عن تمكينهم من ذلك كنوع من أنواع الاعتراض على سياسة التعذيب الممنهجة في المعتقل، فجاؤوا بميزان ضخم يوضع فيه المعتقل بالقوة، فيحاول المعتقل التحرك يمنة ويسرة فلا يتمكن الميزان من تحديد الوزن، يمسكه الجنود ليثبتونه فيتذبذب الرقم صعوداً ونزولاً دون أن يتم تحديد الوزن الدقيق، فأوقعهم في حيرة من أمرهم مما جعل بعض المضربين على وشك الموت وهم لا يعلمون حقيقة أوزانهم، وفي إحدى المرات ضربوا أحد المضربين الرافضين للوزن، فانكسر فكه وورمت عينه وأغمي عليه، حينها نجحوا في أخذ وزنه، غضب الطبيب من حماقتهم قائلاً: ماذا أصنع بالوزن إن عرضتم حياته للخطر؟

أراد الجنود أخذ وزن أحد المضربين فرفض بسبب سوء معاملتهم، فاستخدموا معه القوة وأثبتوه على الميزان، فلم يتمكنوا من تحديد وزنه الحقيقي، كلما رفعوا أيديهم لتحديد وزنه بدأ المعتقل بالتحرك حتى يشوش على الرقم، ضربوه، خنقوه، فلم يزده إلا عناداً، جاءه الطبيب متوسلاً بكل أدب واحترام حينها أعطاهم وزنه طواعية وهو يقول للجنود: نقابل الاحترام بمثله ولن يجدي معنا العنف، كثيراً ما تكررت أمثال هذه القصص.

خففت الإدارة من القيود الصارمة على المضربين بعد أن انتشر الخبر في الإعلام،

لم تشأ الإدارة الأمريكية أن تتحمل أعباء أخرى في غوانتانامو إضافة إلى ما تعانيه في العراق وأفغانستان، فنقلت المضربين إلى العيادة وقيدت يداً واحدة من كل معتقل بالسرير، ثم يقوم الممرضون بإدخال الأنبوب في أنوفهم، ثم يتركون على حالهم هذا بعد أن يخرج الممرضون والجنود من المكان اكتفاء بالكاميرات، والتغذية عن طريق الأنف ليست كالتغذية الطبيعية عن طريق الفم، فيحرم المضرب من استطعام الغذاء طوال فترة إضرابه لأن المغذي يمر مباشرة إلى المعدة، ولا يستفيد الجسم منه الاستفادة الكاملة لأن مرور الغذاء بالفم ينشط إفراز اللعاب الذي يساعد كثيراً في عملية الهضم كما يستثير الأنزيمات في المعدة لتقوم بعملها، فيبقى الجسد يشعر بالإرهاق والضعف طوال الوقت، كما تصيبه الكثير من الأمراض بسبب التغذية القسرية وبسبب العقاقير التي تسبب الاكتئاب والإمساك والغثيان والخمول التي يتعمد الأمريكان وضعها في المغذي ليجبر المضرب على استبدالها بالتغذية الطبيعية.

رأى المضربون استمرار إدارة المعتقل في المراوغة وتماديها في سياستها الظالمة حين استقرت حالة المضربين الصحية تقريباً بعد أن تم تغذيتهم عن طريق الأنابيب، فلاحت فكرة للمضربين، وهي إخراج السائل المغذي من المعدة، لكن كيف والمراقبة بالكاميرات على مدار الساعة؟ يظل الجندي يراقب المضرب ولا ينصرف إلا بعد الانتهاء من عملية التغذية، وقد يقف الطبيب بنفسه أحياناً ليراقب المضرب؟

كان المضرب يغطي نفسه بالبطانية، ثم ينزع طرف الأنبوب المثبت بالقربة المملوءة بالمغذي، ثم يضعه في فمه ليمص المغذي الذي استقر في معدته من الأنبوب الداخل في أنفه، ثم يفرغه في قارورة الماء الفارغة ويخفيها معه، وحين يأتي وقت السماح لقضاء الحاجة يصرفها في المرحاض دون أن يشعر الجنود، كانت العصارة الخضراء تخرج من بعض المضربين عند شفط المادة المغذية من المعدة، بعض المضربين الذين كانوا يشفطون المغذي من معدتهم عانوا أمراضاً عديدة، استمرت معهم حتى بعد أن أوقفوا إضرابهم بسنين، كان بعضهم لا يستقر في معدته طعام حتى يتقيأه.

استغرب الأطباء بأن كل شيء يسير على ما يرام إذن ما المشكلة بالضبط؟ لماذا تنزل أوزانهم؟ زادوا كمية المغذي وجاؤوا بنوعيات جديدة تزيد في الوزن لكنها تسبب غثياناً شديداً، وضعوا فيتامينات ومواد تثبت المغذي في المعدة لأطول فترة، ولازالت الأوزان في تناقص، ما المشكلة إذن؟

تدهورت حالة المضربين بحدة مما استدعى أن تطلب إدارة المعتقل نجدة طبية عاجلة من البنتاغون الذي أرسل عدداً من الأطباء المدنيين الماهرين ليروا ماذا يجري، كانت المدة القصيرة التي مكثوها في غوانتانامو كفيلة بأن تُعَرِّفَهم بهؤلاء المضربين، لقد

عاشوا معهم ورأوا من صبرهم ومحبتهم لبعضهم ما أذهلهم، جاء أحد هؤلاء الأطباء إليهم في آخر يوم له في الجزيرة مودعاً بعينين اغرورقتا بالدموع، وقد رأينا مدنيين آخرين قلوبهم أشد وأقسى من الجنود، فالأمر لا يتعلق بالبدلة لكنها تلك المضغة النابضة التي تنطوي على أسرار المشاعر الإنسانية كما يتضمن الحمض النووي الشفرات الوراثية.

وصل هزال بعض المضربين إلى درجة تثير الشفقة والحزن العميق، كان أحدهم يحلق بأصابعه حول فخذه فتلامس السبابة الإبهام، وحين رأى الدكتور القادم من واشنطن نتائج تحليل الدم، قال قبل أن يرى المضرب: هذا تحليل رجل ميت، وآخر تآكلت عضلة قلبه من الهزال، مرض أحد المعتقلين فأتوا به إلى العيادة التي يتواجد بها المضربون، فرأى مع المضربين أحد إخوانه المقربين منه بعد فراق استمر ستة أشهر، وقد بلغ وزنه ثمانون باونداً بعد أن كان مائة وأربعين باونداً. فدمعت عينه حين رأى عظام وجنتيه البارزة ونتوء عظام ترقوته وشحوب وجهه من التعذيب والإضراب، استمر بعض المضربين على هذه الحال لستة أشهر متواصلة وهو يأبى أن يوقف إضرابه، أخذت أوزانهم بالنزول إلى مرحلة خطيرة جداً، ظن الأطباء أن التعذيب النفسي الممارس ضدهم قد يكون هو السبب في عدم استجابة أجسادهم للمغذي.

كان المضربون يتنافسون في إنزال أوزانهم، ويتباهى أحدهم حين يتمكن من إنزال وزنه أكثر من الآخرين، لقد كان لهم عالمهم الخاص، عالم لا يشاركهم فيه غيرهم، له اهتماماته وتصوراته، كان يحزنني حالهم، ولَكَم بَلَّغتُهُم نصحي وقلقي لكل من يذهب إليهم في العيادة، لم أكن أؤيدهم على قرارهم بالوصول إلى مشارف الهلكة، لكني كنت أُجِلّ تضحياتهم الباهرة وصبرهم المدهش، كنت أمامهم كالقزم الضئيل الذي يرى أخاه واقفاً على حافة الهوة فيناديه مشفقاً: تراجع.. أرجوك، كنت أنصحهم كمن يرى نفسه في بطن الوادي وهو يراهم يتقافزون بين القمم الوعرة، ولم أكن كَمَنْ ينصحهم وهو يرى نفسه على الرابية يمد يده للساقطين في الحضيض.

دخلت قوات الشغب على زنزانة معتقل سعودي من آل البيت من سكان المدينة، وضعوه على كرسي التغذية ثم قيدوه عليه، الأكتاف والأيدي والأرجل، شدوا حزام البطن بعنف ليتضاعف الألم على المعدة الخاوية، كان يصرخ وهو يقاومهم: (أريد حقوقي كإنسان)، أثبت الجنود رأسه على الكرسي بالحزام، وضعوا على فمه وأنفه الكمام ثم شدوا عليه حزاماً حتى أدمى أسنانه وخشي عليها السقوط، جاء جندي من خلفه ثم خنقه كي يمنعه من الحركة فأغمي عليه، وعندما انتهوا من التغذية أخذوه وهو مغمى عليه ثم رموه في زنزانته الباردة، وظل ساعات طويلة وهو ملقى على وجهه،

فأفاق وإذا بسرواله قد انكشف عن عورته لولا أن القميص العلوي قد غطى شيئاً منها.

وقفت قوات الشغب أمام زنزانة أحد المضربين، كان يحسن لعبة قتالية، وأمروه أن يرجع إلى مؤخرة الزنزانة قبل اقتحامهم زنزانته فرفض، فتحوا الباب فانقضوا عليه، انحرف قليلاً ليخطئوه بسبب سرعتهم، وتوجهوا إلى الحائط بدلاً عنه، اصطدموا بالحائط فأصيب بعض الجنود، ثم أخذ المعتقل يضرب البقية وهم يصرخون، هرب بعض قوات الشغب خارج الزنزانة، اعتبرت الإدارة ما حدث إهانة لها فأرادت الانتقام منه حفاظاً على معنويات الجنود المنهارة أمام رجل أعزل مضرب عن الطعام فعل بهم ما فعل، فجاءوه ليلاً بقوات الشغب واقتحموا زنزانته بعنف فضربوه وآذوه حتى ظل أياماً لا يقوى على الحراك من شدة آلام الظهر.

كان من بين المضربين أخ مغربي دون العشرين من عمره، جمع بين العزة على الجنود والتواضع والأدب الجم مع المعتقلين، قصير القامة، كسرت يده في قلعة (جانغي)، فوهب الله ليده الأخرى قوة يَدَيْن، نادراً ما يستطيع الجندي الإفلات من قبضته الفولاذية حين تحدث مشكلة معهم، رفض التغذية القسرية، دخلت عليه قوات الشغب وقيدوه بالقوة بعد مقاومة شرسة أذهلت الجنود على الرغم من إضرابه عن الطعام لأسابيع كثيرة، حاول عشرة جنود الإمساك برأسه وهو مقيد اليدين والرجلين والأكتاف فلم يستطيعوا، وذلك قبل أن يأتوا بالكرسي الخاص للتغذية، أتوا بإسفنج لتثبيت رأسه حتى يتمكنوا من إدخال الأنبوب في أنفه لكنه استمر في مقاومتهم، يميل رأسه يمنة ويسرة وينسل رأسه من أيديهم حتى يئسوا منه، وعلموا أنهم لن يستطيعوا ذلك إلا بضربه حتى يغمى عليه، وعندئذ قد تتعرض حياته للخطر، لأن الأنبوب قد ينزل أحياناً إلى الرئة بدلاً من المعدة فيختنق ويموت، فجاء ضابط إلى معتقل مضرب قريباً منه، وتوسل إليه أن يقنع هذا المعتقل الشاب العنيد الذي أرهقهم، خاصة أنه وصل إلى مرحلة الخطر. كان هذا الأخ المغربي شديد المحبة لإخوانه المعتقلين، غاية في الأدب لمن يكبره سناً، وحين طلب منه أخوه بأن لا يعرض حياته لخطر أكبر مما هي عليه الآن وافق على إعطائهم وزنه الحقيقي.

وآخر كان شديد المراس، قوي الجسد، قبضته أشبه ما تكون بالكماشة، هذا قبل إضرابه الذي وصل وزنه فيه إلى تسعين باوند، جاءه جندي خبيث كان يؤذي المضربين مستغلاً ضعفهم وتآكل قواهم بسبب الإضراب، فضيق القيد على ساعده، طلب منه توسيعه قليلاً لأنه يتألم من ضيقه، فرفض وهو يصرخ في وجه المعتقل المضرب الذي قيدت إحدى يديه بإحكام في السرير آمراً إياه بالتزام الصمت، لم يكمل الجندي جملته حتى تفاجأ بلكمة عنيفة على فكه، أصابته بالدوار، صدم من أن مصدر هذه اللكمة

العنيفة هو شخص مضرب عن الطعام منذ أشهر، يفترض أن يكون أضعف بكثير من أن يسددها له بهذه القوة، استرد وعيه فأراد أن يسترد كرامته المهانة، اندفع نحو المعتقل بجسمه الضخم فتفاجأ بلكمة عنيفة أخرى على نفس الفك، ثم ثالثة فسقط عند قدم المعتقل في السرير فركله المعتقل على وجهه، أخذ الجندي يصرخ على الجنود الآخرين يطلب نجدتهم، فهرعوا إليه وانقضوا على المعتقل ضرباً، ثم قيدوا يديه ورجليه، لقد وقعت الإدارة في ورطة، فلا هم قادرون على إيقاف مشاكل المضربين ولا هم قادرون على استخدام العنف المفرط الذي قد يؤدي إلى قتل المضربين الذين اقتربوا من الموت أصلاً.

جاء القرار:

لم يكتشف الأمريكان السر إلا لاحقاً فغيروا سياستهم في التغذية ورجع التعذيب مرة أخرى، صرح وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد أن المضربين عن الطعام يتبعون حمية غذائية للفت انتباه الصحافة، وأن هذه التصرفات تثبت أنهم أعضاء في تنظيم القاعدة الذي درب أتباعه جيداً على التعامل مع هذه الظروف!

ثم أعطى الضوء الأخضر لإدارة المعتقل كي تستخدم التعذيب لإيقاف هذا الإضراب الذي أحرج الحكومة الأمريكية أمام الإعلام العالمي، جاء جندي إلى أحد المضربين فقال له: ستتوقف قريباً عن الإضراب وتذكر رقمي هذا، ثم أشار إلى الرقم المعلق على صدره، لقد كان هذا الجندي يعلم أن برنامج التعذيب سيطبق قريباً على المضربين، وبعد أيام قليلة بدأ التعذيب فكان هذا الأخ المضرب ممن أوقف إضرابه، لكنه بعد ذلك بشهر عاد مرة أخرى إلى الإضراب، فجاءه جندي وقال له ما قاله الجندي الأول: (أنت ستتوقف عن الإضراب قريباً وتذكر كلامي)، فقال له المضرب: أنت الذي سترى ولست أنا! استمر هذا الأخ في إضرابه على الرغم من التعذيب العنيف الذي وقع عليه. إن روح التحدي تحفز النفس المتعبة للصمود.

طريقة التعذيب:

استخدم الجيش الأمريكي سياسة التغذية القسرية عن طريق الأنابيب باستعمال تقنية كرسي التثبيت، وهي تقنية انتقدتها جمعيات حقوق الإنسان، بعض الولايات تستخدم هذا الكرسي في عمليات الإعدام، يجلس عليه المعتقل وظهره مائل إلى الوراء، يتم تقييد قدميه وساقيه وفخذيه وبطنه وصدره وكتفيه ورأسه بأحزمة شديدة.

نُقِل المضربون من المستشفى إلى العيادة النفسية، وحين أرادوا أن ينتقلوا بهم إلى المرحلة الأخطر والأصعب وهي انفرادي أوسكار كان الدكتور يأتي ويفحص حالة كل

مضرب على حدة هل يتحمل التعذيب أم أنه سيموت في أثنائه، وكل من يتحمل التعذيب كانوا يرسلونه إلى انفرادي أوسكار، وتبقى البقية في العيادة النفسية، وبمجرد وصول الأخ المضرب إلى انفرادي أوسكار يستقبله ضابط ومعه الجنود، ثم يقرأ عليه التعليمات ويوضح له أنه هنا بسبب الإضراب، وأنه لن يخرج من هذا الانفرادي إلا إذا أوقف إضرابه، يأمر الضابط الجنود بربط بعض المضربين بكرسي خاص، ثم يحلقوا شعر رأسه ولحيته، هذا الكرسي خاص لعقوبة الحَلْق وليس هو كرسي التغذية القسرية، كانوا يشدون الوثاق حتى يشعر أن عظامه ستنكسر، وبعد أن ينتهوا من الحلق يأخذونه إلى كرسي التغذية، يقومون بشد وثاقه في كرسي التغذية بعنف، الأيدي والأرجل والأكتاف والبطن، خاصة الرأس، يثبتون بالكرسي قطعتين من الفلين القاسي، ثم يضعون رأسه بينهما، ثم يشدون على الرأس بحزام على الجبهة وحزام على الذقن، وفي بعض الأوقات يزيدون حزاماً على جهة الفم والأنف، ثم يشدون الأحزمة بعنف شديد، وبعد أن ينتهوا من عملية التقييد يدخل الممرض ومعه الأنبوب مقاس ١٢ الذي يحتوي على معدن في مقدمة الأنبوب، سمك هذا الأنبوب يسبب آلاماً شديدة للمضرب، يدفع الممرض الأنبوب بعنف في فتحة الأنف فيختنق المضرب ويسيل أنفه ودموعه، ثم ينزلق في البلعوم، وغالباً ما يفشل الممرض في تمرير الأنبوب من البلعوم إلى المريء باتجاه المعدة لينحرف إلى القصبة الهوائية باتجاه الرئة، فيزداد الاختناق ويحمر الوجه ثم يزرق ليستخرج الممرض الأنبوب ملطخاً بالدماء ليكرر المحاولة مرات عديدة، كانوا يضعون على فم المضرب وأنفه الكمام أثناء عملية التغذية، مما يصعب عملية التنفس عليه، كما أن خيط الكمام يحز جلد الأذن فيسيل منه الدم من شدة الجذب، ومع تكرر عملية التغذية يزداد أثر حز الأذن في نفس مكان الجرح السابق، مما يسبب الالتهاب ومزيداً من الألم وخروج الصديد، ويعلقون قربة المغذي على ارتفاع ثلاثة أمتار تقريباً حتى ينزل إلى المعدة بسرعة، فتزداد آلام المعدة.

حجم القربة الواحدة للمغذي أكبر من حجم معدة المضرب التي تقلصت كثيراً لامتناعه عن الطعام لأسابيع وأشهر، كان الممرض يتبع القربة الممتلئة بالمغذي بقربة أخرى من الماء، وبجواره صندوق كامل من علب المغذي الثقيل، المغذي المستخدم في التغذية أنواع، منه الخفيف والمتوسط أما الثقيل فهو متعب جداً لمعدة المضرب، تحتوي العلبة الواحدة على ٤٧٥ سعرة حرارية، تسع القربة الواحدة ١٢٠٠ مليمتر، يملؤها الممرض بما يقارب خمس علب من المغذي الثقيل، تحتوي على ٢٣٧٥ سعرة حرارية للتغذية الواحدة، ثم يضيف إليها قربة كاملة من الماء حتى يملأ المغذي جوف المضرب تماماً، فيشعر المضرب أنه يغرق، يغرق بمعنى الكلمة، كأنه غارق في بحر من المغذي، يحاول العثور على فرصة ليتنفس وسط الأمواج المتلاطمة.

وضع الممرضون والأطباء لأحد المضربين المعذبين ٢٤ علبة متتابعة من المغذي، بينما لا يتسع بطنه الصغير لعلبتين من المغذي الثقيل في اليوم الواحد، يطفح المغذي إلى الحلق ليمنع المضرب من التنفس، فيفيض خارجاً من الفم فيمنعه الكمام من الخروج فيرجع بعضه إلى الجوف وبعضه يتسرب من الفتحات الجانبية للكمام، ليتسرب بين لحيته إن لم يحلقوها في العقوبة ورقبته وملابسه، ثم تنسكب في الأرض لتتشكل منها بقعة كبيرة صفراء، ومع شهقات المتوجعين وحشرجات المعذبين يستمر الممرض بلا مبالاة بملء القربة بالمزيد من علب المغذي، يكاد بطن المضرب أن ينفجر من شدة الامتلاء، والمكيف ينفث هواءه البارد فوق رأسه، ليرتجف ذلك الجسد الهزيل المتعب المبلل بما فاض من معدته وكأنه في ثلاجة موتى، وحين تنحدر آخر قطرة من المغذي في المعدة المنهكة يختم الممرض عملية التعذيب بوضع مادة مسهلة في القربة.

يتم الإبقاء على المضرب مقيداً على الكرسي لساعتين تجبره على قضاء حاجته في ملابسه، (بقي مضرب يمني في إحدى المرات لثماني ساعات متواصلة مقيداً على الكرسي فاضطر لقضاء حاجته في ملابسه ولم يمكنوه من تغيير ملابسه أربعين يوماً)، يعاني آلام الوثاق المشدود وامتلاء البطن في البرد الشديد، قد تتكرر هذه العملية ذاتها ثلاث مرات في اليوم، وبعد انتهاء عملية التغذية تعيده قوات الشغب إلى زنزانته الباردة بملابسه المبتلة دون أن يعطى ملابس جديدة، ولا يوجد في الزنزانة إلا الحصير ولحاف خفيف يترك في الزنزانة لمدة أربع إلى خمس ساعات فقط ثم تصادر منه، يُغْلَق ماء المغسلة والخلاء فلا يستطيع الاستنجاء بالماء بعد قضاء الحاجة، ولا يفتحون له الماء إلا بعد ساعات طويلة من عملية التغذية، وحين يعود الماء يستغلها هؤلاء المعذَّبون في غسل ملابسهم المتسخة بالقيء والبول والغائط وغسل أجسادهم الهزيلة مما أصابهم، ليقضوا بعدها ما فاتهم من الصلوات التي لم يتمكنوا من أدائها أثناء التعذيب، ويبيتون ليلتهم يرتجفون من شدة البرد، حتى تجف ملابسهم مع الفجر ليستقبلوا في بداية النهار موجة تعذيب جديدة.

ومن شدة البرد تتشكل طبقة رقيقة من الثلج على جدار الزنزانة وتتكون قضبان ثلجية على المكيف الذي يضخ زمهريره على هؤلاء المساكين دون رحمة، ولو حاول المعتقل أن يختطف النعاس من براثن البرد والألم فإنه لن ينجو من ضجيج الجنود الذين يتعمدون قضاء ليلتهم في ضرب أبواب الزنازين والصراخ في العنبر وهم يحاكون في سخريةٍ أنينَ المضربين وهم يعذبون، ثم يصيحون متظاهرين بالبكاء: (I am hungry) أنا جائع.

ربطوا مانع العتيبي رَحِمَهُ اللَّهُ في كرسي التغذية، وبدؤوا في تعذيبه بإفراغ علبة من

المغذي تبعتها أخرى ثم أخرى ثم أخرى، أخذ يضرب رأسه بقطعة البلاستيك المثبتة لرأسه من شدة الألم، أغمي عليه فلم يشعر إلا وهم يضعونه في زنزانته مرة أخرى.

وضعوا لمضرب سعودي من جدة كمية كبيرة من المغذي في القربة فاستفرغه وهو على الكرسي، ومع قوة الاستفراغ خرج طرف الأنبوب من فمه وبقي الطرف الثاني في أنفه، فأتى الطبيب وأمسك بيمناه مقدمة الأنبوب الداخل في الأنف وبيسراه الطرف الآخر الخارج من الفم، وظل يسحب الطرفين بعنف مرة باليمين ومرة باليسار، ومن شدة التعذيب أغمي على بعض المضربين أثناء التعذيب.

وضعوا أحد المضربين على كرسي التعذيب للتغذية القسرية وقيدوه بعنف وأتى الممرض بأنبوب رقم ١٢ قاسٍ غير مرن، وقام بدفعه سريعاً في أنف المضرب، فدخل القصبة الهوائية بدلاً من المريء، بدأ في السعال المتواصل وهو يحاول التنفس دون جدوى، تساقطت دموعه وامْتُقِعَ لونه وجحظت عينه حتى رأى الموت، عندها سحب الممرض الأنبوب ملطخاً بالدم، أدخله مرة أخرى فدخل مجرى الرئة وحدث له ما حدث في المرة الأولى، لكن الممرض أبقى الأنبوب في جوفه وهو يرى المضرب ينازع ويضطرب بجسمه يمنة ويسرة، كان منظره يثير شفقة أقسى القلوب، لكن الممرض بكل برود وضع السماعة على بطنه ثم نفخ في مقدمة الأنبوب ليسمع صوت النفخة، وحين لم يسمعها علم أن الأنبوب قد دخل مجرى الرئة مرة أخرى، أخرج الأنبوب بكل هدوء ثم أعاد العملية من جديد حتى تأكد من وصول الأنبوب إلى المعدة بعد أن وصلت روح المعتقل إلى مشارف الموت.

وضعوا كل مضرب في زنزانة انفرادية فيها سرير وربطوه به، وأتوا بأجهزة تشبه المكنسة الكهربائية تصدر صوتاً عالياً مزعجاً أربعة وعشرين ساعة يومياً، ومنعوهم من معرفة أوقات الصلوات، وضيقوا عليهم في استخدام الخلاء إلا في أوقات معينة، حتى اضطر بعض المضربين إلى قضاء حاجته في ملابسه على السرير، شددت المراقبة عليهم بالكاميرات، ووضعوهم على كرسي التعذيب للتغذية القسرية، يقف الجندي مراقباً خلال نزول المغذي إلى المعدة، ويحاول المضرب المسكين استراق غفوات في غفلة الجنود قبل أن يأتي أحدهم ليركل الزنزانة بعنف فيهب من نومه فزعاً، خلال فترة التعذيب يُمْنَع المعتقلون من الأذان والصلاة وتُشَغَّل المولدات الكهربائية التي تصدر ضجيجاً مزعجاً دون توقف.

أصيب بعض المضربين بالهلوسة فلم يعلموا أين هم ولا من الذين بجوارهم، بقي أحد المعتقلين في معسكر (إيكو) وحيداً لفترة طويلة لا يستطيع الكلام مع أحد، وعندما نزل وزنه كثيراً وساءت صحته أخذوه إلى انفرادي المستشفى، وجاؤوا بالأخ

(وضاح) رَحِمَهُ اللَّهُ في الزنزانة المجاورة، فرح به جداً وأخذ ينادي وضاح ليتكلم معه، التزم وضاح الصمت خشية الإتيان بالمولدات الكهربائية فيزعجونهم بها، لكن الأخ بدأ يناديه مرة وثانية وثالثة، استحى وضاح واضطر إلى إجابته بصوت خافت، لم يستطع الأخ سماعه: أعد فإني لا أستطيع سماعك!

فيعيد ثم يجيبه مرة أخرى: لا أستطيع سماعك، ارفع صوتك قليلاً!

فيعيد ثالثة ورابعة حتى علم الأمريكان بحديثهم فأتوا بالمولد وأشغلوه فأصدر صوتاً مزعجاً جداً، وبعد ساعات من الصداع وآلام الأذن أطفأوه، فاعتذر الأخ من وضاح وقال له: سامحني لكني أردت فقط أن أتحدث مع أي أخ لأني حرمت من الحديث مع إخواني لفترة طويلة.

رجع أحد المضربين الكويتيين من التعذيب لإجباره على إيقاف الإضراب، فمر على أحد المعتقلين المضربين (من جدة) فسأله: من أين أتيت؟

فأجابه الكويتي متذمراً: من المنتجع السياحي في جزر البهاما! ألا ترى شعري المنفوش وأنفي المتورم لتدرك من أين أتيت؟!

جاء ضابط أمريكي ومعه مترجم لبناني إلى أحد المعتقلين المضربين وهو في المستشفى، فقرأ عليه بياناً من الحكومة الأمريكية فيه أنهم قرروا تمديد حجزه في المعتقل، فسأل المعتقلُ المترجمَ اللبناني: هل اليوم أول يوم في عيد الفطر؟

تأثر المترجم من سؤاله، لم يكن يعلم أن العيد كان بالأمس، وحين خرج الطبيب التفت المترجم إليه وهو يهمس في حزن: لن أنساكم من الدعاء بأن يفرج الله عنكم!

كان هناك معتقل يمني مشارك في الإضراب على الرغم من ضآلة جسده ونحوله الشديد، فأصيب بقصور البنكرياس بسبب التهاب حاد فيه، فكان يقضي ليلته متأوهاً حتى ظنه المعتقلون بجواره أنه سيلقى حتفه، رفضت الإدارة علاجه، واستمرت في تعذيبه ليتوقف عن الإضراب.

قال أحد المضربين لأخيه قبل أن يبدأ الأمريكان معه بالتعذيب: أتمنى لو دخل الأنبوب إلى الرئة بدلاً من المعدة فأختنق لأنال الشهادة في سبيل الله وأتخلص من ذل غوانتانامو.

فرد عليه: ليس الأمر بالسهولة التي تتوقعها، دخول الأنبوب إلى الرئة له علامات ليس بإمكانك إخفاؤها، ستظهر حتماً على ملامح وجهك أمارات الاختناق والدموع

والكحة اللا إرادية، حينها سيتدارك الممرضون الأمر، باختصار لن يدعوك تموت بسلام ولن يتركوك تحيا بسلام.

كان عدد المضربين قبل التعذيب ٢٥ شخصاً، أكثرهم لم يكن على قناعة بالإضراب لهذه الفترة الطويلة، لكنه دخل فيه نصرة لإخوانه المضربين قبله، وحين بدأ التعذيب كان أكثر ما يهم كل واحد منهم هو ألا يكون أول من يوقف الإضراب فيكون هو السبب في انفراط عقد المضربين.

أكثر المضربين أوقفوا إضرابهم بعد تعرضهم لهذا التعذيب الرهيب لاعتقادهم أن الحرب كر وفر، فلهم أن يوقفوا إضرابهم اليوم ليعودوا إليه بعد شهر مثلاً وهكذا، باستثناء ثلاثة أشخاص أحدهم من مكة والثاني من المدينة والثالث محمد عبد الله اليمني رحمه الله، استمروا في إضرابهم رغم كل ما نالهم من عذاب، أما الأخ المدني الذي استمر في الإضراب فإنه لم يدخل عن قناعة، بل عوقب يوماً في انفرادي العقوبات وأتوه بالوجبة الورقية المخصصة للمعاقبين، وهي طعام قليل مطهو بطريقة سيئة يوضع على ورق ويقدم للمعتقل بطريقة مهينة، رفض الوجبة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة، بدأ وزنه ينزل، ظن الأمريكان أنه شرع في الإضراب، وما حمله على رفض الطعام إلا الطريقة المهينة في تقديم الطعام، فأخذوه إلى عنبر المضْربين، أخذ المضربون يهتفون باسمه فرحاً بانضمامه إليهم، فابتسم وهو يقول: مكره أخاك لا بطل!

عندها أعلن إضرابه الحقيقي، وحين اشتد التعذيب توقف أكثر المضربين عن إضرابهم، أما هو فقد رفض التوقف عن إضرابه عناداً للأمريكان، والعجيب أنه استمر في إضرابه لأكثر من عشر سنوات حتى أطلق سراحه ولله الحمد، ليصبح صاحب أطول إضراب في التاريخ البشري!

لم يتوقع الأمريكان أن هذين المضربين المكي والمدني سيستمران في الإضراب، لأنهم وجدوا (المكي) يأخذ ملعقة عسل أو ملعقتين كل أسبوع تقريباً، وكان أحياناً يأخذها فتسجل عليه ثم يعطيها للمرضى سراً، بل إن الدكتور الأمريكي قد قال لأحد المضربين عنه: هذا المضرب غير جاد، وأتوقع توقفه قريباً عن الإضراب!

وحين مارست الإدارة التعذيب توقف عن الإضراب معظم المتشددين فيه، وثبت من ظنوا أنهم غير جادين، ومما ساعدهما على تحمل العذاب هو أنهما كانا يستعينان برشفات العسل مرة كل أسبوع تقريباً إضافة لفضل الله عليهما بالصبر والجلد، وحين رأى الأمريكان أن (المكي) تمكن في حال إضرابه من ضرب بعض الجنود ومقاومة قوات الشغب قللوا له كمية المغذي ليبقى ضعيفاً، وفي إحدى المرات لكم جندياً فضربوه بالسلاسل فخاطوا جرحه بست غرز، كما نجح في محاولة سابقة بضرب أحد

الجنود فكسر سنه، كان جندياً خبيثاً يعذب المضربين، ومن قصصه أنه وقف يوماً على سريره ليستنشق الهواء ويمتع ناظريه بالسماء من أعلى النافذة، كان وقوف المعتقل على سريره من المحظورات التي يعاقب عليها، فرشه الجندي بالبخاخ على وجهه مباشرة، فأخذ المكي يركل الباب من شدة الغضب على الجندي، فزع أحد المضربين من ضرب الباب، وحين سأل جيرانه عن السبب أخبروه، فقال: قولوا له يصبر ويحتسب، الأمر بسيط لا يستحق كل هذا الغضب!

كان الجو حاراً، فوصلت رائحة البخاخ إلى الأخ الناصح الذي يبعد عن المكي أكثر من عشرة أمتار فسقط مغشياً عليه، واستفرغ معتقل آخر من قوة الرائحة الخانقة، جلس الأخ المكي على السرير وهو يروح بالحصير على وجهه ليخفف آلام الاحتراق وهو ينادي: أين الذي يدعي بأن الأمر بسيط لا يستحق كل هذا الغضب؟!

كثيراً ما يثق المرء بنفسه قبل السباق، فما ينكشف الغبار حتى يدرك أنه في المؤخرة.

لقد انتشى الأمريكان حين نجحوا في إجبار معظم المعتقلين على إيقاف إضرابهم بالتعذيب، وجهلوا أنهم خسروا ما هو أكثر بكثير من بقاء المعتقلين في إضرابهم، وأن الفخر الحقيقي هو لذلك المعتقل الذي تحمل مشقة الإضراب ستة أشهر فوق آلام الأسر مطالباً بحقه الإنساني والديني، وإنه لانتصار عظيم لفكرته حين لا يوقف إضرابه إلا بالتعذيب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

جاء الأمر من البنتاغون لإطلاق سراح (سامي الحاج) مراسل قناة الجزيرة عام ٢٠٠٨، فأتوه بملابس المعسكر الرابع بيضاء اللون، لكنها واسعة جداً عليه، لا يتماسك السروال في حقوه، فطلب مقاساً يناسبه، جاءه ضابط من البحرية معروف بحقده على المعتقلين وسجل عليه أنه يرفض الخروج، علم بهذه المؤامرة مسئول حرس كان متعاطفاً معنا، فجاء إلى سامي وسأله عن سبب رفضه الخروج، صعق سامي من كلامه وأنكر تماماً أنه يرفض الخروج من هذا المعتقل الظالم، فأخبره مسئول الحرس بالمؤامرة وأن الضابط الحقود أراد أن يضيع على سامي فرصة النجاة من هذا البئر المظلم، فذهب مسئول الحرس إلى قيادة المعتقل وأخبرهم بالأمر، خرج سامي وهو يقول لإخوانه المعتقلين متوجهاً إلى معسكر آخر تجهيزاً لعملية الترحيل: خذوا القصة من السكران، يقصد مسئول الحرس المتعاطف، وقد كان لقبه بين المعتقلين.

وعندما أطلق سراح سامي جاء أحد الجنود المتعاطفين إلى المضربين الذين شاركوا سامي المعاناة وهو يخفي شيئاً في جيبه، فلما وصل إليهم أخرج لهم صورة سامي بعد خروجه وهو يبتسم ويلبس نظارات طبية وقبعة، ثم أخفاها حتى لا يراها معه

أحد من الجنود فيشي به إلى المسؤولين، كان هذا الجندي أسود اللون وكان يقول للمعتقلين: أي جندي أسود لا يعاملكم معاملة حسنة أخبروني عن رقمه لأطلب منه أن يحسن معاملتكم.

كان هناك جندي أسود يتعامل مع المعتقلين بخبث وعنجهية على خلاف عادة السود، فكان المعتقلون يقابلون إساءته بالإساءة وإهانته بإهانة أكبر منها، تمكن معتقل من مكة أن يلكمه من فتحة النافذة حين بلغ أذاه مداه، وبعدها نقلوا هذا الجندي إلى مجموعة أخرى كانت تحترم المعتقلين، سمعه أحد المعتقلين يوماً وهو يخاطب آخر: لماذا يحترمكم المعتقلون دوني؟ فأخبروه أن هؤلاء المعتقلين يقابلون الاحترام بالاحترام والإساءة بالإساءة، وحين تغيرت معاملته مع المعتقلين تفاجأ بالمعاملة الحسنة التي قابلوه بها.

وفي إحدى المرات طلب الممرض من الجندي الأسود أن يخنق أحد المعتقلين المضربين حتى يتسنى له إدخال أنبوب التغذية في أنفه بكل سهولة وأن يربط رأسه بالكرسي، تمعر وجه الجندي حزناً، وأخذ يحرك رأسه يمنة ويسرة مبدياً انزعاجه من هذا الأمر الذي لا يستطيع رفضه، أمسك رأس الأخ بلطف وربط رأسه برفق.

وبعد فترة جاءهم الجندي الملقب بالسكران وهو حزين جداً، وأخذ يشير للمضربين إلى المعسكر السادس، أخذ السكران يودعهم بحزن بالغ وودع المعتقلون بعضهم البعض وقد استولى عليهم الحزن لفقدهم هذا التواصل الذي لن يجدونه في المعسكر السادس، حيث لن ترى وتسمع إخوانك بوضوح إلا رؤية جزئية وراء نافذة زجاجية، لقد أحب هؤلاء المضربون عنبر (دلتا) كثيراً، لقد عاشوا فيه أياماً حلوة ومرة، لم يكن مجرد عنبر بل ألبوم ذكريات مضحكة ومبكية، لقد أسموه (العنبر الذي يحبنا ونحبه)، بعد أن قضوا فيه سنة كاملة وهم يعانون الإضراب.

قبل سنة قرر الأمريكان عزل المضربين عن بقية إخوانهم في هذا العنبر ليمارسوا عليهم شتى الوسائل ليوقفوا إضرابهم، أرادوا جعل العنبر عليهم جحيماً فجعله الله عليهم برداً وسلاماً، دخلوا العنبر وعددهم يقارب الخمسة والعشرين، وخرجوا منه بعد سنة وعددهم خمسة فقط، منهم من أطلق سراحه ومنهم من توقف عن الإضراب.

جاء الخبر أن أحد المعتقلين المضربين سيطلق سراحه، فجاء فريق النقليات إلى العنبر وكان فيه ثلاثة معتقلين سعوديين يتم تغذيتهم قسرياً، ينتظرون انتهاء عملية التغذية لنقل هذا المعتقل إلى مكان آخر تجهيزاً لعملية الترحيل. فلما رأى الثلاثة فريق النقليات بدأ كل واحد منهم يتفاءل أن يكون الآخر هو من سيطلق سراحه، وعندما جاؤوا لمعتقل من الطائف حزن لأنه سيترك إخوانه يعانون بينما سيرجع هو إلى بلده وأحبابه،

علم الجنود الحاقدون خبر خروجه القريب فعاقبوه في الانفرادي قبل رحيله، وجردوه من كل الأغراض، فنام في زنزانة باردة على الصفيحة الحديدية، وبعد أيام قليلة تنعم بدفء الأهل والوطن.

نُقِل أحد المعتقلين اليمنيين إلى عنبر المضربين ففرح بهم وفرحوا به، كانت تربطه علاقة أخوية خاصة مع أخ من المدينة النبوية، وكلاهما من آل البيت الذين كان يبلغ عددهم في غوانتانامو أربعين معتقلاً تقريباً، فطلبوا منه أن يدخل معهم فى الإضراب فاستحى أن يردهم فأضرب معهم على مضض سنة كاملة!!

ثم استسمحهم بإنهاء إضرابه بعد أن بلغ به الجهد مداه، وكان الأمريكان قد قرروا بأن أي معتقل يوقف إضرابه فإنهم ينقلونه إلى المعسكر السادس، وهناك وضعوا قانوناً جديداً بأن المعتقل يجب أن يأكل من الوجبة كمية معينة، كل نوع من الطعام له قيمة معينة على شكل نقاط، لأن الأوزان كانت منخفضة جداً بسبب الإضراب والضغط النفسي والتعذيب الممارس ضدهم، فإذا لم يأكل المعتقل الكمية المطلوبة يعاقب وتصادر كل أغراضه ويوقفون عليه ماء المغسلة والمرحاض بمجرد استلامه الطعام، ثم يبقى الماء مغلقاً إلى ما بعد ساعتين أو أكثر، وبعد كل وجبة يفتشون المعتقل وزنزانته حتى يتأكدوا من أن المعتقل قد أكل الطعام ولم يصرفه في المرحاض أو يخبئه، فيضطر المعتقل أن يرفض وجبتين ويقبل واحدة حتى لا يغلقوا عليه الماء الذي يستخدمه للوضوء وقضاء الحاجة إلا مرة واحدة في اليوم، وبدلاً من تحسين معاملة الذين قرروا إيقاف الإضراب أجبروهم على تناول المزيد من الطعام سيئ النوعية، فيا سبحان الله كيف قلب الله المعادلة بعد أن استخدموا معنا سياسة التجويع والحرمان في السنين الأولى لغوانتانامو؟

وحين وجد الأخ اليمني نفسه أمام هذا القانون المهين الذي يجبرك على أكل ما لا تريده رأى المعتقلين حوله قد عزموا على الإضراب وطلبوا منه مشاركتهم. فاستحى أن يردهم مرة أخرى وأضرب معهم، أرجعوه إلى أصحابه القدماء الذين غرقوا في ضحكهم حين رأوه يدخل عليهم مقيداً وقد بدا عليه شحوب الإضراب، شاركهم الضحك واستمر معهم سنتين إضافيتين مليئتين بالمواجهات والتعذيب، سنة كاملة كانت قوات الشغب تقتحم زنازينهم الفارغة من الممتلكات والمليئة بالتضحيات، أقولها شهادة أمام الله أن هؤلاء الرجال قد ضربوا أروع الأمثلة في الثبات والصبر.

كان الجنود مستمرين في تقديم الطعام للمضربين لعلهم يشتهونه فيوقفون إضرابهم، فكان بعض المضربين يستخدم المرق في مسح واجهة النافذة الزجاجية حتى لا يستطيع الجندي مراقبته منها، ويرسم فتحة صغيرة تسمح للجندي أن ينظر منها، فإن كان طويلاً

جعلها في مستوى منخفض، وإن كان قصيراً جعلها عالية لتعسر المراقبة عليهم، فكان الجندي الطويل يتوسل إليه أن يجعل الفتحة أعلى قليلاً كي تتسنى له المراقبة بدلاً من الركوع أمام النافذة فتزداد أوجاع ظهره، والقصير يستجديه كي ينزلها قليلاً لأنه تعب وهو يراقبه على أطراف قدميه، وبالرغم من ذلك اضطرت الإدارة على الاستمرار في تقديم الطعام للمضربين لعلهم يتوقفون عن إضرابهم حين تغريهم رائحة الطعام.

كان هناك جندي يؤذي المضربين، يركل أبواب الزنازين ويضيق القيود على الأيدي والأرجل، افتلتت أعصاب أحد المضربين واستطاع خلال تقييده أن يلكم هذا الجندي فسقط أرضاً والدماء تسيل من أنفه، فانتقم الضابط من الجميع، وأمر بتضييق القيود وشد الأحزمة على رؤوس المضربين حال تغذيتهم مما يسبب آلاماً رهيبة، حاول المضربون التفاوض مع الضابط ليلغي قانون شد الحزام على الجبهة مقابل خروج المضربين طواعية للتغذية القسرية دون استخدام قوات الشغب، فقبل الضابط فوراً لأنه سيخفف الضغط على جنوده، فرح المضربون فرحاً عظيماً بهذا الأمر، لقد تضاءلت آلام الإضراب والمعاناة التي هم فيها أمام الشعور بالانتصار في إلغاء قانون حزام الرأس.

وصلتنا الأخبار عام ٢٠١٢ عن طريق المحامين أن إخواننا الأسرى في سجون فلسطين أعلنوا إضرابهم عن الطعام وأسموه (معركة البطون الخاوية)، مطالبين بإنهاء سياسة الاعتقال الإداري وإعادة التعليم الجامعي والتوجيهي والسماح بالزيارات العائلية وإيقاف الإذلال لأهالي الأسرى خلال الزيارة، رأيت أحد المضربين يقول في تعاطف شديد وهو يسمع أن بعضهم أطلق سراحه بعد أن استمر في إضرابه ٦٦ يوماً: والله وددت لو أستطيع أن أفديهم بروحي.

ابتسمت وأنا غارق في دهشتي حين سمعته يقول ذلك وهو يعاني الإضراب لأكثر من ثماني سنوات، لقد نسي آلامه حين سمع عن آلام إخوانه!

ها هي قصتهم، أقف أمامها منبهراً لأتمتم: عظيم أنت يا الله حين تضع سر قوتك في أضعف خلقك لترغم به أنوف المتكبرين.

المفاوضات:

توسعت شرارة الإضراب حتى عمت معظم المعسكرات، قررت إدارة المعتقل ممارسة سياسة مختلفة تماماً مع المعتقلين، في بداية الأمر اجتمع العقيد مع أحد الإخوة الذين يتكلمون الإنجليزي ممن قاد التمرد على القوانين ليتفاوض معه على إيقاف المواجهات مقابل تخفيف القوانين المتعسفة، وكان معه ضابط آذى المعتقلين كثيراً فرفض التفاوض مع العقيد بوجود هذا الضابط، فتركه العقيد وذهب إلى أخ آخر يتكلم

الإنجليزية كذلك محاولاً بث الخلافات بين المعتقلين، اقترح العقيد تشكيل مجلس من ستة معتقلين يمثلون البقية، يتفاوض معهم على إيقاف الإضراب والمشاكل بين الجنود والمعتقلين، لم يتم اختيار الستة من قبل المعتقلين الآخرين بل رشحهم الأخ الذي قابل العقيد، على الرغم من كون الإخوة الستة من أصحاب الرأي والتأثير إلا أنهم يفتقرون إلى الخبرة في فن المفاوضات باستثناء الملا عبد السلام ضعيف سفير طالبان السابق في باكستان والذي كان أحدهم، كان هناك متميزون في التعامل مع هذه الظروف لكنهم آثروا الانزواء لأن الأمريكان يتعاملون مع كل بارز معاملة متوجسة قد تعرقل إطلاق سراحه، اختلفت وجهات النظر في اختيار هؤلاء الستة على الرغم من الاتفاق على صدقهم في محاولة إيجاد الحلول لتخفيف المحنة على إخوانهم المعتقلين، والمجتهد يصيب ويخطئ، والمثالية في مثل هذه الظروف الصعبة غير مقبولة.

المريب في الأمر أن الإدارة ضخمت موضوع التفاوض بشكل غريب، فكانت تسمح للمعتقلين الستة بالخروج مع جنديين اثنين فقط دون قيود للقدمين للذهاب إلى المعتقلين الآخرين في العنابر الأخرى لحل مشاكلهم، وكما عقدت عدة اجتماعات بين العقيد والإخوة الستة لإيجاد حلول للمشاكل، لكني كنت مرتاباً في الأمر، ألا يعلم الأمريكان أن القوانين الجائرة هي سبب المشاكل؟ ألا يعلمون أن المعاملة الحسنة ستوقف المشاكل كما أوقفتها في المعسكر الرابع؟ ماذا يريد الأمريكان من هذه المفاوضات؟

لم يكن لدى المعتقلين ورقة ضغط يستطيعون المساومة بها سوى الإضراب عن الطعام والصدامات مع الجنود، ولم يكن الأمريكان مضطرين لهذه المفاوضات، لأنهم يعرفون جيداً ما يؤذينا وما يريحنا، ما يستفزنا وما يرضينا، وحين أرادت الإدارة الأمريكية تحسين الأوضاع كما حدث في غضون ثورات الربيع العربي نجحت في ذلك دون الحاجة للتفاوض مع المعتقلين، لقد كانت ردود أفعال بعض المعتقلين بعد الله تعالى هي من أجبرت الإدارة الأمريكية على تخفيف التعذيب، لكن دهاء الإدارة وتضلعهم في إدارة الكوارث والصدمات والأزمات ساعدهم في تحويل الإخفاق إلى نجاح، كان بإمكان الأمريكان إنهاء المشاكل والإضراب بكل سهولة دون الحاجة إلى مفاوضات واجتماعات، يعلم الأمريكان أن المعتقلين يمثلون التيارات الفكرية الإسلامية خارج غوانتانامو، وأنهم نموذج مصغر لهؤلاء الذين يناصبونهم العداء، فأرادوا معرفة طريقة تفكيرهم ونقاط القوة والضعف لديهم، فقد كانت الحكومة الأمريكية حريصة غاية الحرص على تهدئة الأوضاع في غوانتانامو سنة (٢٠٠٥) و(٢٠٠٦) بعد أن أصبحت غوانتانامو آلة تجنيد ضخمة ضد الولايات المتحدة، حيث كانت غارقة في وحل من الدماء في أفغانستان والعراق، كما أرادوا خلق وسيلة ضغط داخلية بين المعتقلين

تجبرهم على التهدئة، أرادت أن تخلق سلطة وهمية لبعض الإخوة المعتقلين والذين لا نشك في صدقهم لكننا نشك في الهدف المخفي لهذا الماكر الذي يريد أن يصل لهدفه عن طريق خصمه هذه المرة، فيستخدمون هذه السلطة لإيقاف التمرد من الداخل، كما أرادوا بث روح الشقاق والفرقة بين المعتقلين بإعطاء الإخوة الستة المتفاوضين شيئاً من المميزات التي لا يتمتع بها بقية المعتقلين، كالمعاملة المميزة من الجنود والضباط كالاحترام وعدم تقييد القدمين عند التنقل وغيرها من الأمور مما قد يصنع شيئاً من الضيق في نفوس البقية، تغيرت المعاملة إلى الأفضل بشكل عام، لم يكن الأمر مجرد إيقاف المواجهات، كان وراء الأكمة ما وراءها، كانت بوادر الخيانة ونقض العهد تلوح في الأفق، استمر بعض الجنود بالاستفزاز لكن بصورة أقل من السابق، أرخوا عنان القوانين في معظم المعسكرات، لكنهم ضاعفوا من عنف العقوبات في عنابر العقوبات، أي أنهم تساهلوا وتشددوا في الوقت ذاته، قال لهم أحد الستة: لن نكون لكم ياسر عرفات، نحن هنا لتخفيف حدة المواجهات وليس لتمرير أجندتكم من خلالنا!

حين بدأت المفاوضات طلب الإخوة الستة من أغلب المضربين إنهاء إضرابهم، كان الأخ ياسر الزهراني رحمه الله ضمن من قرروا إنهاء إضرابهم، وحين جاؤوا به إلى المستشفى للفحص رأى القلة ممن استمر في الإضراب فرآهم على الأسرة بألوان شاحبة وأجساد هزيلة، فسلموا عليه مبتسمين، تأثر ياسر كثيراً حين رأى إخوانه على هذه الحال، فقرر الرجوع إلى الإضراب مرة أخرى ليشاركهم ما هم فيه، كذلك حدث مع المعتقل الجداوي حين أوقف إضرابه مع المفاوضات، فمرض بعد شهر وأخذه الجنود إلى المستشفى، فرأى المضربين في حال يرثى لها، فحزن عليهم كثيراً وأقسم بعد عودته إلى الزنزانة أن يستمر في الإضراب حتى يلحق بهم، وفعلاً أوفى بقسمه.

ازدادت الاستفزازات على ثلة قليلة من المعتقلين في عنابر العقوبات، بينما خفف الأمريكان من شدة القوانين على باقي المعتقلين، فوقع المعتقلون في حيرة من أمرهم، هل يتحمل هؤلاء القلة الاستفزازات من أجل الجميع، أم يثور الجميع من أجلهم فيعود المعتقلون جميعاً إلى ما كانوا عليه من عذاب وشدة؟ ولو أن أحد هؤلاء القلة عوقب ظلماً هل سيتخلى البقية عن نصرته للحفاظ على الوضع الراهن الذي هو أفضل من السابق بكثير؟

حدثت مشكلة في المعسكر الخامس، ضرب المحقق في غرفة التحقيق معتقلاً تونسياً وهو مقيد، انهال عليه باللكمات وضربه بالكرسي، كان الوضع مريباً، كنت أحس أنه أمر دبر بليل، الغريب أنهم نقلوه إلى انفراديات العقوبات في المعسكر الثالث وكأنهم يريدون نقل الخبر إلى الآخرين، من الواضح أن الأمريكان أرادوا استفزاز

المعتقلين هنا، أمر غريب فعلاً، ما الذي يريده الأمريكان؟ إن كانوا يريدون التصعيد فلماذا الحرص على المفاوضات؟ وإن كانوا يريدون تحسين المعاملة فلماذا الاستفزاز؟ إنهم الأمريكان ذلك الصندوق الغامض!

طلب أحد الإخوة الستة من العقيد أن يرى الأخ التونسي فأذن له، رآه في عنبر (روميو) معاقباً، عينه منتفخة ووجهه ممتلئ بالكدمات، رجع وأخبر بقية المعتقلين بما رأى، قرر المعتقلون عدم الذهاب إلى التحقيق مهما كلف الأمر قدر الاستطاعة، اعتبر الأمريكان هذا التصرف نقضاً للعهود، هكذا هم الأمريكان دائماً، يطالبون بالوفاء بالعهود والتزام السلم من طرف واحد فقط، استخدم الأمريكان قوات الشغب وعادت المواجهات أعنف مما كانت عليه قبل المفاوضات.

قام المعتقلون بتدمير أحد العنابر بصورة لم يسبق لها مثيل، وبدؤوا بخلع المصابيح ثم قذفها بالقضبان لتنكسر في وجه الجندي، هذا تصعيد خطير حتماً ستكون له عواقب وخيمة، لكن المعتقلين وصلوا إلى حالة من الإحباط جعلتهم يقدمون على هذه الخطوة الخطيرة.

استنفر الأمريكان وأحضروا شاحنة مليئة بالجنود دعماً للجنود المتواجدين في العنابر، جاء العقيد وهو ممتلئ حقداً ليرى أثر التدمير، فبصق عليه أحد المعتقلين، فعوقب عقوبة عنيفة في عنبر العقوبات، دخلت عليه قوات الشغب وضربوه، ثم تركوه على الحديد في زنزانة باردة جداً، كان من بينهم معتقل جداوي من أصول يمنية من المعروفين بالشجاعة والإقدام، كان مرتاباً منذ بداية سياسة التفاوض، وكان يشعر بمؤامرة وشيكة على المعتقلين، فكان كلما رأى العقيد قال له بلغة إنجليزية ركيكة: (stop play games).

وهي الجملة التي حفظها بصعوبة من أحد المعتقلين، أما العقيد فكان يكرهه بشدة لأنه يراه معتقلاً مشاكساً لا يقبل ذرة ظلم تقع عليه أو على أحد المعتقلين الآخرين، فكان العقيد يعتبره صانع مشاكل (trouble maker)، وبعد تدمير العنبر وفساد الخطة التفاوضية التي راهن على نجاحها العقيد المغرور (بوب غارنر)، كانت قوات الشغب تقتحم الزنازين بعنف وتخرج المعتقلين واحداً تلو الآخر لنقلهم إلى عنبر آخر، أخرجوا المعتقل الجداوي من عنبره مقيداً وقد وضعوا على فمه وأنفه كماماً، فرأى العقيد وحوله الضباط وقوفاً خارج العنبر وهم في حالة من الغم والهم والضيق، كان العقيد يتلمظ غيظاً على المعتقلين الذين هدموا كل ما بناه، مر الجداوي مقيداً بجانب العقيد وهو لا يعرفه بسبب الكمام، فقال له ساخراً بإنجليزيته الركيكة (stop play games)، عرفه العقيد فأمسكه من تلابيبه يهزه وهو يوشك على البكاء ويقول: أنت هو؟

كان يصرخ في وجهه، فأراد أن يلكمه من شدة غضبه فمنعه الضباط الآخرون وأبعدوه عن الجداوي الذي آثر السكوت هذه المرة بعد أن رأى الحالة المزرية التي وصل إليها العقيد، ذلك العقيد الذي رأيته مرة من المرات وأنا راجع من عنبر التحقيقات وهو يرقص بين الجنديات خارج العنبر، وحين أراد دخول العنبر اعتدل في مشيته ونفخ صدره ورفع أنفه شامخاً ثم دخل متبختراً في وقار مصطنع، أشهد أنه ممثل جيد.

انتقم العقيد من المعتقلين، فجردهم من كل شيء، بقوا على الحديد في البرد الشديد وهم مضربون عن الطعام، كانوا يرتجفون من شدة البرد والجوع، كان معهم معتقل يعاني من البواسير لا يستطيع الجلوس على الحديد، استطاع الجداوي أن يمرر إليه قميصه ليجلس عليه، وبقي هو عاري الصدر في البرد الشديد.

كان أحد المعتقلين معاقباً في عنبر (روميو) للعقوبات ولا يعرف شيئاً عن المواجهات الجديدة، فلما أتوا به إلى العنبر وضع يده على رأسه من شدة الصدمة وهو يرى شدة المواجهات والمشاكل مع الأمريكان، لم يتوقع أن الأمر قد بلغ هذا الحد، ثم قامت الإدارة الأمريكية بتهدئة الأوضاع في العنابر باستثناء عنابر المواجهات مع الأمريكان حيث شددوا عليهم قبضتهم، وبعد فشل العقيد في خطة المفاوضات قرر الانتقام، بدأ تعذيب المضربين كما سنذكره لاحقاً.

المقاومة:

استمر فريق الشغب في سياسة العنف وخنق المعتقلين وضرب رؤوسهم فى أرضية العنبر الإسمنتية، كل جندي من قوات الشغب يمسك عضواً من المعتقل، جندي لليد اليمنى وآخر لليسرى وثالث للرجل اليمين ورابع للشمال والخامس للرأس والسادس يحرسهم عند الباب، في إحدى المرات كان أحد الأخوة راجعاً من قفص المشي والجنود يدفعونه دفعاً وهو مقيد، شعر بالإهانة فأضمر في نفسه أن ينتقم منهم، لكنه لم يشأ أن يفعل شيئاً فى ممر العنبر لأن ذلك سيكون فى صالح الجنود، فبإمكانهم طرحه على وجهه وهو مقيد ثم يقفزون فوقه ليجتمع عليه الجنود ضرباً وركلاً فينتقمون منه شر انتقام، فليس من الحكمة أن يجازف بمحاولة إصابة الجندي مع احتمال فشل الوصول إليه لينال كل هذا الضرب، صبر الأخ والجنود يدفعونه ويهينونه حتى وصل زنزانته وأغلقوها وبدؤوا في حل القيود عن طريق النافذة، عندها أمسك بيد الجندي ثم سحبها بعنف إلى داخل زنزانته حتى كاد أن يكسرها وسط صراخ الجنود ورعبهم، فأرادوا الانتقام في اليوم التالي، وجاؤوا بقوات الشغب وأخرجوه إلى كرسي التغذية القسرية

لأنه كان مضرباً عن الطعام، وعندما أرجعوه إلى زنزانته كان ينشد لإغاظتهم والكاميرا تصور، فبركوا على ظهره وأمسك أحد الجنود رأسه بعنف وغرس أصابعه في عينيه وشدقيه ثم سحبها إلى الوراء بكل ما أوتي من قوة، لقد بلغ فيه الحقد مبلغاً جعله لو استطاع قتله لفعل بلا تردد، أخذ يسحب ويسحب وصوت الأخ يخفت ويخفت حتى تلاشى تماماً، كاد ظهر الأخ ينكسر ورقبته لولا حفظ الله ولطفه به، ظل بعدها يستفرغ دماً ثلاثة أيام دون علاج.

استعدت قوات الشغب للاقتحام وجاؤوا بجندي ضخم يزن أكثر من ثلاثمائة باوند ليقتحم على أخ مضرب هزيل، من الواضح أنهم أضمروا الشر، وبمجرد فتح الباب اندفع الجنود يقدمهم هذا العملاق، فتفاجؤوا بالماء والصابون الذي وضعه المعتقل على الأرض، فتزحلقوا وسقطوا على بعضهم ثم تداركوا الأمر وهجموا على الأخ، لكن بعد فوات فرصة الاندفاع التي هي السبب الرئيسي غالباً لإصابات المعتقلين، عندما رآهم الأخ خالد العدني يضمرون الشر عزم على مقاومتهم، كان شديد البأس صلب المراس قوي الجسد، وبمجرد اقتحامهم زنزانته استطاع أن يتفادى العملاق ويركل آخر في خصيته فصرخ الجندي صرخة دوت في العنبر، وتعارك مع آخر ثم عضه خالد عضة كأنه جمع فيها كل براكين انتقامه، ارتج العنبر بعوائه المتقطع، كان المعتقلون يرون على الجندي بعد ذلك أثر العضة وكانوا يسخرون منه قائلين: من أعطاك هذا الوسام؟

أما الجندي الذي ركله في خصيته فأخبرهم أحد الجنود أنه في المستشفى لأنه أصبح يبول دماً.

قال أحد المعتقلين لأحد الجنود: كيف فعل بكم ما فعل وأنتم ستة وهو شخص واحد ومضرب منذ سنتين؟

قال: إنه قوى جداً.. لم نستطع تثبيته. وبعد عدة أيام رأى خالد العدني الجندي العملاق الذي كان يطلق عليه المعتقلون: البغل (mule)، فقال له خالد: لم تتمكن مني أيها البغل مع أني مضرب عن الطعام، نظر إليه البغل محملقاً مشدوهاً: أنت مضرب؟!

كان أحمد عمر في المغتسل وكان يغطي قضبان باب المغتسل بالمنشفة و(الفانيلة) إلى مستوى الرأس ليستر نفسه عن الجنود، فجاءوه وأمروه أن ينزل الغطاء، فغضب وتسلق الباب فكسر مصباح المغتسل، فاقتحموا عليه وجرحوه، وبينما هو راجع بقيوده مع الجنود، إذ نطح الجندي برأسه فأسقطوه أرضاً وضربوه، رآه أحد الإخوة والجنود يضربونه فغطى نافذة زنزانته ليربك الحراس ويستدرج قوات الشغب إليه نصرة لأخيه، كان هناك قانون صارم يفرض على الجنود استدعاء فريق الطوارئ حين يتم تغطية النوافذ منعاً لأي تصرف قد يضر أمن المعتقل، انطلقت النداءات المتكررة بارتباك (Snow ball):

وهي شفرة ينادي بها الجنود في جهاز اللاسلكي عندما تكون هناك محاولة انتحار أو تغطية للنوافذ، أما شفرة (call yellow) فينادون بها في الحالات المرضية، كان أحمد عمر أحد المعتقلين المشهورين بالمواجهات العنيفة مع الجنود، كان يقول: أنا أطبق قاعدة عنترة بن شداد مع الجنود، أضرب الضعيف بأشد ما أستطيع ليخاف القوي!

وفي إحدى المرات جاءت قوات الشغب لاقتحام زنازين المضربين الذين عانى معظمهم من الضعف والهزال، فبدأت باقتحام زنزانة خالد العدني، فقالوا لأحمد عمر: (الحمد لله أنهم بدؤوا بخالد قبل أن يبدؤوا بنا، كانوا سيطبقون علينا قاعدتك العنترية)!

هذا كان جو المعتقلين الذين اقتنعوا بسياسة المواجهة ورد الأذى بالأذى، تجدهم يضعون الخطط في إشغال إدارة المعتقل عن برنامجها النفسي، ويبتكرون طرقاً جديدة تنهك الجنود بدلاً من تفرغهم لاستفزاز المعتقلين، وهناك معتقلون آخرون غرقوا في السلبية واستسلموا للواقع الصعب، وآخرون اجتهدوا في تنمية ذواتهم والتفكر في كتاب الله وإلقاء الدروس من شقوق الأبواب، والحق يقال أنه لولا الله ثم المعتقلون الذين واجهوا أذى الجنود وأشغلوهم عن بقية إخوانهم لما استطاعوا أن يمارسوا الدور الدعوي في المعتقل.

اللسان:

كان ضمن المضربين في العيادة، رفض لقاء المحامي لأنه لم يتحمل أن يترك إخوانه المضربين يعانون، لقد كان يستطيع أن يخفف عن نفسه شيئاً من الضغوط النفسية والجسدية التي يعانيها شهوراً طويلة بتناول ملاعق من العسل وشرب قهوة ساخنة ومعرفة أخبار أهله وأحبابه عن طريق المحامي، وكم يؤلمني حين أقول إن مثل هذا الرجل قد اتهمه أحد المعتقلين بأنه جاسوس للأمريكان بسبب ظنون فاسدة ووساوس باطلة حين نعتمدها فلن يسلم المُدَّعي نفسه من التهمة، وزاد الطين بلة تأييد أحدهم له برؤيا رآها، كانت الأدلة تعتمد على (حدثني الثقة) و(إجماع الإخوة)، فوجدت أن هذا الثقة لم ينقل ما شاهد بل ما سمع، وقد يكون اعتماده أحياناً على مشاهدة لا تعني سوءاً بالضرورة، أما الإجماع المزعوم فإن منشأه ليس رؤية هذا العدد الكبير للحدث أو سماعهم لما لا يحتمل الخطأ، بل منشؤه خبر واحد تناقله الجمع بالتسليم.

لقد كانت هذه الأحداث نادرة في غوانتانامو لكنها مؤلمة، إن من أخطر الأمراض التي يسهل تسللها إلى هذه البيئات التي تصطلي بنار مواجهة لا ترحم هو الطعن في الولاء، لا يسلم المرء مهما يكن من مواقف قد تساء فيه الظنون دون أن يتمكن من توضيح الحقيقة، إنَّ خطأنا في تبرئة الجاني أهون من خطئنا في اتهام البريء، وأي نوم

يغشي عين الظالم بلحافه بينما يتقلب المظلوم على جمر الألم حين يُتَّهَم بأعز ما لديه، حين يتهم بخيانة ما ضحى من أجله بحريته وكل ما يملك؟

وكلما سمعت عن أحد يتجرأ باتهام غيره بهذه الظنون الفاسدة التي أسقط اعتبارَها شرعُ الله أقف مرتعداً حين أتخيل مجرد تخيل كل هذه الأعمال الصالحة من تهجد الليالي الطوال وصيام الهواجر وترطيب اللسان بالذكر والقرآن والصبر على آلام الأسر وعذاباته، وإذا بها كلها تطيش بكلمة اتهام؟ أو بتعريض غير صريح قد علم الله مغزاه، وإذا بها كلها تنتقل من صحيفة أعماله إلى المظلوم الذي اتهمه، لم تكن مجرد كلمة استهان بها لسان جريء متهور، إنما هي حسنات تحبط وأعمال تبطل وبنيان يقوض، لقد علمني القرآن أنه لا قيمة لصرة مليئة بكنوز الصالحات ما لم يحكم إغلاقها حبل اللسان.

كانت الشكوك تحوم حول بعض المعتقلين، نصحت أحد المستعجلين في أحكامه على الآخرين لمجرد شبهة تثار: احذر من اتهام لمظلوم يلحقك شؤمه في قبرك، أنت في غنية عن اتهام لا بينة عليه.

سألني: إذن ما الحل مع هؤلاء الذين نرتاب فيهم؟ هل الحل أن نكون سذجاً مغفلين ونحن نرى المحققين يغدقون عليهم بالعطايا وبوادر ضعف الإيمان تشهد بأن هناك أمراً تُحاك خيوطه في الخفاء؟

قلت: احذر من جليسك ولا تُخَوِّنْه، هذا كل ما تحتاج إليه، حتى يثبت بالدليل القاطع بأنه خان العهد وغدر بالصحبة وانخلع عن ربقة الإيمان.

كان من المعتقلين ثلة دنيئة تشي بالمعتقلين إلى المحققين مقابل بعض الامتيازات، كأن يكونوا في المعسكر الرابع الجماعي أو في معسكرات الدرجة الأولى، أو إعطاؤهم بعض الطعام والمجلات، ثبت عنهم ذلك بالدليل القاطع، كانوا يلعنون إبليس علانية وهم أصدقاؤه في السر، هؤلاء الخونة الجواسيس كمن يسرق من مال جاره ويطعم اللصوص، فلا جاره يسامحه ولا اللص يثق به، لقد رأيت بعض هؤلاء قد ابتلاه الله بالاكتئاب فكان يتعاطى العقاقير النفسية لتخرجه من بؤس ما هو فيه، سمع المعتقلون يوماً أحدهم ممن وشى بأكثر من مئتي أسير وهو يصرخ معترفاً بأعلى صوته في يأس وقنوط: أنا فلان الفلاني، أنا الجاسوس الخائن الذي كان ينقل أخباركم إلى المحققين، أنا عميل (CIA)!

ولقد رأيته بعد أن أخذ المحققون منه حاجتهم منبوذاً في انفرادي العقوبات، لقد تمندل به الأمريكان ثم رموه كعادتهم في أقرب سلة مهملات، رأيته وحيداً مبغوضاً لدى جميع المعتقلين، شعرت أنه يعيش في غوانتانامو نفسي داخل جسده، من يخسر المال يخسر القليل ومن يخسر الاحترام يخسر الكثير ومن يخسر الإيمان يخسر كل شيء.

الكلمة المردية:

خرجت يوماً إلى قفص المشي وإذا بإثنين من المعتقلين قد ارتفعت أصواتهما الغاضبة، كان كل واحد منهما في قفص، كان أحدهما من المجاهدين الذين جاهدوا في الشيشان، كان معروفاً بشجاعته وجلده، سأرمز له باسم (همام)، سمعته يصرخ على الآخر: أنت كذاب، لماذا تدعي للإخوة أنك جاهدت في الشيشان؟ أنا كنت أجاهد هناك مع الخطاب ولم أرك.

والآخر يرد عليه: كيف تحصي كل من ذهب إلى الشيشان وأنت لم تستمر هناك سوى أشهر؟

كنت أدرك تماماً أن التشكيك في مثل هذه الأمور سيمتد إلى الاتهام بالجاسوسية لصالح الأمريكان، فحذرت المتهم من مغبة هذا الاتهام قائلاً: ما حاجتك لاتهام غيرك بالكذب؟ ماذا لو كان صادقاً؟ كيف تلقى الله بهذا الظلم الشنيع الذي يمحق عملك؟

لكنه كان مصراً على اتهامه، بل أقسم بالله أنه كاذب، وأخذ يعرض بأنه قد يتعامل مع جهات أخرى!

حينها رأيت الآخر يضرب بيديه الأرض ليتيمم ثم قام يصلي في قفص المشي، أيقنت أنه سيدعو بعد صلاته فخشيت على الآخر من هذه الدعوات التي إن كانت من مظلوم حقاً فإنها ستوبق دنياه وآخرته، رجوته بأن يعتذر إليه لكنه أبى، ولم يزده ذلك إلا إصراراً واستهزاء بدعواته التي وصفها بأنها مجرد تمثيل يؤكد بها مظلوميته!

ختم صلاته ثم رأيته يرفع يديه عالياً، كأني أراهما الآن، ارتعد قلبي فزعاً، فما مرت ثلاث سنوات حتى رأيت على (همام) شواهد الفتور، وانطوى على نفسه مبتعداً عن بقية المعتقلين، ثم تصرمت وشيجة إيمانه رويداً رويداً حتى لم يعد هو، اشتكى إلي الكثيرون من مواجهة المحققين لهم بمواقف لا يعرفها أحد إلا (همام)، أهو انتقام القدر لدعوة مظلوم صعدت إلى السماء كأنها شرارة؟ يا لخوفي من نفسي حين تغفل عن ثغر القلب طرفة عين فأصاب في مقتل، فاللهم إني أبرأ إليك من حولي وقوتي وأستودعك إيماني، يا من لا تضيع عنده الودائع.

خروج السعوديين:

كان المعتقلون السعوديون يتوافدون آحاداً على المعسكر الرابع، يلبسون الملابس البيض الواسعة عليهم، توالت البشائر، ارتفع رصيد الأمل وغلبت على المعتقلين روح التفاؤل، كنت حينها في عنبر (فيكتور) في المعسكر الرابع، تعالت الأصوات من كل

العنابر يهنئون الراحلين إلى الحرية في عنبر (يانكي)، تتابعت طائرات البوينج السعودية الواحدة تلو الأخرى، محملة بعشرين أخ تقريباً في كل دفعة، كان إطلاق سراحهم بنداً من بنود صفقة عسكرية ضخمة بين الولايات المتحدة والمملكة، وبعد أن خرج معظم الإخوة السعوديين ولم يبق إلا القليل توقفت هذه الرحلات، لندخل بعدها مرحلة جديدة في المعتقل وسياسة جديدة.

معركة المعسكر الرابع:

تفاجأت أثناء وجودي في المعسكر الرابع بحركة مريبة بين العساكر سرعان ما تطورت إلى الأمر بإغلاق جميع العنابر، كنا نسمع هدير السيارات العسكرية تجوب الطريق الرملي الملاصق للعنبر من الخارج وتكبيرات تنطلق من عنابر المعسكر الأول، ما الذي يجري؟ زعم الضابط أن معتقلين حاولا الانتحار بالتهام أعداد ضخمة من الحبوب المنومة، وبعد انتهائهما من وجبة العشاء أخلد المعتقلون إلى النوم، لم يستيقظا لقيام الليل كما هي عادتهما، أذن الفجر فلم يستجيبا لنداءات جيرانهم المعتقلين، بدأ المعتقلون بضرب الأبواب ثم هرع الجنود بهما إلى المستشفى، وأجروا عملية غسيل معدة لهما فنجيا من الموت بعد أن شارفا عليه.

كانت هناك علامات استفهام كبيرة، كيف تمكنا من الحصول على هذا الكم الهائل المزعوم من الحبوب في ظل الإجزاءات الصارمة التي يخضع لها المعتقلون؟ إن أي حبة يصرفها الممرض للمعتقل مهما كانت خالية من المخاطر فإن المعتقل يلزم بوضعها في فمه أمام الممرض ثم يبتلعها مع شربة ماء ثم يفتح فمه ويحرك لسانه من كل الجوانب للممرض الذي يقوم بالتأكد من ابتلاعه لها، هذا الإجراء لتناول حبة واحدة فقط، فكيف بكميات هائلة تفلت من أعين الجنود الذين يفتشون كل سنتيمتر في الزنزانة وفي جسم المعتقل مع كل دخول وخروج للزنزانة؟ بل حتى الفم يؤمر المعتقل بفتحه ليتأكد الجندي عند التفتيش من عدم وجود أي مهربات فيه، ثم إن الذي يعرف شخصية هذين المعتقلين يستبعد تماماً فكرة الانتحار، حافظان للقرآن، من أكثر المعتقلين عبادة وصبراً وتفاؤلاً. لا أدري هل كانت خطة أمريكية لتبرير انقلابهم على المفاوضات التي ثبت فشلها مع المعتقلين؟ ممكن.

جاء الضابط إلى المعسكر الرابع يطلب تفتيش جميع المعتقلين خصوصاً القرآن، من الواضح أنهم يريدون التصعيد والاستفزاز وليس مجرد إجراءات أمنية، لأننا رأينا الجنود من فتحة النافذة يتركون أماكن كثيرة دون تفتيش في الساحة، فلماذا التركيز على القرآن؟ وهل يعقل أن يخفي المعتقل شيئاً داخل مصحفه بينما يستطيع إخفاءه في مساحة كبيرة لن يتحمل أي ضرر في حالة العثور عليها لأنها ليست من متعلقاته.

رفضنا تفتيش المصحف لأنهم حتماً سيهينونه كما فعلوا سابقاً مراراً وتكراراً، قال لنا الضابط بوضوح: يقول لكم الجنرال بأنه لا خيار عندكم إما الموافقة على تفتيش القرآن أو استخدام القوة، طلبنا منهم أن نسلمهم القرآن كَحَلٍّ أخيرٍ ليضعوه في المكتبة الموجودة خارج المعسكر، وبهذا قطعنا تبريراتهم الأمنية وسيتضح هدفهم الحقيقي وهو إهانة أعظم مقدسات المسلمين وهو القرآن.

انصرف الضابط، شددوا المراقبة، انتظرنا طويلاً دون أن يحدث أي شيء، كنا ندرك تماماً أنه الهدوء الذي يسبق عاصفة مدمرة، استغلينا المهلة في الدعاء والصلاة وقراءة القرآن، سمعنا هفيف المدرعات العسكرية تحيط بالمعسكر محملة بالجنود، نظر أحد المعتقلين من نافذة العنبر وإذا بأعداد هائلة من الجنود قدرناها بالمئات تملأ ساحة المعسكر الرابع وتحيط به، بعضهم مدجج بالسلاح، رأيناهم من خلال نافذة الباب الصغيرة يقتحمون عنبر (زولو)، فحدث اشتباك شرس بين عشرات الجنود المحتمين بالخوذ والدروع وبين سبعة معتقلين في العنبر، لأول مرة يتم اشتباك مجموعة من المعتقلين مجتمعين مع الجنود، كانت المقاومة شرسة بمعنى الكلمة، استطاع بعض المعتقلين في عنبر (زولو) من انتزاع الدروع وضرب الجنود بها ثم طردهم من العنبر، شعر الضابط بالإهانة خاصة أن بعض المعتقلين استطاع خلع الخوذة من رأس الجندي ليضربه بها، أمر الضابط الجنود باستخدام اسطوانات سوداء مملوءة بالغاز المسيل للدموع، تأثيره أشد بكثير من البخاخ المستخدم في العنابر، كان عنبرنا بعيداً عنهم لكننا كنا نشاهد لقطات خاطفة من الأحداث وما يجري لإخواننا في العنابر الأخرى، أصيب البعض بطلقات مطاطية حارقة أثرها مثل كية النار، بقيت آثارها على أجسادهم لسنين.

قال أحدنا: لا بقاء لنا في المعسكر الرابع بعد ضرب إخواننا، لنطلب منهم إرجاعنا إلى العنابر الانفرادية، فأجابه آخر: سنرجع لكن بطريقة مختلفة، بما أنهم اختاروا المواجهة وإهانة القرآن فلنقلبها عليهم رأساً على عقب، لا يوجد عندنا بعد القرآن شيء نخسره!

كانت أحداثاً كبيرة ومثيرة، رجع على إثرها كل المعتقلين من المعسكر الرابع إلى انفرادي العقوبات وزنازين المعسكر الأول، وبلمح البصر تحولت كلمته تلك إلى شرارة لتحرق العنبر عن بكرة أبيه، تحول عنبرنا إلى ما يشبه ساحة حرب، كان المنظر عجيباً بمعنى الكلمة، هذا يحاول كسر المغسلة وآخر يصعد على ظهر أخيه ليكسر الكاميرا، وهناك شخص يقفز ليتشبث بغطاء المصباح المثبت بالسقف فيخلعه، أخذ أحد الجنود يصيح بهستيريا مهدداً، فرماه أحد المعتقلين بأنبوب المصباح لينكسر على القضبان الفاصلة بيننا وبينه فجرحت وجهه، جاؤوا بالأسطوانات فنفثت غازها من خلال النوافذ

العلوية وباب الحارس، تملكتنا نوبة سعال خانقة رأينا فيها الموت، كنت متأكداً أن أحدنا سيفارق الحياة خنقاً حين رأيت ما رأيت، توقف النفس عندي، أحاول أن ألتقط أنفاسي دون جدوى، قد انطبق الجهاز التنفسي فلا أستطيع استنشاق الهواء، أيقنت بالموت، رأيت العم عبد الرحمن التعزي أغمي عليه وأخاً يمنياً يتقيأ، نظرت إلى قميصي وإذا به مضمخ بالدماء التي سالت من أنفي، لقد تفجرت الأوعية الدموية داخل أنفي من تأثير الغاز، رأيت الإخوة يتهاوون على الأرض واحداً تلو الآخر، كنت قاب قوسين أو أدنى من الموت، اعتراني شعور مريح كشعور الفلاح الذي يرى قرص الشمس قد دنا للغروب فرمى فأسه واستعد للاغتسال والرجوع إلى البيت والأحباب، حقاً؟ بعد هذه الرحلة الطويلة من الذل والهوان حانت لحظة النهاية؟ أحسست بأن الامتزاج بين الروح والجسد بدأ يتلاشى، بدأ شعور جديد يطل برأسه من بين ركام من آلام الجسد والسعال المخنوق والعيون الجاحظة المحمرة، شعور مريح لا يمت للجسد بصلة، في هذه اللحظة تحديداً فُتِح باب عنبرنا بالتحكم عن بُعْد من مركز المراقبة فهبت نسمة هواء لتؤكد أننا مازلنا على قيد الحياة وأن سجل أعمالنا لم يُطْوَ بعد، كنا في حالة يرثى لها، أغمي على البعض، وآخرون منبطحون على الأرض قد تلطخت ملابسهم بالدماء التي سالت من أنوفهم، نظرنا وإذا بالأسلحة موجهة إلينا من وراء الحاجز، والجنود يصرخون: ضعوا أيديكم فوق رؤوسكم واخرجوا واحداً واحداً، كان العقيد من بينهم، خرج الواحد تلو الآخر يترنح من شدة الإرهاق، بعضنا خرج محمولاً مغمى عليه، وبقيت حتى صرت آخرهم أو من الأواخر، صاحوا علي بالخروج، لكني خرجت دون أن أضع يدي فوق رأسي، هل كان بسبب مشاعر القهر أم كانت روعة المشاعر التي أحسستها بقرب الرحيل قد أغرتني بالاستعجال حين رأيت الأسلحة موجهة إلي؟ لا أدري، رأيت الجندي يأخذ وضعية التصويب وإذا بأحد المسؤولين يمسك بالسبطانة ويرفعها قائلاً: لا تطلق النار، وبمجرد خروجي من باب العنبر هجم علي أحد الجنود وهو يصرخ بهستيريا: هذا هو! ظنوا أني أنا من حرض المعتقلين على التمرد، وهذه مشكلة عانيت منها كثيراً مع الأمريكان، كانوا يظنونني دائماً المحرض على التمرد بسبب الدروس التي كنت ألقيها على إخواني المعتقلين، دفعوني أرضاً وبدؤوا بالضرب، كانت السماء تهل علينا برذاذ خفيف، شعرت بصوت طقطقة فقرات رقبتي بعد أن ركلني برأسي، أحسست بتخدر في جسمي وتنمل في أطرافي، كانوا يقيدون المعتقلين وقوفاً ثم يسيرون بهم على الأقدام إلى عنبر العقوبات، لكنهم عاملوني معاملة مختلفة، فبعد تقييدي بعنف حملوني على أكتافهم وهم يجرون بي، رآني مراسل قناة الجزيرة سامي الحاج من نافذة عنبره وهم يجرون بي، وكان معروفاً بخفة الدم، فصاح بي مازحاً: يحملونك على الأكتاف لأنهم سيطلقون سراحك يا بطل! ضحكت

رغم الألم الذي كان يعصف بي، فلما وصلوا سيارة النقل المكشوفة قذفوني بها كما يقذفون البهيمة، كانت السيارة متسخة بالطين، كنت منبطحاً على وجهي قد ابتلت ثيابي بالماء المتسخ بالطين، رأيت في طريقي الجنود وهم يمسكون أحد المعتقلين من الرياض، نظر إلي مبتسماً، لكن قدم الجندي على وجهي قد منعتني مبادلته الابتسامة، قذفوني في زنزانتي على بطني ثم حلوا القيود وانصرفوا بسرعة ليغلقوا باب الزنزانة قبل أن أحاول الانتقام منهم، لم يعلموا أن الإجهاد والكدمات المتفرقة جعلت من الانتقام فكرة سخيفة مضحكة، تبادلنا السلام مع المتواجدين في العنبر والاطمئنان على جميع إخواننا وتناقل الأخبار والقصص العجيبة التي حدثت لكل واحد منا، كانت عقوبتنا صارمة وقاسية جداً، التضييق في كل شيء، كانت أياماً عصيبة بمعنى الكلمة.

تفاجأ الأمريكان بعد هذه الأحداث الرهيبة أن المعتقلين في المعسكر الرابع لم يُدَجَّنوا، ولم تسلبهم الحياة الجماعية تمسكهم بالكرامة الإنسانية، فلم تكن الامتيازات سوى استجمام ليعود ويناضل من أجل حقه الإنساني وكرامته المسلوبة من جديد، كانت الصحافة الأمريكية بعد ذلك تأتي برفقة العقيد ليلتقطوا الصور للحطام المتهشم في العنابر المدمرة.

فاز من قام الليالي:

كانت أجسادنا منهكة ونفسياتنا متعبة، لازال أثر البخاخ الحارق الخانق يفعل فينا الأفاعيل، أخذنا نصبر بعضنا بعظم أجر البلاء، لم نطق الكلام من شدة الكرب والغم، لهج معظم المعتقلين بالقرآن والأذكار يبحثون فيهما عن سلوى تخفف مصابهم، كنت أرى نظرات الاستهزاء والتشفي والسخرية من الجنود، بدأ الليل يطوقنا بظلامه ويحكم قبضته الخانقة على رقابنا، ساد صمت كئيب لا تسمع فيه سوى وقع أقدام الجنود وهي تخبط الأرض بعنف وتضرب الأبواب باستفزاز، لهذه الأصوات القبيحة تأثير هائل في نفسية المعتقل، زيادة نبضات القلب، توتر، قلق، انزعاج، ومع طول الوقت يتفاقم تأثيره النفسي عليه، يحاول ممارسة سياسة التأقلم معها والتجاهل حتى يستمر بقواه العقلية، وفي هذا الجو المكفهر انساب إلى مسامعنا صوت شجي يتسلل من بين القضبان:

فـــاز مـــن قـــام الـــلـــيـــالـــي بـــصـــلاة الـــخـــاشـــعـــيـــن

هزتني الكلمات، أرجعتني سنين إلى الوراء حين كنت أدرس في جامعة الإمام محمد بن سعود فرع رأس الخيمة، سمعت هذه الكلمات من طالب علم عراقي عذب الصوت، تمنيت لو أني أخذت كلماتها منه، وها أنا أسمعها في غوانتانامو مرة أخرى،

كان ذلك الصوت المريح من أحد الإخوة السعوديين من بريدة، واصل نشيده مترنماً:

فـتـح نـظـمـي ومـقـالـي	حـمـد رب الـعـالـمـيـن
وصـلاة الـلـه تـالـي	تـبـلـغ الـهـادي الأمـيـن
وعـلـى صـحـب وآلـي	وجـمـيـع الـتـابـعـيـن
مـا بـدا نـور الـوصـال	فـي وجـوه الـسـاجـديـن
فـاز مـن قـام الـلـيـالـي	بـصـلاة الـخـاشـعـيـن

حقاً.. كيف توهمنا الليل يحكم قبضته الخانقة على رقابنا؟ بل كان يربت بلمسته الحانية على آلامنا وأوجاعنا، يضمد جراحنا ويملأ أرواحنا بالوقود لنواصل الانطلاق مع بزوغ الفجر الجديد، سَرى شَدْوُه في أنحاء العنبر، يطرب الأرواح المتعبة ويشد عزيمة الأجساد التي أضناها الشقاء، عجباً لهذه الكلمات البسيطة كيف اكتسبت هذا العمق الذي لم أجده في أشعار بليغة وخطب فصيحة، ما أجمل كلمات الصبر حين تخرج من الأفواه المتقرحة، وما أسمى المواساة حين تصدر من جسد مضمخ بالجراح.

أرواح كريمة:

شعرنا في منتصف الليل بحركة مريبة من الجنود، ازداد عددهم في العنبر، شددوا المراقبة بشكل ملحوظ، كانوا يخبطون رواق العنبر بأرجلهم ويركلون أبواب الزنازين، أيقظوا المعتقلين النائمين جميعاً للتأكد من أنهم أحياء، أحاطت بنا الهواجس، ما الذي حدث؟ كنت وقتها في عنابر المعسكر الثالث بعد إرجاعنا بقوات الشغب من المعسكر الرابع، أصدر العقيد أوامره بمصادرة جميع أغراض المعتقلين في زنازينهم ولم يبق إلا الحصير والملابس التي علينا.

ازدادت الاستفزازات والإهانات، استمر الازعاج ليلاً ونهاراً دون توقف، شعور مرهق حين يحيط بك القلق والتوتر طوال الوقت، نحاول التخفيف منه بالقرآن والأذكار، أما التمارين الرياضية فقد منعنا منها.

أعطيت صلاحيات أكثر للجنود بأن يأتوا بقوات الشغب لأتفه الأمور بعد أن كانت من صلاحيات في يد المسئولين الأمريكان (SOG) أو (WC)، كانوا يتعمدون استفزازنا حال الصلاة بإدخال قوات الشغب علينا ونحن نصلي، وكذلك الاستفزاز في الطعام، وكانوا يتجاوزونك أحياناً زعماً أنك رفضت الطعام، وعند تغيير الملابس يطلب منك الملابس القديمة أولاً، فتضطر إلى لف عورتك بالحصير ليعطيك الجندي المقاس الذي يختاره هو، وغالباً ما يكون واسعاً جداً أو ضيقاً جداً، وكثيراً ما أقضي الأسبوع ممسكاً

بحقو البنطلون الواسع حتى لا يسقط، أو أعاني ضيقه الذي يعصر خاصرتي لأسبوع كامل حتى يأتي موعد تبديل الملابس لعلي أحظى بمقاس مناسب أو يكون حظي أسوأ من السابق، وفي كثير من الأحيان يفتري علينا الجندي ويكتب تقريراً لتقتحم قوات الشغب الزنزانة فتنقل المعتقل بالقوة إلى الانفرادي الذي كان وقتها رهيباً بمعنى الكلمة.

كانت سلسلة من الممنوعات ليس لها آخر، يمنع تغطية الرأس واليدين حال النوم، يمنع لمس الشباك في قفص المشي والاستناد عليها، وبمجرد لمسها تنتهي فترة التشميس ليرجع المعتقل إلى زنزانته معاقباً، يمنع الحديث أثناء الاغتسال في المغتسل بجوار قفص المشي، زمن الاغتسال دقيقتان فقط فيكون في سباق مع الزمن، بمجرد أن يحلوا القيود ينطلق بخلع ملابسه بسرعة والاغتسال بالشورت ليغطي عورته بعد منعنا من تغطية القضبان، وكثيراً ما يغلقون الماء والصابون والشامبو على أجسادنا ووجوهنا لنزيحه بأيدينا ونرجع إلى الزنزانة.

يمنع رمي أي فتات خبز للعصافير أو لسحلية الإغوانا، والعقوبة هي ثلاثة أيام في الانفرادي ويقدم للمعتقل طعام خاص لا يستساغ لعشرة أيام، يمنع الحديث مع العنابر المجاورة، يمنع الحديث مع أي معتقل يمر عليه أثناء نقله إلى قفص المشي، يمنع أثناء الانتقال إلى قفص المشي النظر يمنة ويسرة وإلى الأسفل أو الأعلى بل النظر لا يكون إلا للأمام، وبمجرد رد السلام أو التفاتة إلى أحد المعتقلين يدفعه الجنود وهو مقيد ويصكون بجسمه ووجهه قضبان الزنزانة القريبة ثم يعيدونه إلى زنزانته مرة أخرى، وأحياناً يفترون عليه بأنه تحدث ليقضي فترة العقوبة في انفرادي العقوبات، فينتزعون البنطلون من المعتقل ويبقونه بالشورت في زنزانته الانفرادية الباردة.

يفتشون كل سنتيمتر في أجسادنا، حتى فتحة الأذن والفم، ثم يسحب الجندي البنطلون بطريقة مهينة، وأحياناً ينظر الجندي إلى العورة من باب الإهانة والاستفزاز، طلب أحد المعتقلين قارورة ماء من أحد الجنود فجاء بالقارورة ثم قال له بسخرية: تريد قارورة ماء؟

قال: نعم، ابتسم باستهزاء ثم أكمل سيره في دهليز العنبر وعاد بعد فترة، ثم قال: تريد قارورة؟ ثم أكمل سيره، يفعلها مراراً، وبعد فترة يفتح النافذة ليقدم القارورة فيرفض الأخ شرب الماء ويرجع الجندي يضحك ساخراً.

يقطع أربعة جنود الدهليز ذهاباً وإياباً وهم يخبطون أقدامهم بأرضية العنبر وبأيدي بعضهم قوارير ماء فارغة يعصرونها لتصدر أصواتاً مزعجة طوال الوقت، فلا تهنأ بنوم مريح ولا استيقاظ هادئ، وتظل متوتراً طوال الوقت، تسرق الغفوات لتنعم بلحظات سريعة من النوم يقطعها خبط أرجلهم أو قعقعة قواريرهم أو نشاز صرخاتهم، تنتظر هدأة

الليل بفارغ الصبر أملاً بأن تنعم عينك بفتات نوم فيفاجئك الجنود في آخر الليل بجلبة أدوات التنظيف والخرطوم وهو يضخ الماء في الدهليز ليفيض على الزنازين ويتناثر الرذاذ المتطاير المتسخ من الشطف على ملابس المعتقلين ووجوههم، ليستيقظوا من نومهم الذي ما زارهم حتى فارقهم بعد يوم مرهق شاق، ولكن. . خلف كل بلاء رحمة مستترة!

لقد كانت رسالة سماوية أن أفيقوا من نومكم، واستعينوا على هذا الاختبار الصعب بركعات في جوف الليل تخفف عنكم وطأة الحمل الثقيل ويزيل عن كواهل أرواحكم رهقة التكليف، فسبحان من يسوق عباده إليه بسوط أعدائه!

كانت تلك الأيام ثقيلة بآلامها، طويلة بليل بلائها، إن تقييدك المرة الواحدة كفيل بأن يجعلك تتألم نفسياً طوال يومك من الذل والهوان الممزوج بالقلق والتوتر، حتى بلغ الأمر إلى أن بعض المعتقلين يسقط مغشياً عليه من شدة آلام التقييد، وفي إحدى المرات كدت أن يغمى علي من شدة الآلام التي شعرت بها حال التقييد، مهما وصفت فلن أصف، مهما قلت فكأني لم أقل، ومهما حاول القارئ تقمص شخصية ذلك المعذب في زنزانته فلن يدرك قطرة من بحر آلامه، لقد كنت في أيامي الخوالي أهوى القراءة في أدب السجون، أسمع أنينهم وأحس آلامهم وأرى آثار السياط على ظهورهم، لكني وجدت بعد تجربة طويلة أن قصص المعذبين لا تحكي واقعهم على الحقيقة، وأن ما في الكتب شيء وما يعانونه شيء آخر تماماً، فأي كلمات تكشف عن خلجات نفس الأسير وتردد أنفاسه المضطربة في ظلمات العذاب؟

جاءت جندية إلى أحد المضربين وعيونها غارقة بدموعها، قالت له بصوت متهدج تقطعه شهقات متوجعة: لقد مات المعتقل علي عبد الله، أنا أعرف أنه شجاع بطل، أضرب عن الطعام نصرة لإخوانه المعذبين!

كانت معاملة هذه الجندية سيئة لكنها بعد حادثة مقتل المعتقلين الثلاثة تغيرت تماماً، وأصبحت تعامل المعتقلين باحترام وإجلال، قال أحد المعتقلين عن ياسر الزهراني رحمه الله: ما رأيت موقفاً فيه نصرة للإخوة إلا ورأيت بينهم ياسر الزهراني يفدي إخوانه بما يستطيع.

كان الأمريكان في ذلك الوقت العصيب ينتظرون المعتقل في عنبر العقوبات ليصلي ثم ينادونه ليقطع صلاته ويجيبهم، فإن لم يفعل أدخلوا عليه قوات الشغب، في هذه الظروف الرهيبة أطلقوا سراح مجموعات من المعتقلين السعوديين، كان الجنود يدفعونهم دفعاً خارج العنبر وهم مقيدون تمهيداً لإطلاق سراحهم، كان بعض المعتقلين يضغط بيده المقيدة على سرواله الواسع حتى لا يقع، وآخرون كانوا في انفرادي العقوبات يقضون فترة العقوبة التي يفترض أن تستمر لشهرين، لكنهم لم يكملوا أسبوعاً

إلا وهم بين أهلهم وأحبابهم، لقد تعمد الأمريكان إساءة معاملة المعتقلين السعوديين قبيل الإفراج عنهم، أرادوا أن يخرج المعتقل إلى وطنه متوحشاً يرغب في الانتقام، كما فعلوا مع جنسيات أخرى، والعالم يرى التوحش ولا يرى أسبابه، يضع ألف عذر للمجرم قبل أن يضع عذراً واحداً للمظلوم الذي أفقده التعذيب التحكم في أعصابه، الأمريكان هم من يصنع التوحش وهم من يديره.

كانت وتيرة التصعيد في أوجها، لقد استفزت حادثة مقتل الإخوة الإدارة الأمريكية فكشرت عن أنيابها، كانت الأوضاع مزرية بكل معنى الكلمة، الإزعاج يمنعنا من النوم ليلاً، والإهانات توتر أعصابنا نهاراً، نقلونا بطريقة بشعة مذلة مؤلمة جداً من عنبر (مايك) إلى عنبر (بابا)، أحاط القيد المعدني بمعصمي، ثم ضغط الجندي الحقود على المزلاج ليصطك القيد بالعظم، عصف بي تيار كهربائي من الألم، ظننت أن ساعدي سيكسر، حتى كدت أن يغمى علي من شدة الألم، زعموا أن عملية النقل بسبب تصليحات في العنبر، لم يكن هناك أي تصليحات، لأننا لم نر جديداً، من الواضح أن الأمر كان مجرد تصليح لأجهزة التنصت المنتشرة في العنبر، وضعوني في زنزانة فسيحة تكبر الزنزانة العادية بأربع أصابع تقريباً، لا أمزح، كنت أراها فسيحة، فهذا المقدار الضئيل الذي يقدر بعشر سنتمتر تقريباً له تأثير بالغ في نفسية المعتقل، وبعد ساعة تقريباً جاؤوا بأحد المعتقلين إلى الزنزانة المجاورة، شاب باسم الثغر، وضاء الوجه، تفتر ابتسامته المشرقة عن روح جذابة تألف وتؤلف، أحببته منذ اللحظة الأولى التي وقعت عيني عليه، انتظرت حتى أزال الجنود عن يديه ورجليه القيود بعد إغلاق باب الزنزانة، بادرني بالسلام وهو يدخل أصابعه من فتحات القضبان الحائلة بيني وبينه، صافحته بأصابعي، كان ينظر إلي بعينيه اللامعتين وابتسامة لا تفارقه، كنت أرى في إشراقة عينيه جمال جنوب المملكة مسقط رأسه، قال لي: أخيراً اجتمعنا.

أربع سنوات في معتقل واحد، يسمع أحدنا عن الآخر دون أن يراه، كنت أعلم أنه من ضمن الذين واصلوا إضرابهم حتى يتم تحديد مصير المعتقلين جميعاً أو الموت جوعاً، كان هزيلاً منهك القوى.

قلت: لماذا حلقوا لحيتك؟ هل كانت عقوبة؟

قال: بل حلقوها بسبب العملية التي أجروها،

قلت: أخبرني بالتفصيل ماذا حدث؟

لقد كان متعباً جداً، لكن العجيب أن ابتسامته البراقة لا تفارقه، لقد كان يبتسم رغم كل ما ناله من الأذى والألم، لقد وصل إلى شفير الموت لولا رحمة الله ولطفه، لا يبتسم في ظلمة البلاء إلا المؤمن ولا يقف في وجه العاصفة شامخاً إلا صاحب

الروح العظيمة، كنت أشعر أن نظراته تتغلغل إلى روحي لتقرأ كلمات الحزن، أخبرني أنه قرر الإضراب سراً دون أن يعلم الأمريكان حتى لا يتمكنوا من إيقاف إضرابه بالتعذيب، شاركه في ذلك أحد المعتقلين، كان يعاني آلاماً شديدة في أمعائه ومفاصله بسبب الإضراب، فاضطر لطلب مسكنات من الممرض الذي أعطاه دون تردد على غير العادة، كانت الإجراءات الأمنية مشددة للغاية، يقوم الجنود يومياً بتفتيش الزنزانة والتفتيش الشخصي الدقيق، كما يقوم الممرض بالتأكد من ابتلاع المعتقل لأقراص الدواء حتى لا يتمكن من الاحتفاظ بكميات كبيرة منها قد يكون ابتلاعها دفعة واحدة يسبب مخاطر حقيقية على الحياة، وبمجرد التهام المعتقل لقرص الدواء يأمره الممرض بفتح فمه وتحريك لسانه يمنة ويسرة وإلى خارج الفم للتأكد من ابتلاعه الدواء.

قال: كان أخي الذي يشاركني الإضراب السري مريضاً كذلك، وبمجرد ابتلاعنا الحبة أخلدنا للنوم بعد أن صلينا ركعات ختمناها بالوتر ثم لا أدري ما حدث بعدها.

وبعد مرور ساعات لاحظ المعتقلون عدم استجابتهما لنداء الصلاة، حصلت جلبة في العنبر، واكتشف الجنود الأمر، وتم النداء (Ice Ball)، وهي كلمة السر التي يستخدمها الجنود عند محاولات الانتحار، تجمع الجنود في ثوانٍ معدودة يلهثون جرياً نحو زنزانتيهما، نقلوهما إلى المستشفى على عجل، أجريت لهما عملية طارئة لغسيل المعدة بعد تشخيص الحالة، جاء العقيد بنفسه غاضباً وهو يصرخ: (لن نسمح لكم بقتل أنفسكم في غوانتانامو، لقد قالها وزير الدفاع وأنا أيضاً أكررها، ستدفعون الثمن غالياً).

كنت مرتاباً مما حدث إذ كيف يدعي الأمريكان أنهم ابتلعوا كمية كبيرة من أقراص المسكنات تقدر بالمئات؟ كل من يعرف الإجراءات الأمنية المتبعة في غوانتانامو يدرك تماماً أنه من المستحيل احتفاظ المعتقل بعدة أقراص فضلاً عن المئات.

كان الأخ يحكي لي ما حدث وأمارات الحزن والضيق بادية على وجهي، قال: لم يكن لنا خيار آخر، لا نستطيع رؤية الإخوة يعذبون دون حراك، لابد من تضحية.

: التضحية ليست في المخاطرة بأرواحكم من أجل مصلحة متوهمة لن تتحقق غالباً، بل التضحية العظمى تكون في رفض الخضوع والعبودية لهؤلاء المجرمين، مهمتنا في هذا المعتقل ليس أن نُعرّض أنفسنا للموت لإخراج البقية، بل الثبات على الإيمان حتى آخر رمق، قد نضطر للإضراب لرفع الظلم لكننا لا نقصد الموت فيه، قد يحل الإضراب القضايا المتعلقة بالظروف المعيشية، أما قضية غوانتانامو فأكبر من أن يحلها الإضراب، إن لم يأبه هؤلاء المجرمون بدماء آلاف الأبرياء في أفغانستان والعراق، أفتراهم سيضعون نهاية لغوانتانامو لمجرد إقدام هؤلاء المعتقلين على الإضراب عن الطعام؟

كان يستمع مطأطأ الرأس، ينظر إلي بين الفينة والأخرى بعين حزينة، قلت: والله إني لأحبكم، فلا يخالجك الأسى من قولي فهو من محب مشفق، ولو لم أكن كذلك لما اكترثت بتقحمكم مواطن الهلكة، ولتسلقت على آلامكم لأخرج من غوانتانامو، لكني لست ممن يطلب خلاصه بهلاك إخوانه، ولست ممن ينادي غيره بالتضحية وهو متكئ في المؤخرة.

أطرق رأسه كمداً وهو يقول: لا خيار، لا يوجد أمامنا في هذا النفق المظلم إلا هذه الورقة، الإضراب حتى الموت أو الحصول على حقوقنا الإنسانية ومحاكمة عادلة، ألا ترى الإخوة كيف يعذبون؟ لابد من فعل شيء، أي شيء، حتى ولو كان بذل الروح، ثم انطلق بصوته المبحوح من أثر العملية الجراحية يسرد لي قصة التعذيب الرهيبة البشعة التي مارستها إدارة المعتقل على المعتقلين المضربين لإجبارهم على إيقاف الإضراب، كان يبرر لي فعله وقلبي يحترق حزناً على هذه الجبال الشامخة التي أعلم يقيناً أنهم لم يبلغوا هذه الحافة جزعاً وهلعاً، فهم كما يشهد كل من عرفهم من أصبر المعتقلين وأشجعهم، بل ظنوا أنهم بذلك سيخففون التعذيب عن بقية المعتقلين حين يلفتوا الإعلام العالمي إلى غوانتانامو لكشف ما تحاول الإدارة الأمريكية إخفاءه من انتهاكات صارخة لحقوق الإنسان بعيداً عن الأعين في هذه الجزيرة المعزولة، دهشت حين أخبرني أن الأخ نافع العتيبي رَحِمَهُ اللهُ كان قد استلم ورقة إطلاق سراحه، وتم إدراجه ضمن المعتقلين السعوديين الذين سيطلق سراحهم في الرحلة القادمة على طائرة البوينغ السعودية، نظر نافع إلى الورقة فقال: أرجع إلى أحبابي بينما يظل إخواني يعذبون هنا؟ ثم مزق الورقة وهو يقول: سيكون كرسيي شاغراً.

لقد قرر الاستمرار في إضرابه، إما العدالة للجميع أو يسبقهم إلى دار العدالة المطلقة!

لقد كان نافع العتيبي وياسر الزهراني وصلاح أحمد اليمني (الملقب علي عبد الله) من أشد المعتقلين صبراً وتحملاً للعذاب، لم يستمروا في إضرابهم حتى الموت جزعاً من الابتلاء، بل الإضراب عبء ثقيل يضاف على كروب الأسر لا يتحمله إلا القليل، لكنهم ظنوا أن هذا الفعل سيغير من الوضع المأسوي الذي يحيط بالمعتقلين من كل جانب، لقد ضحوا بأنفسهم من أجل إخوانهم، أخبرني أن بعض طلبة العلم قد أفتاهم بجواز الإضراب سراً بقصد الموت وأنه يعتبر شهادة، مستأنساً بفتوى قديمة لبعض العلماء في جواز إضراب الأسير حتى الموت إن لم يجد وسيلة أخرى لإيقاف التعذيب عليه أو خشية انتزاع معلومات قد تضر بالإسلام والمسلمين، وأولوا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۞ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ بأنهم لم يفعلوها عدواناً وظلماً بل تضحيةً ونصرةً للمستضعفين، وأن كل أحاديث التحذير من الانتحار إنما هي لمن فعلها جزعاً على

أقدار الله، أما من فعلها نصرةً للإسلام والمسلمين فهو شهيد، انتابتني موجة غضب وفارت الدماء في عروقي حين يتجرأ البعض في النوازل المتعلقة بالدماء مما لو وقعت في عهد عمر لجمع لها أهل بدر، قلت غاضباً: إن كانوا يعتبرونها شهادة فلماذا لم يكونوا أول المستشهدين؟ أدرك تماماً أنكم تفعلون ذلك تضحية لإخوانكم، لكن هناك من يفعلها لأنه ضاق بالأسر، ولو أطلق سراحه لعاش كما الناس، ومنهم من يؤزكم كي يفتح موتكم له باب الحرية، أما من يشارككم التضحية للآخرين فأقول بأن موتكم في هذا الطريق خسارة للأمة، مثلكم يعد كنزاً لا يفرط فيه إلا أحمق، لستم ممن يملك معلومات مهمة قد تضر بالمسلمين لتختار طريق الموت، بل هي مصلحة متوهمة بأن موتك في الإضراب سيحرر إخوانك أو سيخفف التعذيب عنهم على أقل تقدير، وقد أثبت الواقع خطأ ظنك، لقد اشتدت وتيرة التعذيب بعد الإضراب حتى فقد بعض المعتقلين عقولهم، انظر إلى فلان وفلان لترى فداحة الأضرار، والله لو استطعت لزحفت إليكم ولو على الشوك من المعسكر الخامس لأوقفكم عن صنيعكم، كيف يفرط عاقل بشباب شجعان عظماء مثلكم في تحقيق مصلحة متوهمة؟ ثم إن عندي ظناً كبيراً بأن من الأمريكان من يستغل تضحياتكم ليعجل بقتلكم لهدف يريدونه، لقد ازدادت شكوكي مع الأيام والحوادث، هناك مؤامرة خبيثة تحاك في الظلمة، لقد وفرت جهة مجهولة لعدد من المعتقلين آلات حادة يستحيل وجودها في المعتقل، كما حدث لعبد السلام الحيلة اليمني حيث تفاجأ بوجود مقص حاد تحت فراشه عند رجوعه من الممشى، كما تكرر الأمر معه في عنبر (P) حين كنت معه في نفس العنبر، كما كانت وفاة عدنان مثيرة للشكوك، كذلك وفاة المعلم أول غول الأفغاني ووضاح اليمني وعبد الرحمن العمري، حيث إن عملية الانتحار تكون مستحيلة تماماً مع هذه الحراسة المشددة، وفي الإضراب الأخير الذي سنأتي إلى ذكره بإذن الله كان التعذيب النفسي رهيباً، فكانوا يحذروننا من الانتحار بطريقة مريبة، كأنهم يقولون: لا تنتحروا لأن انتحاركم يضرنا، إنهم يستغلون مشاعر الانتقام عند المظلوم بتوجيهه للاتجاه المطلوب باستفزازه، وحين يمتنع المعتقل عن الانتحار قد يلجؤون إلى وسائل أخرى تحقق مرادهم دون وجود أي أدلة على ذلك، وكما احتفظوا بجثة عدنان رحمه الله لأكثر من ثمانية أشهر في القاعدة العسكرية الأمريكية في ألمانيا لأسباب غامضة، وكما انتزعوا الحنجرة والجهاز الهضمي من جثث معظم الإخوة الذين قتلوا في غوانتانامو لأسباب غامضة كذلك، هناك مؤامرة لا ندرك خفاياها، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

لقد فقدنا في غوانتانامو ثلة مؤمنة فاضت أرواحها المظلومة إلى بارئها الحكم العدل، في (١٠ يونيو ٢٠٠٦) قتل صلاح أحمد السلمي اليمني ومانع العتيبي وياسر الزهراني السعوديان، وفي (٣٠ مايو ٢٠٠٧) قتل عبد الرحمن العمري السعودي، وفي (٢

فبراير ٢٠١١) قتل المعلم أول غول، كما قتل عبد الرزاق الأفغاني وعناية الله الأفغاني ووضاح اليمني وعدنان الشرعبي اليمني، إذن ما الذي حدث بالضبط؟ لا أدري.

لقد صرح بوش: (لن نسمح لأحد من المعتقلين في غوانتانامو أن يقتل نفسه)، وحين يشمخ المتكبر بأنفه ويعلن أنه يمتلك الموت كما امتلك الحياة فإنه حينئذ يتحدى تلك الروح التي رضعت لبن الشجاعة ورتعت من خصب التضحية، فهل تغلبت الروح الثائرة على العقل الرزين حين تطعن في كرامتها ففضلت الرحيل في عزة على البقاء في ذل القيد، أم أن الأمريكان ارتكبوا جريمة قتل بيد المقتول؟ وهكذا افتلتت منا أرواح كريمة في لحظة ثأر أو استدراج غدر.

المعسكر السادس:

اصطفت الباصات لنقل بعض المعتقلين من المعسكر الأول والثاني والثالث والخامس إلى المعسكر السادس الجديد، وبعد إجراءات أمنية مشددة أدخلوني بوابة المعسكر، كلما دخلنا باباً قادنا إلى آخر، يخاطب الجندي عبر جهاز اللاسلكي مركزَ التحكم فيفتح الباب عن طريق التحكم عن بعد، وصلنا عنبر (B) بعد عبورنا أكثر من ٩ أبواب، كان تصميم المعسكر معقداً ذا حماية قصوى، كل ما فيه تتم السيطرة عليه بالتحكم عن بعد، دخلت العنبر وإذا بي أفاجأ بمشهد الزنازين المتراصة وكأنها ثلاجات الموتى، والذي رسخ هذا الوصف في نفسي هو الزمهرير الذي كان يلفحني بسياطه، زنازين الدور الأول فوقها زنازين الدور الثاني، اقترب المعتقلون بوجوههم الشاحبة وأجسادهم الهزيلة من الزجاج الأمامي ليروا الضحية الجديدة القادمة من العالم الآخر، صاح بي أحدهم: حياك الله بفندق هيلتون خمس نجوم، قلت مازحاً: خمس نجوم مظلمة لكنها ستضيء بالقرآن بإذن الله.

دخلت الزنزانة وجسدي يرتجف من شدة البرد، تفاجأت بوجود علبة عصير وقطعة صغيرة من البقلاوة وضعت في كل زنزانة، غريب! أدركنا لاحقاً أن الأمريكان أرادوا إضفاء شعور مريح مبتهج ليكون وقع الصدمة أشد حين يعقب التفاؤل انتكاسة تشاؤمية بعد أن نرى حقيقة الوضع المزري.

كان المعسكر السادس يتكون من ثمانية عنابر، كل عنبر عبارة عن دورين مفتوحين على بعض، يستطيع المعتقل في كل دور أن يرى الآخرين في زنازينهم كما يرى مكان الاستحمام أمام الزنزانة، ومبالغة في التضليل وضع الأمريكان طاولات حولها مقاعد حديدية مثبتة ليوهموا المعتقل بأن هذا المعسكر ستكون فيه الحياة جماعية، ظنناها للمعتقلين وإذا بها للجنود، يجلسون عليها ليتناوبوا المراقبة المستمرة، ولم يسمح الأمريكان بالحياة الجماعية في المعسكر السادس إلا في سنة (٢٠١١)، أي بعد افتتاحه

بخمس سنوات تقريباً، تعمد الأمريكان جعل الممر الذي يسير عليه الجندي ليراقب الدور الثاني يصدر أصواتاً مزعجة بمجرد وطء الجندي عليه ليستمر الإزعاج ليلاً ونهاراً كلما سار الجندي ذهاباً وإياباً، كما تعمد الأمريكان جعل القيود من سلاسل مصنوعة بطريقة تصدر أصواتاً مزعجة بمجرد تحريكها أدنى حركة، ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يرمون السلاسل على الأرض حال تقييد المعتقل لإثارة مشاعر التوتر والقلق في نفوس المعتقلين، وحين يرجعون المعتقل إلى زنزانته يتعمدون رمي السلاسل على الأرض عند التقييد أو حل القيود، فتخيل العنبر الذي يحتوي على أكثر من عشرين معتقلاً تسمع هذه الأصوات عشرات المرات يومياً.

كان المغتسل في المعسكر السادس أمام جميع الزنازين، منعنا الجنود من تغطية النافذة لمستوى يحجز عوراتنا عن الأعين فاضطررنا للاغتسال بالشورت، وبعد مشاكل كبيرة وإضرابات سمح لنا بتغطية نافذة المغتسل بالمنشفة لأقل مستوى يستر عوراتنا.

أما المشي في المعسكر السادس فخمسة أقفاص متجاورة، يخرج في كل قفص معتقل يستطيع رؤية من في الأقفاص الأخرى ويتحدث معهم لمدة ساعتين يومياً، في بعض الأحيان يكون الخروج إلى قفص المشي ساعتين في منتصف الليل، مساحة كل قفص متران ونصف في ثلاثة أمتار طولاً وعرضاً، سوره عال جداً، يقارب الأربعة أمتار، وبسبب علو السور المحيط بالمشي لا تصيبك الشمس إلا من الحادية عشرة ظهراً إلى الواحدة ظهراً فقط، يعلو سقف المشي شبك أخضر، لا يكاد شعاع الشمس أن يتسلل إلى جسدك المنهك ولا نفحة الهواء أن تهب على وجهك الشاحب، تبقى فيه معزولاً عن الآخرين بالشباك الحاجزة ثم تعود أدراجك إلى زنزانتك مرة أخرى.

كانت هناك ميزة للمعسكر السادس لم تكن في الخامس وهي تخفيف الإضاءة في منتصف الليل، كان أخي فوزي ينتهز الفرصة ليقرأ علينا القرآن بصوته العذب من شق الباب، كان لها مفعول السحر في بث الطمأنينة في نفوس المعتقلين بعد يوم شاق مليء بالمشاكل والاستفزازات.

كان التفتيش سيئاً في بداية أيامنا في السادس، يسحبون حزام البنطلون ويرون العورة أحياناً إمعاناً في الإذلال، إضافة إلى الطريقة الاستفزازية في التفتيش، فانبرى مجموعة من الإخوة لمواجهة هذا الاستفزاز بعصيان القوانين مما أدى إلى مواجهات شديدة استمرت أشهراً انتهت بإلغاء تفتيش العورة.

كان الجو في الزنازين بارداً جداً، وأي مخالفة للقوانين تصادر جميع الأغراض ليظل المعتقل يرتجف من شدة البرد ليلاً ونهاراً طوال فترة العقوبة التي قد تستمر لأسابيع، يجبر المعتقل على التفتيش مرتين في كل دخول وخروج من الزنزانة، حين

خروجه إلى قفص المشي أو التحقيق أو العيادة أو المحامي وحين عودته منها، تفتيشاً دقيقاً لا تسلم عورته منه، يخرج من زنزانته فيفتشه الجنود ثم يدخلوه قفص المشي، ثم يفتشونه عند خروجه منها إلى مكان الاستحمام، ثم يفتشونه عند خروجه من المغتسل ليدخلوه زنزانته مرة أخرى، يفتش ست مرات في كل مرة يخرج إلى المشي والاغتسال، وهكذا في كل عملية نقل إلى أي مكان!

في سنة ٢٠٠٨ رجع أحد المعتقلين من المحامي ومعه خبر مهم، أوقفه الجنود عند عنبر (Hotel) في المعسكر السادس إلى حين الانتهاء من الإجراءات الأمنية لعودته إلى عنبره، فاستغل الأخ الفرصة ليبشر الإخوة المضربين الذين جمعوهم في عنبر (Hotel) بالخبر، ناداهم بأعلى صوته: يا إخوة أخبرني المحامي أن الأخ (فلان) حكمت عليه اللجنة العسكرية بأربعة وعشرين..

انتهره الجنود ليوقفوه عن الكلام: (Shut up)

وضع معتقل يمني فمه في شق الباب وهو يصرخ: أربعة وعشرون ماذا؟

لم يستطع الأخ أن يجيبه لأن الجنود كانوا ينتهرونه ليتوقف عن الكلام بينما ظن الأخ اليمني أنه لم يسمعه، فانبطح على بطنه على الأرض ووضع فمه على شق الباب السفل: أربعة وعشرون ماذا؟

في هذه اللحظة كان أحد المعتقلين المضربين يصلي تطوعاً وهو في حال التشهد، ومن شدة الارتباك والتشوف للخبر قرأ الفاتحة بدلاً من التشهد، والأخ اليمني ينادي: أربعة وعشرون ماذا؟

فأجابه باللحظة الأخيرة قبل أن يدخلوه عنبره: أربعة وعشرون شهراً.

انتعشت معنويات المعتقلين بعد زمن طويل من الأحزان، لا تعد هذه الأشهر شيئاً لمن بقي في المعتقل سنين دون أن يحكم عليه بحكم محدد.

أُصِبْنا بالأمراض بسبب سوء التغذية وقلة الطعام، كثيراً ما تكون السَّلَطَة القليلة قد أوشكت على الفساد، أشم اللحم وإذا به زنخ، توقفت تماماً عن تناوله بعدما سبب لي أمراضاً كثيرة، فضلت سخفة الجوع على أوجاع المرض، اكتفيت بالخبز وانتقاء القليل مما يصلح للأكل، كان بالقرب مني أحد المعتقلين يعاني آلاماً شديدة في الجهاز الهضمي سنين طويلة، صرف له الدكتور أخيراً ربع كوب صغير زيت زيتون يومياً، كان هذا في سنة (٢٠٠٧)، لازلت أذكرها جيداً، زيت زيتون في غوانتانامو! من يتخيل؟ بعد ست سنوات في غوانتانامو رأيت زيت الزيتون!

كان هناك جندي أسود متعاطف يقوم بحراسة المعتقلين، فطلب الأخ المريض منه أن يوصل إلي قليلاً منه، فتح الجندي نافذتي وقت الغداء ثم أعطاني إياه بالخفاء، لم أصدق عيني، غمست فيها الخبز حتى تشربت من زيت الزيتون ثم وضعتها في فمي، شعرت بقشعريرة وحيوية تسري في كل ذرة من جسدي، اغرورقت عينايَ لا بدموع البكاء لكنه تأثير الزيت الذي حرمنا منه سنين طويلة، ثم سمحوا لنا به بعد عشر سنين من الاعتقال، كيس صغير مع كل وجبة بعد انتشار أمراض الجهاز الهضمي بين المعتقلين.

كان المحققون يستغلون الوضع الصحي للمعتقل لإجباره على التعامل معهم، اقتاد الجنود أبا عبد الله الكويتي إلى طبيبة الأسنان بعد معاناة طويلة دون علاج، اكتشف بعد رجوعه للزنزانة أن الطبيبة تركت عصبين ظاهرين ناحية الطواحين بعد أن صنعت فجوات في أسنانه، فكان يجد منه آلاماً بالغة بمجرد التنفس فكيف بالأكل والشرب؟

استدعاه المحققون بعدها وعرضوا عليه العلاج مقابل التعاون، كان لا يستطيع النوم من الألم طوال الليل، يزداد الألم أحياناً فيتلوى ويسقط أرضاً من السرير الإسمنتي، وعندما علم أنهم لن يعالجوه التجأ إلى وسائل أخرى محاولاً تخفيف الألم بها، أخذ المناديل الورقية وقطعها قطعاً صغيرة ثم كورها وخلطها بكيس الملح الصغير الذي يقدمونه في وجبة الغداء ثم يحشو به فجوات الأسنان ليتخدر الألم، لكن محاولته باءت بالفشل، فلجأ إلى حيلة (قتل الألم بألم أكبر منه)! فكان يمسك الفرشاة الصغيرة التي يعطونها للمعتقل غير المعاقب كامتياز (وهي فرشاة قاسية كان بعض المعتقلين ينظف بها المغسلة والأرضية أحياناً بدلاً من الأسنان لأنها تتعب اللثة) فكان يدخل الفرشاة بين السنين واللثة ويضغط بأسنانه العلوية لتدخل إلى أعمق نقطة ممكنة في داخل فتحة السن فيسيل الدم بغزارة، فكان يشعر بأن المكان قد تخدر وأن الألم القديم قد خف قليلاً.

استمر على هذه الحال سنتين وهو يعاني هذا الألم الرهيب دون أي علاج، كان يحاول أن يمس العصب بريشة الفرشاة حتى يقتل العصب لكنه فشل في ذلك، كان يبقى عاضاً على الفرشاة وينام وهو على هذه الحال، وبسبب الاستمرار في هذه الطريقة انكسر السن نصفين وأصبح جزء منه داخلياً والآخر خارجياً، أما الجزء الداخلي فكان معلقاً بطرف صغير، وفي إحدى المرات جاء الممرض فأراه السن، فلما رأى حالته استدعى مباشرة فريق النقل واعتبرها حالة طوارئ، لأنه رأى أن السن قد تسقط داخل المريء، أخذوه ونظفوا المكان وحشوه بالرصاص بعد أن انتزعوا الجزء المكسور الداخلي، فلما رجع إلى الكويت عالج سنه في المستشفى العسكري.

الفرج المفاجئ:

كانت المراوح الضخمة تملأ العنبر ضجيجاً، والجنود يركلون أبواب الزنازين لاستفزاز المعتقلين، كانت عقارب الساعة المعلقة في الحائط أمام المعتقلين تشير إلى الساعة الخامسة وخمس وخمسين دقيقة تقريباً، نادى أحد المعتقلين آخر في الجهة المقابلة من شق الباب ليخبره برؤيا رآها ليلة لأمس: يا فلان.. رأيت بالأمس رؤيا أن الأمريكان سيطلقون سراحي في الساعة السادسة تماماً.

فيرد عليه أخوه: كرر، لا أستطيع سماعك بسبب الإزعاج.

يكرر كلامه دون أن يتمكن الآخر من سماعه، توقف مجموعة من الجنود معهم الضابط أمام نافذة زنزانته ثم طرقوا عليه الباب وهو يضع فمه في شق الباب السفلي ليحاول توصيل رؤياه لأخيه الذي لا يستطيع سماعه، طرقوا عليه الباب مرة أخرى، صرخ عليهم غاضباً: ماذا تريدون؟

قال له الضابط: احزم أمتعتك!

: لماذا؟

: ستغادر المعتقل.

في دهشة: ماذا؟

أشار بيده يحاكي تحليق الطائرة: ستذهب إلى بيتك!

نظر إلى الساعة فإذا هي السادسة تماماً!

صاح به أخوه الآخر الذي لا يعلم ماذا يجري: كرر كلامك مرة أخرى لأني لم أسمع رؤياك بسبب الإزعاج!

أجابه والفرحة لا تسعه: لا أحتاج تأويلك الآن، لأن الرؤيا قد تحققت، أخبروني بأنهم سيطلقون سراحي!

ارتج العنبر بالتكبير.

معتقل مغربي اشتهر بمقاومته للقوانين الجائرة، عانى كثيراً وضحى كثيراً ليرفع الظلم عن نفسه وعن إخوانه المعتقلين، كانت زنزانته أمامي في المعسكر السادس، كانت قوات الشغب تستعد خارج العنبر لاقتحام زنزانته بسبب رفضه عنجهية الجنود وأوامرهم الظالمة، كان يقطع الزنزانة ذهاباً وإياباً، قد عصب رأسه بالمنشفة الوحيدة التي يحتفظ بها في الزنزانة مترقباً اقتحام قوات الشغب زنزانته عازماً على مواجهتهم، جاءه الضابط

يطرق عليه باب الزنزانة، لم يعره أي اهتمام، أخذ يردد: (٥٩٠) هل تسمعني؟

استمر يمشي في زنزانته متعصباً، رفع صوته: (٥٩٠).. لقد قررت الحكومة الأمريكية إطلاق سراحك!

ارتج العنبر كله بالتكبير، لقد كان ينتظر قوات الشعب ولم يعلم أن الفرج بانتظاره عند باب زنزانته!

ثمن الحرية دولار واحد:

كان معنا في المعسكر السادس رجل كبير في السن فلسطيني الأصل، سكن باكستان سنين طويلة وهو بارع في التصليحات الكهربائية، كان الجنود يخرجوننا من الزنازين إلى أقفاص المشي بعد الساعة الثانية عشرة ليلاً لنحرم من الشمس، أودعوني في القفص المجاور للأخ الفلسطيني، أخذنا نتجاذب أطراف الحديث فأخبرني بقصة حدثت له في باكستان،

: كنت في محل كهربائي فجاء طفل صغير عليه ثياب رثة وطلب من صاحب المحل أن يذهب معه إلى بيته ليصلح المصباح المحترق، وأخبره أن أمه أعطته هذا المبلغ ليقوم بذلك، فلما رأى صاحب المحل ما في كفه الممتدة تمعّر وجهه وانتهره بقسوة: إن قيمة هذا المال لا تكفي لسماع القصة فضلاً عن الذهاب معه إلى بيته لإصلاح المصباح، خرج الطفل من المحل كئيباً قد أوشك على البكاء، قال: فتبعته خارج المحل، وقلت له: أنا أصلح لكم المصباح. فتهلل وجهه واستنار بعد خسوفه، اشتريت ما أحتاج إليه من مصابيح وغيره بما يعادل دولاراً واحداً، فلما دخلت بيته وإذا بامرأة عجوز مريضة جالسة في زاوية الغرفة الصغيرة، فقلت لها باللغة الأوردية: أنا سأصلح لكم المصباح بدون أجر، أخذت تدعو لي وتبكي والطفل يقفز فرحاً هنا وهناك، فما خرجت حتى أضاء بيتهم.

شعرت بقشعريرة في جلدي وهو يسرد لي قصته، رأيت في عينيه بريق سعادة لا توصف، قد ارتسمت على وجهه ابتسامة هادئة، ثم نظر إلى السماء نظرة لن أنساها، ودعا دعوة خلتها من حرارة صدقها أنها حُمِلَت على أجنحة الملائكة، قال: اللَّهُمَّ إن كنت تعلم أني لم أفعل ذلك إلا ابتغاء وجهك الكريم ففرج عني ما أنا فيه، فوالله الذي لا إله إلا هو لم ينقضِ الأسبوع حتى جاءه طارق البشرى بالفرج.

وفد أوباما:

قال لي المحامي: لقد اختار بوش أن يواجه الإرهاب بالقوة المفرطة والتخلي عن كل مبادئنا وقيمنا.

: ومنذ متى كانت الحكومة الأمريكية تؤمن بالمبادئ والقيم؟ إنها المصالح فقط لا غير.

هز رأسه بالإيجاب وهو يقول: المشكلة تكمن في أنه اعتبر أحداث سبتمبر تحدياً لقوة الولايات المتحدة، وقد قَبِلَ التحدي.

قلت له: إن اعتبر رأسه مطرقة فسيتعامل مع كل مشكلة على أنها مسمار، وطرق المسمار يزيد من ثباته وقوته.

وبعدها بسنين جاءني المحامي نفسه ليخبرني بأن أوباما قد فاز بالانتخابات، وأنه مصمم على فتح صفحة جديدة مع الشرق الأوسط.

قلت: هي صفحة جديدة، لكن ما لونها؟ لا أظنها بيضاء، لقد فشل بوش في سياسته لتحقيق أهدافه، فجاء أوباما بسياسة جديدة لتحقيق نفس الأهداف، إذا كانت الأهداف شريرة فلن أكترث بتغيير الوسيلة لتحقيقها، عندما لا يستطيع الشيطان الذهاب إلى مكان ما فإنه يرسل جدته!

لقد كان بوش يقول عن معتقلي غوانتانامو: إن كان ربهم سيرحمهم فإني لن أرحمهم، أما أوباما فكان يطالب بمنحهم حقوقهم الإنسانية، لكنه كان في الواقع أشد من بوش وأعنف، أوباما يؤمن أن السياسي المحنك هو الذي يقطع عنق جاره وهو لا يشعر، وأن الأفعى لا تلتهم ضحيتها مباشرة إلا بعد أن تلتف حولها في هدوء وإحكام، لقد عانى المعتقلون في عهد أوباما ما لم يعانوه في عهد بوش، لقد رفضت إدارة أوباما تقديم المسؤولين السابقين الذين أعطوا الضوء الأخضر للتعذيب إلى المحاكمة، وتقول (منظمة هيومن رايتس ووتش): أوباما يتعامل مع التعذيب على أنه اختيار سياسي تعيس وليس باعتباره جريمة.

لقد علمتني غوانتانامو أن من الحماقة أن تعتمد في تصوراتك على التصريحات دون التوغل في عمق الواقع لاكتشاف الحقيقة، إن رأيتَ ذئباً يلاطف شاة فاعلم أن في الأمر مكيدة، مؤلم أن يكون حال أمتنا في السذاجة كتلك العصافير التي وقعت في شبكة الصياد في يوم شات، فرأت أنف الصياد وعينيه تسيلان من شدة البرد، فقال أحدها لصاحبه: انظر إلى الصياد إنه يبكي من أجل هذا العصفور، فقال له صاحبه لا تنظر إلى دموع عينيه بل انظر إلى ما تفعله يداه.

في بداية عام ٢٠٠٩ وقبل استلام أوباما الحكم بعشرة أيام تقريباً زار غوانتانامو وفد من الحكومة الأمريكية للنظر في الظروف الإنسانية للمعتقل، قابل بعض المعتقلين ليسمع منهم، سرت موجة التفاؤل بين المعتقلين بينما توجس آخرون، يشكون في نوايا

الإدارة الجديدة، كانت هناك بوادر لخطة جهنمية يتم إعدادها بخصوص الشرق الأوسط والحرب ضد ما يسمى بالإرهاب، التزمت إدارة المعتقل التهدئة مع المضربين الذين كان جميعهم حينها عرباً، انضم إليهم في ذلك الوقت الحرج أخ أوزبكي وآخر أفغاني، كان يتكلم اللغة العربية بطلاقة، حدثت مشكلة لهما مع الجنود فجاؤوا إليهما بقوات الشغب للتغذية القسرية فغضب الأخ الأوزبكي وقرر الاستمرار في استدعاء قوات الشغب تنكيلاً بالجنود كما نكلوا به، من الجدير بالذكر أن معاناة المعتقل بالضرب والإهانة والتقييد أكبر بكثير من معاناة الجنود بالحر والتعب، لكن مجرد إيصال أدنى تعب للجنود كان يريح المعتقلين ويشعرهم بأنهم يُؤلِمون كما يتألمون، رفض بعدها الأخ الأوزبكي الخروج طواعية إلى التغذية إلا بقوات الشغب، فوقع بقية المضربين في حيرة من أمرهم، لأنهم لم يصلوا لهذه المرحلة من التهدئة إلا بعد صراع طويل مع الإدارة، لقد انضم إليهم حديثاً ولا يدرك مقدار الألم والعذاب الذي عانوه ليصلوا إلى هذه المرحلة، فهم لا يريدون أن يرجعوا إلى نقطة الصفر مرة أخرى لأن أي مشكلة مع إدارة المعتقل قد تعتبره خرقاً للهدنة فتعود المشاكل مرة أخرى، حاول المضربون ثنيه عن قراره لكنه رفض، أخبروه أن عندهم خبرة طويلة مع الإدارة وأنه لا يعي أن ما هم فيه من التهدئة هو حصيلة جهود وتضحيات باهظة، ومن الممكن أن يخسروا كل ذلك بسبب إصراره، لكنه أصر على رأيه، حين يشعر المعتقل بالذل والقهر فإن انفعالاته غالباً ما تتغلب على عقله، وعندما رآه الإخوة مصراً على رأيه قرروا ألا يتركوه وحيداً مع قوات الشغب، خاصة أنه هو الوحيد غير العربي مع الأخ الأفغاني الآخر، فلم يشاؤوا أن يشعروه بالغربة بينهم فقرروا الوقوف معه، تفاجأت الإدارة الأمريكية بقرار المضربين عدم الخروج للتغذية إلا بقوات الشغب، بدأت المفاوضات مع الضابط لإيقاف ما اعتبرته الإدارة عصياناً، طالب المضربون بتحسين الأوضاع ومنع استفزاز الجنود، باءت المفاوضات بالفشل، حاول الضابط إقناع المضربين بوقف الشغب بشتى السبل كي لا يصاب الجنود بالإرهاق بسبب إجراءات الشغب المتبعة لكن دون جدوى، قلبت الإدارة على المضربين ظهر المجن وبدأت سلسلة طويلة من المواجهات العنيفة من الطرفين، صعدت الإدارة المشاكل وبدؤوا بتفتيش العورات، فصعد المضربون كذلك وبدؤوا بالضرب والعض للدفاع عن أنفسهم، كان المعتقلون لا يقاومون قوات الشغب إلا في حالات التصعيد فلا يستخدمون كل أوراقهم مرة واحدة بل يستبقون شيئاً منها للضرورات.

من الإجراءات المتبعة أنه حين يرفض المضرب عن الطعام الخروج طواعية للتغذية القسرية بالأنابيب فإن المسؤول يأتي بنفسه ومعه مترجم ويحذر المعتقل من الاستمرار بالرفض والذي غالباً ما يقابل باستهزاء المعتقل للأوامر والسخرية من قوات الشغب،

بعدها تختار إدارة المعتقل جندياً أو اثنين من كل عنبر، ليتوجهوا إلى غرفة ملابس الجنود، ويرتدوا ملابس الشغب الثخينة التي يبغضها الجنود، يصطف بعدها فريق الشغب المكون من ستة جنود بكامل دروعهم، خلفهم جندي مصور يحمل كاميرا مكتوب عليها (combat camera) أي الكاميرا القتالية، وممرض يحمل حقيبة الأدوية واللفائف خلف ظهره والمترجم والمسؤول الذي يشرف على العملية، ثم يقفون طابوراً، كل واحد خلف الآخر ويمسك بكتف الذي أمامه، ويمسك الأول درعاً، ثم يخبطون بأرجلهم الأرض بطريقة موحدة حتى يصلوا إلى الزنزانة المطلوبة، ثم يضرب الجندي الأول بعنف باب الزنزانة بالدرع وهو يصيح بأعلى صوته: (معتقل.. ارجع إلى مؤخرة الزنزانة وانبطح على بطنك وضع يديك على رأسك) يرفض بعض المعتقلين هذه الأوامر، فيفتح المسؤول النافذة ويرش المعتقل بالبخاخ الخانق، فيظل المعتقل يسعل ويعطس وتسيل دموعه وهو يشعر بالاختناق وحرقة شديدة في الوجه والجلد، حتى يتم إنهاك المعتقل فتضعف قوته وتتلاشى مقاومته لفريق الشغب، ثم يفتح المسؤول الباب بعد دقائق ليندفع فريق الشغب إلى داخل الزنزانة بعنف وينقضوا على المعتقل، ويضربونه ثم يمسكون رأسه وأطراف قدميه ويديه وهم يقلبونه بعنف، ثم يحملونه خارج الزنزانة ليضعوه على الأرض لتفتيشه، ثم يحملونه مرة أخرى ليرجعوه إلى زنزانته، يضعونه مقيداً على وجهه على الأرض، ويتم جمع أطرافه الأربعة على بعضها من الخلف والضغط عليها بشدة إلى حين حل القيود، ويبدأ الجنود بالخروج تدريجياً، ويبقى الأخير ضاغطاً عليه بقوة، ثم يتركه ويخرج بحركة خاطفة حتى لا يتسنى للمعتقل الانتقام من الجندي الأخير كما حدث في مرات كثيرة.

وكثيراً ما يعاني الجنود أنفسهم من البخاخ الذي يبقى أثره داخل الزنزانة لفترة طويلة، فيختنق الجنود وتحترق عيونهم بالرذاذ الحارق، كل هذه الإجراءات الأمنية إلزامية على الضباط لحماية الجنود، لكنها مرهقة لهم، يجب التقيد بها عند كل عملية شغب، فإذا كان كل هذا الجهد الثقيل عند استخدام قوات الشغب لمعتقل واحد فقط، فكيف لو كانوا بالعشرات يومياً؟

كانت المقاومة تستمر أحياناً بين المعتقل وقوات الشغب نصف ساعة وأحياناً أكثر من ذلك، كانوا ينتهون من المعتقل الأول ثم يلتقطون أنفاسهم عشر دقائق ليعودوا إلى المعتقل الثاني وهكذا.

كان الجنود يطلقون على فريق الشغب: (FCE) والتي تعني (Forcible Cell Extraction) أي (الاستخراج القسري من الزنزانة)، سألني المحامي يوماً عن فريق الشغب وماذا يطلق عليهم، فأخبرته (FCE) فسألني: ماذا تعني؟

قلت ساخراً: هي اختصار لـ (Freaking Coward Engagement) الاشتباك الجبان الأهبل!

فغرق في الضحك.

خمسون جنسية:

حين البعد يحلو الحديث عن الأوطان، كنا نتسامر عنها حين ننعم بشيء من الهدوء الذي تندر زيارته لنا، يتدفق الفيض ليغمرنا بعبابه، إنه الحنين إلى ذكريات الطفولة ومغامرات الفتوة، كان يخيل إلي أن كل واحد منا يحمل في كفه حفنة من تراب وطن أحبه، حفنة اقتطعت من أمة عريقة ممتدة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ثم أحيطت كل حفنة منها بسياج شائك يحجز الأخ عن أخيه، يفصل العين المبصرة عن الأذن المدركة واليد الباطشة عن القدم الساعية، ليبقى جسداً متهالكاً مجدع الأطراف، ينقاد كلما قيد، تماماً كما تفعل بنا هذه القضبان، أكثر من سبعمائة معتقل من خمسين جنسية في معتقل واحد!! لقد ضمت غوانتانامو في أحشائها أمم الأرض لتؤكد عالمية المأساة وعالمية القضية.

قال لي أحد المحققين مندهشاً: خمسون جنسية؟ خمسون؟ كيف تجمعتم؟ ما هو المغناطيس الذي استطاع جذب كل هذه الأعراق المختلفة والثقافات المتباينة إلى هذا البلد الفقير؟

أخذ يحدق فيّ النظر: أنتم صندوق أسود يجب أن نفتحه لنستخرج أسراره!

ضغط على الزر المثبت على الحائط خلف ظهره لاستدعاء الجنود.

: ستبقون في هذه الجزيرة لأمد بعيد حتى نفهمكم!

: ما يدريك؟ هل أتيتم بنا إلى هنا لتفهمونا أم أن الله أتى بنا لنفهمكم؟

في سنة ٢٠٠٣ أدرك الأمريكان خطأهم في عدم الاستفادة من اختلاف جنسيات المعتقلين، فقرروا تغيير استراتيجية توزيع المعتقلين في الزنازين على اعتبار الجنسيات، ثم بث روح العصبية بينهم، واستغلال المشاكل الناجمة عن ذلك لمصلحة التحقيق، بدأت حملة تغيير الأماكن والتقسيم الجديد، الأفغان وحدهم، الباكستانيون وحدهم، السعوديون، اليمنيون، الكويتيون، الجزائريون... إلخ، لم يتم التقسيم بشكل كامل بل بقي هناك بعض المعتقلين بعيداً عن هذا التقسيم الجديد، وبدأت الخطة الماكرة، استغلال الطبيعة البشرية التي تجنح إلى التعصب والاستقواء بالشبيه، وأضاف المحققون وإدارة السجن على تلك النار مزيداً من الوقود، يقول المحقق للمعتقل الأفغاني:

لا يوجد بيننا وبينكم أيها الأفغان أي عداء، مشكلتنا مع العرب الذين أدخلوكم في ورطة مع العالم كله، ثم خذلوكم وهربوا وتركوكم تواجهون الموت والدمار وحدكم!

ويقول المحقق للعربي: لولا خيانة الأفغان لكم وتسليمكم لنا لما استطعنا القبض عليكم، ويذكر الباكستاني بمشكلة الحدود بين باكستان وأفغانستان، ثم يقول: انظروا كيف ضحيتم بأرواحكم من أجلهم وها هم يسلمونكم لنا، وهكذا ينفثون روح العداوة والبغضاء بين المعتقلين، ويكمل الجنود تنفيذ الخطة بأن يجعلوا هناك شخص أفغاني مثلاً بين عرب، أو كويتي بين عراقيين أو سعودي بين يمنيين، أو جزائري بين مغاربة وهكذا، أملاً في حدوث مشاكل وعداوات يستغلها المحققون ليتعاون المعتقل معهم للتشفي من خصومه، ولإضعاف روح الأخوة التي كانت مصدر قوة للمعتقلين في مواجهة القوانين الجائرة غير الإنسانية، أرادت إدارة المعتقل أن تصنع سايكس بيكو بين المعتقلين كما نجحت في صنعها على الواقع، سايكس بيكو جديدة تشتت الجهود وتوهي اللُحمة وتمزق أواصر الأخوة التي تمنح أعظم مقومات القوة.

لكن مهما بلغ الدهاء والمكر في بث روح العداوة فإنه لن يجدي في واقع مرير صعب يقرب المظلومين من بعضهم، ويصل حبالهم المقطوعة، ويفتح أبوابهم الموصدة، لا يستطيع المعتقلون كسر الحواجز الحديدية التي تفصل زنازينهم، لكن المحنة تذيب الحواجز الحديدية بين القلوب لتلتقي الأرواح وتنصهر الفوارق الحدودية، تنصهر مع بقاء شيء من آثارها في النفوس البشرية ولا بد، يهيجها أحياناً حمية الجهال كما حدث بين المهاجري والأنصاري حين صاح منادياً هذا العفريت النائم الذي حبسه الإسلام في قمقمه: يا للمهاجرين، فناداه الآخر: يا للأنصار!!

من الحوادث العجيبة التي جعلتني أدرك عظمة الإسلام في تأثيره الباهر على النفوس البشرية بتحويل أنانيتها إلى الإيثار وعنصريتها إلى الشمولية التي ارتقت بالإنسان المتخلف الذي جعل اللون والعرق والوطن معياراً للتفاضل، اعتدى جنود على معتقل سعودي فانتقم له معتقل كويتي فضرب الجندي وأخذوه إلى عنبر روميو ونزعوا منه كل الأغراض إلا الشورت فقط وكان الجو بارداً جداً كان بقربه أخ يمني ينام على حصير ويلتحف بالبطانية وحين رأى المعتقل الكويتي يرجف من شدة البرد أراد أن يواسيه فرمى بالحصير والبطانية ونام على الحديد مثله، فباتا الليلة يرجفان من شدة البرد، وفي الصباح قرر جميع من في العنبر الإضراب نصرة لهما!

جاء المحققون بمعتقل سعودي في عنبر ليس فيه إلا الأفغان، رأى المعتقلون الأفغان ما يعانيه هذا المعتقل في التحقيق، كانوا يستدعونه للتحقيق عصراً فلا يرجعونه إلا صباح اليوم الثاني، هذا حاله كل يوم، يعلم المحققون أن وقت النهار يضج

بأصوات المعتقلين الأفغان، يتبادلون الأحاديث ويراجعون القرآن، فأراد المحققون أن يقوم الأفغان بمهمة الإزعاج للمعتقل السعودي، لكن الأفغان فطنوا للخطة فالتزم الجميع الصمت بمجرد مجيء الأخ من التحقيق، حتى أصبح العنبر لا تسمع فيه همساً ولا ركزاً.

تكررت هذه القصص مئات المرات مع كل الجنسيات والقوميات، وأنا أقسم بالله أني ما رأيت كالأخوة التي رأيتها بين أكثر المعتقلين، قصص لولا أني رأيتها ما صدقتها.

لقد عشنا معاً أكثر مما عشناه مع أهلنا المقربين، أربعة عشر عاماً، يوماً بيوم وساعة بساعة ولحظة بلحظة، لقد عرفت مع المعاشرة الطويلة بيننا مصادر القوة وثغرات الضعف، عرفناها بخبرة التجارب لا بقراءة الكتب، فوجدت أن الأمة تضع يدها على أعظم كنز تحتاجه أمة لتتبوأ مقعدها على صهوة المجد، إنها الألفة القلبية التي زرع الإسلام بذرتها في نفوس المؤمنين، والعجب أن سقياها من المحن حين تعم، فإن تمسكت الأمة بدينها واجتاحتها عواصف الخطوب تحولت البذرة إلى شجرة مورقة الأغصان يانعة الثمار.

ليسوا سواء:

كنت مريضاً فجاءتني جنديتان سوداوتان، أخرجتاني إلى قفص المشي بعد تقييدي، كانتا غاية في الشفقة، ولولا أن القانون يجبرهما لأخرجتاني دون قيود، فأصابتني حالة من السعال فأخذتا تربتان على ظهري كما تفعل الأم بولدها، قلت وقد احمر وجهي خجلاً: أقدر هذا الخلق الرفيع الذي تتحليان به، لكن ديني يمنع التواصل الجسدي مع الجنس الآخر، تقبلتا ذلك بكل رحابة صدر واعتذرتا بلطف فشكرتهما!

عصفت بي آلام الرقبة فاضطررت لطلب مقابلة الطبيب، لكن الأمريكان رفضوا علاجي من سنة ٢٠٠٦ حتى سنة ٢٠١١، سمعنا عن طبيب جديد قدم الجزيرة يختلف عن سابقيه، طلبت مقابلته فوافق فوراً، التقيته فوجدته متعاطفاً مع المعتقلين بشكل استثنائي، سألني باهتمام بالغ بعد أن رأى الأشعة: منذ متى وأنت على هذه الحال؟

أجبته: منذ سنة ٢٠٠٦، ركلني أحد الجنود على رقبتي في أحداث المعسكر الرابع ولم أتلق العلاج منذ ذلك الحين.

فاجأتني دموعه وهي تسيل على خده، مسحها وهو يقول في حزن بالغ: أنا مصدوم منذ أن وطئت قدماي هذه الجزيرة، لقد رأيت الكثير من إخوانك وهم يعانون أمراضاً شديدة لم يتلقوا العلاج لسنين طويلة، أشعر بالخزي والعار لأني أمريكي!

أمرني بالتمدد على السرير، أمسك برأسي ورقبتي وبحركة خاطفة سمعت فرقعة شديدة من رقبتي، شعرت بعدها بخدر وتنمل في كل جسدي، ومن شدة صوت فرقعة العظام تراجع بعض الجنود خوفاً، سألني الطبيب في قلق: هل تشعر بأطراف أصابعك؟

شعر بارتياح حين أجبته: نعم.

ثم بدأ بعدها معي برنامجاً أسبوعياً للعلاج الطبيعي، تحسنت حالتي كثيراً، أصبحت أقوى على الالتفات بعد ست سنوات من عدم القدرة على ذلك، خف الألم لكنه لا زال باقياً، طلبت منه أن يعلمني كيفية فرقعة المفاصل كي أساعد إخواني المعتقلين لأني كنت أخشى أن يرحل هذا الطبيب عن الجزيرة فنحرم من العلاج، نظر إلي مبتسماً ثم قال: لا بأس!

أمر الجندي المصدوم أن يحل عن يدي القيود، قال له الجندي: أنت المسؤول إن حدث شيء!

أجابه: أنا المسؤول، حل عنه القيود!

أزال القيود ثم أمر مساعده بالاستلقاء على السرير وهو يشرح لي طريقة الإمساك بالرقبة وثنيها، في هذه اللحظة فتح أحد الجنود باب العيادة ليراني ممسكاً برقبة مساعد الطبيب المتمدد على السرير والطبيب بجواري!

كادت عيناه تخرجان من رأسه ولهاته تلوح من فمه الفاغر، التفت إليه الطبيب وهو يأمره: أغلق الباب.

لن أنسى هذا الطبيب ما حييت، صدق ظني حيث لم يطل بقاؤه في غوانتانامو، فمثل هؤلاء المتعاطفين لا يستمرون غالباً بالعمل في الجزيرة.

ليسوا سواء، التعميم ينم عن نفس جهولة تنساق وراء الانفعال الأعمى الذي لا يرى المشهد إلا باللونين الأبيض والأسود، وما ذاك إلا لسوء فهم عقيدة الولاء والبراء التي ضاعت بين تمييع يرى كل قريش أبا طالب وتشديد يراهم كلهم أبا جهل، إن نصرة أبي طالب لا تلغي جرائم أبي جهل، وكف عنب من (عَدَّاس) لا يلغيه كف حجر من سفهاء الطائف.

لا عشوائية:

لا مكان للعشوائية في هذا المعتقل، الجنود مدربون بعناية، كلٌّ حسب المطلوب منه، قسم اختارتهم الإدارة وفق معايير معينة ليكونوا أشراراً، وجدت فيهم القابلية لإتقان هذا الدور، مثل مجموعة (٩/٤) ومجموعة المفتاح، وقسم يتعامل معك حسب

القانون لا يحيد عنه دون أن يظهر أي مشاعر سلبية أو إيجابية، وقسم ثالث لطيف مع المعتقلين كمجموعة (النخلة)، يختارون كل صنف حسب الشخصية وملامح الوجه للإبقاء على حالة عدم الاستقرار النفسي في غوانتانامو، فغالب سلوك الجنود يتم التحكم به من قبل إدارة المعتقل، وتبقى هناك استثناءات نادرة في وجود جنود متعاطفين حقيقة لا ادعاءً ولا تمثيلاً، وهؤلاء الثلة النادرة في غوانتانامو يؤكدون أن في هؤلاء الجنود من لا يزال يحمل بين جنبيه قلباً إنسانياً ويتعاطف مع المظلوم وقد تدمع عينه له ويواسيه في الخفاء بعيداً عن كاميرات المراقبة، ويعرض نفسه للمشاكل بتقديم يد العون لهؤلاء المعتقلين الذين اكتشف أن أعظم كذبة هي وصفهم بأنهم (the worst of the worst) أي شر الأشرار.

تطلب الإدارة من بعض الجنود أن يكونوا لطفاء مع المعتقلين حتى يستغلوهم في أوقات التمرد والمواجهات لتلطيف الأجواء لأنهم يعلمون أن المعتقلين يقابلون الاحترام بالاحترام، وأحياناً يُطَعِّمون فريق الشغب ببعض هؤلاء اللطفاء، فإذا رآهم المعتقل فإنه لا يواجههم بسبب وجود هذا الجندي اللطيف معهم.

الله أمان الخائفين:

وقف الإمام في صلاة الفجر يرتل كلام الله بصوته العذب الجميل بترسل وخشوع، تحسب أن القرآن يتنزل ساعتها لتنجذب قلوب المصلين إلى آياته يعيشونها كلمة كلمة، أخذ يقرأ عليهم قوله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أخذتني الآيات بعضدي وأوقفتني وسط المشهد المهيب، فرعون جالس على عرشه محاط بجنود غلاظ شداد وسط الملأ من قوم فرعون، الوزراء والوجهاء والقادة وأمامهم ذلك الرجل المؤمن الذي يخفي نور إيمانه بين جنبيه، كان الإمام فاضلاً، شاب تبدو عليه وسامة عربية يجللها الوقار، طالما أبدى لنا انزعاجه من طول شعره الناعم المتموج الذي يلامس منكبيه في وقت حرمنا الأمريكان من استخدام المقص وماكينة الحلاقة والأمواس لأكثر من سنة كاملة، ليرد عليه معتقل آخر جمع إلى خفة دمه شعراً جعداً منفوشاً: تبادل شعري بشعرك؟

كان الإمام متوسط الطول رشيق الجسد لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره في ظني، تعتريه هزة شوق حين يتكلم عن والديه وزوجته التي لم يمض على زواجه منها ثلاثة أشهر حين تم القبض عليه في أفغانستان، أتذكر حين جاءته جندية تتغنج أمامه فأعرض عنها، وحين سألته قال لها: لا أعصي ربي وأخون زوجتي، سمعتها وهي تهمس للجندي الآخر بالإنجليزية: إنه يقول لن أخون زوجتي! قالتها بإعجاب، أرادت أن تستمر في حوارها معه لولا أن الجندي نهاها عن ذلك بغضب.

كانت الريح قد خرقت الشراع الأخضر ليلوح لنا من خلالها مجمع سكني خاص بعملاء الاستخبارات والجيش، أخذت أتأمل أضواء البيوت الساطعة من بعيد، لا زالوا يغطون في نوم عميق، قد أصمتهم الشهوات المتراكمة وغطى قلوبهم الران طوال الليل والنهار، نهارهم ظلم وتعذيب وليلهم سكر وعربدة، لم يسمعوا نداء الفلاح ولم يجيبوا (الصلاة خير من النوم)، التفت وإذا بالإخوة لا زالوا في أذكارهم ومناجاتهم الممتدة من السحر إلى ما بعد الشروق، قد تركوا لذيذ النوم وناعم الفراش ليصفوا أقدامهم بين يدي ربهم يناجونه ويبثون أشواقهم إليه في هذه الجزيرة المهجورة التي تعج بالأشباح الشريرة، في هذا المكان المعزول عن العالم كله يوثق المؤمنون بالسلاسل والأغلال، لقد تحولت هذه الجزيرة الموحشة إلى غار حراء تتدفق فيها أنوار الهداية.

أخذ الفجر ينشر نوره الوردي في الأفق الذي احمرت وجنتاه خجلاً مما يرتكبه الإنسان ضد الإنسان، كانت من أجمل لحظاتي في غوانتانامو، شعرت أن هذا الوقت متحرر من جاذبية الأرض التي تشده نحو الطين والتراب، كنت أحسبه مقتطعاً من نعيم الجنة وطمأنينة السماء.

سمعنا صوت فتح النوافذ استعداداً لتوزيع الطعام، رفع أحد الإخوة صوته: يا ابن آدم.. أنا يوم جديد وعلى عملك شهيد فاغتنمني لآخرتك قبل أن أرحل فإني لا أعود.

علا النهار وضج العنبر بأصوات المعتقلين، وظهرت حقيقة الحياة إلا في الزنزانة المجاورة التي غشاها شحوب الموت، كان يقضي جل يومه قابعاً في ركن الزنزانة لا يتحرك إلا لصلاة أو قضاء حاجة أو يخطو خطوة إلى الأمام ليأخذ صحن الطعام من فتحة الباب ثم يعود من جديد منطوياً على نفسه ليعيش عالمه الخاص، كأن الأسر تمثل له رجلاً ضخماً جلداً وهو يخنقه بيديه، أطلق زفرة حارة ثم مشى في الزنزانة بخطوات متثاقلة، لكنه استسلم سريعاً ورمى بنفسه على الحصير في يأس.

حاولت اختراق هذا العالم لأبحث عن مفتاح النور الذي يبدد ظلماته التي غرق فيها، كنت أتبادل الحديث مع الإخوة في الزنازين المجاورة وألقي درساً في التفسير على القريبين مني، فاخترت من الآيات ما يكون لنا نبراس هداية ﴿الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ «أحسب الناس» ولم يقل «المؤمنون»، نسبهم إلى أصل خلقتهم ورفع عنهم مسمى الإيمان قبل إثبات برهان صدقهم، ثم على ضوء ذلك الاختبار يكون الفرز والتصنيف، ﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ أظنوا الإيمان كلمة تقال أو آيات تردد أو متناً يحفظ؟

إنه يخبرك بما ستلاقيه من مصاعب وابتلاءات، يخبرك عن الطريق قبل أن تسلكه ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ﴾ فهم ليسوا وحدهم في هذا الطريق، إنه طريق مزدحم يعج

بالسالكين، مزدحم لأنه يلغي القانون الزمني الذي حصر كل فرد منهم في زمانه، وإذا به يعرضهم جميعاً في حشد واحد، الأولين والآخرين، ينظر بعضهم إلى بعض، لم يكونوا وحدهم كما كانوا يظنون، إن تأثير الزمن في التفريق بينهم يعتبر ملغياً في عالم المبادئ والقيم، إنها قافلة طويلة ممتدة تشق طريقها الوعر دون كلل ولا ملل، فلماذا الوحشة وحولك الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون؟

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، «فليعْلمنَّ» إنه ظهور المعلوم مسبقاً، فهو لا يحاسبهم على ما استقر في علمه، بل على ما عملوه لعدله المطلق، ولو حاسبهم على علمه بهم لقال قائل: لم أعمل ولم أقل، ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ سمى تحقيق الادعاء صدقاً، فالصدق لا ينحصر بالقول بل أعلى مراتبه العمل، حين تنساب من لسانك كلمة سَلْسَلَة رقراقة فتجتمع كل جوارحك جاهدة مجتهدة لتحقيقها واقعاً يؤكد أنها ولدت من صلب القلب ولم تنسب إليه بالتبني، إنه الصدق لا غير، حين يعرق الجبين وترجف الأوصال وينهك البدن ويعصف القلب لتصديق كلمة قالها اللسان المرتاح وهو يتكئ على وسادته!

كنت أشعر أن الحواجز النفسية التي بناها حوله بدأت تتحطم شيئاً فشيئاً، وأن هناك شمعة صغيرة قد أشعلها الله في إحدى زوايا قلبه، اقتربت من القضبان الفاصلة بيني وبينه، كان الجو جميلاً هذا الصباح، ابتسم ابتسامة مترددة، كان مسروراً بحديثي إليه وكأن أحداً لم يكلمه منذ زمن بعيد، لقد كان منطوياً على نفسه لم يفتح باب قلبه للطارقين ممن حوله، تجولت معه في الحديث هنا وهناك حتى وصلت إلى بغيتي: ما بك؟

أطلق تنهدة طويلة كأنه يخفف ناراً مستعرة تحرق صدره.

: افتح لي قلبك، أنا أخوك، يسوؤني ما يسوؤك.

وبعد صمت طويل فتح لي الباب وإذا بي أصدم بما خلف الباب، ظلام موحش وخيال أشخاص يبكون ويتوجعون.

: كنت أعمل في لجنة إغاثية مشهورة في باكستان، كل جهدنا منصب على مأساة الشعب الباكستاني والأفغاني الفقير الذي عضه الجوع والمرض، وحين بدأت الحرب على ما يسمى الإرهاب كانت الجوائز مغرية للحكومة الباكستانية لتسليم أي عربي تريده الاستخبارات المركزية (CIA) الذين أرادوا جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات، فطالبوا الحكومة الباكستانية والحكومة الأفغانية العميلة بتسليمهم بعض العرب الذين ليس لهم فيما جرى ناقة ولا جمل، أراد الأمريكان عينة من العاملين في الجمعيات

الإغاثية والمدارس الشرعية والدعاة ليكملوا النقص في المعلومات لعلهم يجدون بغيتهم، وفي ليلة لن أنساها اقتحم منزلي العشرات من القوات الأمنية الباكستانية ومعهم أفراد قلائل من الـ (CIA)، دخلوا علينا غرفة النوم وزوجتي بملابسها الداخلية، هجموا علي ضرباً وركلاً وزوجتي تصيح مذعورة، وحين حاولت منعهم ضربوها أمامي لتسقط أرضاً، هب أولادي من النوم مذعورين على صراخ زوجتي، جاؤوا بأطفالي يبكون بهستيريا وهم ينظرون إلي بنظرات مكلومة لن أنساها ما حييت، ارتسمت حلقة من الدموع المضطربة في عينيه وانقبضت تجاعيد وجهه ثم قال بصوت يرجف في حلقه: لقد كانوا يرتعدون من الخوف!

منعته الدموع من النطق واختنقت أنفاسه، عجزت عن الكلام فقلت مواسياً: (الله أمان الخائفين) هنا استسلم للبكاء، ازداد يقيني أنه لا خلاص لهذه الأمة المستضعفة إلا بكيان يجمعها، ينصفها من أعدائها ويكون ردءاً لها من عدوان المتكبرين.

ورقة ضغط:

استحوذ القرآن الكريم على اهتمام الإدارة الأمريكية بشكل غريب جداً، لقد استخدموا القرآن كورقة ضغط واستفزاز نفسي ضد المعتقلين، وفَّروا نسخ القرآن في معتقل قندهار ليدنسوه أمام المعتقلين في حملات التفتيش الفجائية التي كان الجنود يقومون بها بين الفينة والأخرى، حين وصلنا غوانتانامو وفور دخولنا الزنازين الانفرادية اطمأنت أنفسنا وابتهجت ونحن نرى القرآن الكريم المعلق بكمام على شباك الزنزانة، لم نكن ندرك وقتها أن مؤامرة خبيثة كانت تحاك وراء هذا التظاهر باحترام القرآن كتاب المسلمين المقدس، وأن هناك الكثير من المشاكل والإضرابات والآلام تنتظرنا مستقبلاً.

كان عدد الحفاظ في بداية الأسر قرابة العشرين، وحين دخلت سنة (٢٠٠٦) بلغ عدد حفاظ القرآن في غوانتانامو أربعمائة، لم يكن الوضع يساعد على الحفظ فالحالة النفسية والاستفزاز المستمر من الجنود والتوتر الذي يصاحب الانتقال إلى غرفة التحقيق وخلاله ثم العودة منه، كل ذلك لا يساعد على صفاء الذهن، وقد يستمر الإرهاق بعد التحقيق ليومين كاملين، بعضهم حفظوه في عنابر العقوبات وبعضهم في المعتقلات الانفرادية كالخامس والأول والثاني والثالث والسادس، ينبطح الأخ على بطنه على الأرض ويضع أذنه على الفتحة بين الباب والأرض، والأخ الحافظ في الزنزانة المجاورة يفعل الشيء نفسه ويقرأ آية آية فيسمعها الآخر ويرددها حتى يحفظها، فيحفظ عشر آيات أو أكثر حسب قدرة الأخ على الحفظ حتى يتم حفظ القرآن، وقد ينتقل إلى معسكر آخر قبل أن يتمه ويكمل حفظه هناك.

بعض المضربين عن الطعام كان الجنود يأخذونهم بعنف ويضعونهم على كرسي التغذية القسرية وهو أشبه ما يكون بكرسي الإعدام، فيربطون أقدامهم وسيقانهم وأفخاذهم وأيديهم وأكتافهم بالكرسي، ثم يدخلون الأنبوب في أنوفهم للتغذية القسرية، وفي هذه الحالة كنت أرى بعضهم يراجعون من ثلاثة إلى خمسة أجزاء من القرآن، لأنهم يبقون ساعتين على هذه الحال، وبعض الذين لم يكملوا حفظهم كانوا يتناقلون الآيات فيحفظونها على هذه الحالة الصعبة.

كان المعتقلون يستغلون فترات الهدوء النسبي بالاجتهاد في حفظ القرآن وطلب العلم الشرعي، كثرت أعداد حفاظ القرآن واجتهد طلبة العلم في دروس التفسير وشرح بلوغ المرام والقواعد الفقهية للسعدي والتجويد والنحو، هناك من حفظ الآجرومية والبيقونية وغيرها من المتون يتلقاها ممن يحفظها.

كنا في المعسكر الخامس الانفرادي، فاحتفلنا في إحدى الليالي بأحد المعتقلين الذين معنا في العنبر بعد أن ختم القرآن حفظاً عن ظهر قلب، لقد كانت مناسبة استثنائية، لم يكن عندنا أي مصحف، فقد سلمنا جميع المصاحف بسبب الإهانات المتكررة له، فبدأ هذا الأخ بتلقي الآيات من جاره عن طريق شق الباب السفلي، وهكذا آية آية، سورة سورة، يوم وشهر وسنة وسنتان وثلاث حتى أتم القرآن، ليس هذا فحسب بل سيزداد عجبك حين تعلم أن ذلك حدث وسط عواصف من المشاكل اليومية والاستفزازات والإهانات التي لا تنتهي، لم يفت عضده دخول قوات الشغب عليه وعلى من حوله، لم يهن عزيمته استهزاء الجنود به، لم يقض ليلته بلعن الظلام لكنه أوقد شمعة، لم يضع لنفسه ألف عذر ليترك حفظ القرآن لكنه تطلع للفوز بالسباق حتى لو كان مكبل الأقدام.

احتفال:

تولى أحد المعتقلين ترتيب برنامج الاحتفال الكرنفالي، كان البرنامج مزدحماً بالأناشيد والنكت والمسابقات الثقافية التي تعتمد على طرح الأسئلة مثل: ما هي السورة التي تبدأ بحرف التاء؟ وكمسابقة تحديد شخصية معينة فيبدأ جاره بسؤاله سؤالاً واحداً فقط عن صفاته الشخصية ثم هو بالخيار بين تعيينها أو ينتقل الدور لمن بعده كي يسأل، لكنه إن أخطأ في تعيينه خرج من السباق، وهكذا حتى يتم معرفة الشخصية التي قد تكون أحياناً صحابياً أو صحابية أو نبياً أو أحد أعلام الإسلام أو من غير المسلمين، وقد حيرنا أحد المعتقلين حين دار الدور بالأسئلة على جميع الموجودين في العنبر أكثر من عشر مرات وقد فشلنا في تحديد هوية هذه الشخصية وهو غارق في ضحكه، ثم اكتشفنا أخيراً أنه الدجال!

وبعدها يصدح العنبر بالأناشيد بعد فوز أحد المعتقلين بالمسابقة، لك أن تتخيل المعتقل وهو منبطح على بطنه لينشد، وقد ينشد قائماً أحياناً من شق الباب الجانبي إن كان النشيد حماسياً يتطلب الوقوف، نكرم الفائز بأن ينشد له أصحاب الأصوات الجميلة، أما الخاسر فإننا نعاقبه بأصحاب الأصوات النشاز، وخلال المسابقة قد تسمع بعض الأجوبة الصادمة مثل: ما هي السورة التي تبدأ بالكاف، فيكون الجواب ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، أخطاء نتيجة العجلة للفوز بالسباق، وتتخلل المسابقة بعض القصص الطريفة كقصة أحد المعتقلين يقول: قبل أن أسلك طريق الهداية كنت مسافراً مع أحد أصدقائي الذي كان يقود السيارة وهو سكران، فرأينا بعيراً في طريقنا من بعيد، نبهته على وجود البعير فأخبرني بأنه يراه، اقتربنا منه، قلت: انتبه أنت مسرع والبعير يقترب.

قال متضجراً: أخبرتك بأني أراه، لست أعمى!

اقتربنا منه أكثر لدرجة أني أستطيع رؤية البعير وهو يرغي كأنه يقول لنا: أوقفوا سيارتكم يا بله،

صرخت: انتبه،

قال لي غاضباً: قلت لك مليون مرة إني أراه،

ما انتهى من جملته حتى اصطدمنا بالبعير، أفقنا أنا وإياه في غرفة الإنعاش، وحين تحسن حالنا قليلاً قلت له غاضباً: عندما كنت أنبهك على البعير لماذا لم تخفف السرعة؟

فقال: كنت أظنك أنت من يقود السيارة!

دفاعاً عن القرآن:

اشتدت المواجهات في عنبر روميو حين أعلنت الإدارة أن القرآن جزء لا يتجزأ من الزنزانة ولابد من وجوده في كل الزنازين بالرضا أو بالإكراه، كانت مطالب المعتقلين هي عدم إهانة القرآن أو إرجاعه إلى المكتبة خارج المعتقل، رفضت الإدارة هذا الطلب، سحبوا كل أغراض المعتقلين إلا الشورت فقط، اقتحمت قوات الشغب الزنازين، الواحدة تلو الأخرى ليضعوا فيها المصاحف، قام المعتقلون بركل النوافذ الحديدية والصفائح المعدنية المستخدمة كأسرة، فاستطاعوا تكسير النوافذ والكثير من الأسرة، كان الضرب عنيفاً جداً لدرجة أن الإدارة أعلنت الاستنفار العام، أغلقوا الماء عن المعتقلين وجاء الجنود من خلف العنبر لإغلاق النوافذ الخارجية حتى يتسنى لهم استخدام البخاخ بفعالية أكبر، بدأ بعض المعتقلين بقطع صحون الطعام البلاستيكية قطعاً

صغيرة وحشوا بها فتحة القفل على المزلاج مما منع الجنود من اقتحام بقية الزنازين، وجاؤوا بجهاز قطع الأقفال ومعهم أقفال جديدة ومفاتيح جديدة، أخذ بعض المعتقلين من ماء المرحاض وصبه في دهليز العنبر، وعندما جاءت قوات الشغب تزحلق الجنود وانكسرت كاميرا التصوير فازداد حقدهم، وجاؤوا بمروحة ضخمة وضعوها في بداية العنبر ثم بدؤوا برش البخاخ الخارق الحارق فيدفعه الهواء في داخل العنبر، امتلأ العنبر بغيمة من الرذاذ وتعالت الشهقات الخانقة، وبعد ساعات غيَّروا الجنود بآخرين لتهدئة الأوضاع، كانت معاملتهم أفضل وفتحوا الماء على المعتقلين، غسل المعتقلون وجوههم وأجسادهم من آثار البخاخ فازداد الشعور بالاحتراق حين مس الماء جلودهم، أخذ بعض المعتقلين بالأنين والقفز من شدة الألم لأن البخاخ نزل إلى عوراتهم فالتهب المكان وسط ضحك آخرين.

كان المعتقلون يرون أنهم الخط الأول للدفاع عن القرآن، شعروا أن في نكوصهم انكساراً للمسلمين قاطبة، وأن ثباتهم أمام بطش الأمريكان فيه معنى ثبات المسلمين وبقاء الإسلام، شعروا أنهم وقتها ممثلون عن الأمة كلها ولو ضعفوا لقال الأمريكان: هزمنا المسلمين، فكان صبرهم صبر أمة بأكملها لا صبر مجموعة من المعتقلين، ولولا هذا الشعور لجزعوا وسقطوا، لقد قام هذا التصور بنقلة هائلة في نفوسهم، نقلهم من تصور الألم العبثي إلى تصور الألم للدفاع عن القرآن، فتلاشى الألم أمام المعنى القائم في نفوسهم.

لقد رأيت من صمود المعتقلين وثباتهم في تلك الأيام ما أذهلني، فتخيل تناوب مجموعتين من الجنود يومياً لمدة ستة أشهر على عدد قليل من المعتقلين المضربين ما بين ضرب وشغب وبخاخات مسيلة للدموع وإهانات واستفزازات وتقييد عنيف يدمي الأيدي والأرجل، كل هذا لم ينل من هؤلاء الذين جعلوا من بطونهم الخاوية وقلوبهم الممتلئة بالإيمان درعاً لقرآنهم الكريم، فلم تكن أجسادهم سوى أثواب ارتدوها على أرواح عظيمة عشقت التحليق عالياً.

لقد رأيت في الكثير منهم عبادة في هذه الظروف الصعبة ما ذكرني بقصص الأوائل التي كنت أظنها مبالغات وإذا بي أراها فيهم بعيني، رأيت في الكثير منهم خلقاً سماوياً لا يمت للأرض بصلة سوى شعورهم أنهم باقون فيها أمداً قصيراً ليعودوا إلى ما قال عنه ابن القيم:

فحي على جنات عدن فإنها ... منازلنا الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبي العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسلم

رأيت قوماً يبذلون التضحيات الجسام دفاعاً عن إخوانهم المعتقلين ثم يشيحون بوجوههم عنهم حتى لا يروا فيها حمرة الخجل امتناناً، رأيتهم يؤثرون إخوانهم باللقمة ليقضوا ليلتهم ببطون جائعة، لا تشمخ نفوسهم شموخ المعجب ولا تتباهى بأعمالها مباهاة المفتخر، يقضون نهارهم صوماً وليلهم صلاة وقرآناً وذكراً، ثم لا يرون إحسانهم إحساناً بل أعطية من الله على غير استحقاق منهم، لم أر في أعينهم بريقَ الاغترار على بلاء صبروا عليه، بل ذبولَ خشية من عُمْرٍ لا يدرون بم يختم، ورأيت آخرين تقطر ألسنتهم شهداً وخباياهم سماً، يستقبلك مبتسماً بين المعتقلين فإذا به يخاتلك غدراً مع المحققين، قلوب شتى في سجن واحد، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

لا تنظر إلي هكذا:

عادت مشكلة القرآن من جديد، رماه أحد الجنود أثناء التفتيش، كانت الإدارة تستغل وجود القرآن معنا في الزنازين كورقة ضغط نفسي، متى شاءت أن تستفزنا به فعلت، قاموا بذلك عشرات المرات والنفوس لا تتحمل الضغوط النفسية على فترات طويلة خاصة أن هذه الحوادث تعقبها صدامات كبيرة وواسعة مع الجنود وإضرابات وعقوبات شديدة صارمة، كان بوسعنا في السنوات الثلاث الأولى أن نطالب بتسليم مصاحفنا لأخذها إلى المكتبة خارج المعتقل، رفض معتقلون آخرون فكرة التسليم لحاجتهم الماسة إلى وجوده، قال أحدهم: (سأفقد عقلي لو سلمت لهم القرآن)، استمرت النقاشات المكررة والتي غالباً ما تكون محتدة متشنجة بسبب الظروف الصعبة، فكل من تبنى قرار المواجهة تراه يسعى قدر استطاعته في جمع المؤيدين، تارة بمحاولة إقناعهم وتارة باتهامهم بالجبن وتارة بضعف توقير القرآن.

سَلَّمَ أغلبنا القرآن حتى لا تستمر هذه الورقة في أيديهم يحرقون بها أعصابنا ويستنزفون طاقتنا، رفض اثنان من الإخوة تفتيشه بإهانة أو تسليمه، مما يعني قرار مواجهة قوات الشغب التي تستخدم العنف في اقتحام الزنزانة وإهانة المعتقل، بدأنا نسمع صوت قوات الشغب وهي تضرب الأرض بأرجلها ضربات موحدة، قلت لهما: ماذا نستفيد من المقاومة إن كان الأمريكان يستطيعون الوصول إلى القرآن بالقوة، وقد تكون الإهانة أكبر؟

أجاب أحدهما: لن أعطيهم كتاب ربي بيدي، ليأخذوه بالقوة.

سيطر علي الشعور بهوان الأمة حين تسلط علينا حثالة من البشر يهينون القرآن هنا فيكرمونهم في بلادنا هناك وكأن القرآن لا يخصهم، وصلت قوات الشغب فوقفت أمام

الزنزانتين وصاح المسئول: معتقل.. انبطح على بطنك وضع يديك على رأسك دون أي مقاومة.

لكنهما تجاهلا التعليمات، كرر المسئول تهديده فقال له أحدهما: اخرس.. لن نسلمك قرآننا لتهينه.

أخرج من جيبه بخاخاً مسيلاً للدموع ووجهه إليهما ثم بدأ بالرش، وصلت الرائحة الخانقة الحارقة إلينا، بدأ الجميع بالسعال الشديد، أخذ أحدهما يصب الماء في الكوب ثم يرشه على قوات الشغب وهو يكبر، والمسئول يستمر في رش البخاخ، كنت أشاهد المنظر وقلبي يتمزق، في بعض المواقف الصعبة قد يختار المرء رأياً يظنه الصواب، لكنه حين يرى أخاه يظلم ويعاني تتلاشى حينها الآراء وتفنى قضية صواب وخطأ وتتولى المشاعر قيادة المشهد، شعرت بتأنيب الضمير وأنا أرى عينيه المحمرتين من الرذاذ المنبعث من البخاخ وهو مستمر في تعبئة الكوب بالماء ثم رشه على الجنود، معركة غير متكافئة، ماء مقابل مسيل للدموع، رجل أعزل مقابل ست رجال مدججين بالدروع والخوذ والأحذية الصلبة التي تساعد على الضرب عند الحاجة، في هذه اللحظة أخذ ينظر إلي وهو منهمك برش الجنود بالماء، كان ينظر إلي أنا تحديداً نظرات مؤلمة جعلتني أعتصر ألماً كلما ذكرتها إلى هذه اللحظة، تحولت عيناه إلى زنزانة حبستني فيها ورموشه إلى قضبان حكمت علي بالسجن فيها مدى الحياة.

عيناه محمرتان غارقتان في حزن عميق وشعور بالخذلان، كان فيهما الكثير من الكلام، كانتا تقولان لي: لقد خذلتني!

تمنيت لو أنه لم ينظر إلي، لا تنظر إلي هكذا أرجوك، فأنا لم أَلُمْك حين خرجتَ من الحلبة لنواجه وحدنا الجنود في صدامات سابقة، أرجوك لا تنظر إلي هكذا فأنا مقيد اليدين والقدمين، ولست سعد بن أبي وقاص يطأ بقدميه بلاد كسرى فاتحاً ويحطم بيديه صرح النار، تطوقني قضبان الأسر ولست صلاح الدين يطوق بجيشه القدس في حطين، قد ساقنا الأعداء إلى هذه الجزيرة بمراكب العبودية ولست طارق بن زياد يحرق وراءه مراكبه مستقبلاً أمامه تلال الأندلس الخضراء، نظراتك تقتلني، تسحقني، تغرقني في لجة العذاب، فلماذا تنظر إلي وحدي هكذا؟

أريد أن أحتفظ بطاقتي لمواجهة القادم المجهول الذي لا يعلم مداه إلا الله، لقد كان النبي ﷺ يمر على سمية المعذبة في أودية مكة الموحشة وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة ورمح أبي جهل في مكان عفتها، ويرى ياسر يتلوى ألماً في رمضاء مكة فلا يزيد على قوله: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»، لقد كان يخبئ ردود أفعاله لبدر بدلاً من تشتيتها في شعاب مكة.

الحب الخالد:

كانت تعتريني لحظات يقسو فيها قلبي ويضيق صدري وأشعر بأني أضعت الطريق، وما أن أقرأ كلام ربي حتى أشعر أني أتحسس مواقع قدمي بيدي، وتتبدد الغيوم وينقشع الضباب وإذا بي على الطريق مرة أخرى، وفي أتون البلاء الملتهب حين تلفحك نار الألم من كل جانب وتعصرك المحن بضمتها تكتشف البعد المخفي في القرآن، العمق الغائر الذي لم تدركه من قبل، تدرك أنك كنت ترى حقائق القرآن باهتة باللون الأبيض والأسود، وإذا بذات الحقائق تزهو في ناظريك مزهرة مخضرة بكل الألوان.

وقفت علي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ فغمرتني في أنوارها لأبصر عجزي وضعفي وأدرك رحمته وفضله، ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم﴾ منكم أنتم يا أعظم جيل عرفته البشرية فكيف بسواكم؟ ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ والنكرة في سياق النفي تعم، ثم زادت «مِنْ» المعنى تأكيداً، وختمتها ﴿أَبَدًا﴾ ليمتد المعنى إلى المستقبل الزمني فتجردهم من كل حول وقوة، ثم توقفهم على بحر فضله وفضاء رحمته ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾، أجمل اللحظات على الإطلاق حين أخرج من نفسي وأقف عارياً بين يديه، عارياً من كل الحظوظ النفسية، حين أقف أمامه ناكس الرأس خائف القلب خاشع الطرف، حين أنظر ورائي إلى كل هذه الحقول التي زرعتُها لأكتشف أن كل بذرة إنما غَرَسَتْها يداه هو لا يَدَيّ، حين أخجل وأنا أراه يتجاوز عن آفات الحصاد ودود الثمر، حين أغرق في عظمة (لا حول ولا قوة إلا بالله)، لا تحول عن قاع الخور ولا قوة للوصول إلى سمو الإحسان إلا بالله، لا صبر عن جاذبية الإغراء وفتنة الحسان ولا على قسوة القيد وعنجهية السجان إلا بالله، فأتمتم في خشوع:

إليك وإلا لا تشد الركائب	ومنك وإلا فالمؤمل خائب
وفيك وإلا فالزمان مضيع	وعنك وإلا فالمحدث كاذب
لديك وإلا لا قرار يطيب لي	عليك وإلا لا تسيل السواكب

تمثال الحرية:

استيقظت من نومي في إحدى الليالي، أنظر إلى المعتقلين حولي من بين القضبان، ما بين ساجد يأخذ حظه من كنوز الليل، وآخر يستعين بنومة هانئة على مصاعب الغد، أخذت نفساً عميقاً يملأ صدري الذي ضاق بأحزانه. أغمضت عيني مستمتعاً بالهدوء الذي يندر حدوثه في هذا المعتقل الرهيب، لم يدم هذا الاسترخاء طويلاً، ها هو صوت السلاسل قادم من بداية العنبر الذي يبلغ طوله خمسين متراً تقريباً، يتهادى معتقل

منهك القوى بين جنديين قد عاد للتو من غرفة التحقيق، صلصلة الرنين الممزوجة بشهقات الأنين تقطع القلوب.

قال الجندي بغضب: اخرس أيها القذر.

تحول الهواء العليل في صدري إلى بركان يغلي، شعرت أني أحترق من الداخل، إن بقيت على هذه الحال سأصاب حتماً بالأمراض وأفقد قواي النفسية، لكن ما حيلتي وأنا أسمع توجع المظلومين وأرى آلامهم؟ كيف لي أن أحافظ على هدوئي واتزاني في هذا المعترك الرهيب؟ فالحرب نفسية بالدرجة الأولى.

وبينما أنا غارق في أحزاني إذ سمعت صوتاً قبيحاً خشناً يناديني بقسوة وهو يركل الزنزانة: انهض.

انتفضت أتلفت ناحية الصوت وإذا بالجندي ينظر إلي شزراً، متجهم الوجه مقطب الجبين: هيا بنا، عندك تحقيق.

كانوا ثلاثة جنود عتاة ينظرون إلي بأعين تقطر حقداً، أخذت أتلمس نعالي البالي، يا إلهي.. لم يبق إلا القليل لموعد الفجر، ولن يسمحوا لي بالصلاة في غرفة التحقيق.

: هل بإمكاني البقاء لدقائق حتى يحين موعد الصلاة؟

قال الجندي وهو يشير بإصبعه متوعداً: دقيقة واحدة لتلبس قميصك العفن وتستعد لتقييدك وإلا فسآتيك بقوات الشغب.

انطلقت مني زفرة غاضبة مكتومة وأنا أستعيد ذكرياتي مع قوات الشغب، البخاخ الخانق المسيل للدموع، دخول ثمانية جنود مدججين بالخوذ والدروع لا يرى منهم سوى العيون من خلال غطاء بلاستيكي قوي، الإلقاء بي أرضاً والضرب والتقييد والتفتيش، في سلسلة طويلة من الإهانات والآلام، هذا يعني فوات صلاة الفجر.

: حسناً أنا جاهز.

يحرك الجندي السلسلة في يده وهو يطلق ضحكة مكتومة ساخرة ممزوجة بصوت السلسلة القبيح، يضيق القيد على معصمي ثم يلف خصري بالسلسلة الطويلة، يشدها بعنف حتى تصطك بعظام الحقو، ثم ينحدر نزولاً بالسلسلة إلى قدمي، يضيق عليهما بالقيود فيسري تيار من الألم في جسدي صعوداً ونزولاً، ثم يضع الجندي يده على رأسي يدفعها بقوة إلى الأسفل طوال فترة عملية الانتقال إلى غرفة التحقيق إمعاناً في الإذلال.

: أسرع يا ابن الـ.....، كانت قيود يدي ورجلي كفيلتين بأن تخدشا معصمي

وقدمي بدموية، فالقيود مصممة على أن تكون الجهة الداخلية الملامسة للجلد ذات أطراف حادة لتقوم بعملها على أكمل وجه!

وصلنا بوابة المعسكر وإذا بالحراس ينتظروننا وبأيديهم أجهزة اللاسلكي، التفت للبرج وقد أطل منه جندي بيده رشاش (M16)، اجتزنا البوابة لنصل إلى بوابة ثانية ثم ثالثة، قطعنا قرابة ٢٠٠ متر سيراً على الأقدام أرسف في أغلالي، وصلنا بوابة رابعة ثم خامسة، نقف عند كل بوابة لإتمام الإجراءات الأمنية، حتى وصلنا إلى عنبر التحقيقات حيث ينتظرنا الجنود المسؤولون عن حراسته، لا يوجد في غوانتانامو سوى الانضباط والدقة المتناهية في المواعيد والصرامة في التقيد بالقوانين، تأملت الغرف المتراصة يميناً وشمالاً، أهذه غرف التحقيق؟

فتح الجنود الباب وإذا بنفحة هواء باردة جداً تصطك بوجهي، أحسست حينها أني سأواجه وقتاً صعباً، دخلت غرفة التحقيق وإذا بمحقق أمريكي أحمر خيل إلي أنه يقطر دماً من فرط حمرته، كان ينظر إلي شزراً مع ابتسامة ماكرة متشفية، ثم قال للجنود غاضباً: ما بال هذا الإرهابي القذر يقف أمامي مرفوع الرأس باعتزاز؟

صرخ الجندي في وجهي: (look down)

نظرت إلى الأرض وأنا أبتسم، انحنى الجندي ليثبت قيود قدمي بالحلقة البارزة في منتصف أرضية الغرفة، قلت: لماذا تهين نفسك وتنزل عند رجلي، أنا حزين لك أيها الجندي البائس.

رفع رأسه خجلاً متمعر الوجه وهو يقول باهتياج: اخرس وإلا سأحطم أسنانك.

أجلسني الجنود بعنف على الكرسي الحديدي البارد، قيدوا قدمي بالأرض دون أن يفكوا القيود من يدي، تجولت بعيني في المكان، كاميرا تصوير مثبتة في الزاوية العلوية، كشاف ضوئي قوي موجه علي، ثم خلفي ذلك المكيف الذي ينشر في الغرفة هواء جليدياً يعض العظام ويجعل كل شيء في الغرفة يرجف، لم يكن على جسدي المنهك سوى قطعتين برتقاليتين خشنتين، وبينما أنا أقلب بصري في المكان اندهشت لوجود صور معلقة في أرجاء الغرفة، إحداها لامرأة محجبة مسنة تحتضن فتاة خِلْتُها ابنتَها، كانتا مذعورتين، وصورة أخرى لطفل أفغاني يبكي في رعب، وثالثة لمسجد مدمر، ورابعة لأشلاء مقطعة أمام بيوت مهدمة تتصاعد منها أدخنة القذائف من آثار القصف في أرض تشبه كثيراً أفغانستان، شعرت أن هذه الفتاة تستنجد بي، كنت أسمع البكاء المتهدج لهذا الطفل المذعور بصوت مجلجل يمزقني.. يسحقني، أنستني الصور ما أنا فيه من الألم، استغربت جداً من تعليقها في غرفة التحقيق، لكن استغرابي تلاشى

عندما فطنت للسبب، أرادوا إثارة روح الانتقام والثأر والغضب في نفسية المعتقل فيدلي بتصريحات تثبت عليه الاتهامات الموجهة ضده، أي قلب يحمله هؤلاء الظلمة حين يستغلون آلام الآخرين، إنهم يضعون بين عينيك جرائمهم ليقبضوا عليك متلبساً بجريمة مقاومتهم، إنهم القتلة الذين لا يخشون تبعات فظائعهم، إنهم لا يتخفون من القانون لأنهم يرون أنفسهم القانون، إنهم لا يتملصون من أعين المتفرجين عليهم وهم يرتكبون جرائمهم التي يعرضونها للعالم كله على الهواء مباشرة، لأنهم لا يرونهم شيئاً، فالسفاح لا يستتر من نملة تنظر إليه وهو يعذب ضحاياه.

قطع أفكاري صوت أجش وهو يؤكد على كل حرف: هل لازلت تنكر ضلوعك في أعمال إرهابية تهدد أمننا القومي؟

: وهل لازلت تنكر المبدأ الإنساني الذي يؤكد أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته؟

قال بغضب: لا ترد على سؤالي بسؤال.

: وهل لازلت تؤمن أننا لا نستحق أن نعطى حقوقنا كبشر؟

يقوم من كرسيه منفعلاً: أجبني على سؤالي أيها الحقير.

رفعت صوتي: وهل لازلتم تقتلون الأبرياء وتهدمون البيوت على رؤوس ساكنيها؟

أخذني من تلابيبي وهو يهزني بعنف: هل لازلت منكراً أنك تعمل مع المنظمات الإرهابية؟

: كيف تلقون علينا بتبعة الإثبات؟ المتهم بريء حتى تثبت إدانته، وما يؤكد بلا دليل يمكن نفيه بلا دليل!

ساد الصمت، توقف المحقق عن المشي في أنحاء الغرفة، حدق بي برهة ثم قال: يجب أن تعلم أيها المجرم الإرهابي أنك في قبضة العدالة.

: هل تسمي الاعتقال التعسفي والتعذيب عدالة؟

: دعني أوضح لك أمراً أيها الإرهابي المتطرف، إن دولتنا العظيمة لم تؤسس على الظلم، بل حضارة عريقة جمعت كل الأجناس والأعراق والأديان لتحقيق العدالة والحرية في كل الأرض.

: حقاً.. أنتم القديس سانتا كلوز، لكنه يوزع هدايا الموت بدلاً من هدايا العيد! أي عدالة تدعيها؟ عدالة هيروشيما وناجازاكي؟ أم ديمقراطية الدم وهدم البيوت على رؤوس ساكنيها؟ أم تاريخكم المشرف في فيتنام؟ حين كانت عقوبة أي أسرة فيتنامية

تأوي مقاتلاً هو حرق البيت بمن فيه من النساء والأطفال، كانت عقوبات فورية لا تحتاج إلى إذن كبار الضباط، أما أفغانستان والعراق وفلسطين فملفكم يقطر دماً.

: لا تنس يا فايز أنك كويتي، لقد حررناكم من صدام.

: قل لي ما الذي جعل سفيرة أمريكا في بغداد آبريل غلاسبي تقول لصدام شخصياً حين سألها عن موقف أمريكا تجاه المشاكل بين البلدين، قالت حرفياً كما هو ثابت عندما استجوبها الكونجرس: (أخبرت صدام أن وزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر طلب مني أن أقول للرئيس العراقي إن سياسة الولايات المتحدة الأمريكية لم تتغير منذ تولت شئون الشرق الأوسط بعد بريطانيا، إنها مشاكل داخلية لا علاقة لنا بها)، ففهم صدام الرسالة، ثم إمعاناً في توضيح الرسالة أخذت السفيرة الأمريكية في بغداد إجازة قبل الغزو بيومين، وكذلك فعل السفير البريطاني، بوضوح لقد أردتم أن يغزو صدام الكويت، وسهلتم له الطريق لاحتلال بلدي التي رفضت التواجد الأمريكي العسكري على أراضيها فكسرتم قوة العراق التي شكلت خطراً على إسرائيل وأقمتم قواعدكم العسكرية فى المنطقة وانتعش اقتصادكم بعد أن كان مهتزاً، باختصار أنتم لم تقدموا خدماتكم مجاناً، أنتم من ساهم في خطف الضحية وأنتم من أسرع لنجدتها.

قال: هل نسيت مساعدتنا للمسلمين في كوسوفا والبوسنة؟

: كمن يقتل بريئاً بسكين انتزعه من يد مجرم، ثم أخذ يتباهى بأنه منع ذلك المجرم من ارتكاب جريمته، جشعكم الاقتصادي جعلكم تحتكرون حتى القتل؟ وماذا عن جثث الأبرياء التي رأيتها بعيني في أفغانستان؟ وماذا عن ملايين الأبرياء الذين قتلتموهم في تاريخكم الطويل؟ قال له القاضي: لقد قتلت أسرة كاملة، فأجابه: لكني لم أقتل جارهم!

لو أن رجلاً لم يقتل في حياته إلا مرة واحدة لاستحق أن يدعى أبد الدهر (القاتل المجرم)، إن المبادئ لا تتجزأ ومعايير المثل لا تتفاوت والأخلاق تأبى أن تنتسب لمن لم يخلص لها في كل موقف، وأين كنتم زمن المذابح في سنة ١٩٩٢ و١٩٩٣ و١٩٩٤؟ لم تتدخلوا إلا حين حاصر البوسنويون مدينة بنيالوكا عاصمة صرب البوسنة، تدخلتم لتفرضوا اتفاقية دايتون التي سلبت الكثير من حقوق المسلمين مقابل السلام، ماذا عن هيروشيما وناجازاكي وفيتنام ومعتقلات اليابانيين في أمريكا والهنود الحمر والعبيد؟

الغريب أني حين ذكّرته بمأساة هيروشيما وناجازاكي أبدى أسفاً اختبأت وراءه ابتسامة فخر، إنه يرى فيما حدث مظهراً من مظاهر القوة والعظمة لا الجريمة والطغيان!

قال: نحن الآن في حقبة جديدة من السلام.

: أنتم كمقامر محترف يتنازل عن كل مبادئه ليفوز، فإن حالفه الحظ وكسب ما على الطاولة قال مظهراً الندم: (القمار شيء سيء، يجب أن نكف عنه ونكون رجالاً صالحين)، فإن خسر ألزم الجميع على إكمال اللعبة حتى نهاية اليوم، وما الحرية والعدالة والإنسانية إلا شعارات تستخدم عند الحاجة لا مبدأ أخلاقياً ملزماً كل الوقت، وما استمد الدولار بريقه إلا من وميض اللهب المنبعث من مدافعكم.

قال بفخر واعتزاز: نحن الولايات المتحدة الأمريكية.

: سيقال (سابقاً) كما نقول اليوم: (الاتحاد السوفيتي سابقاً)، هذا ما علمني التاريخ.

سحب كرسيه وجلس، كان مطأطئ الرأس وهو ينقر الطاولة بإصبعه نقراً خفيفاً، قال دون أن ينظر إلي: أنت مليء بالحقد والكره على بلدي.

: عجباً لكم، تستنكرون صراخ الضحية بينما تمجدون اليد التي تخنق وتذبح وتبطش!

رفع المحقق يده وضغط على الزر الأحمر المثبت على الجدار خلفه، وخلال ثوان طرق الباب.

: تفضل.

فتح الباب جندي أبيض طويل ممتلئ الجسم، كان بطنه مضغوطاً بحزام حاول جاهداً إخفاء الكرش دون جدوى: نعم سيدي.

: ضيق القيود على هذا المتمرد الذي لا يريد مساعدة نفسه.

ابتهج الجندي وكأنه ينتظر هذا الأمر بفارغ الصبر، ضغط على مزلاج القيد فسمعت طقطقة متتالية حتى توقفت عند اصطدامها بالعظام، شعرت بما يشبه صعقة الكهرباء، ابتسم المحقق بخبث وهو يقول: أريده أن يكون في القطب الشمالي!

اعتدل الجندي وهو يصوب نظره إلى المكيف المثبت خلفي أعلى الجدار: بكل سرور سيدي.

: أتمنى لك وقتاً سعيداً، ثم أغلق الباب وراءه.

سمعت قهقهاتهما من خارج الغرفة، مرت دقائق ليتحول الكرسي الحديدي الذي أجلس عليه والقيود التي تحيط معصمي وقدمي إلى قالب ثلج، بقيت لأكثر من أربع

ساعات تقريباً أرتعش من شدة البرد، فتح الباب وهو يبتسم مستهزئاً: أتمنى أن تكون قد استمتعت في رحلتك الأولى، هناك الكثير بانتظارك.

: ....

سحب المحقق الكرسي ثم جلس عليه واضعاً رجلاً على رجل وقد أمال بظهره إلى الخلف، ابتسم مهدداً: إذن أنت لا تريد الإجابة.

: قد أجبتك مئات المرات أني جئت لإغاثة المستضعفين، لكنك تريد الإجابة التي تحددها أنت، ماذا ستجني لو مارست علي التعذيب فأقر بالأكاذيب لأعود فأنكرها في المحكمة؟ لماذا كل هذا الظلم؟

: لقد ضُرِبْنا في عقر دارنا ولنا الحق في الدفاع عن أنفسنا، لن ننسى أعمدة الدخان المتصاعدة من حطام مركز التجارة العالمي.

لاحظت أن جميع المحققين يكتفون بذكر مركز التجارة ولا يتعرضون أبداً للهجوم على البنتاغون، لأنهم كانوا يعتبرون ضربة البنتاغون إهانة على عكس ما حدث في مركز التجارة.

: أنا ضد استهداف الأبرياء من كل جنس ودين، ولا علاقة لي ألبتة بأحداث سبتمبر.

: ما رأيك بها؟

: أخبرتك.

: هل هم إرهابيون؟

: الإرهابي هو كل من يقتل الأبرياء عمداً، سواء كان فرداً أو تنظيماً أو دولة.

: أسألك عنهم تحديداً.

: ليس لك الحق أن تجتزئ الحقيقة كما يحلو لك لتسألني عن إرهاب الجماعة وتشيح وجهك عن إرهاب الدولة.

: أكرر.. ما رأيك بجرائم الإرهابيين المسلمين؟

: أنا لست كالجبناء الذين يحكمون على الطرف الأضعف في القضية ليخرج المجرم الأقوى من المحكمة بصك البراءة، إما أن تطلب مني الحكم على الطرفين معاً أو أتوقف عن الحكم بانتظار محكمة عادلة معيارها العدل وليس القوة.

: لقد كانت أحداث سبتمبر الإجرامية نقطة تحول للتاريخ الإنساني المعاصر، لقد اتحد العالم على محاربة هؤلاء المجرمين.

: لكنكم تخدعون العالم بجعلكم أحداث سبتمبر هي بداية الفيلم، مشهد انهيار برجي التجارة وحطام البنتاغون كان في وسط الفيلم الطويل الذي يقطر دماً، هناك مشاهد كثيرة جداً حدثت قبل هذا، هناك ملايين عذبوا وقتلوا، ما حدث لكم لا يمثل قطرة من بحر الدماء الذي ارتكبتموه في حق البشرية.

: سكوتك عن جرائمهم يكشف لنا وجهك الحقيقي، ما رأيك بمن ارتكب جريمة سبتمبر؟

: أكرر.. أنا ضد قتل الأبرياء أياً كانوا، لكني أخجل من توبيخ من فقأ عينك وقد قتلت كل أفراد أسرته!

: وهل تشبهنا بكم يا أمة الإرهاب؟ نحن الغرب من يجب أن نمثل الحضارة الإنسانية، لأننا الأقوى والأذكى والأكثر رحمة بالإنسانية.

: أحقاً ما أسمع؟ لابد أنك تمزح، لقد نصب الأمريكان تمثال الحرية على جماجم وأشلاء ١٢٢ مليون من الهنود الحمر وملايين العبيد السود، وآلاف السفن الأوروبية والأمريكية المحملة بالجنود والمسلحين بالبنادق والمدافع تقاطرت على الساحل الغربي للقارة السوداء، حاملة الموت والخراب والخطف والاستعباد للأفارقة المسلمين لأن القانون الأمريكي لا يسمح باستعباد النصارى، وخلال خمسين عاماً تم خطف وترحيل من ١٥ إلى ٤٠ مليون أفريقي أغلبهم من المسلمين كعبيد إلى أوروبا وأمريكا، لقد أكدت المصادر التاريخية الأوروبية أن من بين كل عشرة أفارقة يتم أسرهم كانت السفن تحتفظ بواحد فقط ويلقى التسعة مصرعهم، إما بالرصاص في محاولة اصطيادهم أو جوعاً أو عطشاً أو مرضاً أو انتحاراً على ظهر السفينة التي يحشرون فيها كالمواشي، حيث يكدسون بالمئات في أقبية السفن في مساحة عدة مترات بلا تهوية أو مراحيض، إذن فما لا يقل عن مائة مليون أفريقي لقوا حتفهم في خمسين عاماً حسب هذه المصادر التي وصفت هذه الجرائم بـ (the African holocaust!).

وتذكر دائرة المعارف البريطانية في مادة (Slavery) العبودية أن الإنجليز كانوا يشعلون النيران فى الأحراش والأشجار المحيطة بأكواخ الأفارقة فيضطر هؤلاء المساكين إلى الخروج من مساكنهم هرباً من النيران، فتتلقفهم رصاصات القناصة.لقتل الرجال بينما يتم أسر الأطفال والنساء، ثم ترحيلهم إلى مراكز تجميع العبيد على طول

الساحل الغربي الإفريقي تمهيداً لنقلهم بالسفن عبر المحيط فى رحلة بلا عودة، كنتم تَسِمُون ظُهورَهم بالمِيسَم.

: لم يكن لقصد التعذيب، بل حتى لا يختلطوا ببعضهم فيعرف كل تاجر ممتلكاته، أتمنى لو كان عندنا بديلاً للوسم، لكنه شر لابد منه، إنه كعملية جراحية مؤلمة تحفظ بها الحياة.

: بل تحفظ بآلام العبيد مصالح الأسياد، أما سكان الأرض الأصليون من الهنود الحمر فقد تم استئصالهم، كانت الجوائز تعطى لكل من قتل أحداً من الهنود الحمر، يأتي بالجثة لأي قسم شرطة كي يقبض الثمن، ١٠٠ جنيه للرجل و٥٠ للمرأة والطفل، فلما كثرت الجثث وضاقت العربات بها اكتفوا بالرؤوس كدليل على هذا الصيد الثمين الذي يستحق به الجائزة، فضاقت العربات بالرؤوس فاكتفوا بفروة الرأس!

امتعر وجه المحقق في خجل.

: فروة رأس إنسان! يا لها من نفس موغلة في الإجرام، لقد تجاوزتم مرحلة القتل للانتصار في معركة إلى مرحلة المرض المازوخي في التلذذ بالقتل والتفنن في التشويه، لقد سممتم آبارهم وحرقتم محاصيلهم حتى طلب الهنود الحمر الهدنة فوافق الأمريكان ثم بعثَ القائد الجنرال جيفري أمهيرست في منتصف القرن الثامن عشر رسالة إلى أحد قواده يطلب منه إهداء الهنود الحمر بطانيات موبوءة بالجدري كعربون وفاء لهذه الهدنة، ثم أجابه القائد المحلي: لقد نفذنا أوامركم وأرسلنا البطانيات للهنود الحمر وبدأت تقوم بعملها ولكن يا ليتنا قتلناهم كالكلاب كما يفعل الإسبان بهم، فقتلوا بهذه الطريقة مئات الآلاف كما ذكر ذلك المؤرخ الأمريكي الشهير كروفرد.

قاطعني المحقق: اسمه جاك.. جاك كروفرد.

: وهل كانت هذه الجرائم تتم سراً؟ كلا.. لقد كانت الصحف الأمريكية وقتها تمتلئ بصور الشاحنات المكتظة بأطفال الهنود الحمر المتجهة إلى أسواق العبيد في سان فرانسيسكو لاستعبادهم وتسخيرهم في العمل في مناجم الذهب، واختطفتم بنات الهنود الحمر للتسلية الجنسية وتم اعتبار آبائهن عناصر شغب تهدد الأمن القومي بسبب رفضهم جرائم خطف أبنائهم وبناتهم، لقد كان جورج واشنطن نفسه يمتلك ٣٠٠ عبد وجارية في مزرعته، لقد ذكرت مصادر تاريخية أمريكية بأن أجدادكم كانوا يتباهون بملابسهم وأحذيتهم المصنوعة من جلود الهنود الحمر، ويزينون قبعاتهم بفروج النساء ويستعملون الأعضاء الذكرية كأكياس للتبغ!

أطلق ضحكة ساخرة وهو يقول: كانت ماركة عالمية في زمنهم.

: أنت تضحك لأن معاناة هؤلاء البؤساء لا تعني لكم شيئاً.

: يبدو أنك تقرأ في التاريخ كثيراً.

: تاريخ دموي بشع لا يشرفكم، والأشنع أن هذه الجرائم لم ترتكب خارج نطاق القانون، بل كانت منظمة تحت حماية القانون نفسه، حيث صدر قانون في برلمان ولاية كاليفورنيا منتصف القرن التاسع عشر يجيز خطف الهنود الحمر واستعبادهم، لقد ضاق ذرعاً حاكم الولاية (بيزنت) ببقية الهنود الحمر فقال بأن الرجل الأبيض الذي يعتبر الوقت من ذهب والذي يعمل طوال النهار لا يستطيع أن يسهر طوال الليل لحراسة أملاكه، وليس أمامه خيار آخر سوى شن حرب إبادة، إن حرباً قد بدأت فعلاً ويجب الاستمرار فيها حتى ينقرض الجنس الهندي تماماً!

قال المحقق: اسمه بيتر بيزنت، أنت لا تحفظ الأسماء جيداً.

: لكني أحفظ الجرائم جيداً!! أحفظ ما قاله فرانسيس ياركين أشهر مؤرخ أمريكي في عصره أن الهندي نفسه في الواقع هو المسؤول عن الدمار الذي لحق به لأنه لم يتعلم من الحضارة ولابد له من الزوال!

اختفت ابتسامته المتهكمة تماماً لتتحول ملامحه إلى حجرية خالية من المشاعر، قال: نحن آسفون لذلك، ولكن لن يحمل الأحفاد تبعة هفوات الأجداد.

: لكن الكولونيل جورج روجرز كلارك لا يزال يعتبر حتى الآن رمزاً وطنياً أمريكياً وبطلاً تاريخياً من ملهمي القوات الخاصة الأمريكية مع أنه أقام حفلة لسلخ فروة رأس ١٦ هندي وطلب من الجزارين أن يتمهلوا في الأداء وأن يعطوا كل تفصيل تشريحي حقه لتستمتع الحامية بالمشاهد، ولا يزال وليام هاريسون الرئيس الأمريكي في القرن التاسع عشر مبجلاً وهو الذي كان يستمتع بالتمثيل بالضحايا، لقد كان الرئيس أندريه جاكسون الذي تحمل ورقة العشرين دولار صورته بكل فخر واعتزاز من عشاق التمثيل بالجثث، وقد رعى بنفسه حفلة التمثيل بالجثث لثمانمائة هندي أحمر، يعتبر القائد الأمريكي جون شفنغنتون من أعظم أبطال التاريخ الأمريكي، وهناك الآن أكثر من مدينة وموقع تاريخي تخليداً لذكراه ولشعاره الشهير المتوحش: (اقتلوا الهنود الحمر واسلخوا جلودهم ولا تتركوا صغيراً أو كبيراً، فالقمل لا يفقس إلا من بيوض القمل)، السفاح لويس ويتزل الذي كان يفتخر بأن غنيمته من فرو رؤوس الهنود لا تقل عن أربعين فروة في الطلعة الواحدة يعتبر من أبطال التاريخ الأمريكي وما يعرف بعمالقة الثغور، افتخار الأحفاد بجرائم الأجداد يحملهم كفلاً منها!

قال وهو يحوم حولي: أضرار هامشية لنشر الحضارة، إنه مجرد ماضٍ واندثر، لا تنبش القبور، دعهم ينامون بسلام!

: أشكرك حين وضحت لي معنى السلام عندكم، هو أن تسلخ فروة رأس المظلوم ويدبغ جلده كوعاء للتبغ، ثم يصمت إلى الأبد، لقد كان الهنود الحمر سذجاً بسطاء عندما استقبلوا القادمين الجدد من أوروبا على أنهم ضيوف، فأكرموهم وأحسنوا إليهم، وعندما بعث القس الإسباني كاساس وكريستوفر كولومبس رسائلهم إلى ملوك إسبانيا ذكروا أن الهنود الحمر بسطاء متواضعون طيبون جداً، لقد وصلت الرسالة إلى الضفة الأخرى من المحيط الأطلسي وفهمت بوضوح، هذا يعني أن بإمكانهم احتلال أرضهم ونهب ثرواتهم دون أي عراقيل حقيقية، هذا ما أتمنى من أمتي أن تدركه.

: أمتك!! الكثير ممن تسميهم أبناء أمتك يقفون معنا ضد هؤلاء الذين يستخدمون العنف للوصول إلى أهدافهم السياسية، لا يُعْقَل أن يكونوا كلهم على الباطل وأنت على الحق، راجع نفسك!

: إنها متلازمة ستوكهولم حين يتعاطف الضحية مع عدوه ويحبه ويدافع عنه ولا يرغب في الخلاص منه، بينما يهاجِم من يدافع عنه، إنه يتعاطف مع المجرم الذي يقمعه لأنه يرى ذلك التعاطف يحافظ على حياته من خطر معارضة المجرم ومقاومته.

قام من على كرسيه وأخذ يتجول بهدوء في الغرفة، واضعاً يديه خلف ظهره، حاولت أن أعتدل في جلستي بصعوبة فالسلاسل قد اشتدت قبضتها حول معصمي وساقي وخصري.

قال: لا يوجد شيء اسمه احتلال، إنه استعمار، نريد أن نساعد دولكم المتخلفة لتكونوا ديمقراطيين تحترمون حقوق الإنسان وتتعلمون منا التطور!

فرفعت يدي المقيدتين قائلاً: حقوق الإنسان المقيد سبع سنوات دون محاكمة، كما قتلتم ملايين الهنود الحمر لتعلموهم الديمقراطية ودمرتم أفغانستان والعراق لتعلموهم التطور! أنتم كقوي غني احتل كوخاً لفقير، فطرده منه وأقام مكانه عمارة شاهقة، وجعل صاحب الكوخ خادماً في العمارة، ثم ادعى أن حاله في العمارة أفضل من كوخه البائس! أكون سيداً في كوخي ولا أكون خادماً في عمارتك.

قال وهو يتصنع الحزن: متى نعيش في سلام؟

ضحكت ساخراً: أنت تستهبل أليس كذلك؟

: بل أعني ما أقول.

: إذن أنت مجنون.

: لماذا؟

: لأنك أنت من يجب أن تجيب لا أن تسأل، لقد وصل بنا الأمر أن نفرح لأن يومنا أهون من أمسنا فلم يقتل منا إلا خمسون في أفغانستان وأربعون في العراق وعشرة في فلسطين، ثم تسألني دون خجل: متى نعيش في سلام؟ قرأت ما كتبه (ول ديورانت) في كتابه (قصة الحضارة) أن سنوات الحرب في التاريخ البشري ثلاثة آلاف وأربعمائة وواحد وعشرين عاماً بينما السلام مائتان وثمانية وستون عاماً، لقد أدرك الإسلام أننا نعيش في غابة متوحشة لا تعرف معنى الرحمة، وأن الذي يحكمها هو منطق القوة لا قوة المنطق وشرطي الغابة هو الضبع، لذلك أمرنا بأن نأخذ للأمر أهبته ولا نكون كحيوان الكوكا (Quokka) الأليف المبتسم الذي يتودد للأفاعي والثعالب بسذاجة فيلتهموه بسهولة.

: أنت تحمل فكراً سوداوياً إرهابياً إن كنت ترى العالم هكذا.

: العجيب أن من صنع هذا الواقع البئيس يتهم بالإرهاب من يصفه، لن أسرد لك ما قاله المؤرخون المسلمون، لكنه المؤرخ القس الصليبي فوشيه الشارتري هو من سيحكي لك قصة المذبحة في معرة النعمان أثناء الحرب الصليبية الأولى في بداية الألفية الأولى الميلادية حين قتلوا ٢٠٠٠٠ مسلم ثم أكلوا جثثهم وشووا أطفال معرة النعمان حين أصابهم الجوع، حين تتكلم عن الوحشية والإرهاب يجب أن تطأطئ رأسك إلى الأرض، لأن تاريخكم الدموي لا يمكن للبشرية أن تنساه!

كنت أعي تماماً منذ البداية أنه يريدني أن أفصح له عما في نفسي ليعرف تصوري عن الولايات المتحدة، كما أدرك أني سأدفع ثمن ذلك غالياً، لكني أردته أن يسمع ذلك مني، إن شعور الذل والخوف الذي يمنع المظلوم من أن يقول للجلاد: (أنت ظالم) أشد ألف مرة من تبعات هذه الكلمة، شعرت أني صرت فوهة بركانية تقذف بحممها في كل اتجاه، فتح الباب بغتة بعد أن ارتفع صوتي الغاضب دون أن أشعر، وإذا بجندي أسود مفتول العضلات واقف بجسده القوي كالصخرة العتيدة لا يتحرك منه شيء، نظرت متأملاً سواده اللامع بقطرات العرق، وشعر رأسه الجعد الذي لا أميز بدايته من نهايته، وأنفه الواسع الضخم الذي يحتل جزءاً كبيراً من وجهه الحالك، ألقى نظرة خاطفة إلى هذا المعتقل الهزيل الجاثم على الكرسي الحديدي مثقلاً بقيوده: آسف سيدي على الدخول دون استئذان لكني سمعت صراخه فظننته يحتاج إلى تأديب، ثم نظر إلي بعينين غاضبتين وهو يكلم المحقق: أنا أعرف كيف أؤدب أمثال هؤلاء!

كان ينظر إلي دون أن يطرف له جفن، أما أنا فكنت أتأمل في ملامح وجهه العبوس ولونه الأسود البراق وتقاسيم جسده المفتول، كنت أحدق فيه أريد أن أكمل قراءة هذا الكتاب الضخم المفتوح أمامي، كنت أقرأ فيه تاريخاً قديماً لجد خطف من أفريقيا أدافع عن حريته بينما يشارك حفيده في استعبادي!

العزلة:

لم أصدق أني خرجت من المعسكر السادس، انتقالي من السادس إلى المعسكر الثالث كان بمثابة خبر إطلاق سراحي، فرحة لا توصف حين نجوت من الزنزانة الانفرادية الخانقة بحيطانها المصمتة إلى عنبر مفتوح، أستمتع بالهواء النقي بعد سنين من الحرمان، بدلاً من التكييف البارد الذي يتغلغل في العظام، شعرت أني ولدت من جديد، وبمجرد وصولي الزنزانة انهال علي السلام والترحيب من الإخوة في العنبر، لم يكن الجو أكثر دفئاً من مشاعرهم الأخوية، جاءني الجندي بالسلاسل يعرض علي الخروج إلى قفص المشي، وبعد إجراءات التقييد خرجت من الزنزانة أتأمل الزنازين الفارغة يمنة ويسرة، اقتربت من الإخوة فأنستني ابتسامتهم الجميلة آلام السنين في المعسكر السادس، أنستني الجوع والمرض والبرد، كانوا يشيرون إلي بالتحية، تداخلت تعليقاتهم مع بعضها وأنا أمشي بينهم بالسلاسل أتوسط جنديين وثالث أمامنا، شعور ممتع وكأني أتجول في منتجع سياحي لا في غوانتانامو، أستمتع بالهواء العليل ورؤية السماء الزرقاء دون القضبان الكئيبة التي تحول بيننا وبين هذا الصنع الرباني الخلاب، شعرت كأن رأسي كان عبارة عن ماكينة تشتغل لسنين دون هوادة ثم توقفت فجأة عن الحركة، راحة نفسية وعقلية وبدنية تجتاح كياني، لكن هذه الراحة لم تستمر طويلاً.

كانت الإدارة تسمي عنبرنا: العنبر القذر (Dirty block)، لأنهم يعتبروننا رؤوس الأشرار والقادة الذين يبثون روح التمرد في المعتقل. كان هذا الاتهام عارياً من الصحة تماماً، فهناك من كان السبب الرئيس لعزلهم وهو نشاطهم الدعوي الذي لا علاقة له بالمشاكل مع الجنود مثل حالتي، وآخرون لهم الحق في الدفاع عن أنفسهم أمام التعذيب النفسي الممنهج الذي تمارسه عليهم إدارة المعتقل.

كانت الوفود من الكونجرس ووزارة الدفاع والخارجية ووفود من الدول الأوروبية تتردد على المعسكر الرابع والسادس الذي تحول لاحقاً إلى جماعي، أما عنبرنا فقد عزلنا تماماً عن الوفود والمعتقلين الآخرين لأكثر من أربع سنوات، أما الأدميرال فقد كان يزورنا بشكل دوري لأنه كان يتعامل مع عنبرنا بطريقة مختلفة عن العنابر الأخرى، استمر في زيارته اليومية لعدة أسابيع، كان طويلاً نحيلاً، تحسبه من النوع المسالم فَيُخَيِّب الزمنُ ظنَّك، كانت أوامره مجحفة في حقنا، عددنا القليل ساعد الإدارة في تنفيذ خطتها علينا، الإزعاج المستمر والإهانات المتواصلة، أما المرضى فلا يعالجون، أضرب بعضهم عن الطعام خمسة عشر يوماً حتى أصبح أحدهم يتبرّز دماً مقدار كوبين يومياً، في إحدى المرات كنت في قفص المشي فجاء الأدميرال للزيارة كالعادة، كنت أتجول في القفص فلما اقترب مني خاف ورجع من حيث أتى، ظن أني سأسمعه ما

يسوؤه، لكني في الحقيقة تجاهلته تماماً، وعندما رجع رشه أحد المعتقلين بماء الخلاء وهو يصيح عليه: طلبنا منكم بكل احترام علاجنا وتحسين معاملتنا دون أن نجد آذاناً صاغية، يبدو أنكم لا تسمعون إلا بماء المرحاض! عوقب بمصادرة كل أغراضه لأشهر طويلة يعاني فيها آلام النوم على الصفيح الحديدي.

نقلونا إلى عنبر ألفا ـ المعسكر الأول، حدثت مشاكل مع الإدارة وهددنا العقيد بتشديد العقوبات فأضربنا خمسة أيام فخشيت الإدارة من التصعيد فحلت المشكلة، أو لعلهم تصنعوا المشكلة ليدخل المعتقلون في دوامة جديدة من المشاكل وبذل مجهود كبير لدفعها حتى يُنْهِكوا المعتقلين بذلك.

قدم أحد المعتقلين إلى عنبرنا المعزول في غضون هذه المشاكل من المعسكر السادس على كرسي متحرك، ضربته قوات الشغب فأصيب في ظهره، رفضت الإدارة والأطباء علاجه مما أدى إلى تدهور حالته حتى أصيب بشلل رباعي، لا يشعر تماماً برجليه من منتصف الفخذ حتى أطراف قدمه، استمر سنين في إضرابه عن الطعام مطالباً بعلاجه دون استجابة من إدارة المعتقل.

كان معنا معتقل مصري مبتور الرجل، مرض مرضاً خطيراً لا يستطيع معه المشي والقيام مع صداع شديد وغثيان وقيء مستمر، استمر المرض معه لمدة شهر دون أن تقبل الإدارة علاجه، قررنا عمل شيء لأخينا الذي لم نعد نتحمل رؤيته يعاني لفترة طويلة دون عناية طبية، أخرجني الجنود إلى قفص المشي مع ثمانية من إخواني المعتقلين، سمحوا لنا حينها بالاجتماع في القفص، فاعتصمنا رافضين العودة إلى الزنازين مطالبين بعلاج أخينا المريض، كانت مشكلة كبيرة للإدارة لأنهم سيضطرون لإحضار قوات الشغب وما يتبعها من إجراءات مرهقة لهم كارتداء الملابس الخاصة بقوات الشغب واستدعاء المصور والممرض، وهذا يستغرق ساعات من الجهد والمواجهات لإجبارنا على الرجوع، حاولوا مفاوضتنا بأن نرجع ثم يحلون المشكلة، رفضنا اقتراحهم لأنهم أخلفوا وعوداً سابقة، بقينا اليوم الأول كاملاً في قفص المشي، كان الجو بارداً، نمنا في القفص تهب علينا الريح من كل اتجاه، تلبّدت السماء بالغيوم واشتد الجو برودة، دعونا الله أن ينصرنا عليهم، كنا نرتجف من البرد، حاولوا إقناعنا بالرجوع فرفضنا، جاء مسؤولون كبار يتفاوضون ورفضنا رفضاً قاطعاً حتى يتم علاج الأخ، وبعد محاولات عديدة قبلوا نقل الأخ للعيادة، فحصوه وأعطوه مسكنات لكنه ظل يعاني المرض لأسابيع إضافية حتى من الله عليه بالشفاء.

أتونا بالجرائد لأول مرة في سنة ٢٠٠٨، كانوا يأتون بجريدة الأهرام المصرية والشرق الأوسط و(USA today) كل شهر مرة واحدة، لكنها صادرة منذ شهرين، وبعد

سنين أصبحت تأتينا مرتين أسبوعياً، لكن معظم الأخبار السياسية مشطوبة عدا الفن والرياضة، كنا نبحث في ثنايا الأخبار الفنية والرياضية عن أخبار مهمة تسللت إليها، وجدنا في غضون خبر عن مباراة أنها أقيمت خلال أحداث الفلوجة في سنة ٢٠٠٤، لم نكن نعرف شيئاً عن هذه الأحداث إلا بعد قراءتنا للخبر، ومرة أخرى قرأنا خبراً عن فنانة أفغانية تعرضت للتهديد في ظل التصاعد المتنامي لنفوذ طالبان التي أصبحت تسيطر على أكثر من ٧٠٪ من الأراضي الأفغانية، وقرأنا مرة في (USA today) عن بعض الأخبار التي غفل المراقب عن شطبها، منها أن (الحزب الإسلامي) في العراق يرفض المقاومة المسلحة للمحتل عكس الجماعات السنية الأخرى، وأن الإدارة الأمريكية تعتبره أفضل من غيره في إمكانية التعاون معه لتحديد مستقبل العراق، كما ذكرت أن قتلى الجيش الأمريكي في العراق وأفغانستان في تزايد مخيف.

كان لدينا شغف مجنون في قراءة كل شيء، كنا نتأمل حتى أرقام الصفحات ونقلب أبصارنا في الصور لعل في ثناياها سر من الأسرار قد تفتح لنا ثقباً يطل بنا على العالم الخارجي الذي حرمنا منه سنين طويلة في هذه الجزيرة المعزولة التي اقتطعت من هذه الحياة ووضعت في هذا الكوكب المهجور المسمى (غوانتانامو).

كانت أجزاء كبيرة من الجريدة مشطوبة بالخط الأسود الذي استخدموه لعزلنا عن الأحداث المهمة التي تُشْعِرُنا بأن الحياة لا تزال صاخبة خارج ذلك الصندوق المظلم الذي حبسنا فيه، كان الخط الأسود يثير شهيتنا لمعرفة ما يخبئه وراءه، بذلنا محاولات عدة لإزاحة هذه الخطوط السود الحقيرة التي تحول بيننا وبين بصيص النور، كان الوقت المسموح به للقراءة هو خلال ساعة التشمس في قفص المشي، كنا نستغل انشغال الحارس فنرفع ورقة الجريدة لتكون بين أعيننا وأشعة الشمس التي قد تساعدنا في فك الألغاز، كم كانت فرحتنا كبيرة ونحن نرى الأخ ينتشي فرحاً وهو يصيح بنا: يا إخوة.. استطعت أن أقرأ بعض الكلمات، تهللت وجوهنا ونحن نخاطبه ونسأله ونرشده ونحذره بجمل متداخلة في آن واحد: ماهي الكلمات؟ أكمل؟ حاول أكثر، اخفض صوتك كي لا يسمعك الجندي، تكلم، أنا لا أسمع!

كانت لحظات صعبة من الترقب وهو يمعن في إذلالنا ساخراً: هل تريدونني أن أقرأ؟

صرخ الجميع: كف عنا مزاحك الثقيل واقرأ غير مشكور!

حاول أن يقلب الورقة تحت ضوء الشمس لتتسنى له القراءة: غير واضح، نعم نعم.. مكتوب: لا زالت المفاوضات مستمرة، يناديه أحدهم: أكمل يا رجل، أحرقت أعصابنا.

: لا أستطيع.. الكلام بعدها غير مفهوم إطلاقاً.

غرقنا في بحر من التحليلات السياسية، ما هي هذه المفاوضات؟ ومن هم أطرافها؟ هل هي في أفغانستان أم العراق أم فلسطين أم عن غوانتانامو؟ والأخير هو المرجح طبعاً في تخميننا المريض، حاول استخدام القليل من الماء لتخفيف تركيز اللون الأسود فلم يجد نفعاً، اجتهد بعض الإخوة وأخذ يحك الصفحة في الأرض حكاً رقيقاً، أخذ يصيح مبتهجاً: الله أكبر يا إخوة.. استطعت إزالة الخط الأسود، انطلقت أساريرنا فرحاً: اقرأ بسرعة قبل انتهاء الوقت.

: لا أستطيع.

: لماذا؟

: لقد تقطعت الورقة بسبب الحك!

العطر:

كانت رجلي تقيد عند لقاء المحامي في حلقة مثبتة في الأرض، وأبقى على هذه الحال من الساعة السابعة صباحاً حتى الخامسة مساءً، لا أستطيع الحراك سوى نصف ساعة إلى ساعة أحياناً، ينقلونني إلى زنزانة انفرادية صغيرة في داخل غرفة الاجتماع فيها مرحاض لقضاء الحاجة والوضوء من المغسلة لأصلي صلاة هي أروع وأجمل من الدنيا وما فيها، تعيد لي نشاطي وتمنحني قوة تدفعني لمواصلة الطريق.

وفي إحدى أيام شهر أبريل سنة ٢٠٠٩ سمحوا للمحامي أن يأتي بمكسرات من أهلي، ولأول مرة سمحوا له بإحضار عطر صنعته أمي لي، لكنهم منعوني من أخذه معي إلى الزنزانة، كان عطراً ملائكياً حلق بي في الملكوت، أعشق العطور فكيف بعطر صنعته يد أمي؟ لم أشم عطراً منذ ثماني سنوات، فقمت بعمل جنوني، أفرغت العطر كله على ملابسي، وفي الطريق إلى الزنزانة يتعجب الجنود من جمال العطر، وحين وصلت بداية العنبر وجد أخ سعودي في آخر زنزانة رائحة العطر وهو على بعد خمسين متراً تقريباً، أعجب الإخوة بالرائحة، كان أحد الجنود المتعاطفين متواجداً في العنبر، طلبت منه أن يعطي فانيلتي لأحد الإخوة ويبادلني بفانيلته، فرح بها جداً، كان معنا معتقل تعطلت حاسة الشم عنده بسبب البخاخات التي تستخدمها قوات الشغب ومواد التنظيف الكيماوية المركزة التي كانوا يخنقوننا بها، سألني أحدهم: ما اسم العطر؟

قلت مازحاً: الحرية.

فقال لي الأخ الذي فقد حاسة الشم: هذا يعني أني لن أشم رائحة الحرية أبداً، من الأفضل تغيير اسمه!

تونس الخضراء:

نظرت إليه مسنداً ظهره على شباك قفص المشي متأملاً تلك السحابة المتجهة إلى المحيط الأطلسي، ثم تلاشت قبل غيابها خلف الأفق لتتلاشى معها أحلامه وآماله، كان قد عاد لتوه من غرفة المقابلات حيث عرض عليه العقيد قرار الحكومة الأمريكية بإطلاق سراحه إلى دولة أوروبية كلاجئ، لكنه صدم الضابط برفضه!

: أريد أن أرجع إلى وطني!

كانت نظرات الضابط تتحدث..

: ماذا؟؟ إلى تونس؟ لا أكاد أصدق! وطنك الفقير؟ وطنك الغارق في التخلف؟

: اشتقت إليه، إلى كل ذرة منه، إلى نسماته المعطرة بأريج البحر وتلاله المكسوة بالبساط الأخضر، اشتقت إلى المارة في الحارات القديمة، لقد مللت من التشرد في شوارع الغرب كلاجئ يحمل على ظهره حقيبته وتركة ثقيلة من ذكريات متخمة باللوعة والشجن.

كنت أراه منطوياً على نفس تائهة في زحمة الأفكار، يشتاق لوطن تنكر له، رفضه، قمعه، سلبه حقه الديني والسياسي ليهبه للشواذ والملحدين، فالتطرف ماركة حصرية بالمتدينين!!

نصحته مشفقاً: أنت هنا في كرب عظيم وبلاء شديد، الاستفزاز اليومي والإهانات المتواصلة والحرمان من العلاج، وقد أتيحت لك فرصة الخلاص من هذا المعتقل الرهيب، فكيف ترفض الخروج وتعرض نفسك لفتنة في دينك؟

قال وهو يصوب نظره في عيني: لأني أخشى على نفسي من فتنة أكبر يا فايز، لقد عشت في أوروبا سنين عدداً، قضيت فيها زهرة شبابي التي أذبلها بهرج إيطاليا الفاتن، لا أريد أن أعيش الضياع مرة أخرى.

ثم قرأ وهو يشيح بصره عني: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾.

: نعم ولكن العقيد أخبرك أنك لن تعود إلى بلدك، إما أوروبا أو البقاء.

ابتسم دون أن يجيب، كان صمته الطويل ينبئ عن بحار من المشاعر والعواطف يخفيها وراءه، كان منعزلاً عن الجنود تماماً، كانوا يستفزونه ويهينونه فيقابل أذاهم بابتسامة صامتة كأنها تقول: أنا في واد وأنتم في واد آخر، ثم يعود في هدوء إلى قرآنه، لقد عرضوا عليه الخروج إلى أوروبا منذ ٢٠١٠ وهو يأبى عليهم، وحتى لحظة كتابتي هذه الكلمات في سنة ٢٠١٩ وهو لا يزال يقبع في زنزانته الانفرادية!

لقد رفض سحر أوروبا واستبدلها بزنزانة يعيش في جوفها ذكريات وطن أحبه، تفصله حيطانها الأربعة عن واقع عبوس لا يعرف معنى الابتسامة، لقد رفض إغراء أوروبا التي يلهث خلف سرابها شباب وطنه الهارب من ذلك الوطن ليغرق في البحر الفاصل بين شقاء خلفه وراءه وأمل أمامه لم يصل إليه، أمل طارده طويلاً فحال بينهما الموج فكان من المغرقين.

كان هناك معتقل تونسي آخر بجانبي، فأبديت له حزني لحال هذا الأخ الذي رفض الحرية في أوروبا لعشقه وطنه.

: مخيف أن تقرر البقاء في هذا الذل والعذاب من أجل أمل لا تدري أتبلغه أم يبلغك دونه الأجل، والله إنه ليذكرني بقصة (مغيث) وهو يطوف خلف (بريرة) يبكي ودموعه تسيل على لحيته حباً وشوقاً فلا يزيدها إلا بعداً وصدوداً، فقال النبي ﷺ للعباس: **«يا عباس ألا تعجب من شدة حب مغيث بريرة ومن شدة بغض بريرة مغيثاً»**؟

أخذ يقطع القفص ذهاباً وإياباً دون أن ينبس ببنت شفة، ثم قطع صمته بأنشودة تغنى بها بصوت رديء وأداء يحمل ألف معنى!!

: ألا خَلِّدي يا دمانا الغوالي

جهادَ الوطن

لتحرير خضرائنا لا نبالي

بأقصى المحن

أعجبتني حلاوة الكلمات رغم بساطتها: لمن هذه الأنشودة؟؟

أجابني بضحكات ساخرة، ثم عاد مرة أخرى للنشيد:

بأقصى المحن

جهاد تحلى بنصر مبين

على الغاصبين على الحاسدين

طغاة الزمن

نخوض اللهيب بروح الحبيب

زعيم الوطن!!

سألته مصدوماً: ما هذا؟؟

: إنه النشيد الوطني لبلدي الحبيب الذي سرقه مني (الحبيب)!!

هذا هو الوطن الذي يريد أخونا العودة إليه يا فايز، وطن لا ديني يسرق المصطلحات الدينية في نشيده الوطني ليحول عبوديتنا لله إلى عبوديتنا لحاكم نخوض بروحه لهيب المعارك الخاسرة!! يستخدم الإسلام لضرب الإسلام، أقدر أشواقه الصادقة إليه، وأشفق على أحلامه التي ستتبدد بين القضبان، لكني لا أقبل الحب من طرف واحد، من بادلني حباً بحب صببت روحي فوق قدميه، ومن صد عني اقتلعت جذور حبه من قلبي غير مكترث، لن أسمح لوطني مهما بلغ حبي له أن يهين كرامتي ويسلب حريتي، ما الوطن إلا العزة والكرامة، هكذا أفهم الوطن، لا معنى له عندي غير هذا.

التجويع:

اتخذت الإدارة الأمريكية سياسة التجويع على المعتقلين، ومع طول الأمد عضهم الجوع بنابه ولاحت عظام تراقيهم، حاول بعضهم التحايل على قانون التجويع، كان الجنود يأتون بالطعام القليل في الصحون الورقية يوزعونها على المعتقلين على حسب ترتيب الزنازين، وفي إحدى المرات وزعوا ما بأيديهم على المعتقلين حتى انتهوا عند أحد الإخوة من الرياض، أعطوه وجبته ليرجعوا إلى بداية العنبر فيأتون ببقية الوجبات، أخذ صحنه ثم التهمه بسرعة لقلة الطعام فيه، وقطع الصحن الورقي ثم تخلص منه في المرحاض، جاء الجنود بالطعام إلى من بعده، فقال للجندي: أين طعامي؟

لقد نجح في محاولات سابقة بأخذ وجبة إضافية، لكن الجندي يبدو منتبهاً هذا اليوم، قال: أعطيتك.

: أين هو الصحن إذن؟ أريد طعامي أو اذهب وأحضر المسئول.

حاول مراوغته فلم يصرح بعدم أخذه الطعام حتى لا يقع في الكذب، وقف الجندي وهو يبتسم ابتسامة ساخرة: إذن أنت تريد الطعام؟

: بالطبع.

: إذن من الذي أتى بحبة الرز المتعلقة بلحيتك؟

امْتُقِع لونه خجلاً وهو يتحسس لحيته ليستخرج حبة الرز التعيسة التي فضحته، صاح بالجندي معتقل تونسي في زنزانة قريبة: وهل ستدفع من جيبك حين تعطيه وجبة إضافية؟

: كل واحد منكم له صحن واحد.. واحد فقط.

: وهل هذا المقدار يكفيك أيها البطن المترهل؟ ما بال كرشك المتكور متقدماً كأنه يتحدى للمبارزة؟

قال الجندي السمين بغرور: لا تقارن، أنتم مجرد معتقلين لا حقوق لكم في هذا المكان إلا ما نقرر نحن أنه لكم.

فقال التونسي غاضباً لأخيه السعودي بالعربية: سترى كيف أستغفله!

وبعد دقائق من توزيع الطعام وصلوا إلى المعتقل التونسي، كان الطعام عبارة عن قطعة صغيرة من الخبز وصحن ورقي فيه حفنة بمقدار نصف الكف من الرز غير المطهو جيداً مع كمية طفيفة من المرق، وكوب من العصير الذي غالباً ما يتخلص منه المعتقلون بسبب الكمية الكبيرة من الأصباغ فيه، أخذ التونسي يتكلم مع الجندي السمين عن مشاكل المعسكر والظلم الواقع على المعتقلين، قال الجندي بتجاهل: لا شأن لي بذلك، أنا مجرد جندي أنفذ القانون.

أعطاه الخبزة ثم واصل التونسي كلامه معه ليفقده تركيزه وسط طوفان من الأسئلة والمواضيع، ثم أعطاه صحن الطعام وبقية المعتقلين ينادون الجندي من كل حدب وصوب لتشتيته ليساعدوا التونسي على إتمام المهمة بنجاح وإخفاء ما أخذه منه تحت البطانية، فلما أراد إغلاق النافذة صاح به المعتقل: أين كوب العصير؟

فأعطاه الكوب وأراد إغلاق النافذة فصاح به ثانية: وأين الخبز؟ فأعطاه الخبز، فلما أراد إغلاق النافذة صاح به في الثالثة: أنت مجنون؟ أعطيتني خبزاً وعصيراً فأين الصحن؟ هل تريدني أن آكل الكوب؟

فأعطاه صحناً وهو يتلفت يمنة ويسرة مُدْرِكاً أن هناك خطأ ما لكنه لا يدري ما هو، أغلق النافذة في هدوء، صاح التونسي بأخيه السعودي: هكذا فافعل بهؤلاء الأوغاد الذين يحرموننا اللقمة، قلت مازحاً: لعله يحتاج منك دورة في التنمية البشرية بعنوان «كيف تشبع في غوانتانامو»، قال السعودي: كلا لن أكررها مرة أخرى وأحرج نفسي أمام هؤلاء المجرمين، قال التونسي: هذا حقك الذي سلبوه منك، اعتقلوك غدراً وجوعوك ظلماً وسلبوا منك حقك في المعاملة الإنسانية والمحاكمة العادلة، صحن إضافي ليس كثيراً مقابل ما سلبوه منك.

الانصهار:

في ظل هذه الظروف الصعبة كانت نفسيات الأسرى متباينة، ما بين متفائل ومتشائم، هناك من انشغل بالذكر وقراءة القرآن والعبادة والتمارين الرياضية في الزنزانة

الضيقة، وقلة استسلموا للحزن، منهم من كان أشد ما يعانيه الجوع وآخر الإزعاج وآخر الإهانة وآخر الضرب وآخر النساء، كان فيهم العابد الزاهد والمتعثر المتمرغ، فيهم الشجاع المقدام وفيهم دون ذلك، هم خليط من المجاهدين والإغاثيين والدعاة وآخرين هاجروا من أوربا واختاروا العيش في بلد فقير كأفغانستان هرباً من الانحلال الأخلاقي والحفاظ على هويتهم الإسلامية، فيهم من نشأ مع جماعة الإخوان وآخر مع السلف وآخر مع التبليغ، فيهم طالب العلم وآخر عامي، وفيهم من انتشله الله من ملاهي الغرب ومراقص الشرق فسلك طريق الله، كانوا أفكاراً متباينة فصهرتهم نار غوانتانامو في بوتقة واحدة، فلا شيء يوحد الأمة كالمحنة حين تعم، لقد أدركت أن من الحمق والسفه أن تغفل عن عدو مارد متجبر يقتل ويسحق ويحيك المؤامرات لإبقاء طوق العبودية حول عنقك يريد اقتلاع دينك من جذوره لتنشغل بإعلان الحرب على أخيك المسلم من أجل خلاف على فهم نص ديني!

إن فرصة الاجتماع بهذه الأعداد الكبيرة من المعتقلين جعلتني أفهم الكثير من المشاعر والأفكار، قال أحدهم: كنت أشاهد التلفاز فرأيت مقتل محمد الدرة، اشتعل قلبي غضباً، اجتاحت المظاهرات العالم الإسلامي حينها، شاركت في إحداها فوجدتها مخدراً للشعوب الغاضبة وتنفيساً لفورتها، تبخرت كل أحلامي وأصبحت لا أرى في نومي ويقظتي إلا مشهد الأب وهو يحضن ابنه ليقيه الرصاص، رحلت إلى البلاد البعيدة لأتدرب على السلاح ترقباً ليوم الثأر والانتقام.

أخبرني أحد الإخوة الذين تم تسليمهم من البوسنة: كنت أرى الطائرات في قناة الجزيرة تهبط أرض غوانتانامو، أراكم بملابسكم البرتقالية قد غطوا أعينكم وآذانكم وأفواهكم بالكمامات والأغطية والسدادات، كنت أراكم وأنا أبكي، تملكني شعور قوي أني سأسجن معكم يوماً ما، أشارككم الألم، أمزج دموعي بدموعكم، لقد كانت الحياة في الخارج جحيماً لا يطاق، على الأقل لن أرى مآسي المسلمين وأنا عاجز عن تقديم يد العون، حين تعيش شيئاً من المأساة يخف عنك الشعور الخانق بالقهر والأسى.

الإنسان الدمية:

إن تأثير البيئة على الإنسان أكبر من تأثير الأفكار، حين يكون محاطاً بالشياطين تكون عنده القابلية لكي يكون شيطاناً مثلهم، كيف لهذا الأب العطوف أن يتحول إلى ذئب مسعور بمجرد ارتدائه بزة الحراس في غوانتانامو؟

ألأنه اقتنع فعلاً أن هؤلاء المعتقلين مجرمون يستحقون التعذيب؟، أم هو تأثير

المحيط مع حاجته للمال جعله يقنع نفسه أنهم أشرار يستحقون ما ينالهم ليصرف عنه الشعور بالذنب وتأنيب الضمير؟ فالمصالح تقود الأفكار نحو بغيتها غالباً لا العكس.

الوحشية التي يتعامل بها الحراس مع المعتقلين ليست بالضرورة بسبب ساديتهم العدوانية، فقد تكون بسبب الفكرة التي فرضتها البيئة عليهم أو رسخها في تصورهم الإعلام الموجه، لكن النتيجة واحدة، وهنا تكمن الخطورة.

إن لبيئة السجن دوراً مهماً في إيقاظ الوحش الكامن في نفس الجنود ليتحول بطرفة عين إلى قط وديع حين تأتيه الأوامر بالتهدئة! ما أسهل تحول الإنسان إلى دمية في يد الأقوياء.

تأملت التناقض الذي تمثله الولايات المتحدة بكونها نجحت في تكوين أقوى اقتصاد في العالم وأكبر عدد سجناء فيه، قد ترى مجمعاً تجارياً ضخماً ينام تحت أسواره مشرد خسر كل شيء لظروف قاهرة دون أن يجد يداً تؤازره، لقد أيقنت أن الحضارة الحقيقية هي حضارة الإنسان وليست حضارة البنيان، إنها في إقامة العدل وليست في إقامة ناطحات السحاب، إنها في تحقيق السعادة القلبية وليست في تحقيق الرفاهية المادية، فالظلم لن ينتهي من حياة البشر بوصولهم القمر، وأي حضارة يقيمها عقل مخترع يضع في أيدينا الآيفون ويدمر بيوتنا بالقنابل؟ هل ستجني منه البشرية أم يجني هو عليها؟

الطاووس:

رأيته في السنة الأولى في غوانتانامو، كان كثير التذمر والتضجر من البلاء، كثير التباهي بالدورات العسكرية التي اكتسبها في أفغانستان، كان يقول: حتى جنرالات جيوشنا لا يملكون ما أملك، الكثير من المعتقلين نصحوه بأن يترك هذا الزهو المتعجرف فكان يستدل واهماً بأنه يحذو حذو أبي دجانة حين تعصب بعصابة الموت الحمراء متبختراً، فأثار أحدهم بكلامه هذا فانتهره قائلاً: تبختر بين الصفين وليس بين المضافتين، كلنا يعلم أنك لم تشارك في معركة واحدة، ولم نر منك سوى جعجعات بطولاتك الفارغة!

كثيراً ما رأيته يفت عضد المعتقلين في مواجهاتهم مع الجنود للدفاع عن أنفسهم، ويستغل عثرات المعتقلين وأخطاءهم في التأكيد على عجزهم، أخذ يبكت المعتقلين الذين تراجعوا في إحدى مواجهاتهم مع الأمريكان حين نصروا معتقلاً كان يعذب في التحقيق بعد أن رأوا أن النفق مظلم ونهايته مسدودة، قال مستهزئاً: إن لم تكونوا أهلاً للمواجهة فلا تدعوا للنزال!

يغيظني هؤلاء الذين تخلفوا عن أُحُد بينما تراهم يستنكرون زَلّة السُّراة على جبل الرماة.

لم تزده نار غوانتانامو إلا احتراقاً، ولا من ربه إلا إباقاً، فكشفت لنا الأيام أنه كان عيناً للأمريكان!

لقد كانت قصته عبرة، لم يكن سوى طاووس يتباهى بجماله الباهر وهو ينشر جناحيه الساحرين في الهواء، لكني لم أره يوماً يرفرف بهما محلقاً في العلاء.

يوم عظيم:

كان يوم الأربعاء تاريخ ٢٠٠٩/٣/٢٥ يوماً عظيماً، فيه شاهدت أهلي لأول مرة عن طريق (DVD)، أحضره لي المحامي العسكري (باري وينغارد) الذي أُعْطي صلاحيات أكثر من صلاحيات المحامي المدني الذي كانت حكومة بلدي تدفع له الملايين، كنت أضيق ذرعاً بالمبالغ الهائلة التي كانت تدفع للمحامي المدني دون فائدة، حيث لا يستطيعون توفير أدنى الحقوق الإنسانية للمعتقل، بل لا يستطيع توفير كوب ماء نستخدمه للخلاء، لأنه غير مَعْنِيّ بذلك بل بالمرافعات في المحكمة التي لم نُمْنَح حق المثول أمامها.

كان قلبي يتراقص فرحاً وهم يوصلون الأسلاك بالكهرباء لعرض الـ (DVD)، ثماني سنوات مرت دون أن أراهم، وبعد توفيق الله ثم المطالبات الكثيرة والإلحاح المستمر مع الإدارة والمساومات المتواصلة ورفضي لإجراءات المحاكمة العسكرية برمتها ما لم يستجيبوا لطلبي الإنساني برؤية والديّ وأهلي بعد هذه السنين الطويلة، وأخيراً سمحوا لي بمشاهدته لساعة واحدة فقط، كنت أحاول فيها أن أستغل كل لحظة، وأن أحتفظ في ذاكرتي بكل همسة وبسمة لأستمتع بسجل الذاكرة حين عودتي لزنزانتي من جديد، كان قلبي ينبض بشدة، شَغَّلوا الجهاز فازداد القلق، كانت عيني متسمرة في الشاشة وأعصابي متوترة وروحي مترقبة، بدأ عرض الـ (DVD)، شعرت أن قلبي توقف عن النبض وأن الأرض أمسكت عن الدوران وأن الزمن ثبت في مكانه دون حراك، يا الله، ها هو والدي، لقد تغير، تغير كثيراً، كانت جيوش الشيب قد احتلت رأسه ولحيته، أما ضحايا هذا الاحتلال فكانت التجاعيد التي رسمت على وجهه لوحة حزينة تقطع القلوب وتشي بليال طوال سهرها حزناً على ولده المعتقل وراء القضبان في الجزيرة البعيدة، أوحى لي نطقه بالسين أن في أسنانه شيئاً ما، أمعنت النظر وإذا بجل أسنانه قد سقطت، كنت أحاول أن أنظر من بين الدموع كما ينظر السجين إلى السماء من بين القضبان التي تعيق انطلاق بصره، لقد تعبتَ يا أبي، كنت أخاطبه كأنه يسمعني، حين رأيت والديّ وأهلي في الشاشة شعرت بقربهم، لم يكن بيني وبينهم إلا شاشة،

كانت عيني ترفض الخضوع لسيل الدموع الذي يجبرها على الإغماض لأنها تريد استغلال كل لحظة في الاستمتاع برؤيتهم، كان والدي يحاول إظهار المرح ليضفي على الجو شيئاً من التجلد والصبر وليخفف من قلقي عليهم، لكن صورته وهو يحاول الابتسام زادتني حزناً وألماً، لأنها كانت تخفي وراءها بحاراً من الهم والغم والشوق، وحين أطلت أمي على الشاشة لم تستطع النطق، كانت تحييني بيديها الصغيرتين وعينيها المنقبضتين اللتين غرقتا بالدموع، كنت غارقاً في بحر من الأشواق والعبارات ومالا يمكن أن تصفه الكلمات، كان أخي (أبو فايز) هو المصور، وكان يعاني هزة خفيفة في يده دفعت ثمنها، شعرت أني على وشك الإصابة بارتجاج في المخ! انتهى الوقت سريعاً، قيدوني ثم بدؤوا بتفتيشي، كانت عيني تؤلمني فأحكها، شعرت بالدوار بسبب كثرة اهتزاز الكاميرا، ومن شدة شوقي للأهل كنت أهز رأسي دون أن أغمض عيني محاولاً تخفيف أثر الدوار بسبب الاهتزاز، لا يوجد عندي وقت لأضيعه في مسح الدموع، أما أهلي الآخرون فقد حاولوا أن يُضْفوا جواً من المرح، وحين انتهى الوقت وأرادوا إرجاعي للزنزانة سألني الجنود: هل لديك صور مهربة؟

ابتسمت قائلاً: الكثير من الصور، لكنكم لن تستطيعوا هذه المرة مصادرتها!

فقال الجندي باهتياج: ألا تعلم أنها ممنوعة، أين هي؟

قلت: في ذاكرتي حيث لا تستطيع مصادرتها!

الاتصال الأول:

بعدها بأشهر جاءني الجنود وقيدوا يديّ وقدميّ، انطلقوا بي بالحراسة المشددة إلى سيارة (فان) مخصصة لنقل البضائع لكنهم حولوها إلى سيارة لنقل المعتقلين، غطوا عيني وأذني، كان مكان الاتصال قريباً جداً، أقل من عشرين متر فقط، كل هذه الإجراءات من أجل عشرين متر، دخلت الغرفة التي تتوسطها طاولة عليها صندوق حديدي مثبت بالطاولة، كان هناك هاتف داخل الصندوق، أجلسوني على الكرسي الحديدي ثم أثبتوا قيود قدمي بالحلقة المثبتة بالأرض، فكوا قيود يدي ثم جاء جندي يقرأ علي شروط الاتصال بالإنجليزية، ماذا؟ اتصال؟ بمن؟

تسارعت نبضات قلبي، تظاهرت بعدم الفهم ليأتيني الجندي بالمترجم كي أتأكد من الموضوع، دخل علي المترجم وإذا بها عجوز شمطاء قد فشل المكياج الذي ملأ وجهها من إخفاء الخبث الذي ينبعث من ملامحها الشريرة، كانت حاقدة على المعتقلين بدرجة كبيرة، نواجه أحياناً نوعيات غريبة من المترجمين الذين يريدون إظهار ولائهم للأمريكان بالمبالغة بعداء المعتقلين، هنا علمت أني سأواجه وقتاً

عصيباً في الاتصال، قرأت علي القوانين بصوت غاضب ولهجة عراقية، ثم قالت: هل عندك سؤال؟

قلت: لا.

تلاشت رغبتي في التأكد من موضوع الاتصال حين رأيت حقدها، انتظرت طويلاً مترقباً أجمل اتصال في حياتي، أكثر من ساعة وقلبي يرتعش لسماع صوت أمي وأبي بعد سنين طويلة من الفراق، خشيت أن يلغى الاتصال فيكون وقع ذلك شديداً على قلب أمي وأبي، دخل علي الجندي قائلاً: ارفع السماعة!

أحسست بما يشبه التيار يسري في جسدي، تيار عاطفي قوي محمل بالشوق الذي طال لأكثر من ثماني سنوات، استجمعت كل قواي لأواجه هذه اللحظة المزلزلة، إن دمعة واحدة مني تعني سيولاً جارفة من دموع أمي وأبي، هناك قساة قلوب خلف الباب ينتظرون اللحظة السانحة للسخرية والتشمت،

وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع

وضعت السماعة على أذني، صمت مطبق، كل واحد منا ينتظر الآخر يبدأ حديثه، خشيت أن يسمعوا دقات قلبي المضطربة، تشجعت لأكون البادئ: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وإذا بأجمل صوت سمعته أذناي يجيب: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

كان صوت والدي الحبيب، كان أجمل من الندى الرقراق وأرق من النسمة العليلة وأزكى من الشذى الفواح.

حبست الدموع بكل ما أوتيت من قوة: كيف حالك يا أبي؟

: .....

صمت حزين يفيض دمعاً، وإذا بوالدتي تقول بصوت مرتجف متقطع: حبيبي.

: حبيبتي كيف حالك؟

: ....

يا له من اتصال باكٍ، والله إني لأعجب من جلدي ذلك اليوم، بينما لم أستطع كبح دموعي وأنا أكتب هذه الكلمات!

فسبحانك ربي حين جعلتها سنة في خلقك: (مع كل ضعف لطف).

كتابة الرسائل:

كنت أكتب للمحامي كل ما يتعلق بقضيتي وبما نعانيه في المعتقل، لعل الله يقيض الوقت الذي تخرج فيه قصة هؤلاء المعتقلين للعلن يوماً ما، كانت كتابة الرسائل تستغرق مني وقتاً طويلاً، أشرع في الكتابة بعد شروق الشمس، ثم أستمر حتى الظهر، فكنت آخذ قيلولة لكي أستطيع مواصلة الكتابة إلى الليل، وخلال القيلولة كنت أهب من نومي كل خمس دقائق بسبب إزعاج الجنود، وبعدها نصلي العصر جماعة، كلٌ في زنزانته، ثم يأتيني الجنود بالقيود ليخيروني بين التفتيش أو الخروج إلى قفص المشي، أتدرب في قفص المشي لمدة ساعة ونصف، ثم نصلي المغرب لأستمر في الكتابة حتى وقت العشاء الذي يكون بين المغرب والعشاء، ثم أتعشى مع أحد المعتقلين، لأن القانون وقتها كان يسمح بتناول الطعام في قفص المشي مع معتقل آخر، ثم أعود إلى زنزانتي الحبيبة، كنت أحبها فعلاً، كنت أشعر حيالها بشعور غريب لا أدرك سره اليوم، شعور بالألفة يملأ قلبي رضا، أهو فيض سماوي يتنزل على المظلوم حين تتقطع الحبال وتشتد الخطوب؟

الموعد المزيف:

جاءني اثنان من الجنود الخبثاء، وأخبراني بأن عندي موعداً دون أن يفصحوا عن طبيعته ليكون لي حرية الخيار في الذهاب من عدمه، قد يكون تحقيقاً أو عيادة أو اتصالاً أو المحامي أو الصليب أو أي شيء آخر، في السنوات الأخيرة أعطتنا الإدارة الحرية في الذهاب إلى التحقيق من عدمه، مما جعل المحققين يزيدون من إغراء المعتقلين بالمجيء بعد أن منعوا من التهديد، وذلك بإعطاء المعتقل بعض الحلويات والطعام وكتباً ليتشجع في المجيء، سألتهما عن طبيعة الموعد فلم يجيبا، رأيت في ملامحهما البغيضة رغبة كامنة في رفضي للموعد، فعلمت أن الخير لي في عكس ما تمنياه، قبلت الموعد، فكان الموعد هو اتصال مع أهلي، فحمدت الله أني لم أرفض فتفوتني هذه الفرصة الجميلة لأمتع ناظري برؤية والديّ وأهلي، لقد تكررت هذه الخطة الخبيثة مع الكثير من المعتقلين، وفاتهم الاتصال ظناً منهم أنه تحقيق، وقد يكون المحققون ضالعين في هذه الخطة الماكرة ليمتنع المعتقل عن رفض أي موعد مبهم، ليأتي مرغماً إلى التحقيق الذي لم يكن له داع بعد أكثر من عشر سنوات على الاعتقال إلا تدريب المحققين الجدد على كيفية التحقيق مع هؤلاء الإرهابين المجرمين الذين فاقت جرائمهم قدرة المحاكم الأمريكية على البت في أمرهم!

بدأت الإدارة في هذه الخطة بعد أن حاول البنتاغون إضفاء الإنسانية على المعتقل بإعطائه حق المثول للتحقيق من عدمه، بينما سمحت من تحت الطاولة لإدارة المعتقل

أن تلتف حول هذا القانون، وفعلاً بدأت الإدارة بالخطة الجديدة القائمة على عدم إعطاء المعتقل أي معلومات عن الموعد، أو يعطونه معلومات مغلوطة أحياناً، وكثيراً ما قبل المعتقل الموعد بعد معاناة طويلة من المرض دون علاج قد يصل إلى سنة أو سنتين، وحين يأتيه موعد مبهم أو يوهمونه أنه موعد إلى المستشفى فإنه يقبل على الفور تحت مطارق الألم الفظيع، فيفاجأ المسكين بأنه وجهاً لوجه مع محقق صغير في السن يحاول أن يتقمص شخصية (شارلوك هولمز) أو يستخرج من أعماقه عبقرية المحقق (كونان)، وكثيراً ما رفض بعض المعتقلين الموعد ظناً منهم أنه موعد مع المحققين فيلغى الاتصال مع أهله الذين حضروا من قراهم إلى العاصمة، وقطعوا فيها ساعات من عناء الطريق، يستخفهم الشوق للاطمئنان على ولدهم الحبيب، فيرجعون خائبين تعصف بهم الأحزان، ليتبدل استبشارهم ألماً وتفاؤلهم هماً وغماً.

الصورة:

أتاح الصليب الأحمر لنا فرصة إرسال صور فوتوغرافية لأهلنا في سنة (٢٠٠٩)، أي بعد اعتقالنا بثماني سنين، كنت حينها في عنبر (P) معزولاً عن بقية المعتقلين، أخرجني الجنود إلى قفص المشي ليتسنى لمندوب الصليب الأحمر التقاط صورة لي، طلب من الجنود الثمانية الذين أحاطوا بي أن يزيلوا عني القيود، فتلكؤوا زاعمين أن ذلك يهدد أمن المعسكر، وضح لهم المندوب أن تصويري بالقيود ستستخدم كدعاية ضد الولايات المتحدة، وأن فكرة التصوير هدفها تغيير هذا التصور، ثم هو قد حصل على موافقة الجنرال، وافقوا على مضض، نزعوا القيود وتهيأ المندوب لالتقاط الصورة، فجلست على الكرسي وأنا أرى الجنود حولي مغتاظين من رؤيتي بدون قيود، ازداد غيظهم حين رأوا ابتسامتي.

المصافحة:

لن أنسى بعد انصراف المحامي حين رأيت الجندي الذي كان يعاملني باحترام فمددت يدي له مسلماً فأبى أن يصافحني قائلاً: القانون لا يسمح لي بمصافحتك!

لقد كانت درساً لن أنساه، لقد تعلمت أن التواضع واللين الذي رباني عليه والداي يجب أن لا يُبْذَل للمتكبرين، لأنهم سيفسرون التواضع ذلاً واللين استسلاماً فيزدادون غطرسة، ولا زال الشعور بالذل يلاحقني من هذا الموقف إلى يومي هذا، والعجب أني لم أشعر بالهوان وهم يدوسون رقبتي، بينما شعرت به حين مددت يدي لمصافحة من لا يستحق لأنها كانت باختياري، درس جعلني من يومها لا أمد يدي إلا لمن مد إلي يده منهم، حينها فهمت عمق الآية: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن

يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، الإسلام يَقْبَلُ السِّلْمَ لكنه لا يعرضه على متغطرس مختال، ها هو القرآن يوضح: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، هم من يطلب السلم ولسنا من يستجديه منهم، هذا هو الإسلام العزيز وإن أبى الأذلاء، الإسلام يدعو إلى العفو عند المقدرة، أما العفو عند العجز فهو ذل وإن زخرفه الجبناء.

ابتسامات رغم العذاب:

كان يقطع زنزانته الانفرادية وهو غارق في أحزانه، خطوتان إلى الأمام وخطوتان إلى الخلف، فتح عليه الجنود النافذة، نظر وإذا الضابط بجواره مترجم يقول:

قررت الولايات المتحدة إطلاق سراحك!! هكذا فجأة دون أي مقدمات؟ كاد يفقد عقله من شدة الفرح، قدموا له ملابس الخروج، فخلع ملابسه القديمة لا شعورياً أمامهم ليرتدي الملابس الجديدة وبقي عارياً!! أطاشت الفرحة عقله.

كانت الاستعدادات الأمريكية في ذروتها لنقل المعتقلين من معسكر قندهار إلى غوانتانامو، دار حديث جانبي بين معتقلين أحدهما من مدينة جدة، قال: ماذا تظن الأمريكان فاعلين بنا؟

قال الجداوي: بالتأكيد لن يقولوا لنا اذهبوا فأنتم الطلقاء!

: أنا أعتقد أنهم سيسلمونني إلى باكستان البلد الذي خطفت منه، ومن ثم يتم ترحيلي إلى بلدي.

: ولماذا هذا الإغراق في الأحلام الوردية؟

: لأني أخبرتهم بالحقيقة، وهي أني كنت في أفغانستان للدعوة إلى الله ولا علاقة لي بالجهاد.

أطرق الجداوي رأسه عابساً وهو في حالة من الشرود العميق.

: ما لك؟

: مالي؟؟ لا شيء، يبدو أن مسار رحلتي سيكون مغايراً.

: لم؟ ماذا قلت لهم في التحقيق؟

قال: عذبوني وتكلمت بأمور غير سارة.

: ما هي؟

: أخبرتهم أني التحقت بمعسكرات التدريب، فلما سألني المحقق عن الهدف قلت: نحن كمسلمين نتدرب لأننا نؤمن بأن معركة تحرير فلسطين لابد آتية فأنا أستعد لهذا اليوم.

: ماذا قال لك المحقق؟

: حرك رأسه يمنة ويسرة مبدياً تعاطفه معي وأخبرني أنه سيرسلني إلى مكان بعيد أتدرب فيه جيداً!

: هل أخبرك باسم المكان؟

: أتوقع أنه يريد أن يفاجئني بالخبر السعيد.

فرد عليه مازحاً وهو يطلق ضحكة مدوية: رجاء توقف عن الحديث معي أيها الإرهابي ولا تلوث صفحتي البيضاء النقية.

سبحت نظرات الجداوي في السماء وقد أحاطت به الهواجس.

: حسناً.. يبدو أنك ستعود إلى بيتك بينما يتم نقلي إلى غوانتانامو، فأرجو ألا تنسى أهلي ووالدي بالسلام، وأخذ يوصيه بأهله فرداً فرداً.

: أبشر بما يسرك، سأبذل كل وسعي لأخلفك في أهلك بخير، اعتبر أهلك هم أهلي، لن أنساك، سيظل اسمك محفوراً في ذاكرتي!!

وبعد أيام قلائل بدأ فرز المعتقلين، وأخذوا الأخ الذي كان يظن أنهم سيرحلونه إلى باكستان ثم إلى بلده، أدخلوا رأسه بالغطاء الأسود بعد تقييد يديه ورجليه ثم اقتادوه إلى خيمة معزولة قد جمعوا فيها المعتقلين المراد ترحيلهم، وبعد إتمام عملية تجميعهم في الخيمة أزالوا الغطاء عن رؤوسهم حتى يتمكن الجنود من إطعامهم قطعة صغيرة من الخبز ليظلوا في وعيهم خلال الرحلة، كان الأخ فرحاً على الرغم من شدة التقييد والإجراءات الأمنية المؤلمة والمهينة، لكنه كان يُمَنّي نفسه بالفرج القريب، وما هي إلا سويعات حتى يكون بين أهله وأحبابه، أزيل الغطاء الأسود من رأسه، تجول ببصره في وجوه المقيدين حوله، وهنا كانت الصدمة!! لقد رأى معه الأخ الذي اعترف على نفسه بأنه مجاهد، وها هو فلان وفلان أيضاً ممن وُجّهت إليهم تهم كبيرة، هنا أسقط في يده وعلم أن كل أحلامه تبددت وأيقن أن الطائرة متجهة لا محالة إلى غوانتانامو، تحولت ابتسامته عبوساً وفرحه حزناً وتفاؤله تشاؤماً.

بعد سبع سنوات اجتمعا مرة أخرى في إحدى العنابر وقد شاب الشعر وشحب الوجه وتغيرت الملامح بسبب تأثير السجن عليه، غرق الجداوي في ضحكه وهو يقول: أتمنى أن تكون قد حفظت وصيتي وبلغت أهلي سلامي!

ثم أخذ يحاكيه حين قال له: لن أنساك.. سيظل اسمك محفوراً في ذاكرتي!!

دوّت ضحكته وهو يقول: لقد حفروك في غوانتانامو!

أطلق سراحه بعد سبع سنوات ووفّى بوعده، فذهب إلى بيت الجداوي وبلغهم سلامه وأشواقه.

عند قدومنا غوانتانامو وضعت إدارة المعتقل قطعة بلاستيكية حول معصمنا فيها صورة المعتقل ورقمه التسلسلي واسمه وجنسيته وطوله ووزنه ورقم الزنزانة، لا يستطيع المعتقل إزالتها، استمرت هذه السياسة قريبة من سنة ثم أزيلت هذه القطعة واكتفى الأمريكان ببطاقة معلقة على باب الزنزانة فيها المعلومات الضرورية عن المعتقل، قرأ أحد المعتقلين الذين لا يفهمون من اللغة الإنجليزية إلا القليل ما هو مكتوب على القطعة البلاستيكية فوجد فيها (cell 12) أي زنزانة رقم اثنا عشر، لكنه قرأها (kill 12)، انتفض مذعوراً ممتقع اللون، وأخذ يضرب الزنزانة بعنف منادياً: (MP) (أي الشرطة العسكرية) اختصار (military police).

وحين حضر الجنود طلب منهم مترجماً بأسرع وقت، إنها مسألة حياة أو موت!!!

حضر المترجم لاهثاً من مكان بعيد، الكل يريد أن يعرف ما هي المعلومة المهمة التي يريد أن يتفوه بها هذا المعتقل، هل يريد الاعتراف على نفسه مثلاً؟ أو لعله يريد أن يكشف سراً من الأسرار عن شخصيات مهمة؟ رفع صوته غاضباً وهو يمد يده مشيراً إلى القطعة البلاستيكية:

هناك اتهامات باطلة ضدي، لماذا كتبتم في هذه القطعة البلاستيكية أني قتلت ١٢ شخصاً؟ أنا لم أذبح دجاجة في حياتي فكيف بـ ١٢ إنسان. أخذ الأمريكان ينظرون دهشين إلى بعضهم البعض وقد أصيبوا بخيبة أمل كبيرة.

يصاب بعض المضربين بحالة من الهذيان وفقدان التركيز، حدث يوماً أن صلى أحد المضربين وهو عدنان الشرعبي (رَحِمَهُ اللهُ) بإخوانه المضربين فكبّر بدلاً من أن يقول: (سمع الله لمن حمده)، لم يدرِ من خلفه هل هو راكع لكنه أخطأ في التكبير، أم أنه سجد وسها عن الركوع، أم أنهم هم من وهموا في ظنهم أنه كبر؟ رفع بعضهم صوته بالتسبيح ليتنبه عدنان على خطئه فزاد الإشكال بسبب عدم القدرة على رؤية الآخرين من الزنزانة المصمتة، وانقلبت الصلاة ما بين تكبير وتسبيح، هنا أكمل معتقل يمني صلاته منفرداً ثم اقترب من النافذة الزجاجية المصممة ضد الكسر فرأى أخاً راكعاً وآخر ساجداً وآخر قائماً، كان أمامه أخ من المدينة النبوية فرآه قائماً يصلي وأمارات الالتباس والحيرة بادية على وجهه، التفت وهو يصلي باتجاه النافذة وببطء شديد لعله يرى أحداً يصلي فيتدارك الخطأ ويصحح صلاته، فتفاجأ بالأخ اليمني وهو يراه من خلف الزجاج، حاول اليمني أن يكتم ضحكته حين رأى نظرة الأخ المرتبكة والتفاتته المستكشفة، فأشار الأخ المدني بيده مستفهماً عما يجرى، هنا انفجر ضاحكاً.

خنق الجنود أحد المضربين لإجباره على التغذية القسرية، كان بجانبه معتقل آخر مضرب عن الطعام، مُقيّد على الكرسي بإحكام، لم يتحمل رؤية أخيه يضرب دون أن يفعل شيئاً، بدأ يسب الجنود ويبصق عليهم، وقعت بصقة طائشة على جبهة الأخ المخنوق خطأ، نظر إليه نظرة غاضبة جعلته يذوب خجلاً، يا إلهي ماذا فعلت؟؟ استمر الجنود بخنقه فعاد هو بالسب والبصاق مرة أخرى وبعد انتهاء المشكلة اعتذر للأخ المخنوق، ثم سأله: هل شعرت بشيء وقع على جبهتك؟

أجابه بضيق: ولماذا تذكرني بهذا الحدث الجليل وكأنها بمناسبة سعيدة؟ أنت مثل الدب الذي أراد أن يطرد الذباب من على جبهة صديقه فضربه بالحجر.

كان الجنود يقومون بالتفتيش العشوائي بين الفينة والأخرى، أخرجوا للتفتيش معتقلاً يمنياً اسمه (عماد) من زنزانته بعد تقييده، أوقفوه أمام زنزانة معتقل يمني آخر يقال له (خالد)، كان خالد ضعيفاً وقتها في الإنجليزية، أخذ الجنود يفتشون عماداً بارتباك وقلق، فأراد خالد أن يقول للجندي: (لا تخف هو لن يقتلك) لكنه ترجمها (هو سيقتلك)! توتر الجندي وازداد خوفه وشدد قبضته على عماد الذي تضايق من هذا العنف، فحدث احتكاك بينهما وازداد التوتر وعلت الأصوات، فدفع الجنود عماداً الذي حاول نطح الجندي برأسه، وتدخل بقية المعتقلين بالسباب والبصق على الجنود بسبب دفعهم لعماد، ورد الجنود برش البخاخ الحارق الخانق عليهم، فعاقبوا ثلاثة عشر معتقلاً ونقلوهم إلى الانفرادي بسبب الترجمة الخاطئة، وكان المعتقلون بعدها يتندرون بهذه القصة مع خالد سنين طويلة.

لم يكن هذا هو الموقف الوحيد لخالد، حدثت مشكلة لمعتقل يمني يجيد الإنجليزية وهو العم عبد الرحمن التعزي الذي تجاوز عمره الستين سنة مع أحد الجنود، أراد الجندي أن يعاقبه بمصادرة أغراضه لينام على الحديد، لكنه نجح في إقناع الجندي بأنه لم يفعل ما يستحق عليه العقوبة، استيقظ خالد من النوم على الحوار بين العم عبد الرحمن والجندي وهو لا يدري ما المشكلة أصلاً، فأراد أن يقدم خدمة جليلة للعم عبد الرحمن ويوقف هذا الجندي البغيض عند حده، أراد أن يبين للجندي أنه ظالم حين يسعى لمعاقبة رجل مسن ومريض لم يرتكب أي مخالفة، فترجم للجندي لكنه بدلاً من أن يكحلها أعماها! فهم الجندي من الترجمة الركيكة أن العم عبد الرحمن قصد أمراً يعاقب عليه، فذهب وكتب تقريراً عليه، فنقلوه إلى الانفرادي دون أن يعرف سبب ذلك، وكانت ظروف الانفرادي وقتها قاسية جداً، انتهت فترة العقوبة ثم أعادوا العم عبد الرحمن إلى عنبره وقد بهت لونه وشحب وجهه وشعث شعره بسبب ما لقيه من متاعب في الانفرادي، وبمجرد وصوله زنزانته أخذ ينادي بصوت غاضب حانق: أين هذا المدعو خالد؟؟

أدرك خالد أنه ارتكب مصيبة أخرى تضاف إلى سجله الحافل، التزم الصمت وتمنى لو أن الأرض انشقت وابتلعته، دس نفسه تحت اللحاف متظاهراً بالنوم!!

ارتفع الصوت الغاضب: أين خالد؟؟

بادره الأخوة يستفهمونه: ما بك يا عم؟

: هذا خالد.. متقمص شخصية المترجم المخلص، يا أخي أنا أعرف أتكلم إنجليزي فمن طلب خدماتك؟ هذا يجب أن يحجر عليه فلا يترجم لأحد حتى يرث الله الأرض ومن عليها!

كان معنا أخ نحيل جداً بسبب مرض في معدته ولا يستطيع أن يأكل إلا القليل من الطعام السيء الذي يأتون به، فبدؤوا بإعطائه كوباً من المغذي المسمى (Ensure) مرة يومياً، وهو سائل مغذ، طعمه لذيذ، ثم نقلوا هذا الأخ من الانفرادي إلى عنبر آخر ونسوا أن يقيدوا عندهم في الكمبيوتر أنه انتقل إلى عنبر آخر، وأتى مكانه أخ جديد، واستمر الأمريكان يقدمون (المغذي) للأخ الجديد ويظنونه المعتقل المريض، كان جسم الأخ الجديد ممتلئاً، وكان المعتقلون في ذلك الوقت يعانون من الجوع بسبب قلة الطعام وسوء الطهي، فكان الأخ الجديد يستقبل (المغذي) باستغراب ممزوج بالغبطة، وحين جاء ممرض جديد لإعطائه (المغذي) نظر إلى جسمه فسأله باستغراب: كيف يعطونك المغذي وأنت بهذا الجسم الممتلئ؟ فصار الأخ كلما جاء ممرض آخر غطى جسده بالبطانية متظاهراً بالهزال ثم يمد يده ويأخذ المغذي ثم يعبه في جوفه عباً، علق أخ ظريف عليه وهو يلتحف بالبطانية ليأخذ المغذي: نحولك يثير الشفقة، خاصة حين تمعر قسمات وجهك متظاهراً بالهزال وأنت تفوق الدب وزناً!

عضه البرد بنابه واشتدت قبضة الجوع عليه، وكالعادة يزداد الجوع عند اقتراب موعد الطعام الذي لا يكاد يسد الرمق، فتحوا نافذة الأخ الذي قبله وأعطوه بالخطأ قطعة خبز إضافية فناداه فرحاً:

أعطوني خبزة إضافية بالخطأ: (الحمد لله على رزقه، حبيب جاء على فاقة)، سال لعابه أكثر حين سمع ذلك من أخيه وانتظر دوره، فتحوا نافذته وأعطوه نصيبه دون أي زيادة وقبل أن يغلقوا النافذة قال لهم: أريد خبزة!

أغلقوا النافذة في وجهه بعنف، شعر بمزيج من الإهانة والغضب، لكن سرعان ما تلاشى حين سمع ضحكات جاره المتمرس بتحويل المواقف المحرجة والمؤلمة إلى فكاهية مرحة، بادله الضحك: لا أدري كيف عرضت نفسي لهؤلاء الحقراء حين طلبت مجرد خبزة.

: لا عليك.. أنت في الحقيقة لم تطلب، الذي طلبهم هو قرقرة معدتك الخاوية، هذه الخبزة كالظل إن تبعتها هربت منك وإن هربت منها تبعتك، جاءتني بلا طلب وأبت عليك حين طلبتها، أرزاق! فأجابه: دعك من هذا، مرت علي سنين وأنا هارب منها فلم تأتني، ضحكا جميعاً، تفاجأ الأخ بعد قليل بأن جاره قد مرر الخبزة الإضافية إليه من بين القضبان وأقسم عليه أن يأخذها، إن الإيثار بمجرد خبزة يعني الكثير في مثل هذه الظروف الصعبة، ولا يفهم حقيقة ذلك إلا من عصر الجوع بطنه لسنين دون رحمة.

حاول أن يخفي جنسيته خوفاً من تسليمه للقذافي، فأخبر المحققين الأمريكان أنه يمني الجنسية، على اعتبار أن توثيق المعلومات الشخصية في اليمن ضعيف بسبب كثرة القرى النائية وضعف سيطرة الحكومة المركزية، حاول الأمريكان التوثق من شخصه ففشلوا.

سأله المحقق غاضباً: ما بلدك؟

: اليمن

: من أي مدينة؟

هنا تذكر ما قاله أحد المعتقلين اليمنيين حين سأله هذا المعتقل الليبي عن مكان معروف في اليمن ليجمع المعلومات التي قد تكون له ردءاً في التحقيقات، قال له اليمني: (باب الملح) وهو مكان قديم معروف في صنعاء، لكن المصيبة أن الليبي تذكر (باب) ونسي (الملح)، حاول أن يعصر مخه لعل الخلايا العصبية تسعفه بما نسي أو حرفين منها على الأقل، لا فائدة، كرر المحقق سؤاله بغضب: من أي مكان في اليمن؟ أجب!

حدق في وجه المحقق يريد أن يتذكر، لابد أن يتذكر، حاول أن يمعر وجهه متظاهراً بتفاهة السؤال، لكن التوتر غلب التمعر، وأخيراً رحمت الذاكرة حاله وذكرته بالكلمة المنسية، انفرجت أسارير وجهه وتهللت قسماته لوصول المدد، أرخى ظهره على الكرسي وتنفس الصعداء، ثم قال بثقة قل نظيرها: (باب المندب)!

لقد كانت طامة بمعنى الكلمة، ليس فقط لأنه ذكر اسم المضيق بدلاً من المدينة بل لأن المحقق أتبع جوابه باتهام جعله يرتعد!

حدق المحقق إليه النظر وابتسم ابتسامة خبيثة ثم قال: باب المندب؟ إذن أنت مشارك في العملية الإرهابية ضد مدمرتنا (USS Cole)!

هنا لحظة الانهيار التام.. أعلن الاستسلام قائلاً: ليبي.. أنا ليبي!

أخ غامدي من المملكة يقضي فترة العقوبة في الانفرادي، لم يتمالك نفسه غضباً حين رأى جندياً يؤذي المعتقلين، صاح في وجهه: لا تستقوي على معتقل أعزل أيها الجبان، ثم ضرب بقبضته الباب الحديدي، شعر بألم شديد لكنه تجلد أمام الجندي حتى لا يسخر منه، ظل الجندي واقفاً أمام زنزانته متعجباً من قوة الضربة على الحديد ومدى صلابة الغامدي، أطال الجندي وقوفه أمامه، صرخ على الجندي: اغرب بعيداً أيها الوغد، وبمجرد انصرافه ألقى نفسه على السرير يدلك يده المتورمة!

دخل سرطان البحر على أحد المعتقلين اليمنيين قفص المشي، فأمسكه أمام الجندي، لكن السرطان استطاع أن ينقض بمخلبه على يده، بدأ الدم يقطر لكنه تحمل الألم حتى لا يسخر منه الجندي، تظاهر بعدم الاكتراث ثم أمسكه بهدوء وأزال مخلبه ورماه بعيداً وهو يضغط على أسنانه في الخفاء من شدة الألم.

بعد فراغنا من إحدى الأمسيات الجميلة، زينتها الأناشيد والقصص والطرائف وسط حنق الجنود الذين يقطعون الدهليز للمراقبة، سألنا أحدهم بحقد يتطاير شرره من عينيه: أنتم تضحكون أكثر منا! من أين تحصلون على هذه السعادة؟

كنا نتمازح بينما انطوى أحد المعتقلين على نفسه ممتعضاً، قال له أحدهم: لِمَ لا تشاركنا؟ فقال: كيف أرقص في عرسكم ومأتم أمتنا لم ينفض بعد؟ كيف أشارككم المزاح ولا زلنا وقوفاً لتشييع جنازة كرامتنا في القدس؟ وجم الجميع وتحولت البسمة إلى لوحة حزينة، قلت له: غفر الله لك يا فلان، ما المانع أن يمزح المعذب رغم الألم، وينتزع الابتسامة من مخالب الحزن والكآبة؟ ما المانع أن يكافح المؤمن وهو يضحك ويقاوم وهو سعيد ويطالب بالعدالة دون أن يشكو السلاسل في يديه وعنقه؟

رأى أحد المعتقلين فأراً يدخل زنزانة فارغة فأخذ ينادي جيرانه المعتقلين: انظروا يا شباب إلى هذا الفأر الغبي، نحن نريد الخروج من هذا المعتقل بأي طريقة وهذا الأهبل يدخل الزنزانة باختياره!

كان المعتقلون يتحدثون عما يتناقله البدو من فوائد بول البعير لنعومة الشعر ومنع الصلع، كان من بينهم شاب ظريف دون العشرين، تحدث له دوماً مواقف طريفة، بدأ الصلع يغزو رأسه دون خجل، تراجع نحو الخلاء وهو يغطي نفسه بالبطانية كأنه يقضي حاجته، عاد إليهم بعد قليل وهو يسأل أحدهم: استخدمت بولي بدل بول البعير فهل تتوقع أن أثره سيكون أقوى؟!!

سأل المحقق الأمريكي أحد المعتقلين السعوديين: ما اسمك؟

أجابه: فلان الحربي.

التفت المحقق إلى المترجم مستفهماً: ما معنى (الحربي)؟

أجابه المترجم: (Warrior)!

نظر المحقق إلى المعتقل وهو يبتسم ابتسامة ماكرة كأنه اكتشف السر الأعظم، ثم قال بخبث: لماذا اختار أهلك هذا الاسم الإرهابي تحديداً؟ هل يؤيدون الإرهاب؟

في الأيام الأولى من اعتقالنا في جلال أباد سأل المحقق الأمريكي أحد الأسرى السعوديين ممن كان يتصف بالطيبة والبساطة: ما الذي جاء بك إلى أفغانستان؟

أجابه: لتجارة المخدرات!

رد عليه المحقق: لكن الطالبان حرقوا كل محاصيل الخشخاش ومنعوا الاتجار بها، ثم إن وجهك لا يشبه وجوه تجار المخدرات، بل يبدو أنك لا تدخن أيضاً!

: من الواضح أنك لا تعرفني، أنا أكبر مدمن للتدخين.

: حسناً.. كم سيجارة في العلبة؟

أجابه: تسع عشرة سيجارة!

: كلا، بل عشرون.

لكنه فاجأه قائلاً: هذا بعد أن أهدي لك منها سيجارة!

الصليب الأحمر:

وأخيراً سمح لنا بالاتصال كل شهرين بأهلنا سنة ٢٠٠٩ لمدة ساعة، ثم أصبحت بعد زمن ساعة كل شهر، لكن هذه الساعة مليئة بالمشاكل التقنية وضعف الصوت وتشويش الصورة، وفي السنتين الذهبيتين ٢٠١١/٢٠١٢ طلبنا من الإدارة المتعاونة معنا أن يزيدوا من مدة الاتصال مع أهلنا الذين حرمنا منهم سنين طويلة، طلبنا أن تكون ساعتين كل شهر أو ساعة كل أسبوعين، فأخبرنا الضابط أن الصليب هم من حددوا هذا الوقت ولو طلبوا زيادة الوقت لوافقنا، وحين واجهنا الصليب بالمعلومة التي كان ينكرها سابقاً أقر بذلك مبرراً عدم قدرته على توفير الاتصال لساعتين لكل المعتقلين بسبب عدم وجود عدد كافٍ من الموظفين، وحين حسبنا المعتقلين الذين يتصلون بأهليهم وجدنا أعدادهم قليلة وأن الصليب قادر دون أدنى مشكلة على توفير الزيادة في وقت الاتصال، حينها غير مسئول الصليب عذره زاعماً أن المشكلة الحقيقية في عدم قدرة بعض الأهالي المتواجدين في القرى البعيدة عن العاصمة في اليمن وأفغانستان عن الحضور كل أسبوعين للاتصال، ولا قدرة للصليب على توفير أجرة المواصلات للعائلات الفقيرة.

قلت: إذن لماذا لا تعطون هذا الحق لبقية المعتقلين؟

: لا نستطيع تمييز بعضكم على بعض.

: هذه ليست ميزة بل حق، فكيف تحرم البعض حقهم لأنك لا تستطيع توفيره للكل؟ العدل في الظلم ظلم، أنتم تدعون أن مهمتكم في أفغانستان إنسانية صرفة، حسناً.. هل استطعتم توفير الطعام لكل الفقراء؟

: لا.

: إذن لماذا تميزون البعض بالغذاء؟

: نفعل ما نستطيع.

: كذلك فافعلوا بالاتصال!

ابتسم ابتسامة صفراء وقال: لا نستطيع ذلك.

: ماذا لو وافق إخواننا الذين لن تتمكنوا من توفير الاتصال لهم على أن نتصل بأهلنا ساعتين شهرياً؟

: لا نستطيع.

قلت له غاضباً: أنتم لا تقومون بواجبكم، هذه ليست أموالكم لتمنعونا.

فقال بعنجهية: بل هي أموال الصليب الأحمر.

قلت له: كذبت، هل تعلم كم تنفق الكويت عليكم وأنتم لا تستحقون ذلك؟ هل تعلم أن أكبر مركز إقليمي للصليب في بلدي.

أخبرني المحامي باري وينغارد بعدها أن الكويت وبعض دول الخليج تدفع مبالغ طائلة للجنة الصليب الأحمر الذين يمنون علينا بما ندفعه لهم.

لم يكن العاملون في لجنة الصليب الأحمر على درجة واحدة من التعامل، فمنهم من كان متعاطفاً بحق، وآخرون كانت مجرد وظيفة يسترزقون منها لا أكثر، وآخرون يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب، كان أحد أعضاء الصليب يعمل قاضياً في إحدى الدول الأوروبية قبل التحاقه بلجنة الصليب، اجتمعت معه سنة ٢٠٠٥ تقريباً في المعسكر الخامس في الغرفة الصغيرة المخصصة للقاء المعتقل بأعضاء الصليب، كان لقاؤنا بعد لقائي بالمحققين في غرفة التحقيق، سألني أسئلة غريبة لا علاقة لها بالوضع الإنساني كأسئلة المحققين، سألني: هل تدربت في المعسكرات؟ هل قاتلت؟ هل تعرف فلاناً وفلاناً؟ كان وضعه مريباً، والذي زاد الأمر ريبة هو أنه بعد انصرافه مني فتح

الباب بصورة غير متعمدة فرأيته يقف في الخارج مع المحققين الذين كانوا يحققون معي قبل ساعات، أي أنهم كانوا ينتظرونه طوال هذه المدة! وغوانتانامو مليئة بالقصص المماثلة التي حدثت للكثير من المعتقلين مع بعض أعضاء الصليب.

حين خرج الأسرى المحاصرون في قلعة جانغي بعد أيام عصيبة قل لها مثيل في التاريخ البشري، حيث حاولوا إغراقهم بتغيير مجرى النهر إلى داخل سرداب القلعة التي يتحصن بها الأسرى ثم محاولة توصيل الكهرباء بالماء، ثم محاولة حرقهم، وفي نهاية القصة التي هي أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع جاءت مندوبة الصليب إلى أحد الأسرى المقيدين وأشارت إلى المصور ليلتقط لها صورة وهي تطعم الأسير تفاحة، وحين أحس الأسير بالإهانة رفض الأكل من يدها، فتوجهت إلى أسير آخر قد أنهكته الجراح، وحين قربت التفاحة منه قضم منها قضمة فالتفتت مندوبة الصليب إلى المصور وسألته إن كان قد التقط الصورة، فلما أجابها بالإيجاب رمت التفاحة دون أن يكمل الأسير سد رمقه بها!

أخبرني الضابط أن الصليب هم من حددوا مدة الاتصال مع أهالي المعتقلين بساعة واحدة، وبسبب تدخلهم في موضوع الاتصال أصبح الصوت ضعيفاً لأن الاتصال يكون بالتنسيق مع الصليب في غوانتانامو ثم يمر الاتصال عبر واشنطن ثم إلى بلدنا ولولا تدخلهم لأصبح الاتصال مباشراً من غوانتانامو إلى بلدنا بإشراف الجيش، قلت لأحد مسؤولي الصليب: لماذا لا ترفعون أيديكم عن الاتصال نهائياً؟ من مصلحتنا أن يكون الاتصال مع أهلنا عن طريق الجيش مباشرة منعاً للتشويش الذي نعانيه بسبب الإجراءات الأمنية والإدارية التي لم تكن لولا تدخل الصليب في الاتصال، أخبرني بأنهم يرفضون هذا الطلب كما أن الجيش الأمريكي سيرفضه قطعاً لأنهم يحتاجون وجودنا هنا!

الجيش الأمريكي في غنى عن وجود لجنة الصليب الأحمر في منشأة الاعتقال، فهو قادر على فعل أضعاف خدمات لجنة الصليب التي لم تقم بأي شيء لمصلحة المعتقلين إلا ما أرادت الحكومة الأمريكية نفسها أن تقوم اللجنة به، فهناك اتفاقية بين الحكومة الأمريكية مع لجنة الصليب في عدم نشر أي معلومات عن معسكر الاعتقال إلا ما أرادت الحكومة نشره، فلا يوجد ما تخشاه منهم، لكنها تستغل وجود الصليب لإضفاء الصفة الإنسانية للمعتقل كما تستغل المحامين في إضفاء الشرعية القانونية للممارسات التعسفية والتعذيب الممارس ضدنا.

كان هناك أعضاء في لجنة الصليب الأحمر متعاطفون معنا ومستاؤون من الانتهاكات الصارخة للكرامة الإنسانية داخل المعتقل، منهم (عامر الزمالي) دكتور تونسي ترك العمل مع لجنة الصليب الأحمر بسبب ما رآه من انتهاكات للإنسانية، (عبد

الكريم) مغربي الجنسية منع من فيزا للولايات المتحدة بسبب تعاطفه مع المعتقلين، وأصبح مريضاً نفسياً يعيش على حبوب الاكتئاب بسبب ما رآه من تعذيب للمعتقلين.

المؤامرة عقدة أم حقيقة؟:

لكل حقيقة طرفان، طرف ينكرها وآخر يغالي بها، وكل منهما يستدل على صوابيته بإثبات خطأ الآخر، وتآمر الأعداء لا يخرج من هذه القاعدة، أما وجود المؤامرة على أهل الإيمان فحقيقة أثبتها القرآن: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾، العلم بالمؤامرة يولد الحذر والحذر مهم للمؤمن فهو يعيش في غابة متوحشة لا ترحم، يأكل القوي فيها الضعيف، وضعف هذا الشعور يجعله ضمن خطط الآخرين، ولا شيء أبهج لأعدائه حين يستبدل مشاعر الحذر بالاطمئنان بدعوى التعايش ونبذ الكراهية وحسن الظن بالآخرين.

لا أتصور أبداً أن تترك الولايات المتحدة منطقة الشرق الأوسط تبحر في الاتجاه الذي تريد وهي تعلم جيداً أن عهدها قريب بالجلوس على عرش العالم في تاريخ ممتد يتجاوز الألف عام، المؤامرة حقيقة أحالها الغلو فيها إلى عقدة.

التقيت بأخ مُسِن في المعسكر الرابع، كثير العبادة، تغلبه حدة طبع مغمورة في طيبة قلب، كان عنده شيء من عقدة المؤامرة، كل أمر يرجعه إلى مكر الأمريكان حتى خلته يرجع كل مشاجرة في جزر الكناري إلى مؤامرة من وكالة الاستخبارات المركزية، كان يحدثني بحماس عن الخطة الأمريكية التي سمحت للمقاتلين بالتسلل إلى العراق بحجة طرد قوات الاحتلال الأمريكية حتى يسهل ضربهم والقضاء عليهم، إن هذا التصور يدمر النفسية ويحطم الأمل ويصيب الإنسان بالشلل التام، ولن يُستثنى من هذه الفكرة أحد حتى نفس المتكلم الذي قد يكون مجرد أداة، إنه تصور مرعب يسلب منك إرادتك فلا تفكر ولا تقرر بل تستسلم لليد التي تظنها تدير كل المشاهد في العالم، ولماذا تدافع عن حقك مادام الأمر بيد أمريكا وبريطانيا وإسرائيل؟ إنه في أيدي كل الناس إلا نحن!

امتعضت بصمت عندما أتاني يوما متهللاً وهو يخبرني عن رؤيا رآها في المنام عن اندحار قوات الاحتلال الأمريكي عن بلاد المسلمين! ثم سألني: ما تأويلها؟!

أخذت أنظر إليه مخاطباً نفسي: نحلم أننا طردنا الغزاة ونستيقظ في انتظار تحقق الرؤيا دون أي خطوة واحدة إلى الأمام!

التعاطف والتقمص العاطفي:

في غوانتانامو لا يخرج المعتقل من مشكلة إلا ويدخل في أخرى، يبذل جهوداً جبارة لدفع الضرر عن نفسه أو عن إخوانه، ثم لا يلبث أن يجد نفسه غارقاً في المشاكل التي لا آخر لها، هنا أخ يعاني آلام الأسنان لفترة تصل إلى سنة، وآخر يئن من آلام المغص بسبب سوء الطعام، وآخر يعذب في غرفة التحقيق، وآخر يقبع في انفرادي العقوبات يسومه الجنود سوء العذاب، مئات المشاكل يومياً، تستنزف قواك وتنهك روحك وتقذف بك في دوامة عنيفة تضيع فيها بوصلتك الحقيقية، فتعالج العرض لا أصل المرض، وتبقى حيران ما بين الغرق في المشاكل أو الغرق في السلبية، ما بين أن تعيش مشكلة بطانية وكوب واستهزاء جندي فتنشغل عن حقيقة الصراع بين أمتنا وأخرى متجبرة طاغية تتحكم في العالم ويستعبد الشعوب، وبين أن تنعزل تماماً عن واقعك المرير ويتبلد إحساسك بكثرة الحوادث التي يدعوك فيها ضميرك لنصرة المظلوم فتختبئ وراء ألف عذر، كل هذا كان يتم من خلال خطة مدروسة لإعادة برمجة المعتقلين كي يذوبوا في واقعهم ويحطموا رغبتهم في التغيير.

سألني المحقق يوماً: لماذا رحلت إلى أفغانستان؟

: أجبتكم آلاف المرات للأعمال الإغاثية.

: دليلك؟

: بإمكانك أن تتصل بقواتكم في كابل لتلقي نظرة على البئرين والمسجد الذي أقمته.

: عندي لك خبر جيد وخبر سيئ.

: ما هو الجيد؟

: اكتشفنا البئرين والمسجد في القرية القريبة من كابلْ.

: رائع.. وما هو السيئ؟

: هذا لا يعني لنا شيئاً، ستبقى في غوانتانامو حتى يقرر الرئيس الأمريكي ووزير الدفاع إطلاق سراحك!

عادة المحققين الأمريكان أن يحتفظوا معهم خلال التحقيق بكراسة صغيرة يكتبون فيها ملاحظاتهم على حركات المعتقل أو زلة لسان قد يُستخرج منها معلومات مهمة، كما يكتبون فيها نقاطاً رئيسية يدور حولها التحقيق.

قال وهو يقلب عينيه في الورقة: شيء غريب فعلاً. . وجدت الكثير من الأسرى كانوا يعيشون حياة رغيدة وينحدرون من أسر راقية تعتبر النخبة في مجتمعاتهم، أحدهم من الأسرة الحاكمة في بلده، وآخرون من الدائرة المقربة من مراكز الحكم، هناك أسرى أغنياء جداً ومثقفون جداً. . لماذا؟ لماذا تركوا كل هذا الرخاء وذهبوا إلى بلاد فقيرة ينتشر فيها المرض، تفتقر إلى أدنى المعايير لتحقيق الرفاهية؟ من خلال تواصلك الطويل معهم هل يمكنك أن تخبرني لماذا؟

: وجدتهم يشتركون في خصلة مهمة قد تكشف لك السر.

: ما هي؟

: العاطفة الجياشة. . أغلب هؤلاء الأسرى حَرَّكَتْهُم العاطفة وليس الفكر، لم يكن عندهم مشروع فكري بل مشاعر جياشة دفعتهم إلى التخلي عن الحياة المترفة، كلما رأوا طفلاً يصرخ مذعوراً أو امرأة تولول فوق جثة زوجها تَأَجَّج جحيمٌ لا يبرح صدورَهم، مشاعر الخذلان تقتل أصحاب المروءات، لقد كانت أرواحهم معذبة وأجسادهم منعمة فاختاروا نعيم الأرواح لا الأجساد، قذفوا أنفسهم في الأتون ليطفئوا بنار أجسادهم جمرَ قلوبهم، هذا سرهم، قد لا تفهم ذلك لكنها الحقيقة التي رأيتها.

: هل معنى كلامك أن بقية المسلمين لا عاطفة عندهم؟

: (there is a difference between sympathy and empathy) هناك فرق بين أن تتعاطف مع المبتلى وتواسيه وبين أن تعيش مأساته وتشعر بألمه، فرق بين تمعر وجهك حزناً على البيوت المهدمة على رؤوس ساكنيها وبين شعورك أن في ذلك البيت والدك وأمك وزوجتك وأولادك، فرق كبير بين أن تحزن للمتألم وبين أن تعيش ألمه، لا تقارن قطرات التعاطف بطوفان جارف يريد إطفاء نار الظلم بسيوله الغاضبة، الكثيرون مصابون بما يشبه مرض (الكتاتونيا)، حين يجبرهم الواقع الأليم على أن يعيشوا كالأموات والجمادات بلا مشاعر ولا أحاسيس، إنهم يريدون الهروب من الخوف والألم ليصنعوا عالمهم الخاص بعيداً عن كل ما يجري حولهم، يرون شلالات الدماء تتدفق حولهم ليقفوا أمامها كالخشب المسندة.

أخذ ينظر إلي ملياً وكأنه يتمنى لو استطاع الغوص في أعماقي.

قلت: لك عندي خبر جيد وخبر سيئ!

: ما هو الجيد؟

: قامت منشأة الاعتقال هذه على خطة ماكرة تهدف إلى تحطيم الـ (empathy)

الذي هو التقمص العاطفي في نفوس المعتقلين، وضعوهم في أقفاص يستطيع أحدهم من خلالها مشاهدة الآخر، فيراه بجانبه يضرب ويهان وهو لا يستطيع تقديم يد العون له، ولو حاول لعوقب عقوبات شديدة صارمة، مرة بعد مرة يبدأ هذا التقمص العاطفي في التفتت والتلاشي شيئاً فشيئاً حتى يصبح كبقية الناس يتوقف تعاطفه عند الكلمات وتمعر الوجه.

: وما هو الخبر السيئ؟

: لقد فشلتم في تدمير هذه العاطفة الـ (empathy).

تمعر وجهه وهو يطلق زفرة حائرة ثم قال: كيف نوقف برأيك شرارة التعاطف الـ (empathy) من الانتشار بين المسلمين حتى لا يتحولوا إلى إرهابيين يسلكون طريق العنف في التغيير؟

: بإمكاننا أن نعيش معاً في سلام لكنه السلام المشروط بالعدل والاحترام، أما سياسة الصلف والعنجهية والاستعلاء وقتل الأبرياء وهدم بيوتهم في أفغانستان والعراق والشام واليمن ودعم إسرائيل العنصرية التي تمنع الجنسية من غير اليهود وتحرم الفلسطينيين من أبسط حقوقهم فلا تحلم بالسلام، أقول لك بكل صراحة إني سمعت بعض القيادات الجهادية في المعتقل يقولون بأن السبب الرئيس لكل ما حدث هو دعمكم لإسرائيل، أخبرني أحد الشباب في المعتقل أنه بمجرد رؤيته لمحمد الدرة وهو يتلبط قتيلاً بين يدي والده رتب أموره ليأخذ إجازة مفتوحة من عمله المرموق، ويقطع تذكرة ذهاب لا عودة ليصفي حساباته مع من دعم قتلة محمد الدرة.

: أتنكر أن في ممارسات هؤلاء ما يستحق أن يوصف بالإرهاب والتطرف؟

: لابد أن يوجد في كل حركة تحررية أو ثورية من أي دين كانت ما يُعَدُّ انحرافاً مهما نبلت الأهداف، وحين تزداد شراسة المعتدي ويبلغ الظلم مداه تتفلت النفوس الغاضبة من التقيد بالمبادئ والمُثُل وتكون ردات الفعل هي سيدة الموقف، حينها يخسر المظلوم عدالة القضية التي هي أهم بكثير من كسب الجولة، لكن انحراف المظلوم صاحب الحق في التزام أخلاق الفرسان عند المطالبة بحقه لن يجعل الظالم فارساً شهماً يدافع عن حقه.

: هؤلاء الأسرى قساة ومتطرفون، انظر كيف يعاملون جنودنا.

: ليسوا قساة، لقد رأيتهم يتعاملون مع الجنود المحترمين تعاملاً راقياً، هذا يعني أنهم يتعايشون من الآخرين لا مع المعتدين.

: وهل ترانا معتدين؟

: وهل تعتقلني في غوانتانامو طوال هذه السنين لتسألني هذا السؤال؟

رفع صوته غاضباً: لماذا تكرهوننا؟

: تقتل وتعذب، تحاصر وتجوع، تسحق وتدمر، ثم تتباكى قائلاً لماذا يكرهوننا؟ نحن نتعايش مع من يختلف معنا في الدين والقومية والعرق، لكننا لن نتعايش أبداً مع الظلم.

غسيل مخ:

لم يقتصر برنامج إدارة المعتقل في عملية غسيل المخ وإعادة البرمجة على المعتقلين فحسب، بل تعداه إلى الجنود كذلك، أدركت الإدارة أن عليها فرض دورات فكرية للجنود الذين بدؤوا يتأثرون بسلوك المعتقلين وحججهم فيما يتعلق بطبيعة الصراع مع الولايات المتحدة أو ما يتعلق بالإسلام، فاهتزت الصورة التي حاولت الإدارة غرسها في أذهان الجنود وهي أن هؤلاء المعتقلين مجرمون قتلة لا يستحقون أي معاملة إنسانية، فبمجرد وصول الجندي إلى غوانتانامو يتلقى دورات عن طبيعة المعتقلين وإقناعهم أنهم متطرفون إرهابيون يتظاهرون بالتمسك بالفضيلة والأخلاق، عادة ما يكون الجندي متشنجاً في الشهر الأول قد امتلأ حقداً، سرعان ما يخف هذا التشنج عند البعض في الشهر الثاني حين يجد المعتقلين على خلاف ما سمع عنهم، ويبدأ التعاطف في الشهر الثالث والذي يتم فيه استبدال الجنود بآخرين يمرون بنفس الخطوات حتى يبقى الجنود أسرى للصورة النمطية التي نجحت الإدارة بغرسها في أذهانهم عن المعتقلين.

أدركت أثر الحرب الإعلامية في توجيه الرأي العام إلى ما يريده ذوو النفوذ، وأدركت أيضا أن الغالبية الساحقة من البشر لا يفكرون بحيادية وعقلانية، بل هم مجرد آلات يؤجرون عقولهم لمن يملك لقمتهم، فالبحث المتجرد عن الحقيقة يرهق النفوس المجبولة على إيثار الراحة والتخلص من المسؤولية فتتهرب منه وتختار البقاء ضمن القطيع الذي يضمن لها حزمة العلف آخر النهار.

معجزة:

عشنا معهم أكثر مما عشناه مع أهلنا، أربعة عشر عاماً، يوماً بيوم، ساعة بساعة، لحظة بلحظة، وفي كل يوم عشرات المواقف والمشاكل والمتاعب، عرفناهم وعرفونا، عرفناهم كيف يفكرون وكيف يتصرفون وكيف يكذبون وكيف يتلاعبون،

عرفناهم كيف يتعلمون من أخطائهم ويعاودون الكرة دون كلل أو ملل مرة بعد مرة، وعرفونا بمواطن قوتنا وثغرات ضعفنا، ما هو السيف الذي نواجه به وكيف يلوونه ليقتلونا به، ولم أجد أدق من وصف الله حين قال: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ ومن عرف دهاء الأمريكان أيقن أنه لولا أن الله قد تكفل بحفظ دينه لما بقي اليوم على وجه الأرض مسلم، وأن بقاء قلب الإسلام ينبض حتى اللحظة على الرغم من هذه المؤامرات الرهيبة دون أن يكون لديه كيان يحميه دليل تأييد سماوي يعجز البشر عن تفسيره بغيره.

دولة عاتية طاغية، متمردة على كل الأعراف والأخلاق، إنها هتلر بوجه مهاتما غاندي، تدمي الجرح وتداويه فتنسى الشعوب إدماءها ويتذكرون مداواتها، تطأ على ملايين الجثث وأوجاع الأمم لتغرز فوقها راية حرية لم تر الشعوب منها إلا العبودية، أنى لهؤلاء الفتية في زنازينهم الانفرادية في قبضة المارد أن يحتفظوا بدينهم وإنسانيتهم رغم كل ما حدث؟ إنها معجزة.

اللغة الإنجليزية:

التقيت بالمحامي المدني ديفيد سينامون يوم الإثنين التاسع من يونيو سنة ٢٠٠٨، كان بصحبته مترجم لبناني نصراني ممتلئ حقداً وحنقاً على المعتقلين، كان يكلمني بغرور ويترجم باستعلاء، خصلتان لا أطيقهما، طردته من الجلسة مباشرة، قال المترجم: لن أخرج إلا بإذن المحامي، قلت للمحامي: إن لم تطرد هذا المخلوق فستكون لحظة النهاية معك، ستخرج معه بلا عودة، أطرق مفكراً ثم أشار للمترجم حسناً باستطاعتك الانصراف، خرج المترجم وشرر الغيظ يتطاير من عينيه،

قال لي المحامي هامساً: فايز.. كيف سنتواصل إذن من غير مترجم وأنت تعلم أن المترجم المصري السابق الذي تحب أن تتعامل معه في وعكة صحية؟

قلت بلغة إنجليزية ركيكة: لا عليك.. سيكون حديثنا بالإنجليزية في اللقاء القادم بإذن الله، جحظت عيناه باستغراب: ماذا؟ بعد شهرين فقط؟

: نعم بإذن الله.

تفاهمنا في هذا اللقاء بصعوبة نظراً لاضطراره استخدام بعض المصطلحات القانونية، فكنا أحياناً نستخدم لغة الصم والبكم، كنت متفوقاً بالإنجليزية حين كنت طالباً في المدرسة لكني لم أستخدمها بعد خروجي من كلية الهندسة في السنة الثانية ولم تكن من اهتماماتي، لكني ازددت بها زهداً حين أسرت بسبب الأخلاق المنحطة للغالبية

الساحقة من الجنود الذين لا تسمع منهم إلا السب الفاحش والاستهزاء الجارح والعنصرية البغيضة، خاصة أن أكثرهم يعتبر مستوى ذكائه أكثر قليلاً من مستوى ذكاء الكوسا والباذنجان وآخرون ينتمون إلى فصيلة الفطريات في الذكاء، كان غالب الجنود أغبياء بينما هناك بعض القيادات تمتلك عقولاً عبقرية هي التي تدير المشهد وتخطط في الظلام، لم أظن أن هؤلاء القوم بهذه الضحالة الفكرية، ليس الجنود فحسب بل حتى أغلب الضباط، وعلمت أن الكثيرين منا مخدوعون بأفلام رامبو وكومندو، ولو رأى العالم ما رأيناه لعلم أن الغالبية منهم لا تصلح رؤوسهم إلا كمطارق، وحين نجد من نتوسم فيه الذكاء والنباهة فإننا نفرح لأننا سنتعامل مع صاحب منطق وإن كان يخالفنا الرأي، وفعلاً بعد رجوعي إلى الزنزانة اجتهدت في حفظ خمسين إلى ستين كلمة إنجليزية جديدة، وبعد شهرين كان مجموع ما أحفظ من الكلمات الإنجليزية أكثر من ثلاث آلاف كلمة والتي بلغت بعد عدة أشهر إلى أكثر من ستة آلاف وخمسمائة كلمة، غرق المحامي في الضحك مندهشاً في اللقاء اللاحق ونحن نتفاهم بالإنجليزية، قلت له: الحاجة أم الاختراع ورأس الإبداع.

جهاز كشف الكذب:

دخل علي محقق في إحدى المرات وهو يبتسم ابتسامة خبيثة، قال: سنعرضك على جهاز كشف الكذب الذي يستطيع التمييز بين الصادق والكاذب من خلال عملية فحص دقيقة جدّاً، لقد أحضرنا الجهاز مؤخراً إلى غوانتانامو مع فريق خاص لإجراء هذه الجلسة التي ستحدد كذبك من صدقك كما ستحدد مصيرك في غوانتانامو، فهل أنت موافق؟

قلت: نعم بالتأكيد، ومتى ستظهر النتيجة؟

: مباشرة.

: حسناً.. أوافق لكن بشروط!

: أنت لا تشترط هنا في غوانتانامو.. أنت تنفذ فقط.

: أظن أني إذا عُرِضْتُ على الجهاز وأنا رافضٌ له منفعلٌ فسيؤثر سلباً على النتيجة ولن تكون دقيقة أليس كذلك؟

سكت هنيهة ثم قال بتذمر: نعم بالتأكيد، ستوافق أليس كذلك؟

: بشروط!

: وما هي؟

: سأسألك عشرة أسئلة فإن استطاع الجهاز معرفة الصدق من الكذب فسأجري الجلسة الآن، لكن هذه الأسئلة لن تستطيع معرفة جوابها الآن إلا إذا تواصلت مع أشخاص في الكويت فيبحثون عن أجوبتها ثم يجدونها لاحقاً!

وقف مشدوهاً وهو يقول: لم أسمع بمثل هذا الشرط من قبل، لكن لماذا؟

: أخبرتني أن هذا الجهاز سيحدد مصيري، إذن فالموضوع خطير جداً، ولابد أن أثق أولاً بقدرة الجهاز على اكتشاف الصدق من الكذب لأني من سيدفع ثمن خطئه، أعتقد أنه شرط عادل!

ساد الصمت في المكان بينما أخذ يتجول في غرفة التحقيق ينظر إلي تارة وإلى الأرض تارة.

: في حال رفضنا شرطك؟

: رفض برفض، لن أتحمل خطأ الجهاز!

قطع حوارنا صوت طرق الباب، خرج المحقق ثم عاد بعد وقت طويل، قال: يجب أن توافق على الجلسة دون قيد أو شرط وإلا فهذا يعني أنك كذاب تتهرب من الجلسة التي ستظهر لنا كذبك.

: أكرر.. أنا أوافق على هذه الجلسة لكن ليس قبل أن أثق بقدرات الجهاز، أعتقد أن هذا حقي وحق كل إنسان يتعرض لمثل موقفي، ثم لو أني أتيت ببائع طماطم متجول إلى غوانتانامو وعرضت عليه الجهاز ثم قلت له أنه سيحدد مصيرك فسيرتجف خوفاً وقلقاً حتى ولو كان بريئاً، ومهما حاولتَ أن تخفف من توتره قبل الجلسة لتكون النتيجة دقيقة فلن تنجح لأن محاولاتك لن تقاوم الخوف الجارف من البقاء في غوانتانامو ومع هذا أقول بكل وضوح إني أوافق تماماً على هذه الجلسة بل سأفرح لأنها ستكون دليلاً دامغاً على براءتي وكذب ادعاءاتكم وافتراءاتكم لكن بعد التقيد بالشرط وتنفيذه!

كانت عيناه تحملقان إلي دون أن تطرفا، رفعت يدي المقيدة باسطاً أصابعي قائلاً: عشرة أسئلة ليست بالكثير لإنسان سيتحدد مصيره بها، عشرة أسئلة فقط!

: ما طبيعة الأسئلة؟

: على سبيل المثال.. هل هناك شارع فى الكويت اسمه شارع الزهور؟ هل مطعم السلام يقع في منطقة كذا؟ ستعرف الحقيقة لكن ليس الآن.

رأيت في وجهه ألوان الطيف من الانزعاج الذي سيطر عليه، ابتسمت قائلاً: ستعرفها لاحقاً وسنرى جميعاً إن أصاب الجهاز في النتيجة أم لا؟ فإن أصاب فسأجري الجلسة الآن مباشرة.

: فإن لم يصب الجهاز؟

: أقترح أن تحولوا الجهاز من جهاز كشف الكذب إلى جهاز كشف غازات المعدة، على الأقل يُسْتَخْدَم في أمر يفيد البشرية!

حسرات:

كنت منجذباً نحو الاستكثار من العلم، مجتهداً في مضماره، فلما وقعت في الأسر تملكتني الأحزان والحسرات لأني حرمت الاستزادة من العلم النافع والعمل الصالح، كم كنت أود لو سجنت في مكتبة عامرة بالعلوم فإذا بي في زنزانة خاوية على عروشها، قد حبست عن السباق فصرت في المؤخرة، هكذا ظننت، تمر علي الأشهر والسنين أحياناً دون أن أحظى بكتاب ذي قيمة إلا لَمَماً، لن أنسى المحقق وهو يقول لي والحقد يبرق من عينيه: لن نجعل غوانتانامو لكم مدرسة يوسف كما تزعمون، العلم سلاح ولن نمنحكم إياه!

لا زالت في مخيلتي تلك الرؤيا التي رأيتها في ليلة لَيْلاء وَجَعُها أَشَدُّ قَتاماً من ظلمتها، رأيتني في فصل دراسي جالساً على كرسي، يقف أمامي معلم يشير بعصاه على لوحة معلقة يشرح لي أمراً، ثم التفت إلي وقال لي جملة ما قرأتها من قبل ولا سمعتها، قال: ليس الشأن فيما تأكله الأم، إنما الشأن فيما يخرج من ثدييها!

استيقظت فزعاً دونما فزع، يخفق قلبي من وقع تلك الكلمة التي زلزلتني من الأعماق، (ليس الشأن فيما تأكله الأم إنما الشأن فيما يخرج من ثدييها)، ليس الشأن فيما نقرأ ونحفظ ولا كم نقرأ ونحفظ، بل الشأن في اليقين بها وما نترجمه إلى أعمال، كما ليس الشأن فيما يجمعه الفلاح من بذور إنما الشأن فيما يزرعه ويجنيه ثمراً يانعاً بهجةً للناظرين ولذةً للطاعمين.

مثل العلم بالحقيقة واليقين بها والعمل بموجبها كمثل جهاز روبوت، أما العلم فهو بمثابة المعلومات المخزنة التي يتحرك بموجبها، وأما اليقين فهو بمثابة شحنه بالطاقة، ولولا الطاقة المشحونة ومكابدة السعي لما استفاد من معلوماته المخزنة شيئاً ولما تقدم شبراً نحو الأمام، نحن إلى أن نعيش الحقيقة أحوج منا إلى الاستكثار منها، كفى جمعاً للمعلومات عن العسل، نريد الارتشاف منه، حفظنا كماً كبيراً عن أسباب السعادة ولا زلنا غارقين في الأحزان.

إنه اليقين لا غير هو الذي أقام سحرة فرعون هذا المقام الشريف الذي تقاصرت دونه أعناق علماء تساقطوا من أول اختبار، اليقين الذي لا يحتاج إلى كثرة المعلوم بل رسوخه.

إن للأسر سراً يكسر قيود الروح بأصفاد الجسد، سراً لا يظهر إلا حين تجد الله، فإن وجدته وجدت نفسك، إنه الانزواء الذي يتبعه الانطلاق، إنك لن تجد عالماً يبحث بالميكروسكوب عن خفايا الذرة على قارعة الطريق، سيغلق عليه الباب بعيداً عن الصوارف، هناك أمور نحتاج أن نغلق أعيننا لنراها جلية.

كان المعسكر الخامس فرصة ثمينة لإعادة الحسابات والانعتاق من ربقة التأطير العلمي والفكري لأنظر ملياً فيما حفظت وتعلمت، لأضعه في الميزان فأعرف غثه من سمينه، لأقف في أرض المعركة بين الصفين، ألتفت إلى هذا تارة وإلى ذاك تارة، خير للمؤمن أن ينعزل عن مجتمعه حيناً، يتحسس التواءات نفسه ويتفقد عثرات طريقه، ويسرح ببصره في ذيل الكون ليدرك عظمة ما يطلب.

كان صلى الله عليه وسلم ينعزل عن مجتمعه كل رمضان يتعبد في ذلك الغار المظلم، ثم ينظر إلى مكة تلوح من بعيد، إن اختلاءه في غار حراء بعيداً عن مكة قربتها منه وقربته منها، كانت عزلته خير معين له على مواجهة الباطل المعربد والجاهلية المتكبرة العنيدة، كان يحتاج حقاً إلى زاد إيماني روحي يفيض نوره على قلبه وكلامه وجوارحه حتى يستطيع كسر الأغلال المحيطة بالقلوب القاسية الرافضة لنور الهداية، فالكأس لا تفيض حتى تمتلئ، ليس كل وقت يمر دون عمل يعتبر ضائعاً، فبعض الوقت الذي يمضي دون أن تتمكن فيه من العمل قد يكون نوعاً من الاستثمار، يتوقف فيه المسافر للتزود بالوقود أو تنظيف الزجاج الأمامي مما أصابه في طريق هجرته إلى الله.

كم تعجبت من نبي الله يوسف حين تقلب بين ظلمات الجُبّ وصَفَد العبودية وفتنة القصر وذل الأسر وهو النبي الكريم الذي يحمل بين جنبيه نور السماء، كنت أراها خسارة للبشرية الضائعة حين تضيع كل لحظة من حياة يوسف الصديق في غير ما أرسل إليه، عجبت من هذا اليم العباب لا يغترف من طهره إلا اثنان في ظلمة السجن سنين عدداً، عجباً لظلام الحبس الذي أوقد في قلبه قبساً من نور، لقد وارى الله شمعته في السجن بعيداً عن العواصف لتشتعل، يقضي المتسابق ردحاً من عمره يقاسي عناء التمارين بعيداً عن الأنظار، لِيُلَوِّح أمام الجماهير منتشياً بفوز لا يستغرق دقائق، ولا أرى آلام ضرب أبي بكر الصِّدِّيق أمام الكعبة وهو يردد: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ إلا دربة له كي يصدع أمام العالمين قائلاً: «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»، ولا أجد صحبة الغار وصولات بدر وجولات أحد إلا مراناً له كي يواجه بها الخراف الضالة حتى أعادها للحظيرة، معاناة ستين سنة للنجاح في اختبار سنتين!

ها هو الستار يرفع عن أسرار القدر المكنون في قوله: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ اختبرناك

ببلاء على إثر بلاء، ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ بعيداً عن ميدان الصراع نهيئك للمنازلة، ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ دخلت الحلبة في الوقت المحدد الذي يريده الله، إنه القدر الذي ربى حبيب النجار في أقصى المدينة، ليدخل الحلبة في اللحظة الحاسمة وهو ينادي: ﴿...يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۞ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

الزلزال:

في تاريخ ١٢ يناير سنة ٢٠١٠ عصراً كنت في قفص المشي فشعرت بدوار كدت أسقط منه، جلست ممسكاً بالأرض التي كانت تهتز بشكل مخيف جداً، بدأت الأبواب تهتز والأقفال تصطك ببعضها، كان بعض الإخوة مشغولين بمراجعة القرآن فلم يشعروا إلا بهزة خفيفة، استغرقت العملية دقيقة واحدة، دقيقة واحدة فقط، لم نكن نعلم أن خلالها قد قضى نحبه أكثر من ٢٠٠ ألف إنسان بجوارنا!

خلال هذه الدقيقة تم تدمير القصر الرئاسي في هاييتي المجاورة لغوانتانامو، كما أن مقر قوات حفظ السلام فيها قد تدمر ولم يستطع توفير السلام لنفسه!

أخبرنا المحامون لاحقاً أن زلزالاً عنيفاً بلغت قوته سبع درجات دمر إحدى المدن تماماً، كل المباني الكبيرة دمرت، المطار الدولي دمر، القصر الرئاسي سوي بالأرض، وكان من المتوقع حدوث (تسونامي) طوفان جارف يغرق غوانتانامو بمن فيها، وأخبرنا المحامون أن الصحف الأمريكية والقنوات التلفزيونية أعلنت أن أسرى غوانتانامو لايزالون في المعتقل فلا داعي للقلق، وذلك بعد تداول إشاعات أفزعت الأمريكان أن المعتقل دمر وهناك معتقلون هربوا، قال لي بعدها أحد الجنود: كنا خائفين جداً من تسونامي عنيف يجتاحنا جميعاً، ثم أطلق ضحكة مذعورة قائلاً: سنسبح جميعاً في الأعماق، أجابه أحد المعتقلين: ليته فعل، لنجتمع جميعاً بين يدي الحكم العدل فيحكم بيننا بالحق وهو خير الحاكمين.

عدنان:

تقابل مع الوفد اليمني شهر فبراير سنة ٢٠٠٨ فوعدوه بأن يخرج مع أقرب دفعة، خاصة أن الأمريكان قد أعطوه ورقة (clear to be released) وطلبوا منه إيقاف إضرابه عن الطعام الذي استمر سنين، ليكون ذلك عاملاً مساعداً يثبت للأمريكان أنه أصبح مؤهلاً لإطلاق السراح!

كان وعداً كاذباً، وبعدها بدأت المعاناة الحقيقية لعدنان الشرعبي، عاد إلى إضرابه

عن الطعام والتحق مجدداً بإخوانه المضربين، فنقلوهم إلى المعسكر السادس ومارسوا عليهم أنواع التعذيب والإذلال ليتوقفوا عن هذا الإضراب الذي استغلته وكالات الأنباء الإعلامية المعادية لأمريكا.

كان هزيلاً، لكنه من النوع الذي يجيد المراوغة، خطيب بارع يرتجل خطبة طويلة فصيحة بليغة مليئة بالآيات والأحاديث والحكم، ثم تراه يمزح مع إخوانه وينشد، وفجأة تجده قد انطوى على نفسه في حزن متراكب حين يرى الجنود يضربون أحد المعتقلين، لكن حزنه ذلك يتحول دائماً إلى مواجهة طويلة مع الجنود الذين كانوا يحسبون له ألف حساب، ليس لقوة جسده بل لقدرته على صنع المشاكل وإغراق الجنود في بحر من المتاعب، كنت أقول للمعتقلين إن عدنان يذكرني بقول الشاعر:

ترى الرجل الهزيل فتزدريه	وفي أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطرير فتبتليه	فيخلف ظنك الرجل الطرير
بغاث الطير أكثرها فراخاً	وأم الصقر مقلاة نزور
ضعاف الأسد أكثرها زئيراً	وأصرمها اللواتي لا تزير
وقد عظم البعير بغير لب	فلم يستغن بالعظم البعير
يصرفه الصغير بكل وجه	فلا عرف لديه ولا نكير

شددت الحكومة الأمريكية في ألا يقتل معتقل في غوانتانامو، ليبقى المعتقل بين الحياة والموت، فلا هو يحيى حياة كريمة ولا هو يموت موتة شريفة، فكانت القوانين صارمة جداً حتى منعوا الاحتفاظ بقشر الموز والبرتقال وعود التفاح، وأي حصاة توجد مع المعتقل سيعاقب عليها عقوبات شديدة، وكم مرة عوقبنا لأن حصاة التصقت بأرضية نعالنا بعد رجوعنا من قفص المشي!

فكان عدنان يستغل هذه القضية للضغط على الإدارة فيتعمد الاحتفاظ بالحصى وقشور الموز ليستفز الجنود فيأتوا بقوات الشغب ليضربوه ويسترجعوا قشر الموز الذي كان عدنان يسميه (متفجرات) تهكماً بهذا الجنون الأمني الذي أصيب الأمريكان به، كانت حالة عدم الاستقرار في المعتقل ترهق الأمريكان أيما إرهاق كما ترهق المعتقلين، لكن نوعية الرجال كعدنان يمتلكون جَلَداً عجيباً في التحمل والإصرار أذهلتني.

كان يمتلك مهارة خفة اليد فيحرك يديه أمام الجنود بطريقة بهلوانية ليستخرج لهم من بين أصابعه حصاة، فتأتي قوات الشغب لضربه وانتزاع الحصاة التي كان يسميها صاروخ (كروز توماهوك) بعد تفتيش كل أجزاء جسده بدقة، حتى الفم وفتحة الأذن

والأنف، وبعد خروجهم من الزنزانة وقضائهم أكثر من نصف ساعة بملابسهم الثخينة وعرقهم المتصبب لتقييده وتفتيشه، يناديهم ليقفوا أمام النافذة الزجاجية فيحرك يديه كأنه ساحر ليخرج لهم الحصاة من فمه وسط ذهولهم، ليعودوا مرة أخرى ويكرروا كل الإجراءات السابقة في عناء وتضجر، وبعد خروجهم للمرة الثالثة وتفتيشه بقسوة للتأكد من عدم تكرار المأساة يناديهم فيجتمعون أمامه وهم ينظرون إليه في توجس وذهول، فيخرج أصواتاً مخيفة ويحرك يديه بعشوائية ليخرج لهم حصاة من أنفه حتى ظنه بعض الجنود ساحراً وسط ضحك المعتقلين الآخرين، جاءه طبيب نفسي في إحدى المرات ليسأله عن هذه التصرفات الغريبة فأخبره بأن له قدرة فوق حسية، طلب منه الطبيب أن يريه بعضها فقال له عدنان: أستطيع أن أحملك عالياً ثم أسقطك على رأسك دون أن ألمسك، هل تريد أن ترى؟

ذعر الطبيب وهو يقول: لا. . ثم ولى هارباً دون أن يأتيه مرة أخرى!

اتفق أحد الأخوة مع عدنان الشرعبي (رَحِمَهُ اللهُ) وهما في قفص المشي أن يوقفا المشاكل مع الجنود ويتفرغا للقرآن والذكر، لم يكملا حديثهما حتى جاءهما الجندي وأمرهما بالرجوع إلى الزنزانة قبل انتهاء الوقت مدعياً أنهما رفضا الاغتسال، فرفضا الرجوع وجاءتهما قوات الشغب فقاوموها وتم ضربهما ثم نقلهما إلى انفرادي العقوبات، أخذ الأخ ينادي من فتحة الباب: سامحني ياعدنان. . لم نصبر على الاتفاق خمس دقائق!

حتى المترجمون لم ينجوا من متاعب عدنان، لقد فرض البنتاغون قانوناً يجبر إدارة المعتقل على توفير مترجم كلما طلبه المعتقل، حتى يتم التفاهم بشكل أفضل، فقد يقرر الإفصاح عن معلومة أمنية مهمة أو لدراسة الأسرى بصورة دقيقة ولجوانب أمنية أخرى، وبسبب عمليات الشغب الكثيرة مع المضربين والمشاكل المتزاحمة يصاب المترجم بالإرهاق لتواجده أوقاتاً طويلة مع قوات الشغب، وفي إحدى المرات كان عدنان معنا في العنبر فأقام الدنيا رأساً على عقب بعد أن رأى الجنود يعتدون على أحد المعتقلين، أخذ المترجم يتوسل لعدنان رَحِمَهُ اللهُ قائلاً: أرجوك توقف عن المشاكل، لقد تعبت وأنا ألف مثل الحمار طول النهار!

فرددت عليه: أنت من وضعت البردعة على ظهرك.

عدنان شاب يتفجر طاقة وحيوية، ما رأيت في حياتي مثله في الصبر والعناد مع الجنود والخلق الجم مع الإخوة المعتقلين، وحين ضاق بعض الضباط في إدارة المعتقل بمشاكله جاءه (Charlie seven)

وهو اسم يطلق على ضابط الصف المسؤول عن المعسكر، أما (OIC) فهي اختصار (Officer In Charge) أي الضابط المسؤول عن المعسكر، جاءه وأدخل إليه بالخفاء مقصاً ليقتل نفسه، لكن عدنان بدلاً من ذلك نقش بالمقص على بطنه: (C7)!

فأخذوه للتحقيق ليسأله المحقق: ماذا يعنى بـ (C7) وكيف حصل على المقص؟ فأخبرهم أن (Charlie seven) هو من هرب له المقص وكان هذا المسئول من أشد المسئولين تعذيباً للمعتقلين، هذه الحادثة شبيهة بما حدث للأخ عبد السلام الحيلة اليمني، حين عاد من قفص المشي ليتفاجأ بمقص كبير حاد جداً وعليه مادة دهنية مجهولة قد دست تحت فراشه!

يحيطونك بجو من القلق والعذاب ثم يهيئون لك الفرصة لوضع حد له بالموت!

لكن.. لماذا؟ أهو للتخلص من المعتقلين المشاكسين؟ لا أظنه مقتصراً على ذلك، بل لأهداف سياسية أخرى، كحالة عبد السلام الحيلة الذي كان مقرباً من الرئيس اليمني الراحل علي عبد الله صالح، كان عبد السلام معروفاً بصلاحه وأمانته وقربه من الإسلاميين مع ثرائه، وأراد الرئيس اليمني التخلص منه ككبش فداء بسبب الضغوط الأمريكية الشديدة عليه، وبالتنسيق مع الجهات الأمنية المصرية تم إلقاء القبض عليه وتسليمه للقوات الأمريكية التي نقلته إلى معتقل غوانتانامو، وبما أنهم لا يمتلكون أي دليل ضده فأرادوا استخدام قضية انتحاره لتأجيج الشارع اليمني على الرئيس الذي خان أحد مواطنيه بتسليمه للأمريكان، فالأمريكان ليس لهم صاحب، فلا يوجد في السياسة صديق دائم ولا عدو دائم، إنما هي المصالح فحسب.

أراني عدنان مرة صورة ابنه وعيونه قد اغرورقت بالدموع مع ابتسامة حزينة تقطع القلوب، عجبت من هذا القلب الرقيق كيف يزعج إدارة المعتقل هذا الإزعاج العظيم! لقد أتعبهم وأتعبوه.

خرجت قوات الشغب من زنزانته الباردة في إحدى المرات وقد تورمت عينه وأحاطت بها هالة زرقاء، كانت ملابسه تقطر بعد أن صبوا عليه الماء البارد وانتزعوا منه الحصير والبطانية وتركوه في زنزانته الباردة لينام على الحديد، أعطوه قطعتين صغيرتين مما أسماه إخواننا المعتقلون اليمنيون (كدم) ثم أصبح الاسم الجديد الذي ارتضاه المعتقلون ليطلقوه على خلطة من الطعام غير المتجانس الذي تم كبسه ليتماسك، يتميز برائحته الكريهة وطعمه غير المستساغ والإمساك الذي يعقبه.

والكدم في اللهجة اليمنية يطلق على الخبز القديم الذي يعطى للجنود اليمنيين أثناء خدمتهم العسكرية، احتار عدنان هل يأكل الكدم ليتقوى به على هذا الزمهرير أم ماذا؟

اختار أن يذيبه بالماء ليشكل منه عجيناً غطى به فتحة المكيف الذي ينفث هذا الصقيع ليعض جسده النحيل بنابه، وبات ليلته طاوي البطن مرتعش الجسد يتقلب على صفيح متجمد لا يرحم، أطل جندي برأسه ليتفحص الزنزانة فاكتشف المكيف المغطى بالكدم، صعد أعلى العنبر من الخارج ليصب في فتحة المكيف مادة كانوا يستخدمونها للتنظيف، رائحتها نفاثة خانقة، أفرغ العلبة كاملة حتى نزلت من الفتحة على أرضية زنزانته الانفرادية فأصابته حالة سعال شديدة وشهقات متقطعة واختناق لم يستطع معه التنفس إلا بصعوبة بالغة حتى أغمي عليه في إحدى المرات فلم يستفق إلا في المستشفى، ثم أرجعوه مرة أخرى إلى زنزانته الانفرادية ليواصلوا عليه برنامج التعذيب.

كان الأمريكان قد وضعوا مولدات تصدر أصواتاً مزعجة جداً إذا تكلم المعتقل، لقد كان العناد مع الأمريكان صفة راسخة في شخصية عدنان، كان ذا جلد عجيب وصبر مدهش على الرغم من نحول جسده، قرر أن يحول مولدات الصوت من عقوبة له إلى عقوبة للجنود الذين عذبوه، فكان يتعمد رفع صوته فيشغلون المولدات وبعد ساعة يطفئونها ليعود عدنان مرة أخرى إلى الكلام ويعودوا هم بدورهم إلى تشغيل المولدات التي كانت تزعج المعتقلين والجنود على حد سواء، وإن كان إزعاجها للمعتقل أكبر بكثير لأن الجندي يجلس في بداية العنبر فيخف الصوت عكس المعتقل، كما أن الجندي سيرجع بعد انتهاء نوبته إلى سكنه أما المعتقل فقابع في زنزانته الانفرادية، لكن على الرغم من كل هذا التفاوت في الأذى إلا أن المعتقل عادة ما يتحمل أضعاف ما يتحمله الجندي.

استمر عدنان في رفع صوته كلما توقف مولد الصوت عن الحركة بعد أن استأذن إخوانه المعذبين في العنبر فسمحوا له بذلك، كان الجنود يشغلون مولدات الصوت وهم يتضاحكون ساخرين، وبعد ساعات تغيرت المعادلة، انتابتهم حالة من الضيق الذي تحول لاحقاً إلى غضب وتوتر، فلا هم قادرون على مخالفة القانون الذي يجبرهم على تشغيل مولدات الصوت كلما تكلم المعتقلون ولا هم قادرون على تحمل هذا الضجيج المتواصل الذي تحولت ذبذباته إلى سكاكين تغرس في آذانهم.

قال لي أحد المعتقلين الذين كانوا مع عدنان في العنبر يعانون التعذيب: هذا الإنسان طاقة جبارة لا أدري متى ينام، استمر على حاله هذه في مواجهة الجنود وإزعاجهم لأشهر.. تخيل!

لم يتوقف هذا الصوت المزعج لدقائق، كلما أوقفه الجنود عاد عدنان في رفع الصوت، مرة بالنشيد مرة بتصبيرنا ومرة بالأذان، رأيت أحد الجنود يتوسل إليه أن يتوقف لأنه يشعر بآلام في طبلة أذنه فأجابه عدنان: هذا يسرني، ثم رفع صوته:

أخـــي أنـــت حـــر وراء الـــســـدود أخـــي أنـــت حـــر بـــتـــلـــك الـــقـــيـــود
إذا كـــنـــت بـــالـــلّـــه مـــســـتـــعـــصـــمـــاً فـــمـــاذا يـــضـــيـــرك كـــيـــد الـــعـــبـــيـــد

لقد كان محرجاً منا، كلما سنحت له الفرصة قال لنا: سامحوني يا إخواني على الإزعاج لكني لا أريد هؤلاء المجرمين أن يفرحوا بتعذيبنا، أخبرني مرة أنه كانت تمر عليه حالات هذيان، أنا أعرف عدنان جيداً، يرفض الاستسلام للظالم ويفضل الموت على الذل، والعذاب على الإهانة، توضأت وصليت ودعوت له في سجودي لما رأيت من حاله، كان أشدنا عذاباً وأعظمنا صبراً، لقد كان يتألم لكنه كان من النوع الذي يخفي ألمه بابتسامة يغيظ بها الظالم، كان يعلم قلقنا عليه حين تخرجه قوات الشغب محمولاً مقيداً فكان يهون علينا بابتسامة، ما أعظم القلب الجريح الذي يسمو فوق جراحه، وما أنبل القلب المتعب الذي لا يمنعه ألمه من الابتسامة في وجه عدوه ليحرمه نشوة الانتصار، كان الجنود حوله كأطفال أشقياء أحاطوا بأسد جريح واقف في قفصه بشموخ يخفي عنهم آلامه كي لا يشمتوا به، كان يعصب جرحه بنفسه في صمت ولا يد حانية تربت على كتفه تواسيه، لقد كان أعجوبة في الصبر والجلد.

اشتد الزمهرير حتى تحولت الزنزانة إلى ما يشبه ثلاجة الموتى، فأخذ معتقل مغربي يرفع صوته: أَحَدٌ أَحَد، وعدنان يرد عليه: فرد صمد، فيعود الجنود في تضجر ممزوج بالغضب بتشغيل مولدات الصوت من جديد، لقد كان بلال ﷺ يردد (أَحَدٌ أَحَد) من شدة الحر أما المعتقلون في غوانتانامو فكانوا يرددونها من شدة البرد، كان المترجم يسخر من المعتقلين الذين يرددون أحد أحد فيقول: أحلى يا بلال، تذكرت أمية حين كان يسخر من بلال عندما يقولها، لقد كانت تغيظهم مواقف الثبات فيلجؤون في يأس للاستهزاء بها كما يهزأ الخائن من شرف الوفي، والسارق من نزاهة الأمين.

حين يصل المؤمن إلى درجة تهون فيه نفسه لله ويرفض أن يعطي الدنية في دينه، فإنه حينها تسقط عنده المساومات السياسية واعتبارات المصالح والمفاسد، فيقول ما يغيظ المجرم المتكبر كما كان بلال يُسْمِع جلاديه: (أحد أحد) وأيم الله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها، لم يقلها بلال وهو آمن في المدينة ولم يرفع بها عقيرته على منبر دمشق حين دخلها فاتحاً، ولو قالها هناك لفقدت قيمتها، بل قالها وهو تحت الصخرة الملتهبة التي تكاد تهشم أضلاعه، إن (أَحَدٌ أَحَد) يشهق بها المعذب أمام حشود المتكبرين تختلف عن (أَحَدٌ أَحَد) يترنم بها الواعظ في قصصه أمام حشود المصلين.

كم ضربوه وعذبوه، كسروا يده وسنه، مزقوا عضلة ساقه، صادروا جميع أغراضه إلا حصيراً ينام عليه، ألبسوه الملابس الخضراء الخاصة بالعقوبات، أعطوا أوامر

صارمة للجنود أن يراقبوه على مدار الساعة، يقف جندي أمامه لساعات طوال ثم يأتي آخر ويتولى مراقبته، لابد أن يروا يده بارزة، فإن أدخلها في الملابس ضربوا باب الزنزانة ليظهرها لهم، طوال الليل والنهار، وبمجرد رفضه تدخل عليه قوات الشغب، بل حتى لو ولاهم ظهره ولم يروا يده فإنهم يقتحمون عليه الزنزانة ويضربونه حتى يغمى عليه، ثم يقيدونه بالنقالة ويشدون عليه الأحزمة لمدة ساعتين ثم يرجعونه إلى زنزانته مرة أخرى، هذا حاله وهذا حالهم طوال اليوم، استمر كذلك ما يقارب خمسة شهور! وكانوا قد ضربوه في رجله فتمزقت عضلته وانتفخت انتفاخاً شديداً، خصصت له إدارة المعتقل مجموعة كاملة من الجنود يجلسون في مؤخرة العنبر يتناوبون مراقبته هو خصيصاً ومجموعة أخرى في مقدمة العنبر لبقية المعتقلين، وصل بهم الأمر إلى أنه لا يتحرك إلا ويأتي مسئول الحرس والجنود معهم النقالة والبخاخ، ويوقظه الجنود كل خمس دقائق ليل نهار لتحريك يده وإخراجها من داخل ملابس العقوبة ليتأكدوا بزعمهم من بقائه على قيد الحياة.

في إحدى الأيام أذن أحد الإخوة لصلاة الفجر من شق الباب بعد ليلة مرهقة لعدنان قضاها دون أن يهنأ بنوم أو طعام منذ عدة أيام، وجندي واقف أمام زنزانته مباشرة يراقبه هو خصيصاً بأمر من الجنرال، ولا يسمح للجندي بمغادرة مكانه ولا مجرد الالتفات عنه للحظة بسبب ما يمتلكه عدنان من خفة اليد وسرعة البديهة بفعل شيء يستدعي تدخل قوات الشغب التي أصابها العي والإنهاك، طلب أحد الإخوة من الجندي إيقاظ عدنان لصلاة الفجر، فأخبره الجندي أنه مستيقظ، مضى الوقت حتى أذن لصلاة الظهر ولم يسمعوا صوت عدنان، قلق الأخ عليه وطلب من الجندي أن يطلب من عدنان الحديث معه لكن الجندي رفض بحجة أن عدنان متعب ويحتاج إلى راحة! سأله الأخ: هل يتحرك؟ فأجابه: نعم.

لكن القلق تملك جميع من في العنبر فبدؤوا بالصراخ على الجنود وضرب الأبواب، هنا أصيب الجندي بالاضطراب واستجاب للمعتقلين فبدأ بمناداة عدنان برقمه لكنه لم يجبه، ضرب عليه باب زنزانته لعله يبدي أي استجابة دون جدوى، تم استدعاء الطاقم الطبي ليخرجوه من زنزانته فرآه الإخوة قد ازرق لونه مما يعني أنه فارق الحياة من ساعات طويلة وظهر كذب الجندي الذي ادعى أنه يتحرك دون أي مشكلة، رآه أحد الإخوة يأخذ من الممرض حبوباً لتسكين آلامه قبل أن يخلد إلى نومته الأخيرة، قال أحد الجنود المتعاطفين معنا إن الأطباء أخبروه أنه قد فارق الحياة منذ ساعات طويلة وأن الجندي نفسه لا يستبعد عملية تصفيته.

أبلغت الإدارة محامي عدنان بنبأ موته، وسرعان ما وصل الخبر لأهله المفجوعين

الذين طالبوا بجثمانه لكن البنتاغون رفض ذلك قبل إنهاء الإجراءات المتبعة، تم نقل جثمانه إلى القاعدة العسكرية الأمريكية في ألمانيا، بقيت هناك قرابة سنة كاملة كررت فيها عائلة عدنان مطالباتها المتحسرة لاسترجاعه دون جدوى، لم يكتف الأمريكان بسجن جسده الحي سنين طويلة بل سجنوا جثمانه المودع تلك الأرض الغريبة بعيداً عن أهله وأحبابه، وبعد سنة تقريباً تمت إعادة الجثمان وقد نزع الأمريكان منها حنجرة عدنان وكل الأعضاء الداخلية لإخفاء حقيقة موته كما فعلوا مع المعتقلين السابقين الذين قضوا نحبهم في غوانتانامو.

كأني بأجنحة الملائكة تحملك عريساً إلى السماء، أحسبك ولا أزكيك على الله، الآن انكسرت قيودك التي شدتك إلى الأرض، ها أنت قد تخلصت من هذا العالم الظالم المتوحش الذي يقتل فيه الإنسان باسم الإنسانية ويكبل الحرية باسم الحرية ويحكم بالظلم باسم العدالة وينشر القتل باسم الحياة، ها هي المائدة قد أعدت والأحبة في الانتظار، ها قد وصلت بعد سفرك الطويل، الآن ألقيت عن ظهرك الحمل الثقيل، الآن أغمضت عينيك اللتين أضناهما السهد لتنعما بالراحة، لن تسمع بعد اليوم قهقهة المجرمين المنتشين بآلامك، لن ترى بعد اليوم وجوههم القبيحة الشامتة.

عدنان.. ذلك الجسد الذي احتفظ في هزاله بسر قوته، وتلك الروح العملاقة التي أبت الذل والهوان، لقد قاوم وثار، ضحى وبذل، حتى طويت الصفحة الأخيرة من حياته في هذا المعتقل القاسي الذي لا يرحم، طويت في غموض، وستفتح مرة أخرى في يوم الفصل لتظهر الحقيقة أمام الأشهاد، الأنين الذي كتمته الأيادي الشريرة سيملأ صداه أرض المحشر، ويحكم بالدينونة على من استهان بآلام المظلوم وسخر من آهاته وظنها مجرد تنهدات تائهة في فضاء لا متناهٍ.

تاجر الفستق:

لم نواجه خصماً يمتلك شهامة الفرسان بل مكر الثعالب، فلم نقع في الأسر إلا بالخيانة، ولم يتعاملوا معنا إلا بالإهانة، ولم يعتمد التحقيق معنا إلا على الكذب، كل ذلك دفع بعض المعتقلين إلى المعاملة بالمثل، فكانوا يراوغون المحققين في أجوبتهم حين يسألون عن سبب مجيئهم أفغانستان.

معتقل بنغالي جاء أفغانستان يزور قبور الصحابة، معتقل من مكة سأله المحققون: لماذا كنت في تورابورا؟ فأجاب: سمعت أن عندهم أفضل أنواع الشاي الأخضر فأحببت أن أجربه!

ثالث يمني أجاب: أردت أخذ أحجار أصنام باميان المتحطمة لأبيعها في الصين واليابان!

آخر جاء ليربي الخيول! وآخر كان يتنزه في باكستان بالتاكسي فدخل السائق أفغانستان دون أن يشعر ثم حدثت الحرب فعلق هناك!

وآخر أخبرهم أنه قتل شخصاً خطأً في حادث، فأراد دفع دية الخطأ للفقراء في أفغانستان!

قلت له وأنا غارق في الضحك: دية الخطأ تكون لأهل المقتول، إضافة إلى أنك أوقعت نفسك في مشكلة أكبر وهي القتل!

معتقل جزائري أخبر المحققين عن سبب مجيئه أفغانستان أنه عشق فتاة في أوروبا فهربت منه إلى تركيا، ثم لحقها فهربت إلى باكستان، ولا زال يلاحقها حتى هربت منه إلى أفغانستان، فتبعها ليعرض عليها الزواج! لكنه وقع في الأسر قبل أن يعقد قرانه عليها!

وحين سأله المحقق: ماذا حدث لها؟

أجابه: قتلت في القصف!

كانت هذه الأجوبة المراوغة ردود أفعال حين حرموا من حقهم الإنساني والقانوني وسلبوا حق المثول أمام محكمة عادلة تفصل في أمرهم فقابلوا استهزاء الأمريكان باستهزاء، كان ذلك في بداية الأسر ثم أفصحوا عن الحقيقة بعد ذلك.

استشاط غضباً بعد أن قال له المحقق: أنت تكذب!

: بل أخبرتكم بالحقيقة كاملة أني تدربت في معسكرات التدريب، وهذا الاعتراف كان بمحض إرادتي دون أن تتوصلوا إليه، فأنا مقتنع بأن ما فعلته ليس جريمة، بل أتشرف به ومستعد لتحمل ضريبته، فلماذا أكذب وأورط نفسي بنفسي؟

: لماذا تدربت كل هذه التدريبات العسكرية؟ كل الأسلحة الخفيفة ومضادات الطيران ودورة في حرب العصابات وغيرها الكثير؟

: أخبرتك بأن أمنيتي كانت الجهاد في فلسطين لكني حين أيقنت باستحالة الوصول إليهم أردت الجهاد في الشيشان.

: أنت تكذب، لابد أنك تعرف مكان أسامة بن لادن وتتعمد التستر عليه!

استشاط غضباً وهو يقول: حسناً. . سأعترف لك بكل شيء، يجب أن أقول الحقيقة، سأعترف بكل شيء.

تهلل وجه المحقق وهو يقول: هذا كل ما أريده، ولك مني أن أنقلك إلى

المعسكر الرابع حيث الحياة الجماعية، تستطيع أن تصلي مع إخوانك جماعة وتستمتع بمساحة كبيرة للرياضة.

: كل ما قلته لك إنما هو كذب، قلته تحت التعذيب في معتقل قندهار، والآن صحا ضميري، لقد جئت أفغانستان لتجارة الفستق!

دارت حماليق عينيه وهو يقول: ماذا؟ فستق؟

: أفغانستان مشهورة بالفستق فأحببت أن أتاجر به وأشحن كميات كبيرة منه إلى بلدي!

: تعني أنك تنكر كل اعترافاتك السابقة بالتدريب العسكري في المعسكرات؟

: بالضبط.. ما أنا إلا تاجر فستق!

أخذوه إلى انفرادي العقوبات وأذاقوه الويلات لكنه ثبت على كلامه نكاية بالمحققين الذين لا يكفون عن اتهامه بالكذب، سألته مرة عن أخباره مع المحققين فقال: اعتقال تعسفي دون محاكمات ولا حقوق إنسانية، هناك من المعتقلين من أعطوه ورقة إطلاق سراح منذ خمس سنين ولا يزالون في غوانتانامو، فلماذا أعترف لهم بما فعلت؟ لقد أصبحت تاجر فستق، رضي من رضي وسخط من سخط!

الجندي أوباما:

كان هناك جندي أسود قصير ممتلئ الجسم متعاطف معنا، وكان المعتقلون يطلقون عليه لقب (أوباما)، كانت تربطه بأحد المضربين علاقة قوية، كان يأتيه ليلقي عليه التحية كلما سنحت له الفرصة، وفي إحدى المرات جاءت قوات الشغب وأخرجت الأخ المضرب بالقوة للتغذية القسرية، كان فريق الشغب يلبسون الخوذ كالعادة فلا تستطيع رؤية وجوههم إلا بصعوبة، شدد أحد الجنود قبضته على الأخ يريد خنقه، فسمع الأخ صوت جندي آخر يصرخ عليه: (لا تخنقه)، لم يكن هذا الصوت غريباً عليه، ركز في الصوت فعرف أنه (أوباما)، التفت إليه فرأى جبهته السوداء وعينيه الواسعتين شديدتي البياض فعلم أنه هو، تبادلا الابتسامة، أخذ يربت عليه بالخفاء فيجيبه المعتقل: ابتسم.. أنت في غوانتانامو، بدأ الأخ ينزف من فمه من شدة الخنق، تكلم (أوباما) مع الممرض، حاولوا معرفة سبب النزيف من الفم فلم يستطيعوا، قال الدكتور: قد يكون نزيفاً داخلياً بسبب شدة الخنق.

كنت في قفص المشي مسنداً ظهري للشباك، أستمتع بالهواء العليل الذي تسلل إلي في ظلمة الليل، تفاجأت بالجندي (أوباما) يجلس بجانبي على الأرض خارج القفص

قائلاً: جئت لأودعك، هذه آخر ليلة لي في هذا المعتقل، آسف أنك لا زلت هنا في هذا المكان السيئ بلا حقوق.

كانت عيناه تبرقان بياضاً، يبحر فيهما الحزن بلا مركب، ابتسمت له فبادلني الابتسامة، شعرت برغبة جامحة أن أرد له جميل معاملته، قلت له: شكراً على تعاطفك معنا، طأطأ رأسه في خجل، قلت: الأرجح أننا لن نلتقي بعد اليوم، أطلب منك يا (أوباما) أن تبحث عن الحقيقة بتجرد، لا تجعل الإعلام نافذتك إلى الحقيقة، لا تسمع عنا بل منا، ولا تبحث عن الإسلام في قناة (CNN) بل في القرآن.

ارتسمت على محياه ابتسامة هادئة لا أستطيع وصفها سوى أنها كانت تخفي وراءها ما يسر، قال: بالتأكيد.. لقد تعلمت منكم الكثير دون أن تشعروا، لقد تغيرت حياتي تماماً في هذا المكان، ثم رفع يده كمن يريد القسم: أعاهدك أني سأقرأ القرآن بعد خروجي، سأبحث عن الحقيقة، لن أغمض عيني عنها بعد اليوم، ثم ودعني ومضى.

الوشم:

كان فارع الطول فاق المترين، عريض المنكبين، قوي الجسد، أجش الصوت، شجاع القلب، مهاباً لا يبالي بأحد، رحل عن بلده في شمال أفريقيا بعد أن ضاق عليه الحال ليجد نفسه رئيساً لإحدى عصابات المافيا في أوروبا، فاض عليه المال بعد أن عضه الفقر بنابه، ملايين الدولارات يبعثرها هنا وهناك، أخذت عصابته بالتوسع حتى نشب خلاف بينه وبين رئيس عصابة أخرى على دائرة النفوذ، صمموا على إزاحته عن طريقهم، فلم يكن في مقدورهم للتخلص من هذا العملاق إلا بالاغتيال، اخترقت جسده رصاصات مجهولة، كانت حالته حرجة في غرفة العناية المركزة، وفجأة توقف قلبه، وبعد محاولات يائسة لإنقاذه أعلن الطبيب المناوب وفاته، وضعوه في ثلاجة الموتى استكمالاً لإجراءات الوفاة، في هذه اللحظة جاء فريق وردية الليل، أخذ مسؤول الوردية يتأكد من العهدة، فتح الثلاجة فرآه، شك في أمره، قال لزملائه: هذا الرجل لا يزال حياً!

أخبروه بأنه ميت وقدموا له أوراق وفاته، أخبرهم أن لونه يوحي له بأن هناك أمراً ما يدعوه للقلق، أمر بإرجاعه إلى غرفة العناية المركزة ليراه الأطباء من جديد، ورفض استكمال إجراءات الوفاة، كرروا محاولات الإنقاذ وإذا بالمفاجأة المذهلة، عاد قلبه ينبض!

بقي ثلاثة أيام فاقد الوعي، وبعدها رجع إليه وعيه مصطحباً معه إيمانَه، لقد رأى

الموت بعينيه، لقد كتب الله له حياة جديدة، أعطاه فرصة أخيرة لعل ذلك القلب الجموح الهائم في دروب الضلال يعود إليه، أيدعوه ربه إليه ولا يجيب؟ لقد كان شهماً رغم ضياعه فلم يرد طالباً، فكيف يرد من سعادته في إجابته؟

بدأ يرتاد المسجد بعد هجر طويل، شعر بأن كل ما في المسجد يهش له ويستبشر بقدومه، المحراب ومواقع السجود، كم اشتاق إلى الميضأة ليغسل عنه أدران روحه، اهتز قلبه وهو يسمع قصة توبة قاتل المئة حين هجر قرية السوء فأتاه الموت في طريقه إلى القرية الصالحة، ارتعش جسده المفتول ارتعاشته الأخيرة فما وجد إلا أن ينوء بصدره ليعلن بها قلبه كلمته الأخيرة، وجد في قصة قاتل المئة شبهاً بهذا المحب القادم من ذكريات بئيسة إلى عالم ينشد به الطهر، لكنه لم يقتل في حياته قط، ثم استدرك على نفسه: كم من روح قتلتها بهذا السم الأبيض!

عزم الرحيل من أوروبا الغارقة في وحل الشهوات، أراد عالماً آخر يسهل له طريقه إلى الله، هذا الرب الرحيم الذي نجاه من موت محقق، لقد شعر في أوروبا بالفقر الروحي رغم جيبه الممتلئ، فرحل إلى مجتمع مسلم يشعر فيه بالغنى الروحي وإن كان خاوي الجيب، رحل إلى باكستان التي لم يدم بقاؤه فيها طويلاً حتى اندلعت الحرب وكان من ضمن المعتقلين الذين تم اختطافهم وتسليمهم للأمريكان، وفي معتقل (بغرام) كان يعترض على القوانين الجائرة، خشي الأمريكان من قوته فسلطوا أشعة على ركبتيه ومرفقيه، جاءنا في غوانتانامو وهو يمشي متمايلاً قد فقد معظم قوته، كانت رسالة الأمريكان واضحة: لا تقتلوه، بل اقتلوا الروح المتمردة في داخله، لا يهمنا الجسد الواقف مادامت الروح جاثية، لا تبتروا يديه ورجليه، بل اجعلوها كسيحة ليكون هذا العملاق عبرة للبقية الذين تسول لهم أنفسهم أن يرفضوا الانصياع لهيمنتنا.

رأيته يحك وشماً في ساعده بزاوية الحائط، أخبرته بأن الله أزال عنه الحرج لعدم وجود وسيلة لإزالته، قال: أعلم ذلك، لكني كلما رأيته تذكرت الماضي البئيس، أريد أن أنسى كل ما يذكرني به!

كان يرى في هذا الوشم الصغير قصة تائه ضل الطريق فوقع في أيدي أعدائه، فأقنعوه أن يعادي أباه الرحيم، وفي اللحظة الأخيرة التي أوشك فيها على الهلاك انتشله أبوه منهم فأعاده إليه، أراده الأمريكان عبرة تكسر إرادة الثائرين، فإذا به يتحول إلى عبرة تقوي عزائم المؤمنين، لقد كان جسداً بلا روح فأصبح روحاً بلا جسد، مديد القامة يتهادى ضعفاً وقلبه يتهادى طرباً واغتباطاً بالقرآن الذي حفظه عن ظهر قلب.

هل تريد دواء؟

المستشفى هو المبنى الذي يفترض أن يدخله الإنسان مريضاً ويخرج منه معافى، أما في هذا الكوكب البعيد عن الكرة الأرضية المسمى غوانتانامو فالأمر مختلف، يدخله المعتقل المصري سامي الليثي معافى للفحوصات ليخرج منه مشلولاً بعد ضرب الجنود والدكتور له وهو مقيد اليدين والرجلين والبطن بالسرير، ثم أطلق سراحه بعد سنين من المعاناة، هبطت الطائرة أرض مصر ونزل شخص مشلول على كرسي متحرك وسط دهشة المسئولين المصرين، وآخر يعاني آلام الأسنان سنتين، وبعد توسلات وطلبات يؤخذ إلى العيادة ويخلع الجزار المجرم سنّه السليم ويترك المُسَوَّس ليعاني الآلام مضاعفة، ومعتقل آخر يعاني آلام الظهر خمس سنوات بسبب التعذيب في معتقل (بغرام)، ويأبى الأطباء علاجه؛ أكثر من عشر سنين يعاني آلاماً لا يستطيع معها الوقوف والمشي إلا بصعوبة، بل كان في جواري بالمعسكر الخامس وسحبوا منه كل أغراضه وبقي على الإسمنت البارد جداً، ينام عليه ويصلي عليه، وعند استفسارنا عن سبب العقوبة أخبرونا أنه يشتكي دائماً من المرض وخفنا عليه أن يقل صبره فيقتل نفسه بهذه الأغراض!

معتقل آخر يعاني آلاماً شديدة في بطنه أكثر من ثلاثة سنوات، طلب منهم خضروات طازجة غير الخضروات المتعفنة ذات الرائحة النتنة التي يضعونها في الوجبات، وبعد ثلاث سنوات من الرفض صرف له الدكتور قطعة صغيرة من الخيار وأخرى من الجزر، لمدة أسبوعين فقط ثم توقفت عنه.

أخذ الألم بخناقي، حاولت المقاومة بكل ما أستطيع، ألم رهيب في السن مع انتفاخ في اللثة، ثم تفاجأت بأن نخراً صغيراً لا يكاد يرى كان وراء كل هذه الآلام، إضافة إلى آلام مبرحة في الرقبة منعتني من النوم، لا شيء في الزنزانة سوى الحصير وشرشف خفيف أصد به هجمات البرد المتوحش الذي لا يرحم، صنعت وسادة من النعلين وضعتهما على بعضهما لعلي أنجح في تخفيف الآلام فباءت محاولتي بالفشل، أتى الممرض ليسأل المعتقلين سؤاله المعتاد الذي لا معنى له: (do you need medicine?) هل تحتاج دواء؟

تجاهلت نداءه المستفز، لماذا أخبره وقد أخبرته من قبل عشرات المرات فلم أجد أي إجابة، أخبرته أني أحتاج دكتور أسنان وآخر لعلاج رقبتي فلم أجد سوى التجاهل. إن شعور القهر والإذلال هو أشد على الأسير من آلام المرض والضرب، لقد فتحت الأوجاع لي كوة إلى معاني القرآن لم تفتح إلا به، لم أدرك عظمة موقف أبي بكر وهو يداس بالأقدام فيقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ إلا حين وطِئ الجنود على رقبتي، ولم أفهم أحزان الحواريين ولا أشجان المسيح إلا حين تمالأ العالم علينا وانقطعت بنا السبل، ولم أحس بما اعتلج في صدر النبي ﷺ وهو يدعو قومه لرضوان الله فيجيبونه بسلى الجزور

على رأسه، أي قلب كبير لا يدرك عظمته إلا من تجرع ولو حفنة من بيداء مصابه.

سألني أحد المعتقلين عن قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، قال: أين أثر تلك الرحمة فيما نحن فيه؟

قلت: إن الرحمة لا تعني زوال الألم، بل قد تكون الرحمة في الألم والقسوة في الراحة، عثراتنا في طريقنا إلى الله يقومها الألم، كسر ذنوبنا يجبرها الألم، صدأ قلوبنا يزيله الألم، الرحمة في أخذ الأب على يد الابن ليعاني إرهاق الدراسة، وفي إجبار المدرب له ليقاسي إجهاد التمرين، وفي إخضاع الطبيب له ليقاسي خلع الضرس، الرحمة تكمن في إزالة خطر عظيم دائم بألم زائل هين، كحزام الأمان حين يشتد على صدرك ليحميك خطر الارتطام.

الخلق والذكاء الاجتماعي:

كنا نرى بعض المواقف الإنسانية من القليل من الجنود والجنديات، كان تأثيرها علينا بالغاً، علي أن أعترف أننا حينها لم نكن نملك الخبرة التي تعيننا على فهم طبيعة النفس البشرية، كان أحد الجنود متعاطفاً معنا للغاية، تشكلت علاقة احترام وصداقة بينه وبين أحد المعتقلين، طلب منه بعض المعتقلين توصيل قطعة خبز إلى بعض الإخوة المرضى في الزنزانة المقابلة، فكان يجازف ويخالف القانون ويوصل الخبز إليه، كان يبدي الكثير من التعاطف والإنسانية تجاهنا، وعلى الرغم من تفاهة الخدمة إلا أنها كانت تعني لنا الكثير، جاءت قوات الشغب في إحدى المرات لاقتحام زنزانة هذا المعتقل إثر مشكلة حدثت بينه وبين أحد الجنود، كانت عادة قوات الشغب أنهم يلبسون الخوذ والدروع وإسفنجاً لحماية المفاصل والرقبة، فلما تأمل المعتقل وجه أول جندي من وراء الخوذة البلاستيكية علم أنه الجندي المتعاطف، فقال له الجندي هامساً: (آسف)، فلما دخلوا عليه تفاجأ الأخ بأن أكثر الجنود ضرباً له هو ذلك المتعاطف!

أفهم أنه مجبر لكن ما لا أفهمه هو أنه يصبح أعنفهم على المعتقل وأشدهم ضرباً له، هل كان التعامل الإنساني مجرد تمثيل ودور طُلب من الجندي أن يؤديه؟

كانت أحداث الشغب في المعسكر الرابع صدمة للكثير من المعتقلين، تفاجؤوا بأن الكثير من الجنود والجنديات الذين عرفوا باللطف والخلق أصبحوا من أسوأ الجنود وذلك حين تغيرت القوانين وأمرت الإدارة بأن يتعامل الجنود مع المعتقلين بعنف، فإذا بهؤلاء الجنود يتحولون كالآلات إلى ضباع بشرية لا تعرف معنى الرحمة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى.

أصابنا ذلك ببردة فعل في عدم الانجرار وراء المواقف التي قد تبدو إنسانية لأول وهلة كي لا نصدم بعدها بأن ما ظنناه إنسانياً لم يكن سوى براغماتياً يؤمن بأن المبادئ والقيم خرافة لا يؤمن بها إلا الأغبياء، وأن المصالح لا غير هي التي دفعته لهذا السلوك الإنساني، سواء كان على مستوى الفرد أو الجماعة أو الدولة، ليس خلوقاً ذلك الذي يمسح على رأس يتيم ثم أراه ينتخب من يقتل أطفال الآخرين، ولا كريماً من يمنح منظمة الأونروا مليوناً ويهب الصهاينة بليوناً، ولا رحيماً من يسخر طائراته لإنقاذ العالقين في الأعاصير بينما تعصف طائراته ببيوت الآمنين!

تأملت هذه الحوادث المتكررة خلال أربعة عشر عاماً، حاولت أن أبحث في عمق هذه المشكلة الإنسانية، من أصعب الأمور وأشدها تعقيداً هو البحث في داخل النفس البشرية لمعرفة التواءاتها وخباياها والغوص في دهاليزها المظلمة لفهم طبيعة السلوك الإنساني ومنشئه الحقيقي، لا يتوقف خطأ الكثيرين في تعميم حكمهم على الكل بسبب موقف البعض، سلباً أو إيجاباً، بل يتعداه إلى التعاطي بسذاجة مع الموقف الإيجابي لعدم إدراكه الدافع الحقيقي له.

تعلمنا ألا ننخدع بالابتسامة حتى نتأكد إن كانت من أفعى أو دلفين، فليست كل ابتسامة تعني الرضا، ولا كل كلمة جميلة تدل على الخلق، والأمريكان ليسوا استثناء من هذا القانون العام، وفي خضم هذا التناقض الصارخ وفوضى المواقف التي نعاينها يومياً يقفز أمامنا سؤال مهم: ما الفرق بين الأخلاق والذكاء الاجتماعي؟ ما الفرق بين ابتسامة البائع وتعامله الراقي مع الزبون وابتسامته لمن لا يملك ثمن الرغيف؟ بين اللطف الذي يدرأ الرجلُ به شرَّ جاره، أو يبني به علاقة يستفيد منها إن تغير عليه الزمان، وبين اللطف الذي لا يرجو مقابله نفعاً ولا يخشى ضراً.

من أين تستمد القيمة المطلقة مصدريتها، هل هي المصلحة الشخصية أو شيء آخر؟ ثم ما هو مفهوم المصلحة الشخصية التي يعبر عنها البعض بالانتهازية؟

قد تكون المنافع المادية كالغنى أو المعنوية كالشهرة والجاه هي الدافع للتخلق بالصفات النبيلة، وقد يكون الدافع نشوة يجدها من يستمتع بمدح الناس وثنائهم، وقد يكون شعوراً بالراحة والاطمئنان يجدها من يحسن إلى الآخرين، بل حتى السعي لنيل رضا الله وجنته لا يعدو أن يكون مصلحة شخصية كذلك، فهو يعمل ليثاب.

تأملت الإنسان فوجدته لا يتقدم خطوة إلى الأمام إلا لمصلحة يرجوها، وهذا يؤكد معنى الفقر المترسخ في غريزته ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، فمصدر الأخلاق ودوافعها لا تُدْرَك إنْ قَسَّمْناها إلى مصلحية وغير مصلحية لأنها لا تخرج من دائرتها، لكننا سندرك فروقاتها حين نقسم هذه المصالح إلى دنيوية وأخروية.

حين تكون المصلحة الدنيوية هي الدافع وراء التمسك بالقيم والمبادئ فإنها ستتحول من مثل عليا إلى بلادة وسذاجة بمجرد انتفاء هذه المصلحة، فالصدق مثلاً يكون خلقاً حسناً حين يؤول إلى المصلحة الدنيوية كالحصول على ثقة الناس التي تجلب له النفع، فإن جر الصدق ضرراً أصبح التزامه غباءً وحمقاً، والعدل محبوب للنفس إلا ما سلبك شيئاً من مكتسباتك، والحرية شعار براق إلا حين يهدد امتيازاتك، حينها ستفقد المثل والمبادئ قيمتها الحقيقية لتكون القيمة محصورة في المصلحة نفسها، أما أهل الإيمان فهم يرون الصدق خلقاً فاضلاً في كل الأحوال، لأنه يستمد مصدريته من الله وليس من المصالح الشخصية الدنيوية التي قد لا تتحصل في بعض المواقف، بل قد يكون ثمن الالتزام بالقيم باهظاً حين يكون الرأي السائد ضد ما تعتقده قيمة مطلقة وخلقاً سامياً، فسيكون التأثير النفسي عند الالتزام بالأخلاق مرهقاً يجبر المرء على التخلي حينها عن مبادئه وقيمه وأخلاقه بسبب الضغط النفسي أمام التيار المعارض.

أما ارتباط التزام الخلق والمثل بالمصلحة الأخروية فهي وإن كانت مصلحة إلا أنها الوحيدة القادرة على مقاومة كل المغريات التي تدعو إلى التنازل عن هذه المبادئ، لأنها تستمد قوتها من الله والخلود في نعيمه.

إن السلطة النفسية النابعة من هذا النوع قوية جداً ونافعة جداً للمجتمع الذي لا يستطيع مهما بلغت سطوة القانون فيه أن يسيطر على النفوس التي تحاول التهرب من كاميرا المراقبة لاختلاس منفعة، إن الخوف من سطوة القانون لا يكفي لتحقيق العدل، فعين القانون لا تلحظ المخفي في الزوايا المظلمة.

خلاصة القول أن المواقف النبيلة لا تعني بالضرورة انطلاقها من دافع نبيل، وكل الشعارات الأخلاقية تتحطم على صخرة (الواقعية) ما لم تبتغِ المثوبةَ الأخروية، ها هم ثقيف الذين كانوا يفتخرون بإجارة الضعيف وإكرام الضيف يسلطون صبيانهم وسفهاءهم لرمي النبي ﷺ بالحجارة حتى أدميت قدماه، أبو جهل الذي يدعي أنه ساد الوادي بأخلاقه وشهامته يضرب طفلة صغيرة تتستر على أبيها، ويطعن بالرمح فرج امرأة لمجرد أنها خالفته في الاعتقاد، لقد احْتَضَرَت الروابطُ القبلية ووشائج الرحم مع اختناق عثمان بدخان عمه، لقد أشاحت المكارم بوجهها حياء حين عري أبو الفاكه من ثيابه وربطت عنقه ويده ثم قاده الأطفال عارياً في أزقة مكة والناس يضحكون عليه، لقد أصيبت مبادئ قريش بالعمى حين عذبت زنيرة حتى عميت، لقد حطمت قريش أخلاقها حين خافت على هبلها أن يتحطم.

القوة الرحيمة والرحمة القوية:

لقد رأيت بعض الجنود والضباط يحترمون المعتقلين المتمردين على القوانين الجائرة، يحترمونهم ويبغضونهم في ذات الوقت، كانوا يحسبون لهم ألف حساب بينما يستهينون بالمسالمين، سمعت أحدهم يصف باستهانة أحد المعتقلين: (he is harmless)، (he is nice guy)، ظننته يمدحه في البداية، لكنني اكتشفت أن (nice guy) لا تعني بالضرورة: (nice guy)!

إن الذئب لا يمدح الدجاجة حين يقول لها: أنت مؤدبة!

لقد تيقنت صدق الحكمة القائلة: من لا يرعب أحداً يكون أكثر الناس تعرضاً للخطر، فيا ليت قومي يعلمون.

رأيت أحد الإخوة يدعو جندياً إلى الإسلام، كان الأخ حافظاً للقرآن عنده شيء من العلم، ملتزم بالقوانين مشهود له بالخلق مع الأسرى والجنود على حد سواء، لم يأبه الجندي لكلامه، وبعد أسابيع رأيت معتقلاً صغيراً في السن، لا يملك من العلم إلا القليل، لكنه أرهق الجنود بالمشاكل، متمرد على القوانين الجائرة، رأيت نفس الجندي يستمع إليه بإنصات وتأثر وهو يكلمه عن الإسلام، وبعد عدة أسابيع أعلن إسلامه! إن الكلمة اليوم أحوج إلى القوة المادية منها إلى قوة الدليل العقلي!

الأمة اليوم تدثر ضعفها وجبنها بدثار الخلق الحسن والعفو عمن أساء، إن الكمال الأخلاقي يتجلى في العفو عند المقدرة لا عند العجز، وفي رد المعتدي وكسر غروره لا في موادعته، ولَأَنْ يخشى العدو قوتَك خير من أن يأمنك.

نحن نعيش في غابة، إذا لم نقرن الخلق الحسن بالعزة والقوة استبيحت حرماتنا واغتصبت حقوقنا، ألا فليعلم السذج أنَّ تسامحنا مع المعتدي سيفسره ضعفاً وعجزاً، وهذا التاريخ يحذرنا من مغبة الغفلة فيذكر لنا ما قاله القس الإسباني (كاساس) في القرن الخامس عشر واصفاً شعب الهنود الحمر: (إنهم ناس بسطاء وطيبون لدرجة كبيرة، متواضعون وسذج جداً ومطيعون للأسبان، لا يتنازعون ولا يتقاتلون)!

أما (كريستوفر كولومبوس) فيقول في رسالته لملك وملكة إسبانيا: (هؤلاء ناس طيبون جداً ومسالمون جداً بحيث إني أقسم لجلالتكما أنه لا توجد في العالم أمة أفضل منهم)!

لقد كان مدحهم لسماحة الهنود الحمر كمدح الذئب للشاة حين يقول: كم هي سمينة.. كم هي شحيمة!

لقد أحسن الهنود الحمر استقبال الرجل الأبيض وعلموه الزراعة والصيد اعتقاداً أنه مجرد زائر أو ضيف، ولم يعلموا أن هذا الضيف النبيل سيصنع من فروة رؤوسهم وعاءً لِتَبْغِهِ!

هناك من يتعامل بسذاجة مع التاريخ حين يختزل أسباب دخول إندونيسيا في الإسلام لتأثرهم بأخلاق التجار المسلمين الحضارمة، فيزعم أن بالخلق وحده يدخل الناس في دين الله أفواجاً، ويغفل أن أكثر البشرية في تاريخها الممتد رفعت السيف في وجه الحقيقة، ورفضت الاستماع إليها فضلاً عن الإيمان بها، لقد دخل التجارُ الحضارمةُ إندونيسيا ووراءهم أمة عظيمة بلغت رقعتها مشارق الأرض ومغاربها، لقد كانت هيبة التاجر الحضرمي المسلم آنذاك أعظم من السفير الأمريكي في زمننا، إن انتصار أمة الإسلام وعز قوتها يضفي على خلق ذلك التاجر عزة ومهابة وتأثيراً أعمق، واهمٌ من ظن أن البشرية تُحَكِّمُ العقلَ في اختلاف الأفكار، هناك سدود من الكبر والغرور والتعصب تمنع من الاستماع إلى الأفكار الأخرى فضلاً عن الاقتناع بها، امتلاك القوة يجعل الحجة أكثر إقناعاً، لا لأنها اكتسبت المزيد من الأدلة بل لأن القوة هدمت سدود الكبر والغرور التي تمنع الناس من البحث عن الحقيقة بتجرد.

الخلق الحسن واجب ديني لكنه لا يكفي لإقناع الناس بالحقيقة ما لم تصحبه قوة تعزره، الأخلاق مجرد طبق جميل تضع عليه أفكارك، إن المبدأ الجميل حين يدعو إليه غني مفتول العضلات يكون أكثر إقناعاً من ذات المبدأ حين يدعو إليه هزيل متشرد.

إن الفكرة ذاتها لا تكتسب الصحة حين يدعو إليها حسن الخلق ولا البطلان حين يدعو إليها سيئ الخلق، لكن الجماهير تفكر بقلوبها لا بعقولها، لذلك وجب على الأمة أن تجمع بين امتلاك القوة المادية وامتثال المبادئ الأخلاقية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، لتهدم الحواجز النفسية التي تحول بين الناس وهذا الدين العظيم.

الفلاح الإندونيسي لم ير التاجر الحضرمي بل رأى حضارة الإسلام العظيمة مختزلة فيه، رأى القوة حين تكون رحيمة والرحمة حين تكون قوية.

الوفد المصري:

جاء الجنود ليلاً إلى زنزانة معتقل مصري في عنبر أوسكار الانفرادي للعقوبات، قيدوه ومضوا به إلى غرفة التحقيقات، استمر التحقيق معه حتى الفجر، كانت الغرفة باردة جداً، ورائحة السجائر تملأ المكان، تفاجأ بالجنود يغطون عينيه على غير العادة، اقترب شخص من أذنه، ثم قال باللهجة المصرية: ازايك يا عم فلان؟ احنا الوفد المصري وجايين علشان نتطمن عليك ونسمع قصتك ونساعدك حتى تخرج من المكان ده.

: انتو تأخرتو كتير، فينكم في سنة ٢٠٠٢ و٢٠٠٣؟

: الأمر مش سهل زي ما انت عارف، دي قاعدة عسكرية مش من السهل نيجي، ودي علاقات دول وترتيبات، عموماً أهلك بخير وجبنا لك صورهم وننتظر عودتك، فلان. . احنا عايزين قصة التزامك الديني.

وبعد أن أخبرهم سألوه: تعرف ايه عن الإخوان المسلمين والجماعة الإسلامية؟

: معلومات سطحية.

: ازاي ومنطقتك فيها اخوة كتير؟

: الفترة دي ما كنتش ملتزم.

: خرجت من مصر ليه؟

: للدعوة.

: يعني مصر كلها مش عاجباك؟ ليه ما دعيت القرى والمدن؟ احنا عندنا حرية الدعوة وتعرف إن مصر بدأت تنهج نهج جديد، والآن عندنا ٢٥ عضو من الإخوان في البرلمان وأفرجنا عن ١٥ ألف شخص من السجون.

أجابه متهكماً: للأسف الشديد معلوماتي عكس كده تماماً، سجل مصر سيئ في مجال حقوق الإنسان.

: عرفت ازاي؟

: أتكلم مع بعض الجنود والمحققين الأمريكان ويخبروني عن التعذيب في مصر ويهددوني بيه، يقولوا أن الضرب وحشي في السجون المصرية.

باستهزاء: ياه

: وبالكهربا

متظاهراً بالتأثر: كهربا كمان؟

: وبيعلقوهم بالسقف من أرجلهم.

: يا خرابي!! وكمان تعليق؟ لازم تعرف أننا ما نعذبش حد، أحياناً نكون في مهمة خطيرة للحفاظ على أمن الوطن، فنقبض على مجرم قتل أخوي مثلاً، وأنا بشر فأحياناً من الغضب أصفعه، وده مش مسموح بيه طبعاً ومخالف للقانون، لكن الإنسان ضعيف ويزل أحيانا! أما التعذيب فكل اللي تسمعه كدب في كدب ومبالغات، تهمتك ايه عند الأمريكان؟

: اتهموني بمحاولة اغتيال حسني مبارك.

: ده غير صحيح، انت مش منهم، احنا عارفينهم كويس.

: واتهموني بتأسيس تنظيم إسلامي.

: عندنا اعترافات كتيرة عليك إنك خرجت للجهاد.

: مش صحيح

: هذا فخر لك أنك تكون مجاهد في سبيل الله، تدافع عن المظلومين، انت تنكر الشرف ليه؟ أحسن من الشرف مفيش، ومش معقول أكدب ٩٩ واحد اعترف عليك وأصدقك.

: يعني أنا كداب؟

: حاشا لله إني اتهمك بالكذب، لكن لعله غُمّي عليك!

: يعني ايه؟

: يعني يمكن نسيت، انت مش عارف الحديث عن هلال رمضان (فإن غُمّي عليكم فأكملوا العدة)؟ اسمعني كويس.. احنا في مصر مش ضد الجهاد، الجهاد ذروة سنام الإسلام، لكن انت تعرف كويس إن عبادة الجهاد لها شروط وضوابط، فإن توفرت جاهدنا جميعاً، وإن لم تتوفر الشروط سقط الجهاد للعجز، والآن الجهاد ساقط للعجز، احنا ضعفاء والدولة نامية وما نقدرش على مواجهة الدول القوية، لكن لا يوجد عندنا مانع أبداً في ذهابك للجهاد بشرط.. إنك تجينا تستأذن!

: افترض إني عاوز أجاهد، كيف أستأذنك في عبادة؟ هل أستأذنك أصلي وأصوم؟

: يا عم فلان.. انت عارف إن الدولة لها مصالح مع دول أخرى والجهاد يختلف عن الصلاة والصوم، الجهاد يتعلق بدول أخرى، يعني مش معقول إن كل واحد في راسه حاجة ينفذها؟ الدولة فيها نظام.

: طيب استأذنك ازاي؟

: تقدم طلب إنك تريد الجهاد، وإذا وافقنا عليه توكل على الله وتروح زي ما انت عايز، وما تنساش تدعي لنا يا مولانا، وإذا رجعت للبلد مش حيكون عليك أي مشكلة، لكنك الآن انخرطت في صفوف ميليشيات مقاتلة بدون إذن ولي الأمر ودي عقوبتها في القانون المصري ٦ شهور سجن، عايزك تفهمني يا عم فلان.. احنا مش ضد الجهاد لكننا ضد الإفساد!

: يعني ايه؟

: يعني تأتي الجماعة الإسلامية مثلا وتقتل الناس بغير ذنب.. ده تسميه في القرآن ايه؟ (آية الحرابة)؟ والله يقول في القرآن: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ تعثوا من العث، وإذا كنت تعتقد ان الحكومة كافرة والناس كلها كفار ما عندناش مشكلة، ده فكر، والفكر يقابل بالفكر، لكن تحمل السلاح؟ مش حنرحمك.

كان لقاء مثيراً اختلطت فيه الضحكات بالصدمات، الكوميديا الساخرة بالكوميديا السوداء.

أرجعوه إلى زنزانته ليأخذوا معتقلاً مصرياً آخر، أبقوه في غرفة التحقيقات الباردة مغمى العينين، استمر التحقيق معه سبع ساعات مقيد اليدين والرجلين، سمع صوت فتح الباب ثم خطوات تقترب منه..

: سلام عليكم.. ازايك يا (فلان)؟

لم يرد

: احنا جايينك من مصر.

تجاهلهم تماما

: احنا الوفد المصري جايين من ٩ آلاف كيلو علشانك، إنت مش مصدقنا ولا ايه؟

طيب يا (فلان).. تعرف البنت زوزي المسيحية؟

ذهل حين ذكروا له اسم جارتهم في الحارة،

: طلع له الصور يا عباس.

كشفوا عن عينيه الغطاء وقد أثبتوا رأسه من الخلف حتى لا يلتفت إليهم، عرضوا له صور البلد الأوروبي الذي كان يقطنه.

: يعني انتو من مصر؟

: أيوه.. وعايزين نعرف قصتك ايه بالضبط.

بعد أن شرح لهم قصته قالوا: اسمع يا (فلان).. حنسألك عدة أسئلة إذا ما جاوبتش عليها ده يعني ان قصتك مش نافعة ولازم تغيرها.. Ok؟

وبعد شد وجذب سألوه: شفت مين في أفغانستان؟

: مش فاكر.. بس إذا رجعت مصر ممكن أفتكر!

: إشمعنى؟

: لأني في مصر راح أقول اللي أعرفه واللي ما عرفوش!

ارتجت الغرفة الباردة بالضحك.

: ما انت عارف اهو.

: بس عندي مشكلة.

: ايه؟

: اللي اعرفه حتاخدوه، ما عنديش مشكلة، بس اللي ما عرفوش حاجيبه منين؟

غرقوا في ضحكهم الساخر.

: ما انت بتتكلم كويس اهو، بديت تقنعنا، وكلامك حلو، بس فيه أمور لازم نعرفها، مين أبوسعد؟ أبو سعد السكرة.. أبو عيون مدورة؟

: ده اللي حتاخدوه في مصر بقه!!

الحيلة:

كان بعض المعتقلين يستغل فرصة كتابة الرسائل للمحامين بكتابة بعض الأحاديث النبوية والمتون الشرعية التي يحفظها ليتناقلها المعتقلون الآخرون، كانت وسائل التواصل بين المعتقلين لنقل هذه الأوراق وتبادل الأخبار يتم بطرق متعددة على حسب طبيعة المعسكر، في المعسكر الأول والثاني والثالث تُطوَى الأوراق بإحكام ثم تُعْقَد بخيط مُستخرج من البطانية ثم لف الطرف الآخر للخيط بحصاة صغيرة ورميها من بين القضبان للزنازين المقابلة، لكن التواصل مع العنابر المجاورة لم يكن سهلاً، لأن إدارة المعتقل نصبوا شبكاً أخضر مرتفعاً فلا تستطيع أن ترى العنبر المجاور، فابتكر بعض المعتقلين طريقة للتواصل معهم، استطاعوا انتزاع جزء من المطاط الموجود في حِقْوِ السروال، ثم صنعوا منه ما يشبه النَّبْلَة، عقدوا في أول الخيط على حصاة وفي آخره الورقة، يجذب المطاط إليه ثم يفلته لتنطلق الحصاة المعقودة بالخيط، فتعلو الشبك الأخضر في مسار نصف دائري، لتدخل الفتحة بين القضبان، وقد تصطدم بها فتتكرر العملية حتى تنجح.

أما التواصل في المعسكر الخامس والسادس فيكون عن طريق شق الباب إن كانوا في نفس العنبر، إما أن يضع فمه في الشق الجانبي ثم يرفع صوته ليسمعه جاره، أو يضع الحصير على الأرض ويستلقي عليه ليتكلم من الشق السفلي ليسمعه الآخر بشكل أفضل، فإن كان فوقه في الدور العلوي فإنه يصعد على المرحاض ليتكلم من فتحة المكيف، وأحياناً نستخدم فتحة تصريف المغسلة لنستغل ارتباط المواسير لنقل الصوت،

فإن خرج أحد المعتقلين إلى قفص المشي تواصل معه البعض عن طريق النافذة الزجاجية المغبشة، والتواصل فيها صعب، فصنع البعض فتحات في المطاط الجانبي للنافذة بالملعقة البلاستيكية مما سهل التواصل، وسرعان ما علمت الإدارة بهذه الحيل عن طريق الكاميرات أو باكتشافها أثناء التفتيش، فحاولت منعها وعاقبت المخالفين بمنعهم من الملعقة لفترة قد تزيد على السنة مع مصادرة اللحاف والكوب والصابون والمنع من المشي لفترة قد تزيد على الشهر.

مع كل قانون جائر يَحْرِمُ المعتقلَ من حقوقه هناك حيل يبتكرها للتملص منه، فيعمد المعاقب بمصادرة الكوب إلى استخدام الظرف الفارغ للوجبة العسكرية، فيغسله جيداً ثم يطويه بإحكام ويدسه في ثنايا المغسلة أو التجويف الجانبي الذي يتدفق منه ماء المرحاض ليستخدمه في الاستنجاء والاغتسال بعيداً عن أعين الجنود.

لقد أصيب الجنود بسبب حيل المعتقلين بوسوسة الشكوك، مما جعلهم يبالغون في التفتيش لدرجة الجنون، رأيت أحد الجنود يمرر يده على جميع القضبان ليتأكد من عدم وجود أي كسر فيها، وآخر يمسح الحائط بيده لعله يكتشف تجويفاً غير مرئي يهرب منه المعتقلون، وآخر يفتش ملابس المعتقل ويعاقبه بسبب فقدان خيط رفيع منها!

السحابة:

بينما أنا أستمتع بالنظر إلى زرقة السماء الصافية ذات يوم من بين القضبان، إذ رأيت سحابة صغيرة تقترب من بعيد، وإذا بها قد تشكلت على اسم (الله)، قرأتها دون تكلف بكل وضوح كأنها كتبت باليد، ذهلت عند رؤيتها، وإذا بأخ آخر رآها فصاح: يا إخوة انظروا إلى السحابة!

انطلق التسبيح والتهليل من هنا وهناك، أثار ذلك انتباه الحراس وقلقهم، سأل الجندي أحد المعتقلين حين رآهم مقتربين من النافذة ينظرون إلى السماء: ما هنالك؟

: سحابة تشكلت على اسم الله.

طلب عن طريق اللاسلكي إرسال أحد المترجمين فوراً، وحين حضر أشار الجندي له إلى السحابة التي أوشكت على الاختفاء خلف الجبل وسأله: ماذا تعني؟

ذهل المترجم العربي الأصل وهو يقرؤها لأول وهلة، ثم قال له: سحابة متشكلة على هيئة اسم الله، ماذا في ذلك؟ صدفة!

قلت له: صدفة حين تتشكل كل يوم على اسم شخص، لكن ذلك تم وسط ركام من التشكلات العشوائية، هل رأيتها تتشكل على اسم (توم) أو (مايكل) خلال هذا الشهر مثلاً؟

: لكنها ليست دليلاً على الله!

: بالطبع.. هي ليست دليلاً عليه لكنها تذكير به، وماذا تغني سحابة تشكلت على اسم الله لعقل أعمى لم يره في كل هذا الكون المعقد النظام والمذهل التصميم؟

إن التعقيد الذي تنطوي عليه الدورة المائية الطبيعية من تسخين الشمس للماء فيتبخر، ثم تقوم التيارات الهوائية بحمله إلى الأعلى ليتكثف بفعل انخفاض درجة الحرارة متحولاً إلى سحاب يحمل أطناناً من المطر، تحركه الرياح حول الكرة الأرضية لينعشها من جديد، لهو أعظم دلالة على الله من تشكل هذه السحابة على لفظ اسمه، ثم هبني رأيت معجزة، لن يزيد إيماني بها، لأن المعجزة هي كسر للقانون الكوني، وانتظام القانون الثابت أعظم دلالة على الله من كسره، لكن الإنسان عدو المألوف المعتاد، يبحث دائماً عن الغرائب والشذوذ، وما يد موسى ﷺ التي ما أضاءت إلا لحظة بأعظم دلالة على الله من الشمس المضيئة منذ آلاف السنين، وما انفلاق بحر واحد بعصاه أعظم من المد والجزر لكل بحار الأرض تدفع وتجذب كل يوم مرتين بقانون غير مرئي، ولو كانت الشمس مظلمة فأضاءها الله لانبهر الناس أعظم من انبهارهم من يد موسى المضيئة، ولو أبصر أعمى بعد عمر فرأى الشمس والقمر وما أبدع في هذا الكون لهاله المشهد، وكما أن السكر والملح سمان للطعام فإن التعود على رؤية الآيات سم التفكر والتدبر، إن ألفة الآية والاعتياد على البرهان يفقده بريقه عند أصحاب النفوس الغبية التي تنبهر بالعين لا بالعقل، هذه السحابة لم تؤسس عندي عقيدة، لكنها أنعشت ما آمنت به سلفاً، هي ليست دليلاً على الله لكنها توقظك من غفلتك وتعيد إليك صوابك وتزيل عنك سكرة الألفة والاعتياد.

قال لي متهكماً: نحن في عصر العلم لا الخرافة، لقد بلغ العلم شأواً بعيداً لا نحتاج فيه معه إلى وجود إله!

قلت له: يا لك من جحود، وهل خلق العلم شيئاً؟ إنما هو مجرد مكتشف لعظمة كانت مختبئة تحت التراب، نيوتن اكتشف الجاذبية ولم يخلقها، جيمس واتسون اكتشف الحمض النووي ولم يخلقه، هؤلاء اكتشفوا القانون ولم يصنعوه، وصانع القانون أولى بالمجد من مكتشفه، أنتم كمن اكتشف هاتفاً خلوياً تحت السرير فصاح في بلاهة: أنا صنعته!

وبدلاً من التوصل بالاكتشافات العلمية إلى الإيمان بصانع لهذه التقنية التي يستحيل عقلاً وجودها بدونه أصبحتم تستدلون بها على إنكار وجوده، إن كل اكتشاف علمي جديد يعتبر دليلاً إضافياً على وجود عليم حكيم أبدع هذا الخلق من عدم.

: إن كان الله قد خلق الكون فمن خلق الله؟

: إذن لوقعنا في (التسلسل القدمي) المستحيل عقلاً، فلو افترضنا أن رجلاً يريد أن يضغط زر تشغيل الكمبيوتر، لكنه لن يستطيع حتى يأمره (س) بذلك، ولن يأمره (س) حتى يكون (ص) هو من يأمر (س) كي يأمر الرجل وهلم جرا، هذا يعني أن جهاز الكمبيوتر لن يتم تشغيله أبداً لأن كل أمر ينتظر آمراً قبله إلى ما لا بداية له، فإن تم تشغيل الجهاز كان دليلاً على وجود الآمر الأول الذي لا آمر قبله، إن إيجاد هذا الكون من العدم دليل على وجود الخالق الذي لم يخلق، دليل على الكلمة الأولى العظيمة (كن) والتي أعقبتها كل هذه العظمة.

قال في ضيق: ولماذا لا يظهر لنا هذا الخالق ليقول: ها أنا ذا فآمنوا بي؟

: ألا تكفيك كل هذه الآيات التي ملأت الكون؟ لماذا ترفض تكريم الله لك بخطاب عقلك فتأبى إلا أن تكون كالبهائم التي لا تنقاد إلا لما تراه؟ كمن يرفض الاعتراف بالجاذبية حتى يراها بعينيه! أنت تريد آية خاصة بك، يكسر الله بها قانونه ليروي غرورك وتنتشي بغطرستك وخيلائك، أنت تريد رسالة من الخالق إليك مباشرة يرجوك فيها أن تؤمن كمواطن يرفض التزام القانون حتى يطلب منه الملك ذلك مباشرة!

أم الضبع:

قلت له: هل تتواصل مع أمك؟

: نعم.. كل ستة أشهر اتصل عليها مرة.

: ما هو شعورها وأنت تخدم في الجيش الأمريكي؟

: فرحة لأني حصلت على عمل، لكنها توصيني بالحذر خاصة حين أذهب إلى أفغانستان!

كنت أستمع إليه متعجباً، كيف لا تمنع أم الضبع ولدها من الخروج للبحث عن فريسة بينما تمنع اللبؤة شبلها من الخروج للدفاع عن العرين!

لو كان رحيماً:

أدرك المحققون أن الإيمان هو الصخرة العتيدة التي تقف في وجوههم وتعرقلهم عن تنفيذ خططهم لتجنيد المعتقلين وكسر صمودهم، فحاولوا كسرها بالشهوات عن طريق فتنة النساء، والشبهات عن طريق تشكيك المعتقلين بإيمانهم بالله، كانوا يعتمدون في ذلك على معضلة الشر. شكا إلي الكثير من الإخوة ما يلقيه عليهم المحققون

والمحققات من شبهات، فطلبت منهم أن يعرضوها علي لأفنّدها وأبيّن لهم عظمة ديننا الذي لا يزال صامداً رغم كل المكائد، إنه الدين الوحيد من بين كل الأديان الذي لا يزال يحتفظ بشرائعه وأحكامه وتعاليمه دون تحريف، وإنها لمعجزة أن يكون كذلك على الرغم من عدم وجود سلطة زمنية تتبناه عملياً وتتولى مسؤولية حمايته وأهله من العدوان، تمنيت لو أن أحد المحققين فتح معي هذا الموضوع في التحقيق لأريه هشاشة ما ظنه دليلاً يشكك به المؤمنين في إيمانهم، وشاء الله أن يكون ما تمنيته بعد عدة أشهر.

بعد سلسلة من الأسئلة قال لي المحقق: تزعمون أن الله موجود وأنه رحيم، إن كان رحيماً كما تزعم فلماذا يئن عالمنا من الألم ويعج بالشرور؟ وجود الشر في عالمنا ينافي الرحمة، إذن هو غير موجود، لأن نفي الصفة الثابتة يدل على نفي الموصوف الذي لا يثبت وجوده إلا بها.

قلت: كل هذا الجمال الذي يحيط بك ولا تراه؟ كل بحر الإحسان الذي أغرقك فيه ولا تشعر به؟ ما ذنبي إن قدمت لك الزهرة فلم تر إلا شوكها؟ أتغنى بدفء الشمس فتشكو حرارتها؟ أشير لك إلى جمال القمر فتحدثني عن الصخور فيه؟!

كم هي النعم التي ولدت من رحم العذاب؟ كم قصيدة رنانة قيلت بلسان الألم؟ كم تحفة فنية رسمت بريشة الحزن؟ كم نجاح باهر خططه عقل بالوجع؟ كم انتصار عسكري لم يتحقق إلا بالجراح؟ ودواء لم يكتشف إلا بالمرض؟ وتكاتف لم يظهر إلا في الحروب؟ ويد نبيلة لم تمتد للمساعدة إلا عند الفاقة؟

كان يجب علينا أن نتألم لأننا ناكرو الجميل لا نشعر بالنعمة إلا عند فقدانها، لا نقدر الصحة إلا حين المرض، ولا الأمن إلا مع الخوف، ولا الشبع إلا بالجوع، نحن هكذا لا نفهم إلا بعصا المعلم، والعاقل يلوم نفسه لا المعلم.

هكذا الحياة لا تخرج لنا أجمل ما فيها إلا بالمعاناة، لولا الألم لأصبحنا كابن الملك المدلل الذي يتباهى بنجاحه المذلل الذي لم يُرِقْ له قطرة عرق، لم يكتسب النجاحُ جاذبيتَه الفاتنة إلا بالعقبة الكؤود والمرتقى الوعر الذي يتجشمه المتسابقون، حين تعض أضراسك وتعصب جرحك وتمضي نحو القمة دون أن تلتفت إلى الوراء، لقد اعتبر الطب عدم الشعور بالألم مرضاً يعالج منه الإنسان، وسماه: (عدم الإحساس الخَلْقِي بالألم) (Congenital Insensitivity To Pain)، لأنه اعتبر الألم علامة تنبهنا على الخلل الذي يجب أن نصلحه، تماماً كمؤشر السيارة الذي يدل على نفاد الوقود أو خلوها من الزيت. إن العقول المتيقظة لا ترى الألم إلا نعمة عظيمة لا يعرف الخلل إلا به، إنه نعمة تدل على رحمة الخالق حَوَّلَها الإنسانُ الجحودُ إلى نقمة تدل على عدم وجوده، لقد أبدع في خلق هذا الكون الجميل، جنة غنّاء وزهرة متفتحة وغصن بهيج

وماء قراح ونسمة عليلة وجسد ينطوي على العجائب وحواس معقدة لتدرك هذا الجمال، ثم قَدَّر الألمَ ليكون دليلاً على اختلال النظام يدعوك به إلى إصلاحه، فغفلت عن تدارك الخلل بالتضجر من التنبيه عليه.

وأعظم من كل ذلك للمؤمن هو الأجر العظيم المترتب على صبره واحتسابه، أما صبره فدليل على رضاه بحكم الله، وأما احتسابه فدليل على إيمانه بوعد لم يره، بل المؤمن يفرح بالبلاء كفرح العاطل عن العمل حين يجد وظيفة مرموقة، هو لا يفرح بكد العمل إنما بالأجر المترتب عليه.

: لقد كان بإمكانه أن يُخَلِّصَ عالمَنا من هذا الفساد الذي غرق فيه لكنه لم يفعل! ما ذنب الأطفال؟

: أنت كتاجر مخدرات يتأفف من انتشار الفساد في مجتمعه، تشاركون في حروب دموية تبررون فيها قتل الآلاف من الأبرياء ثم تناقشون معضلة الشر في هذا العالم، يرشح أحدكم (بوش) مرتين ليسفك الدماء ويدمر البيوت باسم مكافحة الإرهاب، ثم يتكئ على أريكته المريحة آخر الليل ويتفلسف قائلاً: (لو كان الله موجوداً لماذا ترك الأطفال يتألمون؟ ما ذنبهم؟!) يقول هذا وهو الذي شارك في قتل آلاف الأطفال!! إنه جنون متعجرف لا يخجل من التنديد بما يمارسه ليل نهار، لا تُحَمِّلوا الربَّ تبعات جرائمكم، معظم عذابات عالمنا البائس بسبب طغيان البشر أنفسهم.

لقد أخبرنا نبينا أن الله قد أودع في هذه الأرض دواء لكل داء، وترياقاً لكل سم، وأمرنا بالبحث والاستكشاف، وضَمَّنَها كل أسباب السعادة، لكن الإنسان بدلاً من صرف المليارات وبذل الجهود في الأبحاث فإنه صرفها على هذه الحروب التي تغذيها عنصريته البغيضة وتَشَوُّفُه للهيمنة، وقذف آلاف الأطنان من الطعام في البحار للحفاظ على أسعارها، وحاصر الشعوب التي رفضت الخضوع للمتكبرين لتموت في صمت، وتَخَلَّصَت سفنُه الخبيثة من النفايات النووية في صحاري الأمم المغلوبة ومحيطاتها، وأفسد جشعه للمال صحة البشر وأخلاقهم بالسجائر والخمور والمخدرات والجنس، ثم يصيح صوتك النشاز: لو كان الله موجوداً لخلصنا من الظلم والآلام؟!

لقد استخلف الله الإنسان في الأرض وحَمَّله أمانة إقامة العدل، وانتزاع حق الضعيف من الظالم القوي، وردع الأشرار الذين ينهبون خيرات الأمم ويخضعونها لسلطانهم الغاشم، ليعمر الأرض ويقيم العدل ويستخدم الخير المُودَعَ في الأرض ليرفع به كل ألم وعذاب، لكنه فشل في أداء الأمانة، الإنسان هو الشرير الذي صنع من شره معضلة ثم نسبها إلى الله لينكره.

: وما ذنب المظلومين؟

: نحن في سفينة واحدة، وحين يحمل أحدنا فأسه ليخرقها فسيدفع الجميع الثمن، المجرم هو حامل الفأس وليس صانع السفينة الذي حذرنا مما يغرقها.

قال لي المحقق: كيف تصف بالرحمة من يراقبك طوال الوقت ويطلب منك تنفيذ أوامره وإلا عذبك في ناره؟

: مراقبته لا تنحصر في توثيق جرائمنا، إنها حفظ وحماية من كل ما لم يقدره علينا، إنه شعور الطفل بالأمان لا الهوان حين يعلم أن أباه ينظر إليه وهو في لجة الأخطار، ومهما زعمت فلن تستطيع إنكار حاجة البشر إلى قوة مهيمنة تراقب أفعالهم التي كثيراً ما تسوقها النزوات والأهواء لمخالفة القانون. انظر إلى أسواقكم وشوارعكم كيف تمتلئ بكاميرات المراقبة التي لولاها لتحولت مدنكم إلى غابات يأكل القوي فيها الضعيف، أنت لا تلوم المجرم بل الكاميرا!

قال في انزعاج: أرفض دكتاتورية السماء التي تجعل كفارة عثراتنا أن نمرض أو نموت.

قلت: إذن أنت ترفض هذا المبدأ؟

: بالطبع.. إنه ظلم حين تكون العقوبة أعظم من الخطيئة.

: حسناً.. إذا كنت تستنكر العقوبة على من ثبت جرمه فكيف تعذب في غوانتانامو من لم يحاكم أصلاً؟

شعرت أنه بدأ يتضاءل في خجل، قلت: أنت لا ترفض المبدأ كما تزعم، فأنت تمارس ما هو أبشع بكثير مما استنكرته، لكنك تحاول استغلال كل ما تقدر عليه لإنكار الخالق، ما من أمر أنكرته على حُكْمِ الله إلا وتجد نفسك تَقْبَلَه عندما يكون الحَكَمُ هو غير الله، مشكلتك مع الحاكم وليس مع الحُكْم.

ثم افترض أن مَلِكاً جعل عقوبة مخالفة القوانين صارمة جداً وأنت من رعاياه، هل ستحتج على حكمه بارتكاب المخالفة وتعرض نفسك لعقوبته وأنت قادر على تفاديها؟ ما الذي تنقم منه حين يأمرك بما فيه صلاحك ثم يعفو عما عجزت عن أدائه، وينهاك عما يحوي عَطَبَك ثم يتجاوز عن إساءتك بالاستغفار، ماذا تنقم منه حين وعدك على صبرك بثواب جزيل فوق ما تستحق، ومغفرة لذنوبك مهما بلغت كثرة وجرماً، ثم بَشَّرك بِقِصَرِ زمن البلاء وخلود الجزاء؟

كل من يبررون إلحادهم بوجود الشر في عالمنا أغبياء، لأن وجود الشر لا علاقة

له بوجود الإله بل هو اعتراض على إدارته لشؤون مملكته، هؤلاء مروا في اختبار ضاقت به أنفسهم فتمردوا على الله، فظنوا أنهم يعاقبونه بإنكار وجوده، ولو أنهم أقروا له بضعفهم لقواهم، ولو طلبوا مدده لأمدهم، ولو دعوه لصبرهم على مقاديره الفانية ليوفيهم أجورهم في دار النعيم الخالد، لكنهم أعرضوا عنه فأعرض عنهم، واستغنوا عن فضله فاستغنى عنهم والله غني حميد.

حين أرى الدقة المذهلة في تسيير الكون أدرك أن وراءها حكمة باهرة، فمن الحماقة أن يعترض الإنسان العاجز عن فهم روحه التي بين جنبيه على قضاء الله الذي يولج جحافل الليل في وَضَح النهار وكتائب النهار في حِنْدِسِ الليل، ما المعترض على خالق الأكوان إلا كطفل أخرق يعترض في بلاهة على وكالة ناسا.

قال: إن الإله الذي يراك تتعذب في غوانتانامو من أجله دون أن يهب لنجدتك لا أؤمن به.

: كذلك الطفل الذي يجبره والده على مقاساة الدراسة فيهرب باكياً وهو يصيح (أنت لست أبي)، وكالمواطن الذي استاء من أحد أوامر المَلِك فأنكره ملكاً عليه، ولا يدري البائس أنه عرض نفسه للخيانة العظمى التي تفوق تبعاتها التضجر من قانون الملك.

لم أتمالك نفسي من الضحك، سألني عن سبب ضحكي، قلت: ألا تعجب معي حين يكون المؤمن بالله هو أشد الناس ابتلاء في هذا الزمان بينما تراه أكثرهم رضاً بقضاء الله وصبراً على قدره؟

هم أشد بلاء منك، لكن العين المتفائلة التي يرون بها البلاء ليست كعينك المتشائمة، انظر إلى المعتقلين في هذا العذاب، والله لم تزدنا الآلام إلا حباً لله ولا العذاب إلا شوقاً إليه، لأننا أيقنا برحمته فرضينا بقضائه، والله لو خُيِّرت بين أن يكون مفتاح فرجي بيد أمي أو بيد الله لاخترت أن يكون بيد الله الرحيم الذي لولا ما أودعه في قلوب أمهاتنا من الرحمة لأجهضت كل أم جنينها لتتخلص من عَناء الحَمْل وعَنَت الرعاية.

قال: أنتم تبحثون عن سيد لتكونوا له عبيداً.

قلت: كلامك يثير السخرية، كيف تصفنا بذلك وقد رفضنا الخضوع لأكبر قوة غاشمة في هذا العصر (الولايات المتحدة) بينما أصبحت أنت مجرد محقق عسكري بائس ذليل لا تملك أن تقول لا لأتفه أوامر الضابط، ترى من هو العبد فينا؟ العبودية هي الطاعة المطلقة، إنها تنفيذ الأوامر دون نقاش أو تردد، وهي تعني الخنوع والهوان

إن كانت للبشر، لأن هذا المطاع البشري لا يملك القدرة المطلقة ولا الرحمة المطلقة ولا الحكمة المطلقة كي تكتسب أوامره القدسية، أما العبودية لله فهي التسليم المطلق لأوامر الخالق المتضمنة للحكمة والرحمة والسعادة في الدنيا والآخرة، لا مناص من العبودية، من أبى العبودية للخالق الرحيم كان عبداً للمخلوق الظالم المتجبر الذي يأمره بالتعذيب فينفذ دون تلكؤ، كما تفعل أنت في غوانتانامو!

أخذ ينظر إلي ملياً مع ابتسامة خبيثة تتظاهر بالتسامح: لا تظن أني أدعوك إلى الإلحاد، الإيمان أمر جميل، ليس لأنه يعتمد على الأدلة العقلية والبراهين، بل لأننا نحتاج إلى هذا الإيمان لمواجهة مصاعب الحياة والتخلص من الآثار النفسية التي تحطمنا من الداخل!

قلت له: إنها أنانية ممزوجة بالكثير من الجحود ونكران الجميل، ما رأيك بمن يبر أمه ليس لاستحقاقها بل لسماحها أن يبيت في منزلها؟ الإحسان المشروط بالمعاوضة لا يعد إحساناً بل تجارة!

أخذ يحدق بي في غضب، ضغط على الزر خلفه، وحين جاء الجنود قال لهم في ضيق: أرجعوا هذا الإرهابي إلى زنزانته العفنة!

الجنرال ميلر:

إنها القوة حين تسيطر فتنقلب غروراً، دخل العنبر يتهادى وهو يهز عطفيه، متوهماً أن أرواح القادة المنتصرين قد حلت في جسده، مروراً بنابليون بونابرت وانتهاء بتشرشل، كان يمشي متبختراً، وعلى وجهه ابتسامة خيلاء مصطنعة تريد أن تقول: كم أنا عظيم، لكنها كانت تُتَرْجَم في عقول المعتقلين: كم أنا حقير، كان يمشي دون أن يلتفت إلى المعتقلين، لكن الكل كان يدرك أن أذنيه قد اتسعتا لسماع كل كلمة تقال، فانهالت عليه التعليقات يمنة ويسرة.

قال له أحدهم: الغرور لن يصنع فيك بطلاً، قال آخر: ما هذه النجوم على جبهتك إلا كبصقة في جبين حمار أحمق! صرخ أحدهم: توقف عن تعذيبنا أيها المجرم، وناداه آخر: أنت هتلر بدون شوارب! ناداه أحد المعتقلين: توقف لحظة لأناقشك، ومعتقل آخر يرد عليه: لا تضيع وقتك مع هذا المجرم، وآخر ينادي: يا إخوة.. لا تسبوه.. لا يستدرجوكم بظلمهم إلى أخلاقهم.

ومضات:

أعجب أحد الجنود باستعلاء المعتقلين على بطش السجان بينما يرى تواضعهم بينهم، أَسَرَ قلبَه منظرُهم ركعاً سجداً، فكان يقرأ خفية عن الإسلام دون أن يخبر أحد

المعتقلين عن ذلك، حتى جاءت جندية ـ وكانت صديقته المقربة ـ إلى أحد المعتقلين تسأله وهي قلقة حزينة عن حكم الإسلام في تزوج المسلم من غير المسلمة، استغرب الأخ من سؤالها، فأخبرته بأن صديقها الذي تحبه أصبح يقرأ كثيراً عن الإسلام وأصبح متأثراً بتعاليمه ومبادئه، وأنها تخشى أن يسلم هو فتمنعه تعاليم الإسلام من الزواج بها، أخبرها أن الإسلام لا يمنع من ذلك، انصرفت وقد سكن قلقها.

كان أحد المعتقلين في قفص المشي، وكان الجندي الذي عليه نوبة الحراسة متعاطفاً مع المعتقلين، فكان يستغل وقت الحراسة للقيلولة، فإذا رأى المعتقلُ الضابطَ قادماً من بداية العنبر أخذ ينادي على الجندي ليوقظه حتى لا يعاقب، وفي إحدى المرات غلبته سنة من النوم وغفل الأخ عنه ففاجأه الضابط ورآه نائماً فركله برجله ركلة قوية ليوقظه من نومه، هب الجندي من نومه مذعوراً، أخذ المعتقل يصرخ في وجه الضابط: لماذا تركله بهذه الطريقة؟

اندهش الضابط من دفاع الأخ عن الجندي فقال: لقد كان نائماً في وقت عمله!

أجابه: أترضى أن يوقظك شخص بهذه الطريقة؟

قال له أحد المعتقلين وهو لا يعلم تعاطف الجندي مع المعتقلين: دعهم، فَخَار يكسر بعضه.

فأجابه بانفعال: هذا الجندي متعاطف معنا، إسلامنا علمنا الوفاء، ولا أطيق أن أراه يهان بهذه الطريقة.

رأينا جندية في المعسكر الرابع وقد كلفها الضابط برش الأرضية الترابية بالماء، كان خرطوم الماء ثقيلاً جداً يصعب التحكم به، فكانت تجره بصعوبة ويَتَفَلَّت منها حتى ابتلت ملابسها، فاستدعينا الرقيب وأنكرنا تحميلها فوق ما تحتمل، لكنه رفض مراعاتها قائلاً: هذا عملها الذي يجب أن تقوم به، أو فلتختر لها وظيفة أخرى!

بدأ بعض المعتقلين يصرخ عليه فجاء الضابط ليهدئ الموضوع لأنه لا يريد التصعيد مع المعتقلين في هذه الفترة، وأمر الجندي أن يتبادل معها العمل، ومضى وهو غارق في دهشته.

كان الماء البارد ممنوعاً على المعتقلين لأكثر من تسع سنين، وكذلك الشاي يترك حتى تذهب حرارته فيقدم للمعتقل دافئاً، فجاء جندي متعاطف بكوب بلاستيكي فيه ماء بارد، فلاحظه جندي آخر وأنكر عليه: لماذا تعطيه الماء البارد؟

قال: لماذا لا أعطيه؟

: هذا مخالف للقانون.

: أنا لا أبالي!

مخالفة الجندي للقانون فيما يكون في مصلحة المعتقل أمر نادر جداً في غوانتانامو لتبعاتها الباهظة، تكونت علاقة صداقة بين المعتقل والجندي، واستمرت طويلاً حتى فاتح الجندي المعتقل بخبر انتقاله من غوانتانامو، نزع المعتقل الطاقية البيضاء من رأسه قائلاً: لا أجد ما أهديك إلا هذه!

فرح الجندي بها وقال: أجمل هدية حصلت عليها في حياتي، أتدري لماذا؟

: لا

: لأنها تذكرني بالصلاة التي صبرتكم على هذا البلاء الشديد!

ما أشرف نداوة الوفاء حين تكسو صلادة الصمود، وما أجمل دماثة الخلق حين تمتزج باستعلاء الإيمان.

كان الجنود من مجموعة ٩/ ٤ خبثاء أشرار قساة القلوب، لا يدخلون العنبر حتى يشرعوا بالاستهزاء والسب والضرب على الأبواب على مدار الساعة، وكان بعض المعتقلين يتبادل معهم الشتائم، كنت أجد صعوبة نفسية كبيرة في دعوة مثل هؤلاء إلى الله وتحكيم العقل والمنطق وعدم الخضوع للأسرة والمجتمع والأصدقاء في اختيار الدين والأفكار، كنت لا أطيق النظر إلى وجوههم فضلاً عن دعوتهم، كنت أراهم أرواحاً شريرة تسكن جسداً تمرس على الظلم والطغيان، كنت وقتها أراجع سورة يوسف وإذا بالآيات تنير لي دربي كالعادة، تكشف لي طبائع النفوس وخبايا الصدور، ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ إن قلة المؤمنين بالفكرة لن يضعفها كما أن كثرتهم لن يقويها، ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ فلماذا التوقف عن مشروعك الحضاري انتظاراً لاقتناع من لم يقتنع؟ ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ لن يؤمنوا مهما قدمت لهم من أدلة وعرضت لهم من براهين، لأن القضية ليست متعلقة بالعقل بقدر تعلقها بذلك القلب المتكبر الذي يأبى الإقرار بالحقيقة، وحين يتكبر القلب يتعطل العقل، فهم يروننا مجرمين نستحق ما نحن فيه، وأن كل جرائمهم منذ مذابح الهنود الحمر وخطف العبيد مروراً بهيروشيما وناجازاكي، وانتهاء بالآلاف المؤلفة من قتل المسلمين، كل هذا له ما يبرره فهم يرون الهنود الحمر عائقاً في درب الحضارة التي لولاهم ما وصلت أمريكا إلى ما وصلت إليه، وأنه لو كان الهنود الحمر مسيطرين على أرضهم لظلت أمريكا متخلفة إلى يومنا هذا، وأن تسخير العبيد وسيلة مهمة لتحقيق هذه الحضارة، وأنه لولا هيروشيما وناجازكي لكان اليابانيون اليوم ينشرون الموت في

العالم، وأنه لولا الحروب في العالم الإسلامي لوصلت رايات المسلمين السوداء إلى واشنطن ونيويورك!

كل جريمة لها ما يبررها حين يتخلى القلب عن إنسانيته، لا يوجد أفجر ولا أقسى من العقل حين ينفرد بالقرار بعيداً عن القلب، والتحدي الأكبر أمام حملة الرسالة أن يعملوا لاسترداد قلب البشرية الضائع في دهاليز البراغماتية العاتية.

الجندي المتعاطف:

كان متعاطفاً معنا، مثقفاً يدرس في الجامعة، لكنه اضطر للالتحاق بالجيش بسبب ظروفه المالية، وحين رأى الانتهاكات التي يمارسها الجيش الأمريكي في غوانتانامو وأفغانستان والعراق حاول الخروج من الجيش لكنه لم يستطع، كان يأتينا ويتحدث معنا كلما سنحت له الفرصة؛

قال في ضيق وغضب: أنا أشعر بالعار لأني أمريكي، كل ما فعله الجيش الأمريكي بكم قد فعله الله بنا.

استغربنا من كلامه، كان كلامه هذا في بداية ٢٠١٠.

قال: أكثر من ٣٣ مليون أمريكي جائع يأخذون طعامهم من البنوك الغذائية منهم ١٤ مليون طفل، الكثير من الأمريكان أخرجوا أولادهم من المدارس الأهلية الخاصة إلى الحكومية التي تتصف بالازدحام والظروف السيئة، وفي موجة البرد الأخيرة ازداد عدد المشردين أضعافاً مضاعفة، وانقطعت الكهرباء عن الآلاف المؤلفة بسبب عدم استطاعتهم تسديد الفواتير، موتى في الشوارع بسبب البرد، ولاية واحدة بلغ عدد المشردين فيها أكثر من ٢٥٠ ألف مشرد، وأصحاب الملاجئ لا يستطيعون استيعابهم فأعطوهم حصيراً لكل واحد منهم، ثم ضحك الجندي وقال: كالذي نعطيكم اليوم، وقبل أسابيع تم إقرار صفقة لشراء ٥٠٠ جهاز كشف وتفتيش يكشف العورة، ونشروها في المطارات المهمة بأكثر من ٢٠٠ مليون دولار مما أثار غضب الشعب، وأي شخص يرفض الدخول في الجهاز فإنه يتعرض للتفتيش اليدوي حيث يمرر رجل الأمن يده على الأماكن الحساسة للرجال والنساء والأطفال، قد جوعنا الله كما جوعناكم، وعرانا الله كما عريناكم، كل ما فعلناه بكم قد فعله الله بنا، وبأيدينا إمعاناً في الإهانة والإذلال،

ثم طأطأ رأسه بحزن وقال: زميل لي في الجيش قد انتحر في السنة السابقة.

وعندما سألناه عن السبب قال: لا يريد أن يذهب إلى أفغانستان.

قلت له: إذا كان يخشى الموت فكيف يقتل نفسه؟

فقال لي: انتظار الموت أشد من الموت، في السنة الماضية هناك مائة وستون حالة انتحار في الجيش، منهم بضعة وخمسون من المارينز فقط، في شهر يناير السابق كان عدد المنتحرين في الجيش أكثر من قتلى المعارك، أنا ضد هذه الحرب الظالمة، لا أريد أن أذهب إلى أفغانستان، أود الخروج من الجيش لكني لا أستطيع.

التفت إلي قائلاً: كيف تصبرون على هذا العذاب الذي أنتم فيه؟

قلت له: لا تظن القوة فينا، نحن مثلكم تماماً، بشر من لحم ودم، نحزن كما تحزنون، ونتألم كما تتألمون، لكن هناك أمر هو الذي يمدنا بالقوة، هو متاح للجميع وليس حكراً علينا لكنك أشحت بوجهك عنه.

ابتسم وهو يقول: أعرفه، ذلك الكتاب الذي تعلقه هناك بالقضبان، خلال السنوات الفائتة هناك خمسة عشر جندياً انتحروا في غوانتانامو، لم يتحملوا الوضع المزري في هذا المعتقل، لعنة الظلم أصابتنا نحن كذلك، لطالما تفكرت في الأمر، كيف يصبر المظلوم على ما لا يصبر عليه الظالم؟ هناك سر.

قلت له: ابحث عنه، ستجده إن صدقت في بحثك.

يفضل بعض الجنود التهدئة أحياناً مع المعتقلين بدلاً من المواجهات التي تنهك الجنود وتعكر صفو يومهم وتضاعف الجهد الذي يبذلونه نفسياً وبدنياً، لكن المسئولين يجبرونهم على الاستمرار في المواجهات لكسر إرادة المعتقلين، قرر بعض المعتقلين استهداف الضباط الذين يقفون وراء هذه المشاكل وبالتعاون مع بعض الجنود المتعاطفين تم التعرف على الجهة المسئولة، في إحدى المرات كان العقيد هو من يقف خلف المشاكل، فوضع المعتقلون خطة لاستدراجه، وحين أخرج الجنودُ المعتقلين المضربين إلى أقفاص المشي رفضوا العودة إلى زنازينهم بعد انتهاء وقت التشمس، أملاً في استدراج العقيد إلى الممشى، وفعلاً جاء العقيد ليفاوضهم على الرجوع سلمياً بدلاً من الإتيان بقوات الشغب، كلمه أحد المعتقلين ليشرح له القضية، فلما اقترب منه بصق على وجهه، ورماه آخر بالحصى فأصابه فولى هارباً، ليس الغريب فرح المعتقلين بنيلهم ممن يقف وراء المشاكل، بل الغريب أن الجنود فرحوا جداً بضرب العقيد الذي كان يجبرهم على صنع المشاكل للمعتقلين، لم تتمالك جندية نفسها فأخذت ترقص فرحاً، جاء مسئول الحرس وأخبر الأخ الذي بصق على العقيد والآخر الذي رماه أن جميع الجنود فرحوا لهذه الحادثة، وفي اليوم الثاني جاء أحد الجنود إلى الأخوين في الانفرادي حيث يقضون عقوبتهما وقد كان الجندي غائباً وقت الحادثة فلما سألهما عما حدث وأخبراه قبض يده وهو يلوح بها من شدة الفرح ويقول: (yes)!

لم يكن كل هؤلاء الجنود الذين فرحوا بالحادثة متعاطفين مع المعتقلين، بل كان بعضهم لئيماً لكنهم جميعاً كانوا يكرهون العقيد بصورة لم يتوقعها المعتقلون.

الفحيح:

كان أمامي الأخ إسماعيل المصري، وبجواره الأخ فوزي العودة الكويتي، قام اسماعيل في أحد الأيام مفزوعاً وهو ينادي باللهجة المصرية: يا إخوة أنا سامع فحيح، احتمال تكون حية، حاولوا تبصوا في الفتحة اللي في طرف زنزانتي يمكن الحية فيها.

رددت عليه: مش شايف حية خالص يا (سمعة).

فيرد بقلق: مفيش إزاي؟ دنا سامع الفحيح، وفحيح قوي، واضح إنها حية كبيرة.

ثم بدأ في طرق باب الزنزانة في غضب وهو ينادي الجنود:

((MP), there is a snake around me)

فيه حية حولي!

نظر الجنود فلم يروا شيئاً، استخدموا المصباح اليدوي ليروا ما بداخل الفتحة القريبة من باب الزنزانة فلم يروا شيئاً، تجاهلوه ورجعوا، بقي طوال الليل مستيقظاً، حاول أن يستخدم الحصير الذي ينام عليه لسد الفتحة، لم يستطع النوم خوفاً من الأفعى أن تلدغه وهو نائم، خاصة أن هذه الحوادث قد تكررت مع بعض المعتقلين حين تسللت حيات وعقارب إلى داخل زنازينهم، رأيته في صباح اليوم التالي وهو يتلفت بين الفينة والأخرى في الفتحات التي حوله مترقباً هجوم الأفعى عليه في أي لحظة، وفجأة سمعت قهقهاته تدوي في المكان: ما لك يا (سمعة) فيه إيه؟

: اكتشفت الفحيح كان خارج من مين؟

: من مين يا (سمعة)؟

: من جشاء (فوزي)!!

كان فوزي يعاني من أمراض في جهازه الهضمي بسبب الإضرابات المتكررة، فكان يغلبه التجشؤ فيكتمه قدر استطاعته ليخرج منه صوت هو أشبه بالفحيح.

: خلاص دلوأتي أعرف أنام بعد ما اكتشفت الفحيح ده من مين!

لم يكن هذا هو الموقف الفكاهي الوحيد للأخ إسماعيل، حين كان في معتقل قندهار أبدى المترجم المصري شكوكه للمحقق من جنسية إسماعيل الذي تغيرت لهجته

المصرية بسبب احتكاكه بالجنسيات الأخرى، صرخ المترجم باللهجة المصرية: جنسيتك إيه؟

أجابه: مصري.

: لهجتك مش مصرية.

: أنا مصري أباً عن جد.

أخذ المترجم يحدق في عينيه والمحقق يراقب الوضع من بعيد لعل المترجم يستطيع اكتشاف الحقيقة، قال المترجم: طيب، أنا راح أعطيك النصف الأول من أمثال مصرية مشهورة وأنت تكملها، إذا معرفتهاش حتكون ليلتك هباب.

: ماشي

زم المترجم شفتيه مستدعياً ما يحفظه من أمثال بينما بقي إسماعيل مترقباً في قلق، انبسطت أسارير المترجم بعد أن وجد ضالته، اقترب وجهه الذي ارتسمت عليه ابتسامة ماكرة من وجه إسماعيل المتوتر، رفع صوته: دبور..

أجابه إسماعيل بارتياح: يزن على خراب عشه!

تمعر وجه المترجم من إجابة إسماعيل السديدة، كانت نظراتهما تتبارزان، بينما كانت الأمثال المصرية هي ميدان النزال!

باغته بسؤاله: جت الحزينة تفرح..

تبدل توتر إسماعيل سكينة وهو يجيبه بثقة: ملقتلهاش مطرح.

أسقط في يد المترجم بعد انتصار إسماعيل عليه!

الزنزانة الانفرادية:

في جوف الزنزانة الانفرادية فهمت نفسي لأفهم بَعْدَها الكثير، فهمت أنها أقوى كثيراً مما ظننت وأضعف كثيراً مما توهمت، أتحامل على قدميّ الواهنتين أسفل الوادي، أمد يديّ المرتجفتين في يأس نحو القمة، وفي طرفة عين أرى نفسي واقفاً باعتزاز على سفح الجبل، ما الذي جرى؟ لا أدري! أجدف بساعديّ المفتولين في مَرْكَبي الوطيد، أمخر عباب البحر في عزيمة وإصرار، حتى إذا بدا الشاطئ في الأفق القريب ولاحت رؤوس أشجارها الباسقة وأيقنت بالوصول فترت يدي عن الحركة وانسل المجداف من قبضتي الواهنة، وانكسر بي المركب في لجة البحر، ماذا حدث؟ لا أدري!

في الزنزانة الانفرادية تعلمت أن أسمى ما في الإنسان ثباته أمام العاصفة، وأن استسلامه للألم عجز، أنت من تختار لتكون قوياً أو ضعيفاً، القرار لك وليس للظروف، الظروف بيدها أن تحيطك باليأس وأنت بيدك أن تفتح لها الباب أو تبقيه أمامها موصداً، لقد كان الانفرادي فرصة ثمينة لأعيد حساباتي، كم كنت جهولاً حين بحثت عن سعادتي عند الآخرين وغفلت أن سرها بين جنبي، كم كنت ساذجاً حين تعلق قلبي بمن زوال صداع رأسه أهم عنده من كل حياتي، وحصوله على متعة آنية أَجَلّ في عينه من قرار مصيري يتوقف عليه مستقبلي كله.

فيها تعلمت أنني وحيد وإن أحاط بي الأصحاب، فقير وإن امتلأ جيبي ذهباً، مغمور وإن أشاروا إلي بالبنان، وأن كل الصخب والضجيج حولي إنما هو همود موحش، لأنني أدركت أني محاط بأشباح لا حقيقة لها، لا حقيقة لها لأنها فانية، فنت بعد عمر ضئيل ممعن في القصر حتى لا تكاد تلمحه في عمر الآخرة الممتد طولاً وعرضاً في الأبدية، لقد تعلمت أن أجمل ما في الحياة أن نعيش مع الله، الله الذي نسيناه في زحمة الأشغال ولم ينسنا.

في الزنزانة الانفرادية رأيت واقعاً ما قرأته نظراً، تجسدت أمامي الكلمات التي تنبض بالحركة والحياة بعد أن كانت مومياء مدفونة في لحود الكتب، لقد رأيت خباب بن الأرت عارياً أمامي وهو يتلوى صارخاً على الجمر، والملأ من قريش يبكتونه: هذا جزاء من يثير الفتن في حرم الله، رأيت أبا الفاكه يقوده أطفال مكة في الطرقات بحبال الليف عارياً مطأطئ الرأس، ورجل من بعيد يتمتم في شفقة: يا له من مسكين أضر بنفسه وأضاع مستقبله، بكيت وأنا أرى (زنيرة) تتحسس الطريق بيديها تتخبط رجلاها بين الصخور بعد أن فقدت بصرها بالأسياخ المحماة في النار، ثم دار الزمان دورته وإذا بعذابهم يتحول إلى بطولات تتناقلها الأجيال، تستضيء بوهج آلامهم نحو المجد.

ثلاثية الصمود:

في غلس ليل بهيم طوقتني الهواجس واكتنفتني المخاوف وشعرت أن زنزانتي قد ضاقت علي حتى اختلفت أضلاعي، نظرت باتجاه النافذة من خلال فتحات القضبان الحديدية المتداخلة، هب النسيم معطراً بأنفاس الفجر القادم، اقتربت من النافذة لأنظر عن قرب إلى أي شيء يذكرني بالحياة لأروح عن نفسي، كانت الكشافات الخارجية منتشرة في كل مكان، موجهة أضواءها الساطعة على العنابر التي حبس فيها المعتقلون، لم أستطع الرؤية بوضوح، تراجعت قليلاً إلى الوراء حتى لا أصاب بالصداع بسبب قوة الإضاءة، رجعت إلى نفسي متأملاً: لماذا أبحث عما أُرَوِّح به عن نفسي من خارجها؟

إنما السعادة نبع يتدفق من أعماق الروح المودعة في ذلك الجسد وليست نهراً يصب فيها من الخارج، وأي ضوء ذلك الذي يستطيع أن يتغلغل إلى داخل الجسد المنهك البائس ليضيء ذلك القلب الغارق في ظلام حزنه ما لم يكن المصباح في داخله هو؟ مفتاح ذلك المصباح في عمق الروح وليس في منأى عنه، إن السعادة لا يُنْتَظَر قدومُها من الخارج بل تطلب من الداخل، تُسْتَدْعىٰ من أغوار النفس، مصدر الحزن والسعادة يكمن في داخل النفس البشرية وليس فيما تناله من لذة أو تعانيه من ألم، فقد يرى الإنسان غابة خضراء تعبق فيها الأزهار تتوسطها بحيرة متلألئة بأشعة الشمس فلا يرى فيها إلا الحشرات الضارة والحيات السامة والسباع المتربصة، وقد يرى في حصوله على وظيفة فرصة رائعة لبناء مستقبل أفضل، أو يراها جهداً متعباً وعملاً مضنياً يجب أن يتحمله حتى يبعد عن نفسه شبح البطالة، وقد يسقط جسدُه أرضاً وروحه ترفرف في العلاء، وقد يَرْفُلُ جسده مُنَعَّماً في قصر مشيد بينما تتمرغ روحه في وحل الحزن.

لقد انهمرت القذائف فوق رأسي، وتفجرت الأرض حمماً من تحتي، وتطايرت الجثث حولي، والتوى علي الجوع وأحدق بي الخوف، وبقيت لعشر سنوات تقريباً في زنزانة انفرادية لا يتعدى طولها مترين وعرضها متر وثمانين سنتمتر يسومني الحاقدون سوء العذاب، لكنني لا زلت حياً، لا زلت أشهد موقناً من قلبي أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، لازال قلبي يهفو لإشراقة الشمس، وعيني ترنو لاهتزازة الغصن الرطيب، وأذني تصغي لشدو البلابل، وروحي تشتاق لمجد أمة لا زالت في التيه، لم يكن شيء من ذلك بقوتي على الإطلاق، لست رجلاً حديدياً لا يبالي بالعذاب، ولا خارقاً لا يكترث بالأهوال، لقد افتلتت من مِحْبَس صدري أنَاتُ وَجَعٍ تحت السياط، وآهاتُ ألم في القيود، لقد حزنت وبكيت، وفترت ووهنت، لكنهم لمَ يكسروني، ليس لأني لا أنكسر، بل لأن ما آمنت به غير قابل للكسر، باستطاعة الطاغية أن يقتلك، أن يتلذذ بأنينك، أن يملك جسدك، لكنه لن يملك قلبك، باستطاعته أن يسلبك روحك أو يفقدك عقلك لكنه لن يسلبك إيمانك، قد تسقط بين يديه مقتولاً، أو تهذي مجنوناً، وماذا يصنع الطاغية بآلة محطمة غير صالحة للاستخدام؟ يكفيك نصراً أنك لم تكن طَوْعَ يديه.

أستطيع القول بكل ثقة من خلال التجربة الطويلة في أشد الظروف قسوة عند أقوى استخبارات وقوة عسكرية في العالم:

إن أعظم استراتيجية يواجه بها الإنسان ابتلاءات الدنيا تكمن في (ثلاثية الصمود):

تصحيح التصور، الاتصال بالله، الجهد البدني.

إن تصحيح التصور للأحداث هو الذي يحدد طبيعة رؤيتنا لها وتعاملنا معها،

السراج الذي وضعه القرآن في أيدينا لتبديد ظلمة الابتلاء والتغلب على مصاعب الحياة بنجاح يكمن في فهم حقيقة الابتلاء واعتبار زمنه، إن تغيير التصور لحقيقة البلاء هو أهم عنصر لتجاوزه بنجاح، الابتلاء يعني الاختبار وليس الاحتقار، إنه تطهير لا تدمير، إنه اليقين بأنه يصطفيك حين يبتليك، حين تصاب مع أسرتك بحادث سيارة تصاب فيه بالشلل وتفارق فيه زوجتك وابنتك الحياة فإنك ستنهار، لأنك رأيت الشلل لا الجائزة المترتبة عليه، لأنك رأيت في الموت الفراق ولم تر فيه الانتقال إلى دار التلاق، ماذا لو أخبرك المَلِك أنك إن صبرت على ابتلائك العابر الزائل فسيهبك قصراً مشيداً في جزيرة خلابة تنتظرك فيها زوجتك وأولادك بفارغ الصبر، تتنعمون فيها خالدين بأنواع الملذات والأفراح؟ إنه التصور، يشتعل قلبُك غضباً وجسدُك ألماً حين يضربك عدوك، ولو ضربك مدربك الرياضي لتقوية جسدك لتقبلت الأمر بصدر رحب، هو ذات الضرب لكن التصور اختلف فاختلفت معه مشاعرك وسلوكك، يستفزك حاقد فتثور غضباً لكنك حين تعلم أنك وقعت ضحية لبرنامج الكاميرا الخفية فإن غضبك سيتحول ضحكاً، إن تغيير التصور للمشكلة يحيلها من مأساة مؤلمة إلى تجربة مثيرة، وحين أتأمل مصائب الدنيا فإني أجدها محبوسة في قالب زمني يتحول بعد لحظة من واقع إلى ماضٍ لا حقيقة له، لكننا نرتكب جريمة في حق أنفسنا حين نصطحب معنا ذكريات الآلام إلى اللحظة الآنية لتتحول الذكريات إلى حقيقة من جديد.

وأما الاتصال بالله عن طريق الصلاة والدعاء والقرآن والتفكر فهو المدد الذي يفيض على قلبه ليذكره بشرف الجزاء وقرب الوصول. إن تصحيح التصور وحده لا يكفي لتجاوز قنطرة البلاء لأن ميدانه الفكر، والإنسان لا يصل بالفكر وحده، بل لا بد من زاد إيماني يصله بالسماء، وهو أشد غَناءً للروح من الطعام والشراب للجسد، إن تأثير هذا الاتصال الروحي الوجداني في إيقاظ القوى الكامنة في النفس أعظم من تأثير الغريزة البشرية والطبيعة البيولوجية في إفراز حمض الأدرينالين ليمنح الجسد قوة رهيبة في حال الخوف والغضب.

وأما الجهد البدني فالإنسان يتكون من جسد وروح، حين يكون الجسد ساكناً خاملاً فإن حِمْل البلاء ينصب على الروح وحدها، فإن نشط الجسد ونصب تفرق البلاء عليهما فخفت وطأته على الروح، وهذا جربته بنفسي، لم أدع التمارين الرياضية طوال الأربعة عشر عاماً التي قضيتها في غوانتانامو مهما اشتدت الظروف وعظم البلاء، فالتمارين الرياضية لا تخفف الجسد من أوزانه الزائدة فحسب بل تخفف الروح من أثقالها المرهقة، لقد كنت أتصبب عرقاً في الزنزانة الضيقة التي لا تتعدى متراً ونصف في مترين طولاً وعرضاً، كنت أقول لمن حولي مازحاً: إجهاد الجسد بتمارين الضغط

تخفف الضغط عن الروح، سألني أحدهم متعجباً: كيف تتحمل التمارين في مثل هذه الظروف الرهيبة؟

أجبته: بل أنا أعجب كيف تتحمل كل هذا البلاء دون تمارين رياضية؟

كنت أرى بعض المعتقلين الذين أقامت آثارُ السجن على وجوههم مشاريعَ جسور وأنفاق، بينما كنت أرى المواقف تجسد أرواحهم في صورة شاب مفتول العضلات، ولم يكن ذلك إلا لأنهم أدركوا السر الذي انطوت عليه: (ثلاثية الصمود).

يظهر الترابط الوثيق بين القلب والجسد في دعائه ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل»، فالهم هو انشغال القلب بمكروه متوقع في المستقبل، والحزن هو تألم القلب بمكروه وقع، وكلاهما يتعلق بالقلب، والعجز هو عدم القدرة على فعل الشيء، والكسل هو التثاقل عن الفعل مع القدرة عليه، وكلاهما يتعلق بالجسد. كما تتجلى ثلاثية الصمود في قوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ [آل عمران: ١٤٦] فالوهن هو خور القلب، والضعف هو خور الجسد، والاستكانة هي الخضوع للعدو وهي ناشئة عن التصور الخاطئ وظن السوء بأن الله لن ينصر دينه وأولياءه.

هذا التصور لحقيقة الابتلاء وقصر زمانه يُعَدُّ كنزاً من كنوز الدنيا، ولن يفتح خزائنه إلا للمؤمن بالله واليوم الآخر، وكلما زاد الإيمان زاد هذا التصور رسوخاً، وكلما زاد رسوخاً استقبل البلاء بنفس راضية وقلب مطمئن، وكلما غفلتُ عن هذا المعنى تضعضعت نفسي للابتلاء، وترنحت تحت وطأته، فإن ذكرتُه وعِشْتُه نَهَضَتْ روحي بعد سقوطها من جديد.

ولا شيء يزيد الإيمان كالتفكر في الأدلة العقلية الدالة عليه، الإسلام لا يعرض منهجه بمعزل عن دلائله، لأنه يدرك أن أحكامه وأخباره لا قيمة لها دون براهينه، وحين يوجه المؤمن نحو الامتثال لأوامره الموصلة للسعادة فإنه يُجَيِّشُ لذلك كلَّ حقائقه الكبرى، حقيقة وجود الله المبرهنة بالضبط الدقيق لقوانين الكون، ودلائل صدق حُكْمِه وخبره الذي استطاع إنقاذ العربي البدوي من درك التخلف إلى ذروة الحضارة في أمد زمني قصير مذهل تعجز عن مثله كل الأفكار الأرضية التي رفضت وحي السماء، تتوالى الأدلة على صدق الوحي حتى تصبح حقيقة يراها بعين قلبه، ليس بينه وبينها إلا حجاب رقيق يشف ما وراءه، من صح إيمانه سيراها، سيرى على تلال المسك القصور، ويرى الصالحين تعبق منهم العطور، وتزينهم ضفائر الريحان والزهور، وكل من بذل وضحى تلقته الحسان بصدر طهور، سيوقن بوعد الله بالنصر، سينتظر طارق البشرى كل لحظة ينادي بصوت يملأ الكون: (لقد كسر القيد)، وما مجيء الموت قبل ذلك ليُخْلِف

الوعدَ، بل هو أجمل وعد وأسعد بشرى، إنه النصر الحقيقي حين افتلتت روح المؤمن من أيدي أعدائه منطلقةً إلى ربها الرحيم الذي سيقتص لها من ظالم متكبر، فليست الدنيا سوى منازلة قصيرة بين الحق والباطل، إني أرى ميدان الصراع الرحب ممتداً إلى ما وراء تلك الربوة الصغيرة التي يسميها الناس موتاً، وإعلان النتيجة يكون في نهاية الشوط لا منتصفه.

لقد دعانا الوحي لسبر أسرار النفس المفعمة بالتعقيد الدال على الصانع، لكن (علم النفس) تمرد على الخطة الرئيسية وصار منطلقه دنيوياً صرفاً مقطوع الصلة بما وراء المحسوس، كم هو مثير للشفقة حين يحاول (علم النفس) أن يعالج مشكلات النفس البشرية مستقلاً عن وحي السماء، أنى لتجارب هذا المخلوق العارض الذي لم يطرأ على هذا الكون العتيق إلا بالأمس القريب أن يمنح الطمأنينة لنفس تدرك أنها تعيش في كوكب دوار مبحر في كون سحيق مظلم لا يدرك مصيره ولا سبب وجوده؟

رأيت أحد المعتقلين الظرفاء يوهم الطبيب النفسي في غوانتانامو أنه بحاجة لمساعدته في التخلص من الاكتئاب، قال له الطبيب: أقنع نفسك أنك سعيد.

سأله: كيف؟

: توقف عن التفكير السلبي، عن التفكير في الألم والشقاء الذي أنت فيه.

: في هذه الزنزانة؟ وسط هذا العذاب والإذلال؟

: أدرك صعوبة ذلك، لكن حاول، قل لنفسك (أنا سعيد)، كررها مراراً: (أنا سعيد.. أنا سعيد.. أنا سعيد)!

: لكني لست سعيداً، هل أخدع نفسي؟

: نعم.. لأن خداعك لنفسك فيه مصلحة لك!

إن الاستقواء بالكلمات على جيوش الاكتئاب دون الاقتناع بمعناها ضرب من ضروب الجنون، واليقين لن يحصل دون اقتناع العقل به، هنا تكمن أهمية التحرر من المعوقات النفسية التي تمنع الناس من البحث بجدية عن حقيقة نشأة الكون والمصير، عجباً لرجل وجد نفسه في طائرة فلم يكلف نفسه البحث بجدية وإخلاص لمعرفة سبب الرحلة ووجهتها!

إن البناء النفسي المتفرد الذي يؤسسه الإسلام لا مثيل له، إنه يستثمر الموت استثماراً إيجابياً تعجز عنه جميع المدارس النفسية الأخرى، لقد استغل الإسلام حقيقة الموت لاستثماره في تحقيق السعادة، لقد حوله من رعشة فزع إلى هدأة أنس، ومن لحد

مظلم وجمجمة محطمة وغربة موحشة إلى ابتسامة بهجة ونشوة وصول ولقاء الحبيب بالحبيب، فالموت في الإسلام ليس سوى بوابة تنقلنا من دار إلى دار، أما في الأفكار الأرضية المعزولة عن السماء فهو يعني النهاية المرعبة الموغلة في الفناء، لذلك قال ﷺ: **«أكثروا من ذكر هادم اللذات، فما ذكره عبد قط وهو في ضيق إلا وسعه عليه، ولا ذكره وهو في سعة إلا ضيقه عليه»**، يوسع الضيق لأنه يذكر بنهاية البلاء وآخر الألم وزوال المعاناة، يفسح أمل المكروب لأنه ينعش الروح بالثواب الجزيل والنعيم الأبدي، الموت للمؤمن يعنى توزيع الجوائز واستقبال الأحبة الذين سبقوا واحتفال كرنفالي بالفوز، **«ولا ذكره وهو في سعة إلا ضيقه عليه»** إنها سعة المادة المطغية والترف الملهي الذي يجب أن يضيق، لأنها عدو الإنجاز الذي يجب أن يُقْتَل، وعائق الفوز الذي يجب أن يُزال، والصنم المتعجرف الذي لا يحطمه سوى فأس الموت، الموت الذي يذكرنا بفناء الخصب كي نحرث للجدب، إنه يحثنا للاقتطاع من ثروتنا الحالية كي نودعها في رصيدنا المستقبلي لنستهلكه في وقت المجاعة، إن إلجام النفس عن طغيان النشوة يُرَوِّضُها لتُلْجَم عن طغيان الكآبة، إن علاجاً استطاع التغلب على التأثير السوداوي للمكان المحصور في زنزانة انفرادية ضيقة وللزمان المتوقف عند صمت كئيب يقطعه رنين السلاسل لقادر بإذن الله على التغلب على ما عدا ذلك، أي مفتاح سحري ذلك الذي استطاع أن يفتح قفل أحزان الماضي ويحطمها، وهواجس المستقبل ويدمرها؟

لقد فرق الإسلام بين الطموح الذي تستطيع تحقيقه والقَدَر الذي لا تستطيع دفعه، أما الطموح فعين المؤمن فيه إلى الأعلى، وأما القدر فإلى الأسفل، وفيه قال ﷺ: **«انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم»**، يزداد حزن الإنسان حين يظن نفسه الأسوأ، ويهون عليه بتر قدمه حين يرى مبتور القدمين.

إن تغيير زاوية النظر في أقدار الله يبدل الحزن فرحاً والمحنة منحةً، فلا يوجد مبتلى في الدنيا إلا وهناك من هو أشد منه بلاء، ولو افترضنا من بلغ الغاية في البؤس والشقاء فإن جهنم أبأس وأشقى، فيحمد الله أنه لا زال في فسحة من أمره وأن ساعة الخلاص من الألم لابد آتية بالموت الذي حوله الإسلام العظيم من عويل مرعب إلى نغم مطرب.

تأملت ما مر بنا من صروف الدهر وتفكرت في قول الله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ في مكابدة المشاق والمتاعب، فوجدت أن لَأْواء المشقة يزول بفرحة انتهائها، وبؤس الشقاء يتلاشى ببهجة انصرامها، وحين يقلبك البلاء من كف إلى كف فإن الآخر ينسي الأول، ليتحول الألم كل لحظة من واقع تعيشه إلى حلم تتذكره، فأنت في

الحقيقة لا تتألم إلا نزراً ولا تتلذذ إلا بالفتات وإن توهمته عظيماً كثيراً. وفيه قال أحد الحكماء: لو أن الدنيا ذهبٌ يفنى والآخرة خزف يبقى لآثر العاقلُ ما يبقى على ما يفنى، فكيف والآخرةُ ذهبٌ يبقى والدنيا خزفٌ يفنى؟

كل ما أنت فيه من آلام إنما هي لحظة ثم تنقضي، أنت لا تحمل فوق ظهرك آلام الأيام الخوالي والسنين الثقال، ستترك كل هذا العناء وراءك، لن يبقى منه سوى خيال عابر يذكرك برحمة الله الذي أفناها ولم يبق إلا ذكراها، أنت وليد لحظتك، كل محنة في هذه الحياة وَهْمٌ لأنها لحظة فانية، وكل لذة فيها متاع الغرور لأنها كَبالونٍ في يد طفل، سرعان ما تفلت من يده لتحلق بعيداً، كل دمعة وابتسامة في هذه الدار إنما هي من نسج الخيال، لا حقيقة في هذا الوجود إلا ما كتب له الخلود.

الدراجة واليخت:

اعتمد قانون العقوبات على إبقاء المعتقل في ظروف معيشية سيئة، والاكتفاء بإعطائه الضروريات، ليكون تأثير مصادرتها عليه كبيراً، فمجرد كوب بلاستيكي له قيمة عظيمة في غوانتانامو، به تستنجي وتغتسل ومنه تشرب من المغسلة الملتصقة بالمرحاض، وكذا بقية الأغراض البسيطة التي يحصل عليها المعتقل كاللحاف والفرشاة والصابون، لقد بقينا ننام على الحصير دون وسادة لأكثر من تسع سنوات، كانت الوسادة من امتيازات المعسكر الرابع، فصرنا نلف نعالنا بطرف الحصير لترتفع شيئاً قليلاً يخفف عنا آلام الرقبة، أراد الأمريكان أن يبقى المعتقل قلقاً أبداً، إن حصل على الأغراض تملكته هواجس الخوف من انتزاعها، وإن صودرت منه عانى آلام فقدها، سياسة ماكرة في تعظيم التوافه ليبقى قلب المعتقل معلقاً بها، مشغولاً بالحفاظ عليها، إنهم يدمرون نفسية المعتقل ويروضونه على الخضوع للقوانين دون أن يكلفهم شيئاً يذكر، مجرد كوب أو بطانية أو فرشاة أو وسادة، وهي تقوم بالمهمة، لكني وجدت بعد برهة أن شقاء الحرص أفتك بالنفس من عناء الفقد، وأني كلما قام الجنود بمصادرة كل أغراضي أشعر براحة نفسية عجيبة، حين أقطع كل العلائق بالممتلكات أياً كانت تتحرر روحي من ربقة العبودية لها، نعم هي عبودية لبطانية وكوب وفرشاة ونعال، نعم نعال!

أنا نفسي لم أتوقع لها هذا التأثير المهين، لكنها الحقيقة، إنها عبودية وإن أبيت، يمر جندي بجوار زنزانتي فأخشى مصادرة البطانية والبقاء طوال الليل أرتعد من البرد، أو فرشاة الأسنان وعدم تنظيفها أشهراً، وهكذا دواليك غارق في بحر الوساوس.

تأملت هذا الشعور لأعرف سره، فوجدت أن جل ما يسبب لنا القلق في حياتنا هو الحرص على الامتلاك والخوف من الفقدان، حينها أدركت ذلك الكنز الذي دلنا عليه

النبي ﷺ فأشحنا بوجوهنا عنه: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»، والغريب لا يتعامل مع المشاكل بجدية المستوطن، إنه غريب عن هذه الأرض، قريباً سيعود إلى وطنه وأحبابه فلا ينبغي أن يحمل معه إلا ما يحتاجه للوصول، أو عابر سبيل ينظر إليهم وهم يرتعون في السفاسف من طرف عينه باستعلاء ثم يمضي في طريقه.

إن السبب الرئيس للأمراض النفسية التي تفتت الجسد وتهدم الروح هو الطمع في تملك الأشياء والخوف من زوالها، الهم والغم والقلق والحزن كالذباب الذي لا ينجذب إلا لوجود رائحة تغريه في الاقتراب، فإن لم يجد ما يغريه ابتعد، الطمع في المفقود والحرص على الموجود هو الجاذب لذلك الذباب، وكلما عظم الحرص والطمع تكاثر، وحين كان قلب النبي ﷺ نقياً من الذباب رأى الدنيا على حقيقتها، فحين مر على تيس أسك ميت قال: هذه الدنيا، إنه يراها بهذا القبح، وهل عاقل يستكثر من الميتة؟

توضع بين يديه هدية النجاشي خاتماً ذهبياً يبرق فصه اللؤلؤي فيزيحه بعود معرضاً عنه ليهديه (أمامة)، إنه يستقذر مجرد المس فكيف بالاستكثار؟ قيمة المال عنده ما كان زاداً لراحلته يصل بها إلى وطنه لا ليبني به قصراً في مفازة سفره، هذا تصوره ﷺ عن الدنيا، لذلك رفرفت روحه الطاهرة في العلاء، لقد قطع بهذا المثال الطريق على المجادلين حين يدعوهم الطبيب إلى الاقتصاد في الطعام فيعترضون بأفواه ممتلئة وبطون متخمة: أتريدنا أن نموت جوعاً؟

إن مقدار القلق في نهمة الجائع لِعَظْم مكتنز هبراً كمقداره في شغف الطامع لِقَصْرٍ ممتلئ حبوراً، من يجهل حقيقة الدنيا يَرى التفاوت بينهما عظيماً كما ترى النملة التفاوت عظيماً بين حبة سكر وحبتين، وكلما أوغلت في الصغر عظمت عندك الفروق، ومن تقحم عنان السماء لم ير الدنيا كلها سوى حبة سكر، فإياك أن تكون نملة!

وما السعادة في نيل يخت فاخر عند مليونير إلا كنيل دراجة هوائية عند صبي، سر السعادة لا يكمن في اليخت ولا الدراجة إنما هو حيث تضع نفسك، مكان الصبي فتبهجك دراجة، أو المليونير فلا يطربك إلا مال قارون.

يعتري الإنسان القلق حين يعلم أن جيش العدو قد اقترب من بلده أو أن مجرماً يحاول تسلق سور بيته ليلحق به الضرر، الأمر سيان، فدبابة الجيش كسكين المجرم، قيمة الأشياء في لذتها وألمها ليس في ذاتها هي بل في ذاتنا نحن، فيما تحققه في ذواتنا نحن من لذة وألم، فألم طعنة السكين كألم اختراق القذيفة، وأحلام النائمين على فرش الحرير كأحلام المتوسدين فرش الحصير، وما تنفع المليارات إنساناً لا يتمتع منها إلا بالقليل لو كان عاقلاً؟ لتبقى بقيتها مجرد رقم في أرصدة البنوك.

قانون الدنيا: كلما قلت لها هاتي أخذت من قلبك مقابل ما تضعه في جيبك، فازدادت في قلبك الهوة التي لا تملؤها كنوز الأرض، وتخنقك الوحشة وإن كنت محاطاً بالأصحاب، وتسيطر عليك الأحزان وإن كنت تضحك ملء الفم، فمن كان يملك مليوناً سعى لآخر، ومن كان عنده مليونان أراد إضافة ثالث خشية فقدان المليونين وهكذا، فهو ما بين الطمع في المزيد والخوف من الفقد، وكلما زاد المدخول زاد المسكين في مصروفه فلم يتحقق له الرضى النفسي أبداً، كمن يسقي مزرعته فيضجر من ضعف ضخ الماء فيزيد قوة الضخ ويوسع فوهة الخرطوم، فيبقى الضخ ضعيفاً، يزداد المدخول ألف دولار فتزيد المصروفات ألفاً فلا يفتأ القلب يشكو الفقر والحاجة أبداً، ولقد رأيت غنياً تورط بدين كبير حين أراد شراء بيته الرابع في تركيا، سمعته يشكو ضيق الحال وقلة ذات اليد لأنه لا يملك ما يسدد به دينه! وآخر مليونيراً رأيته مهموماً لأنه يريد بناء قصر في سويسرا ولا يملك ثمنه بينما يملك ثلاثة قصور في أنحاء أوروبا. الطمأنينة والرضا النفسي ليس مصدرهما التملك بل الاستغناء.

لقد أوقفنا النبي ﷺ أمام الحقيقة العظمى حين قال: «**يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت**»، القلق والاكتئاب مع الفاني، والسعادة والرضى مع الباقي، لذلك قال النبي ﷺ في الحديث الحسن: «**من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له**»، تأملت قوله: «**جعل الله غناه في قلبه**» ولم يقل «**في جيبه**» ولو كان يقصد الغنى المادي لما قال: «**في قلبه**»، لكنه أراد تلك الحالة الملكية التي تشعر فيها أنك غني عن الآخرين وما يملكونه، فتراه يمشي مطمئناً هادئ البال تحسبه ملكاً قد نال ما يريده من الدنيا، بينما ترى المليونير الذي امتلأ قلبه بالذباب وهو يتلفت بعينيه الطائشتين تلفت الفقير المعوز الذي يأكل ولا يشبع، وصدق رسول الله ﷺ: «**ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس**» متفق عليه.

المعلم أول غول:

تولى زمام قيادة قوات التحالف العميلة للولايات المتحدة ثلاثة قادة: (حاجي قدير) و(حاجي زمان) و(حضرت علي)، أما (قدير) و(زمان) فقد اغتالتهما طالبان انتقاماً بسبب عمالتهما للمحتلين، وأما (حضرت علي) فقد نجا من عدة عمليات اغتيال بأعجوبة، جعلته ينكفئ على نفسه ويتخلى عن عنجهيته السابقة في التعامل مع الطلبة.

أما المسؤول العسكري عن كتيبة الدبابات في قوات التحالف الشمالي المدعوم

أمريكياً فاسمه (المعلم أول غول)، كان مجاهداً قديماً من أيام الجهاد الروسي، وحين اقتتلت أحزاب حكمتيار ورباني وسياف والذين ينتمون جميعاً لإحدى الجماعات الإسلامية الكبرى اعتزل الفتنة على غرار ما فعل الشيخ (جلال الدين حقاني) والشيخ (يونس خالص)، وحين غزت القوات الأمريكية أفغانستان طلب بعض قادة التحالف من المعلم (أول غول) المشاركة في قتال من أسموهم (الإرهابيين) تحت لواء الولايات المتحدة، أرادوا الاستفادة من خبرته العسكرية وشهرته الواسعة ومحبة أهالي جلال أباد له، لكنه أرسل رسالة سرية لصديقه القديم أسامة بن لادن وهو في تورابورا يزوده بالأخبار ويستشيره إن كان يريد منه اعتزال القتال والهرب إلى باكستان أو البقاء؟

فجاءه الجواب سريعاً: بل ابق معهم، وخَذِّل عنا ما استطعت.

فكان يعطي أتباعه إحداثيات خاطئة للمتواجدين في تورابورا، فيقصفون بقذائف الدبابات القممَ الخاوية، ويوهم الأمريكان بأنه يشاركهم في القتال، كان يراسل في الخفاء صديقه المتخفي في القمم الخضراء الشاهقة يوافيه بالمستجدات، وجاء قرار الانسحاب بعد أن بدأ الأمريكان بقصف القرى الآمنة للضغط على المتواجدين في تورابورا للانسحاب، تمت الترتيبات بالتنسيق مع بعض المتعاطفين الأفغان بتوفير طريق آمن للمنسحبين إلى باكستان، وفعلاً بدأت الرحلة الشاقة باتجاه الحدود الباكستانية، كان الأمريكان ومعهم حلفاؤهم الأفغان المرتزقة يدركون أن الطريق الوحيد المتاح لهؤلاء المتواجدين في تورابورا هو المرور عبر الجبل الأبيض المغطى بالثلوج باتجاه القرى الباكستانية المتاخمة للحدود، فكان القصف عليها مكثفاً، وطائرات المراقبة تحوم في سمائها على مدار الساعة.

في الوقت الذي انشغلت فيه الولايات المتحدة وحلفاؤها بالبحث في الحدود الباكستانية عن هذا الذي أقض مضجع العالم بأسره كان هناك ثلاثة رجال يقطعون الأودية الوعرة في ظلام الليل بالاتجاه المعاكس عبر الطرق المهجورة المتعرجة، قافلين بصورة غير متوقعة نحو مدينة جلال أباد التي تسيطر عليها قوات التحالف الشمالي العميل للولايات المتحدة، كان من بينهم المطلوب رقم واحد للولايات المتحدة!

إذا خِفْت شيئاً فاقترب منه، هذا ما فعلوه، خبأهم (المعلم أول غول) في منزله، تَمَكَّنَ الجواسيس بعد عدة أسابيع من الحصول على معلومات غير مؤكدة بأن الكنز موجود في بيت القائد الذي خدعهم طوال الوقت، لكن المعلم يمتلك هو أيضاً مصادره التي أخبرته بغارة وشيكة للقوات الأمنية على منزله، استطاع تهريبهم في اللحظات الأخيرة قبل اقتحام بيته، حققوا معه مراراً للتأكد من معلوماتهم لكنه أجابهم بالنفي وعدم معرفة ما يتكلمون عنه، أرسلوه إلى سجن كابل، رأيته هناك في زنزانة انفرادية

مقيد اليدين، نظر إلي نظرة خاطفة فيها الكثير من الصبر والشموخ، ثم سُلِّم إلى الأمريكان لينقلوه إلى غوانتانامو!

أخبرني من أثق بقصة (المعلم) الذي توثقت به علاقتي الأخوية في المعتقل حتى صار يبث لي أحزانه، لكن معظم المعتقلين لم يعلموا شيئاً عن حقيقته ولا ما كان يجري في الخفاء، فكان بعضهم يتهمه بالتآمر على إخوانه في الدين والعمالة للولايات المتحدة، وآخر يبكته قائلاً: انظر كيف عاقبك الله على خيانتك!

رأيته في إحدى المرات قد اغرورقت عيناه بالدموع مما يسمع، أحزنني حاله، كم هو مؤلم أن يُتَّهم المرء بخيانة ما ضحى من أجله بأغلى ما يملك، كان بين نارين، فلا هو قادر على كشف الحقيقة التي يتمنى الأمريكان معرفتها، ولا هو قادر على تحمل الاتهامات من إخوانه، نصحت المعتقلين بأن ينسوا الماضي ويكفوا عن أذية من لم نر منه في المعتقل إلا التقوى والخلق.

أخبرني بتعذيب الأمريكان له في سجن كابل وبغرام بغية الحصول على معلومات عن المطلوب رقم واحد، ثم قال غاضباً: يطالبوننا بتسليم من ضحى من أجلنا بكل ما يملك بينما ينشر جنودهم الموت في أرجاء وطننا ليعودوا إلى أوطانهم سالمين، خائن مجرم من يطالبنا بتسليمه إليهم دون أن يطالبهم بتسليم مجرميهم إلينا.

سألته مرة: المعلم أول غول! ما معنى (غول)؟

أجابني مبتسماً: وردة

قلت مازحاً: وردة؟ كيف لهذه الكلمة الجميلة التي توحي بالسلام أن تكون اسماً لمجاهد قديم وقائد لكتيبة دبابات؟

ازدادت ابتسامته اتساعاً وهو يقول: لم يكن لهذه الوردة أن تعيش في سلام دون دبابات تحمي جمالها أن يقطفه المحتلون!

كانت صحته جيدة في بداية الأسر، لكنهم مارسوا عليه شتى أنواع الضغط النفسي حتى تأثرت صحة قلبه، تفاجأ أحد المعتقلين الأطباء حين رأى الأدوية التي يعطونها إياه، أخبره بأنها خطيرة جداً على القلب، وأن الأمريكان يريدون قتله بإعطائه هذه الجرعات الكبيرة، كانت نصيحته بعد فوات الأوان.

كنت حينها معزولاً مع سبعة إخوة عن بقية المعتقلين في عنبر (P)، فوجئنا بمجيء الضابط برفقة المترجم والمسئول الثقافي ليعلن عن خبر وفاة (المعلم أول غول)، داعياً المعتقلين التحلي بالهدوء، واصفاً وفاته بالطبيعية نتيجة أزمة قلبية حادة مفاجئة، لقد

قتلوه، لكنهم حبسوا دماءه في العروق كي لا تُلْهِبَ حمرتُها جمرَ الثأر في نفوس قومه، وبعد عدة أسابيع أخبرني المحامي عن مظاهرات حاشدة في مدينة جلال أباد مسقط رأس (المعلم) تندد بقتله وتطالب بالثأر له، شن بعدها الطلبة عدة عمليات تفجيرية كانت باسم (المعلم أول غول) استهدفت القوات الأمريكية وحلفاءها.

ازدادت دقات قلبي المصدوم بالخبر، استلقيت على فراشي غارقاً في بحر الذكريات، لازلت أذكره في المعسكر الرابع سنة ٢٠٠٥ حين اجتمعت به هناك آخر مرة قبل فراقنا الذي استمر ست سنوات، كنت أنظر إليه متعجباً من ثباته ويقينه وإيمانه مع خفة روحه ودعابته التي كان يختارها اختياراً في الوقت المناسب مع الشخص المناسب، كنا نمشي سوياً في ليلة من ليالي المعسكر الرابع نتسامر، فسألني عن الآية التي قرأها الإمام في صلاة العشاء ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، أتراه رحل إليها؟ أحسبك ولا أزكيك على الله.

صلينا الفجر جماعة، كلٌّ في زنزانته بعد ليلة طويلة لم تنعم بها عيني بنوم سوى غفوات على عجل، أبحرت بعيداً في عالم الخيال، تذكرت تواضعه الجم وثباته في الشدائد، تذكرت دموع مناجاته في دُجى الليل وإشراقة ابتسامته في إطلالة النهار، لقد رحل عنا بصمت، ومن لحظة رحيله استيقظ جيل بأكمله يصيحون وراءه: (آمنا برب المعلم)!

هلمي أيتها الأمة الغارقة في كوابيس الهوان، هلمي لتري ميلاد الحياة من الأجساد الميتة، هلمي لتري كيف تنتفض السنابل الملأى شامخة من جوف حبة القمح الميتة!

لم أشعر بأن الوقت قد اشتد في العَدْو، التفت وإذا بالصبح قد أطل برأسه من القمم الخضراء المحيطة بالمعتقل، وأخذ يطوي معه أطمار الليل مؤذناً بقرب شروق الشمس، شروق؟ ليس هذا هو الشروق، إنما الشروق الحقيقي هو الذي شعشع نوره البارحة، استقبالاً لروح حرة عاشت سنين بين الأغلال.

المشلول:

شاءت الأقدار أن يترك قريته الريفية ذات التلال الخضراء ليسجن في زنزانة ضيقة في غوانتانامو، يحفظ القرآن بالقراءات السبع من طريق الشاطبية، يخفي نحولُ جسده روحاً عظيمة تحملت أهوالاً من العذاب بنفس راضية وابتسامة لا تغادر محياه، بعد مواجهات المعسكر الرابع ونقلنا إلى عنبر (كيوباك) المخصص للعقوبات، كان هو في عنبر (روميو) المجاور، كان مضرباً في الخفاء، يأخذ الطعام ثم يمرره لإخوانه من بين

القضبان، جاءه الجندي ليقدم له الطعام في الصحن الورقي، صرخ الجندي بغطرسة: (ارجع إلى الخط الأسود)، لم يكن من النوع الذي يتحمل الكبر والعنجهية، رفض الرجوع.

صرخ غاضباً: لا طعام دون الرجوع إلى الخط الأسود.

: أنا مضرب عن الطعام!

لكن الإدارة أرادت كسر إرادة المعتقل حتى يرضخ للقوانين دون أدنى اعتراض، اقتحمت قوات الشغب زنزانته وضربوه ضرباً مبرحاً فأصيب بالشلل، كنت أسمع أنينه وأنا في العنبر المقابل، لأول مرة يسمع أحد من المعتقلين أنينه، كان من النوع الذي يكتم آلامه مهما اشتدت، دائم البشاشة في أشد الظروف، كان توجعه يعمل في قلبي عمل السكين يقطع ويطعن، أسندت ظهري للقضبان أحبس بها دموعي، أكملت وردي القرآني لعله يجلي همي وغمي، كنت أقرأ هَذّاً كمن يركض هارباً من واقعه، وإذا بآية تأخذ بتلابيبي لتوقفني عليها:

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ وكأني أقرأها لأول مرة، لقد هزتني من الأعماق، أعدتها ثانية وثالثة ورابعة لا أريد تجاوزها إلى الآية بعدها، كم رددت هذه الآية وقرأت تفسيرها قبل الأسر، فما لي اليوم وكأني أقرؤها لأول مرة؟

هذا القرآن حي لا يفهمه إلا الأحياء، إنه متفاعل مع الواقع، وانتزاعه منه يذبل زهرته ويخمد أنفاسه، حين تقف في غرفة مكيفة أمام شاشة سينمائية تعرض لك رجلاً يقطع فلاة قاحلة ملتهبة تحت وهج الشمس فلن تدرك حقيقة معاناته مهما كان المشهد مؤثراً حتى تضع قدمك في مغرز قدمه.

﴿كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ قوم لم يكونوا ضعفاء بل استضعفوا، سلبت منهم قوتهم ليصبحوا ضعفاء، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾، تمت.. والإتمام لا يكون إلا بعد مرحلة سبقته، لقد كانت آلام بنى إسرائيل مرحلة مهمة لتمام كلمة الرب، فبالألم يتحقق الصبر وبالصبر يتحقق النصر والتمكين، إنها نقلة رهيبة من قاع الاستضعاف إلى قمة الاستخلاف، ولن يدرك سمو القمة إلا من عانى ضيق القاع.

إنه القرآن، يحيي قصص الغابرين من جديد بعد أن غيبهم الزمن تحت أطماره ليكونوا عبرة لأولئك الذين لايزالون يكافحون في الميدان، وتثبيتاً لأولئك المستوحشين بينما الطريق يعج بالسالكين دون أن يشعروا!

القرآن يحابي المبتلى، ويخصه بمعاملة متوددة متحننة دون بقية الناس، إنه يحشد

كل قصص العظماء الراحلين الذين تألموا فصبروا، وعانوا فثبتوا، وتوجعوا فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، ثم يعرضهم جميعاً عليه، من أولهم إلى آخرهم، رسلاً وأنبياء وصديقين وشهداء، كلهم يواسيه، ويُهَوّن عليه ما يعانيه، أي كرامة تلك حين يقف أمام المبتلى هذا الركب العظيم والموكب المهيب ليقولوا له اصبر كما صبرنا وواصل سيرك فإن الجنة ثَمَّ؟

بقيت لأيام كَمِداً كاسف البال كلما تذكرت أنينه المتقطع، ثم نقلوه إلى عنبر أوسكار وبعدها بدأت معاناته الحقيقية، وقف الجنود أمام زنزانته الانفرادية وطلبوا منه مجدداً بعنجهية وإذلال الرجوع زحفاً إلى الخط الأسود، من الواضح أنهم يريدون كسره، رفض فاقتحموا زنزانته وضربوه ضرباً مبرحاً، جرح رأسه وانتفخ وجهه وكسروا سنه، وبقي مطروحاً على وجهه داخل الزنزانة ودماؤه تنزف لساعات طويلة لا يقوى على الجلوس، بقي في زنزانته الباردة يعاني صنوف الآلام لعدة أيام دون حصير وبطانية، يزحف على بطنه لقضاء حاجته، فجاؤوا بعد عدة أيام وأخذوه إلى العيادة ثم أرجعوه إلى الانفرادي في نفس اليوم، وبعد عدة أيام جاءته قوات الشغب مرة أخرى وطلبوا منه الرجوع إلى الخط الأسود، كان باستطاعته الرجوع إلى الخط الأسود زحفاً، لكنه يعتقد أن الذي يرفض الضيم والعسف واقفاً لن يقبله زاحفاً، لقد كان الخط الأسود عند هذا المعتقل أعظم بكثير من الخط الأحمر عند بعض رؤساء الدول.

لم يَكْتَفِ الأمريكان بكل هذا العذاب بل استمروا في الدخول عليه وضربه وهو مشلول، وفي كل مرة يضربونه يثور المعتقلون غضباً ويضربون الأبواب ويسبون الجنود، كانوا يتوسلون إليه أن يستجيب لأوامرهم حتى لا يضربوه لكنه يأبى، فاتفق المعتقلون في المعسكر الثالث على الإضراب نصرة لأخيهم، فنقله الأمريكان إلى زنازين العيادة النفسية تجنباً لصدامات أكبر مع بقية المعتقلين.

كانت معاملته هناك أهون بكثير مما كانت عليه، توقف الضرب والإزعاج فتوقف عن الإضراب، لكنه لا يستطيع رؤية أحد من إخوانه في هذه الزنزانة التي مكث فيها ما يقارب سنة ونصف سنة، ثم نقلوه بعدها إلى معسكر إيكو، فوقعت له مشكلة مع الجنود ودخلت عليه قوات الشغب ولووا يده فكسروها وصارت تلتف مائة وثمانين درجة، وكسروا عظم الرسغ وعظم الركبة وضربوا رأسه على الأرض فشجوه، لم يكن له حيلة لدفع الضرر عن نفسه في هذه الزنزانة الانفرادية إلا الإضراب عن الطعام فأضرب عشرة أيام، حينها تيقن الأمريكان أنهم يقفون أمام جسد نحيل تنطوي في داخله روح عملاقة أبت الركوع إلا لربها، فأرجعوه إلى إخوانه مرة أخرى بجسد مشلول وعظم مكسور وقلب ينبض إيماناً وحباً.

مجرد ورقة اقتراع:

ينحدر من مدينة جزائرية تصطك أمواج البحر الأبيض المتوسط بصخورها العتيدة، ويغسل هواؤها النقي رئة شعب امتلأت من رائحة البارود الفرنسي لقَرْنٍ من الزمان، أثبتت حمرة دماء المليون شهيد عشقهم للحرية والكرامة أكثر من عشق الفرنسيين لحمرة الخمر المعتقة المستخلصة من عنب (بومرداس)، خفيف الروح حلو المعشر تعتريه حدة أحياناً عند تعكر المزاج، حساس المشاعر سريع الغضب سريع الفيء، من السهل أن تقرأ مشاعره على محياه، تثق به في أوقات الشدائد، كان يتميز بجسده الرياضي القوي مع وسامة رجولية في قسماته، اجتمعنا معاً في عنبر (ليما) المخصص للتحقيق، كانت أياماً جميلة قضيناها معاً رغم المضايقات والإهانات من الجنود الذين يضيقون بمنظر المعتقلين وهم يتضاحكون وراء القضبان، كنا نقضي الليل بالسمر من شق باب الزنزانة بعد يوم مليء بالبرامج القرآنية والرياضية، رأيت في إحدى الأيام من شق فتحة النافذة جندياً يرفع الغطاء عن النافذة الزجاجية لزنزانة الأخ الجزائري، ناديته منبهاً على ما يجري عنده، أسرع الجندي في تغطية النافذة مبتعداً وهو غارق في ضحك مكتوم، سألني الجزائري: ماذا جرى؟

أخبرته بأن الجندي كان يضحك وهو يراه خلسة، سمعت دوي ضحكته من داخل زنزانته، وحين سألته عن سبب ضحك الجندي عليه قال: كنت أنظر إلى وجهي في المرآة من شدة الملل، تذكرت ذنوبي فكنت أخاطب نفسي في غضب: من أنت حتى تعصي ربك الذي خلقك من عدم وأنعم عليك بنعمه التي لا تعد ولا تحصى؟

يبدو أن الجندي كان يضحك ساخراً من حديثي لنفسي!

وفي إحدى الليالي حلا لنا الحديث سألني عن الكويت وطبيعة أهلها والتنوع الفكري والحياة المعيشية، الحديث عن الوطن ذو شجون دائماً.

: والآن حدثني عن بلد المليون شهيد.

بدأ حديثه باستمتاع واسترخاء سرعان ما تحول إلى توتر حاول أن يخفيه لكنه استسلم حين أجبره ذلك التوتر والضيق على التوقف عن الكلام عندما ذكر الأحداث الدامية في وطنه الذي يحب في بداية التسعينيات.

نشأ في بيئة لا تتعامل مع الدين بجدية، كانت له مغامرات عاطفية انزلق في حديثه معي عنها لولا أني أوقفته بلطف قائلاً: «إن الله ستير يحب الستر فتجاوزها»، احمر وجهه خجلاً واعتذر بأن الحديث ذو شجون يقودك ولا تقوده.

: على الرغم من هفواتي وعثراتي إلا أن عشقي للإسلام يفوق كل عشق، وأحب

أن يحكم الإسلام على الرغم من عدم التزامي حرفياً بتعاليمه، فهل يعد ذلك نفاقاً؟

: إطلاقاً. . نحن كبشر ضعفاء في أصل خلقتنا، نتعثر في سيرنا، نكبو عن المنهج، ونجثو أمام الشهوة، نحتاج إلى قانون رباني يشتمل على الثواب والعقاب ليعيننا على الالتزام والثبات، أراها كسائق يطالب بتشديد قوانين المرور على الرغم من مخالفته لها أحياناً، كي تعينه صرامة القانون على ضعفه البشري الذي يدعوه إلى تجاوز السرعة للوصول مبكراً، لأنه يدرك أنه لا صلاح إلا بالالتزام بقانون المرور الذي لو لم يطبق لأصبح الشارع مليئاً بالجثث والمصابين.

كان في مقتبل العمر حين أعلن عن فتح باب الترشيح، لم يكن منتمياً للجبهة الإسلامية للإنقاذ لكنه كان متعاطفاً معها، توجه مع الآلاف لصناديق الاقتراع، فازت الجبهة بنسبة لا يحلم بها أي حزب إسلامي إلى يومنا هذا، حصلت في المجالس البلدية على ثلثي المقاعد تقريباً، ٩٥٣ مقعدا من أصل ١٥٣٩ أما في الانتخابات التشريعية التي أجريت في ١٩٩١/١٢/٢٦ فقد فازت بأغلبية ساحقة وصلت إلى ٨٢٪ من المقاعد مما جعلها تصل إلى مركز صنع القرار.

لقد قال الشعب الجزائري كلمته، إنه يريد الإسلام، وكعادة المؤمنين بالديمقراطية يكفرون بها بمجرد ظهور النتائج في غير صالحهم، رفضت فرنسا وأمريكا هذا الاختيار، دعمت الجيش الجزائري في انقلابه على إرادة الشعب، ففي تاريخ ٤/١/ ١٩٩٢ قام (الشاذلي بن جديد) بحل المجلس الشعبي الوطني، ثم أعلن استقالته بضغوط من الجنرالات المتحكمين بمفاصل الدولة، وألغيت نتائج الانتخابات وأنشئ المجلس الأعلى للدولة في مخالفة صريحة للدستور، وتم تعين محمد بوضياف رئيساً جديداً ليوقع على مرسوم حالة الطوارئ، فتم اعتقال أكثر من عشرين ألف مواطن في بضعة أيام من جبهة الإنقاذ ومن غيرهم، لكن فرحة الرئيس بكرسي الحكم لم تطل إذ لحقته لعنة المظلومين الذين لفظوا آخر أنفاسهم تحت التعذيب في الزنازين المظلمة بعيداً عن الأعين، ففاجأه الموت وهو يلقي خطابه على الهواء مباشرة برصاصات منطلقة من فوهة بندقية بعض أجنحة الجيش المتصارعة على الحكم، وكأن القدر أراد أن يري أهالي المظلومين شيئاً من عدله الدنيوي عربوناً للعدالة الأخروية الأعظم، رفضت الجبهة الاستسلام وقبول الانقلاب، تعالت النداءات من ناشطي الجبهة تطلب من الشباب المنتمين للجبهة الصعود إلى الجبال والاستعداد للمواجهة، تم تشكيل الجيش الإسلامي للإنقاذ، انطلقت الرصاصة الأولى التي كانت الصفحة الأولى لكتاب مأسوي يقطر دماً، مليء بالدروس والعبر.

أعلنت جبهة الإنقاذ وجبهة التحرير وجبهة القوى الاشتراكية مقاطعة الانتخابات

المبكرة، وكعادة الانتهازيين في استغلال الفرص تقدمت بعض الأحزاب السياسية لخوض الانتخابات التي أقيمت على أنقاض ظلم الآخرين وعذابهم، لكن المؤلم أن من استغل هذا الواقع البئيس شركاء في الطريق!! لقد كان هذه المرة حزباً يرفع شعاراً إسلامياً!!

رشح رئيس الحزب نفسه منافساً للرئيس زروال، فرح الجيش الجزائري بهذه المشاركة التي تغطي على جرائمه وانقلابه على الدستور، خاصة أن المشارك يحمل شعاراً إسلامياً يضفي على الانتخابات شيئاً من المصداقية، فاز بالمركز الثاني بعد زروال، المركز الذي لا يحلم به لولا دعوة القوى السياسية للمقاطعة، (خلا لك الجو فبيضي واصفري..)!

قال لي: إنها صدمة.. كنت أحضر خطبه العصماء التي تهز المنبر بقوتها، كان يبكي ويُبكي، أخذت أتساءل: أين هي دموعه بعد الأحداث؟ أين هي من دمائنا النازفة؟ أصبحت أشك بعده في كل دمعة!

كان يحدثني وهو يبتسم.. لكنها كانت ابتسامة باكية، كنت أرى الأحداث حية أمامي، شعرت أن تجربة الجزائر مترعة بالعظات والعبر التي يجب أن تدرس للأجيال، ما بين عدو متوحش لا وجود للرحمة في قاموسه، وبين صديق رأى مصلحته في خذلانك والقفز إلى مركب الأقوياء أصحاب السلطة، ماذا لو أقمنا ميزاناً نزن به الدموع والأقوال لنعرف صادقها من كاذبها؟ إن عيناً تشيح نظرها عن المظلوم دموعها كاذبة، إن قولاً لا يصدقه العمل ادعاء أجوف! هذا هو الميزان الذي سيغبن من لا يزن به، لقد خذلهم ثم مد يده لقاتلهم! للجزار الذي يسلخهم! لقد كان يستدفئ بالنار التي كانت تشتعل بأجسادهم!

إن الجماعات والأفراد الذين يبررون لأنفسهم خذلانهم للمظلومين سيكتوون من ذات النار التي كووا بها غيرهم، إنهم لا يدركون أن سكين المصلحة التي شحذوها لغيرهم سيكونون ضمن المذبوحين بها، والأيام دول، سيأتي اليوم الذي ينكرون به على غيرهم دخولهم المعترك السياسي حين أقصوا عنه، وسيفاجؤون أن تبريراتهم لأنفسهم قد تم نسخها لكن عليهم هذه المرة.

: تخيل يا فايز.. أثناء مروري بجوار السجن الذي ضم الآلاف من الشباب المتعاطف مع جبهة الإنقاذ يسامون سوء العذاب رأيت شاباً ملتحياً يقود باصاً، فتوقف بالقرب من الحرس المتواجدين بالقرب من البوابة فسلم عليهم قائلاً: أنتم إخواننا دون الإرهابيين القابعين في الداخل.. لا ترحموهم!!

كلما سمعت تلك القصص أزداد يقيناً أن الإسلام لم يكن يوماً مجرد شعار يرفع أو رداء يلبس أو لحية تكسو الوجه، الإسلام كالكعبة المكسوة بالرداء الأسود، الكسوة المجردة لا تعني الكعبة، بيد أن الكعبة تزداد جمالاً بتلك الكسوة، إن من يلتزم شعائر الإسلام الظاهرة دون حقيقته كمن يرتدي ملابس الشرطة وهو عضو في إحدى العصابات، وكمن يرتدي ملابس الطب وهو يتاجر بالأعضاء البشرية، لا الشرطة ولا الطب يتحملان جريرتهما، بل هما من يتحملان جريرة التزوير.

اشتدت الحرب الضروس ضراوة بين القوات الأمنية يساندها الجيش المدعوم فرنسياً مع الجبهة الإسلامية للإنقاذ، كانت الحرب سجالاً والكفة متأرجحة بين الفريقين، حتى وصل الأمر إلى الفوضى العارمة التي لا يمكن فيها التراجع، لقد بلغ الأمر إلى أن كانت تقام نقطة تفتيش لقوات الدرك في هذا الشارع بينما تقام في الشارع المقابل نقطة تفتيش أخرى لآخرين لم يكونوا سوى أفراد من جبهة الإنقاذ متنكرين بلباس قوات الدرك!! لقد بلغ عدد الضحايا من الطرفين ما بين مئتين إلى أربعمائة ألف قتيل في فترة الصراع التي استمرت سنوات.

زجت القوات الأمنية بكل المنتمين لجبهة الإنقاذ إلى السجن، ثم ازدادت رقعة المعتقلين لتشمل المتعاطفين معهم، طورد ضمن المطاردين، فهرب مع الهاربين، حلق لحيته وأحاط عنقه بسلسلة لعلها تخلص عنقه من ربقة الأسر والتعذيب، وفي إحدى الليالي كان يمشي في أحد الشوارع فحصل تفجير على قوات الدرك المتواجدين في الشارع المقابل، انتشرت نقاط التفتيش ورجال الأمن كالذباب في كل مكان، اضطر إلى السير في شارع فرعي، هذا الشارع يعرفه جيداً، لاحت أمامه ذكريات أيام خوالي، تفاجأ بصوت ناعم يناديه من أعلى الشرفة: فلان؟! التفت وإذا بها هي! هي نفسها.. ابتسمت إليه مصدومة بالمفاجأة السارة، ارتسمت على محياه ابتسامة لا إرادية، أشارت إليه بالصعود، كانت صديقته قبل الأحداث وقبل أن يملأ حب الله قلبه، يا لها من ورطة، ماذا أفعل؟؟ القوات الأمنية تبحث عن ضحية جديدة تضع فوقها عبء هذه التفجيرات تخلصاً من الفشل الأمني الذريع، وهذه الفتاة تعيش بمفردها في هذه الشقة، وجد نفسه يصعد السلم الذي يعرفه جيداً للفتاة التي يعرفها جيداً.

طرق الباب فاستقبلته بابتسامة مشتاقة واستقبلها بعيون شاردة وقلب يخفق قلقاً، سألته عن حالته المريبة، لم يشأ أن يخبرها بالأمر، طمأنها عنه، ثم غير الموضوع ليسألها عن حالها بعد فراقه عنها لأكثر من سنتين، حديث يذهب وحديث يأتي، وقصة تجر أختها في سلسلة لا تنتهي ولا يريدانها أن تنتهي، كان ينظر من النافذة بين الفينة والأخرى، لم يكونا وحدهما في الشقة، بل كان الشيطان ثالثهما يفتل حبائله حولهما،

ذهب معظم الحديث الذي بدأ متحفظاً من جانبه ثم أصبح متحرراً من كل قيوده إلا خيطاً رفيعاً لا يزال يتهاوى متشبثاً به لعله ينجو، رفعت الفتاة وتيرة الحديث العاطفي الدافئ، تحاول إحياء المشاعر القديمة من رفاتها، أراد أن يقول لها إني تبت.. تبت إليه.. رجعت إليه بعد إباق.. لا أريد أن أعود كما كنت.. شارداً عنه.. تائهاً في الأزقة الضيقة التي كانت تخنقني.. لا أريد أن أترك النور لأعيش في الظلمة من جديد، أراد أن يخبرها بكل شيء، إنه الآن إنسان مختلف، أصبح وفياً للحب الطاهر يحيطه الزواج بسوره المقدس، وليس متذوقاً من كل لحم كما يحلو له، ليعلنها لها صريحة: لقد مللت حياة المجون وسلكت طريق الخلاص، أراد أن يخبرها بكل شيء لكن لسانه تلعثم ولم يسعفه بكلمة، كان يقاوم، لازال يقاوم حتى آخر رمق، حتى وصل إلى حافة الهاوية، بدأت تتخفف من ملابسها وهي خاضعة بين يديه، مستسلمة لرهن إشارته، قال لي بنبرة منهكة: لقد ضعفت حتى كدت.. في هذه اللحظة تحديداً حين أيقنت بالسقوط، اخترق أذني صوت المؤذن ينادي لصلاة الفجر، هزني النداء من أعماقي، هزني بعنف، تخيلت مَلَكاً ينظر إلي متحسراً من النافذة، كانت رسالة سماوية توبخني على الإعراض عن وليمة الطهر لأنبش كومة النفايات، استيقظت من غفوة.. بل إغماءة، تركتها وأنا أردد: أريد أن أصلي، تركتها وهي تتوسل أن أعود، وددت لو أني أجري مسرعاً لأبتعد عن الشقة، عن الشارع، عن كل ما يذكرني بها، لكني خشيت أن يكون منظري مثيراً لريبة رجال المخابرات الذين أظنهم لا يزالون منتشرين في كل مكان، كنت أمشي بتأن لكن روحي كانت تجري بلا هدف، تريد الهروب من كل شيء، تهرب من ذاتها لو استطاعت.

وبعد سنتين كاملتين من اختفائه حن لوالديه وأرق مضجعه الشوق إليهما، لكن الوضع الأمني لا يزال متوتراً، قد يكون البيت مراقباً، لكنها سنتان! سنتان مثقلتان بتباريح الشوق ولوعة الفراق.

حاول إقناع نفسه باستبعاد أن يكون مراقباً طوال هذه الفترة، وحين يشتاق القلب فإنه يقنع العقل بحججه وإن كانت واهية.

كانت الساعة الثانية ليلاً، دخل حارته التي ترعرع فيها، كم هو مشتاق إلى كل شيء فيها، كانت المصابيح مغلقة والدكاكين مقفلة، لا شك أن والديه غارقان في نومهما هذه الساعة، اقترب من البيت، ازدادت نبضات قلبه شوقاً وقلقاً في آن واحد، تلفت يمنة ويسرة، كل شيء على ما يرام، تشجع ثم وقف أمام الباب ورفع يديه ليضغط زر الجرس، وقبل أن يضغط فتح الباب، صعق بوالده يفتح له، قال مشدوهاً: كيف عرفت؟

: شعرت أنك قادم هذه الساعة!

أمسك يد ابنه ثم أدخله وأغلق الباب، تعانقا طويلاً دون أن ينطق أحدهما بكلمة، كانا يتحدثان بالدموع لا بالكلمات، لاحظت الأم أن الأب استيقظ من نومه على غير عادته ثم خرج من الغرفة وتأخر في العودة، لحقته فتفاجأت بالمشهد، من هذا الذي يعانق زوجها؟

اقتربت مذهولة وإذا بالمفاجأة السعيدة، انفجرت ببكاء خافت وهي تحاول أن تجد فجوة لتعانق ابنها فلم تجد فعانقتهما معاً!

كان يحدثني وابتسامته العريضة على محياه وكأنه يسترجع الذكريات ويعيش لحظة اللقاء من جديد، استمروا متعانقين قرابة العشرين دقيقة، قال لي: مشينا إلى الصالة ونحن متعانقون لم يترك أحدنا الآخر، قالها ضاحكاً وعيونه قد اغرورقت بالدموع.

: أخذنا نتحدث ونضحك ونبكي طوال الوقت، وحين اقترب الفجر توقفنا جميعاً عن الكلام كأننا ننتظر قادماً غير مرغوب فيه، أبي.. أمي.. يجب أن أذهب.

تحول بريق الفرح في عيون أمه إلى سواد مأتم، نظر إليه أبوه نظرة جادة حازمة وقال: حسناً تفعل يا بني، أُفَضِّلُ أن يغيب ابني عن ناظري وهو حر ولا تغيبه ظلمات السجون، صلوا الفجر ثم تعانقوا مرة أخرى بحرارة، ودعهما قبل أن ينتشر ضوء النهار، خرج من البيت وفي رأسه عاصفة من الأسئلة المريرة، حتى متى نظل مشردين هكذا؟ حتى متى ندفع مكرهين ضريبة اختيارنا؟ لقد كانت مجرد ورقة ترشيح في صندوق انتخابات، لماذا تحولت الورقة إلى كفن والصندوق إلى تابوت موت؟ لماذا تنعم أوروبا باختيارها الحر بينما تمنعنا من ذات الاختيار؟ لماذا تتباهى فرنسا والغرب بنظام ديمقراطي انتقالي وتهزأ من نظامنا الديكتاتوري المتوحش الذي فرضته علينا؟ مرت الأيام ثقيلة يترقب فيها زوار الليل كلما غابت الشمس، فإن أطلت برأسها سمع زقزقة العصافير وكأنها همهمة مخبرين تدلهم عليه، لكن أنى للظبي أن يفلت من ألف صياد، وفي لحظة فارقة وقع في قبضة القوات الأمنية، ودخل عالم السجون المرعب.

أخذ يسرد على مسامعي قصصاً مهولة تشيب لها نواصي الولدان، أخذت أنظر إلى عينه التى تحولت إلى جمرة متوقدة، لقد كانوا يجمعون الأسير مع أخته عراة في زنزانة واحدة.

: كنت أسمع الأنين المختلط بالصراخ، لقد كانت صرخات الموت، اقتادوني مرة بعد وجبة تعذيب إلى زنزانة أخرى، حانت مني التفاتة لأرى شاباً معلقاً من رجليه كالذبيحة، والجزار يقطع بالسكين جزءاً من فخذه ليعترف على أصدقائه الذين ارتكبوا

أبشع جريمة في حق البشرية وهي الانتماء لحزب محظور أراد تطبيق الإسلام، كانت رائحة الصدأ المنبعثة من بحيرة الدماء تحته تزكم الأنوف، كان يسمع أنينه وهو يأبى الاعتراف حتى لفظ أنفاسه الأخيرة، لقد توحش النظام حين ضمن وقوف الغرب معه، وفي التحقيق أفرغت ما في جوفي من معلومات، فليس عندي ما أخافه سوى أني كتبت في ورقة الترشيح ما يكفي لإدانتي، لكن شعارهم في التحقيق كان: (هل من مزيد)!! اشتد علي التعذيب وليس عندي ما يروي ظمأهم، وفي نهاية المطاف اتخذوا قرارهم، ساقوني مغمض العينين مقيد الأطراف إلى شاحنة، من الواضح أنها شاحنة، عرفت ذلك من صوتها، كنت أشعر بأشخاص كثر معي، أدركت من أنينهم أنهم معتقلون مثلي، سارت بنا مسافة طويلة دون أن تأخذ يمنة أو يسرة، فعرفت أننا خرجنا من المدينة باتجاه الصحراء، ثم أخذت بنا يمنة في طريق غير معبد وفجأة توقفت الشاحنة، بدأوا بإنزال الأشخاص فرداً فرداً، كلما أنزلوا واحداً سمعت صوت إطلاق نار، ثم شممت رائحة البنزين المختلط بدخان الحرق، أيقنت أنها النهاية، أخذت أردد الشهادتين حتى بلغ دوري، أمسكني الجنود ليقتادوني خارج الشاحنة، وقبل أن أنزل سمعت نداء باللاسلكي، كانت قريبة مني.

: نعم سيدي.. (همهمة)

: أصغيت لأسمع كل حرف، تمنيت لو أن كل جسدي عبارة عن أذن لأسمع جيداً ماذا يقال.

: نعم سيدي.. حاضر سيدي.. ولكن سيدي.. بدأ يتلعثم..

علا الصوت المنبعث من اللاسلكي، سمعته يصرخ في غضب: ماذا فعلت بهم؟؟

: تخلصنا منهم سيدي

: كم بقي يا حمار؟؟

: اثنان

: أرجعوهما فوراً!!

أرادوهما شاهدي إثبات على أمر لم يفعلاه، كانت السجون مكتظة بالمعتقلين، يقول: كنا نخرج إلى ساحة السجن بأعداد هائلة، شاهدت مرة ثلاثة شبان يتخاصمون، توجهت إليهم لإصلاح ذات بينهم، طلب مني أحدهم أن أحكم بينهم.

: ما الخطب؟

: قضيتنا نحن الثلاثة واحدة، إن ثبتت علينا فسينال كل واحد منا عشر سنوات في السجن، وإن تحملها أحدنا حكم عليه ونجا الإثنان.

هنا فهمت القضية وعلمت أنهم يتنافسون على النجاة،

: حسناً فهمت، وكل واحد منكم يريد النجاة.

: كلا.. كل واحد منا يريد أن يتحمل القضية ليخرج الإثنان الآخران!!!!

: صعقت من هول المفاجأة.

: كم أعماركم؟؟

: ستة عشر، سبعة عشر، عشرون.

: يتحملها ذو العشرين سنة، لن أنسى وجهه مستبشراً بحكمي وحزن الآخرين.

كان سؤال يحيك في صدري لا أصبر على كتمانه، فوجدتها فرصة سانحة لأسأله عن الانحراف القاتل الذي طرأ..

: ما الذي حدث؟ وكيف؟ ولماذا؟

أطلق تنهدة طويلة مثقلة بالأحزان: استطاعت أجهزة الاستخبارات إقحام عناصرهم في عمق صناع القرار للجبهة الإسلامية للإنقاذ، يسجنون مجموعة من الشباب المتدين ويلحقونهم بسجناء الجبهة، يتميزون بالحنكة القتالية والخبرة الميدانية وقوة الشخصية والكاريزما ليثبتوا أنفسهم بين البقية، لم يكن هؤلاء سوى عناصر استخباراتية متسترة، يوضعون في سجون في عمق الصحراء ليسهلوا إكمال الفيلم، ثم تأتي مجموعة مجاهدة تقاد من قبل عناصر مشبوهة فيحرروا الأسرى بعملية بطولية كما توهمنا، ولم نعلم أنها المسمار الأول في نعش القضية برمتها، يصعد الأسرى المحررون إلى الجبال ليلتحقوا بالبقية، فيقدموا هؤلاء الذين أثبتوا أنفسهم في السجن إلى مراكز القيادة بعد أن حازوا تاريخاً في التضحية والسجن في سبيل المبدأ، تبدأ بعدها عمليات اغتيال القادة المعتدلين من الداخل في ظروف غامضة، ليتقدم هؤلاء المشبوهون للقيادة، فيحرفوا خط سير القافلة برمتها إلى التشدد والتكفير، ويزيد النار اشتعالاً استخدام المخابرات مرتزقة من الصرب، بلحى طويلة وملابس أفغانية، يرتكبون أبشع الجرائم تجاه القرى التي كانت تتعاطف مع الجبهة تحديداً لينقلب التعاطف بغضاً وعداوة، طالب الأهالي من الحكومة حمايتها فلم تستجب، ثم طالبوا بتسليحهم فرفض طلبهم كي تسير الخطة كما يجب، لكن أحد القرويين نجح في ليلة من الليالي في قتل أحد هؤلاء الإرهابيين ذوي اللحى والملابس الأفغانية، فوجئ الأهالي حين كشفوا عن الجثة وإذا به غير مختون، فأدركوا بعد فوات الأوان هول المكر الذي صدق عليه وصف الله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾، (عنتر زوابري) و(جمال زيتوني).. اسمان كلما

ذكرا انهمرت الدموع على نصر وشيك أضاعاه، ودعوة مجيدة أعاداها بغلوهما سنين إلى الوراء، حرفوا القافلة إلى الهاوية في غمرة الانتقام، وظنوا أن قوة الدين في الإفراط فيه، فخرجوا من جادته بالتهويل كما خرج المتساهلون بالتهوين.

إن أصعب ما واجهه الجيش هو تعاطف الشعب مع الجبهة، فأراد تشويه صورتهم بالتوسع في القتل والتكفير، فنجح أيما نجاح، كانوا يسممون الأنهار التي تستقي منها بعض القرى بحجة كفرهم! ويذبحون الأطفال من باب معاملة الجيش بالمثل، ويقتلون المخالفين لهم وإن كانوا من الدعاة إلى الله بحجة عمالتهم! ويطالبون الكل بقبول صحة اتهامهم لأنهم مجاهدون كما يدعون، فمصداقيتهم لا يعتريها شك كغيرهم! وينضم إليهم اليائسون المحبطون الذين ذاقوا ويلات التعذيب وفقدوا أفراداً من أسرهم وأصدقائهم في هذه المواجهات فوجدوا أنفسهم قد خسروا كل شيء فجنحوا للغلو كردة فعل على جرائم النظام، ولم يعلموا أنهم خدموا النظام أكبر خدمة دون أن يشعروا!! لقد كرههم الشعب الجزائري ومقتهم، لقد نجحت الخطة، كانت خطة جهنمية لم تخطر على بال إبليس!

مضت عليه السنون وهو حبيس هذا السجن الكئيب، ضاقت عليه الأرض بما رحبت، ونفذ كل ما في جعبته من صبر، وفي أحد الأيام كان دوره في تنظيف الحمام الجماعي الذي طفح بمياه المجاري، والفضلات البشرية تطفو على السطح، كان منظراً مقرفاً، تأبى إدارة السجن أن تأتي بعمال يصلحون الانسداد الذي مضى عليه أشهر، رفع نظره إلى السقف ثم صاح لا إرادياً: يا رباه.. لم أعد أتحمل.

: مضت عدة أيام هي أثقل من جبال الأرض، ثم جاءتنا إدارة السجن لتخبرنا بأن هناك خطاباً رئاسياً مهماً جداً، سيلقيه على الأمة الجزائرية الرئيس عبد العزيز بوتفليقة، اجتمع المعتقلون قاطبة فى صالة وضع فيها جهاز تلفزيون توجهت الأبصار إليه، بدأ الرئيس يتكلم عن مشروعه: الوئام المدني الذي أقره سنة ١٩٩٩.

قال لي بتأثر بالغ: صدقني يا فايز.. لو رميت إبرة في المكان لسمعت صوت سقوطها، حتى الأنفاس كانت تتردد برفق حتى لا تشوش على السمع فيسقط حرفاً من الكلام.

تحدث الرئيس عما عانته الأمة الجزائر من مآسٍ، ودخولها دوامة من العنف والفوضى، ثم ألقى تبعة كل هذا على جبهة الإنقاذ والجماعات التي أسماها إرهابية، ثم جاءت اللحظة الحاسمة وأعلن (العفو العام) لتفتح البلد صفحة جديدة، هنا ارتج السجن بالتكبير وسجد الجميع سجود شكر، هكذا يأتي الفرج دون سابق إنذار.

قبل أيام قليلة كان يائساً مكتئباً وإذا به اليوم ينتشي فرحاً وسروراً، بدأت عملية إطلاق السراح تتوالى وخرج المعتقلون تباعاً، حتى جاء دوره ليخرج من باب السجن الذي دخله منذ سنين، وهو لا يصدق أنه فعلاً خرج، وبمجرد تجاوز الباب تفاجأ بحشود كبيرة من النساء والرجال المجتمعين عند باب السجن، ليهنئوا المحررين، فيهم أقارب للمعتقلين وآخرون متعاطفون معهم،

يقول: من شدة الازدحام لم يستطع والداي الاقتراب مني، تجمع الكثيرون حولي ممن لا أعرفهم يعانقوني فرحين مهنئين وأنا أعانق هذا وأقبل هذا، كنت مغيباً عن الوعي في هذه اللحظات التي لا توصف، دخلت السجن بالضرب والتعذيب وخرجت منه بالعناق والتقبيل.

ثم قطعت حديثه ضحكة عالية متواصلة أصابتني بعدواها فضحكت لضحكه، قال: مع كثرة المعانقين كنت أشعر بخدود ناعمة تلامس خدي لا أدري ما هي، وحين نظرت وجدتهن نساء حضرن لتهنئة المعتقلين، احمر وجهي خجلاً.

اضطر بعدها للهروب من بلده الحبيب إلى بلد مسلم بعيد يعامله كأخ لا كعدو، يوفر له الأمان الذي فقده في وطنه، ويمنحه الكرامة التي سلبت منه في أرضه التي ولد فيها، لكن شاء الله أن يدخل مرة أخرى عالم السجون، وأن يقع أسيراً في قبضة من جعل العالم كله في قبضته، وقع في قبضة من صنع الديكتاتوريات وغذاها لتنتعش في الشرق الأوسط.

كم في هذه التجربة من دروس وعبر يجب على الأمة أن تتوقف عندها طويلاً طويلاً، تأملت ملياً هذه الأحداث الرهيبة، حين تضيع القضية العادلة بين انتهازي محترف وتكفيري متطرف كلاهما يرفع راية الإسلام!

ما المانع أن يتكرر (عنتر زوابري) و(جمال زيتوني) ما دامت الخطة أثبتت نجاحها؟ إن مجرد تخيل تكرار هذه الأحداث يجعل الأمر مخيفاً، إن تشويه فكرة الخصم أهم من هزيمته.

إن أكبر تحد يواجهه المظلوم هو أن محكمة الأرض الجائرة تقف مع القوي ذي البزة الحسنة وإن كان ظالماً لا الضعيف ذي الأسمال البالية وإن كان مظلوماً، وأن أي خطأ يرتكبه المظلوم سيفقده عدالة قضيته ويتحول من مظلوم إلى ظالم بينما يخرج الظالم من المحكمة بصك البراءة!

لقد علمتني الأيام أن الأولى أن يقنع المظلوم مجتمعه بقضيته بدلاً من الانشغال في مواجهة الظالم، ليقوم المجتمع نفسه بنصرته، فإن كان ميزان المجتمع مائلاً فالأولى

تعديله وإلا تحول إلى نصير للظالم، فلا تستعجلنا عنجهية الظالم في طلب الانتصار قبل أوانه ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾، إن كل سوط يلتهب به ظهر المظلوم تهتز له السماوات ويلهج له الملأ الأعلى بالدعاء وقناع جديد يسقط عن وجه الظالم أمام المجتمع، الخلاص لن يكون في الثورة على دار الندوة بل في إقناع أصحاب العقبة!!

الضباع والراعي المزيف:

سمعنا عن كيان جديد في الساحة العراقية والشامية أطلق على نفسه: (تنظيم الدولة الإسلامية)، لم نحصل على المعلومات عنه إلا من طريق الإعلام الذي يفتقد إلى المصداقية، اختلف المعتقلون في هذا التنظيم ما بين مؤيد وأكثرية معارضة،

سألني أحد الإخوة: ما رأيك بتنظيم الدولة؟ نسمع أنهم تكفيريون يتوسعون في الدماء!

أجبته: لا يستطيع أحد منا أن يجمع معلومات موثوقة يستطيع الاعتماد عليها في حكمه سوى مجرد أخبار هنا وهناك نستمع إليها بين الفينة والأخرى من مصادر معروفة بتزوير الحقائق تفتقر إلى أدنى معايير المهنية والحيادية في نقل المعلومة.

: ماذا لو كانوا كذلك؟

: أما عن نفسي فأؤكد بأني ضد الغلو وإطلاق العنان للتكفير باللوازم والمآلات والقتل بالظنون الفاسدة، لكني لا أستطيع اتهامهم لمجرد أن الإعلام وصفهم بذلك، فهو قد وصمنا بذلك قبلهم كذباً وزوراً، فإن كانوا تكفيريين فأعلن براءتي من منهجهم، أما الآن فيبقون على أصل السلامة من التهم حتى يتبين لي عكس ذلك.

: وكيف نتأكد؟

: لن نستطيع تكوين صورة واضحة عنهم إلا بعد خروجنا والتأكد من المعلومات، فمن اتهم أحداً بدون دليل مُعْتَمَد فهو مخطئ ولو أصاب في اتهامه، ومن كف لسانه فهو مصيب ولو أخطأ في تبرئته.

: وماذا عن إلزام الفصائل بالاتحاد؟

أما الوحدة فأنا معها قلباً وقالباً، يكفينا تفرقاً وتشرذماً ما جنينا منه سوى الوبال، وأما تطبيق الشريعة الإسلامية فأينا لا يحلم بذلك الأمل الجميل؟ لكني أرى أن اقتصار الشريعة على الحدود هو جناية على الشريعة، فإما أن تقر منظومة الشريعة كاملة لتؤدي مفعولها أو ستكون النتائج عكسية، كالمعلم الذي يعتمد على قانون العقوبات دون الحوافز، إن قوله ﷺ: «**لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**» هو إعلان

للمساواة قبل أن يكون حكماً للسرقة، والأمر يحتاج تظافر الجهود لتحقيق الأمانة المناطة بالمؤمنين.

: أتبرئهم من الأخطاء والانحراف؟

: لا أبرئهم لكن من الحكمة أن نحتمل الأخطاء مقابل الوحدة لرد الجرائم الوحشية للنظام السوري، لا يستطيع كل فصيل على حدة أن ينجح في إسقاط النظام، ومجرد التنسيق أثبت فشله فلا بد من الوحدة الكاملة تحت قيادة صادقة في كيان واحد يحقق الهدف.

كثرت النقاشات حول هذه القضية المهمة التي اعتبرتها مفصلاً مهماً ليس للقضية السورية والعراقية فحسب بل للمسلمين أجمعين، تفاقم الأمر حين اندلع القتال بين الفصائل، شعرت بغصة أطفأت بصيص النور الذي لمحته يبرق من الشام، ماذا يحدث؟

وفي إحدى الأيام شاهدت خبراً عن زيارة الوفد الأمني الجزائري للعراق لتبادل الخبرات! تذكرت عنتر زوابري وجمال زيتوني، اعترتني هزة ملأت صدري ريبة، زاد توجسي حين سمعت بعدها بوقت قصير عن عملية اقتحام سجن أبو غريب وإطلاق سراح كبار القيادات من تنظيم الدولة!

قلت لأحد الإخوة اليمنيين: أشعر باختناق.

: من ضيق الأسر؟

: بل من مكر الليل والنهار، أخشى من تكرار مأساة الجزائر، خبر الوفد الأمني الجزائري ملأ قلبي رعباً، يا له من شيطان رجيم يحرك الأحجار على رقعة الشطرنج والمسلمون في غفلتهم سادرون يسخرون من عقدة المؤامرة!

: هل غيرت رأيك فيهم؟

: يبقى المسلم على أصل السلامة ما لم يثبت خلافه.

بعد عدة أشهر رأيت فيما يرى النائم أني أنظر إلى اجتماع لقيادات الحكومة العراقية، وإذا بأحدهم يمسك طرف جلدة عنقه ثم يسلخها ليظهر وجهه الحقيقي وإذا به صدام، كان يضغط على أسنانه من شدة الغضب والحقد يكاد الشرر يتطاير من عينيه، ثم استل مسدساً وصرخ على أحد أعوانه ليغلق الباب حتى لا يهرب أحد، وأخذ يصفي أعداءه الذين كانوا يرتجفون هلعاً!

وبعد رجوعي إلى الوطن بحثت عن الحقيقة بتجرد، فأقصيت عن البحث كل مشاعر الثأر من وحش ظالم لم يترك جريمة إلا وارتكبها، وأقصيت كل آمالي في تحقيق

الحلم الجميل حين نرجع سيادة الأرض إلى خالقها، فالذي يخلق هو الذي يحكم، هكذا العدل يقول، أقصيت كل ذلك حتى لا يؤثر في النتيجة، فأنا مؤمن براية الإسلام لكني أريد أن أتحقق ممن يحملها، فمجرد رفع الراية لا يكفي للتزكية، فقرأت منهم لا عنهم، وتَثَبَّتُ من كل اتهام ضدهم، فتبخر الحلم الجميل، ونجحت المؤامرة الشيطانية من جديد لأن الأمة ببساطة لا تريد أن تتعلم.

لكن. . لماذا نُهَوِّل أخطاء التطرف الديني ونُهَوِّن من التطرف الطائفي والعلماني الذي بلغت جرائمه عنان السماء؟ من هو المسؤول عما جرى وما سيجري؟ كيف تكونت الحاضنة الشعبية للتطرف؟ وأي عقل يبقى بعد كل هذه الجرائم الرهيبة التي تشيب لها نواصي الولدان ليفكر المرء ملياً للحذر من مؤامرة تحاك خيوطها في الظلام؟

حين تحيط الضباع بالشياه تنهش جسدها وتغرس فيها أنيابها فمن السهل أن يأتي الثعلب متنكراً بلباس الراعي ليقنعها بأنه المخلص لتلتف حوله ويصل بها إلى مآربه، فلا تلُم الضحية حين تسيء اختيارها للمنقذ قبل أن تلعن ألف مرة تلك الضباع التي اضطرته لذلك.

أخشى من السيناريو الآتي: بعد هزيمتهم أمام القوات الأمريكية أراد البعثيون استخدام التيار الإسلامي الذي يمتلك ما لا يمتلكونه من الإقدام في غمرات الموت، فيمدونه بالأسلحة والمتفجرات والخبرات العسكرية فيثخنوا بهم الجيشَ الأمريكيَّ وحكومتَه العميلة، حتى إذا استُنْزِف الأمريكان وضاق الشعب العراقي من الطائفية والفساد طلبوا الخلاص من الورطة فيعود البعثيون ليقدموا أنفسهم من جديد كطوق النجاة الوحيد للأمريكان والعراقيين الذين غرقوا في بحر من الدماء، فإن آنسوا استجابة أقحموا الفكر المتطرف في التيار الإسلامي كي يمحوا كل تعاطف شعبي معهم ليسهل عليهم الاستيلاء على زمام الأمور، لأنهم يعلمون جيداً أن التطرف منهج غير قابل للحياة، وأن سيف ذي الفقار لا يقوم له إلا سيف ذي الفقار، فهل نحن مقبلون على مؤامرة جديدة؟

البذرة التائهة:

أحاط به الفقر فوقع في شرك المخدرات، ليس تعاطياً بل تجارة، رحل إلى باكستان ثم تسلل إلى أفغانستان والتقى بتجار المخدرات الذين غيروا تكتيكهم بعد أن منع (الطلبة) زراعة المخدرات والإتجار بها وأحرقت المحاصيل التي كانت تغزوها أزهار الخشخاش بألوانها الزاهية وتأثيرها المدمر، كان تجار المخدرات الكبار يعتمدون في زراعة الخشخاش على حقول سرية محاطة بأسوار عالية تمنع أعين شرطة (الطلبة)

المتجولين من الوصول إليها، أما بعد الاحتلال الأمريكي لأفغانستان فقد انتعشت تجارة المخدرات بشكل هدد العالم كله.

كانت الجائزة الأمريكية ثمينة لكل من يقبض على عربي، مما دفع البعض إلى أن يبيعهم بضاعة مغشوشة، وأوهموا جهاز الاستخبارات المركزية (CIA) أن هذه البضاعة تستحق ثمناً باهظاً، وأنه كنز مليء بالمعلومات، اكتشف الأمريكان لاحقاً أن الباكستانيين استغفلوهم وباعوهم مجرد تاجر مخدرات على أنه مسؤول مالي للقاعدة، وآخر مجنوناً على أنه من قيادات الطلبة يتظاهر بالجنون، وآخرين كانوا مجرد مزارعين بسطاء ساقتهم الخيانة إلى غوانتانامو.

كان قابعاً في الزنزانة المجاورة لي، نظراته شاردة، منطو على نفسه، طويل الصمت، بدأ ذلك الانطواء يتلاشى شيئاً فشيئاً حتى ذاب معهم حين وجد رقي أخلاق المعتقلين والأخوة التي تجمعهم، وانصهرت مع الصلوات كل شوائب الماضي البئيس والليالي الكالحة، اعتبره المحققون فرصة ثمينة لاستغلاله كجاسوس ينقل إليهم أخبار المعتقلين، ساوموه، أغروه، هددوه، عاش صراعاً نفسياً رهيباً، أيفتدي نفسه بهؤلاء الفتية الذين لم ير في حياته أشد منهم لحمة وأخوة ومحبة؟ أيشترى حريته مقابل خيانة هؤلاء الذين يراهم يتنقلون ما بين صلاة وصيام وقرآن وذكر؟ هؤلاء الذين دافعوا عنه مراراً حين اعتدى عليه الجنود، فكان جزاؤهم قضاء فترة العقوبة في معسكر (India) الانفرادي، كان ميتاً فأحياه الله بهؤلاء القوم، كان يعيش وحيداً في هذا العالم، أباح لنفسه التجارة مع الشيطان وحبست روحه فى سجن الهم والغم واكتوى قلبه بنار الوحشة، استوحش من كل شيء حتى من نفسه، كانوا بالأمس يدعونه الفاسق تاجر الموت، وها هو اليوم بين فتية آمنوا بربهم وزادهم هدى.

لقد رآهم يتطلعون إلى نور متلألئ في الأفق البعيد لم يقدر هو على رؤيته، رآهم يصغون إلى حداء سماوي رخيم ما سمعه من قبل، لكنه الآن يسمعه معهم، وحين سمعه انقشعت عن سماء قلبه كل السحب السود التي كانت جاثمة عليه، وطلعت شمس الإيمان فأبصر الحقيقة، وأخيراً وجد نفسه؛ وجد نفسه التي أضاعها سنين عديدة، كان ملعوناً من الجميع، كان يتوقع أن توضع صورته بين المجرمين والسارقين والمغتصبين وتجار المخدرات، وها هو توضع صورته فى الإعلام مع هؤلاء الذين ضحوا لربهم ولأمتهم، ها هو اليوم بينهم، يسري في أطراف روحه صوت أذانهم، وتتغلغل السكينة فى قلبه حين يصلي وراءهم، وحين أقفلوا عليه باب زنزانته بينهم شعر أن كل قيود الباطل قد انكسرت عن قلبه، لقد علم أن الإيمان هو اليد الطاهرة التي يجب أن تقود العالم إلى النجاة والسعادة، وأن الحياة من غير إيمان جحيم لا يطاق، ها هو الآن قد

عرف الله وأصبح يستقبل الابتلاء بقلب مؤمن صابر راض، بعد أن كان يستقبله بقلب جزع ساخط متذمر، الإيمان الذي حول مرارة الحنظل في فمه شهداً، والصحراء القاحلة تزدحم بالأشجار الباسقة والأزهار التي تنضح بالعطر الجميل، لقد عرف الآن أن الناس كالأرقام قيمتهم تتوقف عند مواضعهم وخاناتهم التي يختارون الوقوف فيها، لقد سمع الكثيرين يتفوقون عليهم بلاغة وفصاحة لكنهم لا يبلغون أبداً قوة ثباتهم ويقينهم وإيمانهم بمبدئهم. كان له أصحاب كثر، لكن المؤمنين الصادقين هم الذين يحبونه صدقاً، بقية أصحابه كانوا يحبون أنفسهم فيه حين يعطيهم، أما المؤمنون الصادقون فيحبونه في أنفسهم حين يحلق معهم، أخبرني مرة أن المحقق سأله مستغرباً ما الذي غَيَّرَك؟ لم يخبرني بماذا أجابه، لكنني قرأت إجابته الطويلة في ابتسامته التي أفصحت لي عن كل شيء، لقد رأى في عمره شمعة ستذوي مع انتهاء أيامه فبحث عن نور لا يتبدد، لقد علم أن كل أوراق رغباته ستتساقط مع شجرة عمره فلماذا لا يزرع بيده شجرة لا تقطعها فؤوس الموت ولا تسقط أوراقَها رياحُ الفناء، لماذا يستغرب المحقق من انتفاضة قلبه وهو يرى حياة الأرض وانتعاشة الأوراق مع تجهم كل خريف وبهجة كل ربيع؟

لقد رفض كل إغراءاتهم واختار أن يقاسم هؤلاء الفتية رغيف الألم، عجباً لهذا السجن الذي ضم في جنباته تاجر مخدرات مهتد ومجاهد مخذول! سبحانك اللَّهُمَّ حين تتلقف يدُ رحمتك بذرةً تائهةً في الفلاة تحييها بماء هدايتك لتمتد جذورها في أعماق الأرض وتنهض تتهادى أمام الشمس تتحدى الريح، ثم أراك تتخلى عن شجرة باسقة متينة فتقصمها الأعاصير لأنها شمخت بأنف غرورها قائلة: من مثلي؟

الخونة:

كان عامر (اسم مستعار) حلو الحديث مرح الروح ذا فكاهة مليحة تستخرج الابتسامة من قعر البؤس، كان يفاجئني بأسئلته الذكية بعد الدروس التي ألقيها على المعتقلين في العنبر، شكا إلي الكثير من المعتقلين أنه من المؤكد أن عامر يتكلم عنهم في التحقيق، كنت أضع له الأعذار وأغلب بالتأويلات جانب السلامة، أخبرني من أثق به أن المحققين جاؤوا بعامر إلى غرفة التحقيق ثم سألوه أمامه: هل هذا فلان؟ فأجابهم: نعم!

فلما سألت (عامراً) عن ذلك قال: نعم أخبرتهم لأن الأمريكان يعرفون ذلك قطعاً فلماذا الإنكار؟

سألته: وما شأنك أنت بالأمر؟ إنه موضوع يخصه هو فلماذا تتدخل فيما لا شأن لك به؟

أخذ يضع لنفسه الأعذار، لكني وجدته قد استخدم ذات الأسلوب في أحيان كثيرة، كلما تم اكتشافه برر لنفسه: الأمريكان يعرفون كل شيء فلماذا تخفون عنهم!

لكنه في الوقت ذاته لم يخبر الأمريكان بكل ما يخصه، لقد أخفى عنهم أموراً أخبرني هو بنفسه عنها، قالت لي المحققة (ميغن) وهي تضحك بابتهاج: (عامر) يتكلم عنك كثيراً، إنه مثل الراديو لا يتوقف عن الثرثرة إلا حين تضغط زر الإيقاف!

لقد كان عامر كذلك، كانت تصفه بدقة، كان من النوع الذي يسحرك بكلامه الذي لا يمل، يخرج من قصة ليدخل في الأخرى دون أن تشعر بمضي الوقت، لكني لم أقبل حينها كلامها، فقد تكون نمامة تسعى في الوقيعة بيننا. قلت لها: إن كان ما تقولين حقاً فقد يكون شوقه لرؤية أولاده قد اضطره للكذب على الآخرين.

قالت: أليس لك والدان أيضاً مشتاقان إليك؟ فهلا تكلمت عنه كما يفعل هو؟

قلت: أخلاقي لا تسمح لي، إن كان قد قال عني ما قال فهذا شأنه، أما أنا فلن أعامله بالمثل، لن أنحدر إلى ذلك السفال، كل إناء بما فيه ينضح.

نقلوني بعدها من المعسكر الخامس الانفرادي إلى المعسكر الرابع الجماعي الذي قضى فيه عامر معظم وقته في غوانتانامو، كان في عنبر آخر فيأتي بصورة شبه يومية قريباً من عنبرنا ليتحدث معي، زادتني أسئلته ريبة، كان يعرف علاقتي الوثيقة ببعض المعتقلين فكان يسألني عنهم بشكل غريب ما إذا كنت أعرف أنهم من المجاهدين أم لا، فلما امتنعت عن إجابته نظر إلي في ضيق وهو يقول: أتشك بي؟

كانت كلمته تلك عبارة عن جرس الإنذار بالنسبة إلي، ازدادت هواجسي وأصبحت أراه بعين مختلفة تماماً عن السابق، قلت له: أبداً.. لكني لا أستطيع أن أتكلم عن الآخرين بأمر لا أعرفه.

تذكرت قول عمر بن الخطاب: (لست بالخب ولا الخب يخدعني)، ولكن إن كان فعلاً قد وشى بي فكيف أفند ادعاءاته أمام الأمريكان الذين لا يعتمدون على معيار عادل في سَبْر التهم؟ كيف أثبت براءتي أمام من يؤمن بأن المتهم مدان حتى تثبت براءته؟ كيف أدحض ادعاءات شاهد هو مُصَدَّق على كل حال؟ لاحت لي فكرة، رميت له طعماً لأعرف حقيقته على وجه لا لبس فيه، همست له بخبر مختلق عني، أبلغته بأنه قُبِضَ علي في البلد الفلاني لأسباب متعلقة بالجهاد وعذبوني هناك، وحتماً سيستطيع المحامي إثبات كذبه من خلال حكومة هذا البلد نفسه، والتي ستكتشف أن هذا الخبر ليس سوى ادعاء كاذب، رأيت بريق عينيه فرحاً بالخبر، أخذ يثني على شجاعتي وبطولتي في جهادي المزعوم الذي لم يكن سوى طعم، انصرفت عنه وأنا أدعو الله أن يكشف لي حقيقته.

شاء الله تعالى أن يقرر الأمريكان إطلاق سراحه، جاؤوا به إلى الزنزانة المجاورة في معسكر (إيكو) المخصص للقاء المحامي حيث أستطيع سماعه دون التمكن من رؤيته، كان يرفع صوته منادياً: يا فايز.. سيطلق الأمريكان سراحي فهل تريدني أن أبلغ أهلك رسالة منك؟

أجبته: بلغهم أني في أتم نعمة من الله وحده، وأخبرهم بأن الله لن يخذلني فلا داعي للقلق.

لكنه فاجأني بكلام مريب قائلاً: هل تعرف أحداً من المجاهدين في الخارج؟ إن أردت تبليغه بأي شيء فأنا مستعد!

أصابني الذهول وأنا أسمعه يقول هذا الكلام وهو يعلم يقيناً بأن المكان مليء بأجهزة التنصت.

ثم أتبع بقوله: عموماً إذا كنت خائفاً من أجهزة التنصت فاكتب ما تريد في ورقة المحامي وسيأتيك بعد قليل جندي ثقة فأعطه الورقة، وهو سيسلمها لي، وسأعطيها لمن تشاء!

هل فقد عقله؟ تجاهلته تماماً كأني لم أسمع شيئاً، هل فعلاً يريد توريطي أم أنه أحمق ثرثار لا يعي عواقب ما يقول؟ لكن لماذا لا تكون حماقته تلك إلا على الآخرين بينما هو ثعلب مكار فيما يخص نفسه؟ أُفَضِّل أن يكون أمامي أسد مفترس على أن يكون ورائي كلب خائن، أعوذ بالله من هذه الوساوس الشيطانية، لا أريد أن أظلم أحداً بسوء الظن، يكفيني الحذر، اللَّهُمَّ اكشف خبيثته.

مرت بعد رحيله ثلاث سنوات تقريباً، كنت حينها في عنبر (بابا) المعزول عن بقية المعتقلين، جاء الضابط معه ظرف، ثم وقف أمام زنزانتي في كبرياء: (٥٥٢).. لقد قررت الحكومة الأمريكية تقديمك للمحاكمات العسكرية!

كان بجواري أحد الإخوة الموريتانيين، يتقن العربية الفصحى والإنجليزية والفرنسية، كثيراً ما أراه شديد الحنق على الجنود الأمريكان فيصرخ عليهم بكلام هو أشد عليهم من وقع النبل، ثم يلتفت إلي وقد انقلب غضبه إلى نوبة ضحك قائلاً: لابد من تأليف كتاب بعنوان (عجز اللسان.. عن وصف حقارة الأمريكان)!

حين سمع الضابط يخبرني عن تقديمي للمحاكمات العسكرية غرق في ضحكه وهو يقول مازحاً باللهجة الكويتية: هذا ويهي إذا طلعت من غوانتانامو!

بادلته الضحك ثم استلقيت على السرير لأقرأ التهم التي كانت تجبرني على الضحك مما حوته من مبالغات ومغالطات، فأنا قائد عسكري وشرعي بارز في حركة طالبان وتنظيم القاعدة، كما أني قاتلت في صفوف الطالبان والقاعدة، ثم إني مدرب عسكري في معسكرات القاعدة، وقمت بكتابة منشورات وصناعة أفلام دعائية تدعو إلى الجهاد في سبيل الله، وكنت على علاقة بأحداث سبتمبر وتفجير السفارة الأمريكية في تنزانيا ودار السلام وتفجير المدمرة الأمريكية (USS Cole)، وأخيراً أنا مستشار ديني لأسامة بن لادن نفسه!

حين قرأ المحامي العسكري (باري وينغارد) الاتهامات والأدلة التي اعتمدت عليها الحكومة الأمريكية قال لي: هذا هراء، من المستحيل أن يقوم أحد بكل هذا في ثلاثة أشهر التي قضيتها في أفغانستان، لقد وجدت أكثر أدلتهم محصورة بالإشاعات (Hearsay)، السبب الحقيقي لكل هذه الاتهامات السخيفة هو أنهم انزعجوا من كلامك ودروسك، فأرادوا تخويفك ليس أكثر.

كنت أقرأ الاتهامات وأنا مستلق على السرير، وإذا بي أفاجأ بأن هناك قانوناً في المحاكمات العسكرية تلزم فيه الحكومة الأمريكية بذكر أسماء وأرقام كل من تكلم على المعتقل في غرف التحقيق، ويلزمون كذلك بذكر كل ما دار في جلسة التحقيق مع الشهود حتى ولو كان في مضبطة التحقيق كلام يخص معتقلاً آخر، لم أكترث بمعظم الأسماء المذكورة التي وشت بي، فقد كنت متوقعاً كل شيء منهم، قرأت في مذكرة الاتهامات ضدي بأن المحقق أعطى المعتقل (. . .) مجلة وشطيرة وتبغ، ثم أكد أن المعتقل فايز الكندري (٥٥٢) يعتبر من أخطر المعتقلين في غوانتانامو!

ضحكت وأنا أكلم نفسي: لا بد أن الشطيرة لذيذة جداً كي تدعي هذا الاتهام!

كنت كواقف أمام بركة ماء عكر، سرعان ما جف ماؤها فانكشفت الضفادع المختبئة تحت الطين، صدمت حين قرأت اسم (عامر) من بينهم، كلما قرأت شيئاً مما قال اجتهدت في البحث عن مخارج حتى لا أظلمه، حتى جاءت الصاعقة!

ذكر بأن المعتقل فايز الكندري قد قُبِضَ عليه وعُذِّب في البلد الذي همست له به حين كنا في المعسكر الرابع، ثم أبحر في تهمه التي حتماً ستغرقني في غوانتانامو إلى الأبد لولا لطف الله ودعوات الوالدين، لقد ابتلع الطعم، حينها تأكدت أن الرجل قد باع دينه وإخوانه للأمريكان، لقد كان يغطيني بجناحه بينما يمزقني بمنقاره.

وأصحاب ظننّاهم دروعاً ... فكانوها ولكن للأعادي
وقالوا قد صفت منا قلوب ... لقد صدقوا ولكن عن ودادي

وقالوا قد سعينا كل سعي   لقد صدقوا ولكن في فؤادي

لقد كانت صدمة بمعنى الكلمة، صدمة لا يعرفها إلا من عرفه، فقد كان يأخذ نصيبه من قيام الليل وصيام النهار، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، أيكون كل ما رأيناه زيفاً لا حقيقة له؟ لم تكن وشايته لشوق أوهنه إلى أولاده، بل الأمر أفظع من ذلك، لقد قرأت في مذكرة الاتهامات بأنه طلب من المحققة (ميغن) قبل إطلاق سراحه بأيام أن يجعلوه قريباً مني في معسكر (إيكو) عند لقائنا بالمحامين، وطلب من المحققين، الاستماع للتسجيل حين يتمكن من الإيقاع بي، وسيطلب مني كتابة ورقة تثبت علاقتي بالمجاهدين يعطيها للجندي، وسيدعي بأن الأمريكان صادروا الورقة منه قبل إقلاع الطائرة!

لم يَرِقّ قلبُه الذي وقف على أعتاب الحرية وهو يرى إخوانه ما زالوا يعذبون في غوانتانامو. إخوانه؟ ليسوا إخوانه بعد اليوم، مؤلم أن تضع ثقتك في المكان الخطأ، أحسست بطعنة غدر تخترق ظهري، التفت وإذا به هو، لم أتصور أن الغدر بهذه البشاعة، أين الأوقات الجميلة والدعابات المسلية؟ أنى لهذا القلب أن يستمر في الخفقان وهو يأكل معك في يد ويخونك في الأخرى؟ أنى لهذه العين الغادرة أن تنظر إليك دون أن يكسرها الخجل؟ كذبت نفسي لأول وهلة لكن الأيام صفعت وجهي بالدليل، لقد قرأت في المذكرة ادعاءاته على بعض الأفغان المساكين البسطاء الذين ظنوه شهماً يعرف معنى الرجولة، فأفشوا له أسرارهم ليستفرغها في غرف التحقيق بعد أن أضاف فيها ما أضاف من أكاذيب تجعل القصة أكثر إثارة، تذكرت هؤلاء الأفغان وهم يشتكون إلي بأن المحققين يواجهونهم بما أفشوه لعامر مع إضافات باطلة، قرأت ما ذكره عامر لأحد المحققين بأن المعتقل الأفغاني (. . . .) قد قام بزرع ألغام في طريق الدبابات الأمريكية، لقد كان هذا الاتهام كفيلاً بأن يُعَرِّضَ هذا المعتقل للتعذيب الشديد والبقاء في غوانتانامو سنين طويلة لا تجف فيها دمع أم والهة على ابنها الأسير.

ظننتكم درعاً حصيناً لتمنعوا   سهام العدا عني فكنتم نصالها

دعوا قصة العذال عني بمعزل   وخلوا العدا ترمي علي نبالها

إذا لم تقوا نفسي مكايدة العدا   فكونوا سكوتاً لا عليها ولا لها

أخبرني المحامي (باري وينغارد) بأن اتهاماته أصبحت هباء بعد أن ثبت كذبه في ادعائه القبضَ علي في البلد الفلاني وتعذيبي، وعند التثبت من ذلك وجدناه كاذباً.

سمعت الكثير من المعتقلين يدعون عليه في الثلث الأخير من الليل، سألني أحدهم: لم لا تدعو عليه؟

أجبته: لا أستطيع، كلما هممت بذلك أتذكر الأيام الجميلة التي قضيناها سوياً فأحجم، لكني وكلت أمره إلى الله، إن أعظم ما يدخره المرء ليوم البعث هو احتساب مظلمته، فإن التقصير لاحقه لا محالة في صلاته وصيامه، أما وقوع الظلم عليه فإن الله تعالى قد أخبر بأن حسنات الظالم تصب في ميزان المظلوم، فإن فنيت حسناته وقضى الذي عليه أخذ من سيئات المظلوم ثم طرحت على الظالم ثم طرحت في جهنم، إن تجرع غصص الظلم أعظم أجراً للمظلوم وأكثر ضماناً من العبادات الأخرى، من يضمن قبول الله لعبادته أو عفوه عن تقصيره؟ أما الظلم فلا يشترط فيه معنى الإخلاص لترتب الأجر العظيم عليه، لذلك قال ﷺ: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»، وأي نية تشترط على هذه الجلحاء لتأخذ حقها؟

فقد يوفق الله الظالم للعبادة لا ليأجره بها بل ليأجر غيره بها، فلا تغتر بكثرة العبادة مع مقارفة الظلم فإن أجر عبادته ليست له!

لقد رأيت في غوانتانامو عشرات الجنود ممن أسلم سراً وجهراً، كما رأيت بضعة معتقلين تَنَصَّروا ومزقوا المصحف، ليس كرهاً في القرآن بل تملقاً للسجان، رأيت المحامي الأمريكي باري وينغارد يضحي من أجلي، بينما خانني معتقلون ما رعوا صحبة سجن ولا رحموا دمعة أم، رأيت تاجر مخدرات أزهر قلبه في غوانتانامو بعد أن كان ماحلاً، كما رأيت مجاهداً قضى سنين في تشييد بنيانه فانهدم وقد أوشك على التمام!

حين تسبر أعماق النفس البشرية وتتبع فيها مواطن الضعف والقوة ولحظات الانهيار والشموخ فإنك ستتفاجأ بأن في قعر قلب الشرير بصيص نور خافت مستتر ما كنت لتبصره لولا يد الرحمة التي أزاحت عنها ركاماً من النزوات الأنانية، وستكتشف وراء الهيبة الإيمانية والجلال السماوي في قلب التقي ورماً سرطانياً كامناً في الخفايا المحتجبة ينتظر اللحظة السانحة التي يثور فيها منتفضاً على كل جميل، إنه السر الأعظم الذي انتشل قاتل المائة من هاوية الهلاك وقد كاد، وأردى كاتب الوحي في الردة فلفظته الأرض بعد موته وقد كان، إنها الموعظة المرعبة التي تدوي في كل صباح ومساء: يا أيها المتعفر في وحل خطيئته لا تيأس، ويا أيها المزهو على سجادة تبتله لا تغتر.

الخطاب الرئاسي:

رجعت من عند المحامي أحمل في يدي المقيدة ملفاً فيه كنز لا يقدر بثمن، خطاب الرئيس الأمريكي (بوش) للأمة الأمريكية في ذكرى أحداث سبتمبر عام (٢٠٠٦)، كانت عادة بوش بعد أحداث سبتمبر أن يوجه خطابات للأمة الأمريكية ابتداء

من اليوم الرابع من سبتمبر حتى اليوم الحادي عشر من كل سنة حتى نهاية مدته الرئاسية، كان خطاب (٢٠٠٥) سوداوياً، وكأنه قصيدة رثاء فوق حطام مركز التجارة. أما خطاب ٢٠٠٦ فقد كان خطاباً استثنائياً، رجعت إلى زنزانتي وأنا أرفل فرحاً حين شعرت أن كوة قد فتحت أمامنا تطل على العالم الخارجي، لقد كان الخطاب مليئاً بالأسرار المختبئة بين السطور، كان إعلاناً عن سياسة جديدة متعلقة بالشرق الأوسط الغارق في التوترات والصراعات، قال فيه بالنص: (منذ عقود سعت السياسة الأمريكية إلى تحقيق السلام في الشرق الأوسط وذلك عن طريق السعي نحو تحقيق الاستقرار على حساب الحرية، وقد أدى الافتقار إلى وجود مبدأ الحرية في تلك المنطقة إلى تنمية مشاعر الكراهية والحقد وانتشار التطرف وزيادة أعداد الأشخاص الذين يودون الانتماء إلى المنظمات الإرهابية، ولقد رأينا عواقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر حيث جلب الإرهابيون الموت والدمار لدولتنا، مما يظهر أن السياسة السابقة هي سياسة غير ناجحة). انتهى كلامه.

إنه يقر في هذا الخطاب أن الولايات المتحدة خلال عقود هي التي دعمت الحكومات الدكتاتورية الاستبدادية في الشرق الأوسط، وهي التي كانت وراء بقاء الأنظمة المجرمة التي كانت تقمع الشعوب وتَسوسهم بالحديد والنار، وهي التي كانت سنداً للسفاحين الذين يتلذذون بتعذيب المعتقلين في الغرف المظلمة، وهي التي كانت ترتكب هذه الجرائم في حق الشعوب من أجل أمنها واستقرارها ومصالحها، وبعد هذا الاعتراف المهم يعلن عن سياستهم الجديدة المتمثلة في دعم الديمقراطية، ولكن أي ديمقراطية؟ إنها لا تعني حريتنا وكرامتنا كما أن السلام الذي دعموه في سياستهم السابقة لا يعني سلامنا نحن، وهل صلاح نرتجيه ونحن نقاد من قِبَل هوليوود في لوس أنجلوس عاصمة الدعارة في العالم وسان فرانسيسكو عاصمة السدومية والسحاق في العالم، ولاس فيجاس عاصمة القمار في العالم، إنه عالم مخيف مرعب ذلك الذي يكون هؤلاء قادته، أي روح خبيثة تسيطر على العالم؟ أي قلب متوحش ذلك الذي يحمله هذا الشيطان المريد الذي يرهب العالم بأسلحته المتطورة ليخضعه لإرادته ثم يغرقه في وحل الفساد فيظل ساجداً عند قدمي تمثال الحرية؟

تغيرت أسئلة المحققين معي بعد سنة ٢٠٠٦ فصارت تتركز على الحكومات العربية، كثيراً ما سألني المحققون: هل ترى أن قمع بعض حكومات الشرق الأوسط هي التي جعلت بعض الشخصيات الإرهابية تهرب إلى بؤر التوتر والصراع للانتقام منا لأنهم يروننا نحن من ندعم هذه الحكومات؟ وهل ترى أن لها دوراً في تسهيل خروجهم؟ وهل تتوقع أنه لو كانت هذه الدول تتمتع بالمزيد من الحريات أنه سيقلل من أعداد الملتحقين بالتنظيمات الإرهابية التي تعرض أمننا للخطر؟

لقد أدركت أن الشرق الأوسط قادم على تغييرات خطيرة تنتظر الفرصة السانحة، وأنها قطعاً لن تكون في صالحنا ما دامت خيوط اللعبة بيد الولايات المتحدة، ولكن متى وكيف؟

قياس نبض المجتمعات:

في ندوة نقاشية عن الإسلام السياسي عقدت في جنيف سنة ٢٠٠٨ حضرها النائب الفاضل د. جمعان الحربش مع مجموعة من النواب الإسلاميين والساسة الغربيين، كانت أكثر أسئلة الساسة الغربيين تتمركز حول موقف الإسلاميين من تداول السلطة والتعامل مع غير المسلم، سألهم النائب الحربش مستغرباً: لماذا كل هذه الأسئلة حول تداول السلطة مع أن التيارات الإسلامية المنخرطة في العملية السياسية في الكويت لا تسعى للحكم بل للإصلاح ضمن حدود الدستور الذي ينص على أن الحكم في ذرية آل الصباح، فأجابوا بأنهم لا يقصدون بأسئلتهم هذه الإسلاميين في الكويت، وإنما يتوقعون وصول التيارات الإسلامية في مصر والشام للحكم خلال السنوات العشر القادمة، وعللوا ذلك بأن الفجوة أصبحت هائلة بين الشعوب والأنظمة، وأن هذه التيارات الإسلامية هي المؤهلة لملء هذه الفجوة.

أمريكا لا تعلم الغيب، كما أنها ليست قوة لا تقهر، لكنها تحاول ولا تيأس، تخطئ كثيراً لكنها سرعان ما تتدارك أخطاءها بينما نحن في لهونا سادرون، تبحث عن الحلول خارج الصندوق بينما نسجن أنفسنا في مغالطة القسمة الثنائية الزائفة ما بين الخضوع لهذا القطب أو ذاك، تبذل جهداً هائلاً في البحث والاستقصاء في الوقت الذي ننام فيه ملء أعيننا غير آبهين بما يدور حولنا إلا بعد حدوثه، أمريكا تحاول أن تعرف ما يحدث حين يحمل الرجل فأسه، بينما لا نعلم شيئاً إلا حين يتم البناء، إنها تقرأ الواقع بعين فاحصة، وتحلله وفق منهجية علمية تراعي طبيعة الشعوب وتحولاتها الفكرية والسلوكية، وتخطط على ضوئها للمستقبل القريب والبعيد، إنها تدرك أن للمجتمعات والأمم نبضاً وضغطاً من الممكن قياسه كما الإنسان، ومن خلاله تستطيع أن تخمن كم يوم بقي له في الحياة، وهل سيفقد وعيه عن قريب أم هو في طور بناء خلاياه من جديد، قد تخطئ كأي طبيب في قراءته نتيجة التحليل لكن ذلك الخطأ لا يلغي أهمية التحليل برمته.

قبل انتشار الآيفون كانت أجهزة الاستخبارات الأمريكية تعتمد في جمعها للمعلومات عن الرموز السياسية والدينية والتغيرات الطارئة على المجتمعات على ما تقدمه لها أجهزة الاستخبارات في نفس البلد وعملائها المنتشرين فيه، لكن الحكومات

لا تكشف لها كل ما عندها، وعملاؤها غير قادرين على معرفة الكثير، أما وسائل التواصل فهدمت الحاجز بين الاستخبارات الأمريكية وما تريد معرفته، أصبح كل شيء في متناول اليد.

بعد القرار بإطلاق سراحي قال لي العقيد الأمريكي في مبنى (٨): (من الضروري جداً أن تتعلم كيفية استخدام الآيفون، لابد أن تشارك في وسائل التواصل، نحن نريد مصلحتك، هذا سيساعدك كثيراً!) كان حرصه مثيراً للريبة.

بعد وصولي الكويت سألني أحد المراسلين في مقابلة صحفية: هل أنت مراقب؟

قلت له: بالطبع! هناك جاسوس أمريكي يراقبني ٢٤ ساعة يومياً، وحين بدت عليه علامات الاستغراب، أخرجت له الهاتف من جيبي وقلت: هذا أكبر عميل للولايات المتحدة، يعطيهم معظم أخباري، ليس فقط في المجال الاستخباراتي بل حتى لجمع المعلومات الشخصية والرصد الدقيق لطبيعة المجتمعات الإسلامية من الداخل ومدى التحولات الفكرية والسلوكية لديها، مما يساعد الولايات المتحدة على وضع الخطط المناسبة للتحكم بهذه الشعوب وتوجيهها نحو المسار المطلوب، وما إذا كانت قد وصلت لمرحلة سانحة تنفذ فيها الولايات المتحدة أجندتها بكل سهولة أم أنها تحتاج إلى المزيد من الوقت، بينما نحن غارقون في الشخير ثم نقول في بلاهة لمن يحذرنا: أنت تعاني من عقدة المؤامرة!

الفجر الكاذب:

كنت في تاريخ ١١ فبراير عام ٢٠١١ معزولاً مع سبعة آخرين عن بقية المعتقلين في عنبر (P)، قررت إدارة المعتقل بشكل غريب وغير متوقع تخفيف الإجراءات الصارمة التي كان المعتقلون يخضعون لها، ثم أدركنا لاحقاً أن ذلك القرار صدر بعد ثورات الربيع العربي، لقد قررت تهدئة الأوضاع في غوانتانامو لتتفرغ بشكل كامل لمراقبة الثورات عن كثب، سمحت لنا إدارة المعتقل بسماع الأخبار في أوقات محددة، وشددت في إجراءات التنصت لتسمع آراء المعتقلين فيما يجري على الساحة العربية، لأنهم يمثلون الكثير ممن هم خارج غوانتانامو، كنا ممنوعين من قناة (الجزيرة)، أما القنوات الإيرانية كقناة (العالم) و(PRESS TV) فقد سمحوا لنا بها، كنت أمارس رياضة الجري في القفص الخارجي، فوجئت بأخ مغربي يصيح علي وهو يطير فرحاً: يا فايز.. لقد تنحى حسني مبارك عن الحكم!

واصلت الجري دون توقف، لم أشعر إلا ودموعي تسيل بغزارة، اشتد عَدْوِي وكأنني ألاحق شيئاً ما، كأني ألاحق مجد أمتنا الهارب، هرب منا لأننا لا نستحقه،

حاولت أن أسترضيه، أستجديه، أتوسل إليه أن يعود، سألني أحد الإخوة: هل ترى الحلم تحقق؟

قلت: بل هو الفجر الكاذب الذي أوهم الناس أنه رسول الصبح إليهم، ولن يمر إلا القليل حتى يعلموا كذبه.

قال مستغرباً: وما لي أراك سعيداً إن كان فجراً كاذباً؟

قلت: لأن ظهور الفجر الكاذب دليل على اقتراب بزوغ الفجر الصادق، أرى قنطرة خانقة أمامنا لابد من تجاوزها بنجاح.

كان واضحاً وقوف الولايات المتحدة مع الثورات، فبعد زيارة سامي عنان للولايات المتحدة في غضون ثورة يناير جاء القرار المفاجئ بأن ينأى الجيش المصري بنفسه عن التدخل لفض المظاهرات، لقد توهم البسطاء أن الجيش مؤسسة وطنية لن تتلطخ يداها بدماء الشعب، فصفعته أحداث رابعة لتؤكد أن حياده في ثورة يناير لم يكن سوى مخطط خبيث ليرى نتائج الانتخابات إن كانت تتوافق مع مصالح الولايات المتحدة ليستمر دعمها أو تتعارض معها لتموت في مهدها قبل أن تشب، كما أكدت هيلاري كلينتون بأنها أمرت الجيش المصري بعدم استخدام العنف، وذكرت بأنها حين زارت في القاهرة المشير حسين طنطاوي وزير الدفاع المصري آنذاك كان مجهداً لدرجة أنه كان بالكاد يرفع رأسه، وكانت الهالات السوداء تحت عينيه تملأ وجهه، فأخبرته بالسياسة الجديدة للولايات المتحدة فاضطر للخضوع لها على مضض، لقد كان بإمكان الولايات المتحدة ترك الجيوش وشأنها لتتعامل بطريقتها مع الثورات الجماهيرية، لكنها تدرك أن هذا النوع من السلطات وإن وفر الأمن والاستقرار للولايات المتحدة وإسرائيل على المدى القريب فإنه مهدد بالتغير الجذري على المدى البعيد أو الانكسار المفاجئ الذي يكون كالطفرات الجينية التي لا تخضع لقانون محدد. لقد دافعت كلينتون عن سياسة الولايات المتحدة الداعمة للثورات مؤكدة أنه ضرورة استراتيجية، وأنها لن تتراجع عن هذا الموقف لأن حصتها منه ستكون كبيرة في المستقبل!

لقد حرصت الولايات المتحدة على عدم تمكين الحاكم الجديد من مصادر القوة حتى تتأكد من أنه لن يهدد أمنها وأمن إسرائيل على المدى البعيد، كي يسهل تغييره ومعاقبة هذا الشعب الذي حرم الولايات المتحدة من تحقيق أهدافها الاستراتيجية.

لقد اغترت الشعوب الإسلامية بأوباما وهو يلوح لهم بيده في خطابه في جامعة القاهرة، ضجت القاعة بهتافات السذج حين سمعوه يقول: (السلام عليكم)، لكنهم لم

يتعلموا الدرس أن السلام لا يعني سلامنا نحن بل سلامهم هم، لقد نجح في تحييد عدد أكبر من المسلمين في الصراع الدائر ليتسنى لهم ذبح القطيع ثوراً ثوراً. إن الولايات المتحدة التي تلتزم الصمت على أبشع مجازر شهدتها الإنسانية في سجون الطاغية بشار غير معنية بتحقيق طموح أمتنا، إن الذي لا يتأذى برائحة شواء الأجساد البشرية في معتقلات بشار لمطالبتهم بالحرية لن يسعى لإطفاء النار المستعرة من جسد البوعزيزي من أجل عربة خضار!

يجب أن نحذر كل الأمة من مكر عدو مخاتل بدلاً من تضييع الوقت في إقناع صديق ساذج، إن الداء الذي لا دواء له عقل بليد يظن نفسه حكيماً، تشير له إلى تحركات العدو المريبة فيحسن به الظن، تدعوه إلى الحذر في أدغال التماسيح فيأبى إلا السير مغمض العينين، تضيء له المصباح ليرى زوجته في غرفة نومه مع من ظنه صديقاً فَيُعْرِضَ قائلاً: تصادف وجوده معها، أنى لي أن أقنع هذا الرأس بأنه فارغ؟ وأن سذاجته التي يُصَدِّرُها لنا مسمومة سندفع جميعاً ثمنها؟

هي ذات العقلية التي كانت ترانا متأثرين بعقدة المؤامرة حين قلنا لهم إن الولايات المتحدة استدرجت صدام لغزو الكويت، وأن (آبريل غلاسبي) سفيرة الولايات المتحدة آنذاك اعترفت أنها أخبرت صدام بأن جيمس بيكر وزير الخارجية قد وضح لها أن سياسة أمريكا لن تتغير في عدم تدخلهم في شؤون العرب الداخلية، إنها نفس العقلية التي وضعت يدها في يد جمال عبد الناصر واستهزأت بكل الشكوك حوله، إنه العقل المازوخي الذي يستمتع بتعذيب نفسه ويتلذذ بتقمص دور المظلوم الذي يأبى كلَّ رأيٍ يخرجه من الدَّرْك الذي أَلِفَه.

يبتهجون وهم يقرؤون تقارير أوهمتهم أن الولايات المتحدة تخشاهم، تخشاهم هم، وتحسب لهم ألف حساب، ويرون تلك الخشية دليلاً على صحة المنهج، ثم تراهم أنفسهم يبتهجون وهم يقرؤون تقارير أخرى أوهمتهم أن الولايات المتحدة تراهم أحزاباً معتدلة يمكن التعامل معها، ويرون ذلك مرونة وذكاء سياسياً! هم أنفسهم يفرحون بالتقريرين ويبررون لكل منهما بما يناسبه، لا يضر تناقضهما ما داما ينضحان بما يرونه مديحاً يشعرهم بالفخر، ولم يدركوا أنهم كانوا مجرد أداة استخدمها الأمريكان عند الحاجة، لذلك فإن الأجدى من التيه في تفاصيل الهواجس المرتابة هو اليقين بأن الذئب المنزوي في الظلمة لم ينم، وأنه يتحين الفرص للانقضاض، وما هو إلا أحد إثنين: عاقل حصيف يحذر حين يرى الذئب يلحس الشاة متلطفاً، وأحمق سخيف يرتمي في أحضان كل مبتسم، لقد كانت نُذُر المكيدة تلوح في الأفق حين هللت الولايات المتحدة وفرنسا لهتافات المبتهجين بالربيع، إذ كيف لعاقل أن يثق بوعود الأمريكان

لهم، أي عقل هذا الذي يثق بحكومة لم يشهد التاريخ أكثر قتلاً للأبرياء واستعباداً للشعوب منها؟ أي عقل هذا الذي يركن لملمس الأفعى الناعم الذي حمى الأنظمة الاستبدادية في الشرق الأوسط لعقود؟ أيعقل أن يعلن حلف شمال الأطلسي تنفيذ حظر الطيران على القوات الجوية للقذافي حباً في الليبيين وحقناً لدمائهم؟ أتشن فرنسا غارات جوية لتساهم في الإطاحة بالقذافي لله؟ فرنسا؟ فرنسا التي قتلت مليون جزائري رفض احتلالها لبلاده وأباحت صحاريها لتجاربها النووية؟ فرنسا التي أمرت الجيش الجزائري أن ينقلب على إرادة الشعب الذي اختار جبهة الإنقاذ؟ فرنسا المتورطة في أعمال الإبادة في رواندا عام (١٩٩٤)؟ من ظن أنها فعلت ما فعلت لصالح الشعوب الإسلامية لابد من دخوله مصحة نفسية، لقد رفضت فرنسا تصدير شحنة أسلحة إلى الحكومة التونسية من ضمنها غازات مسيلة للدموع لردع المظاهرات، وهددت الجيش التونسي إن تدخل في المشهد، بل رفضت استقبال بن علي الهارب، عميلها القديم الذي قدم لها كل ما تريد، ما الذي يجري؟ قد لا ندرك يقيناً تفاصيل الخطط التي تحاك في الخفايا المظلمة، لكننا يجب أن نوقن بأن هناك مكراً تحيك خيوطَه أناملُ إبليس نفسه، وأنه لابد من الحذر، لقد تفطن الليبيون لنعيق الغربان فأخذوا للأمر أهبته، وتحزموا خناجرهم حين أفزعتهم نظرات الذئب الماكر الذي لم يطرد الضبع عن الحظيرة إلا لحاجة في نفسه، إن الذي يطالب بدليل يقيني على مكيدة عدوه لن يظفر بها، فمهما بلغت قوة الدليل فستتطرق إليها الشكوك والظنون، ولو اعترف العدو بتآمره لقيل: إنه يكذب!

هل الثورة تعني الإصلاح والحرية في كل حال؟ لقد سفك النظام الإيراني بعد ثورته أكثر من النظام الملكي الفاسد قبله، إن ثورة الشعب كخرطوم المطافئ، إن لم تمسكه يد قوية تتحكم فيه كان تدميره أعظم من تعميره، إن سوء استخدام الثورة يزيد ضرراً على الفساد الذي قامت من أجله الثورة، كما أنه ليس كل حريق يخمد بذلك الخرطوم، أتألم حين أرى الشعوب تساق سوقاً لثورة تصنعها ولا تقودها، تنادي بإسقاط الفساد وهي جزء منه، الثورات وسيلة وليست هدفاً، جاهل من يصفق لكل ثورة مجهولة العاقبة، الثورة كعملية جراحية للقلب، لا تجرى إلا في غرفة معقمة تتوفر فيها كل الأدوات اللازمة، فإن كانت الغرفة ملوثة أو لا تتوفر كل الأدوات اللازمة لإجرائها فإنها تتحول من عملية جراحية إلى جريمة قتل، إن الاعتماد على الشعوب الجهولة في الإصلاح السياسي كالاعتماد عليهم في التطور التكنولوجي، كيف تعتمد في اختيار قائد بلدك على من لا تثق باختياره في إدارة دكانك؟

لا يقول عاقل إن (CIA) تقف خلف النار التي اشتعلت في جسد المسكين بو

عزيزي، ولكنها نفخت فيه، لا لتطفئه بل لتؤججه، ليس انتصاراً لمظلوميته بل لتحقيق أهدافها، وأهدافها حتماً لا تحقق أهداف أمتنا، أنى لأهدافها التوسعية الإمبريالية أن تحرر هذه الأمة التي كانت سيدة العالم منذ مئتي سنة فقط؟! أنى لمصالحها أن تلتقي مع إعطاء هذه الأمة حقوقها لتمكنها من مصادر قوتها؟ لقد كانت أمارات الخطة الجهنمية تلوح في الأفق، لكن جماهير الأمة عميت عنها، يؤكد الواقعُ أن شعوبنا غير قادرة على اختيار الشخص المناسب القادر على قيادتها، ولو اختارت المناسب على سبيل الافتراض فإن الولايات المتحدة لن تقف مكتوفة الأيدي لهذا التغيير القادم، ومن ظنها تكتفي بالمراقبة فهو أحمق سيودي بالأمة إلى الهلاك، ومن ظنها تريد مصلحة أمتنا وشعوبنا فهو غير معني بخطابي، إن عدم الوعي بحقيقة الخَطْب قد تَجاوَزَ عَوامَّ الأمة إلى خواصها، ولقد رأينا بعض الأفاضل قد استخفهم الحماس فكانوا يعلنون على الملأ جمع التبرعات لشراء السلاح لثورة المظلومين في سوريا، هم طيبون لكن لم تعركهم المصائب ولم تمعكهم التجارب، أغراهم الباب المفتوح للولوج فما استطاعوا بعدها الخروج، ولم يدركوا أن الباب المفتوح لم يكن سوى مصيدة للعصافير الغافلة التي استنسرت حين رأت الدودة تضطرب في الفخ، ولم يفطنوا لعين الصياد ترمقهم من بعيد، كان عليها أن تبادر إلى خطف الطُّعْم في خفة وعجل وكتمان، لكن الاطمئنان يورث البلادة.

ليس من مصلحة أمريكا استحواذ الأمة على مكامن القوة، وليست أمريكا معنية بحقوق الإنسان بصدق سوى شعارات جوفاء، ولن أضيع وقتي في إقناع من يشكك في هذين الأمرين، إن البحار الحاذق يأخذ للأمر أهبته ويلتزم بإجراءات الأمان ولا يغتر بسكون الريح ودفء الشمس، فرب نسمة عليلة يختبئ وراءها إعصار مدمر، ورب زهرة جميلة يكمن خلف غصنها عقرب حقود، ورب عدو مخادع لم يفتح للظبي في الميدان فرجة إلا وهو يريد الالتفاف عليه، إنه يصطنع الربيع ليغري الفراشات بالظهور بعد أن كانت مختفية في ظلمة اليرقات، إنه يصفق لفوز الجماعات الإسلامية في الانتخابات لا ليؤيدها بل ليشدد الخناق عليها أكثر وأكثر، ولن ينجح مشروع نهضة الأمة إلا بعد الخروج من ربقة العبودية للولايات المتحدة، أما قبل ذلك فأضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.

لقد قتل:

ها هي السنين التسع تمر كلمح البصر، وتحل الذكرى من جديد، إنه (١ مايو) لن أنسى ذلك التاريخ حين وطئت قدماي أرض غوانتانامو، كنت على وشك النوم في زنزانتي ليلاً، وإذا بأحد الإخوة يطرق علي الباب ثم قال في ذهول: قتل!

: من؟

جاء في مخيلتي كل أحد إلا هو، هرعنا جميعاً في عنبر دلتا في المعسكر الخامس إلى غرفة التلفزيون وكان أحد الإخوة قد استطاع فك شفرة الرقم السري وأصبحنا نشاهد قناة الجزيرة مباشر المحرمة علينا، لاحظت هدوءاً غريباً في المعسكر، لم أجد أي جندي قريباً من البوابة كالعادة، وحين ينادي معتقل أحد الجنود لحاجة فإنه يتقدم إليه بهدوء ويخاطبه باحترام بالغ غريب مُصَدِّراً كلامه: (yes sir) نعم سيدي! ثم علمنا لاحقاً أن الجنرال أصدر أوامره للجنود بالابتعاد عن الاحتكاك بالمعتقلين ومعاملتهم باحترام منعاً لأي مصادمات متوقعة بسبب هذا الخبر، ثم أعلنت حالة الطوارئ القصوى في كل القاعدة البحرية وكانت العربات المسلحة وجنود الاحتياط على أهبة الاستعداد لأي ردة فعل محتملة من قبل المعتقلين، كان العالم كله يتداول هذا الخبر، قلت: لن أصدق حتى يعلن أوباما في تصريح رسمي عن ذلك لأنه غالبا لن يحرج نفسه بتكذيب خصومه له.

وماهي إلا دقائق حتى تناقلت وكالات الأنباء عن خطاب عاجل للرئيس أوباما، كان الصمت مطبقاً في الغرفة، حبست الأنفاس وحدقت العيون في الشاشة دون أن تطرف، لن أنسى ذلك المشهد، منصة عليها ميكروفون، يتقدم أوباما بمشيته الطاووسية متبختراً، فهمت من تلك الخطوات المتعجرفة كل الحكاية، ثم أعلن فيها نهاية القصة، كانت الحشود تقفز فرحاً أمام البيت الأبيض تكرع خمر الانتصار على رَجُل أقام الدنيا على رِجْل طوال إحدى عشرة سنة، كانت حياته استثنائية وموته استثنائياً، المليونير الذي ارتضى حياة المساكين، عاش في كهف ودفن في بحر!

قال المحقق لأحد المعتقلين: أراد تسلق ثورات الربيع العربي، لن نسمح له، قطفناه قبل أن يقطف ثمرة ما زرعناه.

رأيت بعض المعتقلين انطوى على نفسه باكياً، وآخرين غرقوا في بحر من الأحزان لم يخرجوا منه إلا بعد أشهر، وسمعت أن بعض المعتقلين في معسكرات أخرى اشتبكوا مع الجنود وكسروا الباب الفاصل بين الجنود والمعتقلين ثم تدخلت قوات الشغب وأنهت القضية سريعاً وبهدوء.

انتهت أغرب قصة في تاريخنا المعاصر، صعدت روح رجل اختلفت عليه الآراء، لاحقته أكبر إمبراطوريتين في العالم، اقتفت أثره الاستخبارات السوفيتية وجيشها الأحمر منذ بداية الثمانينيات ودخلت القوات الأمريكية في صراع طويل معه تجاوز العقد من الزمان حتى استطاعت النيل منه في ٢٠١١ في نفس اليوم الذي وطئت فيه قدماي أرض غوانتانامو، منهم من اعتبره بطلاً وآخرون مجرماً وسيقف الجميع بين يدي الحكيم الخبير ليحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون.

البلتاجي:

كان يزورني المحامي المدني الأمريكي (إريك لويس) كل شهر، كان لدى هذا المحامي اليهودي علاقات قوية مع شخصيات مقربة من صناع القرار في الولايات المتحدة، وهو السبب الذي جعل حكومة الكويت تختاره أخيراً لتسهيل عملية إطلاق سراحي، أخبرني أنه المحامي الشخصي للقيادي الإخواني البارز (محمد البلتاجي) المعتقل في السجون المصرية، كنت أسأله باستمرار عن حاله وأحوال إخواننا في السجون المصرية فابتسم المحامي قائلاً: هو كذلك يسألني دائماً عن أحوالكم.

وبينما هو يخبرني عن الخلافات السياسية في الساحة المصرية ابتسم ابتسامة أزعجتني وهو يقول: حدثني بعض المسؤولين الأمريكان الذين التقوا بالقيادات السياسية الإسلامية في مصر أنهم حين ينفردون باللقاء مع السلفيين فإنهم يطعنون في الإخوان ويعرضون أنفسهم كبديل يرفض المراوغة، وحين ينفردون بلقاء الإخوان فإنهم يطعنون بالسلفيين ويعرضون أنفسهم كبديل معتدل منفتح!

هذه المؤامرات موجودة في التيارات السياسية الأخرى بشكل أعنف لكنها تصبح غاية في البشاعة حين تصدر عمن يرفع راية الدين، فاللهم أصلح الأحوال وألف القلوب.

الثورة السورية:

تقرحت أجفاننا ونحن نرى المذابح في الشام على يد أزلام الطاغية، شهقات الأطفال يختنقون بالسلاح الكيماوي، رجال يدفنون أحياء وهم ينطقون بالشهادتين، آخرون تنتف لحاهم وتشوى جلودهم، أي قلب يحمله زبانية العذاب هؤلاء؟ بل أي عذاب ينتظرهم؟ إن قلب الخائن أقسى من قلب المحتل، وكم يفرح المحتل حين يجد من يفوقه جرماً ووحشية لتتلاشى أمامه جرائمه وتراه الشعوب رحمة أمام طغيان الخائن الذي ما كان ليرتكب جرائمه لولا رضى المحتل به، لقد كنا نتمنى التلفاز ليكون كوة نرى منها العالم الذي عزلنا عنه سنين طويلة، وإذا به عالم مرعب متوحش لا يرحم، كنا نقنت في صلواتنا لهم قبل أن ندعو لأنفسنا، رجعت إلى زنزانتي في حال لا يعلمها إلا الله، لقد جفاني الكرى وشعرت أن بيني وبين النوم مفازة هائلة مليئة بالجماجم والأشلاء، كانت صرخات الثكالى يتردد صداها في أذني، الاستغاثة المرتجفة تهزني من الأعماق، كانت دموعي تسح بغزارة، متى ينام إخواننا في الشام آمنين لننعم نحن بالنوم؟ أما آن لأطفالهم أن يخلدوا لرقادهم على أنغام الأم الحنون بدلاً من فزعهم على دوي القنابل المرعبة؟

وسط هذه اللجة من الأحزان والقهر خيرني الجنود إن كنت أود الذهاب إلى موعد

الاتصال مع أهلي، مقيداً كالعادة وقد وضعوا سماعات الأذن وغطاء العين، قلت للجندي: لماذا تغطي عيني وأذني؟ ما هو الجميل في هذا العالم ليستحق النظر إليه أو سماعه؟ لم يعد هناك سوى الدم والأنين.

لا أدري كيف بدأ الحديث مع أهلي، لكني أتذكر جيداً أن مأساة هذا الشعب البائس قد استحوذ علي، كنت قلقاً على مصير ثورتهم لأني أدرك جيداً أنهم لا يقاومون الطاغية بشاراً وحده، بل هناك العديد من القوى العالمية تعمل في الخفاء لإفشال ثورته السلمية التي تحولت بعد شلال من الدماء وتلال من الأشلاء إلى مقاومة مسلحة، كنت متأكداً أن تفرقهم شيعاً وأحزاباً سيوفر ثغرة يسهل التسلل منها، وأن أصعب مهمة عليهم هو التمييز بين الصادقين والانتهازيين ثم التوحد تحت قيادة واحدة مؤمنة تضع نصب عينها صلاح هذا الشعب الجريح، قلت لأهلي في الاتصال:

بلغوا إخواننا في الشام سلامنا ودعاءنا وأخبروهم أننا نقنت في صلاتنا لهم قبل أنفسنا، قولوا لهم: يجب عليكم أن تعرفوا إخوانكم من أعدائكم، يجب أن تفرقوا بين المسيح ﷺ والمسيح الدجال، يجب أن تفرقوا بين موسى الكليم وموسى السامري، يجب أن تفرقوا بين هارون وقارون، يجب أن تفرقوا بين أحمد بن حنبل وأحمد بن أبي دؤاد، إن الأمة التي لا تعرف أبناءها أمة لا تستحق النصر.

زارني بعدها بأسبوع المحامي العسكري باري وينجارد، دخل علي منتقع اللون وهو يقول: فايز هل قمت بإرسال رسالة للثوار في سوريا؟

ظننته يمزح فأجبته: نعم!

سألني مندهشاً: كيف؟

قلت: عن طريق هاتفي في الزنزانة!

: حقا؟!

رأيت عليه ملامح الجدية: هل أنت تمزح؟

: فايز.. هناك مقطع صوتي لك منتشر بشكل كبير في وسائل التواصل تم رصده من قبل البنتاغون.

استولت علي مشاعر الدهشة وأنا حقاً لا أدري عن ماذا يتحدث: ماذا قلت فيه؟

: تعاطفت فيه مع الثورة السورية وتكلمت عن عيسى والدجال وشيء من هذا القبيل.

عندها تذكرت الاتصال مع أهلي: نعم تذكرت، كنت متألماً لما يحدث للشعب السوري من جرائم فأبديت تعاطفي معهم، ما المشكلة في ذلك؟

: من سجله وكيف انتشر؟

: لا أدري.

: فايز.. أنا أريد مصلحتك، أرجو أن تفهمني جيداً، طلب مني البنتاغون أن أوصل لك منهم رسالة، يقولون لك: توقف عن استخدام التواصل مع أهلك كمنبر تحريضي وإلا فسنوقف عنك هذا الاتصال تماماً.

: باري.. ما الخطأ فيما قلت؟ أي تحريض يقصدون؟

: لقد استمعت إلى كلامك مُتَرْجَماً، ولا أرى فيه بأساً برأيي الشخصي، لم يحتو على ذكر لأي منظمة إرهابية أو دعوة للقتل.

: إذن ما الفرق بيني وبين الملايين الذين يقولون ما أقوله وأكثر وهم خارج غوانتانامو؟

: حكومتنا تتعامل معكم بصورة مختلفة، الكلمة التي تقولونها لها تفسير يختلف عن الكلمة التي يقولها غيركم.

: لقد ادعت هيلاري كلينتون أنها مع الثورة السورية، وأنا قلت الشيء نفسه!

: أنت تعرف كما أعرف أنها ليست مع الثورة السورية، هم مع من يخدم مصالحهم، لذلك أرجو أن تفكر في والديك الذين سيُحْرَمان من صوتك.

وبعد أيام رجع أخ موريتاني من التحقيق وقد أعطاه المحقق ورقة مصورة من موقع تابع للبنتاغون يعنى بأخبار الإرهاب، فيه صورتي وتحتها خبر التسريب الصوتي واتهامي بأني داعية أنتمي لتنظيم القاعدة أحرض الناس على الجهاد!

لا شك أن المحقق يعلم أني مع الأخ الموريتاني في نفس العنبر فأراد أن يوصل لي رسالة مفادها أننا قادرون على صنع مشاكل كبيرة لا قِبَلَ لك بها، بل واتهامك بأمور قد تبقيك في غوانتانامو إلى الأبد.

ويح الشام حين أَنِسَتْ بمن يشجيها بشدوه الكاذب: (أبكي على شام الهوى)، وإذا به يضحك لمن خذلها، ويحها عندما ركنت لمن ارتقى ظهر آلامها حين صفق العالم لمن أغاثها، فلما تحول التصفيق إلى لعنات تبرؤوا منها، ويحها حين اختلف أبناؤها على غنيمة بدر فعوقبوا بهزيمة أحد، وإني أقول اليوم ما قلته بالأمس: إن الأمة التي لا تعرف أبناءها أمة لا تستحق النصر.

نعم لقد أخطأت:

نُقِلْت إلى زنزانة جديدة في أحد العنابر، فرحت بوجودي بين أخوين يحظيان

بسمعة طيبة، لن أذكر اسميهما لحساسية النقاش، سأرمز لأحدهما بسالم، اختطف من باكستان حيث كان يعمل في إحدى المنظمات الإغاثية هناك، باعته السلطات الباكستانية بمبلغ مالي حيث كانت الإدارة الأمريكية تريد جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات من كل الاتجاهات والأفكار حتى لو لم يكن له ناقة ولا جمل في أحداث سبتمبر، اقتحمت القوات الباكستانية بيته في هجيع الليل وانتزعوه من بين صراخ زوجته وبكاء أولاده، كان الحزن مخيماً عليه، والوَجْد قد رسم على عينيه المنكسرتين لوحة حزينة تقطع القلوب، أما الأخ الذي كان عن يساري فسأرمز له بأحمد، كان متفوقاً في دراسته من أسرة ثرية، شاباً ذكياً ترك كلية الطب في سنته الثانية ليلتحق بالجهاد في أفغانستان آخر أيام الروس، يومها كان الجهاد جهاداً في إعلام الدول العربية، أيام التذاكر المخفضة التي تحولت فور طرد القوات السوفييتية إلى ضريبة باهظة الثمن! لقد قضى معظم شبابه في ميادين الجهاد، كان محبوباً لدى الجميع لدماثة خلقه وحلمه الواسع على زلات الإخوة ونوبات الغضب التي قد تعتري بعضهم بسبب الضغط الرهيب الذي يعانونه كل لحظة، لن أنسى ما حدث قبل عدة أشهر حين كانت زنزانتي قريبة منه، دار نقاش بينه وبين أحد الإخوة الذين يصغرونه بأكثر من عشر سنوات حين نصحه بترك سب الجنود الذين يتعمدون إهانتنا وتعذيبنا والاكتفاء بالصبر ومواجهة ظلمهم بإظهار عزة المؤمن وثباته، فالكلب على حد تعبيره لن يشعر بالإهانة إن قلت له: يا كلب، بل على العكس، هو يريد أن يُنْزِلك من علوك إلى سفالته لتنبح مثله، لكن إن فشل في ذلك شعر بحقارته وكرامتك.

لم يتحمل الشاب أي كلمة نصح، وحين الغضب يغيب العقل، أخذ يصرخ قائلاً: احتفظ بنصائحك لنفسك، استاء الجميع من أسلوبه القاسي، ساد الصمت في المكان، لقد علمني الأسر أن لا أواجه غاضباً بالنصح، دعه حتى يهدأ، فليس من الحكمة أن يقودك حرصك على توجيه ملاكم في نزاله لخصمه إلى الوقوف بينهما، التفت إليه فقلت رافعاً صوتي ليسمع الآخر: قال ﷺ: **«من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور العين ما شاء»**، لكني تفاجأت بابتسامته الهادئة التي ارتسمت على وجهه وهو يقول: (لا عليك، الضغط الشديد المستمر الذي يعانيه الإخوة يفتت الصخور الصماء ويفقد العقلاء عقلهم)، ثم استمر في تلاوة ورده من القرآن الذي يحفظه كاملاً منذ صغره.

تعجبت من هذا الحلم الواسع والهدوء الوقور على الرغم من أنه من أكثر المعتقلين الذين يستدعونهم للتحقيق، ليعاني الحرمان من النوم والإهانة والإجبار على البقاء في الوضع الجنيني لأكثر من أربع وعشرين ساعة تقريباً، حمدت الله أني كنت بين

اثنين هادئين من الإخوة العقلاء، فأنا بطبيعتي أكره المشاكل مع الجنود لأنه يفقدني هدوئي وبرامجي التي أحاول جاهداً المحافظة عليها على الرغم من المعاملة الاستفزازية المهينة التي تمارس علينا في كل لحظة.

رجع يوماً من التحقيق بوجه غير الذي ذهب به، وبمجرد أن أطلق الجنود يديه ورجليه من القيود هرع إلى المغسلة ليتوضأ ثم كبر ليبحر في صلاة خاشعة لا يريد الوصول إلى شاطئ، خيل إلي أنه لم ير أحداً منا، كان في عالم آخر، كنت أسترق إليه النظرات، ألمح فيها وجهه تكسوه سحابة سوداء من الحزن العميق، وحين فرغ من صلاته رفع يديه داعياً، رفعهما طويلاً مغمض العينين، كأنه لا يريد أن يرى شيئاً آخر غير مطلبه الذي وضعه بين يدي ربه، أخذت يداه في النزول شيئاً فشيئاً، ثم أطلق تنهيدة عميقة يريد أن يخفف ما في صدره من أعاصير، أطال الجلوس حتى كأنه لم يعد محكوماً بقانون الزمان والمكان، حرت كيف أخفف ما به، رفعت صوتي بالقرآن: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾، حاول أن يخفي بحار الهم في قلبه بابتسامة متكلفة، كنت أعلم أن المحققين قد توعدوه بعزله عن بقية المعتقلين تمهيداً لمحاكمته، لقد أخبرهم بأنه شارك في الجهاد ضد الروس في أفغانستان وطاجكستان وضد الصرب في البوسنة، وضد الاحتلال الأمريكي لأفغانستان، كانت تغشاه غيمة من الحزن كلما تذكر لحظة الإيقاع به غدراً في إحدى نقاط التفتيش، كان يردد: أردتها شهادة وأرادها الله أسراً، رضيت بقضاء الله وقدره.

مرت علينا الأيام والأسابيع ما بين مراجعة للقرآن والأذكار والدروس والتمارين الرياضية، كانت أياماً جميلة حقاً، كانوا يستدعونني إلى التحقيق كل أربعة أيام تقريباً لحوالي خمس ساعات في كل مرة، وكذلك كانوا يأخذون الأخ أحمد كل أسبوع لحوالي ثلاث ساعات، كنت متأكداً من وجود سماعات تسجل كل أحاديثنا.

وفي ليلة من الليالي الجميلة النادرة بهدوئها حيث كانت فرقة (النخلة) المعروفة بهدوئها هي المسئولة عن العنبر جلسنا نحن الثلاثة أنا وسالم وأحمد نتسامر عن قوة الإسلام وضعف المسلمين، أبحر بنا الحديث في مركبه فحملتنا الأمواج إلى الأعماق دون أن نشعر، ذكر لنا أحمد شيئاً من قصصه العجيبة التي لا تمل، حدثنا عن صمود الشعب الأفغاني أمام أكبر امبراطوريتين في العالم، أرجع ذلك من وجهة نظره إلى تقدم العلماء في الصفوف الأولى لمواجهة المحتل وعدم الاكتفاء بإصدار الفتاوى من البروج العاجية، ووقوف قادة القبائل صفاً واحداً في وجه الاحتلال وعملائه.

ثم عرج بنا إلى طاجكستان حين استفادت الحركة الإسلامية فيها من ضعف القبضة الأمنية الشيوعية بسبب هزيمة السوفييت في أفغانستان، وبمجرد تفكك الاتحاد السوفييتي

تشكل (حزب النهضة الإسلامية) الذي واجهته قوات الرئيس (إمام علي رحمانوف) بالحديد والنار، فاندلعت شرارة القتال من عام (١٩٩٢) حتى (١٩٩٧)، استنجد فيها (حزب النهضة) بالمجاهدين في أفغانستان الذين قاوموا ببسالة العنجهية الشيوعية حتى بلغ الحزب مشارف العاصمة (دوشنبيه)، هنا بدأت المفاوضات والتنازلات من الحكومة الشيوعية الموالية للسوفييت فوافق رئيس الحزب (عبد الله نوري) على اتفاقية سلام مع الحكومة لتقاسم السلطة، وأعلن تبرؤه مما أسماه (عنفاً)، آمراً من استنجد بهم مغادرة البلاد فوراً، فاستجابوا لطلبه وخرجوا محبطين متوجهين إلى الشيشان لمواجهة الاحتلال الروسي وقد خلفوا وراء ظهورهم السجون التي قد امتلأت غدراً برجال حزب النهضة.

كان حديثه ممتعاً عن البوسنة، إنها جبال (٧٠٢) و(٧٠٦) و(٧٢٦) والتي كانت تسمى أيام الحرب العالمية (بوابة موسكو) لموقعها الاستراتيجي، كان الصرب يتمركزون على قممها ليمطروا القرى البوسنية المسلمة بوابل من القذائف وطلقات (الشلكا) التي سقط جراءها الكثير من الأبرياء، استصعبت هذه القمم على الجيش البوسني فطلب الجنرال من المجاهدين العرب اقتحامها، استجابوا فوراً قائلين: (لمثل هذه المهام قدمنا أرضكم)، أخذ أحمد يحدثنا عن كتيبتهم التي تقارب الأربعمئة مجاهد فيهم بوسنيون وبضعة أتراك وأغلبهم من العرب، أخبرنا كيف تفرقت الكتيبة قبل موعد العملية بيوم في بيوت القرية أسفل الجبال، والتي احتفت بهؤلاء الغرباء الذين قدموا لنجدتهم، كانت العوائل البوسنية تَنْظُرُ بإعجاب وتقدير لهؤلاء الفتية الذين يضعون أرواحهم على المحك فوق هذه الجبال الشاهقة المحصنة بالجيش الصربي العنيد، حدثنا عن الحرج الذي عانوه وهم يمتنعون بخجل عن مصافحة الفتيات اللاتي أتين بفرح غامر يحيونهم ويشكرونهم على تضحياتهم، لكنهن تقبلن الأمر برحابة صدر حين عرفن البُعْدَ الديني للأمر، مروا في طريقهم على وحدات من الجيش البوسني الذي تراجع عن مواقعه ليحل مكانهم إخوانهم في الدين، بدت عليه الدهشة وهو يقول: استغربت حين رأيت في أيدي بعضهم زجاجات الخمر، نظر إلي أحدهم وهو يراني متوشحاً بشريط طويل من الطلقات، وخلف ظهري حقيبة مليئة بقذائف (RPG)، أخبروه أني قدمت من بلدي البعيد لأدافع عنه، تقدم إلي وعانقني وهو يجهش بالبكاء، كان بكاؤه مليئاً بالمشاعر والرسائل التي لا تستطيع الكلمات التعبير عنها، كان يحدثني بالبوسنية التي أفهم منها شيئاً لا بأس به: أرحلت عن بلدك لتدافع عن بلدي؟ تخوض الوحول والغابات متسللاً بين أنياب الموت لتهب لنا الحياة؟ كان صوته المتهدج يهزني من الأعماق، ثم أشار بسبابته إلى السماء وزجاجة الخمر بيده الأخرى قائلاً: لا إله إلا الله، ثم عانقني مرتعشاً من البكاء!

التفت إلي أحمد وقد بدت عليه علامات التأثر، ثم قال: من أجل هذه الكلمة

العظيمة أنا مستعد لبذل روحي وما أملك دفاعاً عمن يقولها وإن كان سكيراً أو زانياً!

تملكتني الدهشة والاستغراب وأنا أسمع أحمد يقول ذلك، تذكرت بعض الدعاة الذين كانوا ينهون الشباب المسلم عن الدفاع عن الشعب البوسني بسبب بعده عن الدين، وأنهم أحوج إلى الدعوة منهم إلى الجهاد، والعجب أن هؤلاء الدعاة يتهمون أمثال أحمد بالغلو والتكفير بينما هم يتخلون عن الشعب البوسني يواجه مصيره المرعب بسبب معصيته!

حدثنا كيف تسللت المجموعات في جنح الظلام وسط الغابات الكثيفة، كل واحد منهم يمسك بطرف ثوب الذي أمامه، أخبرنا أنه كان يقرب كفه إلى عينيه فلا يراها من شدة الظلام، حتى اقتربوا من خنادق الصرب على بعد عشرين متراً أو أقل، كانوا يشمون رائحة سجائرهم ويسمعون همهماتهم، ومع شهقات الفجر الأولى صلوا صلاتهم إيماءً ثم انغمسوا فيهم، وما هي إلا سبع دقائق بالتمام حتى انتهى كل شيء، انتهت قصة القمم الثلاث الشاهقة، تحطمت بوابة موسكو وتنفس أهالي القرى المسلمة الصعداء، أخبروا الجنرال البوسني الذي كان ينتظرهم أسفل الجبل بالأمر.

: لا أصدق، حسمت المعركة في سبع دقائق؟ محال.

ارتقى الجبال الشاهقة، رأى بنفسه جثث الصرب وأسراهم مصفدين بالأغلال، هاله المشهد، قال لهم في ذهول: أنا مسلم بالفطرة لكني بعد أن رأيت ما رأيت أدركت أنه لا شيء أعظم من الإيمان.

ثم رفع سبابته إلى السماء وهو يقول: الآن أقولها من قلبي (لا إله إلا الله)!

كنا نستمع إليه في ذهول وهو يحكي لنا تفاصيل معركة (الفتح المبين) و(الكرامة) و(بدر البوسنة)، فعلمت أنه لو أدركت أمتنا سر قوتها لن يقف أمامها أحد.

حدثت قصة عجيبة أخبرني بها أحد العاملين مع المنظمات الإغاثية التي هرعت لنصرة الشعب البوسني، حصل هذا الإغاثي على ورقة رسمية تثبت أنه يعمل ضمن منظمة الأمم المتحدة، وهي الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها الدخول إلى سراييفو في زمن الحصار عام (١٩٩٢)، وكانت الإجراءات المتبعة هي أن يكون كل من يعمل تحت مظلة الأمم المتحدة يتمتع بحمايتها، فركب في إحدى دبابات الجيش المصري الذي كان يشارك آنذاك ضمن البعثة العسكرية التابعة للأمم المتحدة، استوقفتهم نقطة تفتيش فرنسية تابعة هي كذلك للأمم المتحدة، طلبت من هذا الإغاثي إبراز هويته، لكنهم بعد أن تأكدوا منها طلبوا منه الترجل من الدبابة، رفض قائد المجموعة المصري ذلك لعلمه بأن البعثة الفرنسية كانت منحازة للصرب، كما قامت بتسليم الكثير من المسؤولين في

الحكومة البوسنية للصرب بالطريقة ذاتها، لكن الضابط الفرنسي أصر على ذلك، اشتد الجدال وعلا الغضب فأمر الضابط المصري جميع أفراده بسحب أقسام رشاشاتهم والاستعداد لإطلاق النار، ارتعد الفرنسيون من ردة الفعل غير المتوقعة، رفعوا الحاجز على الفور وسمحوا لهم بالمرور، وحين ابتعدوا عنهم أخذ الضابط المصري شريطاً ووضعه في مسجلته ليتفاجأ الإغاثي بصوت المنشاوي يملأ الدبابة بترتيله العذب!

ثم انطلق سالم يحكي لنا ما رآه من فرحة المعوزين بالأعمال الخيرية، وذكر أن أشق ما يعانونه هو اختيار الثقة الأمين الذي يحفظ أموال المتبرعين ويضعها فيما خصصت له، أخبرنا بما قاله للمحقق الذي كان يتهم المنظمات الإسلامية بدعم ما يسمى بالإرهاب: أعرف منظمة خيرية يذهب أكثر من سبعين بالمئة من أموالها إلى الموظفين فيها، طار فرحاً وهو يسأله: ما اسمها؟

فذكر له اسم إحدى المنظمات الخيرية الأمريكية المشهورة فوجم وقد أسقط في يده!

وبينما هو يحدثنا إذ انقلب حاله فجأة فتمعر وجهه واكفهر في صمت قطع علينا هذا الجو المفعم بالرحمة، ثم قال في نبرة منزعجة: كل هذا توقف بعد هذه الأحداث التي تعصف بالأمة، دارت حماليق عينيه وهو يوجه سهامه إلى أحمد: ألا تدركون أن القتال لن يجدي نفعاً؟

أجابه أحمد بتحنن: وماذا عسانا أن نفعل ونحن نرى الصهاينة يرتكبون أبشع الجرائم في حق الأبرياء من أبناء أمتنا؟ ألا تعني لك دماء محمد الدرة شيئاً؟

: فلتهاجموا الصهاينة لا البلد البعيد.

: بيننا ألف سياج يحول ومليون حارس يجول، عجزنا عن اليد التي تخنق فركلنا الساق التي تسند، ألا يحق لهذه الشعوب أن تطرد المحتل من أوطانها؟

: ليس من حق المظلوم أن يُدْخِلَ غَيْرَه في ورطة دفاعاً عن ظُلامته.

: ما الذي تنقمه علينا يا سالم حتى أفهمك؟

: أنقم عليكم خمساً.. التفجيرات في بلاد المسلمين والتكفير وقتل الأبرياء وتبعات مقاومتكم التي ندفع ثمنها وتهوركم في مواجهة غير متكافئة مع عدو باطش.

: أما التفجيرات في بلاد المسلمين فأنا أبرأ إلى الله منها، وكثيرون يرون رأيي، فبأي حق عممت حكمك على الجميع؟ كان رأيي أن نصبر على ظلم حكام بلاد المسلمين مهما يكن الأمر، مهما عذبونا في غرف التحقيقات المظلمة، لابد من الصبر

لأننا لن نجني من ردود الأفعال والرغبة في الانتقام سوى الخسارة، وأما التكفير فقضية فكرية غير مرتبطة بالجهاد، هناك من يبالغ في التكفير ولم يجاهد في حياته قط، وهناك من قضى عمره في الجهاد ولا يتجاوز الشرع في التكفير، كما أن هناك الكثير من النقاشات حول التكفير بين المجاهدين أنفسهم، فليس الأمر متفقاً عليه بينهم كما تظن، لكننا نعاني من أولئك الذين ينظرون من بروجهم العاجية ويجبنون عن النزول في الميدان لإصلاح الخلل وترميم العطب.

قلت: أراها مسألة مهمة تحتاج إلى بسط، لقد تعرفت في المعتقل على الكثير من المجاهدين فوجدت أكثرهم لا يتوسع في التكفير، لكن طبيعة الصراع العنيفة التي يعيشونها كل يوم وتعاملهم المستمر مع السلاح والحديد قد يجعل طبائعهم تتأثر بصلابة الحديد كما هي طبيعة الإنسان حين تتأثر بمحيطها فتجنح إلى الغلو، لذا وجب أن يكون هناك منهج فكري واضح يلجم الغلو الجموح من النفوذ داخل صفوفهم كي لا يخسروا أمتهم التي هي محور الصراع، من كسبها في صفه انتصر في المعركة، فمنهج الغلو غير قابل للحياة ومن السهل على ذوي النفوذ استغلاله في التكفير السياسي الذي يستغل الدين لتصفية الخصوم، أرى العمل على تصحيح الانحراف أولى من الانشغال بالحكم على المنحرف إلا ما ثبت شرعاً بيقين لا يحتمل الشك في ثبوت النص ودلالته كاليهود والنصارى وما أجمعت الأمة على خروجه من دائرة الإسلام، لقد أخبر الله نبيه بالوحي الصادق أن عبد الله بن أبي بن سلول منافق وأن معه اثني عشر رجلاً مردوا على النفاق لكنه لم يخبر الصحابة بحكمهم إلا حذيفة سراً، مع أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، لكنه ﷺ يعلم أنه لا يجب أن يعرف الصحابةُ حكمَهم بل يكفي معرفة الانحراف الذي وقعوا فيه، فإذا كان لا يلزم الرسول إخبار أمته عمن خرج من الإسلام بالوحي الصادق فكيف بظنٍّ غير المعصوم عن خروج شخص من الإسلام بنص يحتمل التأويل؟ وكما ترى يا أحمد أن كل المذاهب والطوائف والأديان تمارس التكفير، بل حتى الملاحدة يمارسون مصطلحاً موازياً للتكفير وهو الاتهام بالإرهاب، والذي يفوق خطر التكفير بمراحل، إذ الخطورة تحددها العواقب من الاستهداف بالقتل والاعتقال، لكن العيون المتربصة بأخطائكم تتعامى عن جرائم غيركم فوجب الحذر من تطرق الغلو الذي ما أن يترك حتى يتحول إلى وحش يفتك بك قبل غيرك.

تابع أحمد: أما قتل الأبرياء كأطفال الغزاة ونسائهم غير المقاتلات والرهبان وغيرهم ممن لا يشارك في قتالنا فقتله حرام ابتداء، فإن كان من باب رد العدوان بمثله أجازه بعض العلماء، لكني أميل إلى عدم الجواز ولو كان من باب الرد بالمثل، لأن قتل هؤلاء الأبرياء محرم النوع كتحريم اغتصاب نسائهم، أما الاستدلال بقوله تعالى:

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فالمقصود عقوبة المعتدي نفسه وما يملكه من مال وما أشبه وليس ولده أو امرأته أو من لم يشارك في قتالنا، وهو مستنبط من الآية نفسها في قوله: ﴿فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾، عليه هو لا غيره، وكما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، ثم قل لي بالله عليك من في العالم يَحْمِلُ هذا الخُلُقَ الذي ينهاه عن رد العدوان بمثله؟ أم أي جيش لا يسفك دماء الأبرياء في حروبه؟ أم أي حركة تحررية لا يؤزها جرحها الدامي للانتقام؟ ووقوع الضحايا أمر حتمي في كل صراع، قد وقع في خير القرون، لكن الجريمة حين تقصدهم ابتداء، لا مناص للمدافعين عن أنفسهم من أن تطيش منهم طلقة أو تندّ شظية، ولو افترضنا أن هناك من يرى بالقول الأول فإن العجب أن يلام من رد العدوان بمثله لا من ابتدأه، وهذا والله حيف وجور، يقتلون أبناءنا ونساءنا بدم بارد، يهدمون بيوتنا فوق رؤوسنا بقلب جامد، فلا نسمع للعالم ركزاً، وإن فعلنا بهم قطرة من بحر ما يفعلونه بنا كل يوم هاج العالم وماج، إنه لعالم ظالم متوحش لا يرتجى منه العدل، هب أن عصابة تحتجز رهائن من الأطفال والنساء في مجمع سكني ولا تستطيع القوات الخاصة اقتحام المبنى إلا بتعريض حياة الرهائن للخطر، لا توجد سلطة في العالم تتهاون في حسم الأمر ولو بسقوط الضحايا، لأن استمرار عملية الاحتجاز يعرض الأمن القومي للخطر، هذا ما تؤمن به كل حكومات العالم فلماذا تعترض علينا تحديداً؟ أي مروءة تلك التي تجعل كل دول العالم يحتفون بالرؤساء الدكتاتوريين والجنرالات القتلة الذين سفكوا دماء الآلاف من الأبرياء بينما ينظرون بريبة لشاب رحل ليدافع عن المظلومين؟ لا تكن يا سالم كأولئك الذين يحترمون القوة لا الحق، فجريمة القوي مبررة دائماً بينما يُجَرِّمون دائماً دفاع الضعيف عن نفسه.

وأما تبعات المقاومة فإن سياسة الطغاة واحدة من فرعون الأمس حتى فرعون اليوم في شد الخناق على بني إسرائيل المستضعفين للضغط على موسى الذي بعث لتخليص قومه من الاستعباد، فما كان جواب فرعون إلا أن قال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾، فقالوا لموسى متضجرين من ثمن الخلاص الباهظ: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾، لقد ضاق قومه بتبعات النصر وتمنوا لو انفرد موسى وحده في دفع تكاليف المواجهة ليستمتعوا هم بحلوى النصر المجاني، حتى حماس التي نتفق جميعاً على عدالة قضيتها تقوم بالشيء نفسه، ألم يقع في هجماتها ضحايا من الأطفال الذين لا ذنب لهم؟ ألم تتسبب هجماتها في التضييق على الدعاة وسجن الأبرياء رجالاً ونساء وهدم بيوت الأسر التي آوتهم؟ ألم يقتلوا الجواسيس ويجروا جثثهم في الشوارع ليكونوا عبرة؟ لماذا أبرر هنا وأهاجم هناك؟ لقد تسببت بعض عمليات المقاومة الكويتية التي أؤمن بعدالة قضيتها بسقوط ضحايا أبرياء بالخطأ، لقد

تسببت باعتقال آخرين وتعذيبهم حتى الموت وهم لا علاقة لهم بما حصل، كل الحروب التي تشنها جيوش عربية أو غربية تقع فيها الضحايا، لماذا نخرس هنا ونثرثر هناك؟ يجب أن نحتكم إلى معيار واحد يلتزمه الجميع، بل أستطيع القول بأن الأمة لم تعان الويلات كما عانتها من جراء الربيع العربي، إن التضييق على الدعوة وعدد القتلى والمعتقلين والمعذبين فيها يفوق كل ما حصدته الأمة من تبعات مقاومة المحتل، إضافة إلى حالة الانتكاس التي تبعت الثورات الفاشلة عكس تبعات مقاومة المحتل التي يعقبها قوة وإصرار في المطالبة برحيله، فلتعارض الثورات أيضاً أو فلتصمت، إن عجزنا عن العدل في الحكم فلا أقل من السكوت، والسؤال المهم هو من الذي يتحمل ضرر رد العدوان: الظالم أو المظلوم؟ الغارق في المثاليات لا يدرك صعوبة الأمر.

قال سالم: أما أنا فلا أعدل بالسلامة شيئاً، سأعتزل الصراع برمته.

أجابه أحمد: لن تكون سلامة بل استسلاماً لعدو لا يعرف معنى الرحمة، استسلاماً ثمنه الذل والهوان ودماء الآلاف من الأبرياء والمغتصبات، ليطاردك تهديد ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾.

أما التهور في مواجهة غير متكافئة فأي حركة تحررية انطلقت قوية؟ وكيف تقول ما تقول وأنت تدعم إخواننا في حماس وهم يواجهون إسرائيل النووية المدعومة من أقوى جيش في العالم؟ ولو عمل الشعب الأفغاني بما تقول فاستسلم للجيش السوفييتي الباطش لرأيت جنوده اليوم يتسكعون في شوارع الدول الخليجية، ولبقيت شعوبنا العربية ترزح تحت الاحتلال الغربي المباشر.

عَمَّ صمتٌ صاخبٌ تدوي كلماته من غير صوت، أخذ أحمد يقطع زنزانته مشياً، خطوتان إلى الأمام وخطوتان إلى الخلف، بينما بقي سالم جالساً على الحصير البالي مطأطئ الرأس عابس الوجه، أقبل سالم بوجهه عليه وقد أدخل أصابعه في فتحات القضبان الفاصلة كأنه يستحضر لحظة اقتحام بيته وانتزاعه من أسرته، يستحضر هلع زوجته وصراخ أطفاله، ثم قال غاضباً: لقد تمت مهاجمة كل الأعمال الإغاثية في العالم باسم مكافحة الإرهاب.

: اللوم على من هاجمها لا من دافع عن نفسه.

: نحن ندفع ثمن حماقات المتهورين، صار الغرب يلاحق المؤسسات الإغاثية والجماعات الإسلامية بتهمة الإرهاب.

: وهل تريد منهم أن يتوقفوا عن نصرة المستضعفين الذين يُقْتَلون من أجل مشروع إفطار صائم قمت به في الموزمبيق؟ ثم أخذ يرفع صوته متهكماً: يا أيها المظلومون

توقفوا عن رد عدوان المجرمين لأن حضرات السادة هؤلاء يريدون حفر بئر في بوركينا فاسو ولا يريدون أحداً أن يزعجهم أو يستفز المجرمين عليهم.

حاولت أن أخفف من حدة النقاش الذي ارتفعت درجة حرارته: لماذا الاختلاف بينكما؟ كلاكما يقوم بدوره في مساعدة المتضررين قدر استطاعته.

قال وهو يشير إلى سالم: لم أر في حياتي وزارة بلدية تهاجم وزارة الدفاع لأنها تسببت في الإضرار بها حين ردت العدو! أرجوك يا سالم لا تقارن حفر بئر وبناء مسجد ومائدة إفطار وقراءة كتاب بمن يواجه الموت مكشوف الصدر، إن حفر البئر لن يدفع عنك ناب الذئب ومائدة الإفطار لن تحرر أرضاً محتلة ومحراب المسجد لن يرجع حقك المسلوب، سيغتصب العدو بئرك وسيحول مسجدك مرقصاً يحتفل به بانتصاره عليك وتكون وليمة نصره ما أعددتها لتكون مائدة إفطار، في أوقات الخطر تكون الأولوية للأمن، لا تستعلي علي بحفر بئر وأنت تراني أشق قناة إلى النهر ليتدفق منها سيل يغني القرية عن بئرك، عين عمياء تلك التي تبصر اليد التي تقدم لها كأس الماء ولا تبصر اليد التي تشق لها القناة، ما نريد تحقيقه أعظم بكثير من بئرك يا سالم، حين تحيط الذئاب بابنك الجائع ستكون العصا خيراً من الرغيف، وحين يجتمع الخوف مع الجوع يتلاشى الجوع يا سالم، لكنك لم تعرف معنى الخوف، إنك لم تجرب المشي بين الجثث ولم يحش أنفك الدخان الممزوج بالغبار، إنك لا تعرف طعم البارود حين يملأ جوفك، هل صَمَّتْ أذنك يوماً بدوي القذائف؟ وهل هَزَّك أزيز الطائرات؟ إنك لا تعرف يا سالم شيئاً سوى عالمك الصغير المحصور ببئر ماء ومائدة إفطار لِتُقيِّم بها كل أحداث العالم، أنا لا أطلب منك مساعدتنا في رفع أحذية الغرب عن رقبة أمتنا لكن لا تكن عوناً لهم علينا على الأقل، لا تَفُتَّ عزائمَنا التي أنهكها خذلان الأصدقاء أكثر من بغي الأعداء.

هنا انفجر سالم غاضباً: أنتم السبب في كل ما جرى للأمة، كم مسلم أهين في مطارات الغرب، كم مسلمة خلع حجابها بسبب حماقاتكم، حتى الدعوة تم تحجيمها بسبب تهوركم وطيشكم، كلما وطأتم أرضاً حل بها البوار، أنتم كما قالت ملكة سبأ: ﴿إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾!

كانت يداه ترجفان وعيناه كأنهما بركانان يقذفان بالحمم، بينما لاذ أحمد بصمت طويل يخفي وراءه صدمة وذهولاً أفشت سرهما ابتسامته التائهة وعيناه الجاحظتان، لم يستطع سالم كبح جماح غضبه على من يراه سبباً في أَسْرِه وفراقه عن أسرته، من الواضح أنه كان يحاول كظم غيظه حتى حانت تلك اللحظة التي انهدم فيها السد واجتاح الطوفان تلك العلاقة الأخوية التي كانت تجمعهما من قبل، فأفسد فيها ما أفسد

وأغرق ما أغرق، إن كلمة جارحة من أخ أشد إيلاماً من سيف قاطع من عدو، هذا ما كان يشعر به أحمد، كان مستمراً في خطواته التي بدت ثقيلة وهو يقطع زنزانته الصغيرة، توقف أمام النافذة متأملاً، شعرت أن معركة تدور رحاها في صدره، ثم قال بعد صمت طويل: صدقت أخي سالم، أعترف أني أخطأت!

ساد صمت رهيب يحمل بين رهبته حزناً يمزق القلوب، لم يكن متوقعاً أبداً أن يقر أحمد بالخطأ، أدرك تماماً أنه من الصعب أن تتخلى عن فكرة ضحيت من أجلها بالغالي والنفيس، من الصعب أن تلتفت لماضٍ مَليء بالآلام والجراح والتضحيات والأحبة الذين قضوا في ذات الطريق ثم تلقي على كل ذلك نظرة وداع وتمضي، كان لا يزال ينظر إلى النافذة بعينين ذابلتين وملامح وجه حزين يخفي الكثير مما لا يقال.

لقد كان حديثاً أي حديث، حديثاً ثقيلاً تئط به روح حاملها، لا زال أثره يعمل في نفسي حتى اللحظة، لقد سَفَّت على كلماتها ريح الزمن لكن أطلال معانيها لا زالت باقية في ذاكرتي بقاء الألم والحزن الذي صبته فوقي صباً، كنت أرمق أحمد وهو يتأمل من النافذة وعيناه غارقتان في الظلام، غارقتان في ألم الخذلان والحزن الذي يشعره المُغيثُ حين توصد في وجهه الأبواب كأنه لص، لقد قرأت في الدمعة المترددة في مقلتيه ألف كتاب، انخفضت نبرة صوته الحزين وكأنه يخاطب نفسه، لعله لم يجد له مواسياً بعد الله إلا نفسه فتوجه بكلامه إليها، كان يردد: نعم لقد أخطأت!

تراه ماذا ود أن يقول؟ لقد كنت أسمع عينيه تقولان: لقد أخبرتني الأفعى أنه كان الأجدر بي أن ألزم بيتي ولو على حساب تهجيركم من بيوتكم، وأن أبني مستقبلي ولو على حساب هدم حاضركم وماضيكم، وأن أطعم أطفالي ولو من ثمن قتل الآلاف من أطفالكم، فإن لم أذعن لأوامرها الصارمة سجنتني في جزيرة الرعب آخر العالم، لتتناوشني الأرواح الشريرة ويَعُبَّ من دمي ألف مصاص للدماء، كان الأولى أن أذعن لكني لم أذعن، لقد أخطأت، كانت الأفعى تنقض كل يوم على ضحية منكم تلتهمها، لكن الأبشع من كل ذلك انحناؤكم أمامها مرتعدين وأنتم تسمعون صوت أنين الضحية ممتزجاً بفحيحها، وحين واجهناها بصدورنا العارية كادت قلوبكم أن تنخلع هلعاً ففررتم إلى ما وراء الوراء، وودتم لو أنكم بادون في الأعراب تسألون عن أنبائنا، رأيتمونا نتلوى جوعاً ويتلهب جوفنا عطشاً وتَثْعُبُ جراحنا دماً لكنكم أشحتم بوجوهكم عنا وتركتمونا نموت وحدنا، ولما قيل لكم: ﴿تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾ قلتم: ﴿لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾، صيح بكم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ فأجبتموه بقلوب مذعورة: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، فَحَلَّ عليكم الغضب وحُرِّمَت عليكم سنين عدداً تتيهون في أرض الشتات، فاعتذرتم بقلوب مُصِرَّةٍ على

الخذلان: ﴿شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ﴾، رأيتم الإسلام متلبطاً أمامكم بدمائه، مذبوحاً بآلامه، فقلتم عند رأسه: (للبيت رب يحميه)، أما القادة فسجدوا لهبل حامل الشعلة وقدموا شعوبهم له قرابين، وأما الغوغاء فرقصوا على أنغام نشيدها الوطني، وأما العلماء فكتبوا بأقلامهم العمياء أن الأفعى هي الوارث الشرعي للنجاشي، وكنتم تشيرون بأصابعكم إلى بيضتها النجسة في الأرض المقدسة، تتوعدونها بأن أحفاد أحفادكم سيرمونها في البحر لتكون طعاماً للأسماك، وأصدر العلماء فتوى أن جهاد البيضة فرض عين على الأحياء والأموات، أتدرون سبب جرأتكم على البيضة وهلعكم من الأفعى؟ لأن البيضة ترفع نجمة واحدة بينما ترفع الأفعى خمسين نجمة ترعبكم حتى في كوابيس أحلامكم، إن يوشع لن يأتي براية النصر إلى قلوب مهزومة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾، ألا تباً للعبيد الذين يرقصون على أنغام أغلالهم، الذين يستصعبون تكاليف الحرية ويرضون أن يذبحوا كل لحظة من ميلاد عبوديتهم إلى آخر الدهر.

لقد بحثتم فينا عن واقد التميمي يقتل ابن الحضرمي في رجب المحرم، وفتشتم بيننا عن خالد بن الوليد يسرف في بني جذيمة لتسقطوا بخطئه حق المهاجرين والأنصار في الدفاع عن المعذبين عند قريش، ولم تقبلوا منا دعاءنا: اللَّهُمَّ إنا نبرأ إليك مما فعلوه، فلا بغي العدو صددتم ولا خطأ الصديق أصلحتم، دلوني على مسجد ليس كذاباً بين عامريه، أو مشروع إغاثي ليس مختلساً بين عامليه، بل دلوني على مستشفى لم تزهق فيه روح عليل بزلة؟ بل أرشدوني إلى مدرسة تخلو من معلم فاسد أو مركز شرطة لا يحوي شرطياً مرتشياً؟ أي طبيب لم يخطئ في تشخيص مريض ملقى بين يديه؟ أم أي جيش لم يسفك دم بريء في صراعه حقاً أو باطلاً؟ فهلا أغلقنا لهذه الأخطاء المستشفيات وهدمنا المدارس وساوينا مراكز الشرطة في الأرض؟ فيا خيبة زمان تستدل فيه الميكروبات على نفعها بأخطاء المستشفيات، لكن زلات العاملين عزاء القاعدين.

أنتم لا تسمعون صوت الحب من قلب مشفق لكنكم تنصتون جيداً لصرخة الغضب من ظالم متجبر، وتحتقرون يد الطبيب التي تضمد جراحكم لكنكم تحترمون ساطور الجزار الذي يمزق أشلاءكم، وتستهزئون بتغريد البلابل عند تنفس الصباح لكنكم ترتعدون من دوي العاصفة في رهبة الليل، قذفت بنفسي في لجة الموت أصارع الأفعى من أجلكم فكنتم تشيرون إلي بأصابعكم من بيوتكم الفارهة قائلين: انظروا إلى هذا المتطرف المتسخ بدمائه القذرة، وما كانت دمائي إلا ضريبة حبكم، رأيتموني أسير وحيداً في الأودية المظلمة فقلتم ساخرين: انظروا إلى هذا المشرد المنبوذ المدفوع بالأبواب، وما كان تشردي ذلك إلا لأني رحلت أبحث عن كرامتكم المفقودة، كنت

أجوع لتشبعوا وأظمأ لترتووا وأخاف لتأمنوا بينما كنتم تسكرون من خمرة دمائي وتنهشون من لحم عرضي، رأيتموني معذباً في زنزانتي الانفرادية فصحتم غاضبين: اتركوا هذا الإرهابي يموت في سجنه، ولم يكن ذنبي إلا أني أرهبت من أرهبكم وعاديت من عاداكم، لقد آثرنا أن نباع في سوق النخاسة على أن نبيعكم في نفس السوق، آثرنا أن يصب علينا ألف لون من العذاب على أن تشاكوا بشوكة، آثرنا أن نحرم من أهلنا سنين طويلة على أن نخذل دمعة واحدة تنهمر من عين أم مفجوعة بولدها أو زوجها، آثرنا أن نهدم مستقبلنا لبناء مستقبلكم، آثرنا أن نهين كرامتنا لنحافظ على كرامتكم، آثرنا أن نشرق بدموعنا ونبصق دماً لتعيشوا حياة كريمة آمنة سعيدة، لقد حدث لنا كل هذا لأننا نحبكم وفي طيف أحلامنا كنا نترنم بذكركم.

كل هذا لمحته في بريق عينيه، التفت إليه فرأيته يبتسم ابتسامة متعبة، وإذا بدمعة تتسلل خفية فضحها الخط اللامع على وجنتيه، كانت دموعه تغسل عينيه من أحزانهما، لأول مرة أرى أحمد في هذه الحال، أحمد المتفائل المبتسم دائماً. صاحب الروح المحلقة والخلق الرفيع والأدب الجم والحكمة التي حصدها من خبرات السنين وأيام الشدائد، لقد كان يبتسم لكني شعرت أن روحه كانت تبكي، كان قلبي يخفق بشدة، أشعر تماماً بما يختلج صدره هذه اللحظة، كنت أسمع حديثه المؤلم من نظرات عينيه وخفقات قلبه وزفراته المتوجعة، كان يقول: ما ضرنا لو عشنا كما الناس، نبدأ يومنا بشرب كوب من القهوة وننهيه بالتنبؤ عن مستقبلنا في بقايا الفنجان، نصلي ونصوم ونشيح وجوهنا متغافلين عن مآسي المسلمين، نغرق في أعماق الكتب الشرعية باحثين عن مجد أضعناه، نصنع من أوراقها سفينة نجاة، ومن حروفها حراباً تسترد ملكنا الضائع، لماذا نكشف عن صدورنا للتنين حين نراهم يساقون إلى المذبح؟ لماذا ننبري نحن دون غيرنا للدفاع عن هذا القطيع الجاحد الذي سيغدر بنا ويسلمنا للجزار الذي لم يمرر شفرته على رقابنا إلا حين منعناه من سلخ الخراف في يوم عيده؟ لقد كان الأفغان قادرين على مساومة الروس بتركهم يصلون مياه الخليج بسلام مقابل الخروج من أرضهم التي لا حاجة لهم بها سوى جعلها ممراً للذهب الأسود المغري الذي يلوح من بعيد، لماذا ينفر شباب ثائر لرد الثور الأحمر الهائج ليعود موسوماً بالإرهابي المتطرف، ويظل عمره تلاحقه الأعين المرتابة والاتهامات المتوجسة؟

توالت الأخبار بتقدم الجيش الشيوعي الأحمر عبر أفغانستان نحو مياه الخليج الدافئة المليئة بالكنوز، ارتجفت أوصال الحكومات، ازداد قلق الولايات المتحدة من هذا المنافس العنيد على الحمى المباح، تلفتت الحكومات فلم تجد أمضى سناناً من هؤلاء الفتية المؤمنين الذين يقدرون على ما لا تستطيعه الجيوش، أزت وسائل الإعلام

الشباب أزاً للنفير، شرعت لهم الأبواب وخفضت تذاكر السفر، توجهت أنظار النافرين وأفئدتهم نحو البلد المسلم الجريح ولم يتنبهوا إلى ما يحاك لهم من الدسائس، نجحوا في صد أقوى ثاني قوة في العالم، فلما أرادوا الرجوع وجدوا الأبواب موصدة، لقد غدروا بهم حين صفقوا لهم ذاهبين ولعنوهم راجعين، وصفوهم بالأبطال الأشاوس في قاعة المغادرين وبالأفغان العرب المتطرفين في قاعة القادمين، ولقد عاود الخبثاء غدرتهم ففتحت أبواب الشام الجريح لأفئدة مؤمنة تتوقد ثأراً على ظالم متجبر، كانت وسائل الإعلام تنتقد ما أسمته تقاعس الدعاة عن حشد المزيد من الشباب ليكونوا وقوداً للثورة، فما لبثت نفس القنوات أن تولول متهمة الدعاة بأنهم كانوا تجار موت والشباب بأنهم متطرفون حرفوا مسار الثورة، وكأننا فهمنا حديث النبي ﷺ: **«لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»** أنه لا يلدغ مرتين فحسب بل عشراً وعشرين!

لقد ضحى أحمد بكل شيء، تفوقه الدراسي والمنصب المرموق الذي كان ينتظره، تبخر كل شيء، كانت أبواب المجد مفتوحة أمامه فسعى إلى مجد آخر لا يزيله موت، كثيراً ما كان يحدثني عن عشقه للعلم والعمل الإغاثي، أقصى متعته حين يغرق في بطون الكتب لا ينتشله من لجتها إلا ما لابد منه، تغمره النشوة حين يشبع البطن الجائع ويروي الجوف الملتهب، يطير فرحاً حين يمسح رأس يتيمة ترى فيه عوضاً، يرقص جذلاً حين يُقَوِّمُ عوداً مكسوراً ويُنْعِشُ زهرة ذابلة، كان يفعلها من ماله، ماله الخاص وليس فقط من مال المتبرعين، كانت نفسه تدعوه بإلحاح للمكوث على هذه التلة ولا يذهب بعيداً هناك حيث الصراخ المرعب والأنين المتقطع، هناك حيث الموت فاغراً فاه، كان صوت يخرج من أعماقه يدعوه: قف هنا، قف هنا يا أحمد، قف ولا تتجاوز، الكل سيحبك إن بقيت على هذه التلة الخضراء، الكل سيحبك، الكل سيمجدك، هنا خطك المسموح به، ثم لا خطر على هذه التلة، لا قنابل وصواريخ لا أسر أو كسر أو بتر، لا جروح هنا، فلماذا تذهب بعيداً؟ أطعم جائعاً، احفر بئراً، اكس عارياً، أو اقرأ كتاباً واحفظ متناً، لا تلتفت لأولئك الذين يصارعون الموت، لكنه لم يستمع لهذا الصوت، أكمل سيره دون أن يلتفت، لقد كان خلف ذلك الجبلِ الشاهقِ الوعرِ صراخٌ وأنينٌ، كانت أنهار الدماء تتدفق من هناك لتملأ الأودية.

كانت أسواط كلمات عينيه تنهال علي متتالية، وعلى الرغم من أنها كانت مؤلمة إلا أني لم أكن أشعر منها بغضب، وعلى قدر قسوتها كانت تتفجر حباً، كانت كحبات البرد القاسية التي يتحاشاها الناس وتكون بها حياة الأرض بعد موات، نظرت إليه وإذا بعينيه قد اغرورقتا دموعاً، هل هذا أحمد الذي أعرف؟ أحمد الحليم الهادئ الوقور، الذي كنت أخاله يستعرض كلماته قبل أن تخرج من لسانه ثم يلتقط منها الأطيب

ويهذب الشعث؟ أم أن ما أسمعه لم تكن كلمات مجردة، بل مشاعر تتكلم وأحاسيس تتحدث عن آلام قلب عانى الخذلان والنكران، كنت كلما تألمت من وَقْعِ كلماته القاسية على قلبي، ازددت تلهفاً لسماع المزيد؛ وكلما أحدقت بي كلماته وهي تشير إلي بالتوبيخ، أحسست بدفء العاطفة التي يحملها هذا القلب الغاضب الحزين، شعرت أن كل دمعة تنهمر من عينيه كانت تحمل على ظهرها ذكريات مؤلمة تضج بصور أحبابه الذين قضوا حوله، تمتلئ جراحاً، تجر وراءها آهات زمن غابر أبى أن يفارقه، لم يكن قرار الرحيل عليه سهلاً، لكن الأصعب هو قرار البقاء، لأنه يعني الخذلان. لقد رأيت آلام الأمة في عينيه، لقد شعرت بما يعانيه، لقد مضى إليهم لأن قوارع ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٨٧] كانت تفزعه في نومه ويقظته، لقد كانت ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦] كشبح يلوح أمامه متوعداً، لقد تأمل تَخَلُّفَ (كعب) في ظلال نخله عن رمضاء تبوك، كان يستطيع تعويض ما فاته بإغاثة ملهوف وإعانة مكروب، لكنه ظل باكياً لأنه يعلم أن ما فات لا يدرك، كما ظل ذو النورين متدثراً بجلباب الحزن حين تعثر، ولم يطفئ نار ندمه ماء ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾، لأنه يعلم أن بئر رومة لا تطاول شموخ أحد.

: (نعم لقد أخطأت)، هذا كل ما قاله، لكني شعرت بقسوتها، كانت تأخذ بتلابيب قلبي فتهزه هزاً، هزاً متواصلاً بلا توقف، كان صدره يعلو ويهبط، بدا متعباً كأنه صعد في جبل شاهق، لم تزل عيناه محمرتين، مزيج من الضيق والحزن والصدمة، شعرت أن كاهله قد أُثْقِل وهو يريد أن يرمي ثقله بعيداً، ثقلاً حمله على عاتقه سنين طويلة، قطع به الهضاب والوديان، تسلق به قمم الجبال، وخاض به الوحول والمستنقعات، وأنه آن الأوان أن يضعه أرضاً، أن يضع هذا الذي أدمى ظهره وكتفيه وهو متجه به إلى المجهول، (نعم لقد أخطأت)، قالها بحزن عميق شعرت أن كلماته تقطر دموعاً وتحترق بنار لا أدري ما هي.

سمعت دوياً، نظرت وإذا بأحمد قد كسر المغسلة، فعلمت أنه فعل ذلك لينقله الأمريكان من مكانه إلى عنبر العقوبات كما يفعلون بكل من يكسر شيئاً في الزنزانة، لم يتحمل المكوث في هذا العنبر بعد أن سمع من أخيه سالم ما سمع، لقد فضل عنبر العقوبات الرهيب على البقاء، أحس سالم بخطئه، لقد كان قاسياً، كان قاسياً على أحمد أشد من قسوته على السجان، وبعد دقائق وقف أمام زنزانته جنود النقليات، وبينما هم يقيدونه التفت إلى سالم بعينين لن أنساهما ما حييت، كان الأسى يمتزج بقسمات وجهه والحزن يبكي في عينيه، ثم ودعنا بكلمته الأخيرة: سامحوني، أحبكم في الله!

قالها ثم مضى، كان هذا آخر عهدي به، لا أدري هل قال: (سامحوني) لنا أم

للأمة كلها؟ لقد كان بينه وبين أمته قصة طويلة كطول بكائه وآلامه، هل أراد أن يقول لها: سامحيني، لقد كان حبي سبب محنتك، سامحيني فقد حاولت، بذلت جهدي لأصنع شيئاً لذلك النشيج المتهدج خلف التلال البعيدة، كشفت عن نحري أمام ذئب متوحش جاء من مغرب الشمس ليعيث فساداً في الحظيرة، سأرحل بعيداً، سأبتعد عنك لتسمعي صوتي وتريني حينها بوضوح.

كان هذا الموقف هو آخر عهدي به، إنه أحمد، قصة شاب ذكي طموح أراد أن يصنع شيئاً لأمته، فخسر حريته وخسر أمته، لقد علمتني الأيام صدق العبارة: الثائر لأجل مجتمع جاهل هو شخص أضرم النار بجسده ليضيء الطريق لشخص ضرير، وماذا أصنع بالبحث عن قائلها ما دامت حكمة تستحق الإجلال؟

قيل لمن خان (تشي جيفارا): لماذا وشيت به وقد قضى حياته دفاعاً عن حقوقكم؟ فأجابه: كانت حروبه تزعج أغنامي!

هكذا بكل بساطة، هناك الكثير ممن يعتبرون أغنامهم أهم من حرية الأمة ومصيرها، وقد تأخذ الأغنام صوراً شتى من المصالح الشخصية والحزبية، وأياً كانت فهي لن تعدو أغناماً مقارنة بالحرب المصيرية التي تواجهها الأمة، وقد قيل أن (نابليون) حين حكم بالإعدام على (محمد كريم) بعد مقاومة شرسة طلب منه فدية مقدارها عشرة آلاف قطعة ذهبية مقابل إطلاق سراحه، فأبى أبناء وطنه الذين دافع عنهم أن يبذلوها له فأعدمه، كما قيل أن الجنرال (كليبر) طلب من جموع أهل (بولاق) أن يعاقبوا بأنفسهم الثائر المصري (مصطفى البشتيلي) زعماً بأنه السبب الذي جعل الفرنسيين يحرقون بيوتهم ويقتلون أقاربهم ويسبون نساءهم، ففعلوا وقاموا بتجريسه، والتجريس عقوبة قديمة يتم فيها إجلاس المعاقب مقلوباً على الحمار ويطاف به في الشوارع فيبصق عليه الناس ويصفعونه، ثم انهالوا عليه ضرباً بالنبابيت حتى قتلوه!

وماذا يفعل مثلي بهذه القصص وأنا الذي عشت هذه الحقيقة بنفسي؟

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به   في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل

وهل أحتاج إلى قراءة التاريخ وأنا أرى إحدى الدول العربية تقيم حفلة راقصة بعنوان: (على أنغام تورابورا) والحمم تصب على رؤوسنا في الجبال؟

ماذا أصنع بالتاريخ وأنا أراهم بعيني يُدْنون أفواههم ليشربوا من بئر (بَرْهوت) ويأنفون الشرب من طهر (زمزم)؟ ألا يستحق هزيمة يونيو من صفق لعبد الناصر وسماه ملهماً خالد الذكر ثم رفع عقيرته بالغناء منتشياً بحكم إعدام (سيد): بكره العيد وحنعيد.. وندبحك يا شيخ سيد؟ كيف لا يكون لئيماً من يتملق عدوّه بالتنديد بأخطاء

أخيه؟ وكيف لا يكون جاهلاً من يولول غدوة على بيته المهدوم ويسعى عشية ليتحالف مع هادمه؟

اكتظ بهم ميدان (تيزي وزو) الجزائرية وهم يهتفون باسم جبهة الإنقاذ الإسلامية، وبعد سنة واحدة فقط رقص الراقصون في نفس الميدان على أنغام الموسيقى يتمايلون مع (ميادة الحناوي)! فأين يذهبون؟ وفي أي واد من أودية الهلاك يقعون؟ يتجمعون على اللذات تجمع الفراش على اللهب ساعياً وراء حتفه، أخرجهم القرآن إلى أنوار الهداية فأبوا إلا ظلمات الجاهلية، ناداهم صوت الحق: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى﴾ ليلحقوا بركب صهيب فيقال لهم: (ربح البيع)، لكنهم استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير فحقت عليهم ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾، قيل لهم: كونوا من الذين تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون، ولا تكونوا ممن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين، ويحكم كونوا أبطال بدر اليوم قبل أن تكونوا مسلمة الفتح غداً حين ترون جحافل الفتح قادمة فتقولوا: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾؟ فيقال: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)، قيل لهم: واجهوا الأفعى التي تلعنونها سراً وتباركونها علناً، لكنكم اختبأتم منها تحت أسرتكم تنتظرون جيش الملائكة المسومين، وتضرعتم في دعائكم أن يعجل الله ظهور المهدي لترسلوا له رسالة يقرؤها بين الركن والمقام، تطلبون منه أن يكفيكم شر الأفعى ليرسل الله إليها جبريل في مهمة ليلية سرية فيقضي عليها لتصبحوا عند الصباح وقد سُجِّلَت القضية ضد مجهول!

أمتنا اليوم مريضة، رفعت أقواماً لا يستحقون الرفع بسبب وقوعها تحت تأثير المرض، وسيأتي اليوم الذي تصح فيه، وستدرك حينها أن الكثير ممن رفعتهم كان الأجدر أن يكونوا في المؤخرة، وأن الكثير ممن أشاحت بوجهها عنهم كان الأجدر أن يكونوا في المقدمة، ستكتشف أنهم لم يفرغوا جيوبهم للأمة بل ملأوا جيوبهم منها، ولم ينصروها بهم بل نصروا أنفسهم بها.

لقد عانى المخلفون الثلاثة من قطيعة النبي ﷺ وأصحابه لهم خمسين ليلة أما أحمد فقد عانى قطيعة الأمة السنين الطوال، لا لتخلفه بل لدفاعه عن الأبرياء، أدرك تماماً مشاعر الحزن والقهر حين يأتي عريض القفا، ناعم الكفين، متجشئاً كبير البطن، ليوبخ من عركته الليالي وصهرته الحروب وأضناه الجوع دفاعاً عن أمة خذلته وشعوب خانته، لكن التجارب علمتني والأيام فهمتني أن الجهاد يجب أن يكون مشروع أمة لا حزب ولا تنظيم ولا جماعة، فريضة الأمة يجب أن تقوم بها الأمة، وسيدفع الثمن غالياً كل من لم يفهم هذه الحقيقة، سيدفعه سجناً وخذلاناً واتهاماً يلاحقه حتى تغيب شمس عمره، قد ينجع في بلد أدرك حقيقة الصراع، لكنه لن يجدي في أمة لا زالت غارقة من النوم.

وددت لو كان أحمد لا يزال معنا لأقول له من قلب محب مشفق: نعم لقد أخطأت يا أحمد، لقد أخطأت حين ضحيت من أجلنا لأننا لا نستحق، إن أمة لا تعرف أبناءها أمة لا تستحق النصر ولا النصرة، لكنها تستحق الدعوة، من الخطأ التضحية دفاعاً عن أمة نائمة بل الصواب التضحية لإيقاظها، ولو دافعت عنها وهي نائمة لاستيقظت ورأت بيدك السيف فتظن أنك سبب بلائها فتعاديك كما عادت أحمد، لتقول في نهاية رحلة شقائك كما قال أحمد: نعم لقد أخطأت، أنتم شرف أمة لم تعرفكم وعزة شعوب تنكرت لكم، فلا تكشفوا صدوركم دفاعاً عمن يخونكم، دعونا نذوق طعم الدم بيد أعدائنا، دعونا نفهم الحقيقة بشيء من المرارة والألم، ومن العلاج أحياناً ألا يداوى المريض في لحظات المرض الأولى، دعوا الجسد يدرك أن الفايروسات قوات احتلال جاءت لنهب الصحة وليست غذاء ممتلئاً بالفيتامينات، دعونا نتعلم بالقليل من المعاناة، إن المعركة الحقيقية هي معركة وعي بالدرجة الأولى، أدرك تماماً هذه الأرواح الوثابة والعواطف الجياشة، لقد عشت معهم أربع عشرة سنة فما رأت عيناي أشجع ولا أصبر ولا أكثر تضحية منهم، لقد رأيتهم يكشفون صدورهم للموت في فرح، يتسللون من بين أنيابه مبتهجين، لقد كانوا يرون النزال عرساً ودوي القذائف طرباً، كانوا ينتشون لرائحة البارود ويتهللون لالتحام الصفوف، أما دماؤهم فَحِنَّاؤهم لحفلة الزفاف، رأيت بعضهم يصوم دهره عدا العيدين وأيام التشريق لأكثر من عشر سنين، ورأيت بعضهم يختم القرآن من حفظه كل ثلاثة أيام وهو مضرب عن الطعام لأسابيع دون أن يفتر، كنت أرى فيض عيونهم لأنينِ سقيم خلف القضبان أو لحمامة مكسورة الجناح تقترب من زنازينهم، إن رحمتهم تلك هي التي دفعتهم للرحيل إلى مأوى الجن ليصارعوا الموت، أدرك تماماً أنهم مِخْلَبٌ ماضٍ ونابٌ قاطعٌ، ولكن ما يغني الناب دون فَكّ والمخلب دون ذراع؟ ولا قيمة لفك دون ناب ولذراع دون مخلب؟ الأمة هي الفك والذراع، وكل مشروع لاسترداد مجدنا لا ينضوي تحت جناح الأمة فهو غير قابل للحياة، تحت جناحها وإن كان مكسوراً، فالانضواء تحت جناح مكسور خير من البقاء في العراء طعمة للنسور، ومن يئس من هداية الملأ فهو جاهل بأسرار الهداية والضلال، إن أخوف ما يخافه أبو جهل هو انتفاضة قلب حمزة في لحظة غضب فيصيح: (أتسبه وأنا على دينه؟)، أو انكسار ندم من عمر فيمد يده لأخته الجريحة ويأخذ منها الصحيفة ليقرأ: ﴿طه ❁ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾.

يا أيها الشهم النبيل الذي لا زلت تصارع الأفعى من أجل أمة خذلتك، لا تدفعك عاطفتك الرحيمة للتوغل دون التثبت من مواقع قدميك، انظر خلفك، لقد تركوك وحيداً تواجه الموت، تركوك تتلبط في لُجَّة اليم وهم مستلقون على شاطئ السلامة يتغنون بالأقوال الحكيمة ويسلقونك بألسنتهم الحداد، مالك تتقدم مستعجلاً إلى عين العاصفة،

إلى عمق اللجة، إلى فم الموت؟ التفت وراءك، لن تجد منهم ظهيراً، تركوك وحيداً تدافع عنهم، تأملهم ملياً، هذا مشغول بصفقته التجارية وآخر بحصوله على ترقية وثالث برحلة سياحية إلى أوروبا، يشغلهم اختيار المطعم الذي سيتعشون فيه أكثر من مصيرك الذي تواجهه من أجلهم، ها هم عُذّال الأمس الذين وصموك بالسفاهة حين رحلت مدافعاً عن سراييفو، يشترون فيها اليوم منازل فارهة تطل على الميادين التي سكب فيها إخوانك دماءهم، أتذكر حصار غروزني وبطولات الجسر وشموخ القمم المغطاة بعمائم الثلوج؟ انظر إليهم.. لقد استقذروا مصافحة يدك التي فَقَدَت أصابِعَها من أجلهم، ليهتفوا مكبرين لبلبل أشجاهم بصوته، يطأ متبختراً بحلته الفاخرة على جثث الأبطال الذين حرروا الأرض التي ضمت أشلاءهم، ألق عنك بدلة الحرب يا صاحبي فإن الحرب لا تُقَدَّس حتى تكون دفاعاً عمن يستحق، ألق عنك رداء الحرب والبس حلة المعلم، لأن الناس لم يفهموا الدرس بعد، أَشِر لهم بعصاك إلى اللوحة المعلقة، وابدأ بالكلمة الأولى من الصفحة الأولى قائلاً: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾.

انتقام الجنرال:

انتهى شهر العسل الذي بدأ بتحسين الظروف المعيشية في المعتقل أثناء ثورات الربيع العربي عام ٢٠١١، وبدأت مرحلة جديدة مليئة بالألم والعذاب، في عام ٢٠١٣ زار الجنرال (كيلي) قائد المنطقة الجنوبية غوانتانامو متباهياً بنجومه الأربعة المعلقة على قبعته، جاء يتلمظ حقداً لينتقم من معتقلي غوانتانامو بعد أن قتل ابنه في أفغانستان، بدأت القوانين في التشدد واتجهت نحو القسوة والعدوانية، منع المعتقل من تغطية جسده أثناء استخدام الخلاء، المنع من الاقتراب من الشباك، التفتيش المهين للعورات، تفتيش القرآن الذي كان إعلاناً صريحاً بدخولنا مرحلة الصراع من جديد، وَدَّعْنا زمن الهدوء والراحة، كان التفتيش جماعياً، اختيار عشوائي للعنبر حتى لا يتم تهريب أي ممنوعات من عنبر لآخر، كانت الممنوعات عبارة عن طعام زائد يتم تخزينه لإفطار الصائمين يوم الإثنين والخميس، وأقلام لكتابة الرسائل، وكتب زائدة عن الحد المسموح، مع مراقبة شديدة في الكاميرات، يأمر الجندي المعتقلَ المسؤولَ أن يطلب من جميع من في العنبر الدخول إلى زنازينهم، وبعد أن يتم إغلاق كل الزنازين يدخل الجنود ليؤمنوا الإغلاق، ثم تدخل مجموعة كبيرة من الجنود العنبر فتخرج المعتقلين من زنازينهم مقيدين فرداً فرداً، يتم تفتيش كل معتقل تفتيشاً دقيقاً باستخدام جهاز كشف المعادن ثم يدوياً، ثم تجميعهم خارج العنبر حتى ينتهوا من عملية التفتيش التي تستمر ساعتين على الأقل وقد تصل أحياناً إلى ست ساعات، هذا التفتيش الجماعي يحدث مرة كل أسبوع، ثم أصبح بعد سنة كل أسبوعين، تفاجأنا حين أخرجونا من العنبر

بتمزيق كل الأغطية الخضراء التي كانت تظللنا في فترة التشميس، تم تقطيعها بطريقة استفزازية متعمدة تشي بأن وراء الأكمة ما وراءها، ظننا لأول وهلة أن هذا الاستفزاز بسبب سوء تصرف من جندي حاقد، لكننا اكتشفنا أن هناك أوامر عليا من الجنرال شخصياً بذلك.

وحين كنا في الساحة الخارجية طلب منا الضابط وضع كل نسخ القرآن في صندوق ثم وضعه داخل العنبر ليتم تفتيشه، لم يقصدوا بتفتيش القرآن الجانبَ الأمنيَّ حتماً بقدر ما أرادوا الجانب الديني والنفسي، لأنهم تركوا أماكن كثيرة في العنبر دون تفتيش، بينما اتجهوا للقرآن، لا يعقل أن يضع أحد المعتقلين شيئاً من الممنوعات داخل مصحفه الخاص لِيُكْتَشَف أمرُه ويترك أماكن كثيرة بإمكانه إخفاء أي شيء يريده، رفضنا تفتيش القرآن لأننا نعلم جيداً أن طريقتهم في التفتيش ستكون مهينة ومذلة، بحيث يمسك الجندي غلاف القرآن ويقلبه ظهراً لبطن ويهزه باستخفاف، رفضنا إغلاق العنبر وبقي العنبر الداخلي والزنازين وساحة المشي مفتوحة على بعضها، اجتمع جميع المعتقلين في كل العنابر على الرفض، ووضعنا مناديل داخل فتحات الأبواب حتى لا تغلق تلقائياً عن طريق الريموت كونترول، استمرت المفاوضات مع الإدارة، طلبنا منهم أخذ القرآن للمكتبة حتى لا يكون لهم عذر أمني في تفتيشه فرفضوا ذلك!

الإضراب مرة أخرى:

اختلف المعتقلون في اللجوء إلى الإضراب، قرار صعب للغاية، إنه يعني أن تتحمل آلام الجوع القاتل وأوجاع البطن والإجهاد الشامل فوق ما أنت فيه من كرب الأسر، جرب أن تمتنع عن الطعام كلياً لثلاثة أيام فقط لتدرك مدى صعوبة هذا القرار، فكيف بإضراب يستمر لأسابيع حتى تشرف على حافة الهلاك ثم تمارس عليك سياسة التغذية القسرية الأليمة لأشهر؟ ترددت كما تردد بعض المعتقلين، الإضراب سيؤثر على البرنامج التعبدي والرياضي الذي يخفف الكثير من وطأة الأسر، لكن ماذا لو لم أصنع شيئاً تجاه إهانة القرآن؟ ماذا لو كنت آكل بينما أرى إخواني حولي يتألمون؟

سيمزقني تأنيب الضمير، فقررت الإضراب لأن راحة الألم خير من ألم الراحة، غطينا جميع الكاميرات في العنبر بالمناديل، رفضنا التفتيش، رسالتنا واضحة، إما احترام قرآننا أو عصيان أوامركم، كان عندنا كميات قليلة من الطعام الذي احتفظنا به سابقاً للصائمين، تم توزيعه على الجميع ليتم تناوله شيئاً فشيئاً حتى لا تتأثر المعدة بالإضراب المفاجئ، أكثرنا من شرب الماء، كنت أمارس الرياضة على الرغم من قلة الطعام، ساعة من الهرولة الخفيفة بعد أن أتناول حفنة من الزبيب المتبقي عندنا أو قطعة خبز صغيرة في اليوم، وهذا خطأ فادح يهدد حياة المضرب لكني أردت إنزال وزني

بأسرع فترة زمنية، الكثير من الإخوة نصحني بالتوقف لكني كنت مدركاً تماماً أن اقتحام الجنود علينا بات وشيكاً فلابد من زيادة عدد المضربين الذين يصلون إلى مرحلة الخطر التي تحتم على إدارة المعتقل تغذيتهم بالأنبوب أو الموت، ليست التغذية نزهة ممتعة بل معاناة فظيعة، سبب حرص المضربين عليها هو كونها وسيلة ضغط على إدارة المعتقل بزيادة العبء على الطاقم الطبي والجنود الذين يضاف إلى مهامهم المرهقة مهمة نقل المضربين إلى كرسي التغذية ومراقبتهم حتى انتهاء العملية، انخفض وزني إلى ما يقارب ٢ باوند يومياً، وهذا يعد نزولاً حاداً لنحيل مثلي يصعب إنزال وزنه أكثر مما هو عليه.

وبعد أيام وزع علينا أحد الإخوة بلغة من الطعام بعيداً عن أعين الكاميرات والحراس تمهيداً للحظة الإضراب الحاسم، أعطاني قطعة من رغيف بحجم منتصف الكف، رجعت به إلى زنزانتي وأنا أحسبه مائدة نزلت علي من السماء، بدأت في شمها، فتغلغلت رائحة الخبز في جوفي وامتلأ بها صدري، أحسست أن جوفي كله أصبح عبارة عن معدة تطلب حظها من الطعام، وددت لو أني أستطيع أن أتلذذ بكل ذرة دقيق حواها ذلك الرغيف المبارك، أخذت أتحسس بطني وإذا به قد ضمر لدرجة أني كنت أحلق بكلتا يدي حول خصري فتلامس الوسطى والإبهام لليمنى أختيهما في اليسرى، وحين رآني المحامي على هذه الحال صعق وتكلم عن ذلك في القنوات الإعلامية.

أثناء وردي للقرآن مر علي قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾، استوقفتني الآية بفيض كرمها، سبحانك يا الله.. أتسمي إحسانه إحساناً وهو الذي لولاك لتخبط في ظلمات العجز والغي؟ وأين إحسان العبد من إحسان الرب؟

قرأت الآية مراراً، أشعرتني بالشبع، أشبعتني بمعانيها شبعاً ليس من هذه الدنيا، كأنما طعمت منها ثمرة من ثمار الجنة وسقتني بها كأساً دهاقاً، لم يكن شبعاً حسياً يذهب سخفة الجوع، لكنه شبع روحي يخفف وهن الجسد ويمده بطاقة تعين على مواصلة الكفاح، فاللهم صدقاً وإخلاصاً.

لا أدري لماذا قَوِيَت بعد الإضراب جواذبُ الشغف للأهل والوطن؟ لعبت بي أمواج الشوق واستحوذت علي الذكريات الجميلة، فصار خيال الوالدين والأحباب رأي عين، شعرت كأني أتحسس بيدي تراب وطن أحبته، كانت مراتع الصبا ومحافل الأنس تتوالى أمامي سريعاً، أخذت أترنم:

نصيبك في حياتك من حبيب   نصيبك في منامك من خيال

تنقضي اللحظات البهيجة مع الأحباب كما ينقضي خيال الحلم بذكرياته الجميلة، مرت الأيام ثقيلة وأحكمت حلقات البلاء على خناقنا حتى أصبحنا نتنفس من سم

الخياط، استفزاز الجنود، إزعاج متواصل حرم أجفاننا الرقاد، إعياء شامل بسبب الإضراب، الحنين إلى الأهل والوطن، لقد كان المتنبي يصف ما نحن فيه كأنه معنا:

رماني الدهر بالأرزاء حتى ... فؤادي في غشاء من نبال
فكنت إذا أصابتني سهام ... تكسرت النصال على النصال
فصرت ولا أبالي بالرزايا ... لأني ما انتفعت بأن أبالي

وبعد عدة أسابيع من الاعتصام والمفاوضات جاء القرار من الجنرال باستخدام القوة، حان وقت صلاة الفجر، هدوء تام، كانت صلاة مريحة خاشعة كأنها تربت على أكتافنا، تصبرنا على القادم الوشيك، بعد انتهاء الصلاة بقليل فتحت البوابة الخارجية، انتشر الجنود فوق سطوح المعسكرات مدججين بأسلحتهم، وتسللت قوات الشغب إلى كل العنابر في المعسكر السادس في آن واحد بكل هدوء، ليس من عادتهم ذلك، كانوا يستغلون دوي خبط أرجل قوات الشغب بالأرض لبث جو من التوتر والقلق، لكنهم آثروا هذه المرة التسلل في خفاء منعاً لحدوث مواجهات عنيفة لا تحمد عقباها، لكن ما خشوا منه قد وقع فعلاً، انتبه بعض المعتقلين إلى حركة الجنود قاصدين الأبواب التي امتنع المعتقلون من إغلاقها فاشتبكوا معهم بالأيدي، مدججين بالخوذ والدروع أمام عزل أنهكهم الإضراب لأسبوعين تقريباً، لم يستطع الجنود إغلاق البوابات بسبب المقاومة العنيفة، بدؤوا برش البخاخ المسيل للدموع، لكن الجنود دفعوا ثمن ذلك أيضاً، اختنق الكثير منهم وتركوا المكان هاربين، استعمل الجنود العنف مما حدا ببعض المعتقلين في العنابر المجاورة ممن يتقنون لعبة العصا باستخدام عصا التنظيف لرد العنف بالعنف، سالت الدماء من الطرفين، فاستخدموا الرصاص المطاطي من مسافة قريبة لا تتجاوز المترين، أصيب بعض الإخوة بها، كان أثرها على جسده مثل كية النار، أخ مبتور الرجل من الطائف أمسك سبطانة السلاح ورفعها إلى الأعلى ليحمي الأخ الذي صوب الجندي عليه سلاحه، كان بإمكاننا المقاومة أكثر لكننا أدركنا أن التضحيات ستكون باهظة، تركنا الجنود يغلقون البوابة الخارجية، حصرونا في قاعة العنبر الداخلية، دخل كل واحد منا زنزانته، وبعد ساعة تقريباً استرجع الجنود قوتهم والتقطوا أنفاسهم، بدؤوا باقتحام الزنازين بعد شعورهم بالإذلال من المواجهات العنيفة الدموية، هجموا علي في حنق واهتياج، تم تقييدي بسرعة خاطفة وقد انتشرت الكدمات في أنحاء جسدي الهزيل، وضعوني على أرضية صالة العنبر، وجهي باتجاه الأرض، رجلي ويدي مقيدتان من الخلف، كانت آلام الرقبة تعصف بي، ثم جاؤوا بالإخوة ففعلوا بهم كما فعلوا بي، كنا مرصوصين أحدنا بجانب الآخر، التفت وإذا عن يميني أحد قيادات الطلبة الذين تم إطلاق سراحهم لاحقاً في صفقة تبادل أسرى، كان يعاني

من مرض رفض الأمريكان علاجه، كان يتألم بصمت، رأيته يذكر الله، لكنه حين رآني ابتسم وهو يقول: في سبيل الله، رأيت الضابط الأسود واقفاً أمامنا ساخراً، قلت له: أنت واهم حين تحسبها ذلاً وأنت ترانا ممددين على وجوهنا بالأصفاد، نحن نراها عزاً ونصراً حين نقول للظالم المستبد: (لا)، والأسير الذي يأبى الخضوع أعز من الملك الذي يرضى الركوع، إن لمعان القيد في شرف أجمل من تلألئ التاج في ذل، مسكين حين تظن أنك قادر على كسرنا، المؤمن كالنخلة لا تموت إلا واقفة.

تحولت ابتسامته الساخرة إلى عبوس كالح، ثم انصرف وهو يشير إلى أحد الجنود أن يتبعه.

بقينا مقيدين بهذه الوضعية على وجوهنا من الساعة السادسة صباحاً حتى الحادية عشرة ظهراً، ثم نقلونا إلى زنازين في عنبر آخر، كان العنبر عبارة عن ثلاجة تنفث زمهريرها ليعض عظامنا التي أضناها الإضراب، برد قارس، أجساد هزيلة مرتعشة، في زنزانة خاوية على عروشها، لا نملك فيها إلا ملابسنا التي علينا، قميص وسروال، حتى النعال تمت مصادرتها، أرضية الزنزانة الخرسانية كأنها قطعة من الجليد، السرير عبارة عن صفيحة معدنية، الجنود يركلون أبواب الزنازين، إجهاد بدني وإرهاق نفسي رهيب، اشتدت علينا وطأة الإضراب، جوع يمزق الأمعاء، فقدان القدرة على النوم، وهن موجع في كل المفاصل، كانت نبضات القلب تتزايد فتشعر معها أنك عن قريب راحل من هذه الغابة إلى العالم الآخر، قال لي أحد المضربين بصوت متعب مخنوق:

هل تستطيع كتابة رسالة لمحاميك تخبره بما حدث لعله ينشرها في الإعلام؟

قلت: لا أظن أن إدارة المعتقل ستسمح بذلك بعد كل ما جرى، حالياً على الأقل.

قال لي مازحاً بكوميديا سوداء: قد نموت هنا ويموت معنا الكثير مما لم نقله.

قلت: لا ضير.. سنكون بموتنا قد بلغنا كل ما نريد، الموت رسالة بليغة، سرها في صمتها.

شعرت أني أمشي حائراً في نفق مظلم، رجعت إلى السرير منهكاً خائر القوى قد ضعفت عن مجرد الوقوف، ألقيت جسدي عليه، ازداد خفقان قلبي، وشعرت بوخز شديد مؤلم في الجانب الأيسر من الصدر، أهي لحظة النهاية؟ التفت حولي لأرى حيطان الزنزانة شبحاً يغرس مخالبه في صدري، نظرت أمامي إلى وعد أنتظر وفاءه وأَمَلٍ أرمقه من بعيد، وإذا نور متلألئ يغري أجفاني بألا تغمض، إلهي وسيدي ومولاي.. خذني مني إليك، ضيفاً لا يحول ولا يزول أبد الآبدين، ها هي لحظة

الحرية قد اقتربت وفرحة الوصال قد دنت ومطرقة العدالة قد دوت، ها هي الدنيا قد أوشكت على الزوال، لم يعد زخرفها يغريني، ولا لحنها يشجيني، ولا أريجها يفتنني، لقد زال الضباب وتبدد السراب، أصبحت أراها على حقيقتها كما هي، وهم في وهم، لقد سقط القناع وهب الغافل من نومه، هلم أيها الموت وعانق روحي المشتاقة، امسح عني بؤس الألم ولوعة الفراق، هلم أيها الحبيب الذي جاء على فاقة، عجل بي إلى الأطهار.

شعرت أن نظري قد اخترق سقف الزنزانة، أبحرت في الخيال الجميل بعيداً عن الواقع الأليم، أنظر إلى ما أعده الله للمؤمنين الصابرين في الجنة، أسرح بخيالي في رياضها وبساتينها، أرفل على المسك والزعفران، أستمتع بأريج الزهور، أسمع همس ساكنات القصور، شعرت أن شبح الموت بدأ يتقزم أمامي حتى لا أكاد أراه، ما أنت أيها الموت؟ ما أنت إلا جسر للوصول إلى الأحبة، ما أنت أيها الموت إلا الخلاص من سطوة الظالم وصلف السجان وذل الاستعباد لغير الله، اقترب أيها الموت، اقترب أكثر فقد طال الفراق، لا تخوفني بكأسك، هلم هذا الكأس ولا تتريث، قد ضقت بعربدة الطغيان واشتاق قلبي للتحليق إلى العلياء، حيث يتنعم الرجال العظماء.

شعرت أن جبلاً من الأحزان قد أزيح عن صدري فتنفست الصعداء، راجعت نفسي: ولماذا أستعجل الرحيل؟ لقد كلفني سيدي أن أحرث الأرض وأسقي الزرع طوال النهار، فلماذا أستعجل غروب الشمس؟ ألم يقل: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر مسه»؟ لقد كنت كالطفل الذي يرى أمه أمامه مبتسمة فيعيل صبره ليرتمي في أحضانها، ألم يعاتب الله حبيبه موسى قائلاً: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾؟ إن كل مؤمن على هذه الأرض موسى، يسقي للضعفاء الذين يذودون عن ماء مدين، ويفلق بحر الظلم بعصاه ليسري بأمته إلى الأرض المقدسة، تقطع قافلة الإبل مفازة هجرتها، حتى إذا لاحت الواحة انطلق الفصيل مسرعاً قد استخفه الفرح ليشرب ويستظل، أما الرواحل فهي تسير بخطا متئدة رزينة لأنها تدرك أن مهمتها إعادة الشوارد وإرشاد الضوال وإيصال القافلة إلى الواحة، واستعجالها الوصول قبل تنفيذ المهمة يوجب الحرمان.

شعرت بقوة عجيبة تسري في روحي، تبدد القلق، واضمحلت الهواجس، لقد تخففت روحي من الآصار التي أثقلت كاهلها وشدتها إلى الأرض، إن أعظم قوة يمتلكها الإنسان حين يدرك أنه لا يوجد في هذه الحياة ما يخسره، ليس يأساً وقنوطاً بل إيماناً ويقيناً أن ما عند الله خير وأبقى من هذه الغابة المتوحشة التي نعيش فيها، إنه لا يستعجل الموت لكنه لم يعد يخافه!

لقد أدركت حينها أن كل قمم الجبال الشاهقة لا تصل إلى ركبة من لا يهاب

الموت، واهمون هؤلاء الظلمة حين يظنون أنهم يخيفون من يعتقد أن الفوز يكون بالموت والنعيم بعده، والذي يقبل شفتي الموت الشاحبتين لن يقف مرتجفاً أمام تهديد الباطل، لقد أدركت حينها أن الجيل الذي يؤمن أن الحياة الخالدة تكون بالموت في سبيل الله هو الجيل الذي سيقود العالم إلى العدل والحرية.

رفرفت أجنحة الأشواق بجسدي الهزيل المرهق، فأحسست برغبة ملحة لأخفف بالشعر طوفاناً جارفاً من المشاعر المتأججة، فانطلقت أقول:

حدثيني.. عن ليالي الوصل يقطع صمتها صوت الأنينِ

حدثيني.. كيف تُبْعَث شهقة الميلاد من لحد السجونِ

لا تبيني.. حين تلقيني يد السجان في قاع الأتونِ

لا تبيني.. أشرب الأحزان وحدي مكرهاً، لا تتركيني

واسمعيني.. حين ألفظ آخر الأنفاس في عمق السكونِ

واسمعيني.. حين ترسو في مواني الخلد أشواق الحنينِ

وارمقيني.. كيف أقضي عند باب الحب مرفوع الجبينِ

وارمقيني.. هكذا الأرواح تزهق عندنا من أجل ديني

غمضيني.. لم أزل أشكو السُّهاد وحرقَة الدمع السخينِ

غمضيني.. كي تقر برؤية الأحباب في الخلد عيوني

تحاملت على نفسي لأنهض إلى المغسلة فعجزت، زحفت إليها كي أشرب القليل من الماء أقوي به جسدي الذي بلغ الغاية في الإعياء، حاولت الشرب فلم أستطع، لقد أصبح الماء مرّاً بسبب الإضراب الذي يغير طعمه، أجبرت نفسي فحسوت حسوات أشعرتني بالغثيان، سمعت صوت أحد الأخوة المضربين يئن من شدة الجوع والمرض، أخذ أحد الجنود يحاكي صوت أنينه مستهزئاً ثم قال: مت بأنينك.

لم أتحمل هذا الوغد يتخلى عن إنسانيته دون أن أسمعه شيئاً، زحفت إلى شق الباب ثم رفعت صوتي بصعوبة: بآلامنا سندل الجيل القادم على الطريق لتتبوأ أمتنا مقعدها الذي تخلت عنه للجبناء.

قال الجندي: لو كنا جبناء لما صرنا ملوك العالم.

أجبته غاضباً: خسئت، رعديد في يده حقيبة نووية، هذا أنتم.

قال لي ساخراً: ستموتون بأنينكم، وستتعذبون في زنازينكم الضيقة الانفرادية، وستحمل الريح نتن جثثكم إلى أنوف أهلكم ومحبيكم وأمتكم الملعونة.

قلت: ستظل أشباح المظلومين تطاردكم في حياتكم ولعناتهم ستلهب عليكم قبوركم ناراً، وعند الله تجتمع الخصوم.

دوت ضحكته الساخرة في أرجاء العنبر وهو يقول: عند الله! أنا لا أؤمن بالبعث أصلاً.

: ستبقى أحمقاً، عدم إيمانك بوجود الكهرباء في السلك المكشوف لن يجعله يستثنيك من الصعق!!

إلهي.. ماذا ينتظر الظالمين من أهوال في يوم مرعب يطوي الكون كله؟

بدأ المضربون يتساقطون واحداً تلو الآخر، تقتحم قوات الشغب زنازينهم ثم يأخذونهم إلى العيادة للفحص، فمن كان على حافة الموت نقلوه إلى المستشفى ليمارسوا عليه التغذية القسرية، ومن لم يصل إلى مرحلة الخطر أمدوه بالمغذي الوريدي ثم أعادوه إلى زنزانته، كان الأمريكان متخوفين من زيادة أعداد المضربين الخاضعين للتغذية القسرية مما قد يفوق قدرتهم على السيطرة، أوشك مضرب يمني على الموت، اسودت يداه وقدماه ولم يعد قادراً على الحركة، كان يتيمم ويصلي في مكانه دون أن يستطيع الوصول إلى المغسلة التي تبعد عنه نصف متر! نقلوه إلى المستشفى وهو في رمقه الأخير.

أَذَّنَ أحد الإخوة لصلاة الظهر بصوت مخنوق متوجع أرهقه الإضراب، زحفت إلى المغسلة من شدة الإجهاد لأتوضأ، كانت زنزانتي في المقدمة فأممت المعتقلين، وبعد الانتهاء من الصلاة سمعت جلبة في العنبر وقفت لأرى ما يحدث، هنا انقطع عندي الإرسال، سمعت أحد الإخوة في جواري يصيح بصوت يتردد صداه كأنه يصرخ من جب: يا إخوة.. سقط فايز!!

استغربت، أنا لم أسقط، كنت أسمعه لكني لا أستطيع فتح عيني لأرى ما يحدث، أحسست بالجنود يدخلون الزنزانة ويقيدوني، هنا أدركت أنه قد أغمي علي، وفي العيادة كان الممرض يتعمد إدخال الإبرة بطريقة مؤلمة ليتبين له إن كنت أمثل عليهم أم أنه قد أغمي علي فعلاً، فعل ذلك مراراً وهو يدخل الإبرة حتى تصيب عظم ساعدي، وحين رأى عدم الاستجابة إضافة إلى نتيجة الضغط ونسبة السكر أدرك خطورة الحالة، نُقِلْتُ إلى المستشفى مقيد الأطراف في سيارة الإسعاف، بقيت هناك تحت المراقبة ثلاثة أيام لتغذيتي عن طريق الوريد وأنا مقيد بالسرير، أطلب منهم الذهاب إلى الخلاء في

أوقات الصلوات لأتوضأ، فينقلوني مقيداً على الكرسي المتحرك، بعد انقضاء هذه الأيام الثلاثة بدأت عملية التغذية القسرية الرهيبة، وضعوني على كرسي التغذية، تذكرت إخواني المضربين الذين عانوا في الإضرابات السابقة وهم يصفون لي الإجراءات القاسية في عملية التغذية، سمعت هزيز الحزام يشتد على جبهتي وصدري وبطني وفخذي وساقي، قلت للجنود حولي متهكماً: نسيتم لساني لم تقيدوه!

: اخرس.. أو سنخرسه لك.

كان الوثاق محكماً شديداً على مفاصلي وأنا على كرسي التغذية، يبدأ الألم أولاً في موضع القيد، ثم يبدأ بالانتشار والتورم ثم التخدر المصاحب للألم العميق الذي يجعل الجسد كله في حالة استنفار مزعجة، تقدم الممرض وهو ينظر إلي شزراً، أدخل الأنبوب في أنفي، شعرت بالاختناق، سالت الدموع، أخذت أتهوع، لا يوجد في معدتي شيء لأستفرغه، شعرت كأن روحي بلغت الحلقوم، استمر السعال المخنوق بينما يواصل الممرض إدخال الأنبوب، لاحظ تجمع الدم في وجهي وعدم قدرتي على التنفس، سحب الأنبوب بسرعة وفيه بقايا دماء، لمحت إحدى الجنديات تركت المكان ولم تستطع رؤية هذا المشهد، أعاد الممرض العملية مرات وأنا أرى الموت في كل مرة.

: بإمكانك أن تضع حداً لآلامك، تناول طعامك وسينتهي كل شيء!

: لماذا لا تعكس القضية؟ توقفوا عن إهانة قرآننا وسينتهي كل شيء.

: لا داعي للإضراب وفرض طلباتكم بالقوة، اعرضوا قضيتكم على العقيد بهدوء ونحن نعدكم بأن ننظر فيها!

: أنت كمن يطلب من الجندي الذي يقاتل على خط النار دفاعاً عن بلده وشرفه وكرامته أن يترك بندقيته ويستبدلها بالعزف على القيثارة ليقنع عدوه المحتل بعدالة قضيته عن طريق الفن.

: أنا لا أبالي بإضرابك.

: إن كنت لا تبالي فلماذا تطلب مني التوقف عن الإضراب؟

نجح بإدخال الأنبوب في أنفي بعد محاولات كثيرة وقد تصبب جسمي عرقاً من الألم والإجهاد، بدأت أشعر ببرودة المادة المغذية تنزل في معدتي الخاوية منذ ثلاثة أسابيع تقريباً، لم أصدق أن القربة أوشكت على الانتهاء، فرحت لقرب الفرج، لكنها فرحة لم تدم طويلاً، قال لي الجندي: ستبقى على الكرسي لساعتين حتى نتأكد أنك لن تستفرغ المغذي!

وبعد أسبوع تقريباً من معاناة هذا العذاب اليومي قرر الطبيب إرجاعي إلى العنبر لتغذيتي هناك، دخلت العنبر وسط ترحيب الإخوة المضربين، عجباً لهم والله، لم يمنعهم البلاء الذي هم فيه من الابتسامة لأخيهم في الله، في الله الذي ألف بين قلوبهم، أي دين عظيم أنت أيها الإسلام حين ألفت بين قلوب قبائل مختلفة وشعوب متباينة؟ أي بناء مجيد صنعته بيديك ولم يستطع سايكس ولا بيكو هدمه؟

أصبح عنبرنا في غضون أيام ممتلئاً بالمضربين الذين يُغَذَّوْن قسرياً، أكثر من عشرين معتقلاً، كما تعج العنابر الأخرى بالمضربين، كان الجنود يضعون صحن الإفطار والغداء والعشاء على نافذة الزنازين أملاً في أن تُضْعِفَ رائحةُ الطعام عزيمةَ المضربين، كان أكثر المعتقلين يعانون من الأمراض، فكان الممرض يشترط عليهم تناول الطعام ليعطيهم الدواء فيرفضونه، كان أنينهم في جوف الليل يقطع القلوب، بينما يمارس الجنود لعبتهم المسلية في ركل الأبواب وإبقاء المعتقلين في زنازين قارسة البرودة، من قال إننا لا نعيش في غابة مليئة بالوحوش التي لا تعرف معنى الرحمة؟

ومهما أوغلت في عمق المشاعر وأبحرت في لجج الأحاسيس فلن أستوعب لفحةَ قهرٍ تكوي صدره حين تطؤه أقدام الجنود، ولا نبضة ألم بين معصرة القيود، ولا أَنَّةَ وجعٍ وَهُمْ يُلْحِمون جسده الهزيل على كرسي الإضراب، ولا ارتعاشةَ رجليه الواهنتين يتكئ عليهما للصلاة، ولا وساوسَ قلقٍ يخفق بها قلبه في غرف التحقيق، ويكفيهم ويرضيهم أنه وحده سبحانه من سيوفيهم أجورهم.

القفاز المعقم:

أخرجوه من زنزانته وأحكموا وثاقه على كرسي التغذية، أدخلوا الأنبوب في أنفه، شعر بغصة خانقة وسعال متواصل، ثم هدأ بعد دقائق، نظر إلي مبتسماً وهو يردد الأبيات التي يحلو له ترديدها كلما وضعوه على كرسي التغذية، كان يرددها بصوت مبحوح يجبره السعال على الصمت بين كلمة وأخرى:

أنا ما خنت عهد اللَّه ... لما خانت الدول
كذاك لبست ثوب العز ... لا زيف ولا دجل
كذا وبمعول التوحيد ... حطمناك يا هبل

جاءه الطاقم الطبي يقدمهم الدكتور: لماذا أنت مضرب؟ توقف عن إضرابك لتنهي معاناتك.

: توقفوا أولاً عن إهانة قرآني.

بدأ الطبيب بلبس القفاز ليجهز أنبوب التغذية ويملأ القربة بالسائل المغذي، ابتسم وهو يقول للطبيب: هكذا أنتم دائماً أيها الماكرون، تلبسون القفازات المعقمة أثناء ممارستكم لجرائمكم، الأحمق يرى قفازكم المعقم فيحكم بإنسانيتكم ويتجاهل الشاة المذبوحة بين أيديكم!

أمر الطبيب الجنود أن يكمموا فمه حتى لا يستمر بالحديث، أخذ يردد: تكممون فم الضحية حتى لا تسمعوا تأوهاتها وصرخاتها، تعقمون سكاكينكم قبل أن تتم عملية الذبح بكل إنسانيةَ، تباً لكم أيها الأشقياء.

عاصم:

عاصم اليافعي يمني قضى عمره في ربوع الرياض، يعشق العربية فكان كل حديثه بالفصحى، حتى مزاحه كان بها، أصيب بمرض النقرس بسبب سوء التغذية في المعتقل، رفضت الإدارة تقديم أي علاج له حتى ازدادت حالته سوءاً، وبعد معاناة طويلة من الألم صرف له الأطباء ملء الكف من أقراص الدواء، حذره أحد المعتقلين الأطباء من هذا الكم الهائل من مسكنات الآلام والأدوية التي يتعاطاها والتي لها تأثير بالغ الخطورة على الكلى والكبد، لكنه لم يقبل كلام الأخ قائلاً: لا خيار عندي، تخفف الألم على الأقل.

لم يستطع الإضراب معنا بسبب مرضه، منع الأطباء عنه الدواء فكنت أسمع أنينه من شدة الألم، لم يستطع أحد من المعتقلين نصرته بسبب إرهاق الإضراب، كانوا يضعون طعامه على نافذة زنزانته فلا يقوى على الحراك خطوات لتناوله، ثم يأتي الجنود ليستردوا الطعام زعماً أنه رفضه، بقي أياماً دون طعام، جاءه الطبيب ليسأله إن كان مضرباً فأخبره بأنه غير مضرب لكنه لا يستطيع التحرك لتناول الطعام من شدة الآلام التي يشعر بها في رجليه وكل مفاصله، جاءه الجنود لينقلوه إلى العيادة فأخبرهم بعدم قدرته على الوقوف لتقييده، لكنهم أخبروه بأنه إن لم يتقدم للنافذة كي يقيدوه فلن يذهب إلى العيادة، فزحف على بطنه إلى الباب ثم قيدوه، طلب منهم إحضار الكرسي المتحرك لنقله لكن الجندي قال له: لن نأتيك به، أنت تستطيع المشي!

رأيته بعيني يزحف زحفاً إلى العيادة يرسف في أغلاله وهو يئن من الألم، أشحت ببصري عنه ولم أستطع رؤيته على هذه الحال، دمعت عيني وأنا أسمع أنينه الممزوج بكلمة (يا الله) يلفظها بصوته المتحشرج، أطلقوا سراحه إلى منفاه في كازاخستان، تعاملت معه السلطات الكازاخية بطريقة مهينة ومنعته من الزواج والعمل والعودة إلى بلاده، بقي عاصم فيها أشهراً قليلة ثم فاضت روحه إلى ربها ومولاها بعد صراع طويل

مع المرض، رحل إلى ملك الملوك ليقتص له من الظالمين المجرمين الذين لم يرحموا أنينه، ولم يأبهوا بدعواته الملتهبة التي كانت تصعد إلى الله كالشرر، لقد وصلت مظلمتك إليه يا عاصم، وكلنا ننتظر يوم المحاكمة.

جون ماكين:

بدأت القنوات الإعلامية في تغطية الإضراب بشكل مكثف، كان المراسلون يتناوبون القدوم إلى المعتقل للحصول على المستجدات، تتابع الزوار من أعضاء الكونجرس، كان من بينهم السيناتور جون ماكين، كان يرتدي ملابس رياضية وقبعة على رأسه، دخل العنبر وهو ملتزم الصمت لأن قانون المعسكر يمنع الزوار من الحديث مع المعتقلين، خاطبه معتقل جزائري مضرب من شق الباب، تقدم جون ماكين إليه بعد أن خلع قبعته محنياً رأسه ليسمعه بوضوح، أخبره عن الظلم والاضطهاد الذي يعانيه المعتقلون، وأنه ينبغي أن يشعر بمعاناة المعتقلين لأنه وقع في الأسر عند الفيتناميين وهو يهز رأسه متعاطفاً، جاءني المحامي بعد أسابيع من زيارة ماكين، وأخبرني أنه عارض في الكونجرس اقتراحاً بإغلاق غوانتانامو!

قال لي المحامي متأثراً: للأسف.. هذه هي السياسة الأمريكية!

قل لهم:

كنت أكتب رسالة إلى المحامي أخبره بأحوالنا بعد أن سمحوا لنا بذلك عقب الصدامات بثلاثة أسابيع، أخذوا يجرونه في قيوده بعنف نحو كرسي التغذية القسرية، التفت إلي فرآني أكتب، وكأنه في هذه اللحظة الخاطفة التي لمحني بها تجلت في قلبه معان عظيمة، نظر إلي نظرة عجيبة وابتسم ابتسامة لم أستطع فهمها، ابتسامة تغلبت على سخفة الجوع وأوجاع المرض، ثم قال لي بنغمة أعذب من نشوة الحياة وأقسى من شهيق الموت: قل لهم إن الحب الذي نعذب من أجله عظيم جداً!

دفعه الجنود إلى الأمام يستحثونه لكرسي التعذيب، لم ينته من جملته إلا والدموع تنهمر من عيني، (إن الحب الذي نعذب من أجله عظيم جداً)، لقد قالها بهدوء، لكني شعرت أن أعماقي اهتزت لها، وأن الملأ الأعلى قد انتشى حين سمع ما قال، لقد كان الجنود يحيطون به من كل جانب إلا أني كنت أراه وحده، كنت أراه حراً يمشي بين أسرى مكبلين بالأغلال.

حبيبي يا رسول الله:

رفض الكثير من المضربين الخروج سلمياً إلى عملية التغذية، اضطرت إدارة

المعتقل إلى استخدام قوات الشغب، وقبل كل اقتحام لزنزانة يرشون المعتقل بالبخاخ المسيل للدموع، ليختنق بها ويضعف عن المقاومة، ثم تنتشر الرائحة النفاثة في أرجاء العنبر ليعاني جميع المعتقلين من آثارها الخانقة، كانت هذه العملية تتكرر يومياً عشرات المرات صباحاً ومساءً.

اقتحمت قوات الشغب زنزانته بكل عنف، أخرجوه منها مثقلاً بالقيود والسلاسل محمولاً على أكتافهم، دوت صرخات الجنود المدوية في أرجاء العنبر تردد: (don't move, don't resist)، تعالت أصوات الأنين الممتزج برائحة البخاخ الحارق التي تزكم الأنوف وتحرق الصدور، لقد سمعت بوضوح الزفرات الملتهبة المنبعثة من الجراح الدامية، سمعت ترتيل القرآن بأصوات متعبة وكلمات التهليل والتكبير تخرج من أفواه متقرحة، كل هذا يحدث في ظلمة الكتمان، في هذه الزنازين الانفرادية البعيدة عن مسمع ومرأى العالم، تحاملت على آلامي وضعفي ومشيت أتهادى حتى وصلت بصعوبة إلى الباب لأنظر إليه، لأنظر إلى هذا الأسد المقيد الذي تحمله الضباع على أكتافها، كان من بلد يعبق برائحة البن، تحملها نسمة عليلة ممزوجة بقصص البطولات، قد ترك وراءه والدين مكلومين وزوجة ثكلى وابنتين حالمتين كوردتين ينتظرانه في بلد الحضارات ومعدن العرب التي كانت تسمى قديماً (اليمن السعيد)، كان كثيراً ما يحدثني عنهما بصوت مخنوق مرتجف وعينين غارقتين في بحر من الدموع، مع ابتسامة تحاول أن تقنعني بصبره، كان منظره وهو يكتم آلامه ويضمد جراحه لا يثير الشفقة بل يثير الإعجاب والإجلال، رأيتهم ينزلونه من السلم محمولاً بقيوده، قال له أحد الجنود مستهزئاً: هل تشعر بالفخر والسعادة الآن؟

قال له بصوت كليل يتظاهر بالقوة: (I am proud to be a Muslim) أنا فخور لكوني مسلماً!

ألا ليت شعري كيف استطاع هذا الدين العظيم أن يملأ قلب سجين بالفخر وهو يعذب ويهان؟

وحين مر أمام زنزانتي التقت عيناه بعيني، ومن خلف النافذة الزجاجية غير القابلة للكسر نظرت إليه نظرة كسرها الحزن، ابتسمت إليه كأني أقول: اصبر، رد علي بابتسامة كأنه يقول: لا تقلق أنا بخير، وضعوه على كرسي الإضراب الذي كنا نسميه كرسي العذاب، أثبتوا يديه ورجليه وبطنه وصدره ورأسه بالكرسي، شدوا وثاقه بعنف وقسوة بحزام يعصر كل عضو من أعضائه لينال حظه من الألم والعقاب.

أخذوا يملؤون بطنه الخاوي من المغذي بكميات هائلة لا تتحملها معدة المضرب، وبعد ساعة من العذاب أرجعوه إلى زنزانته مجدداً، كنت واقفاً أنتظره لأواسيه بكلمة،

وإذا بي أراه خائر القوى محمولاً على أكتاف الجنود ووجهه تلقاء الأرض، فلما اقترب من زنزانتي بدأ يتقيأ السائل المغذي الذي لم تتحمله معدته الضيقة، كان مستسلماً تماماً والقيء يتسرب من فمه وأنفه بهدوء، لقد رأيته وهو يتقيأ، لن أنسى ذلك الوجه الحزين والعينين المرهقتين وهو ينظر إلى الأرض محمولاً على الأكتاف، أنا متأكد تماماً أنه لحظتها كان يفكر بوالديه الحزينين، كان يفكر في حنين زوجته إليه وبكاء الشوق الذي احترق به صدر ابنتيه، هنا أمر قائد الجنود بالعودة به مرة أخرى لنفس الإجراءات القاسية ورحلة العذاب ذاتها ليعاني الألم ضعفين ويملأ بطنه المتوجع بضعف الكمية السابقة، كنت أراه ووجهي ملتصق بالنافذة الزجاجية للزنزانة، أحاول أن أغطي بيدي الضوء لأراه بوضوح، لأرى عينيه، لأرى دموعه التي كانت تقطر على الأرض لتختلط بالمغذي الذي كان يسيل من فمه وأنفه، كانت دموعه صامتة كعادتها تتسلل بهدوء، أكاد أقسم أنها لم تكن دموع العجز، أعرفه جيداً، جبل أشم في الصبر، لكنه يحوي في باطنه قلباً شفوقاً حنوناً كلما تذكر أحبابه فاضت عيناه.

كانت هذه اللحظة من أقسى اللحظات التي مرت علي في المعسكر السادس، أخذت أتحسس بيدي باب الزنزانة البارد، أمسكت المقبض أهزه لا شعورياً وأنا أردد: أما آن لك أيها الباب العنيد أن تنكسر؟

وضعت خدي عليه وأنا أداري دموعي عن الجنود، ما أكثر الأحرار القابعين خلف الأسوار، وما أكثر العبيد الذين يمشون في الشوارع المزدحمة، ماذا لو كنا أسرى عند الروم في زمن الصحابة؟ أتراهم سيخذلون إخوانهم في الدين ليساموا سوء العذاب أم ستكون تبوك بعد مؤتة؟

أحسست بأن صدري قد ضاق حتى أصبح كَسَمِّ الخِيَاط، كنت أشعر ببركان يغلي في صدري حاولت دموعي إطفاءه دون جدوى، توضأت ووقفت أصلي وأنا أرتجف من البكاء، لقد كان رعد الحزن يجلجل في صدري لينهمر من عيني مطراً، وقفت مصلياً دون أن أستطيع قراءة حرف واحد من القرآن، شعرت كأني طفل صغير جاء إلى والده باكياً، أيحتاج الأب من ابنه الباكي أن يقدم عريضة شكواه على عدو ظالم بينما يعرف الأب تفاصيل الحكاية؟؟

وضعت جبهتي على الأرض أشهق من البكاء، كانت دموعي تسيل بغزارة لتخفف عني عناءً ناءت روحي بحمله، شعرت أن سطوة الزمان والمكان حولي بدأت تضمحل ويتلاشى تأثيرها، وأني انتقلت إلى الماضي البعيد، هبت نسمة تحمل معها بقايا سكينة وعزة كانت على جبين الأجداد، رأيت أمامي شواهد القبور المتراصة، سمعت خشخشة نعالهم حوله، كان حزيناً مطأطئ الرأس وهو يودع أصحابه في مقبرة البقيع، هنا سمعت

صوتاً لطيفاً هادئاً عذباً يتسلل إلى قلبي ومسارب روحي: «وددت أني لقيت إخواني، فقال أصحاب النبي ﷺ: أوليس نحن إخوانك؟ قال: أنتم أصحابي ولكن إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني».

يا حبيبي يا رسول الله.. تدعونا بإخوانك؟! وما نحن إلا أرواح تائهة لم تر النور إلا في الأمس القريب، إخوانك قد اشتاقوا إلى لقائك كشوقك يا رسول الله، يتحسسون آثار قدميك الشريفتين بأيديهم المقيدة، قد أثقلتهم الأغلال فحلقت قلوبهم إليك، قد أثخنت أجسادهم الجراح فصبوا أرواحهم بين يديك، قد كُمِّمَت أفواههم حتى لا ينادوا باسمك الكريم، فكان رنين قيودهم وأنين جراحهم المنادي الأعظم باسمك، يُغْدَرُ بهم كأصحاب بئر معونة ويقادون بالسلاسل كخبيب فلا يوصل سلامهم لأحبابهم أحد، يعذبون في بيداء إخلاصهم كياسر وسمية ولا أحد يمر بهم قائلاً: صبراً آل ياسر إن موعدكم الجنة، تعصر أجسادهم الهزيلة بأحزمة كراسي التعذيب كما عصرت الصخرة صدر بلال في لهيب الرمضاء ولا أبو بكر يعتقهم ويؤويهم، يتلفتون يمنة ويسرة فلا يجدون أحداً يبشرهم بمنازلهم في العلاء، ها هم إخوانك كما تحب، أحرار في زمن العبيد، غرباء في زمن الهوان، متوكلون على ربهم كطيور السماء، يحيون حياتك ويموتون موتك، وكما أحاط بك أصحابك في (أحد) يفدونك من سهام الشانئين، ها هم إخوانك اليوم يحيطون بالقرآن يفدونه من تدنيس الظالمين، يصبون أرواحهم على قدميك وبين يديك لتكون كلمة الله هي العليا، كانوا قادرين على أن يقولوا ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ فيعيشوا كما الناس، بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم، ويجعلون أمانة الدفاع عنكم في وصاياهم لأولادهم، لقد كانوا قادرين على أن يعيشوا كما الناس، يطربون للأغنية الحالمة وينعمون بالفراش الوفير، لكنهم عرفوا أن زهور الربيع تذبلها رياح الخريف، وأن بهجة الصباح تفنيها ظلمة الليل، فرغبوا في الخلود معك، رأوا نورك القدسي فتبعوه نحو الفردوس، ولم يكونوا كالمغتبطين برؤيتك في ليل أحلامهم دون أن يستيقظوا ليؤازروك في فجر كفاحهم، طاروا إليك بجناحي الحب والشوق ولم يكونوا كمن يدعو إليك دون أن يجر قدميه الثقيلتين ليتبعك، لقد صنعوا بآلامهم قصور نعيمهم لأنهم علموا أن الحياة ثَمَّ.

لقد سمعوا حداءك يردد: «**أنا فرطكم على الحوض فمن منكم يشرب معي؟**» فتجرعوا آلامهم في رضا، وعصبوا جراحهم في صمت، وحثوا مطاياهم إليك، ليشربوا غَرْفَةَ النعيم من يديك، كانت أجنحة الملائكة تهتز مع نبض قلوبهم حين يعذبون، لقد وقف التاريخ على تلك الرابية ليوثق تضحياتهم في إجلال، لقد ظن المجرمون الظالمون أن حبال المشانق والسجون المظلمة ستطفئ نور الله، ولم يعلموا أن ما بناه الله لا يُهْدَم وما زرعه الله لا يُحْصَد وما أضاءه الله لا تطفئه أفواه الظالمين.

لقد صدق ظنك:

هدأت الأوضاع شيئاً ما بعد عاصفة الإضراب وما أعقبها من تعذيب وعقوبات صارمة استمرت سنة تقريباً، كان معنا في المعسكر ستة من قادة الطالبان، كثيراً ما كنت أتأمل تواضعهم ونخوتهم ونبلهم مع تبتلهم الطويل المملوء بأسرار العبودية لله، ثم أتفكر في صمودهم أمام الإغراءات والتهديدات، كيف اجتمعت الرهبانية مع العزة في إهاب واحد؟

طلب مني أحدهم درساً خاصاً بيني وبينه في تفسير كتاب الله، بلغت معه قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ «يؤوس» إنه لا ييأس إلا من شك في قدرة الله بإنجائه، «كفور» جحد الزمن الطويل الذي أغدق الله عليه فيه نعماً لا تعد ولا تحصى، ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ إنه لا يرى في الضراء إلا ما يسوء، لا يرى الدروس والعبر، ولا تكفير الخطايا ومضاعفة الحسنات، إنه لا يراها إلا من خلال عين عوراء جاحدة، ترى لسع النحل لا حلاوة الشهد، ووخز الشوك لا جمال الورد.

قطع علينا هذا الإبحار في لجة القرآن صوت الجندي يدوي لإغلاق العنبر: (Block shut down)، كان هذا الإغلاق غريباً، نظرت إليه مبتسماً وأنا أقول: أشعر أن فرجكم قد اقترب!

قال لي مازحاً: منذ سنين وأنت تردد (الفرج قريب)!

قلت له: تفاؤل عام دون أن أربطه بحدث، لكني أرى الأمر مختلفاً هذه المرة.

قال وهو يدخل ساقه المبتورة في الطرف الصناعي استعداداً للدخول في الزنزانة: سنرى.

رأيت أحد هؤلاء القادة متذمراً من الإغلاق المفاجئ الذي حرمه من إكمال تمارينه الرياضية في الساحة الخارجية، استقر جميع المعتقلين في زنازينهم، دخل الجنود العنبر بعد إكمال الإجراءات الأمنية، مضى وقت طويل دون أن نعرف سبب الإغلاق، ازداد التوجس، وفجأة دخل الضباط معهم مترجم أفغاني فوقفوا أمام زنازين القادة الأفغان، حاول أحد المعتقلين القريبين منهم اصطياد بعض الكلمات الخفية ليعرف ماذا يجري، وبدون مقدمات ضج العنبر بالتكبير: ماذا يجري يا إخوة؟

: سيطلق سراح القادة الأفغان!

لقد نجحت المفاوضات السرية التي استمرت سنين في إتمام عملية تبادل الأسرى بين الطالبان والولايات المتحدة، لا زلت أتذكره في اللقاء الأخير مغادراً وهو يلوح لي بيديه المقيدتين مبتسماً كأنه يقول: لقد صدق ظنك!

مجالس المراجعات:

لم يكن للمعتقلين في غوانتانامو حق المثول أمام محكمة مدنية، فاستحدثت الحكومة الأمريكية لجاناً جديدة لم يكن لها أي وجود قبل معتقل غوانتانامو، فُصِّلَت أحكامها وإجراءاتها القانونية وفق ما تريده الحكومة الأمريكية، بينما تفتقر هذه المجالس لأدنى المعايير التي توفر العدالة للمتهمين وتلغي القاعدة القانونية المعترف بها أزلاً: (المتهم بريء حتى تثبت إدانته)، فغطّى الظلم بوشاح زائف من العدالة المفرغة من مضمونها، فلا يوجد في هذه اللجان قاضٍ ولا محامٍ ولا إجراءات قانونية مطبقة في المحاكم المعترف بها دولياً، إنما هم ضباط عسكريونٌ يقومون بدور القاضي، والممثل العسكري يقوم بدور المحامي، لكن الخدعة بدت من سذاجتها واضحة للعيان.

في عام ٢٠٠٤ تم إنشاء ما يسمى: (CSRT) وهي اختصار للجملة: (Combatant Status Review Tribunal)، وتعني (محكمة مراجعة وضع المقاتل)، لخداع العالم بأن معتقلي غوانتانامو يتمتعون بكامل حقوقهم القانونية، وهذه المجالس أنشئت للتأكيد فيما إذا كان احتجاز المعتقل في منشأة الاعتقال في قاعدة غوانتانامو البحرية قد تم بصورة صحيحة أم لا، وقد قوبلت هذه المجالس باعتراضات شديدة داخل الولايات المتحدة وخارجها، استقال أحد الضباط الأمريكان المعينين في ذات المجالس من عمله اعتراضاً على الانتهاكات القانونية فيها.

طلب مني الممثل الشخصي حضور جلسات الاستماع والمشاركة فيها فرفضت ذلك تماماً لأن حضوري يعني الإقرار بشرعيتها، وهي مجالس ظالمة لا يتمتع فيها المعتقل بأدنى معايير العدالة، استمات في إقناعي بالحضور على مدى خمس لقاءات مطولة، استخرت الله تعالى فقررت الحضور، ليس للمشاركة بل لأمر آخر!

قيدوني بقيود جديدة مريحة كي يغروني بالمشاركة، ثم مضى بي الجنود إلى عنبر آخر حيث جُهِّزت غرفة كبيرة خاصة للجلسة، أدخلوني غرفة صغيرة إلى حين جاهزية الضباط وبقية الموظفين لموعد الجلسة، وبعد نصف ساعة تقريباً نقلوني إلى الغرفة المجاورة الواسعة، جلس الممثل الشخصي بعيداً عني بينما بقي المترجم في جواري، لم يمض وقت طويل حتى دخل ثلاثة من الضباط، هب الجميع من أماكنهم قياماً إلا شخص واحد لا يزال جالساً على كرسيه الحديدي مقيد القدمين، همس المترجم في أذني وهو يَخِزُني بمرفقه يدعوني للقيام، تجاهلت طلبه وبقيت على مقعدي متكئاً وأنا أتجول ببصري في أنحاء الغرفة الواسعة التي لم تنعم عيني بمثل هذه المساحة الكبيرة منذ زمن، كانت مساحتها تقريباً خمسة أمتار في ستة أمتار، دوى صوت ينادي بحزم وقوة: (جلوس)، همستُ في أذن المترجم متهكماً: بماذا أدعوه؟ هل أناديه (يا أيها القاضي) وهو ليس كذلك؟

نظر إلى الأرض نظرة بلهاء وقد تمعر وجهه متأملاً، قلت مبتسماً: إن لم يكن قاضياً فهذه القاعة ليست محكمة، وإن لم تكن محكمة فلماذا نحن هنا؟

جلس العقيد على المنصة وأعوانه عن يمينه وشماله يلوح على وجوههم العابسة حقدٌ دفينٌ يستحضر ألسنة اللهب المتأججة من مركز التجارة العالمي وعمود الدخان المتصاعد في غضب من حطام البنتاغون، وهناك امرأة سوداء جالسة أمامها طابعة لكتابة كل ما يدور في القاعة، كانت شاشة ضخمة وراء الجنرالات في حال وجود أي عرض مرئي يخص القضية.

كان الجنود في الخارج على أهبة الاستعداد للتدخل في حال حدوث أي عنف محتمل من قبل المعتقل المثقل بالقيود، كانوا يلبسون ملابس الشغب، شعرت أن القاعة مليئة بجمهور غير مرئي، حضور تنقطع الأبصار دونهم، ليسوا من لحم ودم، بل من عنصر آخر لا يراه الأرضيون حتى يلجوا ملكوت السماوات بأرواحهم، عندها سيرونهم، كنت أشعر بهم يحيطون بي، أكاد أسمع صرير أقلامهم يكتبون كل ما يدور في القاعة للشهادة يوم الدينونة، أكاد أراهم يُطَمْئنونني مبتسمين، امتلأ قلبي بشعور دافئ مريح، إن أعظم ما يحتاجه الإنسان في أوقات الشدائد والمحن واللحظات الحاسمة هو التسليم بعد أن تبذل كل ما تستطيع من أسباب، التسليم للخالق القادر الذي سيدبر أمورك، لا داعي للقلق، حين تشعر أن القوة العظمى في الوجود تدافع عنك وهي تسمع كل حرف يقال وترى كل حركة تصدر يتلاشى حينها القلق والتوتر، وتطمئن النفس ويهدأ البال ويسكن القلب وتثق، الثقة هي القفزة التي تتخطى بها كل العقبات، كنت أشعر بالملائكة تملأ المكان، ابتسمت لا شعورياً، أحسست أن ملكاً هناك يبتسم إلي فبادلته الابتسام، إنهم شهود كل محكمة في التاريخ يحاكم فيها المؤمنون ظلماً، يشهدون لأهل الحق على أهل الباطل، إنهم شهود الماضي والحاضر والمستقبل، كل المحاكمات التي شهدوها كانت متشابهة، إلا أن الأسماء والصور هي التي تتغير، إنهم الشهود على الحقيقة التي أراد المجرمون أن يقطعوا أنفاسها خنقاً، الحقيقة التي سيعلنونها على رؤوس الأشهاد وهم جثاة على الركب أمام الصراط، كان هناك صمت مطبق في القاعة المكتظة، اشرأبت أعناق الجميع بحب استطلاع ماذا سيحدث بعد قليل، قد خشعت جوارحهم وأحدقت أبصارهم وسكنت أنفاسهم ترقباً لمحاكمة المجرم الشرير المثقل بقيوده، الإرهابي الذي يشكل خطراً على البشرية، اقترب الممثل الشخصي مني: هل ستتكلم بالإنجليزية سيد فايز؟

: لا.. بل بلغتي الأم، وأحتاج المترجم معي.

: لا بأس.

التفت الممثل الشخصي إلى المترجم: أتعلم أصول الجلسة؟

: بحذافيرها سيدي.

: كن دقيقاً في ترجمتك.

: بالتأكيد.

: لا نريد أن نفوت أي كلمة يقولها قد يكون لها معنى نحتاجه.

: أعلم ذلك سيدي.

: كل هذا لمصلحة السيد فايز، أليس كذلك؟

: تماماً، سأبذل جهدي لخدمته.

ابتسم ابتسامة حاول فيها أن تكون بريئة لكن محاولته باءت بالفشل.

ربت على كتفي وهو يقول: أنت ذكي سيد فايز، أنا متأكد أنك ستجيب على كل الأسئلة بكل صدق وأمانة، هذا سيساعدك جداً، أليس كذلك أيها المترجم؟

: بالطبع سيدي، الصدق مفتاح الفرج كما نقول في العربية.

دوت القاعة بصوت مجلجل ليعلن فيها بدء الجلسة: سكوت.

بدأ العقيد بقراءة الإجراءات المتبعة في الجلسة، ثم أتبعها بسرد الاتهامات المجنونة الموجهة إلي، كان يقرأ من الورقة أمامه: سيد فايز لقد كنت قائداً عسكرياً وشرعياً في تنظيم القاعدة وقائداً في طالبان، لقد قمت بتدريب كوادر القاعدة عسكرياً وشرعياً وشاركت في القتال مع قوات الطالبان، كما كنت مستشاراً مقرباً من أسامة بن لادن المطلوب الأول عالمياً، كما قمت بجمع التبرعات وكتابة المنشورات وصناعة الفيديوهات التي تحرض الشباب على الجهاد.

قلت: هل أنت متأكد أن هذه الاتهامات موجهة ضدي أم ضد (سوبر مان)؟

ضجت القاعة بالضحك: كل هذا تم خلال شهرين ونصف التي كانت مدة مكثي في أفغانستان، يبدو أن واضع هذه الاتهامات كان سكراناً وهو يكتبها!

دوت القهقهات في أرجاء القاعة، رأيت أحد أعضاء الجلسة مطأطئ الرأس خجلاً، يبدو أنه هو من كتب الاتهامات!

قال العقيد: حسناً سيد فايز، عندنا أسئلة نتمنى أن تجيبنا عليها بصراحة.

: قبل كل شيء هل هذه محكمة معترف بها دولياً؟

: لا نبالي بالاعتراف الدولي سيد فايز، يكفي أن تعرف أننا كحكومة أمريكية نعترف بها.

: إن كانت محكمة فأين القضاة والمحامون؟ لقد سلبتم حقنا في المحاكمة العادلة والمعاملة الإنسانية، ألا تستمع إلى أنين المعذبين بجوار هذه القاعة؟ إنهم على بعد خطوات منك لترى من هو الأولى بالمحاكمة على جرائمه نحن أم أنتم!

: سيد فايز يجب عليك أن تجيب على أسئلة الهيئة.

: ويجب عليكم أن تتحاكموا إلى معيار عادل.

: إن معيار هذه المحكمة عادل.

: كيف يكون عادلاً والمتهم عندكم مجرم حتى يثبت براءته؟

: وما المانع في إثبات براءتك؟

: ليس كل بريء يستطيع إثبات براءته بالدليل الدامغ، المعيار القانوني العادل يجعل عبء الإثبات على المدعي لا المنكر، وعدم اعترافك بهذه القاعدة القانونية يؤكد ما قلته بأن هذه المجالس ظالمة.

: إجابتك ستكون في صالحك، أنت هنا لتجيب.

: إن ميزانكم مائل، وأنا لن أضع كلماتي لتوزن في ميزان مائل.

وبدلاً من الاستمرار في حوار غير مجد، مضى العقيد في سرد الأسئلة، وكلما نظر إلي ينتظر إجابة رفعت يدي اليمنى وخفضت اليسرى إشارة إلى الميزان المائل، استمرت الجلسة على هذا الحال ما بين سؤال منهم وإشارة يد مني، ثم ختم العقيد الجلسة قائلاً: نعلن انتهاء الجلسة بعد رفض المعتقل ٥٥٢ من التعاون مع الهيئة لتساعده في إثبات براءته!

وفي عام ٢٠٠٦ أنشؤوا ما يسمى: (ARB) اختصاراً للجملة (Administrative Review Board) وتعني مجلس المراجعة الإدارية، وقد أنشئت للنظر فيما إذا كان المعتقل لا يزال يشكل خطراً على الولايات المتحدة أم لا، وبإمكانهم الإبقاء على المعتقل في الاحتجاز بهذه الطريقة مدى الحياة، كانت هناك أسباب سخيفة يعتمدها الأمريكان في تأييد استمرارية احتجاز المعتقل وأنه يشكل خطراً على الولايات المتحدة، منها أن المعتقل يحفظ القرآن كاملاً أو أنه درس العلوم الشرعية في جامعات متطرفة كجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، أو أنه يصلي بالمعتقلين إماماً فهذا يعني أنه داعية إلى الإرهاب، أو أنه لا يأكل اللحم في المعتقل بحجة أنه غير مذبوح بالطريقة الشرعية!

اندهش المحامون وهم يقرؤون هذه التهم السخيفة، طلبت منهم أن ينشروها في الإعلام لكنهم اعتذروا بعدم استطاعتهم لأن الحكومة الأمريكية صنفت هذه الأوراق القانونية بأنها (Classified) أي أنها مصنفة على أنها سرية.

جاءني الجنود وأنا في المعسكر الخامس سنة ٢٠٠٦، قد عصفت بي الآلام المبرحة في رقبتي إثر إصابتي في المعسكر الرابع، كنت أتحامل على نفسي لأقف وأمد يدي لتقييدها محاولاً ألا ألتفت حتى لا تزداد الآلام شدة، ظننتهم سيأخذونني إلى غرفة التحقيق، لكنهم عرجوا بي نحو مركز التحكم في المعسكر وأدخلوني الغرفة الصغيرة المخصصة للصليب الأحمر، وإذا بعقيد في البحرية الأمريكية جالس وبجواره مترجم، قد أظهرت تجاعيد وجهه عمره الذي تجاوز الستين في ظني، ابتسم متهكماً: هل تعرف بماذا حكمنا عليك؟

بادلته بابتسامة انتزعتها انتزاعاً من بين الآلام التي أحاطتني: حكمكم لن يغير من الحقيقة شيئاً سوى أنكم تخدعون أنفسكم بادعاء العدالة.

قال وهو ينظر إلي متجهماً: حكمنا بأنك عدو مقاتل تشكل خطراً على الأمن القومي الأمريكي.

: لن تسوءني عداوة الشيطان لي.

: كلامك يؤكد لي أنك شرير.

: الشرير لا يحاكمه الأشرار!

: ستبقى يا (٥٥٢) في غوانتانامو حتى تتعاون معنا وتتخلى عن عنادك، سيعاد انعقاد هذه الجلسة في السنة القادمة لنرى ماذا سيتجدد!

ثم أعطاني الورقة المختومة، فضحكت..

: ما الذي يضحكك؟

: ألم تعتمدوا في حكمكم على أفعالي السابقة بزعمكم؟

: نعم.

: فلماذا الانتظار سنة؟ هل تنتظرون مني أن أغير الماضي؟

: لا أستطيع إلا أن أقول إنك عدو مقاتل لأنك تعتبرنا أعداء!

: أعجب من قوم يعطون لأنفسهم الحق بمعاداة من شاءوا وقتل من شاءوا ثم يولولون: لماذا يكرهنا العالم ويعادينا؟

بسطت إليه يدي المقيدة: هل تَسمح بإعطائي ورقة الحكم؟

: لماذا؟

: لأني أعتبرها وسام شرف على صدري في الدنيا والآخرة، وإذا أوقفني الله بين يديه يوم القيامة جعلته دليل ولائي وحبي، وسأقول له: إلهي لستُ جديراً بكرمك بيد أن أعداءك الظلمة قد حكموا علي بأني عدوهم من أجلك فاغفر لي.

: يبدو أنك تريد الاستمتاع بما تبقى من عمرك في السجن.

: قدمان مقيدتان وقلب حر أحب إلي من قدمين تتسكعان في شوارع المدينة وقلبي يرسف في أغلاله.

: ستذيب غوانتانامو عنادَك.

: الأيام بيننا.

التمهيد لجلسة (PRB):

بعد حوار طويل متشنج قلت للممثل الشخصي (العقيد في البحرية الأمريكية): لن أعتذر، عن أي شيء أعتذر؟ وهل قمت بما يستدعي الاعتذار؟

: فايز لقد أكثرت عليهم بكلامك اللاذع، وهم مصرون بأنه يجب عليك الاعتذار.

ثم قال وهو ينظر إلى ساعته: لقد تأخر الوقت، سأتركك فترة لتفكر ملياً وتحدد موقفك الذي ستقرر اللجنة على ضوئه مصيرك، تذكر.. من الأمور المهمة التي ستساعدك على الخروج من غوانتانامو هو إظهار الندم والاعتذار والاسترحام، عندها سأحاول أنا شخصياً إقناع اللجنة أن يأخذوا بعين الاعتبار هذا التصريح منك لإثبات أنك تغيرت وأنك فعلاً تستحق الحرية، سأقنعهم أنك الآن مختلف، لم تعد فايز الذي يتهم الولايات المتحدة بقتل الأبرياء والاعتقال التعسفي دون محاكمات، أصبحت فايز الذي يريد فتح صفحة جديدة من حياته، ينشغل فيها ببناء أسرته فحسب، بعيداً عن السياسة وقضايا الأمة، اترك عنك هذا الهراء وفكر في نفسك.

ثم تركني وخرج، خرج لتهجم علي الأفكار المتناقضة التي لم تجد لها ميداناً تتصارع فيه إلا قلبي المتعب المسكين الذي أنهكه ذل القيد وقهر الرجال، اعتذر يا فايز، اعتذر لترجع إلى والديك المكلومين وأهلك ووطنك، اعتذر كما اعتذر حذيفة لهرقل وقَبَّلَ رأسه، لكن هل قبل رأسه معتذراً أم مشترطاً إطلاق سراح من معه من

المسلمين؟ وعن ماذا أعتذر؟ وعلى أي شيء أندم؟ أعتذر لأني خرجت لإغاثة المستضعفين وأني رحمت بكاءهم واستجبت لتوسلاتهم؟ وكيف أندم على ذلك بينما هم يفتخرون بقتل الأبرياء على الهواء مباشرة دون أن يرف لهم جفن أو يشيحوا بوجههم عن الضحية حياء على الأقل؟ لماذا أعتذر بينما يتباهى شعبهم الأناني الجشع الذي انتخب المجرم مرتين ليدوس رقاب الأمم وينتزع من أفواه الجياع خبزهم المعجون بعرق جبينهم ودموع أجفانهم؟ ذلك الشعب الذي هرع مسرعاً إلى الشاشات لكي يرانا متألمين ويسمعنا مستغيثين مسترحمين، قد تركوا مواقدهم الدافئة ليستمتعوا بمشاهدتنا مقيدين مهانين، جاؤوا ليروا الفريسة المتوجعة بين مخالب الضباع، جاؤوا لينظروا إلى ذلك المجرم الشرير واقفاً أمام القضاء، لقد حكموا عليه قبل أن يسمعوه، ذلك المجرم الذي تجرأ وذهب إلى الأرض البعيدة دون أن يستأذنهم، ليمد يده إلى الغرقى الذين يتلبطون في اللجة.

آلمني أحد الإخوة حين قال لي: إن حكموا عليك بالبقاء مرة أخرى فأنت السبب!

أجبته منفعلاً: أي هوان نحن فيه حين نلوم المظلوم المعذب عندما يصرخ في وجه الظالم يطالبه بالعدل والإنصاف؟

لقد كان الأخ مشفقاً علي لكنه لم يعلم أني كنت أعاني جراء موقفي هذا الذي ألزمني به عشقي للحرية والكرامة، وأني لم أعد أتحمل من يجرني إلى الوراء.

أخذنا نسير سوياً في ساحة الممشى للمعسكر السادس، كانت ليلة بخيلة ضنت علي بهدوئها الخلاب وتركت قلبي يواجه أعاصير الأفكار وحده، خاطبني بنبرة حزينة قلقة متوددة: أرجوك يا فايز كف عن مناكفة الأمريكان ومماحكتهم في الجلسة القادمة.

كانت نبرته ممزوجة بالحب الأخوي الصادق.

: ليس في كلامي يا فوزي أي نوع من العنف والتهديد الأهوج، كل ما أتفوه به هو رفض ظلمهم والمطالبة بحقوقنا كبشر، لا يحق لهم أن. .

قال مقاطعاً: لن يسمحوا لكلماتك بالخروج من القاعة، كل ما تراه من جهات إعلامية حاضرة للجلسة لن تنشر إلا ما تراه مناسباً. سيكممون فمك، ستعيش وحيداً في زنزانتك الضيقة، وستموت فيها وحيداً، وستصمت إلى الأبد، أدرك والديك يا فايز قبل أن. .

شعرت أن لجملته الأخيرة يدين تهزان قلبي بقبضتهما الحديدية، كادت دمعتي أن تنزل لولا أني تداركتها، إنه الجرح الغائر الذي أتأوه منه حين يمس.

: لن يسمحوا لكلماتك بالخروج من القاعة يا فايز، إني عليك مشفق، بل على والديك، لن يكون هناك طرف آخر ثالث، لا يوجد في القاعة إلا أنت وهم، لن يسمع كلامك غيرهم.

: كلا يا فوزي، هناك طرف ثالث معنا، أريده هو أن يسمع، أريد أن أثبت له ولائي أمام عدوه المتكبر، أريده أن يعلم أن حبي له أعظم من سطوة الظالم على المظلوم.

أطرق فوزي حزيناً.

: القضية ليست إعلامية بقدر ما هي إيمانية.

: فايز.. قل لهم ما يريدون، وبعد خروجك قل عنهم ما تشاء.

: لا قيمة لكلمة الحق حين تقال في زمن الأمن، إن عظمتها تكمن حين تقال وأنت في قبضة الشيطان، في فم الأفعى، أمام ملوك الأرض وهم ينظرون إليك بازدراء.

: فايز أرجوك.. أسألك سؤالاً واحداً: أيجوز أن تقول لهم ما يرضيهم في هذا الموقف؟

: نعم، أنا مكره.

: قلها إذن، قلها من أجل والديك اللّذَيْن تحترق قلوبهما ألماً وحسرة.

ظللنا نمشي طويلاً دون أن ينطق أحدنا بكلمة، شعرت بعاصفة هوجاء في عقلي وقلبي معاً، رجعت إلى زنزانتي في حال لا يعلمها إلا الله، ألقيت بجسدي المتعب على السرير المغطى ببطانية خضراء داكنة يغلب عليها مادة البوليستر، تسمرت عيوني في السقف، لكني لم أكن أنظر إليه، كنت أنظر إلى تلك الحرب الضروس بين كلمة حق ينبغي أن تقال وبين الشوق إلى حضن الوالدين اللّذَيْن عانيا الكثير، ابتلت وسادتي بالدموع، شعرت بأنها خرجت من ذلك الأتون الذي يغلي في صدري، أخذت كلماته تتردد في أذني بنبرة موجعة مؤلمة: لن يسمحوا لكلماتك بالخروج من هذه القاعة يا فايز، ستعيش في زنزانتك الانفرادية وحيداً وستموت وحيداً وستصمت إلى الأبد.

لا لن أبقى صامتاً في هذا السجن الظالم، إن رنين قيودي ستنادي كل لحظة بأعلى صوت لتكشف حقيقة الظالمين، لست صامتاً في هذا السجن ما دام صوت الحق يدوي في الآفاق، أنا الروح الحرة ولست الجسد المقيد، لن يقيد حريتي أحد بعد اليوم ما دمت أقول الحق ليصل آذان الظالمين، نعم سيكممون الأفواه ويقطعون الألسنة، ومن قال إننا لا

نتكلم إلا بألسنتنا؟ نعم سيسحقون كل شجرة تطاول بأغصانها عنان السماء، لكن هيهات أن يصلوا إلى البذور المختبئة تحت الثرى تنتظر الربيع القادم، ولماذا أسكت؟ ليكون سكوتي إقراراً مني بأني مجرم؟ لماذا أداهن؟ لينتشي الظالم بقوته التي أجبرت المظلوم على الركوع أمامه؟ إنما طالبت بحقي كإنسان، بأن أعامل كانسان وأحاكم بعدل، فإن لم أستطع أن أنال حقي فلا أقل من أن أقول للظالم وهو في عنفوان بطشه: أنت ظالم.

بدأ القلق يتسلل إلى قلبي شيئاً فشيئاً، كانت صورة أبي وأمي تلوح أمامي، كانا يبكيان، بينما اجتمع إخواني وأختي حولي في حزن قاتل. هل أقول للظالم ما يسره حتى أعود إلى أحبابي؟ ولماذا نقرأ بتعظيم وإجلال قصص العظماء السابقين الذين وقفوا في وجه الظالم وقالوا كلمة الحق؟ ألم يكن لهم آباء وأمهات؟ ألم يكن لهم أسر وعائلات ينتظرونهم بفارغ الصبر؟ ألم يكن لهم أولاد صغار يتشوقون إلى الارتماء في أحضانهم؟ بينما نقول لمن يقف ذات الموقف اليوم: لقد أخطأت!

أهو جلال الموت الذي طوى هؤلاء السابقين فجعل منهم أيقونة بينما لا يزال الحي أسير اللحم والدم؟ أم لأن تمجيد الماضي ليس فيه تبعات تبذل، بينما نهرب من الحاضر الثقيل الذي يطالبنا بدفع الثمن؟

في خضم هذه اللجة من التردد والحيرة كنت أحتاج أن أنفصل عن كل ما يحيط بي لأرتبط مباشرة بخالق الكون ومقدر المقادير، لا يقلق من كان له أب فكيف بمن كان له رب؟

إلهي وسيدي ومولاي، رضيت بك رباً مهيمناً على الكون، وبالإسلام العظيم ديناً يكسر أغلال القلوب، وبمحمد نبياً يخرجنا من الظلمات إلى النور، إن أَوْصَدْتَ البابَ فلحكمتك، وإن كَسَرْتَ القيدَ فلرحمتك، فيا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، إن كان يرضيك عني ما أنا فيه فوعزتك إني له لمن الراضين، لكني أسألك العفو والعافية، إن تكلني إلى نفسي خسرت وانقطعت، وإن أسعفتني بمددك فزت ووصلت. ها هو عبدك الذليل المذنب منطرح بين يديك، متوسد عتبة بابك، وحاشاك إلهي وسيدي ومولاي أن تخذل من اعتصم بك.

مجلس المراجعة الدورية (PRB):

في عام ٢٠١١ وقّع الرئيس الأمريكي أوباما على قرار إنشاء مجالس (PRB) وهي اختصار لاسمها: (Periodic Review Board) أي مجلس المراجعة الدورية، حددوا موعد جلستي في عام ٢٠١٣، كانت عن طريق دائرة تلفزيونية مغلقة، تربط ما بين غوانتانامو ومكتب تابع للبنتاغون في العاصمة واشنطن، كنت مع المحامي والمترجم والممثل

الشخصي (الضابط في الجيش الأمريكي)، وفي واشنطن كان مستشار أوباما (آلن ليوتا) مدير الجلسة وموظفون يعملون في البنتاغون ووكالة الاستخبارات المركزية (CIA) ومكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) ووكالة الأمن القومي (NSA) ووزارة الداخلية (Home Office) ووزارة الخارجية (Ministry of Foreign Affairs) ووزارة العدل (Ministry of Justice)، وفي مؤخرة الغرفة يجلس الصحفيون الذين سمح لهم بحضور الجلسة العلنية، ثم انصرفوا قبل بدء الجلسة السرية التي يتحدث فيها المعتقل عن قضيته ويجيب عن أسئلة الفريق الآخر، كان السفير الكويتي ضمن الحضور، إنه السفير العربي الوحيد الذي كان يحضر هذه الجلسات لمتابعة قضية من يقاسمه حب الوطن ووحدة المصير، سمعت الضابط الأمريكي يقول بإعجاب: هو البلد العربي الوحيد الذي بلغ اهتمامه بمواطنيه حضور السفير للجلسة!

تفاجأت حين قال رئيس الجلسة بوجود شاهد على القضية! ومن عساه يكون؟

مرت دقائق لأعرف بعدها أنه الدكتور غانم النجار، إنه نفسه الرجل الذي كان يخاطر بحياته ليزور الأسرى الكويتيين لدى النظام العراقي السابق، ها هو اليوم يعيد الكرة مع الأسرى لدى الولايات المتحدة!

انقسمت الشاشة الكبيرة إلى قسمين لأرى في شطرها أعضاء اللجنة الأمريكية المُشَكَّلة للنظر في قضيتي، وفي الأخرى غانم النجار بابتسامته الجميلة، لقد سافر على حسابه الخاص من الكويت إلى كندا، ثم إلى العاصمة واشنطن، ليعاني الإجراءات الأمنية المعقدة لأربع ساعات كاملة في مكتب تابع للبنتاغون كي يحضر الجلسة ليشهد بأن الكويت حكومة وشعباً تطالب بإعطاء هذا المواطن الكويتي حقه الإنساني بمحاكمة عادلة أو إطلاق سراح، لقد هزني ذلك الموقف من الأعماق، كنت أتأمل النجار بينما أتذكر دعاة كانوا يستهزئون بآلامنا ويسخرون من جراحنا. أي جريمة في حق الإسلام نرتكبها حين نجعل أمثال هؤلاء الظلمة يمثلونه لمجرد لحية طويلة أو ثوب قصير أو حفظ نصوصه ليتباهى بها في المجالس؟

لقد جسدت هذه الجلسة تعاضد الحكومة الكويتية والشعب الكويتي في نصرة هذه القضية مما أعطاها زخماً هائلاً أمام الأمريكان الذين اندهشوا من هذا الاهتمام الفريد الذي ما رأوه في كل الحكومات العربية الأخرى.

كان رئيس الجلسة (آلن ليوتا) مستشاراً للرئيس الأمريكي (باراك أوباما)، وكان يرى أن معتقلي غوانتانامو مذنبون حتى تثبت براءتهم مخالفاً بذلك كل المبادئ والأعراف القانونية، كان متعنتاً في شروطه لإطلاق سراحي، لدرجة أنه اشترط على الوفد الكويتي الذي بذل كل ما يستطيع لإنقاذي بأن يخرج إخواني من بيت والديّ

لأسكن أنا وحدي معهما! لا أدري لماذا؟ قلت للوفد: هؤلاء الظلمة كما أخبر الله عن السحرة: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾، وهؤلاء يفرقون بين المرء وإخوته!

أخذوا يتناوبون علي بالأسئلة، سؤال من هنا وسؤال من هناك: هل كنت منضماً لتنظيم القاعدة أو جماعة طالبان؟

: لا

: ما رأيك في الجهاد؟

: كرأيك في وزارة الدفاع.

: ماذا تقصد؟

: أقصد أن الجهاد فريضة إسلامية للدفاع عن أنفسنا وبلادنا وأعراضنا ولا يعني الاعتداء على الآخرين ولا الإرهاب، وما يسميه رئيسك بوش (Crusade) نسميه إرهاباً لأن الفرق بين الجهاد وقتالكم هو أن الجهاد يحرم قتل الأبرياء.

ثم سألني رئيس الجلسة قائلاً: سيد فايز.. ما رأيك بالإرهابيين الذين يذبحون الأبرياء بالسكاكين؟

قلت: قتل الأبرياء يعد جريمة في الإسلام حتى لو لم يكن المقتول مسلماً، كل من يقتل بريئاً يعد مجرماً إرهابياً سواء ذبحه بالسكين أو بصواريخ (كروز توماهوك)!

كانت كلمتي الأخيرة كفيلة بأن تنهي الجلسة، قال (آلن) وهو ينظر إلي شزراً: شكراً جزيلاً سيد فايز!

والأمريكي إذا قال لك (يا سيد) فاعلم أن هناك مصيبة بانتظارك، قررت الهيئة الاستمرار في احتجازي لتنعقد لي جلسة أخرى بعد سنة على الأقل!

أخبرني أهلي بعد إطلاق سراحي بأن تفاؤلهم بعودتي أخذ يتبدد شيئاً فشيئاً خاصة في آخر أيام الأسر، فلما أطلق الأمريكان سراح أخي فوزي تزعزع لأول مرة يقين أبي وأمي باللقاء، لكن العجب أني كنت على النقيض تماماً، نعم لقد طال الفراق، وتَمَكَّنَ الوله للوطن والأهل والأحباب، لكني كلما انقضت سنة ازددت يقيناً بالوصال بينما اضمحل عندهم شيء من أمل اللقاء، أرى انصرام الأيام خطوات إليهم، ويرونها خطوات عني، يعظم أملي ويعمق يأسهم، كانوا خارجاً يرون ظلمة الأسر، وكنت داخلاً أرى نور الحرية، كنت موقناً بالفرج يقيني أن بعد اليوم غداً، فواعجباً لرحمة الله التي تغمر قلب الأسير فتحيله فضاء رحباً ينعم فيه بالحرية، ليس اليقين في أن تقول

للشمس وهي طالعة: قد أشرقت، إنما اليقين في أن تصرخ في ظلمة الليل أمام المستهزئين بك: سوف تشرق.

أعلنت الحكومة الأمريكية إطلاق سراح أخي فوزي في ليلة السابع والعشرين من رمضان، علم أبي وأمي بالخبر فخرا لله ساجدَيْن شكراً على إطلاق سراحه، سأل والدي العقيدَ عبد الله: هل هناك أمل؟

لأول مرة يسأله هذا السؤال الذي هزه من الأعماق، أجابه في شفقة: بالتأكيد يا أبا فايز، الأمر كله بيده الله.

: لا شك في ذلك، لكنني أسأل عن رأيك من خلال علمك بما يجري في المباحثات.

: سأبذل كل ما في وسعي لإطلاق سراحه، سأمسكه من يده وأنزله من الطائرة ليعانقك بإذن الله، فلنكثر من الدعاء.

كانت هناك سياسة في القطاع الأمني آنذاك تحث الضباط على التقاعد مقابل مكافآت مالية كبيرة، فخشي العقيد عبد الله من أن يتولى ملفنا من لا يهتم بالقضية فيدفع المعتقلون ثمن ذلك، فرفض العرض ليستمر في تولي الملف، وخسر جراء ذلك ما يزيد على ثلاثين ألف دينار أي ما يعادل مئة ألف دولار، فاللهم إني لا أقوى على مكافأته ولا مكافأة كل من نصرنا بما يستطيع، وقد قال نبيك ﷺ: «**من صُنِعَ إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيراً، فقد أبلغ في الثناء**»، فاللَّهُمَّ جازهم بكرمك يا أكرم الأكرمين.

انعقدت اللجنة الثانية بعد سنة تقريباً، ومن لطف الله بي أن (آلن ليوتا) قد أحيل للتقاعد بسبب سنه، تغيرت الهيئة المكلفة بالنظر في قضيتي، كانت رئيسة الهيئة امرأة أكثر تسامحاً من سابقها، لكنني تفاجأت بأن الأسئلة كانت هذه المرة أكثر عمقاً ومراوغة، انهالت علي الأسئلة من كل صوب، استغرب جميع المعتقلين من طبيعة الأسئلة الموجهة إلي، حيث لم توجه مثلها إلى أحد منهم، حتى ظننت أن الحكم علي سيكون كسابقه، ومن حسن الحظ أني أحتفظ بالأسئلة معي حتى الآن، وسأكتب شيئاً منها.

: ما هو رأيك باستعمال التطرف في الإسلام؟

: ليس في الإسلام تطرف، إنما التطرف يكون من بعض معتنقيه، وككل فكرة وعقيدة قد يعتري البعض سوء الفهم أو سوء الطوية، فينزع إلى طرف الإفراط أو التفريط.

: هل تغيرت عن السابق؟ وما طبيعة التغير؟

: بالتأكيد، لقد ترسخ يقيني أنه لا خلاص للبشرية من هذا التيه الذي تعانيه إلا بالتجرد للبحث عن الحقيقة دون انحياز وتعصب، وأنه لا سلام حقيقياً في هذا العالم إلا بالعدل.

: ماذا كان شعورك عندما سمعت نتيجة الجلسة السابقة حين حكمنا عليك بالبقاء في غوانتانامو؟

: درس جديد أتعلمه، وحاجز يجب أن أقفزه قبل خط النهاية.

: ما هو شعورك تجاه الولايات المتحدة؟ وهل أنت غاضب منها؟

: تعلمت بأن لا أضيع وقتي في زجر الذباب، العاقل يمضي في طريقه ولا يلتفت لنباح الكلاب.

تدخل المحامي (إريك لويس) قائلاً: أي أنه سيفتح صفحة جديدة من حياته، ولن يسمح للتجربة القاسية أن تؤثر عليه.

قلت: بالضبط.

: حدثنا عن الجروح في جسدك والشظايا التي لا زالت في ظهرك وحوضك؟

: القصف لا يفرق بين عسكري ومدني.

: ما هو الفرق بين الاعتدال والتطرف؟

: هما أمران نسبيان، يجب ألا نعين الاعتدال والتطرف إلا بعد أن نعرف أين تقف الحقيقة، حينها سنستطيع التفريق بينهما.

: هل ولاؤك للحكومة الكويتية أم للدين الإسلامي؟

: هذا سؤال ملغوم وسأجيبك، ولائي للدين الإسلامي لأن الحكومة تعتبر كياناً بشرياً يعتريه النقص والخطأ والانحراف، الولاء أمر وجداني يجب ألا يكون إلا للحقيقة وحدها، فإن طرأ انحراف في ذاتي فسأسعى لإصلاحه أو أي كيان آخر فسأدعو لإصلاحه.

: لو افترضنا أنك سافرت إلى دولة أوروبية فكيف ستتعامل مع مجتمعاتهم التي تختلف تماماً عن مجتمعاتكم الإسلامية؟

: هناك فرق بين التعايش مع الآخر والذوبان فيه، نبينا ﷺ تعايش مع جيرانه اليهود وزواره النصارى، نحن نتعايش مع التزامنا بما نراه الحق.

: كيف تتعامل مع من يؤمن بنظرية داروين؟

: نحن نؤمن بأن الله خلق آدم خلقاً مباشراً وليس بآلية النشوء والتطور المزعومة التي يراها داروين، فإن كان هناك من يرى جده الأكبر قرداً فهذا رأيه في جده هو ولا شأن لي بجده!

انفلتت الضحكات من أحد أعضاء الجلسة.

قال لي أحد الضباط الأمريكان بعد الجلسة: لقد كان أداؤك عظيماً، ولكن لم يقل داروين بأن أصل الإنسان قرد، هذه إهانة لم يقل بها داروين.

: أعلم أنه قال بأن القرد والإنسان انحدرا من أصل مشترك، أي من أصل هو أدنى من القرد ثم تطور إليه، فلماذا تعتبرها إهانة لتقبل ما هو أحط؟ ثم هو إن رأى أنه والقرود أبناء عمومة فهذا يعني أنه لم يتطور بعد.

سمعت الضحكات المكتومة تفلت من الجنود الواقفين في مؤخرة القاعة.

: ما هي البرامج التي تحب أن تشاهدها؟

: برامج ديفيد أتينبرا في قناة (بي بي سي) عن الطبيعة، لكن أتمنى أن تبلغوه رسالة مني!

قالت رئيسة الجلسة في استغراب: ما هي؟

: أود أن أقول له بأني ممتن حيث حدثتنا عن عظمة الخَلْق فَهَلّا حدثتنا عن عظمة الخالق!

في دهشة: سنحاول.

وبعد أسابيع جاءت البشرى من الله، هويت ساجداً شكراً، رفعت رأسي فوجدت الإخوة حولي سجوداً، لله قلوبهم التي تدوس جراحها لتقفز فرحاً مع المبتهجين بالفرج.

سألني أحدهم: هل كنت تظن خلال هذه السنين الطوال في غوانتانامو أنك سترى شمس الحرية من جديد؟

قلت: لم يعترني الشك قط بأني سأعانق الحرية يوماً، لقد كنت أرى محياها بعيني من بين القضبان، وأسمع حداءها بأذني في الزنزانة المقرورة، وأجد شذاها بأنفي في قعر الألم.

التحركات الحكومية والشعبية:

كان المحققون الأمريكان يصفون حكومات العالم الإسلامي بكلاب أوفياء لنا، كنا نشعر بهوان أمتنا ونحن نرى الحكومة الأمريكية تسلم عشرات المعتقلين إلى الدول الأوروبية التي طالبت بمواطنيها والمقيمين الذين لم يحصلوا على جنسيات أوروبية، ولم تشترط الولايات المتحدة لإطلاق سراحهم ما اشترطته على الدول العربية من خضوع المعتقلين لبرنامج تأهيلي لمدة تزيد على ستة أشهر، حتى وصلت في بعض البلدان العربية إلى ثماني سنين.

كانت الحكومة الكويتية ثاني دولة في العالم تطالب بإطلاق سراح معتقليها بعد بريطانيا، لقد كان اهتمامها بمعتقليها مميزاً من بين كل الدول العربية والإسلامية، خاصة في آخر سنتين من اعتقالي، ومما أعطى قضيتنا زخماً لا يستهان به هو وقوف الأمير الشيخ صباح أتم الله عليه نعمة الإيمان والعافية بجانب قضيتنا، ومطالبته المستمرة بإطلاق سراحنا، إذ لو كان لدى الأمريكان أي دليل ضدنا لقدمونا للمحاكمة، لقد شجع موقفه النبيل الكثيرين من الخائفين والمترددين والمتقاعسين ليفعلوا الشيء نفسه.

حين كنت أشارك قبل الأسر في الاعتصامات نصرة لإخواننا في فلسطين كنت أناجي نفسي بأن هذه الفعاليات لا قيمة ملموسة لها تخفف معاناة إخواننا المضطهدين، لكني كنت أشارك فيها حتى لا أعاني من تأنيب الضمير، لكني حين سمعت عن الاعتصامات أمام السفارة الأمريكية تطالب بإطلاق سراحنا أدركت خطئي، أدركت أن هذه الأفعال لها دور كبير في رفع معنويات المظلومين ودعمهم نفسياً.

أكدت السفيرة الأمريكية في الكويت (دوبرا جونز) أن التعاون بين الولايات المتحدة والكويت قوي جداً، وأن دور الكويت في حرب العراق مهم والعلاقة بينهما إسمنتية، وفي ذات الوقت كانت تتهم الكويت بأنها تمارس العبودية ضد العمالة، ثم بكل وقاحة أمهلت الكويت ستين يوماً تعمل خلالها من أجل الحد من الإتجار بالبشر كي تحدد الإدارة الأمريكية إذا كان هناك عقوبات أم لا وفقاً لمعايير الرئيس الأمريكي جورج بوش، مما حدا برئيس البرلمان الكويتي جاسم الخرافي رَحِمَهُ اللهُ أن يقول للولايات المتحدة التي تدعي حماية الحريات والحقوق الإنسانية: (ينبغي على الولايات المتحدة أن لا تنسى أن أبناءنا لا يزالون يعذبون في غوانتانامو دون محاكمات أو معاملة إنسانية، ومن كان بيته من زجاج فلا يرم بالحجارة بيوت الآخرين)

لقد قامت اللجنة الشعبية للدفاع عن المعتقلين الكويتيين في غوانتانامو برئاسة العم خالد العودة بجهود عظيمة وكفاح مذهل لإطلاق سراحنا، قال المحامي (توماس ولنر)

للعم خالد العودة حين قررت الحكومة الأمريكية إطلاق الدفعة الثانية من الكويتيين عام (٢٠٠٥): لابد أن نكتب توصية كي يطلقوا سراح ابنك فوزي معهم، فأجابه: كلهم أبنائي، والأب لا يفضل أحد أبنائه على الآخرين!

ولن ننسى جهود العم المحامي عبد الرحمن الهارون، والأخ المحامي عادل عبد الهادي، والدكتور غانم النجار والنواب الفضلاء عادل الدمخي وجمعان الحربش ووليد الطبطبائي وفلاح الصواغ رَحِمَهُ اللهُ وجميع من طالب بإطلاق سراحنا من المسؤولين الحكوميين والنواب والإعلاميين والحقوقيين فجزاهم الله خيراً.

كانت الأجواء في البرلمان الكويتي متوترة في ذلك الوقت لأسباب كثيرة، وشاء الله أن يكون اليوم المخصص لمناقشة قضية غوانتانامو هي القشة التي قصمت ظهر البعير، كان للأخ المحامي عادل عبد الهادي دور مهم في حشد التأييد النيابي لقضيتنا، كان لأحد أعضاء البرلمان موقف سلبي تجاه قضيتنا على الرغم من أن كل المؤسسات الإنسانية العالمية باختلاف أديانها كانت تستنكر الظلم الواقع على معتقلي غوانتانامو الذين حُرِموا من المحاكمة العادلة والمعاملة الإنسانية، فاشتعلت الشرارة بين النواب وتراشقوا بالسباب لتنتهي باشتباك يدوي لأول مرة في تاريخ البرلمان الكويتي، لقد أعادت هذه الحادثة غوانتانامو في الواجهة من جديد، فتجدد النشاط لإنهاء هذا الملف الحساس، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

استمر العم خالد في عطائه وبذله طوال فترة اعتقالنا التي استمرت أربعة عشر عاماً دون كلل أو ملل، ولقد لقيت جهوده دعماً حكومياً مشكوراً، فقد تكفلت الحكومة الكويتية بأتعاب شركات المحاماة، إلا أن هناك عشوائية من بعض المسؤولين الحكوميين وتخبطاً في السياسة المتبعة في الإنفاق على القضية، أذكر منها في أغسطس سنة ٢٠٠٨ حين صرفوا ستين ألف دولار على (مؤسسة ليفيك الإعلامية) ومائتي ألف على مكتب المحاماة الأمريكي، وحين سألت المحامي ديفيد سينامون عن جهود هذه المؤسسة في خدمة قضيتنا إعلامياً أخبرني بأن لهم جهوداً ضعيفة جداً سابقاً، قلت: والآن؟

قال: لا شيء!

ثم إن شركة المحاماة هذه قبضت هذه الأموال الباهظة دون طائل، إذ لا حق لنا في المثول أمام محاكمات مدنية، كل ما في الأمر مجرد مجالس عسكرية غير معترف بها عالمياً، تم تفصيل قوانينها بطريقة تسلبنا أدنى الحقوق المعتبرة فى كل المحاكمات العالمية، فَيُقْبَل كلام شاهد مجهول بدون دليل وغيرها من الأمور التي تسهل على الحكومة الأمريكية الاستمرار في الاعتقال وتصعب على المتهم إثبات براءته، أخبرت

المحامي بأنه إذا لم يكن بمقدور المتهم أن يتعرف على الشاهد فكيف يدحض حججه ويبين كذبه؟ فأخبرني بأن الحكومة الأمريكية لم تأت بالمعتقلين إلى غوانتانامو إلا لسلب حقوقهم الإنسانية والقانونية، وعلى الرغم من جور القوانين إلا أن هذه اللجان أقرت ببراءة بعض المعتقلين لكن الحكومة الأمريكية استمرت باعتقالهم لأكثر من عشر سنوات إضافية!

قلت للمحامي (توماس ولنر): أرى كل المحامين الأمريكان الذين يتمتعون بنفوذ قوي هم من اليهود!

علت وجهه ابتسامة الفخر وهو يقول: ليس المحاماة فقط يا فايز، نحن أقلية في الولايات المتحدة لكننا نسيطر تقريباً على مكاتب المحاماة الكبرى والاقتصاد والإعلام، ثم أمال رأسه إلي وهو يقول: هيلاري كلينتون صديقتي.

لقد كان كبيراً في السن لكنه لا يزال يحتفظ بعنفوانه وحبه للتحدي، سمعت صراخه في إحدى الأيام خارج غرفة المقابلة، كان منفعلاً على العقيد الذي رفض أن يجري توماس عدة لقاءات مع أكثر من معتقل كويتي، وفي مرة أخرى كان يتكلم بالهاتف الداخلي مع العقيد فغضب عليه فضرب السماعة وكسرها، كان يعيش أيام شبابه حين كان لاعب ملاكمة، قلت له: قد يرفضون مجيئك مرة أخرى بسبب تحديك لهم، فأجاب بكل ثقة: لن يستطيعوا يا فايز، سأقلب الدنيا عليهم إن فعلوا!

لقد تعمدت الحكومة الكويتية اختيار هذا المحامي لأنه كان قوياً ذا نفوذ داخل الحكومة الأمريكية، لكن الحكومة الكويتية استجابت سنة ٢٠٠٦ للضغوط الأمريكية لتغييره بسبب تصعيده للقضية، فجاؤوا بمحامين على النقيض من توماس ولنر الذي كنت أسميه (الحوت الأزرق) (The Blue Whale)، بينما أسميت الآخرين (The Snail) أي الحلزون لكسلهم!

كنت منزعجاً حين قال لي المحامي المدني (ديفيد) بأن بعض المسؤولين الكويتيين قرر تقديم عشرين ألف دولار لـ (medicine group) من أجل ترتيب لقاء مع شخص يعمل في وزارة العدل الأمريكية لتسهيل إطلاق سراحنا على الرغم من أنه لا يملك قراراً في قضيتنا، اعترضت على هذا التبذير لترتيب اجتماع في غرفة مظلمة دون أن نشعل فيها مجرد شمعة، ولقد أخبرني المحامي أنه لا يوجد هناك أي ضمان لنتيجة الاجتماع، بل ذكر أن نسبة النجاح فيها ضئيلة للغاية، لكن بعض المسؤولين متفائلون بطريقة مبالغ فيها.

لم أثق بهؤلاء المحامين المدنيين الذين لم يكن همهم سوى جمع الأموال، بل إن

مساعد المحامي المدني (ماكلين) كان يتولى الدفاع عن لجنة الصليب الأحمر في تورطها ضد معتقلي غوانتانامو في الوقت الذي يهاجم فيه مسؤوله (ديفيد) لجنة الصليب الأحمر لتورطها في الإضرار بالمعتقلين، أي أنهم يأكلون من كل جوانب الصحفة!

لقد صرفت الحكومة الكويتية أكثر من عشرين مليون دولار للمحامين المدنيين الذين تولوا قضيتنا، دعم مالي كبير يدل على حرص صناع القرار على إنهاء الملف، لكن سوء إدارة بعض المسؤولين تشوه العمل النبيل، فكتبت رسالة إلى السفير الكويتي في واشنطن وطلبت من المحامي ديفيد توصيلها له، طلبت فيها إيقاف كل الدعم المالي للقضية والاكتفاء بالتصعيد السياسي والإعلامي، فهذه الأموال المبذولة لنصرة قضيتنا هي أموال الدولة التي يجب المحافظة عليها، وبدلاً من تضييعها على المحاماة والمحاكم المغلقة أبوابها أمامنا ينبغي صرفها على الإعلام أو إيقافها تماماً.

كنت زاهداً في المحامين لعلمي بأن الولايات المتحدة لن تعطينا حق المثول أمام المحاكم المدنية الأمريكية، فاشترطت على المحامي إن أراد أن يستمر في قضيتي عدة شروط:

١ ـ أن يأتيني بأخبار العالم الذي عزلنا عنه عزلة تامة.

٢ ـ كل تصريحات بوش ودونالد رامسفيلد وديك تشيني فيما يخص قضيتنا والقضايا العالمية المهمة.

٣ ـ أن يأتيني بأخبار أهلي لأطمئن عليهم بعد العزلة الطويلة عنهم.

وافق المحامي على ذلك بعد تردد، سمحت الإدارة للمحامي بعد أكثر من سبع سنوات من المنع أن يحضر لي صوراً لأهلي، سمحوا له بذلك مرتين فقط، كانت من أروع اللحظات، دخلت زنزانتي وحلوا قيودي، وضعت الصور على السرير ورحت أقطع الزنزانة ذهاباً وإياباً، ألتفت إليها بين الفينة والأخرى، مستمتعاً برؤية المظروف يحوي بداخله صور أهلي الذين حرمت منهم سنين طويلة، كان منظرها على السرير أجمل عندي من إطلالة البدر المستنير على بحيرة متلألئة بنوره، شعرت بأني حزت كنزاً ثميناً أحرزته في صندوق لا أريد أن أفتحه، كان مجرد الشعور بوجود صور أهلي معي في الزنزانة يمنحني شعوراً رائعاً لا يوصف، شعور بأنهم قريبون مني، إنهم معي هنا أسمعهم وأراهم، أمازحهم وأواسيهم، آكل معهم وأشرب، سرعان ما تبدل شعور الغبطة والفرح إلى الخجل والاستحياء، لقد كان علمه معي كل لحظة، يراني ويسمعني، يكلؤني بحفظه ويرعاني بعنايته، فمالي التهيت عنه؟ أليست رسائله معي؟ ألم يرسل إلي ملائكته يثبتونني عند الخوف ويواسونني عند الحزن؟ فاللهم غفراً وصفحاً.

التعويضات:

استشارت (لجنة المعتقلين الكويتيين) المحامين الأمريكان في رفع دعوى قضائية ضد الحكومة الأمريكية على انتهاكاتها المتواصلة للمعتقلين دون أي اعتبار لاتفاقية جنيف والالتزام بمعاهدات حقوق الإنسان، أخبرني المحامي بذلك فابتسمت ساخراً: من المضحك أن نطالب بالتعويضات من يحرمنا رسائل أهلنا وأبسط الحقوق الإنسانية في المعتقل، أيدني المحامي قائلاً:

قامت وزارة الدفاع البنتاغون في حرب الفيتنام بتجربة بعض المواد الكيماوية لترى مدى فاعليتها، كانت الطائرات الأمريكية ترمي هذه المواد الكيماوية على البواخر العسكرية الأمريكية نفسها دون أن يعلم الجنود الأمريكان مصدر الغارة، ثم يقومون بنجدة هؤلاء الجنود المصابين بهذه الأسلحة الكيماوية ليروا أثرها عليهم، استخدموها في بادئ الأمر على القرى الفيتنامية لكن المصابين كانوا يتوارَوْن عن القوات الأمريكية فيتعذّر عليهم معرفة آثارها بدقة، وبعد الحرب بعشرين سنة تقريباً ظهرت الحقيقة بعد تسريبات تداولتها الصحافة، فرفع بعض الجنود دعوى قضائية على الحكومة الأمريكية وطالبوا بتعويضات، وفي النهاية رفضت المحكمة العليا هذه الدعوة وأسقطتها، أَحَدّ إلي المحامي نظره وابتسم ابتسامة تحمل الكثير من المعاني قائلاً: هكذا يفعلون مع الجنود الأمريكان فكيف يتعاملون معكم؟

رفع قضية:

في إحدى زياراته وضع المحامي أمامي قصاصات من الجرائد الكويتية، صدمت حين قرأت فيها خبراً عني أني سأقاضي الحكومة الكويتية على تقاعسها في المطالبة بإطلاق سراحي، قلت للمحامي غاضباً: ما هذا؟ ومتى حدث؟ وكيف يحدث دون إذن مني؟

قال: لا أدري عنها شيئاً، يبدو أن هناك سوء فهم أدى إلى ما تراه.

أدركت حينها ماذا يعني الشعور بالعجز، أن تبقى مقيد اليدين والرجلين، مكمم الفم، لا تتكلم ولا تتحرك، من أثقل المشاعر علي حين أرى أنه ليس لي من أمري شيء، الكل يتكلم باسمي بينما أنا لا أستطيع، بإمكان غيري أن يوكل المحامي الذي يراه هو مناسباً لكني غير قادر على الاختيار.

الفانوس:

بدأت الحكاية حين دخلت علينا سنة ٢٠٠٨ بشدتها، تخطى حينها عدد جلسات التحقيق معي الأربعمئة جلسة تحقيق، تستغرق الجلسة ما بين الثلاث والخمس ساعات

في المتوسط، وقد تستمر لأكثر من أربع وعشرين ساعة أحياناً، كنت معزولاً في عنبر (P) عن بقية المعتقلين، أخبرني المسؤولون بأن الحكومة الأمريكية قررت تقديمي للمحاكمة العسكرية، وكانت القوانين تمنع المحققين من التحقيق مع كل من يقدم للمحاكمات العسكرية، زارني المحامي المدني (ديفيد سينامون) والذي كنت أناديه مازحاً: (داود بن دارسين)، وهي الترجمة الحرفية لاسمه بالعربية، وحين دخلت عليه غرفة المحامين تفاجأت بعقيد في القوات الجوية يجلس بجواره، أشار بيده إليه وهو يقول: أقدم لك المحامي العسكري (باري وينغارد)، ضابط احتياطي في القوات الجوية، عيَّنه البنتاغون كمحامٍ لك في المحاكمات العسكرية!

كانت نظراته المرتابة سبباً في نفوري منه، كان الجو مشحوناً متوتراً، حاول المحامي المدني تهدئتي لكن محاولاته باءت بالفشل، قلت: لا أحتاج محامٍ، إن كانت المحاكمات المدنية قد أغلقت أبوابها أمامنا فكيف بالعسكرية؟ يكفيني المحاميَ المدني.

قال (ديفيد): أرجوك يا فايز لا ترفضه، وجوده مهم جداً في المرحلة القادمة، أنا لا يحق لي أن أدافع عنك في المحاكمات العسكرية.

: لولا أنك تأتيني بأخبار أهلي فلا حاجة لي بك أيضاً، وجود محامٍ لمعتقل لا يُعطى حق المثول أمام المحكمة كالسنارة في يد صياد تائه في الصحراء.

وبعد أخذ ورد قلت: لن أقبل المحامي العسكري إلا بشروط، أن يأتيني بأخبار أهلي في كل زيارة كي أطمئن عليهم، وأن يُصَعِّد إعلامياً، قضيتنا إعلامية بالدرجة الأولى، والحكومة الأمريكية تريد حصرها في متاهات المحاكم ودهاليزها المظلمة.

سألني: قصدك في الإعلام الأمريكي؟

: لا، المجتمع الأمريكي كالمحيط المتلاطم، لن يجدي نفعاً أن نقذفه بحجر، أما المجتمع الكويتي فهو كالفنجان، تستطيع بملعقة أن تصنع فيه زوبعة، كما أن المجتمع الأمريكي لا يبالي إلا بنفسه، أما المجتمع الكويتي فهم أهلي وأحبابي، في إحدى المرات قام أحد الجنود بإطلاق الرصاص المطاطي على أحد المعتقلين فأصابته الرصاصة في صدره وقريباً من عينه، فأطلعني المحامي على ردود أفعال الكثير من المجتمع الأمريكي الذين أبدوا استياءهم من هذا الفعل قائلين: كان ينبغي أن يطلقوا عليهم الرصاص الحي وليس المطاطي! لن أضيع وقتي في إقناع هذا الشعب بقضيتي لأنه لن يكترث.

نظر إلي (باري) متفحصاً ثم قال: دعني أفكر.

: لك ذلك.

وفي الغد جاءني بوجه آخر تماماً، قال لي: دعنا نجرب العمل سوياً.

قضيت معه سنتين وأنا أتعامل معه بحذر، سألته يوماً: بما أنك ضابط احتياط في القوات الجوية فهل كنت تشارك في الحروب؟

أجاب: أبداً، أنا احتياط، ثم إني ضد الحروب التي يقتل فيها الأبرياء.

أخذت العلاقة تتوطد معه يوماً بعد يوم، كنا نتحاور حول الكثير من القضايا الفكرية، بدأ توجسه مني يتبدد ونفوري منه يتلاشى، حتى أصبحت علاقتنا أكثر بكثير من مجرد محامٍ مع موكله، لقد بذل الكثير من أجلي، الكثير جداً، لقد رحل إلى أفغانستان يبحثُ عن جواز سفري الذي حاول الجيش الأمريكي إخفاءه لأنه كان يحتوي على الأدلة التي تدحض اتهاماتهم كوقت السفر والبلدان التي سافرت إليها، ووجد باقي المستندات التي تدل على كذب الادعاءات الموجهة ضدي مع ظهور أدلة تؤكد قيامي بأعمال إغاثية في ضواحي كابل، وجدت الحكومة الأمريكية نفسها في إحراج بالغ حيث قدمتني للمحاكمات العسكرية بتهمة جرائم حرب، أخبرني المحامي باري أن كل ما يملكونه من أدلة هو ما نسميه: (hearsay) أي إشاعات، لكنه يعتقد أن السبب الرئيسي لهذه التهم المبالغ فيها هو استياؤهم من النشاط الدعوي الذي كنت أجد نفسي مجبراً دينياً على القيام به، فأرادوا تخويفي كي ألتزم الصمت، قلت له: كل كلامي مسجل في أجهزة التنصت المنتشرة في كل مكان، وأتحداهم أن يأتوا بكلمة واحدة أدعو فيها للعنف، ثم أسقطوا التهم عني في شهر يونيو سنة ٢٠١٢، ومع هذا بقيت مسجوناً لأربع سنوات إضافية بلا تهمة ولا مبرر قانوني.

كما قابل المحامي (باري) مدير سجن جلال أباد الذي سجنت فيه بداية الأسر واسمه (عبد الواحد الأفغاني)، وأقر له بأني كنت إغاثياً باعتراف الكثير من القرويين الأفغان الذين شهدوا على ذلك، كان المطر ينهمر على المئات الذين تشابكت أيديهم معتصمين أمام البيت الأبيض في ذكرى افتتاح غوانتانامو ١١ يناير يطالبون بإغلاقه، كان من بينهم والدة (باري) التي تجاوزت الستين سنة، وحين أضربنا عن الطعام سنة ٢٠١٣ قام بدور عظيم لنصرة قضيتنا، كان يزورني للاطمئنان علي كل أسبوعين بينما كان كل المحامين العسكريين والمدنيين يأتون غوانتانامو كل ثلاثة شهور أو ستة، كان يأتي الكويت دورياً ويتحدث في الدواوين والقنوات العالمية والصحف ليذكر الناس بقضيتنا، لم يتمالك نفسه من البكاء في إحدى المرات، قال لهم: (لو أن أمريكياً ارتكب جريمة في الكويت أو أي دولة عربية أخرى فلن يبقى لأكثر من يومين في الحجز، لكن إخوانكم في غوانتانامو أمضوا أكثر من عشر سنوات دون محاكمة وهم يعانون التعذيب النفسي والبدني، وأقول كمحامٍ لفايز بأني متأكد من براءته تماماً، لكن الحكومة الأمريكية تحتقر الدول العربية مع الأسف!)

قال لي يوماً: أنا أمريكي وأحب بلدي، ولن أسمح لأحد بأن يعتدي عليه، لكني أعتقد أن أفضل طريقة لحماية بلدي هو أن نتعامل مع الآخرين بعدل، ما تقوم به الحكومة الأمريكية يعتبر ظلماً سيعرض بلدي للخطر.

قال لي باري وينغارد مواسياً: لا تظنوا أنفسكم تعانون وحدكم من قسوة النظام القضائي الأمريكي، لقد كنت أعمل سابقاً كمحام في قضايا الأحداث (Juvenile)، لقد رأيت بنفسي مأساتهم، هناك شركات تتعاقد مع السجون الخاصة، هذه الشركات لها نفوذ قوي في وسائل الإعلام، كما يتلقى الكثير من السياسيين الأمريكيين فوائد مالية كبيرة في حال دعمهم لهذه الشركات.

كان متأثراً وهو يحدثني عن الأحكام القاسية التي حكم بها القضاة على أحداث لا تزيد أعمارهم عن ١٢ سنة، من الواضح أنه كان يستحضر قصة معينة مرت عليه وهو يقول: مجرد تعاطي القاصر للماريوانا من الممكن أن يقضي بسببها سنين طويلة وراء القضبان، هذه الشركات تبذل الرشاوى للقضاة حتى يجعلوا أحكامهم قاسية، فكل يوم إضافي يقضيه هؤلاء الأحداث في السجن يعني أموالاً إضافية تجنيها الشركة، أكثر من نصف ولايات أمريكا تعامل الأطفال تحت سن ١٢ بمعاملة البالغين في القضايا الجنائية، هناك آلاف المراهقين دون سن ١٤ يتعرضون للسجن الانفرادي في الولايات المتحدة، نظر إلي ملياً في صمت ثم قال: لستم وحدكم من تعانون يا فايز.

وفي عام ٢٠١٤ قررت مع بعض إخواني في المعتقل أن نقدم له هدية، ولكن كيف؟

استطاع بعض المعتقلين المبدعين في الرسم والنحت من تجميع بعض مخلفات الطعام، قطع صغيرة من الأخشاب المتطايرة بسبب الأعاصير وألواح الكرتون (الورق المقوى) وقارورة كبيرة كانوا قد سمحوا بإدخالها العنبر وقت الطعام ثم إخراجها بعد الانتهاء منه، واستخدام العصائر التي لم نكن نشربها لاحتوائها على نسبة عالية من الأصباغ الصناعية المضرة بالصحة، قام أحد المعتقلين بطريقة ما باستخراج الأصباغ المركزة من العصير ثم قام بتلوين ألواح الكرتون بعد تقطيعها مع القارورة، كانت نهاية عمله مدهشة، قام بصنع فانوس كأنه مضاء بشعلة نار، كَتَبْتُ عليها جملة (Light Up Your Life) أي أنر حياتك، وحين رآني الجندي أحملها وأنا راجع من المشي نادى في اللاسلكي فأغلقوا أمامي البوابة وحبست في المشي، ثم أعلنوا الاستنفار في كل المعسكر، جاءني الضابط متوتراً ثم قال: كيف حصلت على هذا الفانوس الزجاجي وكيف أشعلت فتيلته؟

: هذا ليس زجاجاً، إنها القارورة التي يعطاها المعتقلون مع الوجبات، وأما شعلة النار فليست سوى كرتون مصبوغ!

ذهل الضابط وهو يتأمل الفانوس، ثم قال متعجباً: اللعنة، كيف استطعتم صنعه بهذا الإتقان؟ لا يحق لك الاحتفاظ به.

: ليس لي، إنما هو للمحامي.

وبعد محاورات ومراوغات استطعت بفضل الله إقناعه بالاحتفاظ به على أن أقدمه للمحامي في زيارته التي كانت مقررة في اليوم التالي، دخلت غرفة المقابلة ثم قيدوا قدمي بالأرض، خبأت الفانوس خلفي، دخل (باري) كعادته وهو يهش في وجهي ويسألني عن صحتي، أخبرته بأن هناك هدية مني ومن إخواني المعتقلين لجهودك العظيمة في نصرة قضيتنا، استغرب من كلامي، كيف لمعتقل يفتقد أبسط الضروريات الحياتية أن يحصل على ما يهديه غيره؟

جذبت الفانوس ثم قدمته له فاغرورقت عيناه بالدموع، قلت له: باري.. شكراً لك.

قال وقد غلبه التأثر: هذه أجمل هدية في حياتي، أعاهدك بأني سأضعها في مكتبي طوال عمري.

ولا زلت أتذكر باري حتى بعد خروجي من غوانتانامو، كنت أبتهل إلى الله باكياً أن يملأ قلبه إيماناً به، يا ترى هل فهم ما قصدته بالكلمة التي كتبتها على الفانوس؟

لقد قام المحامي باري وينغارد بدور كبير لنصرة قضيتنا دون أن يأخذ دولاراً واحداً، ومناي أن يهدي الله قلبه وقلب كل الحائرين الذين أضاعوا الطريق، فاللهم أقول كما قال السابقون: إلهي جهلوك فخالفوك، ونسوك فعصوك، ولو أنهم عرفوك لذكروك، ولو ذكروك لعبدوك، ولو عبدوك لأحبوك، ولو أحبوك لكنت لهم فوق الأم الرؤوم والأب الرحيم.

الوفد الأمني:

كانت زيارة الوفد الكويتي الأولى لمعتقل غوانتانامو في أغسطس عام ٢٠٠٢، كانت أمنية صرفة، كان تعامل الوفد بارداً لا معنا ولا ضدنا، أما الزيارة الثانية عام ٢٠٠٤ فقد كانوا ثلاثة أمنيين ووكيل نيابة في مقتبل العمر، كان تعامل الأمنيين معي عادياً، إلا أن أحدهم أغاظني حين تحدث باستهزاء عن معتقل كويتي كان مضرباً عن الطعام، ندمت حين لم أقل له: أي حقارة تلك التي تجعلك تستهزئ بمظلوم من بلدك ودينك يهينه العلوج أمامك دون أن يثير ذلك حفيظتك؟

أخبروني بأن وكيل النيابة الكويتي سيسألني عدة أسئلة عن قضيتي، قلت: الواجب

أن تطالبوا بمحاكمتي فوراً أو إطلاق سراحي، فإن كنت مجرماً فأنا أستحق العقوبة، وإن كنت بريئاً فلا أقل من إطلاق سراحي، ذكروا بأن هذا سيساعدنا على إطلاق سراحك، وأننا لا نقوى على مخالفة طلبات الأمريكان، وافقت على مضض، خرجوا من الغرفة لأنفرد مع وكيل النيابة الذي كان تعامله سيئاً للغاية، أخرج سيجارته يدخنها، يسحب نفساً لينفثه عموداً دخانياً متعرجاً في الهواء، صَعَّدَ فيَّ نظرَه وصَوَّبَه في غرور أجوف ثم سألني: لماذا جئت إلى أفغانستان؟

أثارني أسلوبه المتعجرف فتمالكت نفسي. قلت: للأعمال الإغاثية.

أطلق زفرة دخانية واضعاً رجلاً على رجل ثم قال: أنا لا أحب الذي يكذب!

هنا أفلت الحصان الجموح من زمامي وقلت له: اخرج من الغرفة!

صعق وهو يسمع هذا الجواب غير المتوقع، ثم قال في ذهول: أتطردني؟

: بكل تأكيد.

: يبدو أنك لا تريد أن تخرج من غوانتانامو، نحن جئنا لنساعدك.

باستهزاء: واضح جداً أنك تريد مساعدتي، احتفظ بمساعدتك لنفسك، اخرج لو سمحت، أنا أرفض مقابلتك، اتركوني مع الأمريكان وجهاً لوجه، ربي سينصرني عليهم، أما أنت فلا حاجة لي بك، لو كانت عندك ذرة شهامة لما تعاملت مع ابن بلدك بهذه الطريقة المهينة بينما تتعامل باحترام وإجلال مع هؤلاء الذين يقتلون الأبرياء بصواريخهم التي لا تعرف معنى الرحمة.

سمع الأمنيون الكويتيون أصواتنا بدأت تعلو، دخلوا الغرفة يحاولون تهدئتي، طلبوا منه الخروج، كان المتوقع أن وكيل النيابة يكون أكثر إنسانية من أفراد أمن الدولة فوجدت العكس، لقد كانوا محترمين معي، قلت لهم: لو كنت في بلدي وأردتم التحقيق معي فلا مانع عندي أبداً، أُقَدِّرُ التحديات والظروف التي تمر بها المنطقة، ولكني لا أقبل أبداً أن يأتي أحد بعد قضائي سنين في هذا المعتقل دون محاكمة ولا حقوق إنسانية ثم يتهمني بالكذب بدلاً من التعاطف مع ابن بلده الذي يعذب ويهان دون محاكمات لسنين، لماذا ترفض معظم الوفود الغربية التحقيق مع مواطنيها في هذه الظروف غير الإنسانية بينما تسعى لذلك الوفود العربية؟

علم وزير الخارجية الشيخ محمد صباح السالم بما حدث فأبدى استياءه من هذا التعامل (وقد كان ممن نصر قضيتنا منذ البداية جزاه الله خيراً)، هناك مسؤولون تنبض قلوبهم إنسانية، وهناك من لا هَمَّ له سوى مصلحته الخاصة، كان للتعامل السيئ من

شخص واحد دور في دفع المعتقلين الكويتيين جميعاً إلى رفض لقاء الوفد الأمني في زيارته التالية عام ٢٠٠٨، والعجيب أننا كنا متفرقين في عنابر متباعدة لكننا اتفقنا على الرفض دون أي تنسيق بيننا.

رأى الأمريكان أن هذه القضية لن تحسم أمنياً دون الاستعانة بالجانب النفسي والفكري، وأنه لابد من إلزام الدول بالقيام ببرنامج تأهيل للمعتقلين بعد إطلاق سراحهم وتشكيل لجنة تتابع هذا الأمر، اضطرت الحكومة الكويتية للاستجابة للمطالب الأمريكية مع أنها تخالف القانون الكويتي لأنها لم تجد أي سبيل لإطلاق سراحنا إلا بذلك، أثار ذلك التعاطي مع قضيتنا غضبي على ظلم الحكومة الأمريكية وخرقها لكل القوانين الإنسانية التي تتبجح بها أمام العالم ليل نهار، شعرت بغصة خانقة حين يتعاملون معي على أني مريض نفسياً ومتطرف فكرياً أحتاج إلى تأهيل، وفي أغسطس سنة ٢٠٠٩ تلقى ثلاثة من أعضاء اللجنة الكويتية للتأهيل دعوة من وزارة الدفاع الأمريكية لزيارة المعتقل، أخصائيان نفسيان وشيخ دين، كان واضحاً من اختيار هؤلاء الثلاثة أن الأمريكان غير مهتمين بالجانب الأمني للموضوع بقدر الجانب النفسي والديني، مما جعل اتهاماتهم لنا بالإرهاب لا قيمة لها إطلاقاً، إذ لو كان اتهامهم صحيحاً لما استبعدوا الجانب الأمني، توجه الوفد الكويتي إلى واشنطن حيث التقى بمسئولين في وزارة الخارجية الأمريكية والبنتاغون بحضور ممثلي السفارة الكويتية، وفي شهر سبتمبر سنة ٢٠٠٩ سافر الوفد الكويتي يرافقهم ضباط أمريكان على متن طائرة مدنية من قاعدة (أندروز) الجوية إلى غوانتانامو، وبعد أن رتبت لهم جولة في المعتقل بدأت اللقاءات معنا نحن الأربعة الكويتيين الباقين في المعتقل بعد إطلاق سراح ثمانية قبلنا، كانت اللقاءات تتم مع كل معتقل على حدة وبحضور ثلاثة حراس أمريكان في قاعة مخصصة لذلك في معسكر منعزل يطلق عليه: (Block 8)، لكن الضباط الأمريكان كانوا يتابعون من غرفة مجاورة ولا يتدخلون في الحوار، كان لقاء بارداً متحفظاً، كانوا متوترين، يحق لهم ذلك، فهم الآن في أشهر سجن عرفته البشرية كما وصفه دونالد رامسفيلد في سنة ٢٠٠٤، لم تحظ هذه الزيارات بأي تقدم في القضية نظراً لعدم جدية الأخصائيين النفسيين، قررت الحكومة الكويتية تغيير الوفد بآخر أكثر جدية، بقيادة العقيد عبد الله من جهاز الأمن والدكتور النفسي عادل الزايد والشيخ خالد شجاع، لقد بذل هذا الوفد جهوداً هائلة في إقناع الأمريكان بإطلاق سراح آخر اثنين وهما فوزي وأنا، كانت وفود البلدان الأخرى يزورون غوانتانامو كل ثلاث سنين أو أكثر، أما هذا الوفد الكويتي فقد كان يزور غوانتانامو كل ثلاثة شهور، الإجراءات الأمنية لكل زيارة كفيلة بأن تنهك قواهم وتجعلهم يكرهون المجيء مرة أخرى. تقطع الطائرة ساعات طويلة في رحلتها من الكويت إلى واشنطن، فيلتقون بالمسؤولين الأمريكان ليوافوهم بالمستجدات ويؤكدوا لهم تنفيذ شروطهم

التعجيزية لإطلاق سراحنا، ثم استقلال طائرة صغيرة إلى القاعدة العسكرية في غوانتانامو لا تتوفر فيها أي نوع من الرفاهية الموجودة في الطيران العادي، ثم حمل الحقائب التي ملأوها بالقهوة والطعام من عوائلنا، ثم بذل الجهود لإقناع إدارة المعتقل المتزمتة بتوصيلها لنا، لم يفعل وفد من أي دولة في العالم ما فعله هذا الوفد الكويتي معنا، ولا زلت أدعو الله لهم لجليل ما بذلوه، فاللهم جازهم على الإحسان إحساناً.

الحرية:

جاءني أحد الإخوة بالبشرى قبل أن يصلني أي خبر، حدثني أنه رأى النبي ﷺ في المنام وهو يبشرني بالحرية، وآخر رآني على سفينة مبحرة في محيط وأنا رافع سبابتي وأردد: لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، لم تمر أيام معدودة حتى حَلَّقَ فوقي طائر البشرى بأجمل خبر في حياتي، قررت الحكومة الأمريكية إطلاق سراحي، وبقي أن يوقع الرئيس الأمريكي أوباما ووزير الدفاع على هذا القرار، أخذت الأيام تجري سراعاً كلمح البصر، كانت نبضاتي تتسارع كلما مر يوم، كنت أرى والديّ في كل الأحايين، وأنا أمارس الرياضة أو أراجع القرآن، لقد استولت لحظة اللقاء على تفكيري طوال الوقت، كيف سيكون اللقاء بعد كل هذه السنين الطوال؟ ترى ما الذي تغير في الأهل والوطن؟

وفي الليلة التي تسبق نقلي إلى معسكر آخر تمهيداً لاستكمال إجراءات إطلاق سراحي احتفل الإخوة في العنبر بهذه المناسبة، كانت مزيجاً من الأناشيد الجميلة والمشاعر الحميمية، لا أدري كيف مرت الليلة، أعاصير هوجاء من الشوق والفرح والحزن والقلق، وفي الصباح دوى صوت الجندي في العنبر: (٥٥٢) احزم أمتعتك للمغادرة!

حقاً؟ أهي الحرية فعلاً أم أنها خدعة كما فعلوا مع معتقلين آخرين أوصلوهم إلى باب الطائرة ليعودوا بهم مرة أخرى إلى زنزانتهم؟

اجتمع حولي إخواني للوداع، ما أقساه من وداع، رجال عشت معهم أربعة عشر عاماً بعذبها وعذابها، ها هي تؤذن بالرحيل، أكره مواقف الوداع، كنت أصارع دموعي المتمردة أردعها عن المغادرة، وهي تشكوني حين تراني أمضي للحرية بينما أحبسها في سجنها، لكنها حين رأت أخواتها ينحدرن من عيون الإخوة المجتمعين حولي استطاعت قطرة الانفلات من بين القضبان، وبمجرد الابتعاد عن العنبر أطلق سراحها، فاضت العبرات حزناً على رجال ليسوا كأي رجال، وعلى تجربة لا تماثلها تجربة، إنه صراع مرير مع الأفعى استمر أربع عشرة سنة.

نقلوني إلى عنبر مخصص لإجراءات ترحيل المعتقلين الذين قررت الولايات المتحدة إطلاق سراحهم، كانت إجراءات مطولة جداً، أخذوا بصمات كل أصابع يدي اليمنى واليسرى وباطن الكف وجوانبه، ثم بصمة العين، ثم بصمة الصوت، طلبوا مني قراءة ورقة لتسجيل صوتي، أخذت الإجراءات ساعات، ثم نقلوني إلى معسكر (إيكو) في عنبر مخصص للراحلين، فيه بعض الامتيازات التي لا تتوفر لدى بقية المعسكرات، شعرت بمقدمات الحمى، يبدو أنها بسبب الإرهاق الذهني؟ كانت ليلة مرهقة مترعة بالهواجس والأفكار، هرعت إلى حبيب قلبي ونور عيني ودواء روحي أنهل منه ما تسكن به نفسي ويطمئن به قلبي وتعود لي قواي، كنت أرتشف من شهد قوله تعالى ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، تذكرت المحققة وهي تضرب بقبضتها حائط المعسكر الخامس صارخة في غضب:

(You will never be released) لن يتم إطلاق سراحك أبداً.

فسبحانك أيها الرحيم حين قلت في سورة يوسف (سلوى السجناء): ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

كنت أرى على شاشة التلفاز القس الأمريكي (جيمي سواغارت) وهو يحاول أن يقنع جمهوره العريض بأن الله واحد في ثلاثة أقانيم مستقلة لكنها واحدة في الجوهر والطبيعة، هي واحد في ثلاثة وثلاثة في واحد! كل أقنوم هو الإله الحقيقي الأزلي، وكل أقنوم هو الإله الواحد وهو نفس الإله ولكن الله واحد، كان منظره يثير الشفقة وهو يحاول أن يشرح لجمهوره الحيران عقيدته التي هي أكثر تعقيداً من إحدى الخوارزميات!

ما أجمل الإسلام حين يضع أمام البشرية حقيقة ميسورة تتيح له سلاستها أن يعيش جمالها ويبحر في أعماقها دون تشويش يعرقله عن الوصول، ليس هناك وقت كي نضيعه في غيره، لن يزاحم حبه في قلب المؤمن شيء من الأغيار، إنه الله وكفى.

بينما كنت أحاول أن أسرق الغفوات إذ فتح النافذة جندي وهو ينادي: (٥٥٢).. تجهز للمغادرة!

حقاً؟ أهي النهاية؟ لا إله إلا الله، إن كانت هذه هي النشوة المطربة لفرحة الخلاص من قسوة القيد وظلم السجان حين ينادي الجنود: (تجهز للمغادرة)، فكيف بالفرحة الغامرة للخلاص الأعظم من هوة العذاب والفوز بجوار الله حين تنادي الملائكة بذلك اللحن الرخيم الذي يتوغل في أعماق الروح: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾؟!

كانت اللحظات الأخيرة في غوانتانامو من أصعب اللحظات كما كانت اللحظات

الأولى، إنها كطعنة السكين، دخولها مؤلم وخروجها مؤلم، لكن الألمين مختلفان، يشتركان في القلق من المجهول، كداخل النفق حين يتوجس مما يكتنفه الظلام الموحش، والخارج منه حين يقلق مما يخفيه النور في أحشائه، ليس العجب من وَجَل الحر من صلصلة القيود، إنما العجب من رهبة الأسير من زغاريد البشائر، كم هو مؤلم أن تقف على أعتاب الحرية قلقاً منها، كطفل صغير يتطلع إلى المشي والجري والقفز لكنه قلق من السقوط، يتردد بين الحبو والنهوض.

كانت الساعة الواحدة منتصف الليل، قيدوني من النافذة بقيود جديدة لأول مرة أراها، كانت مريحة، كنت أراها امتيازاً، هكذا هي امتيازات الدنيا مهما ظنناها عظيمة فلن تعدو كونها قيداً أفضل من قيد!

التفت وإذا بعدد كبير من الجنود يحيطون بي، معهم عدد من الضباط على اختلاف رتبهم، وبينما هم يكملون عملية التقييد التفت وإذا بضفدع صغير يقف بجوار قدمي، كان ينظر إلي من طرف عينه دون أن يهرب، كانت نظراته غريبة، أتراه يودعني؟ أثار استغراب الجنود، ضحك بعضهم وهو يقول: تأملوا هذا الضفدع كيف ينظر إلى المعتقل (٥٥٢)؟ إنه يودعه!

وقفنا أمام البوابة الرئيسة لمعتقل غوانتانامو، هذه هي المرة الثانية التي أقف فيها أمام هذه البوابة، مرة داخلاً قبل أربعة عشر عاماً، وهذه الثانية خارجاً، تجاوزنا البوابة وحولي عدد كبير من الجنود، وإذا بباص كبير أمامه وخلفه مدرعات للحراسة عليها أسلحة رشاشة، أفهم أن تكون هذه الإجراءات حين دخول معتقل غوانتانامو، لكن ما لا أفهمه هو هذه الإجراءات المشددة عند خروجي منها، هل سأهرب منهم إلى بلدي الذي أتوجه إليه؟

سار بنا الباص مسافة طويلة فخشيت أن يدخل وقت صلاة الفجر دون أن أتمكن من الصلاة، سألت الجندي عن الوقت فأبى أن يجيب، كررت سؤالي فأشار إلي بيده ففهمت أن إدارة المعتقل منعتهم من الحديث مع المعتقل، كان أمامي مترجم يبدو أنه متعاطف معنا، فأدار ساعته في خفاء كي أتمكن من مشاهدة الوقت، لم يكن الوقت قد دخل بعد، كانت النوافذ مغطاة فلم أتمكن من رؤية الطريق، لكن الستارة التي تغطي مقدمة الباص تنكشف أحياناً مع حركتها لأرى نقاط التفتيش الكثيرة المنتشرة على طول الطريق، صليت الفجر في قيودي جالساً بعد أن تيقنت بدخول الوقت، صعد الباص عَبَّارة بحرية لتقطع بنا اللسان المائي إلى الضفة الأخرى، كان الباص يتمايل بنا يمنة ويسرة، ثم نزل ليكمل سيره نحو المطار، وأخيراً توقف الباص، ثم قام الجنود بتبديل قيودي بأخرى بلاستيكية، وبعد إجراءات أمنية مشددة فتح الباب، خرجت لأرى مشهداً

مهولاً لم أره منذ أكثر من أربعة عشر عاماً، نظرت إلى السماء المتدثرة بجلبابها الأسود الفخم المطرز بلآلئ النجوم، لقد حرمت من هذا المشهد سنين طويلة، التفت وإذا بطائرة صغيرة تقف أمامي، كان هديرها يزيد الليل جلالاً، ارتعش قلبي وهو يرى شعار الكويت على ذيل الطائرة، يا الله، حقاً؟ إنه وطني الحبيب الذي حرمت عناقه أربعة عشر عاماً، لم أستطع أن أصرف بصري عن السماء، كنت أرتشف من سكون الليل بيد النجوم ما يزيل عن قلبي الكَلال، لم أشعر إلا والعقيد الأمريكي يقف أمامي، وضع الجندي في يده مقصاً، أمسك قيودي وهو ينظر إلي في صمت. كلانا كان ينظر في عين الآخر، كانت عيوننا تتحدث، كنت أنظر في عينيه إلى قفص مكسور بينما ينظر في عيني إلى عصفور أفلت من يده، ثم قال وهو لا يزال ينظر في عيني: (٥٥٢) لقد قررت الحكومة الأمريكية إطلاق سراحك.

التفت العقيد إلى الوفد الكويتي وهو يطلب منهم تقييدي بعد أن يقوم بقص قيودي لكنهم رفضوا طلبه مبررين بأن الطائرة تعتبر أرضاً كويتية وهم سيتحملون كل المسؤولية، وبعد شد وجذب رضخ العقيد، كانت الحكومة الأمريكية قد طلبت من الوفد الكويتي أن يقيدوني خلال فترة الطيران لكنهم رفضوا ذلك، فمنعتهم الحكومة الأمريكية من التحليق فوق الأجواء الأمريكية ما دمت في الطائرة دون قيود، فاضطر الوفد لتغيير خط الرحلة بالاتجاه جنوباً والابتعاد عن الأجواء الأمريكية ثم الاتجاه بعدها نحو المغرب كمحطة عبور!

أخذ المقص وقطع القيد البلاستيكي الذي يحيط معصمي وهو يقول في نبرة ممزوجة بغصة: أنت الآن حر.

عانقني الوفد الكويتي بحرارة، كانوا يرون في قيودي المقطوعة مهمة نجحوا في إنجازها بعد فضل الله وكرمه، دخلت الطائرة الأميرية التي بعثها الأمير جزاه الله خيراً خصيصاً لعودتي، طلبت من الوفد أن أجلس قريباً من النافذة، أحنى رأسه إلي وهو يقول: الآن ستقلع الطائرة متجهة إلى المغرب نتوقف عندها ساعتين، لنتوجه بعدها إلى الجزائر وتونس وليبيا ومصر ثم المملكة لنصل إليها.

ثم أسند رأسه للكرسي ومضى في قراءته من جهاز اللابتوب المفتوح أمامه، لكن كلمته الأخيرة هزتني من الأعماق، (نصل إليها)، أخيراً؟ بعد أربعة عشر عاماً أعود إليها؟ إلى الأرض التي ضمت ذكريات الطفولة ومغامرات الصبا وحيوية الشباب؟ إلى عناق الوالدين والأهل والأعزاء؟ إلى الوطن الذي أحببت؟

حلقت الطائرة، حلقت عالياً، عالياً جداً، أملت رأسي تجاه النافذة لأنظر تحتنا، إلى أضواء الكشافات التي أحاطت هذا المعتقل الذي قدمته في طائرة أمريكية حربية،

مقيد اليدين والرجلين، مغطى العينين والأذنين، قد امتلأ جسدي بآثار الضربات والسحلات والكدمات، وها أنا الآن عائد إلى بلدي بعد أربعة عشر عاماً على متن طائرة أميرية، استقبلني طاقمها بحفاوة أخوية بالغة، كان قادة الطائرة يتناوبون إلي لنتجاذب أطراف الحديث، كنت أستمع إليهم يتحدثون عن التغيرات التي طرأت على العالم كأني أستمع إلى قصة خيالية عن بلاد العجائب، جلس أحد أفراد الأمن بجانبي مرحباً بابتسامة: هل صحيح أخي فايز أن الأمريكان عذبوكم؟

ابتسمت، احترت كيف أجيبه؟ كيف اختصر أربعة عشر عاماً من الألم النفسي والبدني في كلمة (نعم)؟

قال الدكتور النفسي: أرجوكم.. أتمنى ألا يسأله أحد منكم عن التعذيب، اقلبوا هذه الصفحة، أغلقوا ملف غوانتانامو إلى الأبد، دعوه ينسى الماضي، من أهم العوامل في نجاحي مع فايز في برنامج التأهيل هو نسيان الماضي.

ابتسمت في صمت، لو حاولت أن أنسى فهل أستطيع؟ ولماذا أنسى؟ أنا لا أرى عذاب غوانتانامو كهفاً مظلماً مليئاً بالأشباح كي أنساه، بل أراه إشراقة أمل ولدت من بين الدموع، إني أستلهم من كل زفرةِ ألم وأنينِ توجعٍ شعلةً تضيء لي الطريق، فلماذا تدعوني لإطفائها؟ يجب أن لا أنسى غوانتانامو التي علمتني أن هناك بصيص أمل في آخر النفق الحالك، وأن آلام الجراح وإن زادت فلابد من يوم تشفى فيه وأيام الأسر وإن طالت فلابد من يوم تخرج فيه، وأن هناك مفتاح فرج من بين الركام، وأن الحياة لا قيمة لها بدون الإيمان بالله، ينبغي أن يكون نظرنا للماضي كنظر السائق للمرآة الأمامية التي تكشف له ما يدور خلفه، فإن أطال فيها النظر غفل عن الطريق أمامه فهوى في أودية الهلاك، ومن امتنع عن النظر فيها لم يمكنه تلافي أخطاء المتهورين، والحصيف من رمق ما وراءه بمقدار ما يعينه على اجتيازه مخاطر ما يواجهه.

كانت الطائرة تشق الجو شقاً بصوتها الأجش نحو الوطن الذي أحب، كنت مشدوداً بين شعورين يجذبني كل واحد منهما إليه، تلهفي الجامح للحظة اللقاء بوالديّ وأهلي وأحبابي، وأسفي على إخواني الذين تركتهم هناك يتقلبون على جمر الألم، ترى ماذا يفعلون الآن؟ تخيلت شفيق الجزائري في هذه اللحظة ينادي كعادته من شق الباب أخاه في الزنزانة المجاورة ليتكلم مع الجندي كي يشغله عنه حتى يتمكن من إخفاء لفافة اليد التي مُنِعَ من الاحتفاظ بها والتي يحتاجها لتدفئة يده المقطوعة؟ تخيلت محمد القحطاني يطالب الجنود كعادته بتبديل ملابسه لأنه يعاني من حساسية شديدة في كل أنحاء جسده حتى اسود دون أن يعالجه الأطباء، تخيلت خالداً العدني يجادل الجنود

ليرجعوا الكوب الفليني الذي أخذوه من زنزانة جاره في التفتيش، تخيلت عبد الكريم الأفغاني يستغل وقت التفتيش كعادته في مراجعة القرآن؟

كم أحبهم، كيف لا وقد عشت معهم أربعة عشر عاماً بكل تفاصيلها، كل واحد منا يعرف تفاصيل حياة أخيه وشخصيته وما يحب وما يكره، أحبهم لأني رأيت فيهم وحدة المسلمين، لقد انصهرت كل أعراقهم وأجناسهم في بوتقة غوانتانامو ليتضح جلياً أن في إمكاننا كأمة أن نتحد، لا يوجد هناك ما يمنع وحدتنا سوى سد من سراب توهمناه حتماً لا مناص منه، لازلت أتذكر صدمة المحقق الأمريكي وهو يحملق إلي باستغراب قائلاً: كيف اجتمعت أكثر من خمسين جنسية في غوانتانامو؟ من الذي جمعكم وكيف؟

أحقاً تحققت الرؤى؟ كنت بين النائم واليقظان، أحسست أن كمية السعادة فوق ما أستطيع تحمله، تقتلني أشواقي لعناق أبي وأمي، كانت المقاعد وفيرة، أستطيع أن أحرك يدي ورجلي دون قيود، لن أسمع بعد الآن ذلك الصوت البغيض وهو يصرخ: (block shutdown) إغلاق العنبر، لن يخترق سمعي رنين السلاسل ولا قرع الأبواب ولا زعيق قوات الشغب.

وأخيراً أقلعت الطائرة، أهي رؤيا منامية كما كنت أرى من قبل أم تحقيق لتلك الرؤى؟ أتحسس جسدي لعلي أحدد في أي العالمين أنا، عالم الحقيقة أم عالم الأحلام، تذكرت أني كنت أتحسس نفسي من قبل وأنا في الحلم فأشعر بقرصتي وأطير فرحاً قبل أن أكتشف بعد ذلك أني غارق في أحلامي السعيدة، أريد أمراً فيصلاً يقطع لي أين أنا تحديداً.

: ما هو شعورك؟

التفت وإذا به العقيد الكويتي المسؤول الأمني الذي تولى عملية المفاوضات لإطلاق سراحي، كان يسألني مبتسماً، بادلته الابتسامة وأنا أتمتم: حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، قال وهو يضع يده على كتفي: لقد أصبحت أعوام الأسر حلماً.

حلماً؟ يبدو أني أعيش الحقيقة، يا الله، وأخيراً!

قربت وجهي تجاه النافذة أحاول أن أرى ما حرمت منه طوال فترة الأسر، لكن ظلام الليل حال دون ذلك، صعدت بصري وإذا ببريق خافت متناثر هنا وهناك، ما أجمل النجوم غير أن مصابيح أجنحة الطائرة قد حالت بيني وبين الاستمتاع بها، لقد أوهى هذا النور الضئيل في جناح الطائرة من وهج النجوم، ليس لأنه أقوى بل لأنه أقرب، كي نرى نور الحقيقة بجلاء يجب علينا أن نطفئ كل مصابيح الوهم المستكن في غور قلوبنا، لن يرى صراط الله أمامه من لم يره في روحه.

: إلى ماذا تنظر؟

نظر إلي الدكتور النفسي ملياً، شعرت من نظراته أنه يحاول أن يغوص في أعماقي ليستخرج مكنون أفكاري ومخبوء مشاعري.

: أخبرني يا فايز إلى أي شيء تنظر؟

: أنظر إلى ما حرمت منه أربعة عشر عاماً، أحاول أن أنظر إلى جمال النجوم.

اقترب من النافذة القريبة منه، جال ببصره هنا وهناك، منظر معتاد بالنسبة إليه لكنه ليس كذلك بالنسبة إلي.

مرت الساعات بطيئة، هبطت الطائرة مطار الدار البيضاء في المغرب، بقيت في الطائرة إلى حين الانتهاء من تعبئتها بالوقود، تفاجأت بدخول ضابط أمن مغربي الطائرة حين علم بوجودي فصافحني بحرارة مهنئاً بسلامة الوصول، يا للإسلام الذي ألف بين قلوب متنائية بكلمته العظيمة (لا إله إلا الله).

واصلت الطائرة تحليقها، كانت أمامي شاشة صغيرة توضح خط سير الطائرة عبر البلدان، لمحت مؤشر الطائرة وقد تجاوز ذلك الخط الفاصل بين المغرب والجزائر، التفت سريعاً لأرى آثار ذلك الخط على أرض الواقع، فلم أر شيئاً، طبيعة الأرض في الجانب الأيسر من الخط كطبيعتها في الجانب الأيمن، الأضواء الخافتة على جانبي ذلك الخط الفاصل متماثلة، ما يجمع الحراس على جانبي الخط أكثر مما يفرقهم، دينهم، قبلتهم، لغتهم، عاداتهم، تقاليدهم، بدأ مؤشر الطائرة يتجه نحو تونس ثم ليبيا ثم مصر، قبض الضيق على خناقي وأنا أرى هذا الخط الوهمي الملعون يقطع أمتنا أوصالاً، من يملك المال يفتقر إلى العدد، ومن يمتلك العدد يفتقر إلى المال، دول فقيرة مليئة بالثروات التي تَقاسَمَها جَشَعُ الغرب وخونةُ الوطن، وأخرى قوية رفعت شعار الوحدة كذباً لتبتلع جارتها، ثم ترسم حدوداً جديدة لا تختلف عن سابقتها سوى أنها من صنعها هي لا من صنع الغرب، وهل يختلف الحال إن كان هبل قد صنع في الروم أو مكة؟ وما البلدان إلا كأعضاء الإنسان، لن تقوم للقلب قائمة دون المعدة، وليس للكبد قيمة دون مصفاة الكلية، لا فخر لهذا على ذاك بما يملك.

كنت أتأمل من نافذة الطائرة، أنى للإنسان أن يتحمل هذا الكون الغارق في ظلامه الموحش دون أن يرى فيه نور الله؟ الله الذي عرفت عنه في الأسر ما لم أعرفه من قبل، لقد كانت غوانتانامو قصة عبد عرف فيها ربه، ابتلاه فازداد له حباً، نظر في عمله الذي ظنه لهذا اليوم عدة، فإذا به لم ير سوى ربه، إلهي وسيدي ومولاي.. لم تدخلني فم الأفعى إلا لحكمة بالغة تستحق عليها الحمد، فأنت أرحم بي من أمي، والأم لا

تضرب ولدها تعذيباً بل تعليماً، إلهي وسيدي ومولاي. . لم تتخل عني وأنا أتقلب في صروف البلاء، بل حرستني بعينك التي لا تنام حين تخلى عني الناس، وأحطتني بدرعك الحصين حين رماني الأعداء من قوس واحدة، وأدخلتني في سترك الواقي حين اصطكت كاسات الخمور ببعضها في محافل المجرمين وقد سكروا في نشوة غرورهم فرحاً حين رأونا في الأصفاد، ومسحت بيد لطفك ورحمتك على قلوبنا المتعبة حين رقص على آهات جراحنا الراقصون، ماذا أقول عن أسرار لطفك لمن لم يعرف ما عرفت؟ وكيف أصف بحور إحسانك لمن لم يشاهد ما شاهدت؟

حلقت بي الطائرة قافلاً إلى وطني الحبيب، مشاهد خاطفة لم تحمل معها سوى ذكريات عابرة، لا يوجد هناك أي أثر للألم، لقد تحول الأنين والحنين إلى مجرد ذكرى مرت سريعاً أمامي دون أن تلتفت إلي، لقد أُسِرْتُ في عيد الفطر (١٥/١٢/٢٠٠١)، فأجلت احتفالي به إلى يوم تحريري في (٩/١/٢٠١٦)، وما بين صلصلة القيود تحيط بمعصمي في يوم العيد وزغردة الأفراح في يوم العود كانت أربعة عشر سنة، مرت كلمح البصر.

التفت وإذا بالجميع قد غرق في سباته العميق إلا ذلك الرجل الجالس في المؤخرة وهو يحدق من النافذة، كنت أنا والعقيد عبد الله مستيقظان قد جفانا الكرى، أما أنا فللشوق الذي استحوذ علي، وأما العقيد فقد رأيت على محياه ابتسامة خافتة مستريحة، لقد اقتربت لحظة تنفيذ وعده الذي قطعه لوالدي حين قال: سأبذل كل ما أستطيع لرجوع فايز، سأمسكه من يده وأنزله من الطائرة ليعانقك بإذن الله.

بدأت الطائرة في الهبوط، كنت أتأمل مصابيح الشوارع تتلألأ مع الرذاذ المنهمر من السماء، حطت عجلات الطائرة على أرض المطار فازدادت دقات قلبي، توقفت فكاد قلبي يتوقف، بأي قلب سألقاهما؟

كانت من أصعب اللحظات التي مرت علي في حياتي، مرت دقائق وإذا بالعقيد عبد الله يأتيني متهلل الوجه، أخذ بيدي تنفيذاً لوعده، وقفنا عند بوابة الطائرة وإذا بمجموعة من الرجال ينظرون إلي أسفلها، لم أر منهم إلا ذلك الشيخ الكبير الذي غزاه الشيب، لا أدري كيف نزلت من على سلم الطائرة، وكان العناق، عناق طويل، لا أدري هل كان العناق كطول الفراق أربعة عشر عاماً؟

كانت الدموع ممزوجة بالشهقات، التفت وإذا ببعض أقربائي والعم خالد العودة والعم عبد الرحمن الهارون يهنئوني بسلامة الوصول، نقلوني بسيارة خاصة للأمن إلى المستشفى العسكري الذي قد تجمع فيه عدد كبير من الأهل، دخلت البوابة الخلفية للمستشفى بعد أن تزاحمت أعداد كبيرة على البوابة الرئيسة للتهنئة فلم يسمح لهم الأمن

تنفيذاً للشروط الأمريكية لإطلاق سراحي، أسرعت السير في دهليز المستشفى وإذا بشباب من إخواني وأهلي ينتظرونني، لم أر وجوههم، هناك وجه واحد فقط كنت أبحث عنه، لوحت لهم بلطف قائلاً: أرجوكم.. أول شخص سأسلم عليه هي أمي، يا له من تصرف أشعر منه اليوم بالإحراج، ولعلهم يعذرون من ذاب قلبه شوقاً لمن ربياه صغيراً، انفرج الجمع لأراها تمشي ببطء من بعيد، أي كلمات تسعفني لأشرح هذه اللحظات؟ أي حروف تقوى على حمل مشاعري فوق أكتافها؟ لقد كان بيني وبينها بضع خطوات لكني كنت أراها سحيقة، عانقتها فشعرت بارتعاشة بدنها الواهن، كانت تبكي كعادتها دون صوت، أحسست بجسدها ينهار، أغمي عليها فأمسكتها بقوة من عضديها لأمدده على الأرض، ما بال هذا الجسد الذي صمد شامخاً أربعة عشر عاماً ينهار في لحظة اللقاء؟ أهو تماسك المتسابق في مضماره حتى إذا قطع شريط الفوز ألقى بجسده المتعب ليستريح من عنائه الطويل؟

اجتمع حولي أهلي وأحبابي مهنئين بالعناق الباكي، لقد أفلست عيني من الدموع فقد أفرغت كل ما في جعبتها في عناق أبي وأمي، قال لي أقربائي بتأثر بالغ: كان زمناً طويلاً، إنها أربعة عشر عاماً!

قلت: لكنها مرت كلمح البصر، وبقي أثرها كحد السيف.

سألني: هل أوقفتك الآلام؟

قلت: بل دفعتني إلى الأمام، جعلتُ خدوشَ جراحِها دروباً ترشدني إلى الحقيقة وتوصلني إلى الله.

المستشفى العسكري:

طرقت باب غرفتي في المستشفى العسكري ليفتحه أحد أفراد الأمن بوجه بشوش: أريد ماء لو سمحت.

حاول أن يكتم ضحكاته المتفلتة دون جدوى، أصابني بعدوى الضحك وأنا لا أدري ما سبب ضحكه!

: سامحني فقد ذكرتني بمعلم اللغة العربية، لماذا تتكلم بالفصحى؟

ابتسمت محرجاً، فعلاً لقد تغيرت لهجتي كثيراً، أَغْلَقَ البابَ وأنا أسمعه يحدث صاحبه مازحاً: يقول (أريد ماءً)!

لقد كان المعتقلون في غوانتانامو من خمسين جنسية تقريباً، متعددي اللغات واللهجات، مما جعل كلامنا هو أقرب ما يكون إلى (سلطة الخضار) على حد تعبير أحد الإخوة، طماطم وخيار وخس وبقدونس، خليط من اللهجة الكويتية والسعودية

واليمنية والمصرية والجزائرية مع بعض المفردات الأفغانية، تذكرت أحد الإخوة الأفغان في المعتقل حيث كان يعاني من استخدام الضمائر في اللغة العربية، فسمعت أحد المعتقلين يطلب منه النداء على أخ قريب منه، فأخذ يناديه: (يا فلان.. هو يريد أنتكه) أي هو يريدك! فغرقت في ضحكي فلما رآني أضحك ضحك هو الآخر، استأذنت منه أن أذكر هذه القصة عندما أخرج من غوانتانامو، فأجابني مازحاً: تخرج من غوانتانامو؟ ستبقى هنا ولن تجد من تخبره بالقصة إلا أنا ومن معك في العنبر، لكن إن خرجت فأخبر بها من تشاء!

كثيراً ما كنا نُحْرَجُ حين نتحدث مع أهلنا عند الاتصال بهم، فكانوا يلاحظون تغير اللهجة، أما المعتقل السعودي فيمزح معه أهله قائلين: (يبدو أنك أصبحت يمنياً؟) واليمني يقول له أهله: (صار كلامك حجازياً، هل أنت متأكد أنك في غوانتانامو أم أنك مغترب للعمل في السعودية؟).

لن أنسى ذلك الموقف الذي جعلني ضحية من ضحايا عمي المعروف بمزاحه وردوده المسكتة حين قلت له في اتصال: (معنوياتنا عالية مرة مرة)، و(مرة) تعني باللهجة السعودية: (جداً)، فقال مازحاً: (مرة مرة)؟ قل (مرتين) أسهل لك!

كان مسموحاً للأهل من الدرجة الأولى فقط زيارتي في المستشفى العسكري تطبيقاً للشروط الأمريكية لإطلاق سراحي، تبدأ الزيارة من التاسعة صباحاً حتى الثامنة ليلاً، بينما كانت الفحوصات الطبية قبل التاسعة، كشف جهاز الأشعة شظية كامنة في الفخذ، هي الوحيدة التي بقيت في جسدي بينما خرجت الأخريات منه عندما كنت في المعتقل بعد أن رفضت إدارة المعسكر علاجي، لفظها جسدي تلقائياً بعد سنين، أخبرني الطبيب بوجود تداخل بين الفقرات وتكلس وإجهاد عضلي حاد ضغط على عظام الرقبة حتى أزال تقوسها الطبيعي وأصبحت مستقيمة، ومع العلاج الطبيعي خفت الآلام، تذكرت شدة آلام الرقبة التي عصفت بي من عام (٢٠٠٦) حتى (٢٠١٦) فلا أستطيع أن أتخيل بأني تحملتها طوال هذه السنين، فأيقنت أن رحمة الله وكرمه كانت تغمرنا في أسرنا.

وخلال ذهابي وإيابي من غرفتي للفحوصات الطبية كنت أمر خلالها بين مرتادي المستشفى، فكنت أشعر خلالها بشعور غريب جداً، كان يرافقني رجل من أمن الدولة، قمة في الاحترام والخلق الحسن، كان يدفعني في دهليز المستشفى وأنا جالس على الكرسي المتحرك، كنت أرى الناس في صالة الانتظار وآخرين يمشون في الممرات، لأول مرة أرى هذا المشهد منذ أربعة عشر عاماً، أرى مسلمين ومسلمات حولي بعد أن كنت في قبضة وحوش ليس لهم من الإنسانية إلا الاسم، وما إن حططت رحلي في وطني حتى انهمرت سيول الحب والعطف فأطفأت جمر غوانتانامو ولم تبق منها إلا

بقايا رماد يذكرني بمتجبرين لا يحملون قلوباً بين ضلوعهم وبمؤمنين أبوا الركوع إلا لله، ها أنا ذا بين أهلي وأحبابي وأمتي، كنت كقطاة رحلت بعيداً طويلاً، ثم آبت بعد شقاء إلى عشها الحنون، أحسست بطوفان حب جارف يغمرني، كنت أتأمل الناس وأنا أبتسم، كنت أرى الأم تُهَدْهِدُ ولدَها بيدها وذلك الأب يداعب ابنته في دلال، كنت أراهم جميعاً أكاد أطير بأجنحة الحب الذي كان يقودني حيث شاء، كنت أناجيهم هامساً بكل شوق: (لقد أحببتكم كثيراً وفوق الكثير)، لكن أحداً لم يرد علي أو يلتفت إلي، فهمسي لم يصلهم ولم أرد أن أسمعهم، فقد تعودت أن تكون مشاعري حبيسة صدري المتعب، كنت أنظر إليهم فرحاً، أردت أن أعانق الصغار وأسلم على كل من ألقاه لولا أن يظنوا بي جنوناً، نجحتُ في إلجام لساني من التعبير عن طوفان الحب لكني فشلت في إلجام الابتسامة التي أبت إلا الظهور على قسمات وجهي، كان حباً فواراً يغمرني غمراً، كنت أتأملهم طويلاً، كنت أنظر إلى الكويتي والمصري والباكستاني والسوري ليس على اعتبار الجنسية، بل الأمة، تلك الأمة العريقة العظيمة، لقد أدركت بعد تجربة مريرة أن أمتنا تمتلك كنزاً ثميناً فرطت فيه، إنها تمتلك كل المقومات التي تجعلنا متحابين متكاتفين وهي الركيزة الأهم لبناء قاعدة صلبة تنطلق منها حضارة قوية، لقد أدركت بعد آلام مريرة أن التفريط في هذه المحبة والألفة بسبب تعصب قومي أو رأي فقهي أو خلاف حزبي أو اجتهاد فكري يُعَدُّ جهلاً بل جريمة في حق الأمة، وحين تنظر شزراً لمن يخالفك في رأي فاعلم أن هناك من يريد استئصال الإسلام برمته من قلبك، وحين تعلن حرباً ضد من ينتمي لحزب آخر تذكر أن هناك ذئباً مسعوراً يتحين الفرصة للانقضاض على رقبتك، كم نحن سطحيون وساذجون حين نتغافل عن الحية الرقطاء المحيطة بنا بينما نشحذ الأسنة لقتل وَهْمٍ صنعناه بأيدينا.

عند بقائي في المستشفى العسكري كان أهلي يزورونني، ذهلت وأنا أرى بيد أمي تلفوناً وهي تحركه يمنة ويسرة، وترسل الرسائل إلى فلانة وفلانة، كنت أسمع كلمات غريبة علي، واتساب وتويتر وانستغرام، ما هذه الأشياء؟ لقد كنا في عالم آخر فعلاً، لكني صعقت حين رأيت ابنة أخي عمرها سنتان وهي تقلب صفحات الآيفون، يا إلهي، هذا يكفي!

بقيت في برنامج التأهيل كل المدة التي اشترطتها الحكومة الأمريكية لإطلاق سراحي، كانت الأيام الأولى للحرية صعبة علي خاصة وأنا أرى التغير الهائل الذي طرأ على الناس، والتأثير السيئ لشبكات التواصل الاجتماعي على التواصل الاجتماعي، يبدو أن مهمة المصلحين في زماننا صعبة للغاية.

سألني الكثيرون عن الرؤى القوية التي رآها المعتقلون، في الحقيقة كنت أرى

العجائب في تحقق الرؤى، وكان الكثيرون يرون النبي ﷺ بصفة مستمرة يصبرهم تارة وينبههم تارة، لقد كشفت لنا الرؤى عن ثورات الربيع العربي من عام ٢٠٠٣ بشكل دقيق مذهل، كما أن هناك الكثير مما تخبئه الأيام، لكني أعتقد أن الرؤى سر بين العبد وربه، فأرى أن تبقى هذه الكوة المقدسة محاطة بهالة تخفيها عن الأعين المتطفلة، وأعظم إهانة لأسرار المحبين إفشاؤها بين المتشككين.

دعاني أحد الأصدقاء لإلقاء محاضرة، وبعد أن انتهيت سألني أحدهم مرتاباً وهو ينظر في عطفيه: لماذا ذهبت إلى أفغانستان؟

أقبل هذا السؤال من محقق أمريكي يواجه حرباً ضروساً يريد فيها الانتصار، لكني لا أقبل التشكيك من شخص يقبع في هامش الأحداث العالمية غارق في السلبية ثم يحلو له تقمص دور القاضي وهو يقول للمتهم: اعترف!

كنت أنظر في عينيه القاحلتين اللتين لم تكترثا بآلام ملايين البشر الذين طحنتهم أقدام هذا العملاق المتوحش دون رحمة، كان ينظر إلي بنظرات فاحصة وابتسامة تذكرني بابتسامة شارلوك هولمز وهو يستدرج المتهم للإقرار، أخذت أتأمل هذا البائس المسكين الذي رسخ لدي الشعور بأن الأمة اليوم تعاني أزمة ضمير وضياع كرامة، لا أستسيغ قول الحقيقة حين يسألني عنها المرتاب في صدقي، لن أهين الحقيقة بعرضها على من لا يستحقها، لا ضير إن سألني أحدهم مستفهماً بنية طيبة عن سبب ذهابي إلى أفغانستان، سأجيبه ونعمت عين، لكن إن كان يسألني مرتاباً متشككاً بينما أراه مختالاً متسكعاً في شوارع أمريكا كالبطة العرجاء دون أن يكلف نفسه أن يسألهم: (لم تقتلون الأبرياء؟) فلن أجيبه ولا كرامة، إنها قسمة ضيزى حين يرتاب رعديد من ذهاب مسلم إلى أفغانستان بينما لا يهتز ضميره الميت حين يرى الحمم الظالمة تنهمر على بيوت الآمنين لتحيل بنيانها حطاماً وأجسادهم أشلاءً، ثم يقول قائد الطائرة ضاحكاً: كنت أقصفهم كأني ألعب (PlayStation)!

إنه حكم جائر حين يعتبر الذهاب إلى أفغانستان أعظم جرماً من قتل الأبرياء على الهواء مباشرة، إنه يرى الأمريكان يستهزئون بمشاعر الأمة حين يصورون جرائمهم وينشرونها في القنوات لأنهم يعلمون أنها أمة فاقدة الوعي، إنهم يعرضون تفاصيل جرائمهم على العالم الذي أضاع إنسانيته ثم أخذ يبحث عنها بسؤاله لي: لماذا ذهبت إلى أفغانستان؟!

لقد ابتعد عني بعدما أسرت كثير ممن ظننتهم إخوان صدق، سرني ابتعادهم ولم يسؤني، لأني اكتشفت أنهم كانوا مجرد حمل ثقيل على كاهلي وأنا أتسلق جبلاً وعراً أو صخرة متعلقة بقدمي وأنا أسبح في بحر متلاطم، وأنه آن الأوان أن أتخفف منه،

فأنا أرحم الضعفاء لكني لا أصحبهم، لقد كان وِقْراً ظننته تِبْراً وإذا به تراب لا يستحق معاناة حمله، لقد كانت تحيطني آلاف الروابط فاكتشفت أن معظمها قد نسج من خيوط العنكبوت، سرعان ما مزقته نفخة بلاء، لقد رأيت وجوهاً كانت تهتف لحريتنا أمام السفارة الأمريكية، وجوهاً لا أعرفها لكني حتماً أعرف قلوبها التي تفيض رحمة وعطفاً وإنسانية، بيد أني رأيت وجوهاً أعرفها جيداً كانت تشيح عني هاربة، وجوهاً صحبتني عمراً وألفتني دهراً، كانت تفر مني مرتعدة، ما لك وقفت بعيداً أيها الكريم؟ أتراني قَلَيْتُك؟ لا عليك، قلبي لا يزال يحترمك، يحبك، لكنه أشفق عليك حين رآك ترتجف هلعاً، قد وقف جُلّ أمتنا وجلاً أمام الأفعى وهي تلتوي علينا، أفتراك أنت تتقدم؟ قد يجد المرء في نفسه حين يرى في بهجة أفراحه من لم يره في محنة أتراحه، لكنها غوانتانامو علمتني أن أعتاد الخلوة مع ذكريات الراحلين وأشواق الوصول.

بين الحكومة والجماعة:

زارني بارز من إحدى الجماعات الإسلامية بعد خروجي من التأهيل يهنئني بالحرية، كان له دور مشكور في نصرة قضيتنا وقضايا المسلمين بشكل عام، تجاذبنا أطراف الحديث عن قضيتنا، أخبرته بأن معظم الدول ارتجفت أوصالها فرقاً من هذا التنين الذي اعتاد حرق أمم الأرض بناره، وإذا به يفاجأ بالنار تضطرم بجسده هذه المرة، لم يجرؤ أحد على الحديث عن مشروعية اختطاف البشر وتعذيبهم في جزيرة نائية دون حقوق، وبعد عدة أشهر كانت أول دولة تطالب برعاياها هي بريطانيا والكويت، ليس مستغرباً موقف بريطانيا لكن المستغرب موقف هذه الدولة الصغيرة التي ترى دولاً عربية وإسلامية أكبر منها بكثير لا تجرؤ على الحديث عن قضية غوانتانامو فضلاً عن المطالبة بمعتقليها، لكن لا يمكن بحالٍ الادعاءُ أن كل أعضاء الحكومة كانوا على مستوى واحد من الاهتمام، منهم من لم يعر الموضوع أي أهمية، وآخرون تمنوا عدم إطلاق سراحنا تصديقاً لرواية البنتاغون، وهناك من بذل في نصرتنا جهداً يشكر عليه، كما أن هناك جهات إعلامية كانت تصيغ أخبارنا بأسلوب ماكر يشي بتورطنا وأخرى تدافع عن حقوقنا كبشر في محاكمة عادلة، مسؤولون يغمزون قناتنا دون خجل في مقابلات تلفزيونية قائلين: ها هم الآن يكون في غوانتانامو! بل أخبرني المحامي أن رئيس الجمعية الكويتية لحقوق الإنسان سنة ٢٠٠٨ كان يتحدث عنا كمجرمين نستحق العقوبة والذي يفترض من خلال منصبه أن يطالب بمحاكمتنا محاكمة عادلة وإعطائنا حقوقنا الإنسانية.

كما أن دعاة نصرونا وقضايا المسلمين بما يستطيعون قولاً وعملاً، فكانوا مثال شرف للصادقين، وهناك آخرون كانوا لي صدمة جعلتني أعيد حساباتي في الكثير من

الأمور، سمعت عن شيخ دين كان يدعو: اللَّهُمَّ أهلك الظالمين بالظالمين، إنهم يروننا تكفيريين إرهابيين خوارج سلط الله علينا أعداءه الأمريكان عقوبة لنا! ويكفي لإثبات هذه التهمة علينا أنه يرانا كذلك فهو يرى بنور الله! يجيز لنفسه أن يُحَمِّلَ الكل جريرة البعض، فهو مجتهد ولكل مجتهد نصيب! نصيب من الأجر لا الوزر، فالله لا يعذب مثله على ظنه! كيف وهو من أبناء الله وأحبائه؟

يظنون أنهم وحدهم من يستحقون أن يدمر الله الأرض من أجلهم، هكذا يتوهمون! ثم يعمون عن مجازر الدكتاتوريات بل يرونها إصلاحاً ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

بينما أجد الدكتور غانم النجار يرحل إلى كندا ثم إلى واشنطن دي سي ويحضر مكتباً تابعاً للبنتاغون ويعاني الإجراءات الأمنية التي تجاوزت الأربع ساعات ليدلي بشهادته لصالحي في جلسة (PRB)، ويطالب رئيس الجلسة بإعطائي حقوقي كإنسان، أتفق مع هؤلاء الشيوخ فكرياً لكني أختلف معهم إنسانياً، وأختلف مع الدكتور غانم فكرياً لكني أتفق معه إنسانياً، وكم تشوه الأفكار حين تفقد إنسانيتها.

تملكني شعور بالامتنان حين أتاني المحامي بصور الاعتصام أمام السفارة الأمريكية وقد تجمع في الساحة الحضري والبدوي والسني والشيعي والمتدين والعلماني والمحجبة وغير المحجبة كلهم يهتف مطالباً بإطلاق سراحنا، كان والدي رَحِمَهُ اللهُ والعم خالد العودة والد أخي فوزي يعتصمان أمام السفارة الأمريكية يومياً للمطالبة بإطلاق سراحنا، عرض عليهما أحد القاطنين بالجوار خدماته وأبدى تعاطفه الكبير مع القضية، كان شيعياً من عائلة دشتي، ما أحوجنا إلى استغلال هذه المواقف الإنسانية التي تجمع المختلفين لإزالة الحواجز النفسية والصور النمطية التي تمنعنا من الاستماع لبعضنا مباشرة والبحث عن الحقيقة بتجرد، وحين التقى الرئيس الأمريكي (بوش) بالنخبة النسائية في الكويت عام (٢٠٠٨) طالبت تلك النخبة بإطلاق سراحنا، ولو كان بعض القيادات الإسلامية لَوَسَمونا بالإرهاب كي يجملوا صورتهم أمام العم سام وَلَضَحَّوا بنا لا لنا، قيادات الجماعات الإسلامية لا تمثل الإسلام ولا تمثل كل أفراد هذه الجماعات، لا أقول هذا تحاملاً لكنها الحقيقة التي يجب أن تقال، والتي يجب أن تسمعها الأجيال القادمة، الحقيقة تدمي لكنها تخرج الدم الفاسد.

كان غالب الدعاة يشاركوننا المعاناة ويقاسموننا الألم بأرواحهم لا بأجسادهم، تتجدد أحزانهم كلما رأوا الملابس البرتقالية التي تذكر بهوان أمة خذلت أبناءها، لكن ثلة زعمت انتسابها للدعوة كان عليها أن تخلع زياً تنكرت به، كنت أزدري نظرات التوجس التي كانوا ينظرون إلي بها، فكنت لا أقوى على السكوت وتأبى علي كرامتي

أن أقوم بدور المدافع عن نفسه كأنه ارتكب جريمة فأجيب هؤلاء البؤساء: هَبُوا أنني شاركت في قتال قواتهم الغازية في أفغانستان أين أنتم من بحر جرائمها على مر التاريخ من قتل واستعباد الملايين من البشر ونهب ثروات الأمم؟ فكيف وأنا لم أشارك في هذا الصراع؟ لكن العبيد لا يجرؤون على انتقاد جرائم سيدهم القوي.

وليتهم اكتفوا بالصمت وهم يروننا نعذب ونهان، بل استغل بعضهم قضيتنا ليقدم نفسه لذوي النفوذ كإسلامي معتدل يمكنهم الاعتماد عليه وتقريبه من بساطهم، فوصمنا بالتكفير والإرهاب دون دليل، ولطالما تمثلت فيهم قول القائل:

ظننتكم درعاً حصيناً لتمنعوا	سهام العدا عني فكنتم نصالها
وكنت أرجي عند كل ملمة	تخص يميني أن تكونوا شمالها
دعوا قصة العذال عني بمعزل	وخلوا العدى ترمي علي نبالها
إذا لم تقوا نفسي مكايدة العدى	فكونوا سكوتاً لا عليها ولا لها

أما الموقف الذي كان له دور مفصلي في قضيتنا بعد الله ﷻ فهو موقف سمو أمير البلاد جزاه الله خيراً، كان الكثيرون من السياسيين والإعلاميين بل والجماعات الإسلامية في حالة توجس من قضيتنا خوفاً من الولايات المتحدة وتبعات وقوفهم في صف المعتقلين، وحين تبنى الشيخ صباح القضية تشجعوا بعد أن كانوا يقدمون رجلاً ويؤخرون رجلاً، لقد أخذت قضيتنا منحى جديداً وبعداً لا يستهان به بعد أن تبنى الأمير القضية، فيا سبحان الله الذي جعل هذا النفوذ والتأثير في قرارات الرؤساء، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، لن أنسى اللقاء الذي جمع الرئيس الأمريكي أوباما بأمير الكويت، وبعد أن أنهى أوباما كلمته في لقائه معه كان أول طلب للأمير هو إطلاق سراحي وفوزي قائلاً: أنا أضمنهما شخصياً! موقف لن أنساه ما حييت، ولا زلت أدعو له في سجودي أن يملأ قلبه إيماناً وهداية تكون سبباً لسعادته وشعبه دنيا وآخرة.

قلت للأخ الزائر بكل وضوح: هذا الموقف ما آنسته من جل قيادات العمل الإسلامي بكل أطيافه عدا قلة وفية لمبدئها العادل، الكثير من قيادات الجماعات الإسلامية يرفعون شعار (الإسلام هو الحل) وأراه أكبر منهم بكثير، ينبغي أن لا يرفعوا شعاراً لا يستطيعون تطبيقه لأنهم حينئذ سيشوهونه، إن من أعظم مبادئ الإسلام نصرة المظلوم وقد تخلوا عن هذا المبدأ إلا حين يخدم الجماعة والمصلحة.

قال لي: هم معذورون يا فايز.. قضيتكم حساسة وعندهم جماعة يريدون الحفاظ عليها.

قلت: الأمير أولى بهذا العذر منهم فعنده دولة يريد الحفاظ عليها، والحفاظ على

الدولة أهم من الحفاظ على جماعة، لكنه يعلم أكثر من بعض قيادات الجماعات الإسلامية أن الدفاع عن الحقوق الإنسانية واجب لا يمكن النكوص عنه، ولماذا لا يعذرون من خذلهم بعد الثورات المضادة بسبب الاضطرار؟ وماذا عمن خذل إخواننا في غزة بسبب اضطراره؟ هم ليسوا محور الإسلام ولا امتياز لهم عن بقية المسلمين الذين تتكافأ دماؤهم.

إن أعظم ما يميز أهل الحق عن غيرهم هو انتصافهم من أنفسهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾، إن أعظم منقبة لأهل الحق نصرتهم للمظلوم ولو باللسان إن عجزت اليد، ليست اللحية ولا الشعار هو الفيصل بين الفريقين، وأي منقبة على غيرنا ما دمنا نعتذر عن نصرة المظلوم بالعجز وعن كلمة الحق بالمصلحة؟ (المصلحة) ذلك المصطلح المظلوم الذي اختطفته الأهواء ليصبح أَثَرَةً بعد أن كان حكمة، وحين يغتر حامل الراية فإنه يرى نفسه هو الراية ليكون الحفاظ على نفسه يعني الحفاظ على الراية وتصبح مصلحته الشخصية والحزبية هي المصلحة الدينية التي يجب أن تراعى، حين يتخلف الدعاة عن مهامهم الحقيقية الصعبة وينشغلون بالهوامش فلا غرو أن تنزع الراية من أيديهم ليأخذها من يحملها بحقها، إنَّ حاكماً يسمح للدعوة أن تعرض نفسها على الناس دون أن يَدَّعي تمثيلها خيرٌ من تطبيقها مشوهة ممن يَدَّعي تمثيلها، وتوضيح الفكرة للجماهير أولى من فرضها عليهم.

أراهم يطالبون برئيس حكومة منتخب لكنهم لا يطبقون ذلك على أنفسهم، فمجلس شورى الجماعة لم يتم انتخابه من أعضائها، بأي حق تظل هذه القيادات جاثمة على صدر الجماعة دون أن يكون للأفراد حق الاختيار؟ يعارضون توريث الحكم بينما أراهم يورثون قيادة الجماعة لأبنائهم أو الدائرة المقربة من صناع القرار.

رأيته ينظر إلي بعينين مصدومتين فزدته صدمة قائلاً: كان ينبغي على الجماعات الإسلامية أن تبدأ ثورات الربيع العربي على قيادات الجماعات الإسلامية الذين لم يأتوا باختيار الأعضاء قبل الحكومات الدكتاتورية ليكونوا قدوة لغيرهم، وصِدْقُ الداعيةِ في امتثال ما يدعو إليه ليثق به الشعب أجدر من أن يلفاه ذلك الشعب واثباً على كرسي الحكم بالخديعة.

: ما عهدتك قاسياً.

: لست قاسياً عليهم بقدر حرصي على الدعوة أن تشوه، إن أردنا أن نكون نُصَّاحَ صدقٍ فلنقبل النصحَ الصادقَ، والمطرقةُ التي نرفعها فوق رؤوس الآخرين جائرةٌ ما لم تكن فوق رؤوسنا كذلك، كل ما نريده منهم أن يضعوا أنفسهم في كفة الميزان كما الناس لا أن يكونوا هم الميزان.

: ألا تسر لهم بالنصح؟

: يعلنون نصحهم للحكومة ويبغونها لهم سراً؟ عجباً!

قل لي بربك.. بماذا تفسر لي رفعهم لشعار مكافحة الفساد ثم نراهم يتحالفون مع الفاسدين للوصول إلى البرلمان؟ هم كمن يغري ولده المصاب بداء السكري ليأخذ دواءه بإعطائه قطعة كبيرة من الحلوى!

إنها دغدغة العواطف بشعار الإصلاح يخفي وراءه المصالح، يرغي ويزبد بمهاجمة الحكومة وفور وصوله إلى البرلمان يتحالف معهم وينال لقربه من صناع القرار صلاحيات وامتيازات تجارية ينتفخ منها جيبه ويضمر منها ضميره، فلماذا نسمح لهم أن يكونوا واسطة بيننا وبين الحكومة يحققون بها مصالحهم؟

: تلومهم وتسكت عن غيرهم؟

: ما سكت عن غيرهم، لكن تقويم الظل لا يكون إلا بتقويم العود، وما عتبي عليهم يبرئ ساحة غيرهم، لكن انحراف المعلم ليس كانحراف التلميذ، وما خطيئة الداعية فيما يتعلق بالمبادئ والقيم كالمتعلقة بالسلوك، كما أن زلة الطبيب في عملية قلب ليست كهفوة الطاهي في مقادير الطعام.

ما أكثر الصادقين فيهم، لكن ذلاقة لسان الانتهازيين يدفعهم للصفوف الأمامية ليديروا المقود فيصبح الأتباع مجرد ركاب في عربة تائهة في أرض وعرة يدوي فيها بين الفينة والأخرى صوت القائد المجهول: (دع لنا القيادة وتمتع بالرحلة)!

هلم وانظر:

عندما كنت في غوانتانامو رأيت فيما يرى النائم أني أعود إلى وطني وأعانق أمي، وحين عانقت أبي مال للسقوط فضممته إلي لأضعه رويداً على الأرض، عرفت أني سأدرك أيامه الأخيرة، وأنه لن يطول به المقام.

لم تقر عيني برؤية والدي بعد عودتي طويلاً، قضيت ستة أشهر في مركز التأهيل، لا أرى أمي وأبي إلا مرتين أسبوعياً لمدة ٤ ساعات، وقبل انقضاء مدة التأهيل سافر والدي إلى لندن للعلاج من آلام يشعرها في صدره، اكتشفوا وجود أورام سرطانية فيه، تسارعت الأحداث بشكل ملفت، كان نذير الرؤيا يلاحقني وأنا أدفعه عني بعيداً دون جدوى، رجع من لندن في شهر مارس على عجل ليشهد اللحظة التي تمناها طويلاً، كان بجواري في صالة الأعراس جالساً على الكرسي من الإعياء يستقبل المهنئين على زواجي، لم يشأ أن تفوته هذه الليلة التي طال انتظارها،

ناداني هامساً: فايز!

: لبيك..

: لا أستطيع البقاء، أشعر بالتعب.

قالها مغمض العينين وهو يبتسم ابتسامة هادئة كنسمة عليلة بعد عاصفة هوجاء، شعرت أنه في هذه اللحظة قد نال من الدنيا كل ما تمناه، وأنه ينتظر شيئاً ما!

وددت لو استطعت إيقاف الزمن لأستدرك ما فاتني من برهما، اشتد عليه الإعياء وهو في المستشفى التلطيفي، نظر إلي مبتسماً وقد وجد خفة، كان وجهه مشرقاً كإشراق صباح ذلك اليوم، أنعشتني ابتسامته، قال لي بصوته الخائر: اقترب..

اقتربت منه مبتهجاً بابتسامته، عانقت كفيه مقبلاً: لبيك أيها الحبيب.

اتسعت ابتسامته وهو يقول: أريدك أن تخبرني عما حدث لك في غوانتانامو،

أجبته ضاحكاً: أبشر بما يسرك.

: عندما تتحسن حالتي بإذن الله سنجلس على انفراد لتخبرني بكل شيء

: بإذن الله.

: كل ما حدث.. وبالتفصيل!

: أبشر.

مرت الأيام سراعاً، تدهورت حالته بشكل مفاجئ، أصبح لا يقوى على الجلوس إلا بمساعدة، أخذ بصيص الأمل يتلاشى أمام ناظري بينما كان يشعشع أمام ناظريه هو، استمرت صحته في التدهور حتى فقد الوعي، لم يبق لنا منه سوى خيط رفيع يوشك أن ينقطع.

ابتسم ابتسامة غريبة ومد يده، كأنه يريد أن يتناول شيئاً، مد إليه أحد إخواني يده يظنه يريده، فقلت: إنه لا يريدنا، إنه يريدهم هم، كانت ابتسامته عجيبة، ما رأيته يبتسمها في حياته قط، ابتسامة حلوة هادئة مطمئنة، ابتسامة صابر أيقن أن آلامه عن قريب ستنتهي، أو متسابق اشتد في عَدْوِه متهللاً وهو يرى خط النهاية، أو سجين وهو يرى أمه تُلَوِّح له بورقة إطلاق السراح.

أخذت أنظر إلى هذا الجسد الهزيل الضعيف ملقى على السرير بلا حراك، أمسكت بكفه الحنون الذي أذوته صروف الدهر، أتأمل أنفاسه الضعيفة المضطربة، كانت روحه تحاول الخروج من سجن الجسد وهي ترجوه: دعني أتحرر، وهو يتشبث بها رافضاً.

كانت الغرفة الواسعة التي ضمت غرفتين مفتوحتين على بعضهما مكتظة بالأهل الذين أحسوا أن لحظة الوداع قد اقتربت، وأن هذا الرجل الحنون الرحيم قد عزم على الرحيل، استولى على قلبي شعور مستحكم أن زوار الموت قد ملأوا الغرفة، معهم كفن من العالم الآخر لهذا القادم الجديد، اطمأنت نفسي وهدأت، ستكون روح أبي في أيد أمينة بإذن الله، لن تسوءني فيه، فقد أَحَبَّهم وأَحَبَّ من أرسلهم إليه، أغمضت عيني لأراهم بوضوح، كنت أقرأ عليه سورة يس المرة تلو الأخرى، وكلما كررت قراءتها كررت هي تقديم عزائها لي وفتحت لي نافذة جديدة أرى منها حقيقة الموت والحياة.

بدأت أنفاسه تخفت وابتسامته الغريبة تتلاشى، حينها شعرت كأن الكون كله وقف صامتاً ليستمع إلى دقات قلبه ويراقب أنفاسه المتذبذبة المترددة بين البقاء والرحيل، اقترب منه ابن أخته الدكتور محمد أسد، ثم أخذ ولّاعة من أحد الحاضرين، فتح عينه ثم قرب منها اللهب، أراد أن يرى استجابة بؤبؤ العين لوهج اللهب فتضيق فتحته، كانت من أحرج اللحظات التي مرت علي في حياتي، صمت قاتل ساد المكان، كان ضوء اللهب المتمايل يداعب وجه أبي كأنه يحاول أن يوقظه دون جدوى، راقبت وجه الدكتور محاولاً فك طلاسمه وألغازه، أتصيد أي تغير في ملامحه لأسكن به تَشَوُّفي القاتل، كان لسان اللهب يترنح فيلقي بظلاله الكئيبة على قسمات وجهه الذابل، لا أدري لماذا تذكرت رسائلي التي وَصَفْتُ فيها أبي بالشمعة التي تحرق نفسها لتضيء للآخرين، شمعة هكذا أرادت أن تكون، اختارت لنفسها أن تحترق وتتألم لتضيء لنا الطريق، لأنها من أول يوم أحبتنا.

أخذ ابن أخته ينظر ملياً، يقلب عينيه، يغوص في الأعماق، كان يبحث عن روح خاله، هل لازالت تعمر ذلك الجسد الذي أنهكه السرطان، أم أنها رحلت في صمت دون أن تلقي علينا كلمة الوداع؟ كان اللهب المتمايل يمدنا بشيء من الأمل، وفجأة انطفأت الشعلة، زلزلني المشهد، هل كانت شعلة النار تحكي ما كان يعانيه من فراق الولد وفواجع الأيام وقد حان انطفاؤها؟

أومأت إليه برأسي مستفهماً، كنت أصد عن ذكر كلمة الفراق فكيف بالفراق نفسه وهو يتهيأ ليقول كلمته؟ تهرب من الجواب قائلاً: سيأتي الدكتور المختص ليرى بنفسه.

لحظات وإذا بالأطباء قد اجتمعوا عليه يفحصونه، رفعت الطبيبة رأسها إلي بحزن وأسف وهي تهز رأسها بالنفي، عندها تأكدت أن ملك الموت قد زارنا قبل قليل دون أن نشعر، خيل إلي أني سمعت صوت إغلاق صحيفة أعماله، وكأني بملك اليمين وهو يغمض عينيه ثم ينطلق وصاحب الشمال إلى السماء، معهما كتابه الذي لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، كان على محياه خشوع عابد تتنزل عليه أنوار الصلاة، مِلْتُ

عليه معانقاً مقبلاً، زاحمتني دموعي لتعانقه العناق الأخير، فَقْدُ الأحباب موقف لن يتكرر لنتمكن من الاستدراك، تزاحمت في مخيلتي ألف (ليت) عاجزة، انكب عليه أحبابه وانطلقت الألسن لهجة بالدعاء، إنه القرآن حصني المجرب في أوقات الأزمات، انطلقت في قراءة (يس) التي فاجأتني كعادتها بطعم جديد ولون جديد وشذى جديد، الابتلاءات تُبرِزُ الجانبَ المخفي من القرآن، اختلطت القراءة المتهدجة بالشهقات والدعاء المتقطر دمعاً، أما الواقفة عند رجليه تسيل دموعها على وجنتيها ويلهج لسانها بكلام لا يُسْمَع فلم يستغرب أحد من ثباتها المتجذر في أرض الرضا، كيف لا وقد أرتهم أعاجيب الصبر أربعة عشر عاماً على أسر ابنها، سقطت بعض قريباتي مغمى عليها بينما أخذت تصبرهن راجية نيله منازل الشهداء، فالمبطون شهيد كما أخبر النبي ﷺ.

مر الوقت سريعاً مثقلاً بالأحداث المزدحمة، وضعناه في لحده، كشفت الكفن عن وجهه، هنا تسكب العبرات وتتلاشى العبارات، هذا آخر عهدي بذلك الوجه الوضيء في هذه الدار المظلمة، رجعنا إلى البيت المتوشح بالسواد، كان الهواء خانقاً وضوء المصابيح معتماً، أين أنتِ يا مدد السماء ويا بهجة النفوس ويا سلوى المكروب ويا سيفي المجرب كلما دعتني مصيبة للمبارزة؟ هذا أوانك فاحضري، وبمجرد أن صففت قدمي وكبرت حتى عاد النور للحياة مرة أخرى واخضر العود اليابس.

وبعد أسبوع من رحيله شعرت برغبة جامحة للانسلال من كل ما يحيط بي، ركبت سيارتي وانطلقت، وصلت إليه، جثوت على ركبتي أمسح تراب قبره، تخيلتني أمسح جسده الهزيل الذي أضناه المرض، تعجبت من جَلَدِ عينيّ هذه المرة، هل أبت أن تسح دموعها في حفلة زفافه واجتماعه بأحبابه؟ أخذت أتأمل القبر، وكأنه تحول إلى شاشة أرى فيها ذكريات ذلك الحبيب المدفون في جوفه، والذي مذ غاب صارت كل الذكريات أمامي حاضرة.

تمتمت: أبي. . أنا لا أستحقك!

تذكرت مسحته الحانية على جبهتي التي علاها رشح الحمى، نظرته الحادة وهي توبخني يوماً على تأخري عن الصلاة مع الجماعة، ابتسامته الراضية التي اصطدتها قبل أن يحاول إخفاءها وهو يرى شهادتي المدرسية، وحين قمت يوماً عن مائدة الطعام متضجراً من عناء الدراسة كحال أغلب المراهقين أمرني أن أعود، لم يطب له أن أبيت طاوياً. تذكرته يصطحبني صغيراً دون التاسعة إلى صلاة الجمعة، فإذا فرغ الخطيب من الصلاة انطلق بي إلى مؤخرة المسجد واضعاً في يدي عشرين ديناراً لأضعها في صندوق التبرعات، كنت أعجب منه، هي نقوده فلماذا لا يضعها بنفسه؟ لكني كنت أستجيب

لذلك فَرِحاً، لم أدرك حينها أنه كان يزرع في قلبي شجرة دون أن أشعر. أوغلت في عمق التخيل حتى رأيته جالساً أمامي، أتذكر يا أبي؟ حين كنت أدرس في مكتبة المسجد لاختبار الفيزياء النهائي للمرحلة الأخيرة من الثانوية، فتفاجأت بك تطرق علي باب المكتبة لتقدم لي عصير برتقال طازج، قد انسكب ثلثه من الكوب الذي حملته بيدك وأنت تمشي بخطوات وئيدة من منزلنا إلى المسجد؟ هل تعلم أنك حين أغلقت وراءك الباب فَتَحَتْ عيوني أبوابَها للدموع التي غرقت في فيض عطفك وإحسانك؟ مددت يدي لأقبل يده التي حملت كوب العصير، عندها أدركت أن ما كنت فيه لم يكن حقيقة، بل طيف خيال جميل سرعان ما تلاشى وتبدد لأرى نفسي أمام قبره، هنا انهار في عيني سد مأرب، لم يتحمل طوفانَ المشاعر التي اجتاحتني من كل صوب، كنت أمسح الرمس وأنا أحدثه حديث المحب لحبيبه، لا يقطعه سوى عبارات حارقة وشهقات خانقة.

أبي.. شوقي إليك يحرقني وصمتك يقتلني، أيطيب لك أن تحزم أمتعتك وتمضي دون أن يملأ منك ابنُك عينَه التي حرمت منك سنوات القيد والسجان؟

ألم تطلب مني أن أحكي لك قصة غوانتانامو كاملة؟ فمالك أسرعت الرحيل إذن؟ ها أنا ذا بين يديك لأخبرك بكل ما حدث، سأرويها لك الآن وسأجعلها في كتاب يروي للجيل القادم قصة الشمعة التي أرادوا إخمادها فتحولت شمساً، هلم يا أبي وانظر، ها هي يدي قد كُسِرَ عنها القيد الذي أدماها أربعة عشر عاماً، هلم فلتنظر غداً كيف يُكْسَرُ القيد عن أمة رسفت في ذل العبودية دهراً.

تم الكتاب بفضل الله ونعمته
في يوم الإثنين ٨/صفر/١٤٤١
الموافق ٧/١٠/٢٠١٩